

الكتب التاريخية

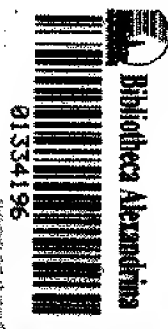
تاريخ المغرب العربي

٣

الفاطميون وبنو زيري الصنهاجيون
إلى قيام المرابطين

دكتور
سعد زغلول عبد الحميد

الناشر: دار الفكر
مطبعة دار الفكر
مطبعة دار الفكر



تاريخ المغرب العربي

الجزء الثالث

الفاطميون وبنو زيري الصنهاجيون
إلى قيام المرابطيين

تعداد غیلول عبد الحمید

الناشر **المكتبة** في الإسكندرية
جلال حزي وشركاه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ
"قرآن کریم ، سورۃ یوسف" ۱۱۱

تقديم

وبعد عشر سنوات أخرى وأكثر ، نقدم الجزء الثالث من كتابنا :
« تاريخ المغرب العربي ، الفاطميون وبنو زيري الصنهاجيون الى قيام
المرابطين » .

وهنا أود أن أشير الى المعاونة القيمة التي قدمها كل من قسم التاريخ
وكلية الآداب بجامعة الكويت في سبيل تيسير انجاز هذا العمل عن طريق
تذليل العقبات التي أعاقت لبعض الوقت قيام المؤلف بأجازه تفرغ علمي
خلال الفصل الدراسي الأول للعام الجامعي ٨٨ - ١٩٨٩ ، الأمر الذي هيا له
فرصة زيارة المكتبات الوطنية في كل من باريس والرباط وتونس - للسادة
المسؤولين عنهما والعاملين فيه كل تبجيل ، وأخص بالشكر الأستاذين
الفاضلين د/محمد بن شريفة ، مدير خزانة الرباط ، ود/إبراهيم شبوح ،
مدير دار الكتب التونسية لما قدماء لي من تسهيلات الاطلاع على ذخائر
داريهما العامرتين .

وبهذه المناسبة أحب أن أكرر ما سبق أن سجلته من الشكر في مقدمة
الجزء الأول من الطبعة السابقة لكل من عاونني في اخراج هذا الكتاب من
الأساتذة الأجلاء والزملاء الأفاضل والتلاميذ النجباء ، وأخص بالذكر :
الدكتورة نبيلة حسن ، والدكتور محمد عبد المال أحمد ، والدكتور محمد
عبد العزيز ، والأستاذ يوسف شكري . كما أوجه شكرا خاصا للزملاء
الأساتذة : د/بدر الدين الخصوصي ، ود/أحمد مختار العبادي ، ود/سعيد
عاشور على حشهم لي على مواصلة اخراج ما تبقى من أجزاءه . هذا ولا يفوتني
توجيه الامتنان الى الناشر السكندري الأستاذ جلال حزي .

والأمل أن يوفقنا الله في اخراج الجزء الرابع من الكتاب ، في تاريخ
المرابطين والموحدين ، عما قريب - انه نعم المولى ونعم النصير .

سعد زغلول عبد الحميد

الاسكندرية في ٢٥/٢/١٩٩٠

المستويات

المقدمة في :

المصادر : في تاريخ المغرب العربي ما بين الفاطميين والمرابطين
(٢٩٧ - ٤٦٨ هـ / ٩٠٩ - ١٠٧٤ م) ، ص ٧ .

ملاحظات عامة : اقتصاد الوثائق ، ص ٧ - ما بين الوثائق والأدب
التاريخي ، ص ٨ - الأدب التاريخي ما بين الندرة والكثرة - الكثرة ، ص
٩ - الروايات المتأخرة ، ص ١٠ - الخبر الأحادي ، ص ١١ - الروايات
المختلفة المناهج - مراحل الدراسة ، ص ١١ - المصادر الشيعية ، ص ١٢ .

دعائم الاسلام ، ص ١٣ - الولاية ، ص ١٤ - الجهاد ، ص ١٥ -
التأويل والعلم ، - توريث البنات وزواج المتعة ، ص ١٦ .

افتتاح الدعوة ، ص ١٧ - الشؤون الاجتماعية والمالية ، ص ١٨ -
تواريخ خاصة - تاريخ النسخ ، ص ١٩ .

المجالس والمسائرات - قضايا تاريخية ودينية وفقهية - سيرة المعز ،
ص ٢٠ - الأئمة - الدعوة ، ص ٢١ - تعاليم المذهب - الأحداث التاريخية ،
ص ٢٢ - معلومات وثائقية ، ص ٢٣ - أخبار المعز ، ص ٢٤ - تاريخ النسخ .

كتاب الهمة - سيرة جوفذر ، ص ٢٥

عيون الأخبار - المحتوى - الداعي ادريس ، ص ٢٦ - التوثيق -
الروايات الشيعية (الفلكلورية) ، ص ٢٧ - توثيق ثورة أبي يزيد - مقتل
ميسور - علم الحدائق - شجاعة المنصور ، ص ٢٨ - نهاية أبي يزيد -
الرسائل والخطب المنبرية ، ص ٢٩ .

من كتب الأباغمية : الدرجيني ، ص ٣٠ - التحقيق - الأخسد عن

أبي زكريا الوردجلاني ، ص ٢١ - أخبار أبي يزيد التكري - خلط الرواية
المنقبية بالحبر المعادي ، ص ٢٢ - تجريف الروايات - الحدثان والقصص
الشعبي ، ص ٣٣ .

المقتبس لابن حيان - العلاقات الأموية الفاطمية ، ص ٣٤ - الدعاية
والدعاية المضادة - موقف أمراء المغرب ، ص ٣٥ - فتح سبتة والدعاية
الأموية الأندلسية عن فتح المشرق ، ص ٣٦ - الوجه الحضاري لكل من
المغرب والأندلس ، ص ٣٧ .

البيان المغرب ، ص ٣٨ - وجهة النظر السنية ، ص ٣٩ - كشف
السياسة الفاطمية المغرضة - المألية - الثورة الكتامية ، ص ٤٠ - المن
ونهاية التشيع ، ص ٤١ .

البكري - مسرح الأحداث المرابطية ، ص ٤٢ - ثروات الصحراء -
جزولة ولطة ، ص ٤٣ - النقب - النشاط الاقتصادي والجهاد - الإصلاح
المرابطي ، ص ٤٤ - مراحل الحركة ، ص ٤٥ - الرباط - فقه ابن ياسين -
النظام الحربي ، ص ٤٦ - معلومات وثائقية ، ص ٤٧ .

العبر لابن خلدون - تقييم عام ، ص ٤٨ - مشروع د. شيوخ - مصدر
رئيسي لتاريخ الهلالية ، ص ٤٩ - التوثيق - هلالية برقة ، ص ٥٠ - طرق
الحكاية عند الهلالية - من قواعد النقد في الأدب الشعبي - تقييم القصة
الشعبية ، ص ٥١ .

ملاحظات منهجية - كثرة المعلومات - قلتها ، ص ٥٢ - تضاريا -
بعض النماذج ، ص ٥٣ - الرواية الأسطورية والمنقبية - الموضوعات -
الكرامة ، ص ٥٤ - الدروس المستفادة منها ، ص ٥٥ .

الفصل الأول

عميد الله المهدي ، أول الأئمة الخلفاء

شخصيته - صحة النسب - المهدي شابا ، ص ٥٧ - في سجلات -
صفاته الجنسية والعلامات ، ص ٥٨ - الصفات الموضوعية - الحدثان -
العقلانية - رباطة الجأش - علامات كونية رمزية ، ص ٥٩ .
السياسة الداخلية - تركيز السلطة بين يدي المهدي ، ص ٦٠ -

البداية في سجل حاسنة - كبار الأعوان . ص ٦١ - فتور العلاقة بين الامام والداعي . ص ٦٢ - حتمية تاريخية - دور المخطوم ، ص ٦٣ - الرأى في تغيير النظام ، ص ٦٤ - توزيع ادوار المؤامرة ، ص ٦٥ - التخلص من الداعي والمتآمرين ، ص ٦٦ - التخلص من أبى زاكى - التحرز من السكتامين ، ص ٦٧ .

موقف السكتامين من مقتل الداعي - سوء سمعتهم في القيروان ، ص ٦٨ - مذبحه السكتامين في القيروان ، ص ٦٩ - الثورة في بلاد كتامة ، ص ٧١ - المهديّة السكتاميّة ونجاحها ، ص ٧٠ - نهاية الثورة ، ص ٧١ .

ثورة شعبية على السكتامين في طرابلس - السبب ، ص ٧٢ - استخدام الأسطول - أبو القاسم يحاصر طرابلس ، ص ٧٣ - تضيق الحصار والتخلص من زعماء الثورة ، ص ٧٤ .

الأحوال الداخليّة - الاضطرابات في الأقاليم - انقلاب فاضل ضد المهدي سنة ٣٠٠ هـ - فتح برقة ٣٠١ هـ - محاولة غزو مصر ، ص ٧٥ - معاملة قاسية لأهل برقة ، ص ٧٦ - فشل والى مصر في استرجاع برقة ، ص ٧٧ - محاولة فتح مصر سنة ٣٠٢ هـ ، ص ٧٨ - خلاف القائد حباسة ومقتله مع أخيه عروبة والى تاهرت ، ص ٧٩ - عصيان أهل برقة الى سنة ٣٠٤ هـ وعقوبتهم ، ص ٨٠ - غزوة مصر الثانية - ثورة نقوسة بقيادة أبى بطة ، ص ٨١ - تاهرت والمغرب الأوسط ما بين الولاء والمصيان مع زناتة ، ص ٨٢ - هرب محمد بن خزر الى الصحراء - ثورة تاهرت ، ص ٨٣ - تاهرت مركز الدولة الفاطمية في المغرب - فتح نكور - تأريخ نكور ، ص ٨٤ - ولاية دلول على نكور ، ص ٨٦ - مد النفوذ الفاطمي الى مملكة الادارسة بفاس والمغرب الأقصى - الحملة الأولى ، ص ٨٧ - الحملة الثانية ، ص ٨٨ - القضاء على مملكة فاس الادريسية ، ص ٩٠ - محاولات اقرار الأمور في سجلماسة ، ص ٩١ .

المهديّة عاصمة جديدة - دواعى البناء ، ص ٩١ - اختيار المكان - رباط فاطمي جديد ، ص ٩٣ - البناء : المدينة الملكية ، ص ٩٥ - الأسوار - دار الصناعة - الميناء ، ص ٩٦ - القصر والجامع - مدينة العامة : زويلة ، ص ٩٧ - المهديّة مركزا للحكم ، ص ١٠٠ - حكم مركزى يعتمد على قاعدتي الترهيب والترغيب ، ص ١٠١ - الصراع ضد الزناتية في المغرب ، ص ١٠٢ - مقتل مصالة أمام محمد بن خزر ، ص ١٠٣ - اجلاء الادارسة عن

بلادهم : فاس ، ص ١٠٤ - محمد بن خزر في تاهرت ، ص ١٠٥ - خروج
أبي القاسم إلى المغرب ، ص ١٠٥ - مطاردة الزناتية ، ص ١٠٦ - نجساح
الحملة التاديبية ، ص ١٠٨ - العودة إلى المهدي و احتفال النصر مع بشائر
ثورة أبي يزيد ، ص ١٠٩ - تحصين تاهرت ، ص ١١٠ - التحالف بين
موسى بن أبي العافية والأمويين في الأندلس - دخول سبتة في طاعة الناصر ،
ص ١١٠ - الصراع ضد الأدارسة ، ص ١١٢ - الصراع ضد زناتة ، ص
١١٣ - اجتياح نكور والهيمنة على المغرب ، ص ١١٤ - فشل زد الفعيل
الفاطمي ، ص ١١٥ .

السياسة المالية على عهد المهدي ، ص ١١٦ - الحاجة إلى مزيد من
المال - الخمس ، ص ١١٧ - الغرامات والمصادرات ، ص ١١٨ - الخاتم ،
ص ١١٩ - التراتيب المالية ، ص ١٢١ - ديوان الكشف ، ص ١٢١ -
ضرائب مستحدثة - التضييع - الشطور (ضريبة الحجاج) ، ص ١٢٢ -
ديوان الدعوة ، ص ١٢٣ .

السياسة الدينية - ما بين الدين والمال - تساهل الداعي - ظاهر
علم الأئمة - تغييرات باسم السنة - اعتدال الداعي ، ص ١٢٥ - تشدد
المهدي - مذهب جعفر بن محمد ، ص ١٢٦ - غلاة المذهب ، ص ١٢٧ -
مسئولية الدعوة ، ص ١٢٩ - اختراق الآداب الإسلامية ، ص ١٢٩ - غلاة
الدعاة ، ص ١٣٠ - الكف عن طلب التشيع من العامة ، ص ١٣٢ - الجدل
بين السنة والشيعة ، ص ١٣٣ - تساهل الداعي ومرونته ، ص ١٣٤ -
الحياة الفكرية والثقافية - المذهب الفاطمي ، ص ١٣٥ - موضوع الامام
المعصوم ، ص ١٣٦ - بقاء العامة سنية بفضل علماء المالكية ، ص ١٣٧ -
ندرة علماء الشيعة ، ص ١٤٠ - ما بين أدب الدنيا والدين ، ص ١٤١ -
معارضة التشيع - تشدد المهدي والقاضي المروزي ، ص ١٤٢ - ما بين
التاريخ والحرافات والأساطير في سير العلماء ، ص ١٤٤ .

صقلية الفاطمية على عهد المهدي ، ص ١٤٥ - الحسين بن أبي خنزير
واليا ، ص ١٤٦ - ابن رهب والدعوة العباسية ، ص ١٤٧ - ابن قره ب
مجاهدا ، ص ١٤٨ - الاتصال بخلافة بغداد ، ص ١٤٩ - نهاية ابن قره ب ،
ص ١٥٠ - الضيف واليا بصقلية ، ص ١٥١ - ضرب مقاومة أهل صقلية
ودخول بلرم ، ص ١٥٢ - ولاية سالم بن راشد ، ص ١٥٣ - العلاقات مع
كلابريا وجنوب إيطاليا ، ص ١٥٣ - اجتياح ريوه ، ص ١٥٥ - حملات على

جنوب إيطاليا ، ص ١٥٦ - اجتياح أوريه ، ص ١٥٧ - حملات صابر
الفتى ، ص ١٥٨ - جباية الضرائب في صقلية ، ص ١٥٩ .

الفصل الثاني

الفاطميون في المغرب ، من وفاة المهدي حتى النقلة الى مصر

القائم - المنصور - المعز - تمهيد ، ص ١٦١ .

القائم - ولايته ، ص ١٦٢ - صفاته ، ص ١٦٣ .

الأحوال الداخلية - الكاتب والحاجب - ثورة طرابلس (ابن طالوت) ،
ص ١٦٥ - الصراع من أجل المغرب ، ص ١٦٦ - محاولة استرجاع فاس -
تأديب نكور والتحالف مع الأدارسة ضد موسى بن أبي العافية ، ص ١٦٧ -
القتال في الزاب وأوراس ، ص ١٦٨ - موسى بن أبي العافية - زجل
الأمويين في فاس - سجن ماسة الصغرية والمذهب المالكي ، ص ١٦٩ .

أبو يزيد والثورة الزناتية ، ص ١٧٠ - شخصيته وتكوينه - أبوعمار
الاعمى - الاحتساب ، ص ١٧١ - بداية الثورة في توزر - دار الهجرة في
أوراس ، ص ١٧٣ - مراحل الثورة ، ص ١٧٤ - فتح بلاد الزاب ، ص ١٧٥ -
الاستيلاء على الأقاليم البحرية الشمالية في باجة وتونس ، ص ١٧٦ -
دخول القيروان ، ص ١٧٧ - التحالف مع المالكية ، ص ١٧٨ - الهجوم على
منطقة الساحل وحصار المهدي ، ص ١٧٩ - الزحيل عن المهدي ، ص ١٨٣ -
نهاية الثورة على عهد المنصور ، ص ١٨٥ - معونة عبد الرحمن الناصر -
محمد بن خزر الزناتي يدخل في طاعة المنصور ، ص ١٨٦ - معركة قلعة
كيانة وأسر أبي يزيد ، ص ١٨٨ - أضداد الثورة (بعد مقتل بن أبي يزيد) ،
ص ١٨٩ - تهدة المغرب ، ص ١٩١ - حملة تاهرت ضد الزناتية أتباع
الناصر ، ص ١٩٢ - مسرور الحادم واليا لتاهرت - مرض المنصور - جولة
أثرية للمنصور في منطقة لواته ، ص ١٩٣ - الاحتفال بالنصر في القيروان ،
ص ١٩٤ .

خلافة المنصور الفاطمي - شخصيته - الفصاحة - الصفح - الضعف
الصحي ، ص ١٩٦ - الكفاية والتفاؤل ، ص ١٩٧ - الجرأة وحب العلم ،
ص ١٩٨ - جامع الأضداد ، ص ٢٠٠ .

السياسة الداخلية - كتمان توليته للعهد ، ص ٢٠٠ - اعلان خلافته ،

جنوب إيطاليا ، ص ١٥٦ - اجتياح اوريه ، ص ١٥٧ - حملات صابز
الفتى ، ص ١٥٨ - جباية الضرائب في صقلية ، ص ١٥٩ .

الفصل الثاني

الفاطميون في المغرب ، من وفاة المهدي حتى النقلة الى مصر

القائم - المنصور - المعز - تمهيد ، ص ١٦١ .

القائم - ولايته ، ص ١٦٢ - صفاته ، ص ١٦٣ .

الأحوال الداخلية - الكاتب والحاجب - ثورة طرابلس (ابن طالوت) ،
ص ١٦٥ - الصراع من أجل المغرب ، ص ١٦٦ - محاولة استرجاع فاس -
تأديب تكور والتحالف مع الأدارسة ضد موسى بن أبي العافية ، ص ١٦٧ -
القتال في الزاب وأوراس ، ص ١٦٨ - موسى بن أبي العافية - زجسل
الأمويين في فاس - سبلماسة الصفرية والمذهب المالكي ، ص ١٦٩ .

أبو يزيد والثورة الزناتية ، ص ١٧٠ - شخصيته وتكوينه - أبوعمار
الأمي - الاختساب ، ص ١٧١ - بداية الثورة في توزر - دار الهجرة في
أوراس ، ص ١٧٣ - مراحل الثورة ، ص ١٧٤ - فتح بلاد الزاب ، ص ١٧٥ -
الاستيلاء على الأقاليم البحرية الشمالية في باجة وتونس ، ص ١٧٦ -
دخول القيروان ، ص ١٧٧ - التحالف مع المالكية ، ص ١٧٨ - الهجوم على
منطقة الساحل وحصار المهدي ، ص ١٧٩ - الرحيل عن المهدي ، ص ١٨٣ -
نهاية الثورة على عهد المنصور ، ص ١٨٥ - معونة عبد الرحمن الناصر -
محمد بن خزر الزناتي يدخل في طاعة المنصور ، ص ١٨٦ - معركة قلعة
كيانة وأسر أبي يزيد ، ص ١٨٨ - أعداء الثورة (بعد مقتل بن أبي يزيد) ،
ص ١٨٩ - تهدة المغرب ، ص ١٩١ - حملة تاهرت ضد الزناتية أتباع
الناصر ، ص ١٩٢ - مسرور الخادم واليا لتاهرت - مرض المنصور - جولة
أثرية للمنصور في منطقة لواته ، ص ١٩٣ - الاحتفال بالنصر في القيروان ،
ص ١٩٤ .

خلافة المنصور الفاطمي - شخصيته - الفصاحة - الصنف - الضعف
الصحي ، ص ١٩٦ - الكفاية والتفاؤل ، ص ١٩٧ - الجراءة وحب العلم ،
ص ١٩٨ - جامع الأضداد ، ص ٢٠٠ .

السياسة الداخلية - كتمان توليته للعهد ، ص ٢٠٠ - إعلان خلافته ،

ص ٢٠١ - بناء المنصورية ، ص ٢٠١ - التخطيط ، ص ٢٠٢ - البقايا ،
ص ٢٠٣ .

أصول الحكم عند المنصور - المهادنة والوفاء - مغزى بناء المنصورية -
الكرم والتواضع ، ص ٢٠٤ - إقامة العدل ، ص ٢٠٥ - إعادة الثقة مع
الكتاميين ، ص ٢٠٦ - إعادة الحجر الأسود ، ص ٢٠٨ .

الصراع في المغرب ، ص ٢٠٨ - برغواطة والزندقة ، ص ٢٠٩ -
غمارة وادعاء النبوة ، ص ٢١٠ ، ٢١١ - فاس ما بين مكناسة والأدارسة .
ص ٢١٢ - بنو محمد الأدارسة - (محمد كنون) - أبو العيش بن كنون ،
ص ٢١٣ - الصراع بين أتباع الناصر ، ص ٢١٤ - غلبة الناصر على المغرب
ما عدا سجلماسة ، ص ٢١٥ - اجتياح تاهرت باسم الناصر ، ص ٢١٦ -
سجلماسة : محمد بن الفتح والدعوة العباسية ، ص ٢١٧ - نهاية المنصور .
ص ٢١٨ .

المعز لدين الله - ولايته - شخصيته ، ص ٢٢٠ - الصلح والحزم ،
ص ٢٢١ - البساطة وحب العمل ، ص ٢٢٣ - الزهد - برنامج العمل
اليومي ، ص ٢٢٤ .

سياسة المعز المغربية ، ما بين الاقدام والتربص ، ص ٢٢٤ - الصراع
مع الأمويين في المغرب - نفوذ الناصر في أرشيقول وتامسنا ، ص ٢٢٥ -
خضوع الأدارسة في طنجة والعدوة (المغربية) ، ص ٢٢٦ - هيمنة الناصر
على سبتة وتطوان ، ص ٢٢٧ - سجلماسة تدخل الدعوة العباسية - الصراع
البحري ضد الأمويين ، ص ٢٢٨ - الصدام البحري قرب صقلية وفي سواحل
الأندلس والمغرب ، ص ٢٢٩ - حملة معزية تجتاح المغرب (حملة جوهر)
(٩٥٨/٣٤٧) - تاهرت (يعلى بن محمد) ، ص ٢٣١ - سجلماسة (أحمد
ابن بكر) ، ص ٢٣٢ - فاس ، ص ٢٣٣ - سبتة وتطوان وطنجة ، ص ٢٣٤ -
سقوط فاس على يد زيري أئصنهاجي ، ص ٢٣٥ - محمّد بن خزر في
الطاعة الفاطمية ، ص ٢٣٦ .

السنوات الأخيرة للعصر الفاطمي في المغرب - سياسة مزدوجة : تأكيد
الوجود والعمل على الرجيل ، ص ٢٣٦ - سياسة مناهضة لصاحبى فاس
وسجلماسة ، ص ٢٣٧ - رد الفعل الأموى فى الأندلس - كفاح من أجل
الهيمنة على العدوة وتامسنا ، ص ٢٣٩ - كريت : سقوطها بين يدي نفقور

فوكاسي ، ص ٢٤٠ - تهديد الامبراطور الرومي - محاولة اجتذاب الأخشيدي
في مصر ، ص ٢٤١ .

هل تحققت الأمانى : الاحتفالات الفاطمية الشعبية الكبرى - احتفالات
الختان ، ص ٢٤٢ - المركز قصر البحر ، ص ٢٤٣ - الأعداد - أيام أعياد
ومسرات ، ص ٢٤٤ .

السياسة الدينية - التمسك بشعائر المذهب ، ص ٢٤٥ - احياء
التلاعن مع الأمويين ، ص ٢٤٦ - اللقب الحلافى من أسباب الوحشة -
المراسلات ، ص ٢٤٧ - فى الحرية المذهبية والحج ، ص ٢٤٨ .

احوال المغرب ما بين فتح جوهر ، لمصر ونقله المعز اليها ، ص ٢٤٩ -
الأعمال التمهيدية - جولة مبدئية فى بلاد كتامة ، ص ٢٥٠ - المسير من
الحضرة ، ص ٢٥١ - عودة المعز الى قصره - مسير الأسطول ، ص ٢٥٢ -
اضطراب زناتة بقيادة محمد بن الخير ، ص ٢٥٣ - ثورة محمد بن الخير
الزناتى - مقتل زيرى بن مناد ، ص ٢٥٤ - ثار بلكين من محمد بن الخير ،
ص ٢٥٥ .

احوال صقلية من عهد القائم الى انتقال المعز الى القاهرة - غارة على
جنوة ، ص ٢٥٦ - استمرار ولاية سسالم بن راشد ، ص ٢٥٧ - ثورة
الصقايين فى بلرم ، ص ٢٥٨ - حملة خليسيل بن اسحق ما بين المواقف
الشجعنية والأعمال الثائرة ، ص ٢٥٩ - ثارات متبادلة ، من تشديد الحصر
والاقتصال بالقسطنطينية والهجرة الى بلد الروم ، ص ٢٦٠ - نهاية مهمة
خليل بن اسحاق ، ص ٢٦٢ - ولاية ابن عطف ، ص ٢٦٣ - ولاية حسن
ابن أبى الحسين الكلبي ، ص ٢٦٤ - ردع بنى الطبرى فى بلرم ، ص ٢٦٥ -
الصراع ضد الروم ، ص ٢٦٦ - قائد كلابريا يستعين بامبراطور الروم ،
ص ٢٦٧ - الحسن يفرض الهدنة على الروم ، ص ٢٦٨ .

صقلية على عهد المعز حتى نقلته الى مصر ، ص ٢٦٨ - حملات أحمد بن
الحسين فى ايطاليا ، ص ٢٦٩ - نشر المذهب الفاطمى فى صقلية ، ص ٢٧٠ -
الاستيلاء على قلعة طيرمين ، ص ٢٧١ - فتح رمطة : انتصارات لامعة على
الروم ، ص ٢٧٢ - وقعة المجاز (مسينا) البحرية ، ص ٢٧٤ - محاولة
اغواء بنى الحسن الكلبيين من حكم صقلية ، ص ٢٧٥ - اقرار بنى الحسن
الكلبيين من جديد فى ولاية صقلية ، ص ٢٧٦ .

أحوال الأقاليم الشرقية في كل من طرابلس وبرقة قبل رحيل المعز إلى مصر - تمهيد ، ص ٢٧٧ - طرابلس قاعدة للأسطول ، ص ٢٧٨ - برقة حاضرة مزدهرة ، ص ٢٧٨ - الرحيل إلى مصر - الأعداد للموكب الخلفي ، ص ٢٧٩ - ترتيب شئون الحكم في المغرب وصقلية - أفريقية ، ص ٢٨٠ - طرابلس - صقلية ، ص ٢٨١ - الرحلة إلى مصر - أصول الحكم في أفريقية وآخر وصايا المعز ، ص ٢٨٢ - وفاة محمد بن هانيء في برقة ، ص ٢٨٤ .

الفصل الثالث

العصر الصنهاجي الأول في بلاد المغرب الزيريون خلفاء الفاطميين في أفريقيا

تمهيد : عهد جديد ، ص ٢٨٥ - تشابه دورات التساريخ الأندلسي والمغربى - القطيعة في المغرب ، ص ٢٨٦ - أهمية الهجرة الهلالية - عروبة الدولة الصنهاجية - حيز محدود للشئون الدينية ، ص ٢٨٧ - المقابلة مع دولة الملتحمين من لمتونة ومسوفة - أثر الحضارة العربية الأندلسية ، ص ٢٨٨ - عصر السيادة البربرية ، ص ٢٨٩ .

صنهاجة أفريقية : المواطن والقبائل ، ص ٢٨٩ - بلاد صنهاجة ، ص ٢٩٠ - قبائل صنهاجة ، ص ٢٩١ - بتو مناد ، ص ٢٩٢ .

الأسرة الزيرية - بلكين بن زيري ملكا مؤصلا ، ص ٢٩٢ - منساد ، ص ٢٩٣ - زيري ، ص ٢٩٤ - بناء أشير ٣٢٤ هـ / ٥ - ٩٣٦ م ، ص ٢٩٥ - ازدهار أشير ، ص ٢٩٦ - زيري بن مناد والصراع ضد زناتة ، ص ٢٩٧ - حرب موسى بن أبي العافية - جهاد برغواطة ، ص ٢٩٨ - نجدة القائم ضد أبي يزيد - هجوم الزناتية وتهديد أشير ، ص ٢٩٩ - مقتل زيري ، ص ٣٠٠ .

السياسة الداخلية في حكومة القيروان من بلكين إلى المعز بن باديس - أفريقية الزيرية نيابة فاطمية - توزيع الاختصاصات بين الأمير والعمال ، والعلاقة مع الخلفاء بالقاهرة - الإدارة المالية ، ص ٣٠١ - الصراع مع عامل الخلافة (ابن القديم) - عبد الله بن محمد الكاتب ، ص ٣٠٣ - أسداء التخلص من ابن القديم : إثارة كرامة ، ص ٣٠٤ - ثورة خلف بن خير ، ص ٣٠٥ - تحسن العلاقة مع الخلافة واستعادة ولاية طرابلس ، ص ٣٠٦ - أخوة بلكين يجأون إلى القاهرة ، ص ٣٠٧ - عبد الله الكاتب يؤلف حرسا

أسود ، ص ٣٠٨ - المنصور يحاول التخلص من عبد الله الكاتب ، ص ٣٠٨ - المنصور يعلن انه ليس ممن يولى بكتاب ويعزل بكتاب ، ص ٣٠٩ - المنصور يصطحب عبد الله الكاتب الى أشبشير ، ص ٣١٠ - الكتاب يساعد الداعي أبى الفهم - عبد الله الكاتب داعيا للدعاة ، ص ٣١١ - التخلص من عبد الله ابن محمد الكاتب ، ص ٣١٢ - ردود الفعل : العسكر الأميرى ينهب ضواحي القبروات ، ص ٣١٣ - توتر العلاقة مع الخلافة وثورة كتامة تحت قيادة أبى الفهم ، ص ٣١٤ - ترهيب سفيري القاهرة ، ص ٣١٥ - رد لين للخلافة - تبادل الهدايا مع الخلافة ، ص ٣١٦ - الشريف الباهرى يأخذ البيعة على باديس المنصور وصنهاجة ، ص ٣١٦ - الخلافة تحاول استرجاع طرابلس ، ص ٣١٨ - أبو ركوة والثورة الزناتية فى برقة ، ص ٣١٩ - فلغل بن سعيد الزناتى فى طاعة القاهرة - أبناء محمد بن أبى العرب يلجأون الى فلغل الزناتى - أبناء ينال التركى فى طرابلس على علاقة حسنة مع فلغل ، ص ٣٢٠ - وروا أخو فلغل زعيمًا للزناتية فى نفزاوة ، ص ٣٢١ - علاقات حسنة بين الحاكم وباديس - تبادل الهدايا - علاقة عرب بنى قرة فى برقة بالقاهرة ، ص ٣٢٢ - سجل بولاية العهد للمنصور بن باديس ، ص ٣٢٣ - سوء العلاقة مع حماد بن بلكين ، ص ٣٢٤ .

مبادئ الحكم فى العمالة الافريقية وتطبيقاتها العملية - اقرار الأمن .
 ص ٣٢٥ - تلخيص البروامج السياسى الذى رسمه المعز لثائبه بلكين ، ص ٣٢٦ - اقرار الأمن فى افريقية وأعمالها : باغاية وتاهرت ، ص ٣٢٧ - اضطراب رجال الأسطول ، ص ٣٢٨ .

عهد المنصور - اقرار السلطان الأميرى بالقبروات : محاولة اقضاء
 الكاتب ، ص ٣٣٠ - فى كتامة : ثورة أبى الفهم ، ص ٣٣١ - الانتقام من هيلة ، ص ٣٣٢ - تأديب كتامة والمثلة بالثائر ، ص ٣٣٣ - رد الفعل فى كتامة - ثورة أبى نوح ، ص ٣٣٤ - طاعة سعيد بن خزرون الزناتى والعهد له بطبنة - عامل افريقية تابعًا للأمير ، ص ٣٣٥ - باديس ما بين خلافة الحاكم فى مصر وولاية عمه حماد فى أشبشير ، ص ٣٣٦ - سمات الدولة الزيرية أيام باديس ، ما بين الامارة وعمالة الحراج ، ص ٣٣٧ - انتفاضة كتامية - الأمر بالمعروف - نهاية باديس فى حصار عمه حماد بالقلعة ، ص ٣٣٩ .

الصراع ضد الزناتية - التمهيد ، ص ٣٤٠ - الزناتية فيما بين باغاية وتلمسان ، ص ٣٤١ - الزناتية ينهون الأسيرة المتردية فى سجنابسة ،

ص ٣٤٢ - حملة بالكنين الأخيرة في المغرب الأقصى : ما بين فاس وسجلماسة
 وسبتة ، ص ٣٤٣ - حرب برغواطة ومحاولة القضاء على زندقتهم ، ص
 ٣٤٤ - الخلافة تطلب ألف فارس ، منهم أبناء زيرى - نهاية بالكنين واسترجاع
 الزناتية فاس وسجلماسة ، ص ٣٤٥ - زيرى بن عطية يدافع عن فاس أمام
 يطوفت ، ص ٣٤٦ - الفشل في مواجهة زناتة - طينة ولاية زناتية بالوراثة ،
 ص ٣٤٧ - هزيمة فاحشة لقوات صنهاجة أمام زيرى بن عطية - أمير فاس
 أول عهد باديس ، ص ٣٤٩ - باديس يقود الصراع ضد الزناتية في قلب
 أفريقية والمغرب ، ص ٣٥١ - باديس يحقق انتصارا كبيرا على فلغل بن
 سعيد الزناتى ، ص ٣٥٢ - تحالف أبناء زيرى مع فلغل الزناتى الذى لجأ
 الى طرابلس ، ص ٣٥٣ - أسيرة زناتية بمدينة طرابلس - فلغل بن سعيد
 أميرا ، ص ٣٥٤ - محاولة التمدد فى أفريقية ونفزاوة ، ص ٣٥٥ .

الانقسامات فى الأسرة الزيرية - تمهيد ، ص ٣٥٧ - الانشقاق الأول ،
 ص ٣٥٨ - أولاد زيرى بن مناد والعلاقات مع الأندلس - على عهد المنصور .
 ص ٣٥٩ - فى جليقية ، ص ٣٦٠ - عصيان أبى البهارين زيرى ، ص ٣٦١ ،
 التحالف مع زيرى بن عطية (القرطاس) ، ص ٣٦٢ - الخلاف بين أولاد
 زيرى وباديس ، ص ٣٦٤ - مقتل ماكسن بن زيرى وبنيه ، ص ٣٦٦ -
 زوى (ابن زيرى) فى الأندلس من جديد ، ص ٣٦٧ - الصراع بين باديس
 وعمه حماد ، ص ٣٦٨ .

السياسة المالية والأحوال الاقتصادية - تمهيد ، ص ٣٦٩ - الإدارة
 المالية تابعة للخلافة - العامل يجمع تبرعات للخلافة ، ص ٣٧٠ - زيادة
 الخزان ، ص ٣٧١ - امتحان أولى لعبد الله الكاتب ، ص ٣٧٢ - الهندايا
 للأمير - صعوبة موقف العامل بين الخليفة والأمير ، ص ٣٧٣ - العامل
 يوسف بن أبى محمد : أسلوب خاص للجباية ، ص ٣٧٤ - الموقف الضرائبى
 فى بلاد كتامة ، ص ٣٧٥ - محنة البونى مساعد عامل الخراج ، ص ٣٧٦ -
 نفقات البلاط وروافد بيت المال من الغرامات ، ص ٣٧٧ .

الفصل الرابع المعز بن باديس

سمات العهد ، ص ٣٧٩ - المعز قاصرا تحت وصاية العمة أم ملال ،
 ص ٣٨٠ .

الأحوال الداخلية - اضطراب العامة بالقروان ، ص ٣٨١ - مناهضة

التشيع والعودة الى السنة - تمهيد ، ص ٣٨٢ - مسئولية الأمير طغلا
قاصرا - أول اهتمام بالأمور الدينية - ص ٣٨٤ - مسئولية تبلور الاتجاه
السني - ص ٣٨٥ - مهاجمة حى الشيعة فى درب المعلى فى يوم عاشوراء -
وفى المهديّة ، ص ٣٨٦ - موقف ترقب فى القاهرة - محاولة الهجرة الى
صقلية ، ص ٣٨٧ - التقية ، ص ٣٨٨ .

حسم العلاقات ما بين الخلافة بالقاهرة والنيابة بالقيروان ، ص ٣٨٨ -
اختلاف الروايات ، ص ٣٨٩ - الاتصال ببغداد والعصيان المدني بالقيروان ،
ص ٣٩٠ - لعن الفاطميين - احراق البنود وتبديل السكة - الخطبة لخليفة
بغداد سنة ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م ، ص ٣٩١ - مسئولية المعز شابا راشدا -
محاولات تقويم العلاقات بين القاهرة والأمير الزيرى ، ص ٣٩٢ - المرحلة
الثالثة والآخرى للقطيعة سنة ٤٤٣ هـ / ١٠٥١ م ، ص ٣٩٣ .

اقرار الأذن ومواجهة الفتن الداخلية - النزاعات العرقية من زناينة
وغيرها ، ص ٣٩٤ - مهاجمة دواب المعز فى قابس ، ص ٣٩٥ - الهجوم على
المنصورية ، ص ٣٩٦ - اضطراب طائفة من صنهاجة ، ص ٣٩٧ - الاضطرابات
الاقليمية ، ص ٣٩٨ - ما بين الدعوة للفاطميين والأمر بالمعروف ، ص ٣٩٩
- طرد واعظ الى القاهرة ، ص ٤٠٠ .

ما بين الأمير والوزير ورجال الدولة - تكوين أسرة أميرية - زواج
المعز بن باديس ، ص ٤٠١ - ممارسة السلطات المطلقة - نكبة الوزير قائد
الجيش أبى عبد الله محمد بن الحسن ، ص ٤٠٢ - اتهامه بالخيانة فى الأموال -
عصيان عبد الله بن محمد (أخى الوزير) فى طرابلس ، ص ٤٠٣ - أبو القاسم
ابن محمد بن أبى العرب وزيراً - أبو البهار بن خلوف وزيراً - سياسة
حازمة تجمل من أبى البهار مركز قوة يخشى أمرها ، ص ٤٠٤ - امتحانات
العمال ، ص ٤٠٥ .

الأمير وفراد الأسرة الحاكمة - تهديد ، ص ٤٠٥ - الصراع ضد حماد
ابن بلكين ، ص ٤٠٦ - المعز ينزل الهزيمة بحماد (٤٠٨ هـ / ١٠١٧ م) ،
ص ٤٠٧ - حماد يطلب الصلح ويقدم ابنه القائد رهينة - القائد واليا ،
ص ٤٠٨ - قيام النزاع بين الأسرتين ، واعتبار سنة ٤٣٢ هـ / ١٠٤٠ م سنة
الفصل بين الدولتين البلكينيتين ، ص ٤٠٩ .

الاقتصاد والمال والحضارة على عهد المعز بن باديس - تمهيد ، ص

٤١٠ - الاحتفالات الشعبية والمواكب الأميرية ، ص ٤١١ - دخل ١
الثروة الزراعية ، ص ٤١٣ - الثروات المعدنية - المكايل والمو
السكة ، ص ٤١٤ - الكوارث الطبيعية ، ص ٤١٥ - أشهر الأعمال ١١
- احتفال ولاية العهد للأمير تميم ، ص ٤١٦ .

العرب الهلالية في أفريقية والمغرب - الهجرة - تمهيد ، ص
التعريف بالهلالية - التغريبة الهلالية ما بين الحقيقة والخيال ، ص
مواطنهم بالصعيد - تهجيرهم ما بين الجرجرائي واليازوري ، ص
اليازوري يشير على المستنصر الفاطمي باصطناع العرب والعهد لهم
أفريقية ، ص ٤٢٠ - نجاح الرحلة الى برقة وتقاطر المهاجرين من ال
ص ٤٢٢ - تقسيم البلاد بين بنى سليم فى الشرق وبنى هلال فى ال
مؤنس بن يحيى الرياحى أول الرواد ، ص ٤٢٣ - عرب برقة حلقا
ضد المستنصر ، ص ٤٢٤ - المعز بين اللامبالاة بالعرب ومحاولة ادخا
خدمته ، ص ٤٢٥ - حصار القيروان بين الأسطورة والتاريخ ، ص
مفدمات الصراع : تقييم الموقف ، ص ٤٢٦ - ما بين القوتين المتصار
مبالغات ابن رشيق وابن شرف وموقفهما من محنة القيروان ، ص ٤
المنافشات الأولية والحشد للمعركة ، ص ٤٢٨ - المناوشات الأولية
٤٢٩ - معركة يوم العيون ، ص ٤٣٠ - معركة عيد الأضحى ، ص
بناء سور القيروان وصبرة - يوم حيدران والمعركة الحاسمة ، ص ٣
حصار القيروان والجراءات التحفظية - انتفاضة العامة بالقيروان
٤٣٤ - الاطاحة بالقيروان ، ص ٤٣٦ - النقلة الى المهديّة ، ص ٤٣٦ -
القيروان وسيادة البدو من بربر وعرب على المنطقة ، ص ٤٣٧ - تباشير
الطوائف - وفاة المعز ، ص ٤٣٩ .

الفصل الخامس

خريطة أفريقية وبلاد المغرب حوالى منتصف القرن الـ ٥ هـ / ١١
ملوك الطوائف فى أفريقية - دولة المهديّة الزييرية وعلاقتها بالدولة الحمد
ص ٤٤١ - الموقف من الهلالية ، ص ٤٤٣ - طوائف أفريقية ما بين
والبربر البادية - طرابلس مملكة زناتة - فلقول بن سعيد وأخوه و
ص ٤٤٤ - خليفة بن وروا ، ص ٤٤٧ - المنتصر بن وروا ، ص ٨
الطوائف فى مدن الساحل ، ص ٤٤٩ - الصراع مع صاحب صفاقس
٤٥٠ - سوسة - القيروان وتونس - الحرب بين الناصر بن علناسى ،
ابن المعز وأتباعها من العرب ٤٥٧ هـ / ١٠٦٥ ، ص ٤٥١ - معركة صبيح

ص ٤٥٤ - نتائج معركة سبيبة : تطويق القلعة ، ص ٤٥٥ - بناء مدينة بجاية ، ص ٤٥٦ - التخطيط والبناء ، ص ٤٥٨ - التطور - تميم بن المعز والصراع مع المتغلبين في أفريقية ، ص ٤٥٩ - في القيروان وتونس ، ص ٤٦٠ - غارة ثارية للناصر بن علناس بأفريقية ، ص ٤٦١ - شريط الأحداث الصغيرة في أفريقية والمغرب الأوسط - ما بين الصنهاجيين والهلالية - خروج زغبة من أفريقية على أيدي رياح ، ص ٤٦٢ - الصلح بين تميم بن المعز والناصر بن علناس - استمرار الصراع مع المتغلبين على المدن الساحلية ، ص ٤٦٣ - أساطيل جنوة وبيزا تهاجم المهدية وزويلة سنة ١٠٨٨/٤٨٠ - الأسباب ، ص ٤٦٤ - الحملة ، ص ٤٦٦ - التجمع في جزيرة قوصرة ، ص ٤٦٧ - موقف المهدية واقتحام زويلة ، ص ٤٦٨ - الصلح ، ص ٤٦٩ - عودة الصراعات الداخلية مع المتغلبين والعرب ، ص ٤٧٠ - قنوم بشائر من ترك المشرق الى أفريقية - شاهملك في طرابلس ، ص ٤٧١ - الترك في خدمة تميم والقدر بولى العهد يحيى ، ص ٤٧٢ - حصار صفاقس - خروج المثنى بن تميم الى قابس وشغبه على والده وأخيه بالمهدية ، ص ٤٧٣ - استرداد قابس ١٠٩٧/٤٨٩ ، ص ٤٧٤ - العقد الأخير من حكم تميم ، ص ٤٧٦ - فتح صفاقس ١١٠٠/٤٩٣ - السنوات الأخيرة من عهد تميم ، ص ٤٧٦ .

صقلية وجنوب إيطاليا في العصر الزيرى - أبو القاسم على بن الحسين
ابن أبى الحسين أميراً - جهاد الروم في مسينا وكلابريا ، ص ٤٧٨ - جماعات المجاهدين « المرتزقة » في جنوب إيطاليا - الاستيلاء على قلعة أغاثة واجتياح طارنت ، ص ٤٧٩ - استشهاد أبى القاسم أمام أوتو الثانى وولاية ابنه جابر ، ص ٤٨٠ - معالم بلرم على عهد أبى القاسم ، ص ٤٨١ - جابر بن أبى القاسم أميراً - أمراء عابرون يحيون العاقبة ، ص ٤٨٣ - ثقة الدولة يوسف بن عبد الله : حكم قواعده العدل والجهاد والجود ، ص ٤٨٤ - جعفر ابن يوسف أميراً ، وبداية التفكك في الأسرة الكلبيه ، ص ٤٨٥ - ثورة على ابن يوسف واستبداد جعفر - سياسة مالية متشددة تفجر الثورة ضد جعفر ، ص ٤٨٦ - أحمد الأكلحل بن يوسف واليسا لصقلية في منعطف حاسم ، ص ٤٨٧ - محاولة للمساعدة من المهدية لا يقدر لها النجاح - نجاحات مبشرة في الصراع البحرى ضد الروم ، ص ٤٨٨ - الأكلحل وسياسة : « فرق تسد » ، ص ٤٨٩ - تدخل المعز فى شئون صقلية - الحسن صمصام الدولة - حكم الطوائف فى صقلية وبداية النهاية للعصر الاسلامى - التحالف العائلى بين ابن الثمينة صاحب سرقوسة وابن الحواس

صاحب قصريانة ، ص ٤٩١ - الصراع بين ابن الثمينة وابن الحواس ،
والتدخل النورمندی في الجزيرة ، ص ٤٩٢ - فشل التدخل الزيري في
صقلية وضمياخ الجزيرة ، ص ٤٩٣ .

بلاد المغرب في منتصف القرن الـ ٥ هـ / ١١ م - الحساديون همزة
الوصل ما بين أفريقية والمغرب ، ص ٤٩٦ - تاهرت وتلمسان ما بين أفريقية
والمغرب ، ص ٤٩٧ - غلبة زيري بن عطية على فاس - بناء وجدة ، ص
٤٩٨ - بنو يعلى الزناتية في تلمسان وملحمة أبي سعدي والهلالية - غارة
حمادية على فاس ، ص ٤٩٩ - بنو موسى بن أبي العافية في فاس ، ص
٥٠٠ - بنو خزر المغراويون وغلبة صاحب سلا : أبي الكمال تميم اليفرنی
على فاس ، ص ٥٠٢ - دونالد بن حماسة محضر فاس ، ص ٥٠٣ - المغراويون
الأواخر في فاس : صراع الاخوة بين الفتنوح وعجيسة ، ص ٥٠٤ - إمارة
سجلماسة الزناتية ، ص ٥٠٥ - سبتة وطنجة : مجاز العدو الأندلسية ،
منطقة نفوذ بني حمود الأدارسة ، ص ٥٠٦ - خلافة علي بن حمود بقرطبة -
الحموديون بمالقصة والمرية ومليلة ، ص ٥٠٧ - الحسن بن علي المستنصر
بسبتة - تغلب الحاجب سكوت بسبتة ، ص ٥٠٨ - اغمات في سفوح جبال
المصامدة (درن) وأمرؤها المغراويون - أهمية اغمات على طرق التجارة .
ص ٥٠٩ - لقوط بن يوسف آخر أمراء اغمات المغراويين ، ص ١١٥ .

الصحراء الواعدة في المغرب الأقصى على تخوم السودان - المرابطون
وارهاصات الوحدة - امكانات الصحراء ، ص ٥١١ - صسناهجة الصحراء
ومواطنهم ، ص ٥١٢ - ثروات الصحراء الميسدنية ، ص ٥١٣ - الثروة
الزراعية ، ص ٥١٥ - الثروة الحيوانية ، ص ٥١٦ - صناعات الوحدة : رعاة
الابل ، الجمالون الكبار ، ص ٥١٧ - البساطة والقوة سمة النقاء والرجولة .
ص ٥١٨ .

- المصادر ، ص ٥١٩

- الفهرس التحليلي .

الأشكال والخرائط

الصفحة	
٩٧	شكل ١ - المهدية
١٥٥	شكل ٢ - صقلية
١٨٠	شكل ٣ - أفريقية
٢٠٩	شكل ٤ - المغرب الأقصى
٢٩٠	شكل ٥ - بلاد القبائل : كنامة وصنهاجة
٣٩٦	شكل ٦ - موقع أشير
٣٥٠	شكل ٧ - إقليم تاهرت
٤٥٥	شكل ٨ - الأسرة الزناتية بطرابلس (شجرة النسب)
٤٥٧	شكل ٩ - الطريق ما بين القلعة وبجاية
٥١٤	شكل ١٠ - صحراوات الملثمين

تاريخ المغرب العربي
الفاطيون وبنو زيري الصنهاجيون الى قيام المرابطين
الجزء الثالث

- المقدمة : في تاريخ المغرب العربي ما بين الفاطميين والمرابطين .
- الفصل الأول : عبيد الله المهدي ، أول الأئمة الخلفاء .
- الفصل الثاني : الفاطميون في المغرب ، من وفاة المهدي حتى النقلة الى مصر .
- الفصل الثالث : العصر الصنهاجي الأول في بلاد المغرب - الزيريون خلفاء الفاطميين في أفريقيا .
- الفصل الرابع : المعز بن باديس .
- الفصل الخامس : خريطة أفريقية وبلاد المغرب حوالي منتصف القرن
الـ ٥ هـ / ١١ م .

المقدمة

في المصادر

المصادر :

في تاريخ المغرب العربي ما بين الفاطميين والمرابطين

(٢٩٧ - ٤٦٨ هـ / ٩٠٩ - ١٠٧٤ م)

ملاحظات عامة :

افتقاد الوثائق :

آفة البحث في التاريخ الاسلامي بشكل عام ، وبضمنه تاريخ المغرب ، تتمثل في افتقاد الوثائق أو الأوراق الرسمية اللازمة للبحث مع ندرة النقوش والنقود (١) ه الأمر الذي يجعل اعتماد الدارسين على مصيادر

(١) وهنا لا بأس من الإشارة الى جهود الباحثين في الفاء الفسوف على الوثائق ، ما كان منها أصيلاً ، وما سجلت بصورته في كتب المؤرخين ، فغنياً يتعلق بتاريخ الفاطميين تذكر : الوثائق الفاطمية المجموعة من موسوعة صبح الأعشى للقلقشندي ، بمعرفة جمال الدين الفيضال ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، والسجلات المستنصرية : سجلات وتوقيعات وكتب لمولانا الامام المستنصر بالله .. الى دعاء الدين ، تحقيق عبد المنعم ماجد ، ومخطوطات ووثائق دير سانت كاترين ، مستخرج من المجلد الخامس من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ، ١٩٥٩ . وعن المرابطين والموحدين : رسائل مرابطية ، تحقيق حسين مؤنس ، مجلة المعهد المصري بمدريد ، ١٩٥٤ ، ومجموعة رسائل مرحدية من انشاء كتاب الدولة المزمينة ، تحقيق ليلى بروفنسال ، الرباط ، ١٩٤١ .

والوثائق العربية ، نشر اماري (Amari, Diplomi Arabi) ، ووثائق ماس لا ترى بالفرنسية ، تحت عنوان : معاهدات سلام وتجارة ، ووثائق متنوعة خاصة بالعلاقات بين المسيحيين وعرب شمال إفريقيا ، باريس ، ١٨٦٦ . وفي النقوش تذكر أعمال ماكس فان برشم (Max van Berchem) عن مصر ، وبعبها أعمال فيت (Wiet) . وعن المغرب هناك أعمال جورج مارسيه : مجموعة النقوش العربية.

الدرجة الثانية ، مما يتمثل في الأدب التاريخي ، الذي كثيرا ما يتراوح بين تهافت الأمزجة الشخصية والانجذبات العصبية والميول الدينية والاهواء السياسية ، الى غير ذلك مما يؤدي الى الاقتراب أو التبعد ، قليلا أو كثيرا من الحقيقة التاريخية ، التي عادة ما تكون في حالة من الاتزان بين كل هذه الاتجاهات ، انهم الا اذا اضطرب ذلك التوازن ، وأدى الى الانحراف في مسار الأحداث مما يقع في حالات الانقلاب أو الثورة ، حيث تتسارع الأحداث في مساراتها بشكل يميز ايقاعها السريع عن الايقاع الرتيب ، مما هو معتاد في حالات الاتزان والاستقرار .

والأمر لا يقف عند ذلك التمييز بين الوثائق التي يفترض فيها الصحة بصفتها الرسمية وبين الأدب التاريخي الذي قد يفقد تلك الصفة الشرعية . تبعا لظروف أصحابه وموقفهم من الأحداث التي يسجلونها ، سواء كانوا مؤرخين أو غير مؤرخين ، معاصرين أو متأخرين ، متعاطفين مع تلك الأحداث . كما وقعت ، أو معادين لها لسبب أو لآخر - فقصده يمكن أن تفقد الوثائق هي الأخرى ميزتها القانونية التي تحقق لها التفوق على الأدب التاريخي عندما يكون الهدف من إصدار الوثائق دعائيا أو عندما تكون الوثائق ناقصة تعرض ما يرغب أصحابها في عرضه ، وتسقط ما لا يرغب فيه (٢) ، وهو

بتونس ، ١٩٥٥ . وعن الأندلس هناك نقوش لبني برنسال .

Inscriptions arabes d, Espagne, Leyde, 1931.

وفيما يتعلق بالنقود نشير الى أعمال س. لين بول (S.Lane-Poole) وتزود عبد الرحمن

فهمي ، وكتالوجات المتاحف العامة والمجموعات الخاصة .

(٢) وهنا نشير الى ما أصدرته الخلافة العباسية باسم الخليفة المكتفي من رسائل تستند الأمير الأغلبى زيادة الله الأخير ضد أبي عبد الله الشيعي ، والتي اتهمت الداعي بالكفر وتبديد الدين وسب الصحابة وشرب الخمر ، على عكس ما عرف عنه من الزهد والدين . انظر ابن عذاري ط . بيروت ، ج ١ ص ٢٢٠ ، وقارن افتتاح الدعوى للقاضي النعمان ، من ١٧٠ وما بعدها ومن ١٧٤ وما بعدها حيث يشكك النعمان في كتاب الخليفة المكتفي . ومثل هذا يقال عن المحاضر التي أصدرتها الخلافة العباسية فيما بعد ، والتي شارك فيها العلويون ، مدفوعين بسوامل الشرف - على ما يرجح - أو العدا للذهب ، سنة ٩٠٢ هـ / ١٠١١ م ، وسنة ٤٤٤ هـ / ١٠٥٢ م ، والتي تشكك في صحة نسب الفاطميين (انظر حسن ابراهيم حسن ، الدولة الفاطمية ، ص ٧٠ - ٧١) .

وفيما يتعلق بالمراميل راجع رسائل محمد بن تومرت الى أعوانه من الموحدين ومبايعتها

في سب المرابطين واتهامهم بالتجسيم والكفر ، في مذكرات البليق نشر لبني بروفنسال .

وفيما يتعلق بتزييف النقوش نكتفي بالإشارة الى ما ينسب الى الميلى ، أول أئمة

الفاطميين ، من الأمر بأن تقلع من المساجد والمواجل والنصور والقنابر أسماء الذين بنوها .

ونكتب فيها اسمه (ابن عذاري ، ج ١ ص ١٥٩ وما بعدها) .

الأمر الذى يضيق الرواية التاريخية أيضا ، أو الخبر ، إذا كان صاحبه من عمال السلطة أو مشايخها ، والعكس صحيح إذا كان يعمل فى خدمة الخصوم أو يعتنق من الآراء ما يناهض السلطة ويعادىها .

والملاحظة التى يشكو منها المؤرخ الحديث مما يتعلق بتساردة انوثائق والنقوش والآثار الأصلية ، يمكن أن يندرج فيها أيضا ما يتعلق بالأخبار التاريخية التى قد تفتقد هى الأخرى ، فى بعض الأحيان ، والتى قد تزداد بشكل مرهق فى أحيان أخرى ، والتى قد تضطرب أو تتضارب فيما بينها بشكل يجعل الوصول الى الحقيقة من الصعوبة بمكان (٣) . ويمكن أن نجد أسبابا لبعض ذلك فيما نحاول الإشارة إليه ، فيما يأتى :

تكثر الأخبار وتزداد الروايات استفاضة عندما يتعلق الأمر بالانتصارات والمكاسب فتحيط بها الهالات والمبالغات بشكل طردى مع عظم النتائج ، وعلى العكس من ذلك تقل الأخبار وتشح التفاصيل فى أحداث الهزائم والنكسات . وفى جميع تلك الحالات يتهاى الجو لظهور الروايات الشعبية التى يمكن أن تحول الحقيقة التاريخية الى أسطورة خرافية أو على العكس من ذلك تجعل من الوهم فى كتب التاريخ حقيقة ، الأمر الذى يعانى منه الباحث عندما يضطر الى الاختيار ما بين رفض الأسطورة أو تتبع أصولها التاريخية ان كان ذلك ممكنا (٤) .

(٣) وأهم النماذج بالنسبة لموضوعنا هو الاختلاف فى صحة النسب الفاطمى ما بين مؤيدى ومكترين ، مما دعا الى حيرة الباحثين من قدامى ومحدثين ، الأمر الذى دعا ابن خلدون الى التحول عن منهج النقد العلمى ، والقبول بمبدأ التحكيم الإلهى الذى يقضى بأن نجاح الدعوة الفاطمية يعنى أنها صحيحة والا لما قدر لها النجاح ، وبمثل هذا يقوله عن الدعوة الإدريسية فى المغرب الأقصى ، وكذلك عن دعوة ابن تومرت ، صاحب مذهب التوحيد ، الذى انتسب الى الأئمة العلويين ، رغم ما هو معروف من انتسابه الى قبيلة هرة إحدى قبائل مصوذة فى بلاد السرس الأقصى (انظر المبرج ١ ص ٢٢) ، وعلى العكس من ذلك نشلت دعوة القرامطة لكونهم ادعى فى النسب الشريف (المبرج ١ ص ١٨) .

(٤) مثل رحلة المهدي من الشام الى المغرب الأقصى وما تخللها من مغامرات قصصية فى مصر وبرقة وإفريقية ، وكذلك فى سجناسة أنظر ج ٢ ص ٥٨٩ وما بعدها ، وبناء المهدي ، وثورة أمى يزيد الزناتى على عهد القائم وما دار حولها من علم المحدثان (غيرن الأخبار للداهي ادريس ، ص ١١٧ - ١١٨ والمجالتس والمسايرات ، ص ٥٤٢) ، والهجرة الهلالية ، وهل كانت من صعيد مصر لأسباب شخصية خاصة بموقف الوزير البازورى ، من أمير القيروان الصنهاجى المزد بن باديس ، أم كانت من نجد لأسباب شخصية أيضا ، ولكن بين الشريف

ولا شك أنه لما كان من أهداف السرد التاريخي عند كثير من الكتّاب القدامى ، هو التسلية أو إعطاء العبرة والمرعظة ، فإن ذلك أدى إلى عناية بانتخاب الروايات المستطرفة والأخبار الغريبة . الأمر الذى كان يجر بالاحداث التاريخية إلى مجسالات علم العجائب مما كان يؤدي بالكاتب مؤرخا لأن أم غير مؤرخ ، إلى الاهتمام بالاحداث الهامشية وإعطائها من من العناية على حساب البنية التاريخية الحقيقية التى قد يضحي بها سبيل النوادر والنكت (٥) .

وهنا نتقل من الملاحظات العامة إلى بعض التساؤلات الخاصة ومنها :

١ - إلى أى حد يمكن الاستفادة من الروايات التاريخية المتأخرة ؟

ولا شك أن هذا الأمر يكون محسوما إذا وجدت الروايات المعاصرة التى يكون لها التفوق بطبيعة الحال ، إذا لم تكن مخرجة لأمر أو لآخر . إذا افتقدت الروايات المعاصرة فإن المسألة تحتاج إلى عدد من الإجراءات التعا والتحرى فى سبيل تقييم الروايات المتأخرة حتى يمكن الاطمئنان إليها مثل : الموقف الاجتماعى للمؤرخ ، وثقافته ، ومدى صلته بأصول المصدا وأدوات البحث ، وموقفه الخاص من الأحداث ؟

٢ - إلى أى حد يمكن الاستفادة من المصادر التاريخية ذات النباه المختلفة من : الحوليات والطبقات والسير وتاريخ المدن ، وهل تنطبق عليها

أمير مكة وأسرة إشابة الهلالية الجازية (ابن خلدون ، المعبر ج ٦ ص ١٣ - ١٩)
والحركة المارابطية وهل قامت على أكتاف الفقيه الجزولى عبد الله بن ياتين الذى كان يقيم الحفود بمتنتهى الحزم حتى على الأمير القائد للرابطين وقتئذ (البكرى ص ١٦٦) .
(٥) والمثل لذلك هو ثورة أبى زيد ، صاحب الحمار ، التى تظهر تفصيلاتها المرحقة فى كتب الشيعة ، وهم الجانب المنتصر ، والتى نقلت عنهم حتى من قبل المصوم ، كما فى عيون الأخبار للداعى أدريس ، وخصوصا فيما يتعلق بالمطاردة الأخيرة للشائر (ص ٢٥٤ وما بعدها)
بينما تلى التفصيلات فى كتب الأياضية كما عند الدرجيني ، وخاصة فيما يتعلق بالجزء الأخير من الصراع ، بينما تستفيض الرواية بعض الشيء عن بداية الثورة وقما كانت تحقق الانتصارات (ص ١٠٠ - ١٠١) ، وفى كلا الجانبين تختلط الحقيقة بالأسطورة مثل قصة « المدائن الخاصة » بوصول الشائر إلى باب المهديّة التى تنبئ بنهاية ثورته (عيون الأخبار ، ص ١١٨ ، والدرجيني ص ١٠٢) ، الأمر الذى كان يشجع الاطمئنان فى الجانب الفاطمى وقت الهزيمة - مما يعنى أنه أصطمت فى وقت متأخر من قبل الفاطميين به أن تحقق لهم الظفر .

أصول النقد التاريخي العام ، وخاصة فيما يتعلق بالتراجيم وسير الرجال ؟

٣ - الخبر الأحادي ، وهل له أن يرجح على المتواتر (٦) .

٤ - إلى أي حد يمكن الاستفادة من روايات المصادر غير التاريخية .
من : جغرافيه واجتماعيه وفلسفيه ودينيه وأدبيه وفنيه ؟ وعلى أي أساس
يكون الجمع فيما بينها على صعيد واحد ؟ وأي منهج يطبق عليها ؟ وهي من
المسائل التي يثيرها المسعودي في قواعده للنقد التاريخي في مروج الذهب
والتي يميز على أساسها طبيعة العمل التاريخي عندما يصدر من غير المؤرخين
من أصحاب الفكر والمتاهج الدراسية الأخرى كالفلاسفة (٧) .

تلك مقدمات منهجية عامة وأريد أن ألمح إليها قبل عرضنا للمصادر
لعلها تثير بعض التأمل أو تحظى بشيء من أعمال الفكر ، فهي جديرة بذلك
حسبما نرى . والحقيقة أنه لما كانت الدراسة تتكون من ٣ (ثلاثة)
عناصر ، هي :

١ - الفترة الفاطمية التي تمتد من ٢٩٧ هـ / ٩٠٩ م إلى ٣٦٢ هـ /
٩٧٣ م (٨) .

(٦) والمثل لذلك تاريخ وفاة المهدي أول الفاطميين حيث ينفرد افتتاح الدعوة للقاضي
النعمان بتاريخ : صبيحة الثلاثاء ١٠ جمادى الآخر سنة ٢٢٢ هـ / ٢٩ مايه ٩٣٤ م ، بينما
يتواتر تاريخ منتصف ربيع الأول سنة ٢٢٢ هـ / ٦ مارس سنة ٩٣٤ م في المصادر المتيرة
الأخرى . وهنا نشير إلى أن المسعودي عالج في نقده التاريخي في مروج الذهب هذا الأمر ،
فقسم الأخبار إلى قسمين هما : المتواتر وهو الذي شاع ما بين الجمهور ورواه الكافة ، وهو
ما يجب علمه والعمل به والآخر ما نقله آحاد الرواة ، وقبوله غير واجب إلا هو من النوع الممكن
أي الذي ليس بواجب ولا مشنع وإن كان المثل له عند المسعودي هي الاسرائيليات ، والأخبار
في عجائب البحار (مروج الذهب ، ط . بيروت ، ج ٢ ص ٢٢٨) .

(٧) والحقيقة أنه بينما ينص المسعودي على مماثاته في التأليف في فنون العلم المختلفة
والآداب قبل تأليف كتبه التاريخية ، ولشأته بمصادره المتنوعة ، فإنه في تقييمه لتلك المصادر
يخصم بالنقد سنان بن ثابت بن قره الطرائي ، لأنه انتحل - وهو الفيلسوف - ما ليس من
صناعته ، واستنسخ ما ليس من طريقته ، وذلك لمزجه ما بين الكلام في النفس والسياسة المدنية
ورواجات الملوك والوزراء ، وهو رغم اجسامه في ذلك إلا أنه « خرج على مركز صناعته ،
وتكلف ما ليس من مهنته » (مروج الذهب ، ط . بيروت ، ج ١ ص ١٦ - ١٧) ، نكاته ،
يعيب عليه الخضاع عناصر علمية مختلفة ، من فلسفية عقلية وأخبارية عقلية إلى نظام على
واحد .

(٨) والخلفاء الفاطميون في المغرب هم :
المهدي (٢٩٧ - ٣٢٢ هـ / ٩٠٩ - ٩٣٤ م) ، والقائم (٣٢٢ - ٣٣٤ هـ / ٩٣٤ -
٩٤٥ م) ، والمعز (٣٤١ - ٣٦٢ هـ / ٩٥٢ - ٩٧٣ م - أي إلى النقلة إلى مصر) .

٢ - الفترة الصنهاجية الزيرية وتمتد من ٣٦٢ هـ / ٩٧٣ م الى حوالى منتصف القرن الهـ ٦ هـ / ١٢ م (٩) .

٣ - الهجرة الهلالية ، من منتصف القرن الهـ ٥ هـ / ١١ م ، الى ما بعد قيام المرابطين ، بل والموحدين فى القرن الهـ ٦ هـ / ١٢ م (١٠) .

كان من الطبعي أن تختلف المصادر تبعاً لاختلاف تلك الموضوعات :
فالعصر الغاسطى الأول يشازع حق التأريخ له ٣ (ثلاثة) أنواع من

(٩) وأمر الزيريين الصنهاجيين فى القيروان هم :

بلكن بن زيرى (٣٦٢ - ٣٧٣ هـ / ٩٧٣ - ٩٨٤ م) ، والمنصور (٣٧٣ - ٣٨٦ هـ / ٩٨٤ - ٩٩٦ م) ، وباديس (٣٨٦ - ٤٠٦ هـ / ٩٩٦ - ١٠١٦ م) ، والمز بن باديس (٤٠٦ - ٤٥٣ هـ / ١٠١٦ - ١١٠٧ م) - حيث انفرد حماد بن زيرى بحكم المسيلة وأشهر ، وكون دولة بنى حماد أصحاب القلعة ، وانتقل المز بن القيروان الى المهديّة (سنة ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م) فانقسمت بذلك الدولة الزيرية الى دولتين ، هما : دولة بنى المنصور ابن بلكن فى القيروان والمهديّة ، ودولة بنى حماد بن بلكن فى القلعة وبجاية .
وأمر الزيريين فى المهديّة ، هم :

تسيم بن المز (٤٥٣ - ٥٠١ هـ / ١٠٠٧ - ١١١٥) يحيى تسيم (٥٠١ - ٥٠٩ هـ / ١١١٧ - ١١١٥) ، وعلى بن يحيى (٥٠٩ - ٥١٥ هـ / ١١٢١ - ١١٢٦ م) ، وأخيراً الحسن بن على (٥١٥ - ٥٤٣ هـ / ١١٢١ - ١١٤٨ م) - عندما استولى أسطول صقلية النورمندى على المهديّة (٤٨٠ / ١٠٨٧) .

وأمر الحماديين فى القلعة وبجاية ، هم :

حماد بن بلكن (٣٩٨ - ٤١٩ هـ / ١٠٠٨ - ١٠٢٨ م) ، القائد بن حماد (٤١٩ - ٤٤٦ هـ / ١٠٢٨ - ١٠٥٤ م) ، محسن بن القائد (٤٤٦ - ٤٤٧ هـ / ١٠٥٤ - ١٠٥٥ م) ، بلكن بن محمد (٤٤٧ - ٤٥٤ هـ / ١٠٥٥ - ١٠٦٢ م) ، الناصر بن علناس (٤٥٤ - ٤٨٦ هـ / ١٠٦٢ - ١٠٨٨) ، المنصور بن الناصر (٤٨٦ - ٤٩٨ هـ / ١٠٨٨ - ١١٠٤ م) ، باديس بن المنصور (٤٩٨ - ٥٠٠ هـ / ١١٠٤ - ١١٠٦ م) ، العزيز بن المنصور (٥٠٠ - ٥١٥ هـ / ١١٠٦ - ١١٢١ م) ، يحيى بن العزيز (٥١٥ - ٥٤٧ هـ / ١١٢١ - ١١٥٢ م) .

(١٠) وبدايات الهجرة الهلالية ترجع الى سنة ٤٣٧ هـ / ١٠٤٥ م ، بعد ولاية اليازورى الوزارة بالقاهرة ، وسبوه العلاقة مع المز بن باديس ، وتولية زعماء الهلالية لأعمال أفريقية التى وصلوا إليها سنة ٤٤٣ هـ / ١٠٥١ م ، واقتسامهم البلاد سنة ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ م ، وتقديمهم الى القلعة ، وحميرة الناصر بن علناس (الحمادى) من القلعة الى بجاية التى اختطها بالساحل ، ثم تقدمهم الى قلمسان حيث دخلوا فى حرب مع الزناتية بقيادة الوزير أبى سمعة : خليفة الإفرنى . وذلك فى الوقت الذى كان الصنهاجيون من المثمنين من لتونة ومسوقة وجزيرة ودكالة يقومون بنهضتهم واقامتهم لدولتهم المرابطية التى عاصرها الجفرافى البكرى الأندلسى ، صاحب المسالك الممالك ، الذى كان آخر ذكر لهم عنده سنة ٤٦٧ هـ / ٧٤ - ١٠٧٥ م .

المصادر هي : الشيعة المناصرة ولها مقام الصدارة ، بطبيعة الحال ، وفي مقابلها المصادر الخارجية الأباضية المناهضة ، وفيما بينهما المصادر السنية في موقف الوسط ، وإن كان توسطها يأتي في كثير من الأحيان من حيث مزج الأنواع الثلاثة فيما يشبه الفسيفساء المبرقشة .

المصادر الشيعية :

أول مصادر الفترة تتمثل في كتب القاضي النعمان (ت ٢٦٣ هـ / ٩٤٧ م) ، قاضي المنصورية وداعي دعائها ، على عهد المنصور والمعز بخاصة . وأهم كتب النعمان التي وصلتنا ٤ (أربعة) ، هي : دعائم الإسلام (١١) ، وتاويل الدعائم ، ويعرف أيضا بـ « تربية المؤمنين بالترقيف على حسود باطن علم الدين » (١٢) وافتتاح الدعوة (١٣) ثم المجالس والمسائرات (١٤) . ومن عناوين هذه الكتب - إلى جانب غيرها مما نشر أو لم ينشر من أعمال النعمان - يتضح لنا أن تخصص القاضي الفاطمي تراوح ما بين : الفقه من أصوله وفروعه إلى التاريخ السياسي والتاريخ الديني مع سير الأئمة .

دعائم الإسلام :

فدعائم الإسلام كتاب في الفقه الشيعي الفاطمي ، يعرف فيه النعمان بالعبادات (ج ١) والمعاملات (ج ٢) (١٥) . وقواعد المذهب عند النعمان لا تختلف كثيرا عن مذاهب أهل السنة ، الأمر الذي دعا إلى الاختلاف في مذهب النعمان الأول ، فقد قيل أنه بدأ سنيا مائليا أو شيعيا اثنا عشريا ، قبل أن يتحول إلى الاسماعيلية الفاطمية - وإن رأى البعض أنه ما كان يمكن أن يكون منذ البداية إلا اسماعيليا لحما ودعما (١) .

- (١١) نشره وحققه آصف فيظي ، القاهرة ، في ج ٢ ، ١٩٠٢ - والعنوان الكامل ، هو : دعائم الإسلام في ذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام .
- (١٢) نشر محمد حسن الأعظمي (٣ ج) ، القاهرة ١٩٦٩ .
- (١٣) نشر وتحقيق وداد القاضي ، ببيروت ، ١٩٧٠ ، كتاب تم نشره بترعة فريجات الدشراري ، الشركة التونسية للتوزيع ، في نفس الوقت ١٩٧٠ م .
- (١٤) تحقيق الحبيب الفقي وإبراهيم شيوح ومحمد البعلادي ، تونس ١٩٧٨ م .
- (١٥) الجزء الأول يعالج العبادات في ٧ (سبعة) كتب ، في : الزلاية والظهارة والصلاة والجنائز والزكاة والصوم والحج ثم الجهاد ، والجزء الثاني يقتصر على ٢٥ (خمسة وعشرون) كتابا في البيوع والإيمان والتزوير والأطعمة والأشربة والطب واللباس والصيد والضحايا والنكاح . . . والبيان والشهادات والدعوة ، وأخيرا أدب القضاة .
- (١٦) أنظر مقدمة المجالس والمسائرات . من ٦ ، ٧ وهـ ٢ .

والحقيقة انه يمكن تفسير تلك القرابة القريبة بين دعائم الاسلام النعمانية الغاطبية هذه ، وقواعد الاسلام السنية المالكية من حيث اصول الدعاية الاسماعيلية التي ما كانت تسمح بنشر الا الظاهر من علم الأئمة بين عامة الناس - أى المقبول أصلا من جمهور العامة - ولا شك أن تسمية أئمة أهل السنة بـ « أئمة العامة » من قبل أئمة الشيعة ، حيث كان جعفر الصادق أول من عرفت عنه تلك التسمية تؤيد ذلك .

وفيما يتعلق بدعائم النعمان فإن الذي يؤيد عموميتها هو كتابه الذي صنفه بعد ذلك تحت اسم تأويل الدعائم ، والتأويل هو التفسير الباطني والمجازي للنصوص ، وهو من علم الخاصة . والمهم في الأمر أن دعائم الاسلام عند النعمان تشتمل على القواعد الخمسة المتعارف عليها عند المسلمين عامة . وهي : الولاية في البداية ، فكانها القاعدة الأولى للمذهب ثم الجهاد في النهاية ، فكانت القاعدة السابعة والأخيرة ، وبذلك تكون قواعد الاسلام سبعة بما يتفق مع أهمية الرقم ٧ (سبعة) في الفكر الاسماعيلي - مذهب السبعة (١٧) .

الولاية :

ومبدأ الولاية ، أول دعائم الاسلام عند النعمان ، بمعنى الولاية والخضوع ، يتطلب الطاعة المطلقة للامام . وفي ذلك يقول النعمان : « لو أن الرجل عمل أعمال البر كلها ، وصام دهره وقام ليله ، وأنفق ماله في سبيل الله ، وعمل بجميع طاعات الله عمره كله ، ولم يعرف نبيه الذي جاء بتلك الفرائض فيؤمن به ويصدقه ، وامام عصره الذي افترض الله - عز وجل - عليه طاعته فيطيعه ، لم ينفعه الله بشيء من عمله » (١٨) والنعمان يظهر هنا معتدلا على عكس غيره من المتشددين من فقهاء المذهب الذين يقولون : « من

(١٧) وهذا قريب مما فعله الشيعة الزيدية عندما أخذوا مبادئ الاعتزال الخمسة المعروفة ، من : التوحيد والعدل والوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف . على أساس أن الامام زيد تنلمذ على واصل بن عطاء ، ووضعوا على رأسها مبدأ الامامة المتعارف عليه عندهم ، والذي يقبل مبدأ « امامة الفضول » مع وجود الأفضل ، وجعلوا من كل ذلك مذهباً لهم . هذا وإن شاربهم في ذلك أيضا بعض جماعات الاباضية الذين عرفوا باسم « الواصلية » .

(١٨) الدعائم ، ج ١ من ٢٠ وما بعدها .

مات ولم يعرف امام زمانه مات ميتة جاهلية» (١٩) . وطاعة الأئمة والرؤساء ، تظهر جليلة عند اسماعيلية المشرق ، من : القرامطة والنزارية والحشيشية ، ممن سمحوا باستباحة بعض المحرمات الاسلامية حسبما تراءى لهم (٢٠) ، و مارسوا عمليات الاغتيال السياسي في سبيل تحقيق بعض مآربهم (٢١) .

أما عن الجهاد وجعله بعض دعائم الاسلام ، فهو يدل على أن التشيع ، على عكس ما قد يرى البعض من أنه مذهب الرخص والتساهل ، كما في بعض أمور الزواج وتوريث البنات ، هو مذهب أصولية وتشدد ، الأمر الذي جعل الشيعة يصفون أنفسهم بأنهم أهل السنة حقاً دون غيرهم (٢٢) .

(١٩) أنظر الفرق بين الفرق للبندلدي ، ج ١ ص ١٩٢ .

(٢٠) كما فعلوا سنة ٣١٧ هـ / ٩٣٠ م . من استباحة « الكعبة » وقلع الحجر الأسود وادعائهم أن الطواف ولثم الحجر الأسود نوع من المآلذ الجاهلية ، أنظر الصيرى والمذاق ، ج ٤ قسم ١ - تحقيق نبيلة عبد المنعم دارود ، ص ٣٤٩ - حيث رواية ابن الجزار التي يقول فيها ان أحد أصحاب القرمطي قال لجريح من ضحاياهم : يا حمار ، تميدون الجحارة وتطوفون بها تلمسون أركانها وترقصون حولها ، ما بال رؤوسكم ا وفي مقابل ذلك أنظر ص ٣٥٩ - حيث النص على ان من كرامات الحجر الأسود أنه يحشر يوم القيامة وله عينان ينظر بهما ولسان يتكلم به ويشهد لكل من استلمه وقبله بالإيمان .

(٢١) ومن أشهر من اغتالهم الحشيشية : الوزير السلفجوقي نظام الملك سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م - أنظر ابن الأثير . سنة ٤٨٥ هـ ج ١ ص ٢٠٤ - حيث النص على ان الذي قتله صبي ديلمى من الباطنية . وهذا ، كما حاولوا قتل صلاح الدين سنة ٥٧١ هـ / ١١٧٥ م حيث كانوا مدسوسين بين عسكره وهو يحاصر قلعة اعزاز ، اذ ضرب واحد منهم بسكين في رأسه ، ولولا المفتر الزود تحت القلنسوة لقتله (سنة ٧٥٢ هـ ، ج ١١ ص ٤٣٠) - وعندما حاول صلاح الدين الانتقام منهم في السنة التالية ٥٧٢ هـ / ١١٧٦ م ، وحصر قلعة شيوخهم حذر هذا الأخير بقتلهم جميع الأيوبيين وأمرائهم ، الأمر الذي اضطر صلاح الدين الى اجابتهم الى الصلح والرحيل عنهم (سنة ٥٧٢ هـ ، ج ١١ ص ٤٣٦) .

(٢٢) وهنا لا بأس من الإشارة الى أن تشددهم دفعهم أحيانا الى أخذ الآية التي تقول : « إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام » (بعد عامهم هذا - سورة التوبة) ، بمنهاها الحرفي ، فرفضوا التعامل مع غير المسلمين وأنهم ربما طبقوا ذلك على غيرهم من أصحاب المذاهب الاسلامية الأخرى ، فلم يصلوا في مساجدهم ولم يزاوروهم أو يزاولوهم حتى أنهم كانوا يحملون الآية التي يقدمونها لهم بالطعام والشراب - فهذا ما كان يحدث منذ أكثر من أربعين سنة في جنوب العراق ، والمهدة على من روى ذلك لنا من الزملاء الماملين بالتدريس وقتئذ هناك ، ولا شك ان الأوضاع قد تغيرت الآن تماما . تبعا لنمو الإدراك وتطور الوعي نحو الأفضل . وقارن هنرى ماسيه ، الاسلام ، ترجمة بهيج شهبان ، منشورات عويدات ، بيروت - باريس ، ص ١٩٢ - حيث النص فعلا على ذهابهم الى درجة تحطيم الآية

التأويل :

والحقيقة أن المتسكين من الشيعة بالسنة ، التي تعرف عند
بالأخبار هم الاخباريون مثل أهل الحديث عند السنة ، بينما الأصوليون
أشبه بأهل الرأي وهم أصحاب التأويل أي التفسير الباطني للنصوص
القرآنية والسنة ، وهو ما يعرف عندهم بعلم الحقيقة . فالعلم عند أهل
التأويل ينقسم الى ٣ طبقات ، هي : علم المحسوس (في الطبقة الدنيا) و
الموهوت (في الوسطى) وعلم المعقول (في العليا) (٢٣) .

توريث البنات :

وبفضل التأويل ، وهو عصب الاجتهاد عند الشيعة ، من حيث
التأويل هو معجزة الأئمة في مقابل التنزيل (الكتاب) ، معجزة النبوة (٢٤)

التي يلجسها غير المسلمين ، مع الإشارة في الهامش الى تعليقات العلامة محمد جواد
(ص ٢٢٧ - ٢٢٩ في آخر الفصل) حيث النص في ص ٢٢٨ على انه لا أثر لهذا
ولا مصدر في فقه الإمامية . . . ولا هو من عادة واحد منهم . وإن حكم جماعة من فقهاء
يقضى بفنسل الآنية بالباء إذا باشرها غير المسلم ، تماما كما تفصل من الحب ونحو
أما تحطيم الآنية فلم نسمع به إلا من المؤلف أي « ماسيه » - ولا بأس أن تكون رو
منقولة عن بعض الباحثين ، مثل هنري ماسيه أو غيره .

(٢٣) أنظر التأويل : اسمه ومبانيه في المذهب الاسماعيل ، تأليف الحبيب الفهم
مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية ، تونس ، ص ٩ (في الظاهر والباطن
ص ٢٣) في الشريعة والحقيقة (ص ٦١) حيث التقسيم الثلاثي ومرتبته الأخيرة في
المطول تعني الحقيقة المجردة البينان . وهذا التقسيم قريب من التقسيم الارسطاليسى الثب
للعلم ، وهو الذي أخذ به بعض الفلاسفة المسلمين ، مثل ابن رشد (الحفيد) الذي طالب
« فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال » بالتأويل عندما يتعارض النص - ظاهرا
مع العقل - وهو ما عرف في فجر النهضة الأوروبية في فرنسا بالانبرشدية verroesme
واستمر الجدل فيه في إيطاليا حتى القرن ال ١٦ م ، وهي الفكرة التي كانت
خطأ ، تغليب العقل على العقيدة الدينية . الأمر الذي لم تقبله الكنيسة وقتئذ حتى أنها أد
ابن رشييد والانبرشدية ، وذلك اعتمادا على ترجمة التأويل بمعنى التهويل والتزييف . ا
للمؤلف ، علوم العرب القديمة ، دراسة منهجية لبعض النماذج ، مجلة علم الفكر (الكريتية
المجلد الثامن العدد الأول ، ص ١٧٦ - ١٧٧ ، بل هو ما أخذ به محمد بن تومرت صا
دولة الموحدين ومنظر مذهبها الذي حاول فيه التوفيق بين أفكار الشيعة والسنة والفلا
من المختزلة ، اقتداء بالامام الغزالي - أنظر للمؤلف ، محمد بن تومرت وحركة التجديد
المغرب والأندلس ، من منشورات جامعة بيروت العربية سنة ١٩٧٣ م .

(٢٤) اقتتاح الدعوة للقاضي النعمان ، ص ٣١١ .

ووصل الفقهاء الى حلول لبعض ما واجهه المجتمع من التنازل (أى القضايا الطارئة) مثل : توريث البنات وذوى القربى (٢٥) ، وهى القضية التى قد ينظر اليها فقهاء السنة على أنها قضية سياسية قبيل أن تكون من قضايا الأحوال الشخصية (٢٦) .

أما عن زواج المتعة فالرأى فيه عند النعمان مقبول من أهل السنة من حيث أنه منكر تبعا لأقوال الأئمة ، وإن كان ذلك لأسباب عقلانية خاصة بكرامة المرأة وذويها (٢٧) .

افتتاح الدعوة :

وافتح الدعوة كتاب تاريخى يعالج فيه النعمان تاريخ الدولة الفاطمية الناشئة بالمغرب ، منذ بداية تنظيم الدعاية فى اليمن الى عهد المعز فى سنة ٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م - حيث تم تأليف الكتاب . والنعمان يظهر فى الافتتاح مؤرخا موهوبا ، يعرف انتقاء معلوماته ، ويفرق فيها بين الغث والسمين . فهو يوثق معلوماته بمقتطفات من الرسائل الرسمية التى كان يصدرها المهدى على طول الطريق من سجلماسة الى رقادة والقيروان ، رغم اتجاهاته المنقبية المبدئية ، كواحد من كبار الدعاة يرى حتمية انتصار دعوة الأولياء « حزب الله » وغلبة دولة الأئمة ، رغم أحوال الستر والتقية (٢٨) .

وهو يعرف التأثير السلبي للسياسة المسالية الدقيقة التى انتهجها

(٢٥) أنظر المجالس والمسائرات ، ط . تونس ، ص ٩٧ - حيث الكلام فى توريث مذوى الأرحام ، من : بنى البنات وبنات الأخوة وبنى الأخوات وبنات الأعمام والعم : أخى الأب للأب فقط ، وبنى الأخوة للألم ، وذلك استنادا الى اجتهد الإمام جعفر الصادق الذى فهم كلمة « الأقرين » القرآنية على أنها « ذوى الأرحام » فقط بتوريتهم بالنص القرآنى .

(٢٦) وهذا مما أثاره الأستاذ أحمد بهاء الدين ، رئيس تحرير مجلة العربى الكويتية السابق ، فى عموده « يوميات » بجريدة الأهرام التاهرية بمناسبة قضية إلغاء ضريبة الفرقات فى مصر ، والتى تمت فى نقايا موضوعات الاقتصاد الإسلامى وشركات توليف الأموال ، وأرباب البنوك ، وذلك فى أواخر سنة ١٩٨٨ ، عندما دعا الى الاجتهاد فى توريث البنات ، كما هو الحال فى الفقه الشيعى ، وذلك درءا للتحايل على ذلك من قبل البعض ، وكان رد فعل فقهاء السنة على دعوته تلك ، ان التصريح الخاص بالثبات قطعية ، وإن لا اجتهد مع النص .

(٢٧) المجالس والمسائرات ، ص ٦٥ - حيث يكون التنازل : « هل ترضى لنفسك أن تمنح ذات محرم منك نكاح متعة ؟ (إذن) لا توصى لغيرك ما لا ترضاه لنفسك » .

(٢٨) مقدمة الكتاب ص ١ .

المهدى منذ ما قبل اعلان الامامة وتولية السلطة بطريقة قانونية - من أجل منابر أنريقية - وهو فى الطريق من سجناسة الى رقادة والقيروان ، حيث قرر المرور بايكجان (دار الهجرة) ، وأمر باحضار الأموال التى كانت بين أيدي الدعاة والمشايخ ، « فاحضروها اليه ٥٠ وأمر بقبضها منهم ، وشدها أحمالا ، وقسدهم بها (الى رقادة) فكان ذلك من أول ما أحال القلوب الفاسدة ، وتوهسوا أنهم يكونون كما عودهم أبو عبد الله ، يأمرن وينهون ويقبضون ويسطون - وهو يوثق معلوماته تلك بمقتطفات من الرسالة الرسمية التى أصدرها من ايكجان الى كل من نائبى أبى عبد الله بالقيروان ، وهما : أبو ذاكى ، الزعيم الكتامى ، وأبو العباس ، أخو الداعى ، والذى يحدد فيه تاريخ الوصول اليهما فى يوم الخميس ٢٠ من ربيع الآخر سنة ٢٩٧ هـ/ ٦ يناير ٩١٠ م ، وهو ما حدث فعلا(٢٩) .

الشؤون الاجتماعية والمالية :

وهو بعد ذلك يسجل ملاحظات المهدى الاجتماعية الدقيقة فى التفرقة بين شيوخ القيروان المتمدنين وبين من كان يراهم « كالبواى » فى المغرب البعيد (ص ٢٩٢) . وهكذا يستمر النعمان مؤرخا له قدراته الفائقة فى انتخاب معلوماته السياسية والاقتصادية والدينية والاجتماعية ، ويطبق منهج التاريخ العلمى عن طريق التوثيق بما كان فى متناول يديه من الرسائل الرسمية ذات التواريخ الدقيقة والمناشج الشعرية ، وكل ذلك فى توازن منطقى مقبول ، رغم شطط بعض الشعراء أو الاتباع أحيانا .

ومما يلفت النظر اهتمام النعمان بالمسائل المالية ، مما يتعلق بقبض الأموال والضرائب من مختلف المظان ، أو ترتيب دواوينها من قديمة ومستحدثة ، كاحياء ديوان الخراج الذى كان قد أحرق عند هروب آخر الأغالبة ، أو نصب ديوان الكشف وديوان الضياع ، وديوان أموال الهاربين مع زيادة الله ممن استصفيت أموالهم (ص ٣٠٣) ، ونصب ديوان للعطاء ، وطلب نهب رقادة الذى اجتمعت منه أموال كثيرة ، وإقامة ديوان لبیت المال (لضرائب الأسواق) كانت حصيلته فى شهر رمضان وحده ١٠٠٠٠٠ دينار ، الأمر الذى استهوله صاحب بيت المال بينما استقله المهدى الى حد القول انه : لو بلغت حقوقه ما رضى مثل هذا العطاء لرجل واحد من أوليائه .

والنعمان ، في نظرة المهدي الى المال ، يقول : انه كان جوادا بالمال ومع ذلك لا يضيع اقل شيء منه ، فهو لا يستعين بالمال ولا يصرفه في غير حق (ص ٣٠٥) . وعلى أساس انتزاع الأموال من الكتاميين في ايديجان يفسر انضمامهم الى الداعي في ثورته (نفاقه) علي المهدي (ص ٣٠٩) التي أدت الى قتله . وعقوبة القتل هذه هي في حقيقة الأمر تطهير لرجل النبوة العظيم ، تماما « كما يتطهر الذهب مما تداخله من الغش بالدوبان في النار ليصفو » (ص ٣١٩) . الأمر الذي لم يمنع ردود فعل عنيفة من قبل الكتاميين وأهل القيروان والأغالبة (ص ٣١٩ وما بعدها) ، مما كان له أثره البعيد في ثورة الدجال « مخلد بن كيداد » عندما انضم اليه أهل القيروان ، وغدر بهم في يوم للبانة (جوليانه) (ص ٣٢٣) . وبناء المهدي المرتبط بعلم الحدائق الذي يعرفه الأئمة حيث أعدت المدينة الملكية الفخمة يحصونها العظيمة من أجل « ساعة واحدة من نهار » (ص ٣٢٨) - ساعة وصول الشائر أمام باب زويلة بالمهدي الذي سيعرف بباب الفتح .

تواريخ خاصة :

وينفرد افتتاح الدعوة بتحديد تاريخ خاص لوقاة المهدي ، هو : -صبيحة يوم الثلاثاء ١٠ جمادى الآخر سنة ٣٢٢ هـ / ٢٩ مايو ١٩٣٤ ، بينما تقدم المصادر الأخرى ، حتى تلك التي أخذت من النعمان ، مثل : كامل ابن الأثير ، وانعاط القريري ، وبيسان ابن عدي ، وتاريخ ابن حمادة ، « منتصف ربيع الأول » ٦ مارس سنة ٩٣٤ تاريخا لتلك الوقاة (٣٠) .

والملاحظ أن عهود كل من القائم والمنصور وكذلك المعز تأتي سريعة في حوالي عشر صفحات ، ولا بأس أن يكون النعمان قد اكتفى بسا ذكره عنهم في المجالس والمسائرات التي يعتبرها سيرة للمعز بخاصة .

ومن الأمور التي تلفت النظر أخيرا ان الكتاب الذي انتهى النعمان من بسطه في المحرم سنة ٣٤٦ هـ / مارس - ابريل ٩٥٨ م تم نسخه الذي وصل إلينا في شعبان سنة ١٣١٥ هـ / ١٨٩٧ م (ص ٣٣٩) دون ذكر أو إشارة الى أي من النسخ الوسيطة - وتلك آفة ما زال الأدب التاريخي الشيعي يعاني منها الى اليوم .

(٣٠) ص ٣٢٩ - ٣٣١ . وهوامش ص ٣٣٠ . وانظر الدراسة ليعا بعد ، ص ١٧٤ .

المجالس والمسائرات :

قضايا تاريخية ودينية وفقهية :

يختلف كتاب المجالس والمسائرات عن كتب النعمان من حيث اعتباره من كتب السيرة « الذاتية » إذ النصيب الأوفر فيه للمعز بصفته واضع أصول المذهب الفاطمي ، وإن كان يخط النعمان ، والحقيقة أن الكتاب يمكن أن يندرج في قائمة كتب تاريخ الأديان والمذاهب ، من حيث تناوله للمذهب ، وشروحه لعسدد من القضايا التاريخية ذات الصبغة الدينية أو القضايا الفقهية في مجال الأحوال الشخصية - مثل : توريث البنات وزواج المتعة ، مما سبقت الإشارة إليه (ص ١٧) - إلى جانب المعلومات التاريخية الصرفة كالعلاقات بين الفاطميين والأمويين بالاندلس ، إلى غير ذلك من موضوعات فلسفية أو لغوية أو أدبية . ويأتي كل ذلك في ترتيب زمني ، غير موضوعي ، حسب تسجيل المادة اثر كل مجلس أو مقام أو مسامرة وما يلحق بذلك من بلاغ أو توقيع أو مكاتبة ، فتأتي المواد المتشابهة متناثرة على طول الكتاب ، وهو الأمر الذي عالج المحققون بشكل منهجي مفيد في المقدمة ، (من ص ١٧ إلى ص ٢٧) ، حيث تصنيف الموضوعات - بشكل عام وموجز بطبيعة الحال - إلى : أحداث تاريخية خاصة بالآئمة ، من : المهدي إلى القائم والمنصور ثم المعز الذي تحصل على علم الأولين الآخرين ، من : ظاهر وباطن ، وعلم رياضسية وطب وهندسة ، كما كان صاحب اختراعات عجيبة - مما يشغل في مجالات التكنولوجيا ، كما تقول اليوم - كالقلم الحازن للحبر (٣١) .

سيرة المعز :

وهكذا يفهم من مقدمة الكتاب أن النعمان يعتبره تاليفاً في سيرة المعز لدين الله ، صلوات الله عليه ، وأنه دأب في ذلك (التأليف) إلى أن ينقضي عمره (٣٢) . والمعز يستخدم الجدل المنطقي ويتكلم في البرهان ويعرفه ولكنه

(٣١) المقدمة ، ص ٢٥ والنص ص ٣١٩ - حيث الإشارة إلى أن القلم رمز لباطن - أنظروا الدراسة ، فيما بعد ، ص ٢٢١ وما ٥ .

(٣٢) الافتتاح ، ص ٤٦ ثم ص ٤٧ - حيث الإشارة إلى أن الدشراوى محقق الكتاب يأخذ بهذا الرأي ويأنه بناء على ذلك ، يكون تأليف الكتاب في سنة ٣٤٦ هـ / ٩٥٧ - ٩٥٨ م . وإن كان ذلك لا يتفق مع التواريخ التي تتجاوز ، مثل : سنة ٣٤٨ هـ وسنة ٣٥١ هـ .

« لا يؤمن بحجية العقل ، فأناس كلهم يدعون العقل وهم مختلفون في
المداهب » فالعقل إذن هو المطيع لله (ص ٤٢٣) .

الأئمة :

وموضوع الأئمة وعلومهم ، وما يجب لهم من الطاعة ، مما ينال عناية
النعمان واهتمامه ، مثل : تلامهم في الظاهر والباطن (ص ٥٤) ، والسعي
الى الامام واجب في ظاهره كالخروج (ص ٤٦٨) ، وتكتم الأئمة في أمر الدعوة
الباطنية شديد ، إذ ليس من الحزم أن يجارى الراعى أهواء الرعية (ص ٣٤٧)
- مثل : بنى العباسى وبنى أمية) . والسجود لهم : طاعة ومعروف
لا ينكر (ص ٥٧) ، وكذلك الصلاة عليهم حسب الآية التى تقول : « ان
الله وملائكته يصلون على النبى » (الأحزاب ، ٥٦) ، وزواج المتعة منكر عند
الأئمة (ص ٦٥ - وانظر فيما سبق ص ١٧) وهم لا يعلمون الغيب ، بل
ما غاب عن الناس من العلم الذى أودعهم الله اياه واستحفظهم سره (ص ٨٤ ،
٥٢٣) مما يعرف بعلم الحدثن . والامام لا يعطى حكمته الا لحجته (الحجة
هو الوصى أو الأساس ص ٩٤) ، وعقاب الله للمتطاولين على الأئمة عقاب
عاجل (ص ١٠٢) . والامامة تنتقل من الماضى الى الباقي فى آخر دقيقة
بنفس من نفس الماضى (ص ٢٦٧ ، ٥١٤) ، والامام المستقر أفضل من الامام
المستودع (ص ٤١١) .

والأئمة فى النهاية ، باب السعادة ، بهم سعد بن سعد ، والسعادة
لن عرفهم (ص ١٠٩) .

الدعاة :

أما عن الدعاة فهم الى جانب عملهم يرسلون من جزرهم (أقطار دعوتهم)
الأموال الى الامام (ص ٤٠٧) . هذا ، وقد ينحرف بعضهم عن الأئمة
فيحلون المحارم (ص ٤٠٨) ، الأمر الذى دعا المعز الى أن يتبرأ من بعضهم
(ص ٥٥٣) . ومن الطريف أن يحاول النعمان تبرير انحراف بعض الدعاة
وزيفهم فى اباحة المحارم فيفسر ذلك تفسيراً صوفياً ملامتياً ، على أساس ،
ان : « ترك المعاصى سوء ظن بالله .. عز وجل - انه لا يغفر الذنوب »
(ص ١٠٥) ، ولو ان ذلك لا يتفق مع رفضه لتأويل المعتزلة العقلانى للوعد
والوعيد بمعنى ان الله صادق فى وعده ووعيد ، ولكنه يغفر لمن تاب توبة
نفسوحاً ، على اعتبار أن ذلك نوع من البداء ، أى تغيير قدر الله وقضائه
المحترم ، الذى لا يجوز عند المتشددى من أهل السنة (الحشوية) الذين

يعتدى بهم النعمان ، فى هذا المقام - وهو يتهم المعتزلة هنا وعقلانيتهم ، ويتهمهم بأنهم أرادوا أن يكونوا أئمة أنفسهم (ص ٢٧٧) - أى أصحاب الحق فى الاجتهاد .

تعاليم المذهب :

وفيما يتعلق بتعاليم المذهب ، يحرض المعز على قراءة كتاب دعائم الاسلام (ص ٣٠٣) فكانه أصبح دستور المذهب الرسمى من حينئذ . والأئمة يعلمون ما يكون قبل أن يكون ، نقلا عن المنصور (٣٣) . والحكم بعدم تجاسة بول الفرس (فرس المعز الذى تنحى عنه ابن واسول صاحب سجناسه (٣٤) . وتورث الموالي ، من : العبيد عند الفاطميين كالأحرار ، شرط ولايتهم (ص ٣٩٤ - فكانه نوع من الرخص الأخرى فى باب المواريث) .

الأحداث التاريخية :

ويحفل المجالس والمسابير بالآحداث التاريخية الهامة ، ولكنها للأسف بدون تحديدات زمنية . ومنها ما يتعلق بفتنة أبى يزيد ، وما يتعلق بها من علم الحدثنان ، وما قيل من انها قامت بدعوى رفع الضرائب . فالمهدى كان يتوقع الفتنة ولهذا بنى المهديّة (ص ٥٤٢) وإن كانت رواية أخرى تنص على ان القائم فكر فى استبدال المهديّة (ص ٣٢٣) ، وغيرها تشير الى ما ذكرته كتامه من تخلف القائم أيام الفتنة (ص ٢١٤) . أما المنصور فكان يرى فى منامه فتنة أبى يزيد ، وانفراج الشدة على يديه (ص ١١٣) . بينما كان المعز يقول : أن من صبروا مع الأئمة أيام الفتنة يدخلون الجنة بشفاعتهم مهما كان عليهم من الذنوب (ص ٥٥ - فكانهم من أهل بدر) . وفى الرد على ما ادعاه أبو يزيد من أنه قام من أجل رفع مظالم الضرائب ، فليس صحيحا لأنه مبنى على ما رآه من رفع بعض الشيوخ المسال الكثير الى

(٣٣) المجالس ، ص ٤٠٤ - ولا تدرى ان كان ذلك يتضارب مع ما سبق من القول بأن الأئمة لا يعلمون الغيب بل ما غاب عن الناس من العلم الذى خصوا به - نفس ما سبق . ص ١٩ .

(٣٤) المجالس ، ص ٤٦٠ - الأمر الذى يدخل فى تبجيل الجهاد - كما ترى - وأنتبه بالامتنان للمشكلة فى الجبل ، عدة الرباط والقتال - عربات العصر الحديث المدرعة السريعة الحركة .

الألمة بمحض إرادته ، بينما صار نفس الرجل يجار بالشكوى من جور أصحاب أبي يزيد (ص ٢٣٧) . وعن قتل أبي يزيد فقد تم على يد المنصور بالسيف ذي الفقار الذي كان يحتفظ به المعز . وفي وصفه : له شفرتان ، وفي وسطه عمود . أما جملة النفقة في حرب أبي يزيد فقد بلغت ١٢٠٠٠٠ دينار (ص ٥٥١) . ومن أعمال المعز العمرانية انجاز شبكة المياه في المنصورية (ص ٥٥٢) .

معلومات وثائقية :

وتقدم المجنالس والمسائرات معلومات وثائقية هامة عن العلاقات مع عبد الرحمن الناصر الأموي ، من حيث النوع والكم . فمنها : وصول رسول الأموي الى المعز يطلب الصلح ، ويتساءل : « كيف جاز له - أي المعز - أن يلعننا ونحن مسلمون ! وغاب عنه قول الله - عز وجل - « ألا لعنة الله على الظالمين » (هود ، ١٨) . والأمويون يقطعون مركبا فاطميا ، ويأخذون كتاب عامل صقلية ، وإخراج المراكب في اثره الى المرية (ص ١٦٥) ، والأموي يستنصر بملك الروم (ص ١٦٦) . والهدنة مع الروم سنة ٣٤٦ / ٩٥٧ (ص ١٦٧) ، والناصر الأموي يطلب الصلح والمعز يرفض لأنه ادعى الخلافة ، وهي وقف على الأئمة (ص ١٦٨) . والمعز يجيز الجيوش الى المغرب لتطهيره من أتباع الأمويين (ص ١٧٠) ، واستمرار العلاقات مع الأندلس (الى ص ١٧٦ - ١٧٩) . ومباهات الناصر بصناعات الأندلس ، وسخرية المعز من ذلك ، اذ لا فخر - في نظره - بأهل الصنائع (ص ١٨٠ - ١٨١) . استنادا الى قصة فخر المصري على اليماني ، عندما قال له : انما أعمل اليمن بين حالك يرد ، ودافع جلد ، وسائس قرد ، فذمهم بذلك - وهو الأمر المستغرب ، كما نرى ، عندما يصدر على لسان مصري ، الا أن يكون عربيا نبيل لا يقوم بالأعمال اليدوية . وفي مفاخر أهل إفريقية وأهل الأندلس يعتد الناصر بجنوده معتزا ، ويحط من شأن البربر الأفغان ، والمعز بدوره يحقر أهل الأندلس المتصفين بالجهل والحق والرقاعة (ص ١٨٩ - ١٩٠) . اما عن لجوء أهل إفريقية الى الناصر بسبب الحرية لأهل المذاهب ، كما يرى ، فالحقيقة عند المعز انما بسبب طلبهم للمال الدنيا وحطامها ، من : شرب الخمر والمجاهرة بالمعاصي (ص ١٩٠ - ١٩١) .

ويعد ذلك هناك ذكر لقتل يعلى اليفرنى (سنة ٤٣٧ هـ / ٩٥٨ م ص ٢١٧ ، ٢٧٥) ، وقصد ابن واسول صاحب سجلماسة وأسر (ص ٢١٧) .

٢٥٥ ، ٣٨٨ ، ٤١٨ ، ٤٣٤ ، ٤٤٥ ، ٤٥٨ ، ٤٨٣) . والاشادة بكنامة
(ص ٢٥٥ ، ٣٢١) .

أخبار المعز :

أما عن أخبار المعز ، فالى جانب ما سبق ، يذكر النعمان أن مخايل
النجابة والعبطة كانت بادية عليه منذ كان صغيرا ، فهذا ما يفهم من الرواية
التي تقول انه عندما عرضت عليه فاكهة جميلة فى طبق ثمين ، وقيل له
خذ الفاكهة وأترك الطبق ، عرض هو العكس من ذلك فقال : بل آخذ الطبق
وأترك الفاكهة (ص ٥٤١) . أما المعز خليفة فهو لا يشك فى افتتاح المشرق ،
رغم ان الذى طرد البربر من هناك نبي (داود) ، لأنهم أولياء الأئمة
(ص ١٣٨) . والمعز يعلم رجال كنامة الاحتجاج لولائهم للأئمة ، ويضرب
لهم المثل بما فعله الخليفة العباسي المكتفى عندما أخرج القرمطي بقوله فى
مسألة الخلافة : « ان العلم أولى من ابن العم » فلم يجر جوابا . وإذا كان
المعز لم يقدم الجواب هنا ، فالمعروف أن الإمامة فى الفكر الشيعي -
يالنص والوصية ، وليست بالاختيار ، والا جاز للأمة أن تقيم نبيا . ومثل
تهكم المعز من جهل رسول ملك الروم ، الذى جاء يطلب هدنة مؤبدة ،
ياصول الاسلام الذى يمنع من ذلك (ص ٣٦٧) . ورؤية المعز لأمر قاس :
أحمد بن بكر أسيرا ، فى منامه (ص ٢٨٥) وكذلك الأمر بالنسبة للنصارى
الأموى الذى رآه فى منامه فى حالة مزرية ، فى ازار وعلى رأسه طرطور
- رمز الشهوة - ويده مغلولة الى عنقه (ص ٣٦٤) ، وإن كنا لا نحاول
تفسير الرؤى أو الأحلام فمن الواضح ان ذلك يعنى هموم المعز وحاشيته
من قبل هؤلاء الأعداء الذين كانوا يقلقون راحتهم فى وقت صحوهم ويؤرقونهم
فى حالة نومهم ، حتى استمعوا ما نزل بهم من البلاء فى المنامات والأحلام .
وكتاب المعز الى طاغية الروم فى أمر أحسل اقريطش (كريت) وعقد الهدنة
لـ ٥ (خمس) سنوات ، ورسالة المعز بهذا الشأن الى الأخشيدي (ص ٤٤٢)
ثم تنبؤ المنصور للمعز بفتح مصر (ص ٥٠٧) :

وأخيرا يظهر المعز فى المجالس والمسائرات ، كواضع أسس الرسوم
للمواكب والاحتفالات ، وخاصة فيما تم أثناء الاحتفالات الكبرى سنة ٣٥١هـ /
٩٦٢ م التى تم فيها الاعذار الجماعى ثم طهر أولاده (ص ٥٥٣ ، ٥٥٦) ،
كما نهى المعز عن خروج مواكب النياحة على الموني (ص ٥٣١) .

وما يستحق التسجيل فى النهاية ، فهو ان الناسخ نقل من نسخة

للمجالس والمسائرات تمت كتابتها في ٢٩ صفر سنة ١٣٣٢ / فبراير ١٩١٤ -
بمبنى حدائق النسخة دون معرفة أصولها . ومثل هذا يقال عن كتاب الهمة
الذي لم يعثر عليه الا سنة ١٩٣٤ (نشر محمد كامل حسين ، القاهرة) .

كتاب الهمة في آداب اتباع الأئمة :

وتتلخص أهمية كتاب الهمة في أنه يعرف بحدود المذهب الفاطمي
ويشرح واجبات الأنباغ نحو الدعاة والأئمة ويبين حقوقهم المسالية حيث
يصر على وجوب دفع الخمس لهم لامام العصر ، قربي الى الله والرسول ،
يتصرف فيه كما يشاء ، وخاصة في فقراء أهل بيته . والمقصود بالخمس
هنا هو خمس مكاسب أهل المذهب (من المؤمنين) في كل عصر ، تدفع الى
امام ذلك الزمان معزكاة الأموال (انظر : حسن ابراهيم حسن ، تاريخ
الدولة الفاطمية ، ص ٤٨٠ - ٤٨٢) .

سيرة الأستاذ جوذر (ت ٣٦٢ هـ / ٩٧٣ م) :

ويأتي كتاب سيرة الأستاذ جوذر - غلام الأئمة الذي أوصى به القائم
ابنه المنصور ، فما كان منه الا أن رد على والده قائلا : « وهل جوذر الا واحد
منا » فعلا ارتفع شأن جوذر على عهد المنصور حتى أصبح المسئول عن
المهنية وسائر بلاد افريقية ، فكان أشبه بالوزير الأول (صاحب الوساطة)
وأمين سر الدولة (٣٥) .

والكتاب من النوع الوثائقي الذي يحتوي على عدد كبير من التوقيعات
أو السجلات ، أو الأحداث المتعلقة بالأئمة ، والتي شارك فيها جوذر الفتي .
والتوقيعات الجوزرية تضاهي من هذا الوجه مجالس النعمان ومسائراته ،
وربما تكرر بعضها فيه (٣٦) . فمن الموضوعات الجوزرية : خطاب المنصور
الذي يعلن فيه وفاة القائم (ص ٤٦) ، وانتهزام مخلص ابن كيداد (ص ٤٨) ،
وخطبة للمنصور يعلن فيها موت أبيه (ص ٥٥) ، ورسالة من المنصور
بشأن هدية لملك الروم (ص ٦٠) ، ورسالة من المنصور في الخارجين

(٣٥) محمد البعلادي ، الدفاتر التونسية ، ج ٢ سنة ١٩٧٤ ص ٨ و ٥ .
(٣٦) تحقيق وتعليق محمد كامل حسين ومحمد عبد الهادي شعيرة ، القاهرة ، ١٩٥٥ .
وترجمة كاتار . (Canard) الى الفرنسية .

يصقلية . ومكاثبات المعسر الى جوذر بوفاة المنصور (ص ٧٢) ، وأحمد
ابن المهدي وتشييعه على الامام وعلى جوذر (ص ١٠٥) . الخ .

عيون الأخبار وفنون الآثار :

المختصر :

ويأتي مع مجموعة الكتب التاريخية الفاطمية الاولى كتاب عيون الأخبار
وفنون الآثار للداعي ادريس عماد الدين القرشي ، وهو يمثل فقرات من الجزء
الخامس من الكتاب ، جمعها فرجات الدشراري ، تونس ١٩٧٦ ، لتكون تكملة
لرواية افتتاح الدعوة ، عن عهدي القائم والمنصور ، وبخاصة ثورة ابي يزيد
ذات التفاصيل المبهمة حقاً . في هذا الكتاب (على أساس ان مصطفى غالب كان
قد شرع في نشر السبع الرابع من الكتاب ، سنة ١٩٧٣) - ومحتوى الكتاب
يشكل أن يفهم من عنوانه الكامل وهو : عيون الأخبار وفنون الآثار في ذكر
جميل وفضائل النبي المصطفى المختار ، ووصيه على بن أبي طالب صاحب
ذي الفقار . وألهما الأئمة الأطهار (المقدمة ، ص ٩) ، فهو كتاب عام في
التشيع ، مقسم الى ٧ (سبعة) أسباع ، يبدأ الأول منها بفضائل آل البيت ،
والثاني في خلافة علي ، وكذلك الثالث الذي ينتهي بمقتله . أما الرابع فيؤرخ
للدعوة العلوية الى ظهور المهدي ، والخامس يعالج الدعوة في اليمن والمغرب
الى سقوط الأغالية وعهد المهدي ، والسادس في الخلافة الفاطمية من المعسر
الى المستنصر ، والجزء السابع والاخير في الدولة الصليحية باليمن ، والدولة
النزارية والدعوة الامرية ، وينتهي بأخر أئمة الدعوة الدعوة المستعلية .

الداعي ادريس :

وصاحب الكتاب ، وهو الداعي ادريس ، من رجال القرن ال ٩ هـ /
١٥ م . اذ تسلم الدعوة بعد أخيه الداعي علي ، في نصف النهار من يوم
الخميس ٣ صفر سنة ٨٧٢ هـ / ٤ سبتمبر ١٤٦٧ (المقدمة ، ص ١٠) -
ورغم تأخر الكتاب فإنه يعتبر منهلاً لمعلومات تفصيلية دقيقة عن الموضوعات
التي يعالجها . فعلى عكس ما قد يظن من أن الأدب الشييعي التاريخي هو أدب
منقبي ينبغي أن يؤخذ بما يناسبه من الحذر ، فإن رواية الداعي ادريس
هذه ترتفع في قيمتها الى مرتبة الوثائق في كثير من الأحيان ، اذ تستقي
أخبارها من كتب المعاصرين كالتقاضي النعمان والأستاذ جوذر وجعفر الحاجب ،
ومن كانوا على اطلاع على دواوين الانشاء والوسائل التي وثقوا بها تواريخهم

وسيرهم ، حتى أصبحت المصدر الأول لكتب الحُصوم ، من : الحوارج أو أهل السنة - وهو الأمن المستغرب *

التوثيق :

فبفضل مجموعة الوثائق التي يحويها الكتاب وخاصة ما يتعلق بشورة أبي يزيد ، من الرسائل التي كانت تصدر الى ديوان المهدي والى سائر البلدان والتي كانت تنشر على الناس من فوق المناير ، وكذلك الخطب الرسمية التي كانت تُلقي في صلاة الجمعة أو العيدين أو المواسم والمناسبات ، وأيضا القصائد الشعرية والقطع الأدبية التي أنشأها أصحابها في تلك المناسبات التاريخية ، وكل ذلك يرفع من شأن الكتاب الذي ارتقى الى مستوى الوثيقة - بصرف النظر عن المسحة المقلبية التي تعتريه هنا وهناك ، أو وجود القصص الشعبية والروايات الأسطورية جنباً الى جنب مع الخبر الموثق .

فالرحلة المهديّة من سجلماسة الى افريقية محددة المراحل والتواريخ الدقيقة ، من اسم اليوم ورقمه والشهر والسنة ، وربما مع البرج والطالع (ص ٢٥) ، ومثل هذه التفاصيل تقال عن حملة القائم الى المغرب ، وقاتل زناينة ابن خزر (ص ٥٠) .

الروايات الشعبية (الفلكلور) :

وهذا لا يمنع من تسرب روايات شعبية (فلكلورية) كقصّة أخد يعقوب بن اسحق التميمي : أخى خليل بن اسحق ، رجل الدولة وأحد قوادها اللامعين ، بل وشعرائها المداحين الى حبس بغداد ، بعده أسره في الاسكندرية ، وبقيته هناك ١٤ عاماً ، وكيفية شراء السجنان البغدادي بالأموال التي كانت تصله بمعرفة الدعاة ، ثم هربه متخفياً في زي الصوفية بعد وفاة الخليفة المعتذر ، في رواية أسطورية مدعشة ، مليئة بالفامرات العجيبة في القاهرة والفسطاط والعقد المثيرة على جسر الجيزة ، ويعقوب في زي النساء (أنظر ص ٧٢ ، ٧٣ وما بعدها) . حقيقة انه يمكن الاستفادة من الرواية الأسطورية هذه في التعرف على أساليب التخفي والاستتار مما كان يلجأ اليه المظلمون وقتئذ ، والتي كانت معروفة لدى رجال البريد والأخبار ، ولكنها تبقى أسطورية على كل حال .

توثيق ثورة أبي يزيد :

وثورة أبي يزيد مليئة بالتواريخ الدقيقة والمواضع المحددة وتفصيلات الأحداث المرفقة ، مع توثيقها بالأسانيد القوية من الكتب الرسمية والخطب المنبرية والشواهد العينية وانقصائد اشعرية ، والنوازل الشرعية ، وخاصة في الأجزاء الأخيرة منها ، منذ فشل حصار المهديّة والهرب من القيروان نحو الزاب وبلاد القبائل الكتامية . فالحصار يضيق على العسكر الفاطمي بالقيروان الى حد عودة الحمام الزاجل الذي فشل خليل بن اسحق في إطلاقه ، كما فشل هو نفسه في ليس الدرع وركوب الفرس (ص ٩٤) . وأخيرا مات خليل (أخو يعقوب صاحب مغامرة بغداد) واقفا رغم إصابته بـ ١٨ ضربة ، في ٢٣ صفر ٣٣٣ هـ / ١٧ أكتوبر من ٩٤٤ م ، كما وقع الكتاب الموجه من القائم الى قبائل لهيصة للحضور لنجدة المهديّة ، بين أيدي الناصر الذي عرف موقف القائم الصعب ، فعجل باهتبال الفرصة وأسرع نحو المهديّة لحصارها (ص ١١٢ - ١١٣) .

وبمناسبة الانتصار على الناصر الزناتي ومقتل أهل القيروان الذين كانوا معه ، أنشأ الداعي الأجل جعفر بن منصور اليمنى (الحسن بن فرج ابن حوشب) قصيدة ، يؤمن فيها على حتمية انتصار الامام على أعدائه ، منها :

سيهزم الجمع اذا جازوا لحربكم والمارقون فقد خابوا وقد خسروا
فكان وعنه أمير المؤمنين لكم حق به جاءت الآيات والسور

مقتل ميسور - علم الحداث :

أما عن مقتل القائد ميسور الفتى بالقيروان (ص ١٠٥) فانها تصبح مشكلة عندما يعود الى الظهور في فاس ولا بأس أن يكون شخصا آخر اسمه مسرور (أنظر فيما بعد ، ص ٥٣ ، ١٩٣ وهـ ٢) أما عن النصر الذي حققه المنصور ، فكان كما المهدي يعرفه واسماعيل جتين في بطن أمه ، اذ كان ينجيه قائلا : « كاشف المحنة ومطفى نار الفتنة » (ص ١٦٢) . وعندئذ يضيق الحال بأبي يزيد ، يوجه ابنه الى الأموى بالأندلس يستنصره (ص ١٨٨ ، ٢٠٠) .

شجاعة المنصور :

وأعمال الامام الحربية وشجاعته الفردية لها طابع منقبى ، فهو يخترع

بنفسه لايسا لامته منقلدا سيف الله ووصيه ذا الفقار ، وياخذ الرمح بيمينه ، ويعتقل درقة على يساره ، ويتمادى الى قصر العدو (ص ١٨٥) .
وهزيمة الثائر يوم الجمعة بالقيروان موثقة بالرسالة الموجهة الى أمير المؤمنين القائم (الذى أخفيت وفاته) وهى بتاريخ ٢٩ ذى القعدة سنة ٣٣٤ هـ /
٤ يولية ٩٤٦ م ، والداعى أدريس يقصص هنا عن مصدره ، وهو « سيرة المنصور » لأبى نصر الذى ما زال مجهول الهوية . والامام وهو يطارد أبا يزيد فى المرحلة الأخيرة ، يلبس جوشنا فوقه خفتان أحمر مثقل بالوشى ، ويعتمر عمامة صفراء . ويبلغ الضر فى المعسكر أثناء المطاردة الى حد انعدام العلف ، حتى بلغ ما تحتاجه الدابة من الشعير ١/٢ دينار من الذهب ، وقفيز الزيت دينارا ٠٠ حتى مات أكثر الخيل والجمال (ص ٢١٩) .

نهاية أبى يزيد :

وأخيرا يلجأ أبو يزيد الى قلعة كيانة ، وبعد قتال ليلى على ضوء المشاعل ، يقوده المنصور وهو فى ثوب أحمر موشى ، مذهب الالمام ، وعمامة حمراء معلية الطرفين مذهبه ٠٠٠ ، يقع الثائر المثخن بالجراح أسيرا (ص ٢٦١) . وكتاب الامام الذى يحمل بشارة الفتح مؤرخ فى ٢٥ محرم سنة ٣٣٦ هـ / ١٨ أغسطس ٩٤٧ م (ص ٢٦٧) . اما عن مناظرة الثائر فقد انتهت بافحامه واقامة الحجّة عليه ، فقد سئل : تشبستم على ابن أبى طالب ! فأجاب : معاذ الله ٠٠٠ نحن حزبه ، فرد عليه الامام :
الله مؤيده . وسئل : ألم تشبستم من هو خير من خيرات على ؟ (النبى) ، فأجاب : معاذ الله ٠٠ كان كريما حوله قوم سوء . اما عن ارتسكاب المحارم ، فكان جوابه : انها من قوم سوء اتبعولى (ص ٢٧٠) .

الرسائل الرسمية والخبث المنبرية :

والى جانب المعلومات التاريخية فان الرسائل الرسمية والخطب المنبرية تفيد الدارس من حيث تعريفه بالتراتب الديوانية الخاصة بها من البدء باليسملة ثم الحمدلة والتصلية والتوصية ثم موضوع الرسالة أو الخطبة ، ومكان الكتابة وتاريخ الرسالة .

وتنتهى عيون الأخبار باقامة المنصور بالمهدية الى سلخ صفر ، ثم استعماله لعيمه جودز على المهديّة ، والانتقال الى المنصورية فى ربيع الأول سنة ٣٣٧ هـ / سبتمبر ٩٤٨ م .

وهكذا يحتوى الكتاب على روايات تفصيلية دقيقة عن الصراع ضد الزنانية ، لا يقلل من قيمتها تلك النزعة المنقبية الخاصة بأعمال الأئمة وخاصة المنصور بطل النصر ، الى جانب بعض القصص الشعبية (الفلكلورية) كذلك الذى يعالج مقامرات يعقوب بن اسحق .

هذه المجموعة من الكتب الاسماعيلية الفاطمية تعتبر المصدر الأساسى للفترة الأولى من تاريخ الدولة الفاطمية ، فترة التأسيس فى المغرب ، وعننا نقل كبار المؤرخين من أصحاب التاريخ العام ، مثل : ابن الأثير والنويرى ، وابن خلدون ، أو أصحاب تاريخ المغرب الخاص مثل : الرقيق القيروانى (الذى يأخذ عنه الكثيرون أيضا كابن الأثير والنويرى وصاحب العيون والحداثى وابن خلدون) وابن حمادة وابن عذارى . وما يسترعى الانتباه ان تلك المصادر الشعبية كانت رافدا لكتب الأباضية الخوارج ، مثل : سيرة أبى زكريا الوردلانى وطبقات الدرجين وسير السماخى .

من كتب الأباضية :

الدرجيني (أبو العباس أحمد بن سعيد) (ت حوالى ٦٧٠ هـ / ١٢٧٢) :

والدرجيني ينتسب الى مدينة درجين ، إحدى قواعد الأباضية ، فى بلاد الجريد قرب نفطة ، له كتاب الطبقات (طبقات المشايخ بالمغرب) الذى نشره مؤخر ابراهيم طلال ، البليدة (الجزائر) فى جزئين ، أولهما بمثابة عرض تاريخي لجماعات الأباضية فى المغرب مع بيان نظمهم وترائيبهم ، والثانى فى طبقاتهم المنتقلة فى اثنى عشرة طبقة . والكتاب يعتبر تكملة لكتاب السير لأبى زكريا (٣٧) .

(٣٧) انظر موتيلينسكى ، ثبت مصادر بلاد المزاب (الزاب) ، كتب المذهب الاباضى ، والفرنسية ، الجزائر ، ١٨٨٥ (Motylinski, Bibliographie du Mزاب) ص ٢٦ - حيث الاشارة الى كتاب السيرة
les livres de la secte abadhite) وأخبار الأئمة ، تأليف الشيخ أبى زكريا يحيى بن أبى بكر الوردلانى ، وحيث يقول موتيلينسكى انه اطلع على النسخة التى عملت عليها نسخة مسكراى (Masqueray) الجزائر ، ١٨٧٨ ، وأنه استطاع أن يحسن النص وأن يخفى الاخطاء الرئيسية بالمقابلة مع نسخة أخرى ، مع رفع أقوال أبى زكريا من كتاب الطبقات ومن سير السماخى - وعن التعريف بكتاب أبى زكريا ، مخطوط دار الكتب المصرية ، انظر كتابنا فى تاريخ المغرب العربى ج ١ ، ص ٣٨ - ٤٠ .

التحقيق :

والظاهر ان المحقق رأى أن ينشر المخطوط دونما تغيير أو تعديل فلم يصحح أسلوبه ولم يحقق موضوعه ، نزاهة من جانيه أو احتراما للنص الذى يمتن أن يكون أصليا رغم ما فيه من العيوب الاملائية والنحوية أو النغوية والموضوعية . فعلماء المذهب من البربر المستعربة الذين قد لا يجسدون اللغة العربية ، والمثل لذلك شيخهم وأشهرهم : أبو زكريا الذى امتنع مشايخ (عزابة) جربة من ارسال كتابه « سير الأئمة » الى مشايخ عمان لتعريفهم - بناء على طلبهم - « بسير الأخوة الأوائل فى المغرب ومناقب أسلافهم » اذ « وجدوا انه ليس كاملا (زمنيا) وان أسلوب المؤلف يظهر فيه الاثر البربرى ، وعدم الدراية بالنحو والمصطلحات العربية » . ورغم النص على أن ذلك كان السبب فى التفكير فى كتاب يحوى تاريخ الأئمة الرستمية ومناقب الفقهاء القدامى ، ووقع الاختيار على الدرجيني للقيام بهذا العمل ، فكان تأليفه لكتاب الطبقات (٣٨) ، فلا بأس أن تكون الأخطاء اللغوية والاصطلاحية من قبل النساخ .

الأخذ عن أبي زكريا :

والدرجيني عندما يعرض لأخبار عبيد الله (عبد الله) المهدي وظهوره فى المغرب يعتمد اختزال رواية الشيخ أبي زكريا الورجلاني والنقل من كتاب الرقيق (ج ١ ص ٩١) . والأصل فى الحقيقة هى الرواية الشيعية المنقبة للداعى جعفر ، فيما يتعلق برحلة المهدي الى سجلماسة (٣٩) . فهو عندما يعرض لأخبار أبي يزيد ، صاحب الحصار ، يعبر عما يكنه الوهبة لآخوانهم الأعداء من النكارية (الأباضية) ، اذ يصف أبا يزيد بـ « الناكثي » وأن ظهر بمظهر الخبير فى التاريخ لسيرته ، حيث يهتم بالتفصيلات الصغيرة عن أصله عند الرقيق ، ويقول عن مسكنه بقلعة سدادة من تقيوس (تقيوس) بانه وهم أو غلط (ج ١ ص ٩٦) . اما عن فكرة الثورة فقد أتته وهو لاجئ فى مصر - وهو الأمر المستغرب - وذلك عندما نظر اليه رجل من أهل مصر وقد حلق رأسه ، وقال له : غط رأسك أيها الثائر - فكان حلق الرأس الذى عرف به الحوارج فى المشرق والذى كان عادة من عوائد البربر ، كان

(٣٨) انظر مرقينسكى ، كتب المذهب الاباضى ، ص ٢٩ .

(٣٩) ج ١ ص ٩٢ - حيث السكنى فى الدار العالية ، ورؤيا الثعمان العظيم التى تعبر

عن شخصية الامام العامة .

قد أصبح شعارا للثورة . هذا ، الى جانب ما كان قد طوّل به في بعض البلاد التي سلكها في مصر أيضا ، بمكس (ضريبة مرور أو « ترانسييت ») فاستعظمه (ج ١ ص ٩٧) .

أخبار أبي يزيد :

وقصة هرب أبي يزيد من سجن توزر من النوع الروائي المثير ، وهي تذكر بقصة هرب يعقوب بن اسحق من سجن بغداد بعد أن قضى به ١٤ عاما ، مما سبقت الإشارة اليه في عيون الأحيار للداعي أدريس . والرواية هنا تقسم أدوار تخليص أبي يزيد من سجن توزر على ٤ (أربعة) مسلحين بالسيوف ، واحد يقف على باب المدينة (ليضمن عدم اغلاقه) ، و٣ يذهبون الى السجن ويكسرون بابه ويقتلون السجان . وأحدهم يحمل أبا يزيد في كبوله والآخران يسيران أحدهما أمامه والثاني خلفه ، وهما يقتلان كل من يتقدم نحوهم . وتنجح الجماعة في الوصول الى جبل أوراس حيث يحاصرون هناك لمدة ٧ سنوات — مما يذكر بحصار عبد الرحمن بن رستم في جبل ثاهرت — حتى قال قائلهم ، لما نزل بهم من الشدة والضرر « جبل لا يصعد ، ومطر سكب ، وفتى مستقصى (القائم) وشيخ (أبو يزيد) لا ينتهي ، ونحن المبتلون » . وهذا الحصار المحكم لا يفك الا بحيلة غريبة من تدبير أبي يزيد ، لا ندري مقدار نصيبها من الصحة أو الخيال اذ تطلبت في وقت الشدة هذا ٥٠٠ ثور توضع في قرونها وذيلها الحلفاء المشتعلة ، ويقودها ٥٠٠ من الشجعان لكي تكتسح عساكر الأعداء . والحقيقة انه الى جانب القصص المستطرفة يهدف المؤلف الى اعطاء العبرة والموعظة عن طريق المثل والرمز . فعندما يفكر أصحاب أبي يزيد ، بعد فك الحصار ، في النار من الوحشية لقتل زعيمهم الأول ابن فندين ، يقول لهم : « أن نحن تخلصنا وتفرغنا من نسج الكساء ، اشتغلنا بقلبه » (ج ١ ص ٩٩) .

وزير أبي يزيد ، وهو أبو عماره (أبو عمار الأعشى) يستخدم في فتاواه رموزا كليلية ودمنة ، مما يحض على القتل وسفك الدماء ، مثل : « ليس أرواح للقلب من قتل عدو ، وإن بلغ من الضعف النهاية » (ج ١ ص ١٠٠) .

خلط الرواية المنقبة بالخبر العادي :

والدرجيني هنا يخلط الرواية المنقبة حينما بالخبر العادي للأخوة

الأعداء من النكارية أحيانا . فتخريبهم للقبروان لا يعادله الا أفعال نافع .
ابن الأزرق القديمة (ج ١ ص ١٠٠) - وهكذا كان عدد القرى التي خربت
على يديه ٣٠ (ثلاثين) ألف قرية ، وهو نسبيا ، عدد فلكي ، كما نظن .
أما عن القسوة والفجور وأنواع الفساد التي تمت على أيديهم فلم تفعله
ولا ملوك الكفار (ج ١ ص ١٠٠) .

وهو بين ذلك يأتي برواية منقبية ، مثل : و « كان (أبو يزيد) ..
في هذه الحركات كلها - يركب على حمار أوتي به من مصر ، فكان يعجز
الحيل ان مشى وعدا ، (ج ١ ص ١٠٠) . والمعروف ان كلمة « الحركات »
تعني الحملات ، وهو مصطلح ظهر في المغرب في وقت متأخر على عهد
الموحدين ، اما نسبة حماره الى مصر التي اشتهرت بمواقف الحمار التي كانت
تؤدي للناس خدمات أشبه ما تكون بخدمات النقل العام في المدن الحديثة ،
الأمر الذي كان يثير عجب الرحالة المغاربة ، فهي غير صحيحة اذ المعروف
أن أبا يزيد أهدى اليه حماره الأشهب الذي نسب اليه ، عندما دخل مدينة
مرماجنة ، على حدود بلاد الزاب .

تحريف الروايات :

ومن الروايات التي ظهرت محرفة في عدة أشكال ، تلك التي تقول
ان « عزايته » (أي الشيوخ من أصحابه وتلامذته) أخذوا صبيتين جميلتين ،
وأنه عندما حضرت أمهما اليه تقول له انهما (ابنتيهما) حرتان ، قال لها :
وهل في أفريقية حرة ؟ الأمر الذي أدهش المرأة وجعلها تخاف على نفسها .
فهربت (ج ١ ص ١٠٠) . والرواية هنا تحورت عما كانت عليه في أواخر
القرن السادس الهجري / ١٢ م ، يعني قبل مائة سنة ، من حيث ان الذي
كان يبحث عن ابنتيه هو أبوهما الذي كانت قد صودرت أمواله ، والذي وجد
ابنتيه معا على قراش أبي يزيد ، وان أبا يزيد قسر استحلاله لهما بـ « ملك
اليمن » (الاستبصار ، ص ٢٠٦) - يعني بالسبي ، فكأنه يكفر المسلمين .
ويستحل دماءهم وأموالهم .

الحدثان والقصص الشعبية :

أما عن حصار المهدي فقصته علم الحدثان حيث تقول الرواية
الفاطمية بانتهاء الثورة عندما يصل أبو يزيد الى باب المدينة ، وهي الرواية
التي تحولت عند الدرجيني الى قصة شعبية ، تقول « ان أبا يزيد يخيب اذا ضرب

فى ذلك الصراع ، ويصيب ان ضرب فى الصراع الآخر » ، وان المدافعين عن أسوار المدينة كانوا يرون ذلك حتى ان بعض من فى البرج قال لأبى يزيد : « أخطأت يا شيخ » . ومثل هذا يقال عن قصة أسر أبى يزيد التى تأخذ شكلا « فلكلوريا » هى الأخرى ، اذ تجعل الأسر بعد هزيمة القيروان مباشرة ، كما يجعل من أبى يزيد التعب من الجراح يلقي بيده على أحد الجنود الفاطميين ممن كانوا يتبعونه ويقول له : « خلصنى ، أنا أبو يزيد » (ج ١ ص ١٠١) . وهنا نرى أنه لا بأس فى أن تكون تلك القصة رمزا لفكرة رفض التقيّة (أى الستر والكتمان) عند المتشددّين من الخوارج . هذا ، كما ان قصة قتل رجال الفضل ابن أبى يزيد بأيدى المزانين ، حلفاء الوهبية ، تبين ما كان يضره هؤلاء من الحقد على النكار (ج ١ ص ١٠١) ، الأمر الذى يعنى الوقوف الى جانب خصومهم الفاطميين ، وهو ما يظهر فى قصة الشيخ أبى القاسم الذى كان أثيرا لدى المعز لدين الله (ج ١ ص ١٢٣) .

وهكذا تتمثل أهم سمات الرواية الأباضية فى تطور الروايات الشعبية الفاطمية فيها ، من منقّية وأخبارية حقيقية الى قصص أسطورية وحرفات شعبية ، وهو الأمر غير المستغرب طالما كانت الكرامة هى السمة المميزة لمشايخ المذهب .

المختبىس لابن حيان القرطبي (ت ٤٦٩ هـ / ١٠٧٦ م) :

الجزء الخامس ، نشر : ب شالميتا . (Chameta) وف - كورينطى (Corriente) وم . صبح ، المعهد الأسباني العربى للثقافة - مدريد — كلية الآداب بالرباط .

العلاقات الأموية الفاطمية :

وهذا الجزء يتناول أحداث الأندلس على عهد عبد الرحمن (ابن محمد) الناصر ، لمدة ٣٠ سنة ، من ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م الى ٣٣٠ هـ / ٩٤٢ م . والمهم بالنسبة لموضوعنا فيه ، هو العلاقات بين الأمويين فى الأندلس والفاطميين فى المغرب ، والتى تتمثل بشكل خاص فى الصراع بينهما من أجل الهيمنة على المغرب الأقصى الذى أصبح ما بين الأندلس الأموية وأفريقية الفاطمية ، وكأنه أرض حرام فاصلة ، أو جبهة قتالية بين جيشين متواجهين ، يمكن لأى منهما أن يجوبها فى أى وقت .

وكان من الطبيعي أن تؤدي العلاقة الحربية العدائية بين الدولتين - في سبيل السيادة على المغرب الأقصى - إلى محاولة اكتساب الطرف الثالث المتمثل في قبائل المغاربة من البربر ، وخاصة الزناتية ، عن طريق الترغيب والتهديد بالمال والسلاح أو الدعاية ..

الدعاية والدعاية المضادة :

وفي مجال الدعاية والدعاية المضادة لها اتخذ الأمر من جانب الأمويين على عهد عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ / ٩١٢ - ٩٦٦ م) ، شكل هجمة دعائية مناهضة للفاطميين أشبه بعملية إحياء لذلك الصراع القديم بين العلويين والأمويين ، الأمر الذي أدى إلى تيسادد اللعنات من أعلى المنابر (٤٠) ، وكذلك الصراع بين الأمويين والعباسيين الذين استحوذوا على الخلافة المروانية . وهكذا لم يكتف عبد الرحمن الناصر باتخاذ اللقب الخلفي في قرطبة بل انطلقت أبواق الدعاية الأموية في الأندلس والمغرب تطالب باسترجاع أسلاك خلافة دمشق من بين أيدي مفتصبيها علويين كانوا أم عباسيين .

موقف أمراء المغرب :

فالناصر يسمى عبيد الله المهدي باليهودي (ص ٢٥٩) ، وكذلك أمراء المغرب المواليين له ، مثل الحير بن محمد بن خزر الذي يطلق أيضا على تاهرت التابعة للفاطميين اسم « دار المشركين وماوى الملحدين » (ص ٢٦٠ ، ٢٦٢) . وإذا كان من الطبيعي أن يدخل أكثر الإدارسة الحسينيين في دعوة عبيد الله « الضالة » . . . انحرافا عن بني أمية للأحقاد القديمة (ص ٢٦٢) ، فمن الغريب أن بعضهم مثل : ادريس بن ابراهيم السلیماني الحسني ، أمير أرشقول ، دخل في طاعة الناصر سنة ٣١٦ هـ / ٩٢٨ م ، وصار في أهل ولايته (ص ٢٦٢) - ولا بأس أن يكون ذلك من قبل العلويين الحسينيين نوعا من سياسة التوازن ، التي لا تقطع الجسور تماما مع الطرفين المتصارعين على بلادهم . وإن كان ادريس بن ابراهيم هذا ، قد بالغ في محاولة التقرب من الأموي عن طريق المغالاة في الاسفاف في شتم ابن عمه ، والادعاء بأنه السبب فيما صار إليه أمر الحسينيين من الفرقة . ففي فصل من كتابه إلى

(٤٠) وهو الأمر الذي استمر عليه الأمويون في دمشق إلى خلافة عمر بن عبد العزيز الذي جعل مكان لمن على : « ان الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى » الآية ، انظر ابن الأثير ، أحداث سنة ٩٩ ، تحت عنوان : « ذكر ترك سب أمير المؤمنين علي عليه السلام » ، ج ٥ ص ٤٢ .

عبد الرحمن الناصر ، يقول ادريس : « قد انتهى ابن أمير المؤمنين سيدي
مباعدتي للطلب استواء انيهودي الخنزير ، المبدل لدين رسول الله ، صلعم ،
المعلن الكفر ، الجاحد للتنزيل ، وقيامى مع ابن خزر ولى أمير المؤمنين ٠٠٠ »
(ص ٢٦٣) فكان الرجل أصبح ملكيا اثر من الملك ، كما يقال الآن .
وهو فى فصل من كتاب آخر يخاطب الناصر ، سنة ٣٢٨ هـ / ٩٣٠ م ،
قائلا : « كنا أعزك الله ، ٠٠٠ أبناء رجل واحد ، محمد بن سليمان ٠٠ الى
أن فرق الله ملأنا بقيام هذا الدعى الغوى ، صاحب افريقية ، وافتتان أكثرنا
بالتعصب له ، ٠٠٠٠ وعصمنى بولاية أمير المؤمنين ٠٠ فتبرأوا (بنو عمه)
منى ، والمتوكل بتأليبهم على : محمد بن ادريس ، وابن أخيه الحسن بن عيسى
المعروف بابن أبى العيش ، الادريسيان ٠٠٠٠ ، ومنهم القاسم بن ابراهيم
والحسن بن عيسى (٦٣ - ٢٦٦) » .

وهكذا لم يكن من الغريب أن يغالى غير العلويين من أمراء المغرب فى
سباب عبيد الله ودولته ، ويبالغ فى مديح الناصر وعثرته . فمن فصل فى
كتاب محمد بن خزر الزناتى ، الى الناصر يقول : « ما قمت بدعوتك الا
تقربا الى الله تعالى ، وتوصلا الى قتال كفار المشارقة ٠٠ فانك يا أمير
المؤمنين ، ولى كل بربرى على الأرض ، اذ بنى أميه هداهم الله للإسلام ٠٠٠
فمن كفر منهم هذه النعمة ، فهو كافر بالله ورسوله موليا ، ثم لا يقبل الله
له صدقا ولا عدلا ٠٠٠ » (ص ٢٦٦) ، فكان الخليفة الأموى القرطبى قد
ارتقى فى سلم الولاية والطاعة الواجبة له الى مرتبة المعصوم الفاطمى من
آل النبى .

فتح سبته والدعاية الأموية الأندلسية :

والمهم انه ابتداء من فتح سبته (٣١٩ هـ / ٩٣١ م) (ص ٢٨٧) ،
وتوطيد أقدام الجيوش الأموية على ساحل العدو الأفريقية بدأت لهجة
الخطابات المتبادلة بين الناصر وأمراء المغاربة من البربر تتناول موضوع
الخلافة الأموية الوطنية كحكومة مركزية وحيدة للمسلمين ، من وجهة النظر
الشرعية (القانونية) على الأقل . ففي الوقت الذى ينص ابن حيان على
نفور أمراء الحسينيين (الأدارسة) من عبور سلطان الأندلس الى عدوتهم ،
ومحاولة زحفهم الى سبته و اخفاقهم يسجل فضلا من رسالة بنى محمد بن
ادريس الى الناصر ، فيه : فمرنا بما أحببت ، وناهض بنا من أردت ، فنحن
جندك على أعدائك ٠٠ ولك العهود المؤكدة بالوفاء ٠٠ لأننا لم ندخل البلد عن
افتتاح افتتحناه ٠٠ مع الذى تقدم من فعل جدنا الحسن بن على ، رضه .

في التسليم لسلفك (ص ٢٩٠ ، ٢٩٢) - فكان الأدارسة الحسينيين يعترفون بشرعية أحلافه الأموية الأولى في دمشق تاسيسا على تنازل جندهم الحسين للأمويين عن حقه في الخلافة ، كما يعترفون بقانونية سيادة الناصر على بلادهم المغربية ، تاسيسا على أنهم ، بصفتهم علويين هم يقوموا بفتح تلك البلاد ، ذلك الفتح الذي تم على أيام الأمويين في دمشق ، وبمشاركة أشهر ملوك المرابطين : عبد الملك .

وهكذا لم يكن من الغريب أن يهتبل عبد الرحمن الناصر الفرصة لكي يشيع بين الملوك البربر من أنصاره ، الوهم بأنه يعد العدة لطلب دولة أسلافه الأمويين (ص ٣٠٥) ، فكان الأمر يتعلق بعلم حدثان أموي معاكس لذلك الذي أقام عليه الفاطميون دولتهم في المغرب ثم في المشرق - والأمر الغريب أن الأمويين بالأندلس وقتئذ استندوا على نفس الأسس التي طالب بها الفاطميون عندما دخلوا مصر والتي تتمثل في عجز خلافة بغداد عن حماية الحرمين ، وتأمين فريضة الحج من الخطر القرمطي ، وهو الأمر الذي يأتي في مقدمة برنامجهم السياسي . ففي خطاب من الزعيم المكناسي ، موسى بن أبي العافية إلى الناصر ، يشير إلى أن الحدث الجلل في المشرق ، الذي يتمثل في استباحة القرامطة للكعبة وانتزاعهم الحجر الأسود من ركنه (سنة ٣١٧ هـ / ٩٢٩ م) بعد سنة واحدة من اتخاذ الناصر للقب الخلافة ، يسمح لهذا الأخير في السعي لاسترجاع ملك آبائه هناك (ص ٣١١) . ومن فصل في كتاب آخر من قبل موسى بن أبي العافية ، يدعو الزعيم البربري إلى : « مجاهدة هؤلاء الخنازير » الذين يجحدون نبوة محمد ، ويتأولون كتاب الله تعالى على غير تأويله ، ويستحلون المحارم ، ويرتكبون الفواحش جهارا » (ص ٣٧٣) ، فكانه لا فرق بين الفاطميين والقرامطة من حيث أنهم جميعا اسماعيلية ، أبناء مذهب واحد .

الوجه الحضاري لكل من المغرب والأندلس :

والذي يسترعى الانتباه في تلك المراسلات بين ملوك البربر المغاربة وبين الناصر ، إلى جانب الولاية للناصر والحث على جهاد خصومه العلويين وأتباع مذهبهم ، هو الوجه الحضاري لكل من المغرب والأندلس الذي تكشف عنه تلك الرسائل ، ممثلا في الهدايا المتبادلة بين أمراء المغاربة من الأولياء ، وبين الخليفة الأندلسي . فهذا المغرب تتركز في : « الخيل العدوية » (ص ٢٦٥ - هدية الحسن بن عيسى الإدريسي) ، والنجب ودرق اللمط ، والافراس ، إلى جانب ، وحوش الجنوب السوداني من : الأسود والسباع

والنعام (النعام) (ص ٢٦٨ - عن هدية محمد بن خزر) * أما عن هدايا
الناصر ، من انتاج الأندلس - مما كان يباهى به المعز (في المجالس
والمسائر) - فتمثل في : الملابس السنية من طرازه الخاص ، والتي يصل
عدد قطعها الى خمسين قطعة فائقة القيمة ، والسيوف من جنس الأفرنجية
المحلاة بالفضة والمنقوشة بالذهب ، الى غير ذلك من مناطق الذهب المنظومة
باللآلئ الكبار والتراصم المزينة بأحجار الياقوت الرفيعة القيمة (ص ٢١٨ -
عن هدية الناصر الى محمد بن خزر « الزناتي » ، وص ٢٩٩ - عن هدية
الناصر الى ابن خزر ومنصور بن سنان) *

هذا ، الى جانب المعونات التي كان يطلبها أمراء المغرب من خليفة
قرطبة ، مثلما فعل ابن أبي العافية عندما طلب بناء مدينة في ساحل
أرشقول ، فأرسل له مهرة العمال والعرفاء ، الى جانب ما طلبه الأدارسة من
ارسال طبيب مداء ، وهمسو الأمر الذي يعني أن المغرب حتى ذلك القرن
ال ٤ هـ/ال ١٠ م ، لم يكن مستقلا حضاريا عن الأندلس التي كان لها
نفوذها المدني والثقافي في العدة المغربية حتى قيام الدولتين : المرابطية
والموحدية ، وهو الأمر الذي أصبح موضع جدل بين شباب علماء المغاربة
الآن ، وهو الأمر الذي ما زال في حاجة الى مزيد من البحث والتقصي لحسمه
لصالح المغرب ، عن طريق الاتيان بالشواهد والبيانات الجلية ، اذا أمكنهم
ذلك .

البيان لابن عذارى المراكشي (ت بعد ٧١٢ هـ / ١٣١٢ م) (٤١) :

يعتبر كتاب البيان لابن عذارى ، رغم تأخره النسبي مفيدا حتى
بالنسبة لأقدم فترات تاريخ المغرب الاسلامي ، من الفتح الى قيام الأغالبة
والفاطميين ، وحتى قيام المرابطين والموحدين وبني مرين . وابن عذارى من
هذا الوجه مؤرخ موهوب ، يفهم التاريخ على أنه التاريخ الشامل بمعناه
الحضاري الذي يجمع ما بين أمور السياسة والاقتصاد والاجتماع والثقافة ،
فكانه في أحوال العمران والاجتماع الانساني ، كما عند ابن خلدون ، وهو
في الحقيقة من مصادر ابن خلدون الذي أضرب عن ذكره في بعض الأحيان ،

(٤١) البيان المغرب في اخبار المغرب ، ج ١ (من الفتح الى القرن الرابع الهجري / ١٠ م)
تحقيق ومراجعة ج . س . كولان ، ١ . ليلي بروفنسال : دار الثقافة ، بيروت . وكذلك :
مكتبة صادر ، بيروت ، ١٩٥٠ - التي سنمطها رمز : د ط : بيروت .

وابن عذارى يحسن اختيار أخباره في مظاهرها . الأمر الذي جعل بيانه وثيقة تاريخية لا يستغنى عنها مؤرخ المغرب بالنسبة لأي عصر من العصور . ورغم أن مشروع البيان كان القصد منه كتابا مختصرا ، فإن المؤلف جمع لهذه وللمه من الكتب الجليله ، مقتطفا عيونها ، مقتضيا فتونها ، وواصل الأحداث بعضها ببعض من قديم وحديث (خطبة الكتاب ، ص ٢) .

وجهه النظر السنية :

ورواية ابن عذارى ، فيما يتعلق بالعصر الفاطمي ، تأخذ بوجهه النظر السنية المناهضة للدولة الشيعية الاسماعيلية ، ومع ذلك فهي تنصف بالاعتزان من حيث انها تجمع بين الأخبار الشيعية الأصلية المستقاة من كتب النعمان وغيره من الدعاة ، الى جانب الأخبار الإباضية المعادية (من حيث المبدأ) والسنية الملتزمة (قبل الجماعة) . فابن عذارى يستقصي كل أخبار الفاطميين من شاوردها وواردها ، على كل مستوياتها ، من أحداث السياسة والدبلوماسية والتراجم والموايد والوفيات والكوارث الطبيعية ، وكل ذلك موثق بالتواريخ الأكيدة ، والتفصيلات المثيرة ، في توازن بديع . وهو في كل ذلك لا يغفل عن وجهة النظر التي يساندنها ، وهي الموقف السني المعارض للتشيع الاسماعيلي . فهو فيما يتعلق بثورة أبي يزيد وتحالفه مع مشايخ أهل السنة بالقيروان يعزف عن الروايات الشيعية ، ويأخذ بالرواية السنية الخاصة بفقهاء أهل القيروان وعبادهم ، مما في كتاب ابن سعدون الذي سماهم رجلا رجلا ، ووصف اجتماعهم في المسجد الجامع ، وما معهم من الطبول والبندود المكتوب فيها آيات الجهاد (٤٢) .

(٤٢) ج ١ ص ٢١٧ - وابن سعدون هو أبو عبد الله محمد بن سعدون ، واسم تالفه : « تمزية أهل القيروان بما جرى على البلدان من هيجان الفتن وتقلب الأزمان » وهو معاد للفاطميين تماما . إذ يكتب نسب المهدي العلوي ، ويرى انهم قرأطة (ص ٢٨١) ، وهو في ذلك يقول : انه عندما مات المهدي لم يعرف القارئ ماذا يقرأ ، لأن الحجر الأسود كان لديه بالمهدية منه أن أرسله اليه الجنابي القرمطي ، وأن القبر طرح جثة المهدي عدة مرات حتى رد ابنه النائم الحجر الى موضعه (ص ٢٨٤) - والمذكور أن الذي سمى في رد الحجر هو المتصور بن القاسم سنة ٣٣٩ هـ . وتستمر رواية ابن سعدون المعادية حتى خلافة عبد المجيد بن المستنصر ، وحتى سنة ٥٣٢ هـ / ١١٣٧ م . أما عن دمار القيروان فمراجع ابن عذارى هو ابن شرف (ص ٢٨٨) .

كشف السياسة الفاطمية المفروضة :

وابن عذارى يعمل على كشف سياسة الفاطميين المفروضة . فعلى المستوى السياسى يبين كيف أمر المهدي بقلع اللوحات التذكارية التى وضعها الأغالية على مبانيهم وكتب عليها اسمه (ج ١ ص ١٥٩) . وفى السياسة الدينية يوضح كيف أظهر المهدي التشيع القبيح ، وكيف أن مذهبه خالف السنة من حيث سقوط يمين الحنث عمن طلق البتة واحاطة البنات بالبراث . كما يورد الشعر الذى يعبر عن الغلو فى تعظيم المهدي (انظر ج ١ ص ١٦٠) . وفى تبجيل المهدي وعصمته يتكلم عن علم الحدثان الذى كان يرفقه (ص ١٦٠) ، حتى بلغ الأمر حد تعظيم خيل المهدي التى قيل ان اروائها وأبوالها طاهرة (ص ١٨٤) .

المسالية :

وفيما يتعلق بالسياسة المسالية المتشددة التى اتبعها المهدي ، ينفرد ابن عذارى بالرواية التى تقول ان عبيد الله أمر بأن يكون الحاج عن طريق المهديّة لأداء ما عليهم من الضرائب ، بينما الطريق السوى الى الحج هو طريق مصر وليس طريق المهديّة (ج ١ ص ٨٦) .

هذا فيما يتعلق ببيان ابن عذارى عن المذهب الفاطمي ومؤازرته لأهل السنة . أما عن تبيين أخباره التاريخية القيمة فهو ما يظهر على طول الكتاب بالنسبة لأفريقية وأخبار صقلية بخاصة ، حيث يقدم معلومات مدهشة لا يتوفر لها نظير فى غيره من المصادر . وابن عذارى يستقصى أخبار صقلية على طول السنين ، ويكاد يجعل منها حوليات متكاملة منذ ثورة ابن قره ب ، عميل بغداد سنة ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م (ج ١ ص ١٦٨) الى الانقلاب سنة ٣٠٣ هـ / ٩١٥ م (ج ١ ص ١٧٤) ، والغارات على جنوب إيطاليا فى سنوات ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م ، ٣١٣ هـ / ٩٢٥ م ، ٣١٥ هـ / ٩٢٧ م ، ٣١٦ هـ / ٩٢٨ م ، ٣١٧ هـ / ٩٢٩ م ، ثم فتح جنسوة ٣٢٢ هـ / ٩٣٤ م أول ولاية القائم ثم الاضطرابات التى عرفتها صقلية ما بين ٣٢٥ هـ / ٩٣٧ م ، ٣٢٩ هـ / ٩٤٨ م ، أثناء ولاية خليل ابن اسحق القاسية التى ألجأت الكثير الى الفرار الى بلاد الروم والتنصر هناك (ج ١ ص ٢١٥) .

الثورة الكتامية :

ومن أحداث العهد الزيرى التى يوردها ابن عسذارى ما يشير الغرابة

حقا ، مثل ثورة آبي الفهم الحراساني الداعي بكثامة ، الذي ضرب السكة واتخذ النقود رمز السيادة ، الأمر الذي أدى الى الانتقام منه انتقاما مروعا عندما قتل سنة ٣٧٨ هـ/ ٩٨٨ م حيث مثل بجسده فشويت كبده وأكلت ، بل وشرح لحمه وأكل من قبل عبيد الأمير (ج ١ ص ٢٤٣) ، الأمر الذي يجعلنا نفكر فيما إذا كان عبيد المنصور الزيرى من السودان هؤلاء قد استجلبوا من بلاد أكلة لحوم البشر - أم أن فى الأمر مبالغة اقتضتها فكرة النار من العدو بلوك كبده ، مما فى الشطرة الأولى من الخبر المروع .

المعز ونهاية التشيع :

وتبين رواية ابن عذارى أن ولاية المعز بن باديس كانت بمثابة بداية النهاية بالنسبة للمذهب الشيعى فى بلاد القيروان ، ابتداء من سنة ٤٠٧ هـ/ ١٠١٦ م حيث مقاتل الشيعة ، أما عن قطع المعز بن باديس للدعوة الفاطمية من أفريقية (ص ٢٧٤) فيضغ لها تاريخين أولهما فى سياق أحداث ٤١٧ هـ/ ١٠٢٤ م (ص ٢٧٣) وثانيهما ، وهو الأقرب الى الصحة على ما نرى ، سنة ٤٤٠ هـ/ ١٠٤٨ م (ص ٢٧٧) . أما عن وصول العرب الهلالية الى القيروان فكان سنة ٤٤٣ هـ/ ١٠٥١ م (ص ٢٨٩) - وهو الأمر المتفق عليه - والروايات هنا عن قطع الخطبة وما يتبعها من تبديل السكة وولاية العهد لثميم بن المعز بن باديس ، كلها منقولة من ابن شرف (ت ٤٦٠ هـ/ ١٠٦٧ م) ، وكذلك الأمر بالنسبة لغارات الهلالية على بلاد القيروان ، وهزيمتهم لعسكر المعز ، التى كانت موضوعا ملحيا لشاعرهم على بن رزق (ج ١ ص ٢٩٠) .

وفى سنة ٤٤٩ هـ/ ١٠٥٧ م كان انتقال المعز الى المهديّة تاركا القيروان لينهبها العرب (ص ٢٩٤) . أما عن دخول النصارى (الصقليون) الى المهديّة سنة ٤٨٠ هـ/ ١٠٨٧ م ، وما فعلوه فيها من القتل والاحراق فقد استوعب ذلك أبو الحسن الحداد فى قصيدته التى أولها :

غزا حمانا العدو فى صدد هما السما كثرة أو اللحف
جاءوا على غرة الى نفر قد جهلوا فى الجروب ما عرفوا

(ج ١ ص ٣٠١)

أما عن المرابطين فيرجع ابن عذارى الى كتاب (الأنوار الجلية فى الدولة المرابطية وكذلك : نظم الجمان فى أخبار الزمان) لابن القطان ، الى جانب

كتاب البيهقي وكتاب ابن صاحب الصلاة ، وهى فى تاريخ الموحدىن ، أى فى فترة « المطاولة » وهى الصراع بين الدولتين : المرابطية الزائفة والمرابطية الحقيقية .

البكرى (أبو عبيد عبد الله - ت ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م) :

تعتبر القطعة من كتاب المسالك والممالك ، فى وصف أفريقية الشمالية للبكرى (نشر دى سنان De Slane ، الجزائر ، ١٩١١) ، أهم وثيقة معاصرة لحركة المرابطين فى بداياتها الأولى فى صحارى المغرب الأقصى على عهد الفقيه المسالكى عبد الله بن ياسين (بعد سنة ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م - ص ١٦٤) وحتى سنة ٤٦٠ هـ / ٦٧ - ١٠٦٨ م ، حيث كان أميرهم : أبو بكر ابن عمر (ص ١٧٠) .

مسرح الأحداث المرابطية :

ورواية الشكرى الجعافى ، تقدم وصفا رائعا لمسرح الأحداث المرابطية . على طول الطريق من وادى درعة الى الصحراء وبلاد السودان ، فيركز على طبيعة الصحراء التى تبدأ من وادى تاوجا حيث التكوينات الصخرية الشبيهة بالصفاة التى يتجمع فيها الماء غير العذب (ص ١٦٣) والتى تتخللها المجابة الكبرى التى ينقطع فيها الماء فلا يظهر الا بعد مسيرة ٨ (ثمانية) أيام ، وذلك فى صحراء قبائل صنهاجة ، على بعد ٤ أيام فقط من أشهر مدن السودان الغربى وقتئذ ، وهى مدينة غانة (ص ١٦٤) .

أما عن سكان تلك الصحراء ، وأحوالهم المعاشية ، فأشهرهم بنو لمتونة الرجل الذين يجوبون تلك الصحارى على طول مسيرة شهرين فى عرض شهرين (أى حوالى ٣ آلاف كم) ، ما بين السودان الغربى وبلاد الاسلام فى الشمال الأفريقى . ويسبب الصحراء القاحلة فانهم لا يعرفون الحرث ولا الزرع ، وبالتالي فهم لا يعرفون الخبز ، وهى الأمر المستغرب ، وذلك ان معاشهم على الأنعام ، يأكلون لحومها ويشربون ألبانها (٤٣) وفى ذلك يقول البكرى : « ينفذ عمر أحدهم وما رأى خبزا ولا أكله الا أن يمر بهم التجار

(٤٣) ص ١٦٤ - وأعداد اللحم عندهم يكون بتجفيفه ثم طحنه دقيقا يسبب عليه السمسم والذباب والسم ، وشربهم اللبن ، قد غثوا به عن الماء (ص ١٧٠) .

من بلاد السودان أو بلاد الاسلام فيطمعونهم الحيز ، ويتحفونهم بالدقيق »
(ص ١٦٤) .

وبعد متونة تذكر قبيلة جدالة ، وبلادهم هي المنطقة من الصحراء
المتاخمة للبحر (المحيط) (ص ١٦٤) - بمعنى انهم يعرفون الصصيد ،
ويسارسون النفل في البر والبحر ، كما تقضى ظروف البيئة وهو الأمر الذي
لم يتطرق اليه البكري ! كما لم يتطرق الى ذكر القبائل الأخرى من المثلثين .
مثل : مسوفة ولطة .

أما عن ثروات تلك الصحراء ، فهي غنية بحيوان اللطم ، وهو حيوان
دون البقر له قرون متشعبة طويلة (أشبه بحيسوان الرنة) ، ومن جلده
تصنع أجود أنواع الدرق (٤٤) . وتكثر بها أيضا دواب الفئك التي تتخذ
منها الفراء الثمينة ، والتي تحمل من هناك الى جميع البلاد (ص ١٧١) -
فكانها « فيزون : Vison » تلك العصور . ويتوفر في تلك الصحراء
الملح في ذلك المنجم (المعدن) الذي يقع على مسافة يومين (حوالي ١٠٠ كم)
من الجابية الكبرى ، وهو يقطع في ذلك المنجم ، كمسا تقطع الحجارة (ص
١٧١) . هذا ، كما تكثر السلاحف هناك قرب جزيرة أيونا وأكثر معاش
أهلها من لحومها لفرد عظمها (٤٥) . ويعتبر العنبر الثمين من أهم ثروات
تلك الصحراء البحرية حيث يوجد على ساحل جدالة ، وخاصة في جزيرة
أيونا (ص ١٧١) .

جزولة ولطة :

وبعد ذلك هناك قبائل جزولة التي ينتسب اليها عبد الله بن ياسين من
جهة أمه ومساكنها في أقصى جنوب الصحراء ، المتاخمة لصحراء غانة (٤٦) .
وتأتي بعد ذلك قبائل لطة (ص ١٦٦) التي تنسب كما نرى ، الى حيسوان

(٤٤) ص ١٧١ - وقارن كتاب الاستبصار ، ص ٢٦٤ .

(٤٥) ص ١٧١ - حتى كان الرجل يدخل في محار ظهورها يتصيد في البحر كالقارب -

انظر الاستبصار ، ص ٢١٥ .

(٤٦) ص ١٦٥ - حيث قرية تاماناوت مسقط رأس والدة عبد الله بن ياسين . وقارن
شمرة (محمسة عبد الهادي) ، المرابطون ، ص ٢٩ - حيث يرى أن جدالة وهي نطق آخر
لكدالة وكذا التي قد تنطق في شكل جزولة وكزولة ، فكان ابن ياسين من نفس قبيلة
بجعي بن ابراهيم - حسبما يرى .

اللبط - حسب مبدأ الطوطمية - الا اذا كان الحيوان هو الذى نسب اليه
بمعنى الى بلادها ، مع اضافة سرطة ، وتريكة التى ربما كانت اصل
الطورق (٤٧) .

التقاب والخفارة والجهاد :

وجميع قبائل الصحراء هؤلاء يلتزمون بوضع التقاب على وجوههم ،
وهو فوق اللثام حتى لا يبدو منه الا محاجر العينين (١٧٠) .

وكان نشاط تلك القبائل يتلخص فى خفارة القوافل أكثر من نقل
المتاجر ما بين بلاد المغرب شمالا وبلاد السودان الغربى جنوبا ، كما كانوا
يشتهلون أيضا بالجهاد فى السودان حيث هلك زعيم لتوتة محمد تارشني ،
الذى كان معدودا ، الى جانب جهاده ، من أهل الفضل والدين والحج ، وحيث
كانت قد استقرت بعض قبائل صنهاجة ، وهى تعمل على نشر الاسلام
السنى هناك (ص ١٦٤) .

وعلى أساس الجهاد ونشر الاسلام السنى ، قامت تلك القبائل خلال
القرن الخامس الهجرى / ١١ م ، بحركة « النهضة » المرابطية التى يحلو
لأستاذنا شعيرة أن يسميها بـ « التجدد » حسب المصطلح الخلدونى (٤٨) .

حركة الحق :

ويرى البكرى أن حركة الاصلاح المرابطية هى حركة الحق التى قامت
على ٣ (ثلاث) دعائم ، هى : « رد المظالم ، وقطع المغارم ، والتمسك بالسنة
(ص ١٦٤) ، بدعوة عبد الله بن ياسين ، وزعامة يحيى بن ابراهيم
الجدالى .

(٤٧) شعيرة ، المرابطون ، ص ٣٩ - ٣١ .

(٤٨) انظر محمد عبد الهادى شعيرة ، المرابطون : تاريخهم السياسى (٤٣٠ - ٥٣٩ هـ)
ط١ القاهرة ١٩٦٩ - وفيه الاشارة الى أن أهل الصحراء كانوا أشبه بشركات الخطوط الجوية
والحديدية فى زماننا ، وأن حياة الصحراء اليوم تافهة بالقياس الى حياتها قديما ، فهذه حياة
فقر وجذب ، وتلك حياة ثروة ونشاط - و ص ٩ - حيث المقدمة التحليلية ، وفيها تقييم
ابن خلدون لحركة المرابطين الملتزمين على أنها حركة تجديد للفكر الاسلامى ، ص ٣٠ و ٣٣
و٤٢ - حيث يستخدم اصطلاح « النهضة » .

مراحل الحركة :

ونصوص البكرى لا توضح أين كان الرباط حيث دعا عبد الله بن ياسين الناس الى الانخراط فى الدعوة ولا وقت بنائه ، وان أشار الى الآتى :

١ - انقاد له فى بداية الأمر ٧٠ (سبعون) رجلا للتعلم ، من جدالة بطبيعة الحال .

٢ - وانه غزا بهم لمتونة فى جبلهم واستولى على أموالهم (ص ١٦٥) ، فكان دخول لمتونة فى الدعوة كان قهرا ، وبذلك قويت الحركة تحت زعامة يحيى بن عمر بن تلاجاجين بينما كان عبد الله بن ياسين مقيما بينهم وهو كاره لذلك حيث كان لا يستحل أكل لحمايتهم وشرب ألبانهم ، بل كان يأكل من صيد البرية .

٣ - بعد ذلك دخلت الدعوة فترة تأسيس حضرية عندما أمرهم ابن ياسين ببناء مدينة خاصة بهم ، سموها ارتننى ، حيث التزموا قواعد البناء الشرعية ، من عدم ارتفاع بناء البعض على بناء غيرهم . ولكن الأمر لم يطل كثيرا حتى دب النزاع بينهم وبين عبد الله بن ياسين بسبب تشدده فى تطبيق حدود الشرع ، وان قيل انهم ربما وجدوا تناقضا فى بعض أحكامه حتى انتهى الأمر بعزله وطرده وهدم داره (ص ١٦٦) .

٤ - وعندما عاد عبد الله بن ياسين بمؤازرة بعض الزعماء الدينيين (وجاج بن زلوى) ، تمكن من فرض زعامته ، فتخلص من المخالفين له ، وفرض سلطانه على الصحراء بدخول القبائل فى طاعته - ولا بأس ان تكون هذه المرحلة قد بدأت ببناء الرباط حيث تم تدريب الجماعة عسكريا وتأهيلهم دينيا وروحيا ، الأمر الذى حقق لهم النظام والتفوق على الخصوم ، والنجاح فى فرض تشريعات جديدة ، كان الهدف منها مصلحة الجماعة ، وان ظهرت مجاهدة بالاطراف الأخرى (التى طبقت عليها) . فلقد فرض ضريبة الـ ١/٢ (الثلث) على أموال القبائل المختلفة ليطيب لأصحابها بذلك الثلثان ، وهو ما ألزمت به قبيلة لمطة نظير دخولها فى الدعوة . وتأكدت زعامة عبد الله بن ياسين حتى انه كان يستطيع أن يعاقب الزعيم العسكري للجماعة ، وهو يحيى بن عمر ، لخروجه عن الحدود المسموحة له فى القتال ، عندما تقسّم بنفسه وهدد الجماعة بتمرير زعامتها للخطر (ص ١٦٦) .

٥ - وهكذا أمكن لجماعة المرابطين المسلحين ماديا ومعنويا ، والملتزمين

بالنظام والطاعة تحقيق انتصارات متوالية في درعة (ص ١٦٦) وفي
سجلماسة (ص ١٦٧) .

٦ - وإذا كان نص البكرى يذكر بعد ذلك مخالفة بني جدالة الى
ساحل البحر وتحصن الزعيم اللتوني يحيى بن عمر في جبل لتونة حيث
حاصرته جدالة سنة ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م ، فأغلب الظن أن النص مضطرب
هنا ، وأن المقصود بالخلاف بين جدالة ولتونة ولجوء الأوائل الى ساحل
البحر ، هو ما حدث في بداية الدعوة ، من الثورة على تشدد عبد الله بن
ياسين ، وليس بعد بدء فترة التوسع الكبير نحو الشمال .

الرباط عند البكرى :

وعيب هذه الروايات الخاصة بصنهاجه الصحراء أنها غير محددة
التواريخ ، كما هو الحال بالنسبة لآخبار الهلالية وخاصة في صراعاتهم مع
الزناتية ، أهل البادية في تلمسان بعد أن اجتاحتها دوله الصنهاجية في
أفريقية ، من حيث أن تاريخ أحداثهم تلك هو نوع من الأخبار العربية الأولى
التي كانت تتناول شفاها ، ولم تدون الا عندما فيض الله لها ذلك ، مثلما
فعل ابن شرف والرقائق وابن الاثير والتويرى وابن خلدون ، وبناء على ذلك
نرى أن اتخاذ الرباط يحدد بناء مدينة ارتقنى (رقم ٣) ، وحسوت
الرحبة بين عبد الله بن ياسين واللمتونيين ، فكان بناء الرباط على ساحل
البحر مع الجداليين ، ربما في مصب السنغال مما يأخذ به البحث الحديث ،
وأنه يفضل أهل الرباط من الجداليين غزا قبائل لتونة الكثيرة العدد في
جبلها (رقم ٢ ، رقم ٦) واتبع ذلك بقبائل لمطة (رقم ٤) الأمر الذي أدى
الى تكريس نظم الجماعة الدينية وآدابها الروحية وقيمها الأخلاقية ،
فواصلت انتصاراتها في بلاد الشمال بدءا من درعة وسجلماسة وتيفريلى
حيث قتل يحيى بن عمر سنة ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م ثم بلاد برغواطة في أقصى
الشمال ، غرب الرباط وسلا ، حيث كان مقتل عبد الله بن ياسين سنة
٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م .

ابن ياسين : مناقبه ونقاط ضعفه :

وهنا تتراوح الرواية في تقييم الزعيم الروحي للمرابطين ، ابن ياسين ،
ما بين المثقبة التي تنسب اليه الكرامات ، من : كشف المياه فى الصحراء ،
وسكون نقيق الضفادع فى البحيرة عندما يتقدم اليها (ص ١٦٩) ، الأمر

الذى ترتب عليه جعل قبره مزارا مكتظا بالمريدين (ص ١٦٨) . ومن الناحية الاخرى فقد كان للرجل نقاط ضعفه التي تمثلت فى حب النساء والاسراف فى الاقتران بهن والانفصال عنهن ، اذ كان يتزوج فى الشهر عددا منهن ، ولا يسمع بامرأة حسنة الا خطبها لنفسه ، ولا يتجاوز بصدائقهن (اربعة) مثاقيل (ص ١٦٩) .

هذا ، كما كان لابن ياسين ضعفه العلمى ، وهو الامر المسموح به للفقيه فى مثل تلك الصحراء البعيدة ، المنقطعة عن العالم - رغم ما يراه شعيرة من أن أهل الصحراء فى تلك الأزمنة كانوا أشبه بشركات الخطوط الجوية والسكك الحديدية فى أيامنا ، وإن حياة الصحراء قديما كانت حياة ثروة ونشاط (ص ٤٤ ، هـ ، ١ ، ٣) .

وهكذا يعدد البكرى ما شذ فيه عبد الله بن ياسين من الاجكام مثل : أخذ الـ ١/٢ من الاموال المختلطة (لطبيب لأصحابها الثلثان) ، واقامة الحدود على الداخل فى الرباط تكفيرا لذنوبه السابقة ، أيام الشباب ، وتاديب المتخلفين عن حضور الصلاة بالضرب بالسياط ، وهو ما كان يؤدى بالعوام الى القيام بالصلاة بغير وضوء ، جزعا من الضرب ، وكذلك ضرب من رفع صوته فى المسجد . واملأ أداء الصلاة فى كل وقت قبل اقامتها مع الجماعة (تعويضا لما سبق من التفريط ، ص ١٦٩ - ١٧٠) .

النظام الحربى :

أما عن نظامهم الحربى ، فقد عرف القوم بأن لهم فى قتالهم جلد ليس لغيرهم ، اذ يختارون الموت على الانهزام . وانهم يقاتلون على الخيل والنجب ، وأكثر قتالهم صفوفًا : بأيدى الصف الأول القنى الطسوال للمداعسة والطعان ، وما يليهم من الصفوف بإيديهم المزاريق ، يحمل الرجل الواحد منها عدة يزرعها فلا يكاد يخطئ . ولهم رجل قد قدموه أمام الصف يسلم الراية ، فهم يقفون ما وقفت منتصبه ، وإن أمالها الى الأرض جلسوا . . . ومن قر أمامهم لم يتبعوه .

معلومات وثائقية :

تلك هى الصورة التى يرسمها البكرى لحركة المرابطين فى صحاروات المغرب الاقصى الجنوبية ، فى الطريق الى السودان الغربى ، وهى معلومات وثائقية معتبرة ، وإن افتقدت التحديدات الزمنية ، والثوقيت الذى لا يكون

ابدى ترتيب عليه جعل قبره مزارا مكتظا بالمريدين (ص ١٦٨) * ومن الناحية الاخرى فقد كان للرجل نقاط ضعفه التي تمثلت في حب النساء والاسراف في الاقتران بهن والانفصال عنهن ، اذ كان يتزوج في الشهر عددا منهن ، ولا يسمع بامرأة حسنة الا خطبها لنفسه ، ولا يتجاوز بصداقهن ٤ (اربعة) مثاقيل (ص ١٦٩) *

هذا ، كما كان لابن ياسين ضعفه العلمى ، وهو الامر المسموح به للفقيه في مثل تلك الصحراء البعيدة ، المنقطعة عن العالم - رغم ما يراه شعيرة من أن أهل الصحراء في تلك الأزمنة كانوا أشبه بشركات الخطوط الجوية والسكك الحديدية في أيامنا ، وان حياة الصحراء قديما كانت حياة ثروة ونشاط (ص ٤٤ ، هـ ١ ، ٢) *

وهكذا يعمد البكرى ما شد فيه عبد الله بن ياسين من الأحكام مثل : أخذ $\frac{1}{4}$ من الأموال المختلطة (ليطيّب لأصحابها الثلثان) ، وإقامة الحدود على الداخل في الرباط تكفيرا لذنوبه السابقة ، أيام الشباب ، وتأديب المتخلفين عن حضور الصلاة بالضرب بالسياط ، وهو ما كان يؤدى بالعوام الى القيام بالصلاة بغير وضوء ، جزعا من الضرب ، وكذلك ضرب من رفع صوته في المسجد * وإملاء أداء الصلاة في كل وقت قبل إقامتها مع الجماعة (تعويضا لما سبق من التفريط ، ص ١٦٩ - ١٧٠) *

النظام الحربى :

أما عن نظامهم الحربى ، فقد عرف القوم بأن لهم في قتالهم جلد ليس لغيرهم ، اذ يختارون الموت على الانهزام * وانهم يقاتلون على الخيل والنجب ، وأكثر قتالهم صفوفيا : بأيدى الصف الأول القنى الطسوال للمداعسة والطحان ، وما يليهم من الصفوف بأيديهم المزاريق ، يحمل الرجل الواحد منها عدة يزرقها فلا يكاد يخطئ * ولهم رجل قد قدموه أمام الصف بيسله الراية ، فهم يقفون ما ولقفت منتصبية ، وان أمالها الى الأرض جلسوا * ، ومن فر أمامهم لم يتبعوه *

معلومات وثائقية :

تلك هى الصورة التى يرسمها البكرى لحركة المرابطين فى صحاروات المغرب الأقصى الجنوبية ، فى الطريق الى السودان الغربى ، وهى معلومات وثائقية معتبرة ، وان افترقت التحديدات الزمنية ، والتوقيت الذى لا يكون

التاريخ يدونه تاريخا ، مما سبقت الإشارة اليه وذلك خلال الفترة الممتدة من سنة ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م الى سنة ٤٦٠ هـ / ١٠٦٧ م ، حينما كانت الزعامة في تلك القبائل للأمير الممتونى أبى بكر بن عمر . وتصف الرواية وضع تلك القبائل في تلك السنة بأن أمرهم منتشر غسير ملتئم ، وأن مقامهم بالصحراء ، وذلك في الفترة التي بدأت فيها الرئاسة تنقسم ما بين أبى بكر بن عمر في جنوب الصحراء ، ويوسف بن تاشفين في الشمال الذي ستؤول اليه قيادتها وحده ، بعد أن يبنى عاصمته الجديدة ، مدينة مراكش ، التي ستعطى اسمها للبلاد جميعا منذ ذلك الوقت .

العبر لابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦ م) :

تقييم عام لنص غير محقق :

كتاب العبر لابن خلدون - رغم تأخره النسبي - مصدر أساسي بالنسبة لتاريخ المغرب والأندلس حتى بالنسبة لأقدم العصور ، من الفتح الى قيام الدول المستقلة الأولى . أما بالنسبة لفصره فهو مصدر أصيل لا غنى عنه ، إذ يقدم معلومات شاهد العيان ، ويستقصى أخباره من مظانها الأولية ، على مستوى المسئولين عن الدولة ، وعلى المستوى الشعبي حيث القصص « الفولكلورى » والشعر العامى . ولكن ما يؤخذ على نص ابن خلدون التاريخي أنه ما زال في حاجة الى تحقيق علمي ، يعهد به الى لجنة من المختصين ، تقوم بالنشر مع التحقيق على نفس النسق الذي قام به الدكتور علي عبد الواحد فيما يتعلق بالمقدمة التي حققها ونشرها في أربعة أجزاء قيمة ، فأسدى للمكتبة العربية جميلا جليلا .

ويكفي هنا أن نشير الى بعض الأخطاء ، من املائية وفنية ، مما يشيع في نص ابن خلدون في الجزء السادس الذي يبدأ بقصة دخول الهلالية الى المغرب ، كمقدمة لتاريخ البربر ، ثم يتناول دول المغرب الأولى ، من الأغالية ، والرستميين ، وبنى واسول ، ودولة آل زيرى الصنهاجية ، وآل حماد بالقلعة ، حيث نجد :

(برصايتن) بن حبوس ، بدلا من : يصليشن أو يصل (ص ١٣٠) ،
فشت بدعة الأمية بدلا من : (الأموية) (ص ١٣٢) ، (الى أن أردى) ،
بدلا من : الى ابن أروي (ص ١٣١) ، تغلب (ملكين) بدلا من بلسكين
(ص ١٣٦) ، و (احفظ مدينة واشين) للتحصن بها ، بدلا من : واخط

مدينة أشير للتحصن بها (ص ١٥٣) ، الى غير ذلك مثل : الحياثر (الجنائز) ، محاييل (ميخائيل) ، فاس (قابس) ، بلباو (بلباز) الخ .

مشروع د . ابراهيم شبوح :

وهنا لا بأس من الإشارة الى مشروع الدكتور ابراهيم شبوح ، مدير دار الكتب التونسية حاليا ، القيم ، لاعادة نشر وتحقيق عبر ابن خلدون ، بناء على ما نظر فيه من النسخ الفريدة المخطوطة ، مما تزخر بها الدار ، والتي تبين أن النسخة الموجودة بين أيدينا الآن ينقصها أشياء هامة من نسخ دار الكتب التونسية ، حسبما لاحظته د . شبوح ، يعني زيادة صفحات طويلة لكل بيساى قد لا يستغرق الا سنتيمترات معدودات ، في أقل من السطر . وبذلك يحقق مشروع إعادة تحقيق ونشر العبر هدفين عزيزين هما : تصحيح النسخة التي بأيدينا ، كما يستكملها بما في النسخ المخطوطة الكاملة من الزيادات .

مصدر رئيسي للهلالية :

وابن خلدون بمصدر رئيسي لتاريخ الهلالية من عرب هلال وسليم في بلاد المغرب ، وذلك عن طريق التعرف شخصياً على أحفادهم من معاصريه ، في القرن الس ٨ هـ / ١٤ م ، ممن كان لهم دور هام في الأحداث التي عرفتها دول المغرب وقتذاك من المرينيين والحفصيين وبني عيسه الواد . فهو في أنساب عرب برقة يرجع الى نسابتهم ممن شافهم (ج ٦ ص ٥) ، وفي انتصاراتهم الحربية على الصنهاجيين في أفريقية ، يرجع الى ما سجله شعراؤهم في قصائدهم الشعرية ، كما فعل ابن الأثير من قبل ، مثل : الشاعر الهلال على بن رزق الرياحي ، الذي يقول :

وان ابن باديس لأفضل مالك
لعمري ولكن ما لديه وجال
ثلاثون ألفاً منهم قد هزمتهم
ثلاثة آلاف وذلك ضلال (٤٩)

(٤٩) انظر العبر ج ٦ ص ١٤ - حيث النص على أن تلك الأبيات يمكن أن تكون لابن شداد (الأمير الصنهاجي) ، وقارن ابن الأثير ، ط . تورنبرج (بيروت) ، سنة ١٤٢٢ هـ ج ٩ ص ٥٦٨ - حيث يختلف النص بعض الشيء :

وان ابن باديس لأفضل مالك
لعمري ولكن ما لديه وجال
ثلاثون ألفاً منهم غلبتهم
وقارن طيبة بولان ، ج ٩ ص ٢٣٦ ، وفيها :
ثلاثة آلاف لنا غلبت لهم
ثلاثين ألفاً ان ذا لجال

وبعد محاربة صنهاجة ، حارب العرب زناتة في منطقة تلمسان حيث كان يسود بعض أعقاب محمد بن خزر ، ووزيره الشهير الذي خلده ملحمة الهلالية الشعبية : أبو سعدى خليفة اليفرنى (ج ٦ ص ١٦ « اليفرنى » ص ١٩ « الفترى ») ، فهزموه وقتلوه بعد حروب طويلة .

التوثيق :

وابن خلدون متأكد من صحة روايته عندما يعدد رجالات العرب من المهاجرين الأوائل مثل : حسن بن سرحان وأخوه بدر ، وفضل بن ناهض ، وعاضى بن مقرب ، وسلامة بن رزق (من الأتيق) ، ودياب بن غانم (من بنى ثور) ، ومؤنس بن يحيى (من بنى مرداس) حيث ينص على أن هؤلاء الآخرين من مرداس رياح لامرأاس سليم ، ويحذر من الغلط في هذا (ج ٦ ص ١٦ حيث موسى بن يحيى بدلا من مؤنس بن يحيى) .

أما عن الرواية التي تقول بأن زيد العجاج بن فاضل مات في الحجاز أي قبل دخولهم أفريقية ، فهو يرى أن ذلك زعم يشك فيه (ج ٦ ص ١٦) . وأشعار كل هؤلاء ، وعلى رأسهم زياد بن عامر ، رائداهم في دخول أفريقية ، والذي يسمونه « أبا مخيب » هي التي تروى خبر الهجرة الهلالية (٥٠) .

هلالية برقة :

وابن خلدون يفرق بين الهلالية الذين دخلوا برقة بتحريض اليازورى أو الجرجاني (الجرجاني) قبله ، وبين أولئك الذين أقاموا ببرقة قبل ذلك على عهد الحساكم الفاطمي وكانت لهم خطوبهم مع الصنهاجيين مما سجله شعراؤهم في أشعارهم العامية - مما يعرف الآن بالنبطية - مثل :

طلبنا القرب منهم وجزيل منهم	بلا عيب من عرب سمحاج جبودها
وبيت عرت أمره منا وبينها	طرود انكاد اللي يكودها
ماتت ثلاث آلاف مرة وأربعة	بحسرمه منا تدأوى كيودها

ومنها :

(٥٠) ج ٦ ص ١٦ ، وقارن ابن الأثير : ج ٩ ص ٥٦٨ - حيث يذكر على أن زعيم العرب الأول ، هو : مؤنس بن يحيى المرادسي .

أيا رب جبر الخلق من ناتج البلا
وخض بها قرة مناف وعينها
الا القليل إنجار ما لا يجيرها
ديما لا زياد البوادي تشيرها

(ج ٦ ص ١٨)

طرق الحكاية عند الهلالية :

وابن خلدون يعرض بعد ذلك لحكاية الهلالية ، من دخولهم الى أفريقية وطرقهم في الخبر عنها ، الأمر الذي تحول الى روايات أسطورية وقصص شعبية . والحكاية الشعبية للهجرة الهلالية تجعل البداية من بلاد الحجاز ، وليس من صعيد مصر ، وذلك عندما تزوج الشريف هاشم ، صاحب الحجاز ، أخت الحسن بن سرحان وهي « الجازية » ، بطلقة القصة . فعندما حدثت الوحشة بينهم وبين صهرهم الشريف وأرادوا استرجاع الجازية لم يجدوا أمامهم الا استخدام خيلة الرحلة للصيد حيث فوجئ الشريف بأنه في غير مملكته فرجع الى مكة ، وبين جوانحه من الحب داء دخيل ، بينما استمرت الجماعة في تفرقتها حيث ظهر على الجازية داء الكلف بزوجها الشريف حتى ماتت من حبه . وبذلك فاقت قصة الهلالية في الحب العظيم كل عرفه العرب من ذلك اللون من أدب العشق والغرام ، مما عرف في قصص : قيس وليلى ، وكثير وعزة ، مما يروى في اشعار الهلالية ، مما هو : « مطبوع ومتنحل ومصنوع » .

من قواعد النقد في الأدب الشعبي :

وهنا يصنع ابن خلدون قاعدة هامة من قواعد النقد في الأدب الشعبي الذي يوسم بالأصالة طائفا لم يقعد من البلاغة شيء ، بصرف النظر عما فيه من خلل الاعراب الذي يعتبره الخاصة من أهل العلم بالمدن « أصل البلاغة ، وليس كذلك » (ج ٦ ص ١٨) .

وحق لابن خلدون ألا يثق بالقصة الشعبية التي عاصرها في القرن الثامن الهجري / ١٤م ، والتي كانت قد تعقدت خلال تطورها على طول الأجيال ، من حيث أنه تتولد منها قصة حب عظيم أخرى في أفريقية عندما تزوجت الجازية من زعيم الأناضول : ماضى بن مقرب ، وحدثت الوحشة مرة أخرى ، والحروب بين قبيلتي الزوجين المحبيين . والمهم في كل ذلك ان الهلالية متفقون على صحة تلك الأخبار المتواترة بينهم جيلا بعد جيل « حتى ليكاد المستريب في أمرها أن يرمى عندهم بالجثث والخلل » (العبر ج ٦ ص ١٨) .

وهكذا تتعقد أخبار الهلالية على طول الطريق في بلاد المغرب وعبر الأجيال ، ويختلط فيها التاريخ بالأساطير وهو الأمر الذي يدعو الى الكثير من الحذر في التعامل مع تلك الأخبار ، كما تتطلب الاستفادة منها الكثير من الاستنارة العقلية ، بل ومن سلامة الحس ، وشفافية البصيرة أيضا .

ملاحظات منهجية :

وهنا نود الإشارة الى بعض الملاحظات المنهجية الخاصة بالمصادر ، مما تقدم ذكره :

١ - فيما يتعلق بكثرة المعلومات التي قد تظهر مرهقة في بعض الأحيان نرى ان المعلومات الكثيرة عن الحدث الواحد قد لا تكون دائما مفيدة ، إذ قد يزيد اختلاف المعلومات وعدم تطابقها الأمر غموضا . ففي حالة الثورة الزناتية ، بقيادة مخلد بن كيداد ، مثلا ، قد تختلف وجهات النظر في تحليل أسباب الثورة أو دوافع قيامها ، بين : سياسة قومية بمعنى رغبة المغاربة البربر في التحرر من الحكم العربي ، أو سياسة دينية بمعنى ان المغرب السنن المتشدد فيما بين المالكية وبخاصة والأباضية كان يبحث عن الانعتاق من نير التشيع ، وهو ما يطلق عليه جورج مارسيل اسم الأزمة الفاطمية^(٥١) أو سياسية اقتصادية تتمثل في رفض السياسة المالية والضرائية المتشددة مما يظهر في تجميع الأموال من كل المظان وبكل الوسائل ، من : العقوبات المالية والمصادرات ، والتشدد في جمع الضرائب والدقة في محاسبة العمال ، وعدم التساهل مع المدينين ضرائبيا (أصحاب التقييط) ، وابتكار أنواع جديدة من الضرائب مثل : ضريبة الحج (على أموال الحجاج) - وهو ما يرجعه ليتورنو (Le Tourneou) كسبب للثورة^(٥٢) .

٢ - وعندما تقل المعلومات على العكس من ذلك ، يكون الموقف أصعب . ويتمثل ذلك في افتقار المعلومات الشخصية عن الأئمة ، فلا شيء عن الصفات الجسمانية أو أسلوب الحياة اليومية ، أو الاهتمامات الخاصة - وهي الأمور المعروفة تفصيليا عن النبي ، وربما الى حد ما عن الامام علي ،

(٥١) انظر كتابه : بلاد البربر والشرق الاسلامي في العصر الوسيط (بالفرنسية) .

(٥٢) انظر بحثه عن أبو يزيد (صاحب الجمار) في القرن السادس عشر ، دفا تر تونسية

(بالفرنسية) ج ١ ، ١٩٥٣ .

والذى كان يمكن أن يكون قدوة • ولا بأس أن يكون ذلك الخواء تركة عهد الستر والكتبان فى مرحلة الغيبة ، وهى مرحلة الدعاية المستترة ، الأمر الذى يستمر فى مرحلة الظهور بما تقضى به من حفظ المسافة بين الخلفاء والرعية ، وهو ما تفسره جيوش العسكر والموظفين والخدم والحريم ، ممن ملأوا تلك المسافة الفاصلة بين الامام ورعيته ، رغم ما يقضى به المذهب الفاطمى من ضرورة معرفة الامام من أجل أداء واجبات الولاية ، من فروض الطاعة وتقديم أموال الخمس •

٣ - وعندما تتضارب المعلومات أحيانا قد يصعب إيجاد الحل. فتبقى المسألة معلقة على أمل انتظار العثور على وثائق جديدة - وهنا يمكن الإشارة الى بعض النماذج :

(أ) وفاة القائد الصقلبي ميسور الفتى فى اللقاء مع أبى يزيد قرب القيروان فى ربيع سنة ٣٢٣ هـ / ٩٣٥ م ، ثم ورود اسمه بعد ذلك فى عمليات عسكرية جديدة فى فاس - والأمر ما زال غامضا على الأقل بالنسبة للشخصية الثانية التى ظهرت (بنفس الاسم) فى فاس • ولا بأس أن يكون اسم الشخصية الثانية سرور ، كما ترد فى بعض نصوص الداعى ادريس وابن خلدون (أنظر فيما بعد ص ١٩٣ وهـ ٢) •

(ب) وفاة على بن حمدون الأندلسى فى العمليات العسكرية الأولى ، بطريقة مفاجئة سنة ٣٣٤ هـ / ٩٣٦ م ، أمام أيوب بن أبى يزيد ، ثم ظهور اسمه بعد ذلك فى عمليات جديدة على عهد ابنه جعفر بن على أمير المسيلة • وهنا لا بأس أن تكون العمليات لعلى بن حمدون قبل وفاته ، وإنها وضعت خطأ فى غير موضعها الصحيح • فهذا ما تسمح به سمعة الرجل وحسن بلائه فى قتال التسانر الزناتى ، وهو الأمر المقتد فى النصوص ، والذى ترتب على اللبس فى الاسم والكنية بينه وبين بعض بنيه •

(ج) وفاة موسى بن أبى العافية الكناسى التى يضع لها الكتاب ٣ (ثلاثة) تواريخ ، وهى : ٣٢٦ هـ / ٩٣٧ م ، ٣٢٨ هـ / ٩٣٩ م ، ٣٤١ هـ / ٩٥٢ م ، ونظرا لعدم ذكر عمليات له بعد سنة ٣٢٦ هـ / ٩٣٧ م فالمرجح أنه توفى فى تلك السنة ، الأمر الذى تؤيده رسالة ابنه مدين الى الناصر الاموى ، وهى التى يرد فصل من نسختها فى مقتبس ابن حبان (ج ٥ ص ٤٢٧) •

٤ - الرواية الأسطورية ومنها :

المنقبة ، والقصة الشعبية :

(أ) كذلك التي ترتبت على علم الحدثان الخاص بالأئمة عند الفاطميين ، كما قيل عن بناء المهديّة من أنها أنشئت من أجل ساعة من نهار ، يصل فيها النائر الزناتي إلى بابها وهي الرواية التي انتقلت إلى كتب الخوارج ، والهدف منها سياسي تربوي أصيلا ، يتمثل في الولاء للأئمة والاعتقاد في عصمتهم ، وإن أخذت شكلا ساذجا ، ساذجا ، عند الإباضية (أنظر الدرجيني) .

(ب) ومثل هذا يقال عن الرواية التي تجعل من الزناتية موالى للامويين ، ومن الصنهاجية موالى للعلويين ، وتبالغ في رابطة الولاء هذه والحث على التمسك بها إلى درجة تجعل الخروج عليها خروجا عن الدين (المقتبس ، ج ٥ ص ٢٦٦) - وهي في الحقيقة سياسية الهدف .

(ج) أما عن مناقب عبد الله ياسين زعيم المرابطين ، من الكشف عن الماء في الصحراء عندما تعطش الجماعة ويتهدهدها الهلاك ، أو توقف نقيق الفسفادع عندما يقترب من البحيرة فهي تدخل ضمن كرامات الأولياء ، وخوارقهم التي كانت قد انتشرت مع انتشار الطرق الصوفية وتبجيل الأولياء ، وإن كانت قصص هوائيه زواج الجميلات من النساء مع الإمساك في دفع الصداق ، يوازن تلك المناقب المنسوبة إلى الفقيه الأصولي ، المتشدّد في الأحكام (أنظر البكري) .

والمهم في كل ذلك أنه إذا كان للباحث أن يسقط من حسابه الرواية القصصية الموضوعية أو أن يكشف عما وراءها من أغراض دينية أو دروس مستفادة ، فإن الرواية المنقبة لها أهميتها كحدث تاريخي معنوي إبنية ، بمعنى أن له تأثيرا في مجريات الأحداث .

ومثل هذا يمكن أن يقال عن القصة الشعبية ذات الأصول التاريخية من حيث أنها تمثل الجانب المعنوي من حياة المجتمع الثقافية ، وميوله الوجدانية ، وقواه التخيلية والتعبيرية ، وهي الأمور التي يمكن أن يكون لها موضوعها في إطار الدراسة التاريخية .

هذه لمحات في موضوع المصادر حمنا بها حول موضوع المغرب الاسلامى ما بين الفاطميين والمرابطين ، عن طريق محاولة التعريف بمضمون بعض المصادر الأساسية عن شيعية فاطمية ، وأباضية خارجية ، وسنية تاريخية ، بقصد أن ذلك يمكن أن يعطى فكرة عن عناصر الموضوع ، بصرف النظر عن وضعها في أطرها الزمنية ، وبيان العلاقات فيما بينها ، بما يسمح بتصور مساراتها الواقعية وتطوراتها الحقيقية ، وهو الهدف من الدراسات التاريخية التي يريد الجميع أن يعيد كتابتها بما يحقق الأهداف المنشودة منها - والهدف العلمى على كل حال هو الوصول الى الحقيقة .

الفصل الأول

عبيد الله المهدي ، أول الأئمة الخلفاء

(٢٩٧ - ٣٢٢ هـ / ٩١٠ - ٩٣٤ م)

شخصيته :

اختلفت الآراء في تقييم شخصية عبيد الله المهدي ، كما هو الحال بالنسبة لكبار الشخصيات التاريخية ، ممن كان لهم ذكر في أمور السياسة والدين أو الإصلاح الاجتماعي بشكل عام . ولقد تراوح ذلك الاختلاف عند المؤيدين والمعارضين ما بين التعصب الغالي والمقدّم المقيت ، مما راح بهم وغدا من حدة التأليه والربوبية الى حد الاحتيال والتزوير .

وإذا كان الاختلاف في صحة النسب يعزى الى أسباب سياسية ومذهبية واجتماعية أو شخصية ، فإنه يرجع أصلا الى مبدأ الثقة الشيعي ، وما ترتب عليه من حياة السתר والكتمان التي عاشها الأئمة في حالة الغيبة . والحقيقة ان مبدأ الثقة هو الذي يفسر أيضا ندرة الأخبار المتعلقة بصفات الأئمة الشخصية ، وعلى رأسهم عبيد الله المهدي بصفتة أول الأئمة الظاهرين .

فالروايات التي تعرض لعبيد الله ، شاسا يافعا ، عندما كان والده يضم أبا عبد الله الى جماعة دعائه الاثني عشر ، لا تعرف بشيء عن شخصه أو عن صفاته وهو ولي لعهد الإمامة (الاستبصار ، ص ٢٠٣) . أما عن مسيرته الى مصر والمغرب ، وهو إمام مستتر ، يلح أصحاب الأخبار في بغداد وفي القيروان ، في إماطة اللثام عن شخصه ، فلا يعرف الا انه كان مستترا يزي التجار ، وكذلك الأمر أثناء مقامه في سجلماسة (١) . ولا بأس أن

(١) هذا وإن ظهرت رواية تجعله ، في مصر في زى العبيدين ، وبصحبته كلب كلف به ولي العهد السفير ، ج ٢ ص ٥٨٧ ، ص ٥٨٨ والهوامش ، ص ٥٩١ .

تكون مظاهر النعمة البادية عليه وعلى أصحابه من الأسباب التي جعلته هدفا لغارات السلب والنهب التي تعرض لها على طول الطريق من برقة الى توزر ووارجلان (ج ٢ ص ٥٨٩ - ٥٩٠) .

أما في سجلماسة فيظهر مع ولده أبي القاسم ، في صورة منقبية كولي صالح ، صاحب آيات وكرامات ، أو في صورة رجل دولة يجمع التفقه في العلم الى جانب الخبرة في السياسة والإدارة (ج ٢ ص ٥٩٢) . وعند كشف الداعي عن شخصيته في سجلماسة ، أعلن عبيد الله أنه « المهدي بن المهدي » سلالة الهداية » ، فاستحق ما يليق به من داعيته الذي انكب ليقبل منه الديدن والركبتين (ج ٢ ص ٥٩٦ - ٥٩٧) . وعند الخروج من سجلماسة نحو القيروان ، نراه يلبس النفيس من فاخر الثياب ، ويفوح منه أريج الطيب ، وهو يمتطي صهوة فرس عتيق (ج ٢ ص ٥٩٧) ، بمعنى أنه كان في كامل عنفوانه ، وهو في نهاية العقد الرابع من عمره (٢) . وعند دخوله رقادة كان يرتدي ثوبا أدكن وعمامة مثله ، وتحت فرس ورد (ابن عذاري ، ج ١ ص ١٥٨) .

أما عن صفاته الجسمية ، كامام ، فقد غلبت عليها الأسطورة الشعبية . فمن علاماته التي كان يعرفها الدعاة حسبا أذاعها الداعي بين الزعماء الكشامين ، أثر سوء العلاقة بينهما ، والتي قد لا تتوفر في عبيد الله ، أن الإمام يحمل بين كتفيه عبارة « المهدي رسول الله » كما كان النبي يحمل بين كتفيه « خاتم النبوة » وأن من آياته أيضا أنه يطبع بخاتمه في الصخر الصلند (٣) .

ولا بأس أن تكون قصة العلامات التي يفترض أن تكون في المهدي

(٢) انظر الداعي إدريس ، عيون الأخبار ، ص ٧٧ - حيث الإشارة الى أنه كان يبلغ الث ٦٣ عند وفاته سنة ٣٢٢ هـ / ١٩٣٤ م ، حيث كان مولده سنة ٢٦٠ هـ / ٧٨٣ م ، وابن حمادة ص ٢٦ - حيث عمره ما بين ٦٢ و ٦٣ سنة .

(٣) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٦١ . ولا بأس من الإشارة هنا الى أن زعيم الترامطة سنة ٢٩٠ هـ / ٩٠٣ م ، وهو يحيى بن زكرويه الذي عرف بـ « الشيخ » الذي قتل وخسرو يحارب المرينيين على باب دمشق في تلك السنة كان يزعم أنه إذا أشار ببسده نحو أعدائه انهزموا ، كما أن أخاه وخليفته الحسين كان يظهر شامة في وجهه يزعم أنها آية ، حتى عرف بـ « صاحب الشامة » الى أن انتهى به الأمر الى أن تسمى بـ « المهدي أمير المؤمنين » قبل أن يسلب في بغداد - ابن الأثير ، ط ١ ، ج ٧ ص ٥٢٣ ، ٥٢٤ ، ٥٢٦ ، ٥٣١ .

الفاطمي ، قد ظهرت في أواخر سنة ٢٩٧هـ / ٩١٠م ، أثناء حملة الداعي بالمغرب (فيما بعد ، ص ٦٤) ، وانها كانت جرثومة للروايات التي غالت في وصف المهدي حتى شبهته بكبار الأنبياء ، وتطرفت حتى بلغت به الى حد التالية (فيما بعد ، ص ١٢٧ - ١٢٨) .

أما عن صفات عبید الله الموضوعية ، كما عرضها القاضي النعمان ، فمنها الكرم والجود بالمال ، في حدود الاعتدال . أما الصفات الغالبية فهي الضبط والحزم الى جانب حب العدل (افتتاح الدعوة ص ٣٠٤) . وإذا كانت بعض الروايات تنسب اليه معرفة علم الحدائق مما يتعلق بمستقبل الأنسنة (٤) ، فإن من المشهود له أنه كان عقلانيا ، يزن الأمور بحكم المنطق . فهو لا يستمع لكلام المنجمين فيما يحدونه من أوقات السعد والنحس (٥) . هذا ، كما عرفت عنه الجدل في العمل وعدم الركون الى الأعمال المكتسبة فقط في شئون الحكم والإدارة ، بل انه كان يتابع الأعمال التنفيذية بنفسه ، أحيانا ، وكانها رياضة بدنية مفيدة . حدث ذلك عند اختيار موقع المهديّة حيث شارك بنفسه في الرحلات الاستكشافية الأولية ، كما كان يباشر بشخصه أعمال البناء ويصدر أوامره الى الصانع من غير وسيط (انظر فيما بعد ، ص ٩٥) . وهو في النهاية رابط الجأش ثابت الجنان ، حيث كان يبعث ولي عهده أبا القاسم على رأس قواته لمواجهة الثوار في كل مكان من أقصى المغرب وكذلك في مصر ، رغم عاطفة الأبوة العارمة ، التي كانت تسمح له بالبقاء في حضرته مع كبار رجال الدولة والحاشية ، بعيدا عما كان يلاقيه من المضطهبات في تلك الحروب (٦) . ورغم وفرة من كانوا يكفونه مؤونه ذلك من كبار القواد .

(٤) فيما بعد ، ص ٩٢ . عن معرفة المهدي بما سوف يحدث به بناء المهديّة من ثورة أبي يزيد مناضح الحمار . وعن اخراج بن كلان الكتائب الى القيروان سنة ٣١٥ هـ / ٩٢٧ م كانه يتوقع منهم أمرا ، وهو الدخول في حلف أبي يزيد ، انظر ابن الأثير سنة ٣١٥ هـ / ٩٢٧ م ، ج ٨ ، ص ١٧٩ .

(٥) انظر الداعي ادرسي عيون الأخبار ، ص ٢٥ . حيث النص على أنه لم يستمع الى نصيحة المنجم له بتأجيل سفره من سجلماسة الى القيروان يوم الاثنين ٢٢ من المحرم سنة ٢٩٧ هـ / ١٢ أكتوبر ٩٠٩ م ، حيث لم يكن الطالع مناسباً لوبسود القوس والشمس في الميزان . . . الا قرر السير ، على اسم الله .

(٦) انظر فيما بعد ، ص ٧١ ، ص ١٠٧ و ١٠٨ ، والهوامش . حيث الإشارة الى مكانه عندما وصلت كتب أبي القاسم متأخرة بعض الشيء ، وهي تصف ما كان يلاقيه الأمير الشاب من عناء في حملته ضد ابن خزر ببلاد الزاب والجريد ، حيث ينسب الى المهدي انه قال بهذه المناسبة انه لا يسهل عليه أن يفارقه يوما واحدا - ابن عذاري ، ج ١ ص ١٩١ .

وأمام مثل هذه الصفات المميزة لشخصية الامام الأول العارمة ، لم يكن من المستغرب أن ينص الداعي أدريس على خسوف القمر خسوفاً كلياً ، في تلك الساعة التي نوفي فيها المهدي من يوم ١٥ ربيع الأول سنة ٣٢٣ هـ / ٤ مارس ٩٣٤ م ، وإن كان خسوف الشمس قد تأخر مدة أسبوعين فلم يقع إلا في اليوم الـ ٢٩ من نفس الشهر (٧) . والمقصود هنا بكسوف الشمس وخسوف القمر ، بطبيعة الحال ، هو الرمز إلى ذلك النوع من الحدث الكوني المتمثل في انطفاء شمعة مؤسس الدولة القدوة ، والمخطط لسياستها على المستويات المختلفة بما يتناسب وطموحات الأئمة المهديين ، سواء في بلاد المغرب أو خارجها .

السياسة الداخلية :

تركيز السلطة بين يدي المهدي :

لما كانت الدولة الفاطمية قد قامت في بلاد القيروان ، وليس للامام من الأمر شيء ، رغم ما تقوله بعض الروايات من أن الداعي سلم إلى المهدي الأمر في سجناسه (٨) ، كان من الطبيعي أن يعمل عبید الله المهدي بعد إعلان خلافته ، على أن يمارس سلطاته حقاً بصفتة صاحب الأمر الشرعي ، وإن كان ذلك على حساب داعيته المجاهد وأعوانه المخلصين من الكتائبين ، وهو ما قضت به طبيعة الأشياء في ذلك الزمان - وربما بشكل نسبي في كل زمان ومكان - حيث كان قيام الدول على اكتاف الأنصار الذين عادة ما يلقبون جزاء سنمار . هكذا اختلفت سياسة المهدي منذ البداية عن سياسة الداعي . فبينما مال أبو عبید الله إلى أسلوب الإدارة في سبيل اكتساب الأنصار حتى من بين صفوف الخصوم ، اعتمد المهدي سياسة الحزم والحسم ، المبينة على حق شرعية الحكم المهدي ، أولاً وقبل كل شيء . وهنا لا بأس من الإشارة إلى أنه ربما استغل مبدأ العصمة في سبيل تأكيد سلطاته المطلق ، وأنه إذا كان قد تشدد مع بعض الذين جاهروا بالنكر ، فإنه تقاضى في بعض الأحيان عن مغالاة بعض المريدين ، ومبالغات بعض الشُعراء ممن رفعوه فوق مستوى البشر أو ممن اتخذوا

(٧) عبود الأندلس ٧٩ ، وقارن ابن سادة ، أخبار الملوك بنى عبید ، تحقيق جلول البديوي ، الجزائر ، ١٩٨٤ ، ص ٢٦ - حيث الكسوف في نفس الليلة .
(٨) ابن عساق ج ١ ص ١٥٣ - ومن الواضح أن المقصود بذلك تقديم فروض الطاعة والولاء .

من حضرته قبله يتجهون اليها (انظر فيما يأتي ، ص ١٠٠ و ٩٥) . وإذا كانت تلك السياسة قد بدأت باحاطة شخصه بالمقربين وأهل الثقة من الحجاب خاصة ، فإنها هدفت أيضا الى استخدام أهل الخبرة من رجال الدولة السابقين . فهو يستخدم الأمراء الأغالية أنفسهم ، فيما يصلحون له ، وخاصة في الحملات العسكرية (١) ، وهو التقليد القديم الذي يسمح عادة بالتخلص من الحصوم بطريقة مشروعة وإن لم يعدم المهدي الوسائل التي كانت تسمح له بتصفية أعداد من بقايا الأغالية في بعض الأحيان (٢) . وهو يستخدم رجال الإدارة السابقين ، ممن عيشهم الداعي من قبل ، أو من عمال الأغالية ، وذلك في الوظائف الادارية والفنية من : الكتابة والادارة المالية وحكم الأقاليم .

وهنا لا بأس من الإشارة الى أن المهدي بدأ يمارس سلطته في سجنلماسة عندما عهد بولايتها الى ابراهيم بن غالب المزاتي ، وأبقاه فيها على رأس حامية كتامية من ٥٠٠ (خمسمائة) فارس (١١) .

كبار الأعوان :

وفيمسا يتعلق بقائمة كبار الموظفين الذين أحاط بهم نفسه ، فمنهم الحجاب وأولهم جعفر بن علي الذي اشتهر بالحساجب ، وأبو الحسن طيب ابن اسماعيل الذي عرف بالحاضن ، وكانا ضمن حاشيته الواصلين معه من سجنلماسة . ثم يأتي بعدهما في الحجابة : أبو أحمد جعفر بن عبيد ، وأبو سعيد عثمان بن سعيد المعروف بمسلم السجلماسي (١٢) .

ومن كبار أعوانه من رجال الدولة الأغلبية : أبو اليسر ابراهيم ابن محمد الشيباني البغدادي ، المعروف بالرياضي ، في الكتابة . وعندما توفي في ١٦ جمادى الأولى سنة ٢٩٨ هـ / ٢٠ فبراير ٩١١ م ، عين مكانه

(٩) القاضي النعمان ، افتتاح الدعوة ، ص ٣٠٤ .

(١٠) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٥٣ .

(١١) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٥٤ - وانظر ص ١٥٦ أيضا حيث عدد الحسامية ٢٠٠٠

(١٢) (التي) فارس . ولقد رجحنا الرقم الأول بسبب مركز المدينة الصحراوية المتطرف من حيث أنه يصعب وقف حامية كبيرة المدد من الفرسان بما يلزمهم من معدات وخدمات ، قارن الداعي اندريس ، عبرن الأثير ، ص ٢٤ .

(١٣) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٥٨ ، ١٥٩ .

أبو جعفر محمد بن أحمد بن هارون البغدادي ، الذي عرف بالدهاء وحسن الفهم ، وخاصة عند مواجهة الداعي والعمل على التخلص منه (١٢) ، الأمر الذي جعله يستحق في السنة التالية ٢٩٩ هـ / ٩١٢ م ، رئاسة ديوان البريد (ابن عذاري ، ج ١ ص ١٦٩) الذي كان أشبه ما يكون بوكالة الاستخبارات في أيامنا هذه . ومنهم : أبو القاسم بن القديم ، في ديوان الخراج (ابن عذاري ، ج ١ ص ١٥٩) ، ثم أضيف إليه ديوان البريد قبل أن يتخلص منه المهدي مع من تخلص منهم من أصحاب الداعي (١٤) ، لكي تؤول إدارة البريد إلى أبي جعفر البغدادي ، وكذلك أبو بكر بن القمودي الفيلسوف : في السكة . هذا ، كما كان من بينهم من أقرهم من عمال الداعي في وظائفهم ، مثل : الحسن بن أبي خنزير (١٥) ، في ولاية القيروان ، ومحمد بن عمر المروزي ، في قضاء القيروان . ويأتي في بقية القائمة أبناء العصبية القوية مثل : أبي جعفر الحزري ، على بيت المال ، وعبدون بن حناسة ، على العطاء ، وأفلح بن هارون الملوسي ، على قضاء رقادة (ابن عذاري ، ج ١ ص ١٥٩) .

وإذا كان المهدي قد سمح لنفسه بالاستفادة من خبرات رجال الدولة الأغلبية فإنه في نفس الوقت ، كان يعمل للقضاء تماما على ذكريات تلك الدولة ، بل وذكرى السابقين قبلهم من عمال العباسيين والأمويين . وهو يلجأ إلى حيلة ذكية وإن كانت تقليدية من قديم الزمان وتتلخص في نصب لوحات تذكارية باسم الحاكم المعاصر على الأعمال العمرانية للأمراء السابقين فقد أصدر المهدي في أوامره بـ « أن تقلع من المساجد والمواجل (خزانات الماء) والقصور والقناطر ، أسماء الذين بنوها وكتب عليها اسمه (ابن عذاري ، ج ١ ص ١٥٩) ، فكأنه كان يرى أنه صاحب الحق وحده في الحكم ، في الماضي كما في الحاضر - استنادا إلى مبدأ الشرعية الشيعي .

فتور العلاقة بين الامام والداعي :

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن في مسألة الوحشة بين الامام

(١٢) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٥٩ ، ١٦٢ ، ١٦٣ .

(١٤) افلاح الدعوة ، ص ٣١٥ ، ٣١٦ .

(١٥) ابن عذاري ، ج ١ ص ٥٩ ، وانظر موسى لقبال ، كتابة ، حيث الإشارة إلى أن

بني خنزير من ميله أصلا .

عبيد الله والداعي أبي عبد الله يتلخص في مدى مصداقية الداعي في دعوته للامام ، وهل يعتورها نوع من الشك والحقيقة أن النصوص صريحة في بيان اخلاص الداعي. في دعايته لعبيد الله الذي عرفه وليا لعهد الامامة عندما دخل في زمرة الدعاة الاثني عشر ، في العقد الثامن من القرن الثالث الهجري / ٩ م . وتظهر مصداقيته بشكل جلي في استدعائه للامام عندما انتشرت الدعوة في بلاد كتامة ، وبدأت حرب « المطاولة » مع الأغالبة تحقق أهداف الدعوة ، وذلك بخروج الأسرة الشريفة في الطريق الى المغرب ، في جراسة أبي العباس (أحمد) المخطوم ، الأخ الأكبر للداعي (ما سبق ، ج ٢ ص ٥٨٢) . وتؤكد الاخلاص للامام عندما كان لاجئا في سجلماسة ، حيث كانت الرسل تروح وتغدو بينهما وهي تحمل أخبار نجاح الدعوة للامام مع نصيبه من الأموال التي كانت تجمع من الأنصار أو تحصد في ميادين القتال (١٦) .

هذا ، كما كان الداعي مخلصا في استنقاذ عبيد الله من الاعتقال في سجلماسة ، كما كان واضحا في اعترافه بحقوقه عندما خر باشيا يقبل منه الديدن والرجلين . وإن كان هذا الاحتفال في تعظيم الامال بمثابة أول شرح حقيقي في رابطة الولاء بين الامام والداعي ، اذ انزعج الأحرار من مشايخ كتامة ، اشفاقا على معلمهم الداعي وقائدهم من وطأة مثل هذا التذليل الذي راوه جارحا لهم (ما سبق ، ج ٢ ص ٥٩٦) ، وهو الأمر الذي تداركه المهدي عندما رجع الى القيروان حيث أكرم كتامة ، وأغدق على زعمائها الهدايا والأعطيات ، كما عهد اليهم بحكم الولايات الافريقية (ابن الأثير ، ج ٨ ص ٤٩) .

حتمية تاريخية :

ومع ان الوحشة بين الامام صاحب الدعوة شرعيا وبين الداعي قائدها بالامر الواقع تعتبر من وقائع التاريخ الحتمية ، التي تعتبر نهاية أبي مسلم الحراساني الداعية العباسي ، من أروع نماذجها في تاريخ الإسلام ، فإن النصوص هنا تلقي بتبعية فساد ما بين رجلى الدولة الكباريين على عاتق

(١٦) انظر فيما سبق . ج ٢ ص ٥٦٥ - حيث كان للمهدي نصيبه من مقام وقصة قسطنطين سنة ٢٩٢ هـ / ٩٠٥ م . وخاصة من الدناير الأغلبية التي ربما كانت السبب في كشفه في سجلماسة واعتقاله - ص ٥٩٣ .

الآخ الأكبر للداعي ، أبى العباسي أحمد المخطوم . فرغم ما يعرف عن المخطوم من أنه كان متعصباً للدعوة ، متشعباً في نشر مذهب أهل البيت ، فالظاهر أنه كان يفعل ذلك حتى يحافظ على نصيبه الى جانب أخيه الذي أنابه عنه في حكم البلاد ، عندما سار الى سجلماسة لاستنقاذ الامام .

هكذا يجعل القاضي النعمان أبى العباسي المخطوم من أخطر «المنافقين» على المهدي ، حيث كان يقول لأخيه : « ملكت أمرا . . . فجلت يمن أزالته عنه . . . وكان أقل الواجب لك أن يدعك وما كنت فيه . . . ويستغل ان شاء يشغل نفسه (افتتاح الدعوة ، ص ٣٠٧) . كما كان يقول لبعض رفقائه : « تركنا بناء بنيانه يسكنه غيرنا » (افتتاح الدعوة ، ص ٣١٧) . هذا ، كما ينسب الى أبى العباس تحريض الدعاة وزعماء الكتامية على المهدي ، اذ : « طعن لهم في الامامة ، وأدخل فيها الشبهة » كما بين لهم استهانة المهدي بهم عندما انتزع منهم أموال ايكيجان ، وعندما أدخل الصبيد معهم في الخدمة العسكرية (افتتاح الدعوة ، ص ٣٠٩) . وتضيف الرواية أن أبى العباس ، وهو يحرض أخاه ومن استفسده معه من أصحابه ، كان يفعل ذلك على سبيل تخريفهم على أنفسهم . والذي يؤخذ على القاضي النعمان في روايته هذه ، أنه يهمل تحديد تواريخ تلك الأحداث ، وان كان من البين أنه ما كان لأبى العباس المخطوم أن يقوم بشئ تلك الأعمال التي تعتبر دعوة الى قلب نظام الحكم ، كما يقال الآن ، الا بموافقة أخيه الداعي .

الرأي في تغيير النظام :

والمعروف أن أبى عبد الله كشف عن رأيه في تغيير النظام في آخر سنة ٢٩٧ هـ / أغسطس ٩١٠ م ، وهي سنة استنقاذ الامام في سجلماسة . فبعد وصول الامام الى رقادة خرج أبو عبد الله في حملة عسكرية لاقرار الأمور في المغرب ، في أواخر شوال أو أوائل ذي القعدة ، بعد عيد الفطر الذي حضر الاحتفال به مع ولي العهد بمصلى رقادة (ابن عذارى ، ج ١ ص ١٦٠) . حيث ان وصول الداعي الى مدينة تنس ، من المغرب الأوسط ، كان في ٢٧ من ذي الحجة / ٧ سبتمبر ٩١٠ م (ابن عذارى ، ج ١ ص ١٦١) . وإذا كانت انتجازات الحملة العسكرية قد سجلها ابن عذارى في خبر خروج الداعي سنة ٢٩٧ هـ / ٩١٠ م ، حيث النص على ظهور الالتفات في المغرب ، وفساد الطرق ، وثورة القبائل ، وفي أن الداعي حقق أهداف الحملة حسبا ورد في كتبه التي قرئت على منابر أفريقية ، وفيها : اخماد القلاقل واخلصاع المدن النائرة (ابن عذارى ، ج ١ ص ١٦٠) ، فان

بقية انجازات الحملة تأتي في سنة ٢٩٨هـ / ٩١١م حيث الحرب مع قبائل البربر ، من : مدينة وزنانة ، وقتل الرجال وسبي النساء وأخذ الأموال الى جانب احراق بعض المدن بالنار ، وخطر الامام بالكتب التي قرئت على المنبر ، قبل العودة الى رقادة بعد شهور كثيرة (ابن عذارى ، ج ١ ص ١٦٢) .
أما عن الوقوف بموضع الثور من تنس فكان بمثابة استراحة انتهزها الدعوة زعماء قبائل كتامة للخروج على عبيد الله . ولقد اعتذر الداعي عن ذلك بأن أفعال عبيد الله القبيحة لا تشبه أفعال المهدي الذي كان يقوم بالدعاية له ، وأنه يجوز أن يكون قد أخطأ في التعرف عليه ، وأنه يمكن استدراك ذلك عن طريق كشف العلامات الموجودة بين كتفي الامام ، والتي كان يعرفها رؤساء الدعاة ، مما سبقت الإشارة اليه .

وبناء على ذلك تم الاتفاق على امتحان الامام عند العودة الى رقادة . وكان ممن دخل مع الداعي وأخيه في تلك المؤامرة : أبو زاكى تمام بن معارك الأجانى (١٧) ، وعروبة بن يوسف الملوسى (ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٦٢ ، ١٦٤) . وهارون بن يونس الملقب بشيخ المشايخ الازيايى (١٨) ، وأبو القاسم ابن القديم صاحب الحراج والبريد (١٩) .

توزيع أدوار المؤامرة :

ومن المهم أن الأدوار قسمت على الجماعة ، فكان على أبى زاكى أن يفتح داره للاجتماع (٢٠) . وكان على هارون بن يونس بصفته شيخ المشايخ ، أن يواجه عبيد الله بالشك في إمامته ومطالبته بتقديم الدليل على صحتها إن وجد (٢١) . أما ابن القديم فكان عليه أن يقوم بدور الممول للجماعة ، وذلك بفضل أموال كانت قد بقيت لديه منذ ولايته للخراج على عهد الأغالبة . وإذا كان القاضي النعمان يفسر تأمر ابن القديم على المهدي بسبب خشنيته من أن يحاسبه على تلك الأموال التي كانت في ذمته ، فإن ابن القديم يظهر

(١٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٦٢ ، قارن ابن الأثير ، ج ٨ ص ٥٢ .

(١٨) افتتاح ، ص ٣١٠ - نسبة الى قبيلة ازابة وهي من بطون مسالته .

(١٩) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٥٩ ، وقارن افتتاح الدعوة الدعوة حيث ديوان البريد بدلا من ديوان الحراج - ولا بأس أن يكون قد جمع بين الديوانين ، كما يحدث أحيانا حيث كان من مهام صاحب البريد (والأخبار) معرفة أحوال الحراج .

(٢٠) افتتاح ، ص ٣١٤ ، ابن الأثير ، ج ٨ ص ٥٢ .

(٢١) افتتاح ، ص ٣١٠ ، ابن الأثير ، ج ٨ ص ٥١ .

أيضا في شكل العميل المزدوج ، كما يقال الآن وذلك أنه كان في نفس الوقت يحضر « المنافقين » (المتأمرين) ليعتدروا للامام عما بدر منهم (افتتاح ، ص ٣١٥) . أما عن عروبة بن يوسف فانه بعد أن دخل مع جماعة المتأمرين فيما عقدوه بينهم ، عاد وكشف سرهم للمهدي الذي كتب الأمر (ابن عذاري ، ج ١ ص ١٦٢) . وكانت مكافأته على ذلك أن عين رئيسا لفرقة المالك من عبيد القصر (٢٢) . ولا بأس أن يكون سبب غدر عروبة بالجماعة ، ما كان بينه وبين أبي زاك من المنافسة الشديدة أو التحاسد ، إذ كان أبو زاك يقول : « لا والله لا آكون في قطيع أيام تقدمنى فيها ابن راعي البقر » - يعنى عروبة بن يوسف (افتتاح، ص ٣١٧) .

التخلص من أبي عبد الله وجماعة المتأمرين :

والهزم ان رد المهدي على المتأمرين كان في البداية متأنيا ، يدل على رباطة الجأش ورجاحة العقل ، ولكنه عندما زال الشك باليقين كان في النهاية فاصلا ، يؤكد ما اتصف به الامام من الحزم والحسم . والحقيقة انه بينما كان أبو العباس متطرفا في عداوته للامامة ظل أبو عبد الله ممثلا للطاعة ، لا يبلغ به الأمر الى درجة الجحود والنفاق ، الى « أن فشا أن أمير المؤمنين قد أنهى اليه ذلك » (افتتاح ، ص ٣١٠) ، وعندئذ بلغ الجدل الذي بدأه هارون بن يونس مع الامام الى حد القطيعة . ورغم ما تقوله رواية النعمان من أن الامام نجح في افحام شيخ المشايخ الكتامي ، الا ان عقوبة هذا الأخير كانت الموت (٢٣) .

وهنا قرر المهدي أن يتخلص من الداعي الذي « بدت عززته » . ووجبت حجة عليه ... وحل قتله لمحاربته آياه » (افتتاح ، ص ٣١٤) ، ولكنه كما دته لم يتعجل النهاية إذ رأى أن يعزل أبا عبيد الله وأخاه عن أصحابهما ففرقهم في النواحي حتى يسهل عليه الافراد بهما . فأرسل أبا زاك على رأس حملة الى قبائل هواراة في حيز طرابلس (٢٤) التي كانت

(٢٢) افتتاح ، ص ٣١٢ ، وعن اتخاذ المهدي للمبيد انظر من ٣٠٣ .

(٢٣) افتتاح ، ص ٣١١ - حيث كان رد المهدي على شك هارون بقوله : « ويحك ، كنتم أيقنتم ، واليقين لا يزيله الشك » . ويعلق النعمان على ذلك بقوله : « وصعدا الذي ذكره (عم) أصل من أصول الدين ، وأنه حقت على هارون كلمة العذاب » . وقارن ابن الأثير ، ج ٨ ص ٥١ .

(٢٤) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٦٣ ، افتتاح الدعوة ، ص ٣١٥ .

ولايتها لعمه : أبى يوسف مكنون بن عسيرة الأجانى : وأحكم المهدي التمييز فقرر أن يكون التخلص من زعماء الفتنة الثلاثة ، وهم : الداعي وأخوه المخطوم وأبو زاك دفعة واحدة ، رغم وجود أبى زاك بعيدا في طرابلس . كما رأى أن خير وسيلة لعدم إثارة قبيلة أجانة ، عصبية أبى زاك ، أن يعهد بتنفيذ العقوبة العظمى فيه إلى عمه وإلى طرابلس ، الذي نفذ المهمة الثقيلة بمنتهى العفوية ، إخلاصا للامام ، كما تقبل أبو زاك من عمه قرار الموت بما يليق بكبار القواد مثله ، من : رباطة الجأش ، إذ قال له : « يا عم أنفذ ما أمرت به » (ابن عذارى ، ج ١ ص ١٦٤) .

وبمجرد وصول نيا قتل أبى زاك من طرابلس إلى رقادة جوا عن طريق الحمام الزاجل ، وذلك في أول ذي الحجة سنة ٢٩٨ هـ / ٣١ يولية ٩١٠ م ، كان المهدي يضع المسامات الأخيرة للتخلص من الداعي وأخيه قبل أن يصلهما الخبر . فقد استدعاهما للقائه ، وكان اغتيالهما في الطريق إليه خلف القصر البحري برقادة ، وعلى يدي عروبة بن يوسف ، وجبر بن ناسب الميلي (٢٥) .

ورغم قرحم المهدي على الداعي لخدماته الجليلة ، ولعنه لأخيه أبى العباس المخطوم الذي أوردته موارد التهلكة ، فإنه وضع أن منهاج الحق لا يتجزأ ، وأن احقاق الحق للرجل لم يمنع من احقاق الحق فيه . أما عن العقوبة العظمى التي نزلت بأبى عبد الله فهي تنقية له وتطهير (٢٦) .

وكان من الطبيعي أن يتحرر المهدي من الكتامين ، أنصار الداعي

(٢٥) ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٦٤ - حيث قال عروبة للداعي عندما استخطفه : امرني بتلك من أمرت الناس بطاعته ، واختلعت له من الملك بعد قوطشته . وانظر ابن الأثير ، ج ٨ ص ٥٢ ، وقارن المحتاج ص ٣١٥ ، ٣١٦ - حيث تأريخ قتلهما في ١٥ ربيع الثاني سنة ٢٩٨ هـ / ١٩ فبراير ٩١١ م . ولقد رجحنا رواية ابن عذارى رغم تأخره ، إذ لزاما أكثر دقة من نص القاضي النعمان الذي تنقصه التواريخ كثيرا . كما نرى أنه تحوّل مع مرور الوقت بسبب طول الستر والكتمان ، حيث لم ير النور إلا في وقت متأخر ، وكذلك الحال بالنسبة لكثير من المصادر الاسماعيلية التي لم تظهر متأسرة فقط . . . بل وفي غمير مواطنها ، بعيدا ، في الهند بخاصة .

(٢٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٦٤ ، ١٦٥ ، ابن الأثير ، ج ٨ ص ٥٢ ، المحتاج ، ص ٣١٦ ، ٣١٩ - حيث الإشارة إلى أن أبا عبد الله ظهر بالعقوبة كما يظهر الذهب مما تداخله من الغش بالدوبان في النار ليصفو .

خاحتجب عنهم أيما ، قبل أن يؤمنهم ويستقبلهم متفرقين (ابن عذارى ، ج ١ ص ١٦٥) . هذا في الوقت الذي بدأت مطاردة بقية المتأمرين ومن يحوم الشك حولهم من أعرانهم ، بالعاصمة رقادة وبالأقاليم ، وكان منهم بعض أمراء الأغالبة السابقين (٢٧) . وكان أبو القاسم بن القديم من بين الفارين منهم ، ولكنه قبض عليه ، فيما بعد ، وقتل (افتتاح ، ص ٣١٦) .

موقف الكتاميين من مقتل الداعي :

كان من الطبيعي أن يكون ، لمقتل الداعي - أصدااء حزينة في نفوس الكتاميين وقلوبهم ، الأمر الذي أدى إلى جفوة بين المهدي ومعظم القبائل الكتامية ، فمن عرفهم القاضي النعمان باسم « المنافقين » . أما عن أولئك الذين بقوا مخلصين للفاطميين منهم ، لنسب أو آخر فكانوا قلة ، ومنهم الزعيم الكتامي أبو حليفة في جماعة من المشايخ ، وعلى رأسهم عروبة بن يوسف (افتتاح ، ص ٣١٢) ، والحقيقة أنه رغم اجتهد المهدي في الحفاظ على العلاقة المتينة بين كتامة وبين الدولة ، فمن الجلي أن اختفاء الداعي من مسرح الأحداث كان له نتائج سلبية على مجريات الأمور ، في كل من بلاد القيروان وكتامة ، حيث قبائل الأحرار من المعتزين بأياديهم البيضاء على الدولة - وكل ذلك نتيجة للدعاية السيئة التي قام بها كل من الامام والداعي في حق الآخر ، والتي ألقت بظلالها القاتمة على كل من الجانبين .

هكذا سمات سمعة الكتاميين في القيروان وإفريقية ، وخاصة بين طبقات العامة وأهل الأسواق ، كما سمات سمعة الدولة والامام في بلاد كتامة ، الأمر الذي تطلب من كل جانب منها أن يجتهد لنفسه بديلا عن الطرف الآخر . ففي الوقت الذي بدأ المهدي يعد العدة لاقامة نواة جيش خاص من المالك البيض والعييد السود لا يدين بالولاء والطاعة الا لشخصه (ماسبق ، ص ٦٦ و ٢٢ ، وبعد ١٠٥ - ١٠٦) ، كانت فكرة اقامة امام مغربي من بين أنفسهم تختمر في عقول الكتاميين وقلوبهم ، بدلا من ذلك الامام « المشرقي » . وظهرت نتائج سوء ظن كل فريق بالآخر في تلك الانفجارات الشعبية ضد الجند الكتامي في كل من القيروان وطرابلس ، والتي كان لها

(٢٧) افتتاح ، ص ٣٢٠ - عن جزم بن الأغلب عندما بلغهم نبأ مقتل الداعي ، واضطراب من كان منهم بالقصر القديم . مدينة جدهم ابراهيم الأول « المباشية » ، ص ٣٢٦ . حيث مجاهرهم بالمعصية لولي الله (المهدي) الذي تركهم بعض الوقت ثم أمر باعتقالهم . ص ٣٢٢ - حيث الأمر بالقبض عليهم وقتلهم وحبس من شيد منهم .

رد فعل في بلاد كتامة ضد عيد الله ، اعتبارا من أواخر سنة ٢٩٩ هـ /
يونيه - يوليه ٩١٢ م التالية لسنة مقتل الداعي .

مذبحة الكتامين في القيروان :

في ٢٠ شعبان من سنة ٢٩٩ هـ / ١٣ ابريل ٩١٢ م قام انفجار شعبي رهيب في اسواق القيروان ضد الكتامين ، ومنها انتشر الى أزقة المدينة ، راح ضحيته حوالي الف رجل منهم (٢٨) . وإذا كان السبب المباشر لمذبحة الكتامين في القيروان هو استقالة أحد الجنود الكتامين على بعض تجار المدينة (ابن عذاري ، ج ١ ص ١٦٦) ، فمن الواضح أن مذبحة الكتامين هذه ، وقعت مرتبطة بحركة التطهير التي قام بها المهدي في الجهاز الإداري ضد المتعاطفين مع الداعي من كبار الموظفين ، والتي راح ضحيتها منهم : محمد بن أبي سعيد الميلي ، صاحب السوق (المحتسب) ، وابن القديم (عبد الله بن محمد ، أبو القاسم) عامل الحراج (والبريد) ، وغيرهم (٢٩) ، الأمر الذي قد يفهم منه أن ثمة علاقة سببية بين الحادثتين . هذه العلاقة تتمثل في وقوف أهل الأسواق ضد الجند الكتامي الذين كانوا يسيئون الى التجار ، والتخلص من صاحب السوق ، وهو الأمر الذي يؤكده ما قام به والي القيروان ، أحمد بن أبي خنيزر ، من تسكين الناس ، والأمر « بتغيب القتلى الكتامين الذين طرحوا في المراحيض » (٣٠) .

(٢٨) ابن عذاري ج ١ ص ١٦٦ - حيث العدد أكثر من ١٠٠٠ (الف) رجل ، وانظر الحقائق والمعون ، المجبول ، تحقيق نبيلة عيد المنعم ، ط ١ النجف ، ج ٤ في ١ ص ٢٤٣ ، وقارن افتتاح الدعوة ، ص ٣٦٢ - حيث تحديد عدد القتلى من الكتامين بـ ٧٠٠ (سبعمائة) رجل ، قتلوا في ساعة واحدة .

(٢٩) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٦٧ - حيث اضاف : محمد بن أبي تروجال الباقاني ، وأبو الوهب بن عمر بن زوزة البدي ، وأبو ابراهيم المعروف بابن الجياد القرشي القهري ، وبساعة من بني الأغلب وقوادهم .

(٣٠) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٦٦ . أما عن رواية القاضي النعمان (افتتاح) ص ٣٢٢ ، التي تصف الكتامين بالأولياء ، فهي لا تحمل تاريخا ، كما تجعل من مذبحة الكتامين شجارا عفويا بين بعضهم وبين بعض الفوغاء غير المنضبطين ، مما دعا المهدي الى الاعراض عنهم لبعض الوقت قبل أن يعاقب بعضهم بمصادرة أموالهم .

ومن الواضح أن هذه الرواية تمثل وجهة النظر الرسمية من حيث أنها تضع الدولة في موقف الحكم الا اذا كان الأمر يتعلق بحادثة أخرى ، خاصة وأنها تربط بينها وبين مشاركة قتها القيروان في ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد ، صاحب الحار ، الزناني .

الثورة في بلاد كتامة :

هكذا كانت النتيجة الطبيعية للمذبحة - التي تدل القرائن عسلى مشاركة بعض الرسميين في تدبيرها - هي عودة الجنود الكتامين العاملين في منطقة العاصمة رقادة الى بلادهم ، حيث أعلنوا الثورة على عبيد الله المهدي . وبلغ الأمر الى حد أنهم أعلنوا إمامة أحد فتيانهم واسمه كادو بن معارك ، ولقبه المساوطني ، نسبة الى عشيرته بنى ماوطني ، من قبيلة أوسه (٣١) . والمهم أن الدعوة الكتامية المنشقة على المهدي في بلاد كتامة اتخذت شكل دعوة فاطمية جديدة ، إذ لقب المساوطني بالمهدي ، وقدم الكتاميون له فروض التبجيل ، ونصبوا له الدعاة على النسق الذي قام به أبو عبيد الله الداعي (الشيعي) من قبل ، بل وباسم أبي عبد الله نفسه الذي قيل أنه حي لم يميت (٣٢) ، فكانه الامام « المستقر » ، وكان المساوطني يقوم بدور الامام « المستودع » . وفي ذلك نسبت الروايات الشعبية الى المساوطني أنه يأتيه الوحي ، و« كتبوا فيه شريعة زعموا انها نزلت عليه » ، وبالفعل بعض تلك الروايات فقالت انهم : « اتخذوه قبلة يصلون اليه » (ابن عذارى ، ج ١ ص ١٦٦) . هذا ، كما وصفت روايات الخصوم - تماما كما فعل خصوم الاسماعيليين - دعوة المهدي الكتامي بأنها دعوة إباحية ، تطبق نوعا من شيوعية النساء ، من : إباحة الزنا والمحارم ، الى جانب ما اشتملت عليه من « تخليط عظيم » (٣٣) .

والمهم أن المهدي الكتامية المضادة حققت نجاحا كبيرا في بلاد كتامة ، وفي منطقة القبائل الصغرى ، وكذلك في بلاد الزاب حيث اجتاحت ميله

(٣١) انتاج الدعوة ، ص ٣٢٤ ، وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ١٦٦ حيث تحريف الاسم الى « المارطي » ، وانظر الخدائق والعيون ، ج ٤ ق ١ ص ٢٤٣ - ٢٤٤ ، حيث تحريف الاسم الى « المساوطني » . وهنا لا بأس من الإشارة الى ثورة قامت في كتامة سنة ٢٩٧ هـ / ٩١٠ م أي بعد قليل من مباشرة الامام لسلطانه . وتقص الرواية أن صاحب تلك الثورة عرف يد (بباب) وأنه اجتمع اليه عدد عظيم من قبائل البربر وأن عبيد الله كتب الى من يتحسك بطاعته من الكتامين بسحابة الثوار الذين هزموا . وتم أسر « بباب » كما قرىء كتاب الفتح بالقيروان (ابن عذارى ج ١ ص ١٦٠) . ولا ندري ان كانت تلك الثورة علاقة بثورة المساوطني ؟

(٣٢) انتاج ، ص ٣٢٥ ، وقارن ابن الأثير ، ج ٨ ص ٥٣ ، والعيون والحدائق ، ج ٤ ق ١ ص ٢٥٩ .

(٣٣) انتاج ، ص ٣٢٥ ، وقارن العيون والحدائق ، ج ٤ ق ١ ص ٢٥٢ .

وغلبيت على جميع البلاد (٢٤) . هذا ، كما نيججت في مواجهة القواد الذين سيرهم عبيد الله الى هنسا ، بل ان بعض هؤلاء القواد انضم الى الثوار الكنتامين ، كما فعل صولات بن جندم مع رجال فرقته المائتين (ابن عذاري ، ج ١ ص ١٦٧) .

وأخيرا تمكنت القوات الفاطمية التي سارت في ٢٥ رمضان سنة ٢٩٩ هـ / ١٦ مايه ٩١٢ م ، بقيادة ولي العهد ابي القاسم ، من اجتياح بلاد كتامة حتى سواحل البحر حيث دخلت مدينة قسنطينة في ٢٣ شوال سنة ٢٩٩ هـ / ١٤ يونيه ٩١٢ م ، ولكن بعد أن لقيت كثيرا من العناء ، ليس في حرب الثوار فقط ، بل وفي غدر الزعماء الكنتامين وجنودهم الذين كانوا يحنون الى بنى جلدتهم ، فيهربون الى الماوطننتي (٣٥) .

واذا كان سقوط قسنطينة يعنى نهاية الثورة ، اذ تمت الغلبة على الثائر عندما انهزم في ٣ من ذى القعدة / ٢٢ يونيه ، ووقع بين يدي عروبة ، فان سياسة الإدارة والملاطفة كان لها أثرها في اجتذاب أنصاره الذين قبلوا امان القائم وانصرفوا اليه (٣٦) .

وهكذا أعاد أبو القاسم الأمن والهدوء الى بلاد كتامة ، وعاد بالدعي الماوطننتي الى رقادة حيث قتله المهدي (٣٧) .

(٢٤) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٦٧ ، افتتاح ، ص ٣٢٥ .

(٢٥) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٦٧ ، ابن الأثير ، ج ٨ ص ٥٣ ، الداعي ادريس ، عيون الأخبار ، ص ٢٨ - ٢٩ - حيث تفصيلات لا توجد في غيره من المصادر ، تنص على أن أبا القاسم الذي كان بصحبته عروبة بن يوسف الملوسي كان يتقدمه جيشان ، أحدهما بقيادة ذمار الملوسي ، والآخر بقيادة محمد بن يعلى . وفي معاناة ولي العهد وما لاقاه من هول الحروب في كتامة كان رد المهدي عليه في بعض رسائله متفلسفا بعض أبيات من الشعر ، تعبر عن معاناته هو الآخر منها :

أصبح في كتامة ذا أفراد تقابلها قبالا في قيام
والثغ الحياة يخفض عيش معاذ الله والشهر الحرام

(وانظر فيما بعد ص ١٠٨)

(٣٦) ابن عذاري ج ١ ص ١٦٧ ، افتتاح ، ص ٣٢٥ - حيث تنضح آفة التاريخ في شكل حكايات من حيث انقسام المعلومات على سنتي ٢٩٩ - ٣٠٠ ، وكان الأمر خاص بحملتين مختلفتين ، وقارن البيون الحداث ، ج ٤ ق ١ ص ٢٥٢ - حيث النص على أن الزلف كان الى ميلة .

(٣٧) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٦٨ - حيث النص على أنه طوف بالمنازل وأصحابه أسرى على الجمال ، وعليهم القلائس الطوال الشهيرة بالقرون والمصانع ، افتتاح ص ٣٢٥ ، وقارن ابن الأثير ، ج ٨ ص ٥٣ ، والداعي ادريس ، ص ٢٩ .

ثورة شعبية على الكتاميين في طرابلس :

وما أن انتهت الثورة في بلاد كتامة أو كادت حتى عاصرتها في السنة التالية ، ٣٠٠ هـ / ٩١٣ م ، ثورة أخرى ضسد الجند الكتامي في طرابلس . ورغم أوجه الشبه بين الثورتين من حيث أن كتاتهما انتفاضة شعبية ضد الجند الكتامي ، فإن هناك من أوجه اختلاف أساسية بينهما . فبينما تمت ثورة القيروان ، ضد الكتاميين المتآمرين على الامام بتدبير بعض الرسميين ، كما توحى النصوص ، كانت ثورة طرابلس مناهضة للدولة ، ضد الكتاميين من الأولياء (المواليين) للمهدي ، وعلى رأسهم والي طرابلس : ماقنون بن ضسبارة الأجاني ، الذي كان من ثقافة الامام حتى أنه كلفه بقتل أبي زاكى - ابن أخيه .

والحقيقة أن المهدي كان قد أرسل أبا زاك على رأس جيش كبير ، الى منطقة طرابلس للقضاء على ثورة قبائل هوارى هناك بقيادة زعيمهم أبي هارون الهوارى ، الذى هدد المدينة بالحصار ، وبمشاركة من بعض القبائل الزناتية ومنها قبيلة لماية (ابن عذارى ، ج ١ ص ١٦٣) . وهكذا انتهز المهدي الفرصة للتخلص من أبي زاك مع أبي عبد الله ، مفترقين ، وهذا ما حدث (ما سبق ، ص ٦٧) . بعسد أن أغرق أبو زاك الثورة الطرابلسية فى الدم (٣٨) .

ورغم ما تشير اليه الرواية من أن السبب فى انتفاضة أهل طرابلس ضد الجند الكتامي هناك ، هو ما كان يسمح به ماقنون ، الوالى ، من « بسط أيدي بنى عمه من كتامة على الناس » حتى بلغ الأمر الى حصد « تطاولهم الى الحرير ، فتحرك السواد ، ومدوا أيديهم الى من لقوا من كتامة فقتلوههم » ، فالمهم هو أن ماقنون فشل فى مواجهة الثوار الذين نجحوا فى طرده خارج المدينة (ابن عذارى ، ج ١ ص ١٦٨) ، وبصحبته : أفلح بن هارون الملوسى القاضى المعين من قبل المهدي (٣٩) . وانتهاز الطرابلسيون الفرصة وأغلقت أبواب المدينة وتخلصوا ممن كان بداخلها من الجند الكتامي فقتلوههم ، ثم انهم رأوا أن ينظموا أنفسهم تحت قيادة بعض الزعماء ،

(٣٨) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٦٣ - حيث هزم الثوار وفرق جوعهم ، وقتل كثيرا منهم .
وبعث برؤوس كثيرة وأذان مغرطة لمن قتل ، فنصبت برقادة .
(٣٩) الداعى ادريس ، عيون الأخبار ، ص ٣٠ .

ومنهم : محمد بن اسحق القرشي ، المعروف بابن القرلين^(٤٠) ، وأحمد بن نصر ، الباغاني^(٤١) .

ولم يكن أمام ماقتون سوى الالتجاء الى عبيد الله المهدي بوقادة ، حيث زوده بجيش جديد وسيره لحرب الثوار ، الأمر الذي استمر عسدة شهور دون جدوى . وعندئذ انتهز المهدي عودة ولي العهد أبي القاسم من حرب بلاد كتامة مظفرا ، ورأى أن يكلفه بمواجهة ثوار طرابلس فكان مسيره الى هنسك في ٢ جمادى الأولى سنة ٣٠٠ هـ / ١٥ ديسمبر ٩١٢ م^(٤٢) .

استخدام الأسطول :

ولما كان الثوار قد استغلوا مركز مدينتهم البحرية وتمكنوا - بمساعدة الهواريين - من إفشال ما ضرب عليهم من الحصار البري ، وجد المهدي ضرورة أن تصاحب الحملة بعض قطع الأسطول ، فسير منها ١٥ (خمسة عشر) مركبا حربية . وكان من الطبيعي أن تصل قطع الأسطول قبل الحملة البرية ، لتجد مراكب أهل طرابلس في انتظارها . ولقد أثبت الطرابلسيون أنهم بحارة مهرة ، إذ تصعدوا لقطع الأسطول الفاطمي فأحرقوها وقتلوا من فيها من البحارة (ابن عذاري ، ج ١ ص ١٦٨ - ١٨٩) .

ولي العهد يحكم الحصار :

وعندما وصل أبو القاسم رأى أن يوجه نشاطه أولا الى قتال قبائل هوارية في مواطنهم بطواهر المدينة ، وكانوا يمدون طرابلس بما يلزمها من الغلات بحرا (الداعي ادريس ، ص ٣٠) ، ثم انه اتجه الى طرابلس نفسها وشن عليها الحرب ، وأحكم حولها الحصار الذي استمر ٦ (ستة) أشهر (الداعي ادريس ، ص ٣٠) . ومن الواضح أن قطاعا جديدة من

(٤٠) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٦٨ - ولا ندري إن كان المقصود بالقرلين ، لقب محمد بن اسحق ، له علاقة بالطائر المعروف في طرابلس باسم قرلة (جولة) ، وهو مشهور بانتهازية ونهمه الشديد ، الذي قد يؤدي الى هلاكه - أنظر كتاب الاستبصار ، ص ١٠٩ . الداعي ادريس ، عيون الأخبار ، ص ٣٠ .

(٤١) الداعي ادريس ، عيون الأخبار ، ص ٣٠ .

(٤٢) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٦٨ ، قارن ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦٦ .

الأسطول الفاطمي شاركت في الحصار من جهة البحر فهذا ما يفسر كيف ضاق الطرابلسيون بالحصر حتى أكلوا الميتة ، واضطروا الى طلب الأمان (ابن عذاري ، ج ١ ص ١٦٩) ، وقبول شروط أبي القاسم التي تقضى باستثناء ثلاثة من زعماء الثورة - ربما كانوا يكونون مجلسا للحكم ، على ما نقلت - منهم : محمد بن اسحق القرشي ، ومحمد بن نصر الباغاثي ، وآخر غير معروف الاسم (ابن عذاري ، ج ١ ص ١٦٩) .

التخلص من زعماء الثورة :

وهكذا يصبح دخول أبي القاسم مدينة طرابلس عنوة ، حيث تخلص ممن كان معه من الأغلبة وقوادهم (٤٣) ، كما أغرم أهل المدينة كل نفقات الحملة (ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦٦) . كما ترك أمر تعذيبهم واستخلاص الأموال منهم الى القائد خليل بن اسحق - الذي سيفتنحز فيما بعد بمذايحه في صقلية - وهو من مواليد طرابلس ومن أبناء جندها (٤٤) . وبعد أن عهد بولاية المدينة الى أبي مدين كناوة اللهيضي ، وجعل حباصة بن يوسف الملوسي معسونا له (الداعي ادريس ، ص ٣٠) ، عاد على رأس جيوشه المظفرة الى رقادة ، يتقدمه زعماء الثورة الثلاثة الذين شهر بهم كما كان الحال بالنسبة للماوطننتي وأصحابه ، على الجمال بالقلائس ، قبل أن يقتلوا (٤٥) .

الأحوال الداخلية :

الاضطرابات في الأقاليم :

هكذا يمثل الخلاف بين المهدي وبين الداعي أول أشكال السياسة

(٤٣) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٦٩ ، ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦٦ - حيث النص على تسريح البلد عنفا والفر من أهله ، وقارن الفتاح ، ص ٣٢٥ - حيث الإشارة الى أن أبا القاسم افتتحها بعد حصارها مدة وأنه عفا عن عامتها ، وقتل أهل الخلاف من أكابرهما ، واستعصى أموالهم .

(٤٤) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦٦ ، وأنظر عريب بن سعد ، صلة تاريخه الطبري ، ص ٣٧ ، وأنظر التجاني ، الرحلة ، ط ١ تونس ، ١٩٢٧ ، ص ١٧٢ .

(٤٥) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٦٩ ، وقارن ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦٦ - الذي يُلخص الرواية - رواية الفتاح الدعوة أصلا - قائلا ، وأخذ وجوه البلد عنده ، واستعمل عليه عاملا وانصرف .

الداخلية التي انتهجها المهدي ، وتكون تصفية أبي عبد الله سبباً في فساد العلاقة بين الدولة وبين عصبيتها الكتامية ، ذلك الفساد الذي انتقل الى المستوى الشعبي فشتج أهل أسواق القيروان على قتل الجند الكتامي ، وما ترتب عليه من اضطراب بلاد كتامة نفسها ، وما تلاه من انتفاضة عامة قام بها أهل طرابلس ضد الكتامين ، وجرأتهم على طرد ممثلي السلطة ، من الوالي والقاضي .

ولا شك أن انتشار مثل هذه الأخبار عن كتامة كان مما يشجع على إثارة البلبله والاضطراب ، ليس في الأقاليم المتطرفة وبين القبائل المعادية فقط ، بل وفي قلب أفريقية - مركز الحكم . وهذا ما كان يحدث فعلاً في تلك الفترة من مطلع القرن الرايسج الهجري / ١٠ م . وإن لم تقتصر مواجهة الدولة لذلك سياسة الحزم والحسم فقط ، بل وبما أكلها من استعراض للقوة مما تمثل في المحاولات الأولى لفتح مصر .

الانقلاب فاشل ضد المهدي :

في سنة ٣٠٠ هـ / ٩١٢ - ٩١٥ م ، وهي السنة التي ولي فيها ديوان البريد ، وهو ديوان الخبر ، أبو جعفر البغدادي ، اتهم أحد القيروانيين ، وهو محمد بن أبي أيوب المعروف بأبي العاصم ، بمحاولة الثورة على المهدي . والظاهر أنه كان للرجل شركاء في تلك التهمة ، وذلك أنه رغم اختفائه لبعض الوقت ، صدرت الأوامر بهدم عدد من الدور بالمدينة . ورغم أن الرجل سمح له بالظهور بعد أن قدم النصيح للمهدي فيما يتعلق بسياسته لأهل القيروان ، فإنه لم يسلم من عقوبة الاعدام بعد فترة (ابن عذاري ، ج ١ ص ١٦٩) .

فتح برقة سنة ٣٠٢ هـ :

في نفس الوقت الذي ثارت فيه طرابلس (٣٠٠ هـ / ١٢ - ٩١٣ م) ثارت برقة ولكن ضد حكم العباسيين . والظاهر أنه كان للفاطميين يد في تدبير الاضطراب هناك عن طريق إثارة الأعراب الذين خرجوا يهاجمون حدود مصر . وكان ذلك بمثابة التمهيد لثورة المدينة ذاتها التي أغرقت في الدم ، من حيث اعتبارها خيانة تفتح حدود مصر للخطر الشيعي المحذوق بها . وانتقم من الثوار بما يعبر عن الغيظ والتشفي ، إذ قطعت أنوفهم

وأذانبهم وأرسلت الى بغداد(٤٦) .

وشجعت ثورة برقة عبيد الله على الاسراع فى محاولة غزو مصر .
ففى ٢٥ جمادى الآخر من السنة التالية (٣٠١ هـ / ٢٦ يناير ٩١٤ م) ،
سير حباسة بن يوسف الملوسى وبصحبته موسى بن عبد الرحمن الودائى ،
على رأس حملة نحو برقة التى كانت ضمن حدود مصر الادارية ، اى تابعة
للمخلافة العباسية(٤٧) ، وبمجرد اقتراب العسكر الفاطمى من مدينة سرت
فرت الحامية المصرية نحو الشرق ، وكان يكفى اعلان الأمان لأهلها لى
يدخلها حباسة دون قتال ، ويرسل كتاب الفتح الى رقادة حيث قرىء من
أعلى منابر افريقية(٤٨) . ومثل هذا حدث فى أجداية ، اذ هرب الجند
العباسى (المصرى) ، ودخل حباسة المدينة بالأمان ، وكذلك كان الحال الى
أن دخل عاصمة الاقليم برقة ، بعد أن هرب منها قائد الحامية المصرية :
أبو النمر أحمد بن صالح ، لى يدخلها حباسة فى ٧ رجب / ٦ فبراير
٩١٤ م (الداعى ادريس ، ص ٣١) . وتطلب الأمر من المهدي أن يمد
حباسة بالجيش على طول الطريق (ابن عذارى ، ج ١ ص ١٧٠) ، من
أجل اقامة الحاميات وتهدة البلاد - على ما نرى .

معاملة قاسية لأهل برقة :

ورغم دخول برقة بالأمان الا أنها لقيت معاملة قاسية من قبل
حباسة ، لأكثر من سبب حتى لجأت الرواية التى يقدمها ابن عذارى الى
التعميم ، فقالت : انه « كلما دخل مدينة قتل أهلها ، وأخذ أموالهم
(ابن عذارى ، ج ١ ص ١٧٠) . هذا ، ويمكن تفسير تلك المعاملة بتبعية
المدينة للإدارة العباسية المعادية ، الأمر الذى دعا الى الشك فى تصرفات
بعض أهلها . من ذلك أنه قبض على جماعة من المتيسرين ممن كانوا يلعبون
بالحماس ، واتهموا بالتخابر مع عملاء العباسيين باستخدام ذلك الحسام
الزاجل ، وأساء حباسة استغلال ذلك فى سبيل استخلاص الأموال منهم

(٤٦) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٧٤ . وانظر للمؤلف ، مرقف ليبيا فيما بين قيام الفاطميين
بالمغرب ونقلتهم الى مصر ، مجلة كلية الآداب الليبية ، مجلد ١ ، ص ٢٣٠ .

(٤٧) أنظر ابن الأثير (سنة ٣٠٠ هـ) ، ج ٨ ص ٧٤ - حيث الاشارة الى ورود الخبر الى
بغداد ، ورسول من عامل برقة ، وهمى من عمل مصر ، وما يوجد به ٤ فراسخ لمصر ، وما وراء
ذلك من عمل المغرب .

(٤٨) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٧٠ ، وقارن الختاج ، ص ٢٦٦ .

عن طريق التخويف بالاحراق بالنار(٤٩) .

فشل والى مصر فى استرجاع برقة :

ورغم قرار الحاميات المصرية (العباسية) أمام جيش حباسة فى اقاليم برقة التابعة لمصر ، فان والى مصر وقتئذ ، وهو تكين ، قام بمحاولة استرجاع برقة فأصدر الأوامر الى القائد أحمد بن صالح بالرجوع على رأس العساكر التى نجحت فى تحقيق بعض الانتصارات على جند حباسة(٥٠) ، الذى طلب النجدة من المهدي فأرسل اليه المدد بقيادة سليمان بن كافى الجيملى ، وعفيف بن كرادس ، اللذين خرجا من رقادة فى ٥ شعبان سنة ٣٠١ هـ / ٦ مارس ٩١٤ م (الداعى ادريس ، ص ٣١) . وفى النهاية كانت الغلبة لحباسة الذى حقق النصر على المصريين فى ٢٥ رمضان / ٢٤ ابريل ٩١٤ (٥١) . ولم تكتف القوات الفاطمية بالنصر ، بل انها تابعت المنهزمين فى انسحابهم ، وقتلت الكثير منهم (ابن عذارى ، ج ١ ص ١٧٠) .

والظاهر أن ذلك النجاح كان حافزا لكى ينزل حباسة المزيد من التتكيل بأهل برقة ، وخاصة أولئك الذين كانوا قد اتهموا بالاساءة الى الامام - عندما طالبهم برد ما كانوا قد أخذوه من ماله ومتاعه - وهم بنو حمال المزاتى وبنو عمسومتهم - وهو فى الطريق من مصر الى سيجلماسة . ففى

(٤٩) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٧٠ - حيث النص على انه أضرهم لهم نارا ، وأجلسهم حاليها ، وأمر بأن تقطع لحومهم وتشتوى ثم يطعمونها ، وقد فهم بعد ذلك فى النار ، وهى الروايات الأسطورية ، كما نرى التى نجد لها مثيلا فى موسى بن نصير فى فتح الأندلس . هذا ، الى ما تقوله الرواية أيضا من انه قتل حوالى ألف رجل من أهل برقة غدرا ، عندما مناهم بالتوسع فى الرزق عن طريق تسجيل أنفسهم فى الديوان ، بينما أمر العرفاء الكتائب بأن يتصرفوا على هؤلاء المكتتبين عندما يحضرون لأخذ الأرزاق . وتضيف الرواية انه وضع كرسيًا وجلس فوق جيش القتل ، الأمر الذى حال وجهاء البلد الذين أتوا بناء على دعوته - الأمر الذى يذكر بمذبة الأمويين فى نهج ابن بطرس - حتى مات بعضهم رميا من شدة الخوف ، ولم يكن أمامهم سوى الخضار ما طلب منهم من المال ، وقدره ١٠٠ (مائة) ألف مثقال .

(٥٠) أنظر ابن الأثير ، سنة ٣٠٠ هـ ، ج ٨ ص ٧٤ - حيث النص على ورود الخبر الى بغداد ، ورسول من عامل برقة . . بخبر خارجي خرج عليهم ، وأنهم ظفروا به وبمسكره ، وقتلوا منهم خلقا كثيرا ، ووصل على يد الرسول من أبوهم وأذانهم شيء كثير .

(٥١) الداعى ادريس ، ص ٣٢ - حيث الإشارة الى ان مدد رقادة فشل الطريق بسببه الشباب وأنه فوجئ بمسكر أهل مصر ، ولكن المصريين هم الذين انهزموا .

السنة الثانية (٣٠١ هـ / ٩١٤ م) قام حباسة بقتل حارث بن حمال المزاني وأخيه نزار ، وبالت الرواية المهادية للفاطميين ، على ما نظن . بدالت : انه « باع نساهم ، وأخذ جميع أموالهم » (٥٢) .

ورغم ما توحى به الرواية من أن العقوبة التي نزلت ببرقة كانت بإيعاز عبيد الله المهدي ، فإن أهل برقة عندما كتبوا إليه بما نزل بهم من إقتل والسبي ومصادرة الأموال جاوبهم الامام معتذرا وهو يحلف بأنه « ما أمر بشئ مما ذكروه » ، الا في النفر الثلاثة ، (ابن عذاري ، ج ١ ص ١٧٠) . ولما كانت الرواية لم تذكر من قبل سوى قتل ابني حمال المزاني فقط ، فلا بأس أن يكون الثالث هو حمال نفسه ، الا اذا كان قد توفي من قبل . وتبعاً لأوامر عبيد الله المهدي رحل حباسة عن برقة ، ولكن في اتجاه مصر ، حيث حارب بعض الحصون المجاورة ، فكان فتح برقة والأقاليم المتاخمة لمصر منها ، كان تمهيدا لأول حملة يسييرها المهدي نحو مصر ، وذلك أن أبي القاسم ، ولي العهد ، خرج من رقادة في أواخر نفس السنة (٢٤ ذي الحجة سنة ٣٠١ هـ / ٢١ يولييه ٩١٤ م) ، وفي حشود عظيمة من كتامة وأهل أفريقية في طريقه إلى برقة ومصر ، عبر قابس وطرابلس وسرت (٥٣) .

محاولة فتح مصر :

ولا بأس أن يكون عبيد الله المهدي قد رأى أن يستغل النجاح الذي حققه حباسة ببرقة حيث لم تقم القوات المصرية (العباسية) بمقومة تذكر ، فقرر أن يكمل ذلك بمحاولة طرق أبواب مصر نفسها . فهذا ما يفسر اختلاف الروايات فيما وقع من الخلاف بين أبي القاسم الذي آلت إليه القيادة العليا للحملة وبين حباسة الذي أراد استغلال الظروف التي واثته في برقة . ورواية الداعي ادريس ، شبه الرسمية ، بتفصيلاتها الدقيقة تؤكد أن أبا القاسم ولي العهد ، كتب إلى حباسة بأمره بعدم الرحيل والانتظار في برقة حتى وصوله ، ورغم ذلك فإن حباسة لم يطق على ذلك صبرا ، وتقدم نحو المشرق على أمل أن يكون فتح مصر من نصيبه (الداعي ادريس ، ص

(٥٢) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٧٠ ، وقارن المؤلف ، موقف ليبيا فيما بين قيام الفاطميين في أفريقية ونقلتهم إلى مصر ، مجلة كلية الآداب بالجامعة الليبية ، مجلد ١ ، ١٩٥٨ ص ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ .

(٥٣) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٧١ ، الداعي ادريس ، ص ٣٢ .

(٣٢) • وهكذا فعندما غادر أبو القاسم سرت في ٣ صفر سنة ٣٠٢ هـ / ٢٨ أغسطس ، ليصل الى اجدابية في ١٢ صفر ٦٠ سبتمبر) ، كانت كتب حباسة ، الذي كان قد دخل الاسكندرية في اليوم السابق (١ صفر / ٥ سبتمبر) تصف له دخول قواته اقليم الحنية ، وهرب أبي الدلفاء ، قائد الحامية المصرية هناك ، رغم أنه كان بصحبة والي برقة الجديد خير المنصوري ، وواليتها السابق : أحمد بن صالح (الداعي ادريس ، ص ٣٢ - ٣٣) •

خلاف حباسة وأخيه عروبة والي تاهرت :

وهذا ما يفسر كيف ان حباسة لم يستطع التكيف في الخدمة تحت قيادة ولي العهد اذ أسفر الأمر عن هربه ، عندما استدعاه من قيادة جبهة مصر (الفسطاط) التي عهد بها الى القائد أبي فريدن ، ليعمل تحت قيادته المباشرة في اليوم • اذ غضب حباسة لذلك وسار هاربا في ٣٠ (ثلاثين) فارسا من بنى عمه نحو المغرب ، تتبعه أوامر أبي القاسم الى عمال الطريق برصده والقبض عليه ، كما كتب الى أبيه الامام بذلك • ونجح حباسة في الوصول الى برقة وطرابلس دون أن يدري به أحد ، ولكن أمره انكشف في نفاوة ، غرب طرابلس • واذا كان أصحابه قد نجحوا في الفرار فانه تم القبض عليه ، وقيد وحمل الى عبيد الله الذي أمر بجبسه وكذلك جميع أهله (ابن عذاري : ج ١ ص ١٧٢) •

ولقد استتبع هرب حباسة فرار أخيه عروبة خائفا او متواطئا ، من تاهرت الى جبل أوراس ، حيث قبض عليه • وكانت نتيجة ذلك مقتل الأخوين جميعا سنة ٣٠٢ هـ / ٩١٥ م (ابن عذاري : ج ١ ص ١٧٢) ، بعد ما قدماء للدولة من جليل الخدمات ، فكانهما كررا سيرة أبي عبد الله الداعي • ولقيا نفس جزاء سنمار (٥٤) •

(٥٤) ولا بأس من الإشارة هنا الى ما نلحه المهدي من قطع رؤوس الأخوين وجميع قرابتهما وكتابة بطاقات باسمائهم وتعليقها في آذانهم ، والأمر بطرحها بجانب الاسكندرية سرا • وانه قيل ان المهدي عندما نظر الى رأس حباسة وعروبة ، قال : « ما أعجب أمور الدنيا ، هذه الرؤوس شاق بها المشرق والمغرب وحلتها هذه القفة » (ابن عذاري : ج ١ ص ١٧٢) ، وقارن الميرون والملائق ج ٤ ق ١ ، ص ٢٨٩ ، ابن الأثير ، ج ٨ ص ٩٠ - حيث التمس على مخالفة نبوية بالقبروان واجساع خلق كثير اليه من كتلة والبرابرة وان المهدي اخرج اليهم مولاة فلما فلقنوا في محضر القبروان حيث قتل عروبة وبني عمه • وهذا ، ويمكن أن يفسر هذا العمل عن منار الفيك من قدر القائدين الكتامين أثناء الحملة على مصر ، وتواطئهما مع

والهم في الأمر أن أبا القاسم تبع حياصة راجعا من الفيوم (في ١٠
ذى القعدة ٣٠٢ هـ / ٢٧ مايو ٩١٥ م) ، عندما علم بوصول قائد الخلافة
العباسية ، مؤنس الحسام . ولما وصل برقة خرج اليه أهلها يهنئونه
بالسلامة ، فحاول أن يطيب خاطرهم بالقول : إنه إنما رجع خصيصا في
طلب حياصة ليعاقبه على فعله بهم . وبعد أن أمرهم بإصلاح ما كان قسده
تسعت من تحصينات مدينتهم ، استخلف عليهم بعض رجاله من الكتامين
(ابن عذارى ، ج ١ ص ١٧٢ - ١٧٣) - فكانه جعل الحكم هناك لمجلس من
عدة أشخاص ، وليس لرجل واحد ، هو الوالي . ولكنه بمجرد أن عرف
أهل برقة أنه رجسح من مصر مهزوما ، ومعه حياصة بطبيعة الحال ، بادر
الغوغاء منهم الى من عندهم من الكتامين فقتلوه (ابن عذارى ، ج ١
ص ١٧٣) .

عصيان أهل برقة وعقوبتهم :

وهكذا كان على المهدي أن يواجه عصيان برقة بعد فترة وجيزة من
دخولها تحت حكمه ، وأن يخضعها من جديد على يدى قائد كتامي آخر من
الموالين له ، هو أبو مدين بن فروخ اللهيصى ، الذى سار اليها في ستة
٣٠٣ هـ / ٩١٦ م (ابن عذارى ، ج ١ ص ١٧٣) . ولم تكن مهمة أبي مدين
سهلة ، إذ امتدت حرب المدينة العتيدة حوالى ١٨ (ثمانية عشر) شهرا ،
عانت فيها من شدة الحصر والطريق بالنار حتى فنى أكثر أهلها . وعندما
سقطت سنة ٣٠٤ هـ / ٩١٨ م استصفت أموالهم ، وسيز زعمائهم الى رقادة
حيث أمر المهدي بقتلهم (٥٥) . وبقي أبو مدين في ولايته على برقة حوالى ٣
(ثلاث) سنوات الى وفاته سنة ٣٠٦ هـ / ٩١٨ م (ابن عذارى ، ج ١
ص ١٨١) .

المصريين ورجال الخلافة العباسية ، الأمر الذى قد يردح هؤلاء الآخرين عن معاودة مثل هذا
العمل . والحقيقة أن النص الذى يورده ابن الأثير والذى ينسب الى عسكر برقة المصرى
(العباسى) أنه عندما حقق بعض الانتصارات على الجند الفاطمى ، قطع أنوفهم وأذانهم وبعث
بها الى ديوان الخلافة ببغداد (أنظر فيما سبق ص ٧٧ وم ٥٠) . الأمر الذى يعنى أن مثل
هذا العمل الذى بدأ به عبد الرحمن الداخل عندما حقق النصر على الداعية العباسى ، العلاء
ابن مغيث ، كان قد أصبح عملة دارجة في ذلك الوقت .

(٥٥) (ابن عذارى ، ج ١ ص ١٧٥ ، وقارن افتتاح ، ص ٢٦ - حيث النص على افتتاحها
وقتل أكابر أهلها من المخالفين .

أخطر دواس فجبسهم فى حصن برفجانة المعروف بتاهرت القديمة ، فان ذلك لم يمنع محمد بن خزر من مهاجمة المدينة والاستيلاء على بعض أرباضها ، الأمر الذى أدى الى هرب دواس وانتجائه الى ابن حمه ، صاحب القلعة (برفجانة) والى قتل المحبوسين من بنى دواس فى حصن برفجانة (ابن عذارى ، ج ١ ص ١٥٥) . والمهم أن أهل تاهرت نجحوا فيما فشل فيه واليهيم ، فحاربوا دفاعا عن مدينتهم حتى هزموا محمد بن خزر ، ومن ثم كاتبوا دواس الذى رجع الى ولايته (٥٧) .

هرب محمد بن خزر الى الصحراء :

وكان موكب الامام والداعى قد وصل الى مدينة « أريا » فى اتجاه أفريقية عندما أتت الأخبار بتهديد محمد بن خزر لتاهرت ، ولكنهم عندما غيروا مسارهم نحوه ، هرب الى الصحراء وتوغل فى مجاهل بحار الرمل (٥٨) .

ثورة تاهرت :

وهكذا استقرت الأمور لصالح الامام لمدة سنتين قبل أن تدور الأحداث فى تاهرت بشكل معكوس إذ تار التاهرتيون على عاملهم دواس ، وألقوا به هزيمة منكرة ، إذ قتلوا معظم رجال حاميته المكونة من ألف فارس ، واضطروه الى الانتحاء الى حصن تاهرت القديمة (برفجانة) . وحينئذ استدعوا محمد بن خزر ليلى أمر البلد . ورغم ما أظهره من التشقى فى دواس ، إذ : برزوا اليه بأمر دواس وعباله وسلاحه ، فسرعان ما اتضح للطرفين عدم الانسجام فيما بينهما الأمر الذى زهد ابن خزر فى الولاية ، فترك تاهرت وانصرف من حيث أتى (ابن عذارى ، ج ١ ص ١٦٦) .

وعهد عبيد الله المهدي بولاية تاهرت المهزومة الى «صالبة بن حبوس المكناسي» ، وبذلك عاد دواس بن صولات (الكتامي) كسير الجناح الى رقادة

(٥٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٥٥ . حيث النص خطأ على أنهم قتلوا محمد بن خزر .
(٥٨) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٥٦ ، وقارن الداعى أدريس ، ص ٢٥ وما بعدها حيث النص على أن الامام علم يهجوم محمد بن خزر على تاهرت عندما وصل الى المدينة ، بمعنى أن مدينة « أريا » كانت بين أعمال تاهرت . والرواية تقدم تفصيلات لا توجد فى غيرها ، من : السيرة من تاهرت الى مريض قلائت ، وتسير الثورات الى قبالة مدينة والفول فى كتابات .
قبر الوصول الى ألكجان حيث أقام ٣٠ (عشرين) يوما .

حيث كان جزاؤه القتل ، ولكن بعد حين (ابن عذاري ، ج ١ ص ١٦٦) ، دون أن تمنحه خدماته من انزال العقوبة العظمى به . فأبو حميد دواس هو الذي نشر التشيع في منطقة تاهرت بين قبائل البربر (٥٩) . فكأنه صاحب الفضل في تحويل تاهرت نهائيا من معقل الخارجية الى مركز للاسماعيلية الفاطمية .

تاهرت مركز الدولة الفاطمية في بلاد المغرب :

والحقيقة أن المهدي كان يحسن الاختيار عندما عهد الى مصالة بولاية تاهرت اذ يرجع الفضل الى مصالة في توطيد أركان الحكم الفاطمي ، ليس في المغرب الأقصى فقط ، بل وفي ربوع المغرب الأقصى أيضا - وهو الأمر الذي كان يخطط له المهدي منذ اقامته في سجلماسة بأقصى صحراوات المغرب الأقصى . وهكذا تأكد موقف تاهرت كمركز إشعاع للتشيع الفاطمي ، الأمر الذي بدأ على يد أبي حميد دواس الكتامي ، ووقع استمراره على عاتق مصالة بن حبوس الكتامي ، رغم أننا لا نعرف الكثير عن نشاطه منذ ولايته لتاهرت ٢٩٩ هـ / ٩١١ - ٩١٢ م .

فتح نكور :

وفي ذلك تقول الرواية انه لما تغلب عبيد الله المهدي ، كتب الى أهل المغرب يدعوهم الى الدخول في طاعته ، والتدين بإمامته ، وبعد في خطابه ويتوعد ، وكان من بين من كتب اليهم صاحب مدينة نكور ، التي تعتبر من موانئ ساحل تاهرت ، والمواجهة لمدينة مالقة من الأندلس (٦٠) . وهو

(٥٩) ابن خلدون ، البر ، ج ٦ ص ٢٩٨ - حيث النص على انه حصل القبائل على الرضى .

(٦٠) عن مدينة نكور ، انظر البكري ، ص ٨٩ وما بعدها ، حيث الاشارة الى انه بجارهما بعد المشرق قبائل زواغة وجراوة ومطاطة ، ومن جهة الغرب بنو مروان وبنو حميد ، وهم من غفارة (على مسافة ٥ (خمسة) أيام - ابن خلدون ، البر ، ج ٦ ص ٢٩٢) . أما عن مراسيها فهي : ملوية وهرلك وكركط وبرى الدار ، الذي يقابل مالقة . أما عن المسجد الذي بناه سعيد بن صالح على نهر شيس ، فهو : « على صفة مسجد الاسكندرية ، بمحارسه وجميع منامه » .

وعن تاريخ نكور فبانيها سعيد بن صالح الحميري ، وينسب الى والده صالح أنه عرف « بالعب الصالح » وانه فتح نكور على أيام الوليد بن عبد المالك (سنة ٩١ هـ / ٧١٠ م ، البر ج ٦ ص ٢١١ ، ومصدره صاحب المقاييس) ، وانه صاحب الفضل في نشر الاسلام هناك =

سعيد بن صالح (الهامش السابق) الذى أجاب مستهترا بالمهدى ، الأمر
الذى ترتب عليه ضياع امارة نكور ، وكان سعيد يظن انها بعيدة المنال (٦١) .

بين قبائل البربر ، من صنهاجة وغمارة . ورغم ارتداد هؤلاء القوم عندما استتقلوا شرائع
الاسلام تحت اغراء رجل من نفزة يعرف بالوندى ، وطردهم لصالح ، الا أنهم تابوا بعد
ذلك الى رشدهم واستردوا صالحا الذى بقى فيهم الى أن مات (سنة ١٢٢٢هـ / ٧٥٠م -
ابن خلدون ، ج ١ ص ٢١٢) . وخلفه فى رئاسة القوم أحد بنيه ، وهو المتصم ، وبعده أخوه
ادريس (الذى ينسب اليه تخطيط مدينة نكور على الضفة الأخرى من النهر ، وإن لم يكملها ،
وتوفى سنة ٢٤٣هـ / ٨٥٧م - ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢١٢) ثم ابنه سعيد ابن ادريس (الذى
اختطف نكور بين النهرين : نكور ونجس ، العبر ، ج ٦ ص ٢١٢) . وعلى أيامه تعرضت
نكور سنة ٢٤٤هـ / ٢٥٨م لغزو المغوس الذين انتهوا وسبوا نساء بنى صالح ، ففداهن
الامام محمد بن عبد الرحمن (البكرى ، ص ٩٢) ، الأمر الذى يعنى أن المنطقة كانت خاضعة
للفقوذ الأموى بالأندلس . هذا ، كما تعرض سعيد بن ادريس الى ثورة قبائل البرانس بقيادة
رجل يسمى « سكين » ، ولكن الأمر انتهى بأن هزمهم وأعادهم الى الطاعة (وبقي فى الإمارة
الى سنة ٢٨٨هـ / ٩٠١م - العبر ، ج ٦ ص ٢١٢) .

وبعد سعيد ملك ابنه صالح الذى خلفه عشرة (١٠) أبناء . وقام ضده أخوه ادريس
فى قبائل بنى درياعل وكزناتية ، ولكن الأمر انتهى بفشله وقتله . كما فشلت ثورة على صالح
ابن سعيد قامت بها قبائل مكناسة . فامتنعوا عن دفع الضرائب . ولكنهم عادوا الى الطاعة
سلما (البكرى ، ص ٩٢ ، وقارن ابن عذاري ، ج ١ ص ١٧٧) . وشالط صالحا ابنه
سعيد ، صاحب المسجد المبنى على نسق جامع الاسكندرية . على نهر نكور . وتوفى سعيد
سنة ٣٥٠هـ / ٩٦٦م وله من العمر ٧٢ عام . ولما كان سعيد هذا هو امير اخوته فقد
تعرض لثورة أخيه عبد الله وعنه الرضى ، وقضى عليها ، مثلما هزم سعادة الله بن هارون
الذى ثار انتقاما لبني عمه ، وتحالف مع بنى يصلاتين ، ونجحوا فى هزيمة سعيد ، وقتلوا من
مواليه الصقالية نحو ١٠٠٠ رجل ، ولكن الأمر انتهى بظفره عليهم . كما غزا بلاد بطوية ،
وأصهر بأخيه حميد بن ادريس بن محمد بن سليمان ، وأنزله معه بمدينة نكور . وسعيد
هذا هو الذى كاتبه المهدي يطلب منه الطاعة بدلا من طاعته أمير الأندلس الأموى ، كما يترأى
لنا . والمهم هنا ان ابن خلدون (ج ٦ ص ٢١١ - ٢١٣) يضيف اضافات جديدة الى النص
الذى وصلنا عن البكرى ، الأمر الذى يعنى أهميته الكبرى بالنسبة للمصور المتقدمة على عصره
من تاريخ المغرب .

(٦١) البكرى ، ص ٩٥ - حيث النص على ان كتاب المهدي حوى فى نهايته أبيات من

الشعر ، منها :

فان تستغيثوا استغاثم لصالحكم وان تعدلوا عني أرى قتلكم عدلا
وأعلموا بسبغى قباشر لسيفكم وأدخلها عفوا وأملوها قسلا
فرد عليها أحد شعرائهم من الأندلسيين بأبيات ، منها :

كذبت وبیت الله لا تحسن المدلا ولا علم الرحمن من قولك الفضلا
فما كنت الا حاسل ومنافى تشعل للجهمال فى السنة المثلا

وقارن ، العبر ، ج ٦ ص ٢١٣ - حيث النص على أن الشعر للشاعر أحمد الطاطيل .

وذلك أن المهدي أصدر أوامره إلى مصالة إلى حبوس بالمسيير إلى بلد تكور
لحرب سعيد بن صالح . وكان خروج مصالة من تاهرت في أول ذي الحجة
سنة ٣٠٤ هـ / ٢٦ مايو ٩١٧ م . وعندما وصل إلى مشارف تكور كان سعيد
ابن صالح في انتظاره بموضع يعرف (بنسافت) على مسافة يوم من المدينة .
ودار القتال سجلا ، وظهرت كفاءة سعيد الحربية - رغم مرور ٥٤ (أربع
وخمسين) سنة على حكمه - الأمر الذي دعا مصالة إلى قبول ما عرضه عليه
أحد المغامرين من شجعان سعيد ، عندما وقع في الأسر ، وسأل شراء حياته
ثمنا للغدر بأمره سعيد . ونجح الرجل فعلا في مفاجأة سعيد الذي أخرج
ما كان يخشى عليه من المتاع والأبناء إلى بعض الجزر في مرسى تكور ، وقاتل
حتى قتل (٦٢) . ودخل مصالة مدينة تكور التي استباحت يوم الخميس ٣ من
المحرم سنة ٣٠٥ هـ / ٢٦ يونيو ٩١٧ م ، وأرسلت رأس سعيد مع رؤوس
قرباته من بني صالح ، إلى القيروان حيث شهر بها بمدينة رقادة . أما
الناجون من بني سعيد وأهله فقد عبروا إلى مالقة وبجاية حيث أمر الأمير
عبد الرحمن (الناصر) بحسن استقبالهم ورعايتهم (٦٣) .

وبعد إقامة في تكور استمرت لمدة ٦ (ستة) أشهر ، استخلف
مصالة عليها رجلا من أصحابه يعرف بـ « دلول » ورجع هو إلى ولايته في
تاهرت . والظاهر أن دلول لم يتمكن من السيطرة على رجال حاميته ، إذ
افترق عنه معظمهم ولم يبق لديه منهم إلا القليل ، الأمر الذي شجع أبناء
سعيد بن صالح على العودة إلى مدينتهم ، معتمدين على قوتهم « بمحبة رعيته
لهم » ، وإن آلت الولاية إلى أصغرهم سنا ، وهو صالح ، دون أخويه
الأكبرين : إدريس والمعتصم اللذين اعترفا له بالسيادة . أما عن دلول
وأصحابه فكان مصيرهم أجمعين الصلب على ضفة نهر تكور (٦٤) .

وحيث الشطرة الأولى من البيت الأول « وأن تستقيموا استقيم بصلاحكم » ، والشطرة الثانية
من البيت الثاني « وأملوها » بدلا من « أملوها » ، والشطرة الثانية من البيت الثالث :
« الفصل » بدلا من « الفصل » والشطرة الأولى في البيت الرابع « وما أنت إلا جاهل ومناق » .
(٦٢) البكري ، ص ٩٥ - ٩٦ - حيث الإشارة إلى أنه كان من بين من أخرجهم سعيد
ابن صالح من قصره إلى أماكنهم في جزيرة المرسى ، أبناؤه : صالح وإدريس والمعتصم ، وقارن
ابن عذارى ، ج ١ ص ١٧٥ .

(٦٣) البكري ، ص ٩٦ ، وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ١٧٥ .

(٦٤) البكري ، ص ٩٦ - حيث النص على اتفاق الأخوة على نوع غريب من القرعة يشمل
في أن يركبوا ثلاثتهم في مراكب مختلفة ، في ليلة واحدة ووقت واحد ، وريح واحد ، فمن

وقرىء كتاب صالح - بما تم له من انفتح - الى الناصر الاموى بجامع قرطبة وسائر مساجد الأندلس ، وبذلك توطد الملك لصالح بن سميعة وبنيه ، من جديد ، تحت الراية الاموية (البكرى ص ٩٧) .

مد التفوذ الفاطمى الى مملكة الأدارسة بفاس والمغرب الأقصى :

الحملة الأولى :

فيما يتعلق بالتوسع الفاطمى فى المغرب الأقصى وفاس ، يمثل تضارب التواريخ مشكلة تتطلب حلا ، اذ يتحيز الباحث فى محاولة ترتيب السنوات المتدرجة ما بين : ٣٠٥ هـ/ ٩١٧ م و ٣٠٧ هـ/ ٩١٩ م ، ٣٠٨ هـ/ ٩٢٠ م ، ٣٠٩ هـ/ ٩٢١ م ثم ٣١٠ هـ/ ٩٢٢ م . ولتبسيط الحسل يمكن البدء بالنظر فيما يمكن أن يكون من الارتباط بين كل سنة والتي قبلها والتي تليها وهو الأمر المقبول . فمن الواضح أن التاريخ الأول (٣٠٥ هـ/ ٩١٧ م) وهو الذى يقدمه البكرى نقلا عن النوفلى (١٥) ، مرتبط بحملة تكور التي بدأت فى أواخر سنة ٣٠٤ هـ/ ٩١٦ م ، واستمرت بطبيعة الحال خلال سنة ٣٠٥ هـ/ ٩١٧ م . وفى تلك الحملة يشير البكرى الى وصول مصالة الى مدينة الزيتون : مكناسة ، قاعدة يحيى قبل فاس ، وان أخطأ فى وضع ذلك سنة ٣٠٧ هـ/ ٩١٩ م ، بدلا من ٣٠٥ هـ/ ٩١٧ م . وهكذا تكون أول مواجهة بين يحيى وبين مصالة قد وقعت بمكناسة سنة ٣٠٥ هـ/ ٩١٧ م ، وأنه رغم هزيمة يحيى التي يعتبرها البكرى نهاية لحكمه ، فمن الواضح أن مصالة أقام نوعا من توازن القوى فى المغرب الأقصى كما يفهم من البكرى (ص ١٢٥) ، اذ ترك ليحيى مملكة فاس وما يتبعها ، من مكناسة وغيرها ، كما قرب الزعيم الزناتى موسى بن أبى العافية صاحب تسول وتآزة وكروسيف (١٦) .

وانى ذلك التوازن بشماره ، من حيث أن يحيى الادريسى ومملكته

وصل منهم قبل صاحبيه كانت الولاية له ، فكان السبق من نصب صالح الذى وصل نفس الليلة الى تسكور ، فتسارع الزبير اليه ، وعقدوا له الامرة ، ولقبوه به « التميم » لصفوه ، وزحفوا الى دول فاختوه وجبى اصحابه - وقارن ابن خلدون ، السر ، ج ٦ ص ٢١٣ .

(١٥) البكرى ، ص ١٢٥ ، وقارن ابن عذارى - ج ١ ص ١١٩ ، ابن أبى زرع ، القوطاس ،

ص ٨٠ .

(١٦) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٣٤ ، القوطاس ، ص ٨٠ .

الحضرية كانت بمثابة صمام الأمان بالنسبة لموسى الزناتى وامارتى البدوية (٦٧) .

وهكذا وقع على عاتق مصالحة ، فى حملته الأولى ٣٠٥ هـ / ٩١٧ م ، عبء اقرار النفوذ الفاطمى فى المغرب الأقصى حيث الشرفاء الأدارسة وهم الفاطميون أيضا . الأمر الذى كان يزيد من اشتعال الصراع مع الأمويين والأندلسيين فى تلك المنطقة من المغرب الأقصى التى أضحت وكأنها من « أرض حرام » بالنسبة للطرفين المتصارعين على ضفتى المجاز أو العسوة ، فكان الأمر عودة الى جبهة « التحكيم » فى أذرح بين الشام والعراق ، أيام على ومعارية ، وذلك ما تظهر أصداؤه بوضوح لدى القباضى النعمان فى المجالس والمسائرات (ما سبق ص ٢٣) .

الحملة الثانية :

وكان على مصالحة بن جبوس المكناسى ، فى حملته الثانية ، أن يثبت النفوذ الفاطمى فى إقليم فاس ، فى حرب العظيمة تلك أو حرب اثبات الوجود بين أولئك الخصوم الجسد من العلويين المغاربة والقدامى من الأمويين الأندلسيين .

أما عن التواريخ فالبكري يعدد سنتى ٣٠٧ هـ / ٩١٩ م ، ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م ، فيجعل الأولى (٣٠٧ هـ / ٩١٩ م) تاريخا لحملة مدينة الزيتون (مكناسة) التى انتهت بالوفاق مع يحيى ، وإن عاد وجعلها تاريخا للحملة الثانية التى أنهت حكم يحيى بتدبير موسى بن أبى العافية ، وإن جعل تاريخ الحملة بعد ذلك سنة ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م . وإذا كان توقيت القرطاس لتلك الحملة وهو سنة ٣٠٩ هـ / ٩٢١ م قد يساند سنة ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م ، فإن

(٦٧) البكري ، ص ١٢٥ - حيث الإشارة الى المؤلف الذى ينص على أن مصالحة لما قدم المغرب فى حركته الأولى سنة ٣٠٥ هـ / ٩١٧م ابتد موسى بن أبى العافية بالاحسان ، وقدمه فى المغرب ، وكان موسى كلما رجا الظهور « عزه » (غمره) يحيى بن ادريس وقطع به عن أمه - هذا ، وإن قدم على ذلك سنة ٣٠٧ هـ / ٩١٩م كنارنج لعزيزة يحيى أمام مدينة الزيتون (مكناسة) ، كما سيقف الإشارة . وقارن القرطاس ، ص ٨٠ - حيث النص على أن موسى ابن أبى العافية خدم مصالحة وعاداه وتقرب اليه بالاحسان ، وقاتل فى جميع حروبه بالمغرب واختصه بين سائر أمرائه ، فكان موسى كلما أراد الظهور بالمغرب والاستبداد فيه ، غمره يحيى ابن ادريس الحسنى بشرقه وكرمه ودينه وعدله وقطع عليه كل ما يريد ، فكان على قلبه من حمل ثقيل .

ابن خلدون الذى يجعل سنة ٣٠٩ هـ / ٩٢٦ م تاريخا لمقتل مصالة على يدى محمد بن خزر (العبر ، ج ٧ ص ٢٥) يضعف من ذلك .

وبناء على ما تقدم فاننا نرجح سنة ٣٠٨ هـ / ٩٢٠ م ، التى يحددها ابن عذارى نوقيتا للحملة الثانية ، وهى التى تسميها سنة ٣٠٧ هـ / ٩١٩ م ، عند البكرى ، على اعتبار تلك الأخيرة كبدية للحملة التى تكون قد استغرقت أيضا السنة التالية لها (٣٠٨ هـ / ٩٢٠ م) (٦٨) .

وهكذا يكون خروج مصالة من تاهرت فى حركته الثانية نحو المغرب سنة ٣٠٨ هـ / ٩٢٠ م الى فاس ، كما كان عليه أن يمر بمدينة نكور ليزيح عنها النفوذ الأموى ويعيد إليها الرموز العلوية . وفى هذه المرة كان على صالح بن سعيد ، عندما بلغه اقتراب مصالة ، الخروج من نكور والاعتصام بجبل أبى الحسين القريب ، تاركا مدينته مفتوحة أمام القائد الفاطمى الذى أقر النظام فيها (٦٩) .

ومن نكور سار مصالة فى نفس السنة الى فاس حيث يحيى بن ادريس ابن عمر . ويفهم من رواية البكرى ، التى نقلها صاحب القرطاس مع بعض التحوير ، أن يحيى كان حائفا للعهد مواليا لدولة الامام المهدي ، لولا سعاية موسى بن أبى العافية الذى كان يطمح الى الاستبداد بالمغرب لولا يحيى الذى ثقل على قلبه لوقوفه ، حجر عثرة فى طريقه (انظر ما سبق ص ٨٨ وهـ ٦٧) اذ وشى ببخى لدى مصالة حتى أسخطه عليه ، فأصدر الأخير أوامره بالقبض على يحيى غدرا ، ودخل به مشهرا الى فاس ، وصادر جميع أمواله ثم انه أخرجه عن بلده ، وقضى على مستقبله السياسى (٧٠) .

هنا ، ونحن نرجح رواية ابن عذارى التى أخذنا بتاريخها (٣٠٨ هـ / ٩٢٠ م) وإن كانت لا تعرف لمصالة الا هذه الحملة وحدها على فاس ، على تلك الرواية شبه المنقبة التى قد لا تبدو كافية لتدبير ما نزل بالأمير الادريسي الذى كان وقتئذ أعلى بنى ادريس حالا بالمغرب (البكرى ، ص

(٦٨) انظر البكرى ، ص ١٢٥ ، ١٢٦ ، القرطاس ، ص ٨٠ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١٨٣ ، ابن خلدون ، ج ٧ ص ٢٥ .

(٦٩) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٨٣ - حيث النص على ضبطها بمعرفة مصالة .

(٧٠) البكرى ، ص ١٢٦ ، القرطاس ، ص ٨٠ .

١٣٢) ، ونرى أنه من الأوفق أن يكون يحيى بن ادريس قد قدر ما كان يحيط به من أخطار الفاطميين والزنازية ، وأنه قرر مواجهة قوات مصالة ، وإن لم يقدر له الصمود أمامها إلا لعدة أيام . وبذلك تمكن مصالة من الاستيلاء على فاس وإقرار الأمور فيها (٧١) .

القضاء على مملكة فاس الادريسية :

وهكذا يكون الفاطميون قد قضوا على مملكة فاس الادريسية ، ويكون يحيى بن ادريس قد انتهى نهاية مأساوية ما بين سجن موسى بن أبي العافية . في مدينة لكاي ، لمدة زادت على ٢٠ (عشرين) سنة ، ثم الإقامة الرقيقة الحال بمدينة أصيلة ، في كنف بني إبراهيم ، قبل التوجه إلى المهدي سنة ٣٣٠ هـ / ٩٤٢ م حيث كانت فاجعة موته جوعا سنة ٣٣٤ هـ / ٩٤٢ م في حصار أبي يزيد (٧٢) .

أما عن مدينة فاس فقد قدم مصالة عليها ، ربحان بن علي الكتامي ، الذي بقي واليا عليها ٣ (ثلاث) سنوات ، إلى سنة ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م ، عندما استولى عليها الأمير الادريسي : حسن بن محمد بن القاسم بن ادريس . المعروف بالحجام ، وطرد الوالي الفاطمي ، وملكها لمدة عامين (٧٣) .

(٧١) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٨٢ - حيث الإشارة إلى تعريض بعض الشعراء بأهل فاس .
لقد يقول :

دخلت فاسا ونى شوق إلى فاس والجيش يأخذ بالعيتين والراس
فلست ادخل فاسا ما حيت رلو أعطيت فاسا بها فيها من الناس
(٧٢) البكري ، ١٢٦ وانظر أيضا ص ١٣٢ - حيث الإشارة إلى أن يحيى بن ادريس كان أعلى بني ادريس حالا بالقرب ، وحيث يضيف رواية الخوفاي التي تنص على أن يحيى كان حيا للعلم يشهد مجلسه العلماء والشعراء ، وكان أبو أحمد الشافعي من جلسائه ، وأنه كان ينسخ له عدة من الروايات « ويتجمعه » الناس من الأندلس وغيرها ، فيحسن إليهم - القرطاس ص ٨١ ، وقارن ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٢٤ - حيث الإشارة إلى القبض على يحيى بمعرفة موسى وطرده من عمله ، ولحاقه ببني عمه بالبصرة والريف .

(٧٣) البكري ، ص ١٢٦ - حيث الإشارة إلى أن أحمد بن القاسم بن ادريس هو الذي لقيه بالحجام عندما وجده يحسن القرب في المعاجم وهما يتفقتان . وفي ذلك قال بعض الشعراء على لسان الأمير حسن :

وسميت حجاما ولست بحسام ولكن لقرب في مكان المختار
وقارن ابن خلدون ، المعبر ، ج ٦ ص ٢١٦ - حيث الإشارة إلى أن خروج المعاجم كان في سنة ٣١٣ هـ / ٩٢٥ م ، بمعنى ترجيح الرواية التي تجعل سنة ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م تاريخها شملة مصالة على فاس .

محاولات اقرار الأمور في سجلماسة :

ولما وقع على عاتق مصالة ، بصفته والى تاهرت والمغرب ، مد النفوذ الفاطمي الى سواحل نكور ، والى مكناسة وفاس في الداخل ، كان عليه أن يعيد سلطان الفاطميين في أقصى الصحراوات الغربية الجنوبية الى سجلماسة التي كانت قد انتقضت بعد فترة وجيزة من خروج الامام والداعي في مطلع سنة ٢٩٨ هـ / ٩١٠ م . فلقد تار أهل سجلماسة بوال الميمني : ابراهيم ابن غالب المزاتي ، بعد ٥٠ (خمسين) يوما فقط من انفراده بالسلطة ، فقتلوه ومن كان معه من رجال الحامية الفاطمية ، وأعادوا ملوكهم القدامى من بني حدرار . وكان الذي ولي منهم هو واسول بن ميمون الذي لقب بالفتح ، وذلك في ربيع الأول من سنة ٢٩٨ هـ / نوفمبر ٩١٠ م . وعندما وافاه الأجل بعد حوالي سنتين ، في رجب سنة ٣٠٠ هـ / فبراير ٩١٣ م ، خلفه أخوه أحمد الذي استمر في الحكم حتى مقدم مصالة الذي اقتحم عليه سجلماسة وقتله في المحرم من سنة ٣٠٩ هـ / مايو ٩٢١ (البكري ، ص ١٥١) اثر استيلائه في حملته الثانية على مدينة نكور للمرة الثانية ، مما سبقته الإشارة اليه (ص ٨٩) .

والهم في هذه المرة أنه اذا كان مصالة قد أخذ العبرة مما جرى من اضطراب سجلماسة عقب خروج الامام منها في آخر سنة ٢٩٨ هـ / ديسمبر ٩٢٢ م فاقر الأسرة المدارية في الحكم ممثلة في الأمير المعتز محمد المداري ، الذي بقى في الولاية الى قرب نهاية عهد المهدي ، اذ توفي سنة ٣٢١ هـ / ٩٣٣ م (٧٤) فكانه لم يقدر له النجاح في اقرار السلام الفاطمي في المنطقة بسبب اضطراب الزناتية هناك ، بزعمه محمد بن خزر ، منذ ذلك الحين . فلقد كان على مصالة بعد أن عاد الى ولايته في تاهرت ، عقب زيارة المهدي لتعريف الامام بالأحوال في شعبان سنة ٣١٠ هـ / نوفمبر ٩٢٣ (ابن عذارى ، ج ١ ص ١٨٧) ، الدخول في صراع مرير مع الزناتية وعلى رأسهم محمد بن خزر ، مما يأتي ذكره فيما بعد .

المهدي : عاصمة جديدة لدولة المهدي :

دواعي البناء :

خلال الفترة ما بين سنة ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م وسنة ٣٠٨ هـ / ٩٢٠ م ،

حيث كانت القوات الفاطمية تسمى الى تأكيد سنبطان الدولة فى اطرافها الشرقية من طرابلس حتى يرقه ومصر ، وفى الاطراف الغربية من تاهرت الى سجلماسة ، كان الامام مشغولا بإقامة عاصمة جديدة تطل على البحر ، وتستقر بفضلها أركان الدولة ، وتكون رمزا لعصر سيادة المصداقية والقضيلة ، كناية عن طبيعة النظام الجديد الذى يعبر عن اسم المدينة ، وهو المهدي ، نسبة الى الامام المهدي ، عبيد الله ، عدا ، وان عرفت أيضا باسم « البيضاء » (النعمان ، افتتاح الدعوة ص ٣٢٧) ، بمعنى الزهراء .

والرواية الفاطمية التى تفسر أسباب بناء المدينة تأخذ طابعا أسطوريا منقيا ، كما هو الحال بالنسبة لبناء كثير من العواصم الإسلامية الكبرى ، كدمشق والاسكندرية والقاهرة . فهناك رباط ما بين بناء المهدي وبين الثورة الزناتية التى أشعلها أبو يزيد « صاحب الحمار » على عهد القائم ، الأمر الذى يدخل فى علم الحدان ، المعروف فى الفكر الشيعي ، والذى يمثل ما يمكن أن نسميه بالتاريخ المستقبل للأمة - إذا جاز استخدام هذا المصطلح المستحدث - وهو العلم الذى اختصوا به دون غيرهم . وفى ذلك قيل ان المهدي كان عندما ينظر الناس الى تحصينات المهدي ويبدون عجبهم لحسنها ومناعتها يقول : كل ذلك أعد لساعة من نهار - وهى ساعة الخطر التى بلغ فيها أبو يزيد ذروة قوته ، باقترابه من البوابات المنيعه (٧٥) .

والحقيقة ان اتخاذ عاصمة جديدة من قبل حاكم دولة ناشئة ، عادة ما يرمز الى واحد من احتمالين أحدهما : أن المدينة المستحدثة تعبر عن طبيعة النظام الفتي الناشئ ، اذ هى تمثل المستقبل المستشرق بآماله المرحوه ، بينما العاصمة القديمة للدولة السابقة ، تعبر عن الماضى المريع بأزماته المنقطعة - وكل ذلك مما يدخل فى مجال الأمانى والتمنيات التى تتحقق بمرسوخ النظام الجديد على المستوى السياسى أولا ، وبالتالى على المستوى

(٧٥) انظر القاضي النعمان ، المجالس والمشاريع ، ص ٥٤٢ ، حيث يروى عن المزمع لدين الله : « ان المهدي كان يرمز بمحنة تكون وفئة تظهر ، وتوافق يشتمل على أكثر الأمة ، ومن أجل ذلك ابنتى المهدي ، وحسنا وانتقل اليها ، وكان يؤثر عنه أنه اذا نظر الى سورها الحصين وابوابها الحديد ، وتكلم على ذلك من يكون بين يديه ، ووصفوها بالثمة ... يقول : كل ذلك أعدناه لمقام ساعة من نهار . فلم تكن تدري ما معنى قوله ذلك حتى ظهر الدجال مخلد بن كيداد . وانظر افتتاح الدعوة ، ص ٣٢٧ ، وقارن ابن الأثير ، ج ٨ ص ٩٤ .

الحضارى . أما الاحتمال الآخر ، وهو الأقرب الى أرض الواقع فيتمثل عدة
فى أزمة عدم الثقة بين نظام الحكم الجديد وبين أهل العاصمة القديمة الذين
كثيرا ما يحتنون الى نظامهم السابق ان لم يتمسكوا به . وفيما يتعلق
بعبيد الله المهدي فقد تمثلت أزمة عدم الثقة هذه فى عدة أشكال ،
أولها : سياسى ويظهر فى عدم الثقة بالكتاميين ، مما سبقت الإشارة اليه
(ص ٦٧) الأمر الذى يمكن معه القول أن العصر الكتامى على نسق العصر
الفارسى فى الدولة العباسية - قد لا ينطبق الا على فترة التأسيس ، أى عهد
أبى عبد الله الشيعى (الداعى) وثانيها ، دينى : يظهر فى عدم تقبل أهل
القيروان ، المالكية ، للمذهب الاسماعيلى الفاطمى ، وخاصة فيما يتعلق منه
بعضة الامام ، الأمر الذى حاول عبيد الله الاستفادة منه فى سبيل توطيد
أركان حكمه ، فى محاولته جمع السلطة بين يديه باستعادتها من الداعى .
فكانه حدث نوع من الانفصال بين السلطة ممثلة فى المهدي ، وبين شعب
افريقيا ممثلا فى أهل القيروان - بعد خروج الكتاميين من بين أظهرهم ، اثر
مذبحة سنة ٢٩٩ هـ / ٩١١ م (انظر فيما سبق ص ٦٩) وهو ما يمكن
تشبيهه « بالطلاق » كما حدث فى العصر الأموى عندما ترك الخلفاء دمشق
وانخذوا قصور البادية مقرا لهم ، قبل أن يخرج المنصور العمامة
من بغداد المدورة الى حى الكرخ فى خارجها ، وقبل أن يترك العباسيون بغداد
نفسها ليستقروا لفترة ما بين حرسهم التركى فى سامرا .

على نفس هذا النسق استشعر عبيد الله المهدي عدم الاطمئنان ، وهو
يقيم وسط خصومه فى القيروان ورفادة ، الأمر الذى عبر عنه عندما استقر
فى مهديته ، قائلا : « اليوم أمنت على الفاطميات » (ابن الأثير ، ج ١
ص ٩٥) . وهكذا فكر عبيد الله فى اتخاذ مقر جديد له بعيدا عن القيروان
حيث كان الكتامية والمالكية ، وذلك فى أعقاب « الأزمة الكتامية » مباشرة ،
إذا استعرنا اصطلاح جورج مارسيه الذى يطلق على العصر الفاطمى بالمغرب
اسم « الأزمة الفاطمية » (٧٦) .

اختيار المكان : رباط فاطمى جديد ما بين سوسة وصفاقس :

فيما يتعلق بمكان مدينته الجديدة ، رأى المهدي أن يكون بحريا ،

(٧٦) بلاد البربر والمشرق الاسلامى فى العصر الوسيط ، بالفرنسية ، باريس ١٩٤٦ .

بعيدا عن الداخل ، وهكذا بدأ منذ سنة ٣٠٠ هـ / ٩١٢ - ٩١٣ م بجولات استطلاعية في مناطق الساحل الشرقية ما بين شواطئ القيروان ، حيث سوسة جنوبا ، وشواطئ تونس وقرطاجنة شمالا . وأخيرا وقع الاختيار على موضع شبه جزيرة يعرف بـ « جمّة » ما بين سوسة وصنانس (٧٧) . واختيار الساحل موقعا للمدينة يعنى أحد أمرين ، أولهما : ان المهدي رأى أن تتوجه دولته وجهة بحرية ، بمعنى الانفتاح على العالم الخارجي فيما وراء البحر ، سواء من حيث العلاقات الاقتصادية والمبادلات التجارية ، أو من حيث العلاقات الحربية حيث تصبح الدولة الفاطمية دولة جهادية ، بناء على اعتبار السواحل مناطق تغور أي جبهات قتال يمكن أن يطرقها العدو البحري ، مثلا في الأسطول البيزنطي . وإذا كان ابن خلدون ، في المقدمة ينص على عناية الفاطميين بالأساطيل إلى أن انتهى الأمر بغلبة المسلمين على سواحل المتوسط حتى لم تعد «تسمي النصرانية فيه ألواح» (المقدمة ، العبر ج ١ ص ٢١٢) ، فالحقيقة أن منطقة الساحل ، وخاصة ما بين سوسة وصفاقس ، كانت مشهورة بكثرة محارستها وأربطتها ، ومنها : رباط سوسة ورباط المنستير ، حيث كان العباد المجاهدين ينقطعون لأعمال الورع والتقوى ، انتظارا لمواجهة العدو البحري إذا ما هاجم الساحل . وهذا لا يمنع بطبيعة الحال ، تقرير عبيد الله المهدي أن تكون حصانة الوضع موجهة ضد أعداء الداخل أيضا ، وعلى رأسهم الزناتية ، كما تشير إلى ذلك الرواية المنقوبة التي يدانا بها . كما نأخذ بعين الاعتبار ، اعداد المدينة لتكون قاعدة بحرية أيضا تسير منها القوات البحرية مصاحبة للقوات البرية الموجهة لفتح مصر .

وفي حصانة الموضع توصف جزيرة « جمّة » التي اختيرت للبناء بأنها أشبه ما تكون بكف متصلة بزنند (٧٨) ، بمعنى أنها شبه جزيرة يحيط بها الماء من ثلاث جهات ، شمالا وجنوبا وشرقا وتتصل بالبر من جهة الغرب من حيث يكون الدخول إليها (الكبرى : ص ٢٩) .

وهكذا أملت طبيعة المكان أن تكون أسوار المدينة الرئيسية وبواباتها الكبرى من جهة الغرب حيث الاتصال بالبر ، بينما الأسوار المحيطة بها

(٧٧) انظر : غزاري ، ج ١ ص ١٦٦ . ابن الأثير ، ج ٨ ص ٩٤ .

(٧٨) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٩٤ ، وانظر : محمد المرزوقي ، الهدية وساعرها تعميم ،

تونس ١٩٨٠ ، ص ١٦ .

من جهات البحر أقل قوة وحصانة (٧٩) . وكان من الطبيعي أن يكون البسء
ببناء تحصينات المدينة وابوابها ، وذلك أنه تم الانتهاء منها في ربيع الأول
سنة ٣٠٤هـ / سبتمبر ٩١٦م (ابن عذاري ، ج ١ ص ١٧٤) . وبذلك كانت
المهدية ، بوصفها رباطا فاطميا جديدا ، توجه أنظارها نحو أعداء الداخل
في البر ، أكثر مما تفعل مع العدو الخارجي في البحر ، فهي رباط مزدوج
معد أعداء الداخل والخارج ، مما يذكر باختيار موضع القيروان (ج ١ ص ١٨٤) ،
فكان المهدي قيروان جديد ، وكان قيام الدولة الفاطمية إعادة فتح لبلاد
المغرب .

البناء :

المدينة الملكية :

والظاهر ان استكشاف الموضع استغرق أكثر من جولة ساحلية وأن
ترجيحه على غيره استغرق بعض الوقت ، وذلك أن الأوامر لم تصدر ببدء
البناء الا يوم السبت ٥ من ذي القعدة سنة ٣٠٣هـ / ١١ مايه ٩١٦م
(ابن الأثير ، ج ٨ ص ٩٤) أي بعد أكثر من ٣ (ثلاث) سنوات من بداية
الاستطلاع . أما عن عملية البناء فقد تمت تحت اشراف المهدي نفسه (٨٠)
وهذا ما قد يفسر عظمة البناء وحسن تنفيذه . فالسور الرئيسي في الغرب
حيث تتصل المدينة بالبر ، عرف الى جانب ضخامته بحسنه ودقة
احكامه (٨١) . اما الأبواب فكان للمدينة بابان كبيران يوصفان بالعظمة التي
لا نظير لها ، وكان لكل باب منها مصراعان هائلان من الحديد ، وزن كل
مصراع منهما ١٠٠ (مائة) قنطار (٨٢) . والأمر الذي يلفت النظر ان البابين

-
- (٧٩) انظر : الكسندر ليزين ، المهدي ، تونس ، سنة ١٩٦٨ (بالفرنسية) ص ٤١ .
(٨٠) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٩٤ ، حيث النص على انه كان بأمر الصنائع بما يعملون
بالحجارة - اقتتاح الدعوة ، ص ٣٢٧ .
(٨١) ابن حوقل ، ص ٧٣ ، ابن الأثير ، ج ٨ ص ٩٤ - انظر : محمد المرزوقي ، المهدي
وشاعرها تميم ، ص ٢٢ - حيث الإشارة الى ما كشفت التنقيبات الأثرية الحديثة من أن عدد
الأبراج التي كانت بالسور الرئيسي بلغ ١٦ برجاً ، ٨ (ثمانية) منها في السور الأول ،
٨ (ثمانية) أخرى في الزيادة .
(٨٢) القاضى النعمان ، اقتتاح الدعوة ، ص ٢٧ - ٢٨ ، وبوبها بالحديد المحصن ، وقارن
ابن حوقل ، ص ١٣ ، لها بابان لا يشبه لهما غير بابي سور الرافقة ، ابن الأثير ، ج ٨ ص ٩٤
(أبواب وزن كل مصراع ٢٠٠ قنطار ، وقارن البكرى ، ص ٢٩ - والاستقصاء ص ١١٧ ، حيث
تحوّرت الرواية الى ألف (١٠٠٠) قنطار لزنة كل باب مع تفصيلات أخرى تحدد طول الباب
بـ ٣٠ (ثلاثين) شبرا ، وزنة كل مسمار فيه ٦ أطلال .

لأننا مزخرفين بصور الحيوان (البكرى ، ص ٢٩ - والاستبصار ص ١١٧) وهو ما يعنى ان الفن انطاقي الأول فى بلاد المغرب كان فنا تصويري (أيقونيا) ، يأخذ بصور الشخصوس الحية ، تماما ، كما كان الفن الاسلامى الأول على عهد الأمويين بالشام .

أما عن دار الصناعة - صناعة السفن فهي شرقى قصر عبيد الله (البكرى ، ص ٣٠) ، وكانت شديدة الحصانة ، اذ كانت فى حوض الجبل كأنها منقورة فيه ، وكانت تتسع لـ « ١٠٠ » (مائة) مركب من النوع الشينى (الكبيرة الحجم) دون غيرها ، وعليها باب مغلق (٨٢) .

أما الميناء (المرسى فى آخر المدينة) فكان على الساحل الجنوبى لشبه الجزيرة فى نصفه الشرقى ، كما بينت الحفريات الأثرية للمدينة (٨٤) ، وكان هو الآخر فى جون طبيعى فى حوض الجبل ، كانه منقور فى الحجر الصلد ، وكان يتسع لـ ٣٠ (ثلاثين) مركبا ، وله على طرفيه برجان تمتد بينهما سلسلة (٨٥) ، لتنظم دخول المراكب وخروجها نهارا والتنحور من مراكب العنق البحرى الرومى « ليلا » .

هذا ، فيما يتعلق بالمرافق العامة الخاصة بالرباط ، بصنعى المدينة البحرية العسكرية ، والتي تمثل محيط المهدية ودفاعاتها . اما عن المدينة الملكية فى الداخل ، فقد اشتملت كما هى العادة فى بناء المدن العربية الاسلامية ، على نواة مركزية تتكون من قصر الامام المهدى وله باب غربى وبجواره قصر ولى العهد أبى القاسم وله باب شرقى ، وبينهما رحبة فسحة (٨٦) على ساحل البحر فى موضع مردوم فيه وعلى مقربة منهما غزبا

(٨٣) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٩٤ - حيث النص على أن المهدى أمر بنقرها فى الجبل . وقارن البكرى ، ص ٣٠ - حيث الإشارة الى ان سعة دار الصناعة تسع أكثر من ٢٠٠ (مائتى) مركب ، وفيها تيران كبيران طويلا لآلات المراكب وعددها ثلاثا يتألفا شمس ولا مطر .
(٨٤) انظر : الكسندر ليزين - المهدية - تونس - ١٩٦٨ ، ص ١٠ شكل ٢ ص ٦٦ انظر الشكل .

(٨٥) النعمان . افتتاح ، ص ٣٢٨ - حيث النص على أن المهدى زاد إليها فى البحر . ولحقق فى آخرها ميناء خرقها بها ، وجعل لها مخرجا الى البحر قفل عليه ٠٠٠ . وقارن البكرى ، ص ٣٠ والاستبصار ، ص ١١٨ ، حيث النص على انه منقور فى الحجر الصلد . ومجمع البلدان (المهدية) ، ج ٨ ص ٢٠٧ .
(٨٦) البكرى ، ص ٣٠ .

المسجد الجامع (أنظر الشكل) ، حيث أقيمت الأسواق التي نظمت في شكل مجموعات من الدكاكين المتخصصة في مهنة أو تجارة أو حرف معينة (٨٧) . أما المصلى ، حيث تكون صلاة الجمعة في الهواء الطلق وصنوات المناسبات الكبرى إبطارته ، من : الاستسقاء ، الكسوف ، والحسوف ، وغيرها ، فكان خارج السور الغربى على بعد رمية سهم (٨٨) .

ولقد زودت المدينة بمخازن القمح (الطعام) فى شراديب تحت الأرض ، كما حفرت خزانات المياه ، من : « المصانع والمواجل » الوفيرة العدد (٨٩) ، إلى جانب المياه المجلوبة إليها من قرية مناش ، على بعد ٤ أميال فى قنوات الرصاص تحت الأرض (٩٠) :

وسرعان ما زهت المهديّة بالدور والقصور التي كانت موضع تقريظ ابن حوقل بعد ذلك بقليل ، لحسنها ونظافتها (٩١) .

مدينة العامة : زويلة :

تلك كانت المهديّة الملكية التي لا يسكنها الا أرباب الدولة من كبار الموظفين ورجال الحاشية وقواد العسكر المقيمين فى المدينة كحرس أميرى ، ونواة للجيش النظامى . أما عن أهل الأسواق فكانت لهم أموالهم (متاجرهم) فقط فى المدينة ، ولم يكن يسمح لهم بالتواجد فيها الا تهارا . والظاهر أن درس اخراج الأسواق من بغداد المدورة على عهد بانيها المنصور ، الى حى الكرخ خارج السور ، كان قد استفاد منه بناء المدن الجديدة من الأمراء

(٨٧) ياقوت ، معجم البلدان (المهديّة) ج ٨ ص ٢٠٧ . حيث النص على انه عمر الدكاكين ، ورتب أرباب المهن كل طائفة فى سوق .
(٨٨) محمد الرزوقى - المهديّة ص ١٨ ، الكسندر ليزين ، ص ٦ .

(٨٩) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٩٥ - البكرى ، ص ٢٩ حيث تتحول الرواية الى قصة شعبية إذ تجعل عدد مصانع الماء (المواجل) ٣٦٠ مابجا على عدد أيام السنة حتى يكون نصيب المدينة مخزون مابل واحد فى اليوم .

(٩٠) البكرى ، ص ٢٩ ، محمد الرزوقى ص ٢٢ - ويشير البكرى هنا أن ماء مناش كان يجلب من الاقداس ، ويصب فى سهاريج عند الجامع ومن هناك يرفع الى القصر بالدواليب ص ٢٩ - ٣١ .

(٩١) سورة الأرض ص ٧٣ حيث أنها كثيرة القصور نظيفة المنازل والدور . حسنة الحمامات والحانات . نزهة الخارج ، بنية المنظر ، أنظر ابن الأثير ، ج ٨ ص ٩٥ .

المتغلبين بالأقطار البعيدة ، حتى لا يعيشون وسط ما كان يهددهم من خطر العاصفة ، الأمر الذي كان قائما وقتئذ ، في رقادة الملكية والقبروان الشعبية . هذا وإن كان انشغال المهدي ببناء المهديّة وزويلة لم يمنعه من العناية بمدينة القيروان حيث شيد حيا تجاريا سماه بالقاسمية نسبة الى وزير العهد ، انتهى بناؤه في شهر ربيع الأول سنة ٣٠٥هـ / أغسطس - سبتمبر ٩١٧م ، حيث انتقل اليه التجار وأصحاب الصناعات (ابن عذاري ج ١ ص ١٨٠) الأمر الذي يعنى اهتماما بشئون البلاد الاقتصادية ، أساس التقدم والرفاه .

وهكذا لم يكن من الغريب أن يبنى عبيد الله الى جانب المهديّة ضاحية للعامة من أهل الأسواق وغيرهم ، هي التي عرفت باسم زويلة ، نسبة الى بربر زويلة سكانها الأوائل ، الذين سيعطون اسمهم الى حارة زويلة وبابها المشهور في جنوب القاهرة المعزية . فكانت المسافة بين المهديّة ومدينة زويلة الشعبية تقدر باتساع ميدان من تلك الميادين التي كانت تتوسط المدينة الإسلامية . ورغم ما تقوله بعض الروايات من أن المهدي أفردها بسور وأبواب وحفظة (ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٨ ص ٢٠٧) ، فغالبا الظن أن الأمر لم يكن كذلك ، حيث حاول أهل زويلة التزوج الى المهديّة للاعتصام بأسوارها عندما تهددهم خطر أبي يزيد (انظر فيما بعد ، ص ١٧٩-١٨٠) . هذا ، كما أن ذلك ينفي نصيبا من الحكمة التي أريد بها السيطرة الدائمة على أهل الأسواق ، حتى لا يفكرون في الثورة . وفي ذلك تقول رواية ياقوت : أن الهدف من اسكان أرباب الدكاكين ، من البزازين وغيرهم في زويلة أن يكونوا عند المهدي نهارا وأهلهم تحت سلطانه بزويلة ، بينما تكون أموالهم (تجارتهم) تحت سلطانه ليلا ، ويضمن بذلك طاعتهم الدائمة (٩٢) . وهكذا ينسب بناء سور زويلة الى العزيز باديس (البكري ، ص ٢٩) عندما سكن المهديّة ، وهذا لا يمنع أن يكون المهدي قد زودها بسور وأسوار مناسبة أو أن يكون القائم هو الذي أقام تلك التحصينات عندما دعت الحاجة اليها . أما عن ارباض المهديّة العديدة والعامة التي يذكرها البكري ، فهي ترجع الى العصر الزيري عندما حلت محل القيروان

(٩٢) انظر ياقوت معجم البلدان ، ج ٨ ص ٢٠٧ ، وقارن الكسندر ليزون ، ص ٦٠ . حيث

نسب الى المهدي أنه كان يقول : «وانا آمن ليلا ونهارا» ، فإن ارادوني بكنية وهم بزويلة كانت أموالهم عندي فلا يمكنهم ذلك ، وإن ارادوني بكنية وهم بالمهديّة خافوا على حريمهم

هناك .

كعاصمة للبلاد (٦٢) .

والمهم أنه بعد أن فرغ المهدي من معظم أعمال البناء في المدينة ، من : قصره ، وقصر أبي القاسم ، ولي العهد ، والسور ودور بعض رجاله ، وإن لم يكمل الكل ، سارع بالانتقال إليها وشجعه على ذلك سوء الأحوال الجوية في القيروان ورقادة من : المطر والعواصف التي هدمت كثيرا من الدور ، وذلك في يوم الخميس ٨ من شوال سنة ٣٠٨ هـ / ٢١ فبراير ٩٢١ م (٦٤) .

ولقد أعرب المهدي عن ارتياحه لتلك النقلة ، قائلا : « اليوم أمنت على الفاطميات » وإذا كان ابن الأثير يفسر ذلك قائلا : « يعني بناته » فالمقالة ترمي إلى ما هو أبعد من ذلك ، نقصد : إلى توطيد أركان الدولة ، والاطمئنان إلى المقدرة على مواجهة الخصوم في الداخل أو في الخارج — برا وبحرا .

المهدية مركزا للحكم :

هكذا انتقل مركز الحكم من رقادة والقيروان حيث ذكريات الخصوم المؤرقة من : الأغلبية وسادتهم أو من المنافقين من كتامة وغيرهم ، إلى المهدية وزويلة حيث مقام الإمام الذي أصبح محط أنظار المريدين من الأولياء والأنصار ، ورجال الدولة ، من : أهل الحاشية وكبار القواد وأمرأه الأقاليم الذين كانوا يترددون على الحضرة طلبا للشفاعة والبركة أو طمعا في المكافأة والوظيفة . وكانت المهدية في نظر بعض هؤلاء : كما كانت رقادة قبلها حرما أشبه بالحرم المكي ، حسبما عبر عنه بعض الشعراء في تلك المناسبة (٦٥) .

(٦٣) الكبرى ، ص ٣٠ - ٣١ حيث ذكر أرباب : الحس وقصر أبي سعيد ، وبقة وقاساس (هشيم حاليا) ، والفيلطنة وربض قفصة ، وغيرها ، وقارن محمد المرزوقي ، المهدية ص ٢٢ .

(٦٤) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٩٥ ، افتتاح الدعوة ، ص ٣٢٨ .
(٦٥) من ذلك ما قاله بعض شعراء إفريقية وقتئذ ، من قصيدة انشدتها بمناسبة نزول الإمام عبيد الله للمهدية ، ومنها :

حفظت الرحل في بلد كريم	دعته لك الملائكة السكرام
لقد عظمت بأرض الغرب دار	لهما الصلوات تقبل والصيام
هي المهدية الحسرم الموقى	كما بتهمامة البلد الحرام

هذا ، وإن كان نص ابن عذاري يورد تلك الأبيات من أجل بيان ما كان يستعمله المهدي ، وما كان يجوز عنده من الأشعار ، البيان ، ج ٦ ص ١٨٤ .

وكنتيجة لذلك كان من الطبيعي أن يصيب رقادة المضعف والوهن الذي كان يزداد مع مرور الوقت إلى أن خربت على عهد المعز ٥٠ معد بن اسماعيل (ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٠٦) .

وهكذا خرج قواد بعض الحملات في تلك الفترة حين كان بناء المهديّة على وشك الانتهاء يحملون اللواء من رقادة ، ليعودوا لتقديم الحسابات عن انجازاتهم في المهديّة ، كما فعل أبو القاسم ولّى العهد بعد حملته الثانية على مصر سنة ٣٠٩ هـ / ٩٢١ م ، وكما فعل مصالة بن جبوس ، بعد حملته الثانية على فاس وسجلماصة سنة ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م (٩٦) .

حكم مركزي يعتمد على قاعدتي الترهيب والترغيب :

والظاهر ان عبيد الله المهدي بعد أن أطمئن في مدينته الحصينة ، بدأ يمارس سياسة تهدف إلى تأكيد سلطة الحكومة المركزية (المهديّة) ، وكان من بين الوسائل التي استخدمها سياسة دعوة أبناء الزعماء في القبائل والأقاليم المختلفة ، وخاصة من كان يخشى خطره منهم في الإقامة في العاصمة ، في كنف الإمام لتعليمهم وتدريبهم ، ملوكيا على أساليب الحكم والسياسة ، تهيئة لهم خلافة آبائهم في بلادهم . وفي الوقت الذي كان هؤلاء الأمراء الصغار يلقون الرعاية بصفتهم ضيوفا فوق العادة ، كانوا في نفس الوقت بمثابة رهائن ثمينة يضمنون ولاء أولياء أمورهم وهي السياسة التي تمارس حتى يومنا هذا ، من قبل الدول والجماعات : ما عظم منها وما صغر ، مع اختلاف أساليب الحصول على الرهائن .

ومن الواضح أن تطبيق نظام الضيوف والرهائن لأول مرة كان في جبل أوراس ، الذي ولع أهله بالحرية وعدم الخضوع للسلطة ، وذلك عندما طلب قائد الاقليم الكتامي أبو معلوم فيجلون من أهل الجبل سنة ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م ، « رفع عيالناهم إلى المهديّة » ، الأمر الذي أتى برد فعل عكسي إذ ثاروا به وقتلوه غيلة ، كما فتكوا برجال حاميته الكتامين (ابن عذارى ، ج ١ ص ١٨٧) .

وفي نفس هذا الوقت (٣١٠ هـ / ٩٢٢ م) قامت قبائل نفوسة بمنطقة

(٩٦) انظر فيما سبق ص ٩٠ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١٨٥ ، ١٨٧ .

طرابلس بالثورة - وإن لم تعرف أسبابها - بزعامة رجل اسمه (أبو بطة) وعظمت الثورة إلى حد أنهم هزموا الجيش الذي سيره اليهم المهدي بقيادة علي ابن سلمان الداعي ، وشتتوا جموعه حتى اضطر إلى اللجوء إلى طرابلس . والظاهر أن الداعي لم يقتنع بجدية رجاله في القتال وذلك أنه عندما كتب إلى المهدي بخبر الموقعة ، انتقم الإمام من المنهزمين ، بل أصدر الأوامر إلى عامله على قايس ، علي ابن لقمان ، بقتل من يمر به منهم ، بينما أمده علي ابن سلمان بالجيوش التي شددت الحصار على نفوسة (ابن عذارى ، ج ١ ص ١٨٧) . هذا ، ولم يمنع اضطراب منطقة طرابلس من أن يمتد نشاط القوات الفاطمية إلى داخل الحدود المصرية ، حيث اشتبكت مع القوات هناك في ذات الحمام ، غير بعيد من الاسكندرية ، الأمر الذي كانت له أصداءه على منبر المسجد الجامع بالقروان (ابن عذارى ، ج ١ ص ١٨٧) .

وبذلك تكون المهديّة قد نجحت في سنواتها الأولى في توطيد الأمن في أفريقية والأقاليم الشرقية اعتمادا على سياسة الترغيب والترهيب التي مارسها المهدي بالنسبة لحصوم الدولة أو العاملين لحسابها ، وكان عليها أن تتمكن لنفسها بعد ذلك في الأقاليم الغربية ، اعتمادا على نفس السياسة التي تعنى التشدد في الحساب ، وفي الثواب والعقاب .

الصراع ضد الزنانية في المغرب :

يلاحظ القاضي النعمان اضطراب بلاد المغرب عقب النقلة إلى المهديّة (٩٧) ، وهذا ما يفسر كيف ان مصالحة لم يمكث في حضرة الإمام إلا أياما قليلة خلال زيارته لها سنة ٣١٠هـ / ٩٢٢م ، حتى صدرت إليه الأوامر بالنحاق بولايته في تاهرت ، فخرج من المهديّة في شهر شعبان من تلك السنة (ابن عذارى ، ج ١ ص ١٨٧) . وكان على مصالحة أن يواجه اضطراب الزنانية في المغرب الأوسط بقيادة محمد بن خزر ، الأمر الذي زاد من المواجهة السافرة مع الأمويين بالأندلس ، من أجل الهيمنة على بلاد المغرب المواجهة للعدو وسواحل الأندلس وبضمنها بلاد الأدارسة في فاس وغيرها وهي الأقاليم التي أصبحت بفضل ذلك الصراع أشبه بالأرض التي لا صاحب لها في جبهة القتال (no man's land) ، كما يقال .

(٩٧) افتتاح الدعوة ، ص ٣٢٨ - حيث القول : « والثالث أمر المغرب » وذلك بمناسبة خروج أبي القاسم إلى هناك سنة ٣١٥هـ / ٩٢٧م .

مقتل مصلالة أمام محمد بن خزر :

هكذا خرج مصلالة من ناهرت في سنة ٣١٢ هـ / ٩٧٤ م لحرب زناته ،
وتأديب زعيمهم محمد بن خزر . وإذا كانت الرواية تشير الى أنه أنزل
بالزنانية عقوبة شديدة في منطقته شلف ، « فأدأج يلدهم ، وقتل وسبى » ،
فإن الحملة انتهت بكارثة بالنسبة للقائد الفاطمي الذي لقي مصرعه في ميدان
القتال ، عندما انتهر محمد بن خزر أخذه على غرة . وهو في قلة من أصحابه ،
وذلك في ٢٠ من شعبان من نفس السنة / ٢١ نوفمبر ٩٢٤ م (٩٨) .
ولا تمدنا النصوص بمن خلف مصلالة في ولاية ناهرت ، وإن رأينا ابن
أخيه : حميد بن يصل المكناسي متربعا على دست الحكم في عاصمة المغرب
الأوسط : ناهرت ، وإن كان ذلك فيما بعد منذ سنة ٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م ،
بمناسبة الصراع من أجل السيطرة على فاس (٩٩) .

والحقيقة أنه قبيل الوقت الذي لقي فيه مصلالة مصرعه أمام ابن خزر ،
كان ابن عمه موسى بن أبي العافية ، حليف الفاطميين ، يلقي هزيمة منكرة
على يدي حسن الحجام الادريسي ، صاحب فاس (عدوة القرويين) ، وذلك
في اللقاء الذي تم بينهما في (وادي المطاحن) فيما بين تازا وفاس . إذ فقد
موسى في المعركة أكثر من ٢٠٠٠ (ألفي) رجل ، على رأسهم ابنه : منهل (١٠٠)
والظاهر أن موسى بن أبي العافية نجح في تقويم الموقف ، كما يقول
ابن خلدون ، إذ رجع الحسن الى فاس مفلولا ، الأمر الذي أدى الى أن يغدر
به عامله على عدوة القرويين ، وهو حامد بن حمدان الهمداني ، الذي انتهز
الفرصة باكتساب رضا موسى ، فأرسل اليه يستدعيه الى دخول فاس (١٠١) .

(٩٨) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٨٩ ، وقارن ابن خلدون ، ج ٧ ص ٢٥ - حيث يجعل مقتل
مصلالة في حملته الى المغرب سنة ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م ، على يدي ابن خزر .
(٩٩) عيون الأخبار ، للدايمي ادريس ، ص ٧٢ ، المعبر ، ج ٧ ص ٢٦ ، القرطاس ،
ص ٨٣ .

(١٠٠) انظر القرطاس ، ص ٨٢ - الذي يجعل الواقعة في سنة ٣١١ هـ / ٩٢٣ م ، ويجعل
القتل من جانب موسى بن أبي العافية ٢٣٠٠ رجل وفي جانب الحجام ٧٠٠ رجل . وقارن
ابن عذاري ، ج ١ ص ١٨٨ - حيث الإشارة الى أن موسى كان يتول لبني أمية - وذلك حسبما
سوف يكون على ما نرى .
(١٠١) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٣٤ ، وقارن القرطاس ، ص ٨٣ حيث تقدم الرواية
تفصيلات شبيهة تفصيلة عن دخول الحسين الى المدينة وحده ، دون جيش ، ودخول حامد عليه
في داره ليلا حيث قيده وسبسه عنده وأغلق أبواب المدينة في وجهه عسكره .

ولكنه بعد أن تمكن موسى من حى عدوة القرويين سلما ، ودخول عدوة الأندلس عنوة ، لم يتم الوثام بينه وبين حامد بن حمدان بسبب مطالبة ابن أبي العافية بتسليم الحسن الحجام ليأخذ منه بثأر ابنه ، الأمر الذى اضطر حامد الى ترك فاس واللجوء الى المهديّة (١٠٢) . وبذلك خلا الجو لموسى ابن أبي العافية ليس للاستيلاء على فاس فقط ، بل ولتكوين دولة مغربية ، عرفت عند الكتاب باسمه .

اجلاء الأدارسة على عن بلادهم : فاس :

وهكذا انتهى الأمر ، كما تنص رواية البكرى ، بأن أجلى موسى الأدارسة أجمعين (عن بلادهم) حتى اضطروهم الى اللجوء الى معقلهم فى حجر النسر الذى بنوه سنة ٣١٧هـ / ٩٢٩م ، وبذلك يكون موسى قد استولى على جميع المغرب ، كما استخلف ابنه على فاس . وظل الحال على هذا المنوال الى سنة ٣٢١هـ / ٩٣٣م ، أى قبل سنة واحدة من وفاة المهدي ، حينما قدم حميد ابن يصل ، ابن أخى مصالة ، ووالى تاهرت ، ليعيد حامدا والياً على فاس من جديد وإن لم يلبث أن قتل ، ربما بتدبير موسى بن أبي العافية ، وذلك ان قاتله : أحمد بن بكر الجندامى بعث برأسه الى موسى . وكان من الطبيعى أن ينقى المهدي وهو فى آخر أيامه بتبعه تلك النكسة على حميد ابن يصل الذى آتهم بالتقصير فى مواجهة موسى بن أبي العافية ، وأنه عاد من المغرب الى المهديّة بدون إذن فكان جزاؤه السجن ، وإن كان قد هرب بعد ذلك الى الأندلس (البكرى ، ص ١٢٧) .

والمهم من كل ذلك أن أحوال المغرب كانت قد بدأت تضطرب بشكل يثير القلق ، بفضل أعمال الخصوم المعلنين منهم ، من الزناتية ، مثل : محمد بن خزر الزناتى ، الذى بلغت به الجرأة الى حد قتل مصالة (سنة ٣١٣هـ / ٩٢٤م) أو الأصدقاء المتلونين ، مثل موسى بن أبي العافية .

(١٠٢) ابن خلدون ، ج٦ ص ١٣١ - ١٣٥ - حيث مزيد من التفاصيل ، عن : قتل عامل عدوة القرويين : عبد الله بن ثعلبة وتولية محمد أخى موسى ابن أبي العافية مكانه ورفض حامد تسليم الحسن ، بل والإيعاز اليه بالفرار ، حيث سقط وهو يقتل من السور فانكسرت ساقه قبل أن يموت مستخفياً فى عدوة الأندلس بعد ٣ (ثلاثة) أيام ، وقارن روض القرطاس ، ص ٨٣ حيث أفسد الشكل القصصى الاخبارى على الرواية ذات الطابع النقابى بالنسبة لحسن والشرفاء الأدارسة . وقارن البكرى ، ص ١٢٧ - حيث الإشارة الى هرب محارب ، ابن والى فاس عبد الله بن ثعلبة ، الى قرطبة أو الى المهديّة ، الأمر الذى يمين بشكل هام عن تدبير الأمراء المحليين بين القوتين الكبيرتين وقتذاك ، فى المغرب والأندلس أى الفاطميين والأمويين .

محمد بن خزر يهدد تاهرت :

والحقيقة ان محمد بن خزر كان قد استأسد في المغرب الأوسط ، بعد انتصاره هذا ، حتى انه ابدأ يهدد تاهرت ، عاصمة الأقليم ، حيث زحف اليها في السنة التالية ٣١٣هـ / ٩٢٥م ، وهدد حاميتها الصغيرة المكونة من ٣٠٠ (ثلاث مائة) رجل بقيادة واليها فضل بن جيس ، الذي أرسل يستنجد بالمهدي طالبا المدد ، رغم ما تقوله الرواية من أنه هزم بن خزر (١٠٣) كما كان هذا الأخير يهدد المنطقة في السنة التالية ، ٣١٤هـ / ٩٢٦م أيضا - ولهم ان محمد بن خزر ومن معه من زناته كانوا يستخدمون الأسلوب البدوي في الحرب ، وهو المبني على طريقة الكر والفر ، التي تعني حرب الجماعات الصغيرة ذات الامكانيات الخفيفة في مواجهة الجيوش النظامية البطيئة الحركة بعتادها الثقيل وخططها الحربية المحددة . وهكذا عندما سير المهدي الجيوش بقيادة موسى بن محمد الكتامي ، انهزم محمد بن خزر من أحواز طينة ، عاصمة الزاب الى الصحراء ، بينما ترك أخاه عبد الله بن خزر كميناً لكى يهاجم القوات الفاطمية ويهزمها في وادي مطماطة . ووجد المهدي صعوبة كبيرة في مواجهة ابن خزر عندما تحالفت معه قبيلة لماية ، وتمكنت من رد القوات الفاطمية بقيادة اسحاق بن خليفة ، وكذلك الامدادات التي تبعها . وبذلك خضعت البلاد ما بين الزاب والجريد لمحمد بن خزر الذي جعل ولايتها لأخيه عبد الله الذي قاد النضال ضد الفاطميين (ابن عذارى ج ١ ص ١٩١) .

خروج أبي القاسم الى المغرب :

وفي هذه الظروف الحرجة كان على المهدي أن يضع ثقته في أبي القاسم ، ولي العهد لتقويم الموقف ، فكان خروجه من المهدية نحو المغرب يوم الخميس ٩ صفر سنة ٣١٥هـ / ١٥ ابريل ٩٢٧م (١٠٤) بينما كان على القوات المصاحبة له ، مما أمر المهدي بحشدته من : قبائل كتامة وجنود أفريقية ، وعبيد

(١٠٣) عيون الأخبار للدامي ادريس ، ص ٥١ حيث النص على أن رسالة فضل وصلت المهدية في شعبان - أكتوبر ٩٢٥م ، وأن الامدادات التي أرسلها المهدي كانت بقيادة علي بن سليمان بن كافي ، والمعلم بن محمد (الملوحي) ، ومحمد بن ثعلبة .
(١٠٤) عيون الأخبار للدامي ادريس ، ص ٥١ - حيث الرواية ذات التفاصيل الدقيقة ، سواء في الأحداث أو في التوقيت ، وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ١٩١ - حيث الخميس ٧ من صفر بدلا من ٩ .

القصر ، أن تتجمع تحت قيادته على طول الطريق ، فى : القيروان ، حيث وافاه عسكرها فى سبخة بنى معروف ، وفى الأريس ، حيث وافاه خليل ابن اسحاق التميمي على رأس ٤٠ (أربعين) ألف رجل من عساكر افريقية (عيون الأخبار ، ص ٥١) .

ورغم ورود الخبر من عامل تاهرت بفرار ابن خزر ، سارت الحملة فى الطريق المرسوم لها الى باغاية حيث كان الاعداد الأخير للحملة ، خلال شهر ونصف ، حتى آخر ربيع الثانى / ٣ يولييه . ففى باغاية وافته قبائل : مزانة ، وهوارة ، وصدينية ، وعجيسة ، وأهل تيجس ، وقصر الافريقى وزنانة وغيرهم (عيون الأخبار ، ص ٥١ - ٥٢) . وهنا مارس أبو القاسم سياسة التهريب والترغيب التى تطلبت أخذ الرهائن من أبناء تلك القبائل ، ومن وجوه الناس الى المهدي ليقبضوا فى كنف المهدي ، وتحت رقابته (١٠٥) .

وكان الرحيل من باغاية فى ٢ جمادى الأولى / ٦ يولييه والوصول الى سطيف فى اليوم العشرين / ٢٣ يولية ، حيث كان عليه أن يقرر الأمور فى بلاد كتامة ، الأمر الذى تطلب تتبع المنشقين ، من : قبائل مزانة ، وكيانة ، وبنى كملان . ولقد سار القائد جعفر بن عبيد فى ١٦ جمادى الثانى / ٣ أغسطس الى قلعة « عقار » المنيعه لحصارهم ، وتمكن من اجتياح الموضع بعد ما أنزله فيهم ، من القتل والاحراق ، ثم أنه أعلن الأمان لكل من دخل فى الطاعة ، وأمرهم باللاحاق بالعسكر فى تاهرت (١٠٦) .

وكان من أهم ما تمخضت عنه حملة سطيف هذه ، تقرير بناء قاعدة فى المنطقة ، فى أرض بنى برزال وبنى كملان ، وهى : مدينة المسيلة التى عهد ببنائها الى علي بن حمدون الأندلسى وهو أخو جعفر ، على أن يتخذها مقرا له مع عجيسة ، وجماعة من عبيد الحضرة (١٠٧) .

مطاردة الزناتية :

وعلى طول الطريق نحو الغرب ، كان أبو القاسم يقوم أمور البسلاد

(١٠٥) عيون الاخبار ، ص ٥ ، وانظر فيما سبق ، ص ١٠١ - الأمر الذى كان قد انار أهل جبل أدراس -

(١٠٦) عيون الاخبار ، ص ٥٣ ، وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ١٩١ - حيث الاشارة الى قتال بنى برزال وموم من ثلاثة قبائل الجبال والانتصار عليهم .

(١٠٧) عيون الاخبار ، ص ٥٣ - حيث الاشارة الى انها أرض فيها مياه ، جارية وفحوص واسعة كثيرة الزرع .

والقبائل ، كما فعل بالزباب في أواخر جمادى الثاني / ١٦ أغسطس ، وفي هواره حيث قضى شهر رجب / سبتمبر ، كما أمر بمعاقبة العصاة من الزناتية بقطع الميرة عنهم (عيون الأخبار ، ص ٥٣) . وخلال شعبان / أكتوبر كان يشق بلد صنهاجة ، شمال الزاب وشرقي كتامة ، حيث نهر شلف . وفي سوق حمزة التي وصلها في ١١ شعبان / ١١ أكتوبر ، وافته جماعة كثيرة من زناتة يعلنون الطاعة ، ويطلبون الأمان ، فعفا عنهم ، وأغدق عليهم الأموال ، الأمر الذي جعل غيرهم يحذون حذوهم (١٠٨) . ومع الاتجاه نحو الغرب كانت طبيعة الأرض تزداد وعورة حتى تطلب الأمر من أبي القاسم أن يمشى راجلا لصعوبة المسالك ، وهو يتابع عبد الله بن خزر (بن تباذلت) أخا محمد ، الذي كان قد اعتصم بقلعة جمعة ، بجهة تاهرت ثم انه هرب عندما اقترب منها أبو القاسم في آخر رمضان / ٢٨ نوفمبر (عيون الأخبار ، ص ٥٤) .

وهنا تأخذ المطاردة شكلا دراميا مثيرا ، حيث يواجه أبو القاسم ، الى جانب طبيعة الأرض الصعبة ، سوء الأحوال الجوية من الأمطار وكثرة الوحل ، الى ما تدبره القبائل النائرة من : مطماطة ، وزبرقة ، من مفاجأة العسكر الفاطمي ليلا ، الأمر الذي أحبطه الأمير بالاستعداد للقتال ، عن طريق إيقاد السرج والمشاعل في كل مكان ، مما أفشل ما كان عبد الله بن خزر قد أعدّه من الكائنات ، الى جانب حسن أداء القائد خليل بن اسحق (عيون الأخبار ، ص ٥٥ - ٥٦) . وهكذا نجحت الجيوش النظامية ، بقطعها المختلفة ونخططها المرسومة في اقتحام معقل مطماطة الذين طلبوا الأمان قلبى نداءهم ، بينما نجح ابن خزر - رغم تيقظ خليل - من الهرب (عيون الأخبار ، ص ٥٧) . وبعد ذلك يأتي فتح زبرقة في المحرم من سنة ٣١٦هـ / فبراير - مارس ٩٢٨م (١٠٩) بعد حصار شديد ، ويقظة من جانب خليل (أخى يعقوب) ابن اسحق على رأس أهل أفريقية ، وشجاعة نادرة من ولى العهد الذى وقف

(١٠٨) عيون الأخبار ، ص ٥٣ - ٥٤ - حيث النص على ان زعيم جماعة الزناتية هو مصعب بن ماتا الزناتى .

(١٠٩) عيون الأخبار ، ص ٥٩ - ٦٠ - وان جعل ذلك خطأ في سنة ٣١٤هـ / ٩٢٦م . وقارن ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١٩٢ - حيث التاريخ الصحيح ، وان جعل المدينة المقترحة « برقة » بدلا من زبرقة (في البلاد التونسية) - وان كانت طريقة الحركات التي تنجزه الأحداث في سنوات متوالية تجعل حملة سنة ٣١٦هـ / ٩٢٨م وكأنها قائمة بذاتها ، غير مرتبطة ببدايتها في سنة ٣١٥هـ / ٩٢٧م .

بأصرار في أول الصفوف وهو بكامل عتاده وسلاحه ، من : الدرع والسيوف والبيضسة على الرأس ، الأمر الذي انتهى بالوصول الى السور وهدمه بالفؤوس . وكل ذلك رغم المقاومة العنيدة من جانب المدافعين الذين كانت تتقدمهم النساء ، يحرضن على القتال ضربا بالدفوف . مما تطلب الانتقام منهم باستباحة المدينة طوال الليل حتى طلوع الشمس (١١٠) -

وعندما وصلت الأخبار بالفتح الى المهدي بعد طول انتظار ، وعرف ما لاقاه ابنه ولى العهد من الصعوبات ، وهو ما يركز عليه ابن عذاري ، اختلطت لديه مشاعر الفرح بأحاسيس الأسى . فغلبه التأثر واليكاه (١١١) .

نجاح الحملة التاديبية :

وبذلك طهر وكان أبا القاسم حقق ما كان يرجوه الإمام الوالد ، من حملته التاديبية في المغرب الأوسط ، إذ أتته القبائل في مسكره بـ « تاغشمت » قرب زبرقة ، طالعة خائفة ، وهم لماية ومطاطة ومكناسة وقصيرة وهوارة ثم أهل العيون . وبعد أن هدم سور مدينة عبد الله بن خزر (ابن تبادلت) ، وحل أبو القاسم الى تاهرت يوم ٣ صفر ٣١٦ هـ / ٢٨ مارس ٩٢٨م ولكن جيشه النظامي « لم يكن ليستطيع متابعة ابن خزر الذي هرب في قفار الرمل والسبخان الشبيهة بالبحار » (١١٢) - وهكذا كان عليه أن

(١١٠) عيون الأخبار ، ص ٦١ - ٦٣ - حيث الاشارة الى ان المدافعين عندما ياسوا من الصمود مالوا على نساءهم وأولادهم فقتلهم بأيديهم واستماتوا . وقارن ابن عذاري ، ج ١ ص ١٩٢ - حيث الاشارة الى ان أهل المدينة عندما نظروا غلبة الشيعة عليهم ، أحرقوا الامتعة وعرقبوا العوالم والمواشي ، وقتلوا حتى قتلوا ، وأسر منهم من استأسر ، وانتهب ما في الحصن . (١١١) البيان ، ج ١ ص ١٩١ - حيث الاشارة الى تأخر كتب أبي القاسم على المهدي لبعض الوقت فلما وصلته وعرف ما كان يلاقيه ولى عهده من لتساعب غلبه البسكاء . وقال للمصطفين به ، من أفراد الحاشية : « هذا مولاكم يذكر في كتابه انه اقام في مناخ واحد شهرا كاملا ، عليه المطر كل يوم بالقدور والآصال ، وأنه مشى عقابا كثيرة واجلا ، إذ لم يستطع الركوب فيها لوعرها ، ويقنات كل يوم بيضة أو نحوها لكثرة الذباب في المسكر . وقارن العيون والحداثق ، ج ٤ ق ١ ص ٣٢٩ - حيث الرواية المأمرة المنسوبة الى ابن الجزار ، ومسنودة الى ابن المهدي : « أبو عبد الله (أحمد) الذي حدثه بها مباشرة ، وتختتم بأبيات من الشعر تعبر عن شوق المهدي وقلقه وأولها : يا وحشتي للغريب في البلد النازح ماذا بنفسه صنعا ، وعن الأمير أحمد بن المهدي أنظر ص ١٠٩ وهـ ١١٣ .

(١١٢) عيون الأخبار ، ص ٦٣ - ٦٩ ، وقارن العيون والحداثق ، ج ٤ ق ١ ص ٣٣٩ - حيث النص على فتح مطاطة وزبرقة وزنانة وهوارة ولماية ، وكل من خالطهم من الصفرية

يرجع قافلا من تاهرت بعد شهر (ابن عذارى ، ج ١ ص ١٩٢) الى بلاد الزاب حيث بلغ طينة ، ورحل عنها بعد حين في ٣ رمضان / ٢٠ أكتوبر ٩٢٨ م .
وغير بعيد منها واقاه البريد بكتب المهدي يعرفه بما تم لهم من الفتوح في الروم بصقلية وقلورية (كلايريا) وفي مصر بذات الحمام ، حيث غنم العسكر بنودا وأعلاما أرسل بعضها الى أبي القاسم الذي عرضها منكوسة على رجال جيشه (١١٣) .

الاحتفال بالنصر مع بشائر ثورة أبي يزيد :

وكانت عودة أبي القاسم مظفرا الى المهدي في ١٥ رمضان سنة ٣١٦ هـ / ١ نوفمبر ٩٢٨ م بعد حوالي ٢٠ (عشرين) شهرا من خروجه منها . وأقيم الاحتفال بالنصر في الايوان (القصر) الكبير ، حيث جاس ، بصفته ولي العهد ، الى جانب الامام يتقبلان التهنة من وفود كبار المهتدين (عيون الأخبار ص ٧٠) .

والصحيح أن « اعياد النصر » التي أقيمت في المهدي لم تكن لتعبر عن حقيقة الأوضاع في بلاد الزاب أو في المغرب من أوسطه الى أقصاه . ففي نفس السنة ٣١٦ هـ / ٩٢٨ م كانت بشائر حركة أبي يزيد ، صاحب الحمار في بلاد الزاب وما يتأخمها من بلاد الجريد ، ولا بأس أن يكون ذلك قد حدث في ثنايا انتفاضة الزناتية بقيادة ابن خزر في ذلك الاقليم . فقد كان ظهور أبي يزيد كأم بالمعروف على مذهب الخوارج النكار في مدينة تقيوس حيث اشتغل بتعليم الصبيان ، الأمر الذي أدى الى الثورة على عامل تقيوس وقتله . ورغم حرب أبي يزيد أمام مطاردة رجال المهدي (انظر فيما بعد ، ص ١٧٢) فإن محمده بن خزر نجح في السنة التالية (٣١٧ هـ /

والأباضية - وبلغ تاهرت ، وابن عذارى ، ص ١٩٢ - حيث الرواية المختصرة لا تذكر من أسماء القبائل الا هواردة ولساية ، كما تنحور قراءة « تاغشست » فيها الى « نامنلت » ، حيث حصل الإقامة فيها شهرين مناظرا لابن خزر الذي كان بموضع اوران بعد .

(١١٣) عيون الأخبار ، نفسه ، وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ١٩٢ - حيث يجعل سبب عودة أبي القاسم هو ما وصله من ابنه قاسم يعلمه بما تحدث به الناس من مبايعة عبيد الله لابنه احمد المكنى بابي علي ، وان هذا الأخير كان قد صلى بالناس عيد الفطر وعيد الأضحى ، فأقلقه ذلك وقدم المهدي .

٩٢٩ م) في الاستيلاء على كسل بلاد الزاب (١١٤) ، بينما كان الأدارسة يراجعون أمام موسى بن أبي العافية ، الأمر الذي دعا بني محمد منهم ، إلى بناء المدينة الحصينة ، المعروفة بـ « حجر النسر » ، لتكون مقلا بهم (١١٥) .

تحصين تاهرت :

ورغم أن رواية ابن عذارى لا تشير إلى رد فعل من جانب المهدي بالنسبة إلى تلك الأحداث ، فأغلب الظن أن خروج حميد بن يصل سسنه ٣١٨ هـ / ٩٣١ م من المهديّة إلى تاهرت ، كان يوافقة ضمنيّة منه أن لم تكن بإذن صريح ، على عكس ما تنص عليه الرواية ، وذلك أنه أصلح سور تاهرت وبنى فيها قلعة تحصن بها ، كما عمل على عدم فساد العلاقة بينه وبين العامل السابق : حماد بن هاشم ، فردّه إلى بلدّه بعد أن صاهره ، كما أصلح ما كان بين حماد وبين منافسه : سيار بن عبد الوهاب . أما عن تفسير خروج حميد بغير إذن بسبب استدعائه عن طريق الطلب من والده : يصل ابن حينوس (وإلى المنطقة الشرعي) توجيهه إلى المهديّة دون تأخير ، فمن الواضح أن المهدي لم يكن حائقا على حميد الذي لم يلق منه سوءا (ابن عذارى ج ١ ص ١٩٥ - ط بيروت ، ص ٢٧٦) .

التحالف بين موسى بن أبي العافية (في المغرب) والأمويين في الأندلس : دخول سبتة في طاعة الناصر :

والهم أن موسى بن أبي العافية رأى ، لكي يضمن تثبيت أقدامه في المغرب الأقصى ، مما قد يهدده من أخطار ، أن يتحالف مع الأمويين في الأندلس . ففي السنة التالية (٣١٩ هـ / ٩٣١ م) كاتب عبسة الرحمن الناصر بقرطبة ، يعرب له عن رغبته في الدخول في طاعته ، واستعداده

(١١٤) ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٩٤ ، وقارن عيون الأخبار للداعي إدريس ، ص ٧٠ ، وقارن ابن خلدون ، المعبر ، ج ٧ ص ٢٥ - حيث النص على ملك محمد بن بخير الشلف وتفسير وهران ، وأنه رقى عليها ابنه الخير ، وبث دعوة الأموية في المغرب الأوسط عدا تاهرت .

(١١٥) أنظر : البكري ، ص ١٢٧ ومس ١١٣ - ١١٥ - حيث تحديد «حجر النسر» في منتصف الطريق تقريبا ما بين سبتة وقاس ، وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ١٩٤ ، ط : بيروت ، ص ٢٧٤ - حيث يتبع ذلك أعمال موسى بن أبي العافية ضد بني صالح أو رابح تڭور ، وشهد الحسن بن أبي العيش (الإدريسي) مما حدث في سنة ٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م ، وهو ما تشير إليه في موضعه - أنظر فيما بعد ص ١١٢ .

نزاعة لغزو الحسن في عقر داره . وعلى طول الطريق استولى على بلدة عامر ،
أخى الحسن الذي تقاعس عن مواجهته ، فانتقم منه بإحراق المزارع في سهل
جراوة ، الأمر الذي أرغم ابن أبي العيش على طلب الصلح . وانتهت
التسوية الى رد الحسن ما كان أخذه من مال موسى (ابن عذاري ، ج ١ ص
٢٠١ - ط بيروت ص ٥٨٥) ، وعودة جراوة الى صاحبها الحسن .

ولكن الصراع بين رجلى المغرب الكبيرين لم يلبث أن ثار من جديد
عندما هاجم موسى مدينة أوزقور التي كانت في طاعة الحسن الذي استجاب
لطلب النجدة من أهلها ، فقامت الحرب بين الطرفين ، وكان أن فضل أهل
جراوة الرجوع الى هيمنة ابن أبي العافية ، الأمر الذي أدى الى معاناة أهل
المنطقة من مآسى تلك الحرب التي قسمتهم على أنفسهم ، دون طائل (١٢١) .

الصراع ضد زناته :

وكان من الطبيعي أن تثير مثل هذه الأخبار القلق في نفس المهتدي
الذي حاول انقاذ الموقف ، فكتب الى زعماء القبائل هناك يحرضهم على
طاعته ، ويعددهم بإرسال الامدادات اليهم ويمنيهم بالنصر الى جانبه والظفر
(ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٠٢ - ط بيروت ، ص ٢٨٦) . ولكن الظروف لم
تكن مواتية وقتئذ ، فبينما كان ابن أبي العافية يحقق ما سبقت الاشارة
اليه من الانجازات في سنة ٣١٩ هـ / ٩٣١ م ، اضطربت منطقة تاهرت
بموت وأليها يصل بن حبوس ، اذ اختار أهلها على بن مصالة ليل أمرهم ،
وكتبوا بذلك الى المهدي ، الذي لم يقبل بطبيعة الحال ، الأمر الواقع ، فجعل

(١٢١) ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٠٢ - ط : بيروت ، ص ٢٨٥ - ٢٨٦ - حيث النص على
أن أهل جراوة كتبوا ابن أبي العافية ومكنوه من دخول المدينة . هذا ، وتشير بقية النص
الى أن ابن أبي العافية قصد الناصر (المنصور أصلاً) الذي دعا أهل جراوة الى الأمان ، فأجابوه
بعضهم وتقلب على سائرهم ، وقتل بها جماعة . وقيل أنه (ابن أبي العافية) أخذ زوجة ابن
أبي العيش القرشية ، وأولاده ، وخيله وسلاحه . وأحرق المدينة بالنار وانصرف الى سبلته ،
وبعث زوجة ابن أبي العيش الى أهلها مع نقاة أهل جراوة (ط : بيروت ، ص ٢٨٦) .
والغالب الظن أن تلك الأحداث تكرر لما سبقت الاشارة اليه عن الصراع بين موسى والحسن ،
الا إذا كان المنصور بجراوة هي قبائل المنطقة التي انقسمت على نفسها بالنسبة للدخول في
طاعة كل من الزعيمين ، الأمر الذي أدى الى اشتعال الموقف ، وتكرار مآسى تلك الحرب التي
يمكن وصفها بالاممية - على نفس الوتيرة . وعن أوزقور التي تعتبر آخر حد صنهاجة ، انظر :
البكري ، ص ٦٥ .

الولاية الى حميد بن يصل وأرسله الى تاهرت في جيش كثيف ، فكان وصوله في ذى الحجة/ديسمبر (ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٠٢ - ط بيروت ، ص ٢٨٩) . وإذا كان حميد قد نجح في تهدئة الأحوال في تاهرت بانزال الهزيمة بزعماء العصيان في المنطقة ، في مطلع سنة ٣٢٠ هـ/يناير ٩٣٢ م (١٢٢) ، فإن عينة موسى بن أبي العافية كانت وقتئذ ، تزداد قوة في بلاد المغرب . فهو يسرع بمعاينة الأمير الزناتي محمد بن خزر عندما تحداه سنة ٣٢٠ هـ/ ٩٣٢ م ، وأعلن مؤازرته للحسن بن أبي العيش ، فيخرج اليه من جراوة ، ويهاجمه على غرة ، ويهزمه ويقتل رجاله (ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٠٤ - ط بيروت ، ص ٢٨٩ - ٢٩٠) .

اجتياح نكور والهيمنة على المغرب :

وهو في نفس السنة (٣٢٠ هـ/ ٩٣٢ م) يجتاح باسم الناصر مدينة نكور ، حيث يقتل صاحبها عن بنى صالح ، وهو : المؤيد بن عبد البديع بن صالح بن سعيد بن ادريس ويقيم الخطبة باسم خليفة قرطبة . ومن نكور يسير الى قاعدة الادارة في حجر النسر في منطقة جراوة ، ويرغم الحسن ابن أبي العيش على الالتجاء الى المرسى باكاس ، من حيث ابجر الى جزائر ملوية ثم الى جزيرة أرشقول المنيع . بساحل تامسان - وهنساك تحصن بأهله ومواليه ، وان لم يمنع ذلك ابن أبي العافية من اكتساح المنطقة ، والاستيلاء على مدن مرينة وأرشقول بعد ان هرب الادارة ، من بنى محمد ، وأرغم من بقي منهم على دفع الفدية ، وتراجع قواد بنى خزر وعمالهم . وبذلك خلصت البلاد ما بين تاهرت والسوس الأقصى لموسى ، ودخلت في مملكته (١٢٣) .

(١٢٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٠٤ - ط : بيروت ، ص ٢٨٩ - حيث أوقع حميد بن يصل بدادود بن مصالة ، وسنان وابن جميل بن بزو ، وأن خبر ذلك قرئ في كتاب المهدي على نابي أفريقية في ٢ جمادى الآخرة / ١٠ يونية .

(١٢٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٩٤ - ط : بيروت ، ص ٢٧٤ - حيث توجد الرواية ضمن أحداث سنة ٣١٧ هـ / ٩٢٩ م قبل أن تأتي ملخصة في أحداث سنة ٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م (ج ١ ص ٢٠٤ - ط : بيروت ، ص ٢٩١) . والذي نرجحه هو أن يكون وضع تلك الأحداث من قبل ابن عذارى سنة ٣١٧ هـ / ٩٢٩ م (وكذلك الحال بالنسبة لروى القوطاس ، ص ٨٤) بمثابة تلخيص لأهم أعمال موسى بن أبي العافية ، وأن موضع الانتصار الكبير لموسى على الحسن بن أبي العيش هو في سنة ٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م ، إلا أنها كانت قلعة حجر النسر فقد اكتسبت شهرتها في الحصانة والمعة اذا كانت قد احصت في سنة انشائها (٣١٧ هـ / ٩٢٩ م) .

فشل رد الفعل الفاطمي :

وهكذا كان على المهدي أن يسير في السنة التالية حميد بن يصل . وفي صحبته حامد بن حمدان الهمداني ، نحو تاهرت وفاس ، حيث تبددت أمامه قبائل زناتة ومكناسة (العبر ج ٧ ص ٢٦) ، بينما فر موسى ابن أبي العافية الى بلدة تسول (١٢٥) ، كما فر ابنه مدين ، الذي كان يلي فاس هاربا ، عندما تأكد من هذا النبا . وعندئذ عين حميد لولاية فاس حامد بن حمدان . والظاهر ان وصول القوات الفاطمية الى فاس أثار الحماس في نفوس الأدارسة في منطقة جراوة وحجر النسر حيث ثاروا على القوات التي كان قد خلفها ابن أبي العافية تحت أمرة قائده « أبي قسح » فنهزموا (١٢٥) . ولكن ابن أبي العافية نجح في مقابل ذلك في إثارة فاس على الفاطميين ، حيث قام أحمد بن بكر بن عبد الرحمن بن أبي سهل الجذامي على حامد فقتله وبعت برأسه ، وولده الى موسى الذي سيرها الى قرطبة ، تأكيداً لولائه ، وإعلاناً لهيمنة الناصر على المغرب . وكان ذلك الفشل سبباً فيما نزل بحميد - الذي كان قد عاد الى المهديّة من العقاب سجنًا بتهمة رحيله من المغرب بغير إذن ، دون مواصلة حرب ابن أبي العافية ، الأمر الذي سوف ينتهي بهربه على عهد القائم ، سنة ٣٢٨ هـ / ٩٤٠ م ، من سجن المهديّة الى الأندلس ، لكي يزيد في اشتعال الحصومة بين الأمويين والفاطميين ، ويثير الاضطراب في المغرب الأوسط بتحالفه مع الزناتية (سنة ٣٣٣ هـ / ٩٤٤ م) قبيل ثورة أبي يزيد (٢٢٦) .

وهذا ما تؤيده رواية البكري (ص ١٢٧) التي ينقلها ابن عذاري ، كما نرى ، ويضمها في قالبها التاريخي - حيث النص على انتصارات موسى على الأدارسة وإجلالهم عن مواضعهم ، الأمر الذي دعاهم الى اللجوء الى (الانحياس في) « حجر النسر » الذي كان قد بنى سنة ٣١٧ هـ / ٩٢٩ م ، وكيف ان موسى اعتزم محاصرتهم واستنساخهم لولا احتجاج اكار بلاد المغرب على أن يفعل ذلك رجل من البربر يقال ادريس (العلويين القرشيين) ، ومن ما ترتب عليه الاكتفاء بمراقبتهم من بعد ، بينما كان مدين بن موسى (ابن أبي العافية) يخلقه على مدينة فاس ، وذلك قبل قدوم حميد بن يصل من قبل المهدي الى المغرب في السنة التالية (٣٢١ هـ / ٩٣٣ م) - وانظر ما سبق ص ١٠٤ وهـ ١٠٢ .

(١٢٤) البكري ، ص ١٤٢ ، الفرطاس ، ص ٨٥ .

(١٢٥) البكري ، ص ١٢٨ ، الفرطاس ، ص ٨٥ .

(٢٢٦) انظر : البكري ، ص ١٢٨ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٣١٥ و ج ٧ ص ٢٦ ، وانظر

فيها بعده ص ١٧٠ .

السياسة المالية على عهد المهدي :

أول ما نلاحظه فيما يتعلق بالسياسة المالية التي اتبعها المهدي ، هو أنها خالفت مسار السياسة المالية التي كان يتبعها الداعي أبو عبد الله منذ بداية نشر الدعوة الى انتهاء المطاوعة أي الصراع بالظفر ، وإعلان الخلافة المهدية . فقد كان طابع سياسة الداعي المالية هو التخفيف ما أمكن عن دافعي الضرائب في الأقاليم المفتوحة ، كنوع من العناية التي تساعد على نشر المذهب الفاطمي الذي تقوم عليه الدولة الناشئة ، كما هو الحال بالنسبة لكل الدول الوليدة عندما تبشر بإقبال عهد العدل والانصاف . وارتكزت سياسة التخفيف الضرائبي هذه على محورين ، أولهما : تقليصى ينادى بإسقاط الضرائب المستحدثة في دولة الاسلام ، مما اعتبره البعض من قبيل المغارم وسموها بالمظالم ، فلا تبقى الا الضرائب الشرعية لحما ودما . فكان الدولة الجديدة تنادى - في نفس الوقت - بالعودة بالاسلام الى عصر النقاء الأول ، دونما بدع أو انحرافات . والمحور الثاني ، على العكس من ذلك ، تجديدى يمثل في حق الامام في الخمس الذي يتعدى نطاق المال الرسمي للدولة ، وهو الواقد من القنوات الشرعية ، الى مال الرعية من شبيعة الامام مما كانت تمارسه الشيعة في عصور الستر والكتمان ، قبل قيام الدولة (١٢٧) . وهذا الخمس اذا ظهر من الناحية الشكلية كضريبة اختيارية يدفعها القادرون كالصدقة ، فان أداءه للامام كان ، من حيث المضمون ، أشبه بقاعدة مركزية من قواعده المذهب من حيث النظر الى أموال الرعية بصفتها مكاسب سلمية مثل المكاسب الحربية ، يحق للامام فيها الخمس ، فهي علامة الولاء الملموسة ، والولاية أو الطاعة للامام هي أسمى أصول المذهب ، الأمر الذي سيلقى بظلاله المذهبية على بقية الضرائب ، وبالتالي على بيت المال جملة ، اذ يصيح للامام مطلق التصرف فيما يحويه من أموال الوارد والصادر ، مما يأتي ذكره .

(١٢٧) انظر : ابن الأثير ، ج ٧ ص ٤٤٥ - عن حق الامام عند قرأطة الكوفة حيث النص على ان الداعية الأول كان يطلب ديناراً ويزعم انه للامام ، وانظر : ص ٤٩٤ - عن الخمس عند القرأطة بالبحرين ، حيث النص على حضور رجل في سنة ٢٨١ هـ / ٨٩٤ م اسمه يحيى بن المهدي ، أظهر انه رسول المهدي الذي قرب وقت ظهوره ، وان الشيعة أجابته هناك - وكان ابن المهدي مثلاً يغيب ويظهر معه كتب المهدي التي طالبت أول الأمر بان يدفع كل رجل منهم مبلغاً محدداً من المال ، وهو ٦٠ دينار ، قبل ان يطلب منهم ان يدفعوا الى يحيى خمسم أموالهم « قدعوا له الخمس » .

هكذا كان أبو عبد الله الداعي يرفض ضريبة الخراج (على أرض المستلمين) وإن قبل التقاليد العمرية سياسة ، كما نطق ، في جباية ضريبة العشر (أنظر ج ٢ ص ١٧٢ وهـ ٥٦٥) ، كما حرص على دفع حق الامام في الخمس ، والمهدي لاجبي في سجل ماسية (ج ٢ ص ٢٦٥) . وفي قصره حق الامام أو حق الدولة ، لم يفرط فيما تركه الأغلبية من المتاع والأموال . فهو يتبع تلك الأموال أينما كانت ، سواء في رباط سوسة ، حيث وجد ٢٨ (ثمانية وعشرون) حملا من المال كانت لزيادة الله الأخير أو في رقاده حيث جمع ما كان قد انتهب من الأموال هناك (أنظر فيما سبق ج ٢ ص ٥٨٢) .

الحاجة الى مزيد من المال :

والحقيقة أن الدولة الفاطمية الفتية ، على عهد المهدي ، كانت في حاجة الى المزيد من الأموال مع مرور الوقت . من أجل تحقيق برنامجها الطموح في إقامة دولتها العالمية ، بل وقبل ذلك ، نشر الأمن في ربوع الدولة في مرحلتها المغربية الأولى ، الأمر الذي كان يتطلب حشد كل الطاقات في سبيل اعداد الجيوش والأساطيل ، وما تتطلبه من الحصون والمسكرات والأسلحة والعتاد والحيل والأزواد - فالجرب كمشروع استثماري ، كما يقال الآن ، لا بد لها من المال .

الخمس :

والحقيقة أن ترتيب ضريبة الخمس الخاصة بالامام ، وهو في دور الستار ، تعنى أن الحركة الشيعية الفاطمية كانت تعرف مسبقا ، أهمية المال بالنسبة لتحقيق أهدافها . فالمهدي خرج من سلمية محملا بالمال ، ولهذا ظهر في هيئة التجار ، وفي ذلك قيل انه كان يقدم الهدايا كما فعل مع أمير مصر في تسهيل مسيرته ، كما تقول بعض الروايات (أنظر ج ٢ ص ٥٨٨) وكذلك كان يفعل في سجل ماسية حتى قيل ان الدنانير الذهبية التي كان يخرجها أو ينفقها هي التي لفتت إليه الأنظار فكانت سبب اعتقاله (١٢٨) .

وهكذا كان من الطبيعي أن يهتم المهدي بجمع المال منذ الكشف عن شخصيته بعد استنقاذه في سجل ماسية التي كانت من أسواق الذهب الهامة ، إذ خرج منها ترافقه أحمال التبر التي غرمها أهل المدينة بحجة

(١٢٨) أنظر ما سبق ، ج ٢ ص ٥٦٥ وهـ ١٢٧ ، ص ٥٩٢ وهـ ٢١١ .

إساءتهم الى الامام (ما سبق ج ٢ ص ٥٩٦ ، ٥٩٧) . وفي الطريق الى القبروان رأى عبيد الله المهدي أن يمر بإيكجان حيث كانت تحفظ الخدائن والأموال بمعرفة الدعاة من مشايخ كتامة فأخذها منهم ، الأمر الذي ساعد على فتور العلاقة معهم ، من غير شك (١٢٩) . وتقريبا من هذا ما حدث في القبروان عندما استقبله فقهاؤها وهناؤه وسألوه الأمان ، فأمنهم في أنفسهم وذرايعهم ، دون إشارة الى الأموال رغم سؤالهم له ، الأمر الذي أدى الى أن « يخافه أهل العقل من ذلك الوقت » (١٣٠) . بمعنى أن أهل القبروان كانوا عرضة للغرامة أو المصادرة .

الغرامات والمصادرات :

وهكذا كانت الغرامات والمصادرات واستصفاء الاموال كعقوبات جماعية أو فردية ، من مصادر دخل بيت المال . ففي سنة ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م عندما أخرج المهدي جيوشه الى طرابلس أغرم أهلها جميع ما أنفق على تلك الحملة (ابن الأثير ج ٨ ص ٦٦) ، وعندما سار حباسه في السنة التالية ٣٠١ هـ / ٩١٣ م نحو المشرق ، كان كلما دخل مدينة قتل أهلها وأخذ أموالهم كما أغرم أهل برقة ١٠٠ (مائة) ألف دينار تحت تهديدهم بالقتل ، وأخذ جميع أموال بني حمال المزاتي بدعوة أنهم أساءوا الى الامام عند قدومه من مصر ، وسرقوا بعض ماله ومتاعه (١٣١) . ورغم ما تقوله الرواية من أن المهدي اعتذر لأهل برقة ، وحلف بأنه ما أمر حباسه بشيء من ذلك فان هذا الأخير عندما دخل الأراضي المصرية فعل بها مثلما فعل ببرقة ، من : قتل الناس وأخذ أموالهم ، (ما سبق ج ٢ ص ٥٨٩) ، هذا ، كما كانت أموال أهل برقة هدفا لقوات المهدي التي دخلتها سنة ٣٠٤ هـ / ٩١٦ م ، بقيادة أبي مدين الذي استصفى أموالهم ، بعد أن أتت الحرب على أكثرهم ، مدة ١٨ (ثمانية عشر) شهرا (ما سبق ، ص ٨٠) . وفي السنة الثالثة كان القائد مصالة يصلح يحيى بن أدريس في فاس ، على الطاعة ودفع مبلغ من المال للامام ، كما أنه عاد وعذبه في سنة ٣٠٩ هـ / ٩٢٠ م حتى أخرج له ماله وذخائره (ما سبق ج ٢ ص ٤٧٨) . ومثل هذا حدث بالإسكندرية

(١٢٩) التلخيص النسيان ، النتاج الدعوى ، ص ٢٨٩ ، انظر ما سبق ، ج ٢ ص ٥٩٨ ، ص ٢٧٨ - حيث الإشارة الى الخلط بين أموال إيكجان والأموال التي أخذت من سجلات

(١٣٠) انظر : ابن عذاري ، ج ١ ص ١٥٨

(١٣١) ابن عذاري ، ج ١ ص ٧٠ ، ما سبق ، ج ٢ ص ٥٨٩ ، وإعلاء ، ص

عندما دخلها أبو القاسم ، ولى العهد سنة ٣٠٧ هـ / ٩١٩ م ، اذ انتهب أموالها وجبى خراجها (١٢٢) ، وهو ما حدث فى سجناسنة سنة ٣٠٩ هـ / ٩٢١ م (ابن عذارى ، ج ١ ص ١٨٥) . وفى نفس السنة (٣٠٩ هـ / ٩٢١ م) كانت أموال أهل القيروان هذا لفارات أصحاب الحارس تحت قيادة أبى سعيد الضيف . وعندما اشتكى المتضررون للمهدى حلف بأنه لا يعرف ، وإن أمر بتغيير بعض أعوان أبى سعيد (١٢٣) . ومثل هذا ما شاع عن القاضي محمد بن عمران النقطى ، والى قضاء القيروان بعد عزل اسمعاط ابن أبى المنهال ، لئينه ، مع أنه وصل الى منصبه هذا بفضل الأموال التى كان يستولى عليها من الرشى وأموال الأوقاف (الأحباس) ، والتى تقرب بها الى المهدى (١٢٤) . ومثل هذا ما يقال من أنه عندما توفى أبو حفص القلاسى سنة ٣١٣ هـ / ٩٢٥ م ترك دارا ومسجدا يجساورها وفندقا دون وارث ، لم يكتف عبید الله المهدى بورائته ، بل أنه أوعز الى الناظر فى الموارث فأغلق له باب المسجد ليصبح جزءا من الدار والفندق (ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٦٨) .

هذا ، عن المغارم والمصادرات على المستوى الجماعى والتى كان يصاحبها مغارم أخرى على المستوى الفردى . ومن أشهر الأمثلة لذلك ما وقع لأبى جعفر ابن خيرون ، وهو من أغنياء تجار القيروان ، الأندلسيين أصلا ، والذي كان يمتلك العديد من الفنادق المجاورة لسجن المدينة . فلقد قتل الرجل ، الذى يشهد له بأنه بنى مسجدا شريفا ، وذلك فى سنة ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م بسمى من القاضي المروزي الذى شهد « بأن قبله وديعة كبيرة » فطولب بها ، وعذب حتى مات (١٣٥) . والأمر الذى تؤخذ منه العبرة ، هو أن القاضي المروزي

(١٢٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٨١ - حيث الاشارة ايضا الى انتهاب الأئمة فى القيروان ، وما سبق من
(١٢٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٨٦ ، وما يبد ، ص ١٣٩ وهـ ١٧٧ ، وقارن ص ١٥٠
عن ولاية الضيف لصقلية .

(١٢٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٦٤ ، ص ٢٦٦ - وحيث وفاته فى شهر ربيع الأول سنة ٣١٢ هـ / يونية ٩٢٤ م ، والنص على أنه كان يرتضى على الأسكمان - رستهتر فى ضرب من المنكر ، ثم عودة ابن أبى المنهال الى القضاء ثانية - حيث نص مرسوم العهد ، وفيه عزل لك للبتك ومهانتك ، ورددناك لديتك وأمانتك .

(١٢٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٦٩ ، وقارن مك : بيروت ، ص ٢٣٥ - حيث القراءة ابن جبرون بدلا من خيرون . وقارن ، رياض النفوس للمسالكى ، تحقيق بشير البكوش ومحمد المظوى ، بيروت ١٩٨١ ، ج ٢ ص ٥٤ - ٥٦ ، حيث انص على أن الرجل مات دمساً تحت

تفسيه مات في عذاب المهدي مغضوباً عليه سنة ٣٠٣هـ / ٩١٥ - ٩١٦م ، حيث طوّل بعض من كان له صلة به من وجهاء القروان وتجارهم بعد وفاته ، بما كان لديه من المال وعذبوا من أجل ذلك (ابن العذارى ، ج ١ ص ١٧٣) .

المقاسم :

وإذا كانت عقوبات مدن الداخل ، وما ينزل بها من الغرامات ، قد صارت مورداً لبيت المال ، فقد كانت المقاسم التي يؤتى بها من بعض مدن الحارّج البحرية ، هي الأخرى ، من روافد بيت المال بالمهدية . وذلك كما حدث في غزو مدينة أغانى سنة ٣١٠هـ / ٩٢٢م (فيما بعد ص ١٥٦) ، وكما حدث في غزو الروم في صقلية سنة ٣٠٣هـ / ٩٢٥م ، حيث عاد الحاجب قائم الأسطول بالسبايا والهدايا إلى المهدي الذي كان وقتئذ يعرض جواهر وأموال مدينة وادي (أورية) ، وهو يقول : « والله ما أعطاني من الجمل إلا أذنيه » (فيما بعد ص ١٥٧ ، ١٥٨) ، بمعنى أنه كان يرغب فيما هو أكثر من ذلك ، وأنه كان ينظر بعين الريبة في صحة نصيبه من الخمس ، ويتهم الحاجب القائد بالغلول (١٣٦) . ومثل هذا يمكن أن يقال عن العهد إلى صابر الفتى (مولى ابن قرحب) سنة ٣١٤هـ / ٩٢٦م ، بولاية القروان (ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٦٩) إذ أنه كان في السنة التالية ٣١٥هـ / ٩٢٧م يغزو صقلية ويصيب ويسبي (ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٧٠) ، كما كان في السنة التي تليها (٣١٦هـ / ٩٢٨م ، يغزو إيطاليا (بلد الروم) ويحتوى على ما في القلاع ويصالح أهل المدن على الأموال والديباچ (ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٧٣) وبعد الغزو التالية ، ٣١٧هـ / ٩٢٩م ، التي فتح فيها مدينة ترمولة عاد منصرفاً إلى المهدية (ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٧٥) .

أقدام العبد السودان ، إذ « يطع على ظهره وطلع السودان فوق السرير ففكروا عليه بأرجلهم ، حتى مات ، ومثل هذه الميتة كانت للمروزي الذي ركضته الخيل في استعبل والدراب ، وقارن ما يأتي : ص ١٢٥ وم ١٧٠ .

(١٣٦) قارن افتتاح الدعوة ، ص ٣٠٤ - حيث النص على أنه عندما استكثر صاحب بيت المال حصيلة شهر رمضان التي بلغت ١٠٠.٠٠٠ دينار ، قال المهدي : لو بلغت الله لي حتى ١٠٠٠ ما رضى مثل هذا البطاء لرجل واحد من أوليائي . والنعمان يضيف إلى ذلك أن المهدي كان جواداً بالمال ، وكان مع ذلك لا يضيّع أقل شيء من المال ، فهو لا يستهين به ولا يعرفه في غير حق .

التراتب المسالية :

ومثل هذا الحرص في جمع المال ، وتلك الدقة في حساب العمال ، يتطلب بطبيعة الحال ، اهتماما بالتراتب المسالية التي كانت قد انهارت في البلاد اثر سقوط الدولة الأغلبية ، ما بين طمع الأمير الهارب وفساد ذمم العمال ، والعمل على تقويمها بما يتفق وأهداف الدولة الجديدة . ولما كان من المعروف أن أبا عبد الله الداعي كانت له تراتبيه الخاصة سواء في ايكجان أو في تازروت ، فمن المعروف أيضا أنها كانت نظما بسيطة تتفق مع بساطة الدعوة وطبيعة المجتمع القبلي في بلاد كتامة . فالداعي عندما دخل القيروان كانت لديه نظم خاصة بالسكة ، والسلاح والكتابة ، وبيت المال ، وديوان الخراج ، والعطاء والقضاء (ابن عذارى ، ج ١ ، ص ١٥٩) . ومن الواضح أن النظم المسالية نالت عناية فائقة من المهدي منذ دخوله القيروان - وهذا ما يقصر استخدامه لبعض عمال الأغلبية ، كما فعل يابن القديم الذي عهد اليه بالخراج ، والذي اتهمه فيما بعد باحتجان بعض ما كان في عهده من المال الأغلبى (مسبق ص ٦٥ و ٦٨) . وفي نظم الدولة المالية يقول القاضي النعمان أن المهدي دون الدواوين ، وأمر باقتضاء واجب الأموال . وكان ديوان الخراج قد أحرق لما هرب زيادة الله فأمر به فأحرق (افتتاح الدعوة ، ص ٣٠٣) .

ديوان الكشف :

وفي هذا المجال يقدم النعمان معلومات طريفة عن بعض الدواوين ذات الصلة بديوان الخراج أو المتفرعة عنه : مثل : ديوان الكشف ، وديوان الضياع ، وديوان أموال الهاربين مع زيادة الله ممن استصفيت أموالهم ، وإن ترك ما كان لنسائهم (افتتاح الدعوة ، ص ٣٠٣) . كما تتبع المهدي ما كان قد نهب من قصور رقادة فاسترجع كثيرا منه من أيدي الناس ، أو طولبوا به ، واجتمعت منه أموال كثيرة (افتتاح الدعوة ، ص ٣٠٤) . ولقد أقام المهدي أيضا ديوانا لبيت المال الذي كانت حصيلته في شهر رمضان وحده ، ١٠٠٠٠ دينار (افتتاح ، ص ٣٠٤) . والنص على كثرة دخل بيت المال (أنظر الهامش السابق رقم ١٣٦ ص ١٢٠) في شهر رمضان يوعز الى أن ذلك راجع الى كثرة الدخل من الأسواق في شهر الصوم ، حيث كانت المبالغة في العناية بأمور الطعام والشراب ، قبل الاهتمام بالكساء في أواخر أيامه .

ضرائب مستحدثة :

التضييع :

وهكذا يكون المهدي قد استحدث دواوين جديدة مختصة بجمع الأموال وترتيبها في أوجه نفقتها المختلفة ، وعلى نفس المنوال كان من الطبيعي أن يستحدث أنواعا جديدة من الضرائب التي عرفت بالمغارم ، ليسد به حاجات بيت المال التي كانت تزداد مع تطور الدولة على مر الأيام . من ذلك ضريبة « التضييع » ، التي فرضت سنة ٣٠٥هـ / ٩١٧م على ضياع أفريقية ، فهي اذن من ضرائب الأرض (أو الحراج) التي وصفت بأنها من بقايا التقسيط (ابن عذاري ، ج ١ ص ١٨١) ، بمعنى التعديل الضريبي أي الإصلاح الضريبي الذي كان يتم ما بين الحين والحين . وكان من أهم الضرائب المستحدثة ، التي نظر إليها على أنها من المظالم الفاضحة ، ضريبة طريق الحج التي قررها المهدي في السنة التالية لاستقراره في المهديّة (سنة ٣٠٩هـ / ٩٢١م) ، إذ أمر بأن يكون طريق الحاج ، اجباريا ، على المهديّة حيث يكون التوقف في موضع « بندون » لأداء ضريبة تسمى « الشطور » علما بأن طريق الحج السوي ، أي المختصر ، هو طريق مصر « الكبير » أو الدولي ، كما يقال الآن ، الأمر الذي كان موضع التنذر بين الناس (١٣٧) .

الشطور : ضريبة الحج :

والحقيقة انه إذا كان ظاهر خبر تحويل طريق الحج الى المهديّة يمكن أن يعبر عن أن ضريبة « الشطور » هي ضريبة على الحاج ، كما تريد الرواية المناهضة للفاطميين - على ما يبدو ، فالحقيقة هي أن « الشطور » ليست ضريبة حج بل ضريبة خراج ، مما يفرض على الأراضي الزراعية . ففي سنة ٣٠٣هـ / ٩١٥م عندما عهد المهدي بولاية الحراج بأفريقية الى : أبي معمر عمران بن أحمد بن عبد الله بن أبي معمر القاضي ، قام الرجل بإصلاح ضريبة الخراج في بلاد أفريقية بحيث تكون ضريبة موحدة ، أقرب الى العدل (القسسط) والواقع ، بحيث لا يضار أصحاب الضياع كثيرا يتذبذب الانتاج الزراعي ، ولا تتأثر ميزانية الدولة نتيجة لذلك . ولكي

(١٣٧) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٨٦ - حيث الإشارة الى انه كان من أمثال أهل القيروان ، أيام الأغالية ، عند المطالبة بشيء مستحق أن يقال : « إذا أردت الحج فخذ على بندون » فقال الناس : صار المثل القديم حقا .

يحقق أبو معمر هذا الهدف ، نظر في متوسط ضريبة العشر على مختلف المزارع (الضياع) من أعلاها الى أدناها - تبعا لمساحة الأرض بطبيعة الحال - وأخذ المتوسط بين الطرفين ، وهو « الشطر » الذي أصبح ضريبة موحدة على مختلف الضياع (١٣٨) ، الأمر الذي كان من أغراض بعض ملوك الدولة الأغلبية من قبل (انظر فيما سبق ، ج ٢ ص ٤١) .

وبذلك تكون ضريبة الشطور (ومفردها شطر) : ضريبة خراج وليس ضريبة حشج - أما عن جمعها على طريق المهدية في موسم الحج ، فكان بمثابة المراجعة الضريبية على الحجاج وما كانوا يحملونه من المال ، بهدف أن يدفعوا ما يكون مستحقا عليهم للدولة ، قبل مغادرة البلاد بأموالهم لأداء المناسك - وأغلب الظن أن ديوان الكشف الذي استحدثه المهدي (افتتاح الدعوة ، ص ٣٠٣ ، وانظر فيما سبق ص ١٢١) سنة ٢٩٨ هـ / ٩١٠ م - في وقت مبكر ، حسبما يضعه ابن عذاري ، والذي جعل إدارته مشاركة الى كل من : أبي جعفر البغدادي ، كاتبه ، وعمران بن أبي خالد بن أبي سلام (البيان ، ج ١ ص ١٦٢) ، ربما كان يقصد به كشف المهريين من ضريبة الأرض ، خاصة (١٣٩) .

ديوان الدعوة :

ولا ندرى ان كان من بين الدواوين المالية المستحدثة في الدولة الفاطمية الناشئة ديوان خاص بالدعوة يكون اختصاصه ضبط الأموال التي تنفق عن طريق الدعاة الذين كانوا يحملون المال والأخبار سرا ، من الحضرة الى سائر الأقاليم ، وهو ما كان دارجا على أيام أبي عبد الله ، وكان يحقق الاتصال الدائم بالإمام سواء في سلمية أو في سجلماسة . وكان ذلك النوع

(١٣٨) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٧٣ .

(١٣٩) قارن موسى لقبال ، دور كتامة ص ٤٢٣ - حيث يبدو ان المقصود بالكشف هو كشف المخالفين للمذهب . والحقيقة أنه قد يساند هذا الرأي فئة المهديين بأبي جعفر البغدادي ، واستثانته به في التخلص من الداعي (ما سبق ، ص ٦٢) حتى أنه عهد اليه بعد ذلك سنة ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م بديوان البريد (الخبر : المغايرت) . ولما كان البريد وثيق الصلة بالخراج إذ ولية ابن القديم أول ولاية الخراج للمهدي (ما سبق ، ص ٦٢) فإن مشاركة عمران له في إدارة ديوان الكشف يعني عدم تخصص أبي جعفر ، وهو الكاتب ، في تلك الإدارة الفنية التي تتطلب خبرة وهو ما يرجح ما نقرحه من أن يكون ديوان الكشف قريب الصلة بديوان الخراج -

من النفقة أشبه بما يسمى حاليا « بالمصاريف السرية » والحقيقة ان الداعي ادريس يمدنا بمعلومات طريفة في هذا الشأن ، تشير الى أن يعقوب ابن اسحق ، عندما قبض عليه في مصر ، في حلة سنة ٣٠٧هـ / ٩١٩م ، ورحل الى بغداد (انظر فيما سبق ص ٢٧) كان دعاة المهدي يوصلون اليه المال والأخبار طوال ١٢ (أربعة عشر) عاما . انتهت بمقتل الخليفة المقتدر ، وعودته الى المهدي سنة ٣٢١هـ / ٩٣٣م ، على أواخر أيام المهدي (١٦٠) .

وهكذا تعددت واردات بيت المال وأوجه النفقة ، فتمثلت تبعاً لأهميتها ، في اعداد الجيوش والأساطيل مع رواتب الموظفين والعمال المدنيين في البلاط ، وفي مختلف الدواوين ، ونشر المذهب الفاطمي والمتاية بالعلم ، عصبية الدولة وأصل قواها السكامة ، الى جانب شراء الأغوان والخلفاء المجاورين ، مما كان يسهل تمدد الدولة اقليمياً وتوسعها معنوياً ، واقامة المدن من ملكية وشعبية ، والعناية بالأسواق والحرف والصناعات ، واجهة الحضارة الفاطمية السادسة ، والدليل الملموس على نجاحها مذهبياً ، بصفتها دولة الأئمة الشرفاء من آل البيت ، ولكل ذلك حرص المهدي على جمع المال في مظانه المختلفة ، وكان ، كما تنص رواية القاضي النعمان ، جواداً به ومع ذلك فهو لا يضيع أقله ، اذ لا يستهين بالمال ، ولا يصرفه في غير حق (افتتاح الدعوة ، ص ٣٠٤) .

السياسة الدينية :

ما بين الدين والمال :

ارتبطت السياسة الدينية بالسياسة المالية بنوع من الرباط العضوي

(١٤٠) عيون الأخبار للداعي ادريس ، ص ٧٣ - ٧٥ . حيث الاشارة الى أن السجناء في بغداد انتهى به الأمر الى الاتراء من كثرة ما كان يعطيه يعقوب ابن اسحق ، وإن ذلك كان سبباً في أن أطلق السجناء سراحه عند وفاة المقتدر . هذا وإن اتخذت الرواية شكلاً قصصياً عثراً . بعد ذلك - فيما يتعلق برحلة العودة الى المهدي ، حيث تكثر العقد إلى المواقف الحرجة ، مما يصلح لأعمال السيناريو الروائية - كما يقال الآن - فيعقوب يتخفى في زي الصوفية ، وينجح في التخلص عندما كشفه جواسيس بغداد في مصر ، ثم انه يتزوي بزى النساء ليغير جسر الجزيرة في صعيد زمره من النساء الى منجبة (طريق) المغرب ونجاحه بفضل من كن معه من النساء رغم كشفه ، الى سلسلة ، أخرى من مثل هذه المفامرات الصعبة . والرواية هذه وإن كانت من نوع القصص الشعبي ، فانه من حيث المضمون تبين أساليب التخفى التي كان يلجأ اليها الجواسيس والبلاء في تلك العصور .

من حيث ان كلا من المال والمذهب الاسماعيلي الفاطمي كانت له ، الى جانب مزايده الايجابية تاثيراته السلبية . فجمع المال بوصف عادة بالظلم ويخلق العداوة ، وانفاقه بوصف بالجور ويجلب المحبة . وعلى نفس النسق ، بينما كان المذهب الشيعي يكتسب الى جانبه الأنصار كان يولد الخصم في صفوف أهل السنة . وبسبب صعوبة الموازنة بين السلبى والايجابى فى كل من الجانبين ، كانت الدعايات المبشرة بقيام الدولة الجديدة ، وعهود الخير ، تبدأ معتدلة وهى تحاول التوفيق بين القديم المدير والجديد المقبل ، قبل أن تكشف النقاب عن حقيقة أمرها .

تساهل الداعي : ظاهر علم الأئمة :

هكذا بدأ أبو عبد الله الشيعي دعوته بنشر ظاهر علم الأئمة مما يتفق مع مذاهب أهل السنة ، من الدعوة الى المعروف والنهي عن المنكر ، دون الكشف عن أسرار الباطنة (ما سبق ، ج ٢ ص ٥٥٣) - وهو اذا كان قد أحدث بعض التغييرات فى صيغة الأذان أو القى صلاة الاشفاع (التراويح) أو أمر بتفضيل آل البيت على من سواهم ، فقد كان يفعل ذلك باسم الكتاب والسنة ، وبشكل معتدل . فهو لا يقبل تطرف أخيه أبى العباس عندما أراد نفى المعارضين من المالكية عن القبروان ، ولا يستجيب له (١٤١) . وهو يستنكر ما قام به بعد ذلك من عقوبة اثنين منهم بالحبس والقتل والتشهير ، هما : ابن البرذون وابن هذيل ، ويرد عليه من سجنه مائة قائلا : « قد أفسدت علينا من أمر البلد وأهله ما كانت بنا حاجة الى اصلاحه (١٤٢) » . ولا شك أن اعتدال الداعي لم يلق الترحيب من عبدة الله الذى كان يرى استثمار المذهب فى سبيل تأكيد السلطة ممثلة فى شخصه ، بصفتة اماما مهديا ، له حق الطاعة المطلقة . ففى سبيل توطيد مركزه كان أول توقيعاته (قراراته) الذى أصدره فى يوم الجمعة ٢١ ربيع سنة ٢٩٧ هـ / ١٨ ديسمبر ٩٠٩ م ، غداة وصوله الى القبروان ، يأمر بالدعاء ، بعد الصلاة على محمد ، وعلى فاطمة والحسن والحسين ، وعلى آبائه خلفاء الله الراشدين المهديين ،

(١٤١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤٩ - ١٥٠ .

(١٤٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٥٤ - ١٥٥ - حيث النص على أن القتلين هما : ابراهيم ابن محمد الطنبى ، المعروف بابن البرذون ، وأبو بكر بن هذيل وأن الذى وشى بهما هو الفقيه الحنفى - على مذهب أهل العراق الذى أجازوه لما فيه من الترخيص - وأصحابه بتهمة الظن فى الدولة والتسوية بين على بن أبى طالب وبين أبى بكر وعمر وعثمان .

بالصلاة أيضا على الامام المهدي : عبد الله بن أبي محمد ، خليفة الله ، والقائم بأمر عباده (١٤٣) .

تشهد المهدي :

وهكذا سار المهدي في سياسة التشدد في نشر المذهب الفاطسي بين الناس دون هوادة باستخدام الترغيب والترهيب . فبعد تمام صلاة الجمعة التي أعلن في خطبتها تلقيه بالمهدي خليفة الله ، بجاسع القيروان ، في نفس يوم ٢١ ربيع ، جلس الشريف (العلوي) رئيس الدعاة ومعه أعوانه ، وأحضروا الناس بالعنف والشدة ، حسب رواية ابن الأثير ، ودعوهم إلى مذهبهم ، فمن أجاب (ضمه) إليه ومن أبي حبس (١٤٤) .

مذهب جعفر بن محمد :

ومن أجل فرض المذهب ، أصدر القاضي محمد بن عمر المروزي ، الأمر إلى الفقهاء بالأبى يقتل أحدهم إلا بالمذهب الرسمي للدولة ، الذي سماه : مذهب جعفر بن محمد (ابن عذارى ، ج ١ ص ١٥٩) . والمقصود هنا ، هو جعفر المصدق ابن محمد المكنوم ، وليس جعفرا الصادق . والظاهر أن الهدف من ذلك هو اجتذاب الشيعة الاثني عشرية إلى صفوف الاسماعيلية . الفاطمية بمعنى توحيد الحركة الشيعية تحت رعاية المهدي ، اعتمادا على اتفاق المذهبين في بعض الفروع ، مثل : « سقوط الحنث عن طلق البتة » وأحاطة البنات بالميراث » . وهذان الأمران من أهم ما يميز المذهب الشيعي عن المذهب السني (١٤٥) ، وكذلك سقوط الرجم عن الزاني ، والمسح على

(١٤٣) افتتاح الدعوة ، ص ٢٩٣ ، وقارن محمود اسماعيل ، المالكية والشيعة بإفريقية ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد ٢٣ ، ١٩٧٦ ، ص ٨٠ . حيث إضافة ما يقرره ابن حسان (حسانه) ص ١٦ ، من : قوله المؤذن : حيالك الله يا مولانا حافظ نظام الدنيا والدين . وقارن ، ط : الجزائر ١٩٨٤ ، ص ٢٧ . حيث النص « أحيالك » بدلا من « حيالك » ، ويستمر في ٣ أسطر : « وجامع شمل الاسلام والمسلمين » وأعن بسططائك جانب الموحدين ، وأباد بسبوتك كافة الملحددين ، وعلى عليك وعلى آباءك الطاهرين ... الخ .

(١٤٤) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٤٩ - حيث النص على أنه لم يدخل في المذهب رغم ذلك إلا قليل من الناس رغم ما تشير إليه الرواية بعد ذلك من التشدد الذي بلغ حد « قتل كثير من لم يوافقهم قولهم » .

(١٤٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٥٩ ، وانظر الاستبصار ، ص ٢٠٥ - حيث تفسير سقوط الحنث عن طلق البتة بتحليل المطلقة ثلاثا (دون حاجة إلى « المعلن » ، وهو ما يختلف عند

الحفنين ، وإيمان الحرج الى جانب تقرير « الصوم بالعلامة واللفظ بها » (أى بالحساب) (١٤٦) . وهذا ، كما أصر المهدي على نشر المذهب وراء قرائته الفاتحة ، كما حدث في مصر سنة ٣٠١ هـ / ٩١٣ م ، عندما دخلت الاسكندرية اذ صدرت الأوامر بتعديل أذان الفجر بحيث يشمل عبارة « حي على خير العمل » كما عين قاضيا من لدنه ، بمعنى اقرار العمل بالمذهب الفاطمي هناك (١٤٧) .

غلاة المذهب :

وهنا نلاحظ ان المصادر السنية تتماذى في المبالغة ، عندما تنسب الى الشيعة الفاطمية ممارسات مما ينسب عادة الى المتطرفين من الاسماعيلية كالقراطة . فابن عذارى ينص على أن عبيد الله المهدي أظهر التشيع القبيح ، وسب أصحاب النبي وأزواجه ، باستثناء علي بن أبي طالب وبعض رفاقه (١٤٨) . وهكذا تشير بعض النصوص أيضا الى ان المهدي كان يستمع الى مدح الشعراء بالكفر ، من تشبيهه بالأنبياء ، بل وبالله كذلك ، وأنه كان يستجيز ذلك (١٤٩) .

أهل السنة عن اعتبار بين الطلاق ثلاثا ، الواحد ، كطليقة واحدة) . أما عن ميراث البنات فيسرحه الاستبصار بقوله : « توريث البنت اذا انفردت بجميع المال كله » ، مع ان الله يقول : « وان كانت واحدة فلها النصف » .

(١٤٦) الاستبصار ، ص ٢٠٥ - حيث النص على ان اظهار المذهب وتسميته بمذهب أهل البيت حدث على عهد القائم بعد وفاة المهدي . وقارن محمود إسماعيل ، المالكية والشيعة بإفريقية ابان قيام الدولة الفاطمية ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد ٣ ، ١٩٧٦ ، ص ٨٠ - حيث اشالة « القنوت في صلاة الجمعة قبل الركوع » مما يضيفه ابن حاد (تحاده) ص ١٦ ، الى ما سبق ذكره .

(١٤٧) انظر عيون الاختيار للدهلي أدريس ، ص ٣٣ .
(١٤٨) البيان ج ١ ص ١٥٩ ، حيث القول : انهم ارتدوا عن الاسلام ، حاشى على ، والمنداد بن الأسود ، وعمار بن ياسر ، وسلمان الفارسي ، وأبي ذر الغفاري .
(١٤٩) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٦٠ - حيث يسجل شعر مجاهد بن البديل كاتب أبي قضاة ، الذي يقول فيه :

حل برقادة المسيح	حل بهسا آدم ونوح
حل بها أحمد المصطفى	حل بها الكبيش والذبيح
حل بها الله ذو المساق	وكل شيء سواء ربيع

هذا ولو أن البعض نسبته الى محمد بن هاشم الأندلسي فكانه قبل في المن وأن لم يجده ابن الأثير في ديوانه . كما يقول - ابن الأثير ج ٨ ص ٦٢١ . وانظر فيها بعد ص ٢٨٤ ، وقارن فيها سبق ، ص ١٠٠ .

والذى نراه هو انه كان هناك عدد من الشيعة المتعصبين للامام من يذهبون فى تبجيله الى حد التقديس * والمثل لذلك ابن سيرين الحنفى (الجديده فى المذهب) الذى سار حافيا مع الداعى من القيروان الى سجلماسة محتسبا للثواب فى طلب الامام (ما سبق ج ٢ ص ٥٩٤) * وان المهدي كان يسبح ان لم يكن يشجع ، مثل هذا الاعتقاد فى عصبة الامام ، الامر الذى ادى الى انزلاق البعض فى التطرف والغلو الذى يظهر كنوع من التآليه ، مثل اتخاذ مقر الامام قبلة ، كما فعل احمد البلوى تاجر العبيد (النحاس بالرقيق) الذى كان يتجه فى صلاته وهو بالقيروان جنوبا وهو رقاد ، ثم انه اتجه شمالا فى صلاته ، عندما انتقل الامام الى المهديّة - وفي تقرير ذلك ينسب الى الرجل انه كان يقول : أنا لا أعبد ما لا يرى (١٥٠) *

وفى سبيل توطيد سلطة الامام ، تأكيداً لمبدأ الولاية والطاعة الواجبة له ، وخاصة بالنسبة للكتاميين الذين ساءهم تذلل زعيمهم الداعى فى حضرة الامام بسجلماسة (انظر فيما سبق ج ٢ ص ٥٩٧) * فقد كان عليهم قبول الطاعة المطلقة الى حد أن يكون قسمهم الذى يحلفون به ، عند قدومهم الى أفريقيا ، هو : « وحق عالم الغيب والشهادة - مولانا المهدي الذى برقادة » بمعنى أنهم ، الى جانب الولاية ، يقرون للامام يعلم الحدّثان وهو التاريخ المستقبلي للامامة (١٥١) الامر الذى جعل بعض شباب القيروان يرد على ذلك بكتابة بطاقة يقول فيها :

الجور قد رخصينا	لا السكفر والحماقة
يا مدعى القيسوب	من كاتب البطاقة (١٥٢)

(١٥٠) انظر فيما سبق ، ص ١٠٠ و ٩٥ (عن المهديّة) - حيث يقول فيها الشاعر - كما يقال فى الحرم المكي : هو المهديّة الحرم الموقى كما بتهمة البلد الحرام - ابن عذارى ج ١ ص ١٨٤ *

(١٥١) ابن عذارى ج ١ ص ١٦٠ (عن القسم) ، وقارن المجالس والمسائرات للنعمان ، ص ٥٤٢ حيث يتنبا المهدي المنصور وهو جنين فى بطن أمه ، يكشف غمسة ابن يزيد ، عيون الاخبار للداعى اوديس ، ص ٨ - حيث رواية النعمان التى يقول فيها ، انه : « انهض القائم الى مصر كركتي ، رغم علمه انها لا تفتح » ، انظر فيما سبق ص ٢٨ ، ٩٢ (عن علم الحدّثان) *

(١٥٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٦٠ - حيث الاشارة الى ان ذلك اشهد على المهدي الذى حاول الكشف عن كاتب ذلك ، فلم يقع له على خبر *

مسئولية الدعاة :

والحقيقة ان مسؤولية كثير من مثل تلك الممارسات التي انحرفت بالمذهب الاسماعيلي بعيدا عن الأصول السنية المتعارف عليها ، سواء على المستوى الرسمي ، مما يتعلق بالقرارات والنظم والقوانين أو على المستوى الشعبي ، مما يتعلق بالعادات وأداء الشعائر والاحتفالات لا تقع على عاتق الأئمة وحدهم ، ان ربما شاركهم بعض الدعاة أو انفرد به بعض المتطرفين منهم أو من رجال الدولة الذين تحمسوا للمذهب أكثر من أصحابه ، فكانوا ملكيين أكثر من الملك كما يقال . وهنا لا بأس من الإشارة الى أن كثيرا مما طبق من تعاليم المذهب القيت تبعته على كاهل من أشرف على تنفيذه . والمثل لذلك القاضي المروزي الذي واجه اجتماع فقهاء المالكية عندما أمر باستيقاظ صلاة التراويح ، علما بأن الداعي هو الذي أسقطها منذ هلال أول رمضان ، في بلاد كتامة (ابن غداري ج ١ ص ١٧٠ - ط بيروت) ، وإن تراوحت ردود الفعل بين الناس ، فالتمسكون أعربوا عن احتجاجهم بأن كتبوا في حائط قبلة الجامع حيث جلوس المروزي : « ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ، وسعى في خرابها » (الآية ١٠٨ سورة ٢) ، والظرفاء (الخلفاء) سألوا القاضي أن يحتال لهم في الصوم كما خفف عنهم في الصلاة (١٥٣) . والغريب في الأمر ان النصوص التي تشير الى ممارسات شعبية غريبة اخترقت الآداب الاسلامية فيما يتعلق بالصلاة والصوم ، وفي شهر رمضان على وجه الخصوص - أي مع سبق الإصرار ، كما يقال - وأحيانا في كثير من المناطق دفعة واحدة ، فكان في الأمر نوع من تنسيق من قبل جهات عليا - من أعوان الدولة أو من خصومها - لتنظيم تلك التظاهرات المذهبية الذي أساء بها الغلاة الى الدولة من غير شك - بقصد أو بغير قصد .

اختراق الآداب الاسلامية :

ففي شهر رمضان من سنة ٣٠٩ هـ / يناير ٩٢٢ م ، وهي السنة التالية لانتقال عبيد الله الى المهديّة قامت جماعات من المتطرفين من الشيعة ، في كل من مدن القيروان ، وباجة ، وتونس ، و « جاهرُوا بتحليل المحرم »

(١٥٣) ابن غداري ج ١ ص ١٥٢ - حيث الإشارة الى أن المروزي : « سال اذا كانوا رأوا من كتبها وأمر بدموه » وانتقل عن الجلوس بذلك الموضع - وأنه أمر بدفع المحقق الخليل ،
« المذهب يا مدحون » .

وأكلوا الخنزير ، وشربوا الخمر في رمضان جهارا ، الأمر الذي كانت له اصداء سيئة ، انتشرت بسرعة داخل البلاد وخارجها حتى وصلت الى مصر (١٥٤) . ولم يسكت المهدي على هذا العمل العيشي غير المسئول ، إذ صدرت أوامره الى عماله في تلك الأقاليم بالقبض على مدبري تلك الفتنة الذين بلغ عددهم حوالي ٢٠٠ (مائتي) رجل ، وارسالهم اليه بالمهدية مقيدين ، وهناك ألقوا في السجن حيث مات أكثرهم (١٥٥) . ولما كان بعض زعماء هؤلاء الغلاة من المعروفين في البلاد ، مثل : أحمد البلوي النخاس ، الذي كان يتوجه في صلاته الى حيث يقيم المهدي ، اعتقادا في الوحيته ، ويرى انه يعلم السر والتجوى ، وكذلك إبراهيم بن غازي ، الذي كان ، أيام الأغالية ، من الزهاد المرابطين في قصر الطوب يسوسة حتى أنه رشح لصلاة الجماعة (ابن عذاري ، ج ١ ص ١٨٦) - الأمر الذي يذكر أيضا بالفقيه الحنفى « ابن سيرين » الذي مضى راجلا مع الداعي من القيروان الى سجلماسة ، احتسابا (انظر فيما سبق ج ٢ ص ٥٩٤) - نرى أنه لا بأس أن تكون حركة الغلاة هذه قد نشأت « ملائمة » مرتبطة بالزهد والتصوف المتطرف ، ممن اعتقد أصحابه في نظريات الفيض والحب الإلهي ووحدانية الوجود ، فارتفعوا فوق مستوى عالم الحس ، لا يفرقون بين الراحة والألم أو بين الحزن والفرح ، وبذلك انكشف عنهم الحجب ، وارتفعت عنهم التكاليف (١٥٦) . هذا ، ولا بأس أيضا أن تكون تلك الحركة ذات أصول شعبية قرمطية متأثرة بالديانات التنسوية الشرقية كالزردكية ، مما أدى الى اطلاق الخصوم على الاسماعيلية اسم (الزردكية) في المشرق (الشهرستاني ، الملل والنحل ج ١ ص ١٩٢) واسم (المشارقة) في المغرب (ما سبق ، ج ٢ ص ٥٥٣) .

غلاة الدعوة :

اما على المستوى الرسمي فيمكن أن تكون مثل هذه الانحرافات الغالية نتيجة لأعمال غير مسئولة من قبل بعض المتحمسين من الدعوة ، كما حدث في نفس سنة ٣٠٩ هـ / ٩٢١ م ، في منطقة جبل ونشريس ، غير بعيد من

(١٥٤) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٨٥ - ١٨٦ - « حتى عمر به أبو القاسم (ولى العهد) أيام كونه باليوم » ، في حملته الثانية على مصر .
(١٥٥) ابن عذاري ج ١ ص ١٨٦ ، وقارن القاضي النعمان ، افتتاح الدعوة ص ٣٢٨ - حيث الإشارة الى قوم مرقوا عن الدين ، واستحلوا المحارم ، فمات بهم المهدي على قدر ذنوبهم .
(١٥٦) قارن ابن الأثير ، ج ٨ ص ٢٨ - عن الديسانية أمل الباطن ، وعدم وجوب الفرائض وإباحة الأمهات .

تاهرت عاصمة المغرب الأوسط وقتئذ ، وهي منطقة الداعي منيب بن سليمان .
المكتاسي ، الذي تنسب اليه رواية ابن عذارى ، أنه : « أظهر التشريق .
(التشيع الفاطمي) بجانب تاهرت (تيهرت) وتحليل المحرمات » .
والحقيقة انه اذا كانت الرواية هذه تصف التشيع الفاطمي بـ « التشريق .
(نسبة الى المشرق) وتعني أنه نوع من الزندقة التي تحلل المحرمات ،
وخاصة ما يتعلق منها بالتساهل في العلاقات الجنسية ، مما يصل الى مستوى
شيعوية النساء ، فالحقيقة ان الرواية ليست قاطعة في نسبة ذلك الى
المهدي (١٥٧) . وبناء على ذلك فمن الممكن أن يكون ما جاء ذكره من تحليل
المحرمات نوعا مما ينسبه بعض الكتاب ، من تساهل بعض أقاليم المغرب
الجبالية المنعزلة في أمور العلاقات الجنسية ، مما يمكن أن يكون من ذكريات
الماضي البعيد ، ان لم يكن من التشسييعات التي يصطنعها (الحضور فيما
بينهم ، من عرب وبربر ، أو سنة وشيعة - وخاصة فيما يتعلق بالقرامطة
من الشيعة (١٥٨) .

وهذا لا يمنع من انزلاق بعض الدعاة نحو الغلو والتطرف ، الأمر
الذي كان يماجه الامام تبعا لمقتضى الظروف والأحوال ، كما حدث سنة ٣١٥هـ
/٩٢٧م عندما وصل أبو القاسم ولي العهد ، الى المغرب وقبض على الداعي
معل بن محمد الملوسي ، وبعثه مقيدا الى المهديّة حيث ضرب عنقه ، في موضع
الرملة هناك ، بأمر المهدي (ابن عذارى ، ج ١ ص ١٩٢ - ط ، بيروت ،
ص (٢٧) .

واذا كان ابن عذارى لم يوضح سبب ادانة الداعي معل الملوسي ، فإن
القاضي النعمان ، يخصص فقرات في المجالس والمسائرات لانحرافات بعض
الدعاة ، فيما يتعلق بإباحة المحارم . والذي يلفت النظر انه عندما يتكلم
عن : « زيغ بعض الدعاة » يفسر « إباحة المحارم » تفسيراً غريباً يمكن أن
يتفق مع ما سبقت الاشارة اليه من أفكار الصوفية ، من أصحاب نظريات
الفيض والحب الالهي ، وذلك على أساس أن ترك المصاعى يعتبر سوء ظن

(١٥٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٨٥ - حيث النص . وقيل ان عبيد الله وجه (اى منيب
الداعي) وغيره الى الأعراف ، وأمرهم بإظهار التشريق .
(١٥٨) انظر الاستبصار ص ١٩٢ (عن عادة الموازية في بعض مناطق البربر) وابن الأثير ،
ج ٧ ص ٤٤٧ ، ٤٩٣ (سنة ٢٨٢ هـ) ، ج ٨ ص ٢٨ (عن بعض ما ينسب من شغافات الى
القرامطة) .

يالله ، عز وجل ، أنه لا يغفر الذنوب (المجالس والمسايرات ، ص ١٠٥) .
وهو يتبع ذلك بأن المعز كان لا يجد أولياء ثقة بالرغم من اتساع ملكه .
وبأنه كان يبرأ من دعاة السوء ويصفهم « بأنهم ليسوا أولياء بل أعداء الله
وأعداؤنا ، والصادون عن الله » (اذ) حرفوا وبدلوا ٠٠٠ فضلوا
وأضلوا كثيرا ، وضلوا عن سواء السبيل (ص ٢٣٧) .

الكف عن طلب التشيع من العامة :

وهكذا فإن كان المهدي قد أصدر الأوامر للدعاة بالكف عن طلب
التشيع من العامة ، كما ينص المقرري (١٠) ، فانظروا أن ذلك الاجراء لم
يكن كافيا لتهدئة خواطر أئمة العامة ، حسب المصطلح الشيعي ، من فقهاء
المالكية ، الذين وقفوا معارضين لمذهب التشيع ، على عكس الحنفية أصحاب
الرخص (التيسير) حتى تشيع كثير منهم ، ودخلوا في خدمة الدولة ما بين
محاسب وطامع ، منذ أيام الداعي . فمن أول النماذج : الفقيه أحمد بن
سيرين الحنفي الذي مشى محتسبا مع الداعي الى سجلماسة ، وكانت
مكافاته ، فيما بعد ، ولاية مدينة بركة (١٦٠) . وخلف بن معمر بن منصور
الذي تشرق أول دخول الشيعة أفريقية ليحتمي بذلك من مطالبة ابنه بمال
قد غمس يده فيه عند حرب آخر الأغالبة ، زيادة الله ، في رقادة (ابن
عذارى ، ج ١ ص ١٧٣ ، ط بيروت ، ص ٢٤١) . وهكذا لم يسكن من
المستغرب أن يروح أوائل القتلى من فقهاء المالكية ، مثل ابن البرذون وابن
هذيل ، ضحية وشاية الفقيه الحنفي الكلاعي (انظر ما سبق ، ص ١٢٥) .
فكان ذلك بداية لما يمكن أن يسمى بـ « عصر شهداء المالكية » في التاريخ
الفاطمي ، وإن كانت محنة المالكية قد بدأت على أيام الأغالبة ، في القيروان ،
منذ دخلها المذهب الحنفي ، مذهب بغداد الرسمي (ما سبق ، ج ٢ ص
١٠٨ وما بعدها) .

(١٥٩) انظر موسى لقبال ، ص ٤٢٦ (عن الثعلب الحنفي) .
(١٦٠) ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٥٣ ، وانظر لقبال - دور كتابته ، ص ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، حيث
الذين اعتنقوا المذهب لأغراض مادية ، ص ٤٢٤ وما بعدها . حيث الذين اعتنقوا المذهب
برضاهم دون أغراض مادية ، وقارن محمود اسماعيل للمالكية والشيعة بأفريقية ، المجلة
التاريخية المصرية ، المجلد ٢٣ ، ١٩٧٦ ، ص ٨٣ . حيث النص على أنه يمكن القول انه
معاداة المالكية للمهدي ترجع الى سياسته الاقتصادية أكثر من دعوته المذهبية استنادا الى
إبقانوف ، وأنه مما يدعم « هذا التفسير الاقتصادي » أن بعض من دخل في المذهب الفاطمي
من المالكية كان مدفوعا بالرغبة في الاعفاء من المفارم المالية ، مما تشير اليه سيرة جعفر .
وانظر أيضا ص ٨٧ حيث الإشارة الى بعض من تشرق من فقهاء المالكية ، وكذلك الشافعية
والأحناف .

الجدل بين السنة والشيعة :

والحقيقة أن الجدل الذي قام بين الطائفتين ، من حيث أن المالكية
مذهب حديث تقليدي ، والحنفية مذهب اجتهاد ورأى ابداعي استمر على
أيام الفاطميين ، بعد أن دخل الشيعة فيه بمسائلهم المستجدة مما يتعلق
بأداء الفرائض ، من صلاة وصوم وزكاة . وكان أبطال ذلك الجدل الأوائل ،
هم : القاضي محمد بن عمر المروزي ، وأبو العباس المخطوم ، من رجال
الدولة ، والفقيه سعيد بن الحداد (سعيد بن محمد بن صبيح الغساني
المشهور بابن الحداد - ت ٣٠٢ - ذو القعدة/مايه ٩١٥ م) الذي بدأ مالكيًا ،
من أصحاب سحنون ثم تحول الى الشافعية العقلانية ، غير التقليدية (١٦١) ،
والذي اعتبرت وفاته سنة ٣٠٢ هـ/ ١٤ - ٩١٥ م ، فجيزة بالنسبة لأهل
السنة (١٦٢) . وهنا لا بأس من الإشارة الى أنه اذا كان الفضل يرجع الى
المالكية ، في الصمود أمام المذهب الفاطمي حتى رأى ابن تاجي انه لولا
ذلك لكفرت العامة (١٦٣) ، فإن فقهاء الحنفية ، رغم ما قيل عن تساهلهم أو
استعداد الدولة على المالكية (ما سبق ص ١٣٢) أو دخول بعضهم في
المذهب الفاطمي ، فقد كان لآخرين منهم موقفهم المبذئي الرفض للمذهب
الاسماعيلي . ولا بأس من أن يكون من أوائلهم ، أحمد بن يحيى بن طليب ،
الفقيه الحنفي (على مذهب أهل العراق) ، والمشتغل بممارسة العلاج
والمداواة (المتطبب) ، الذي قتل بمدينة رقادة سنة ٢٩٧ هـ/ ٩٠٩ م (ابن
عذاري ، ج ١ ص ١٦١) ، وإن لم تذكر الرواية سبب ذلك ، كما كان هناك
مدافعون أشداء من الشافعية ، مثل ابن الحداد .

(١٦١) انظر رياض النفوس للمالكي ، ج ٢ ص ٦٤ - حيث النص على أنه « صار الى
مذهب الشافعي من غير تقليد ، بل كان كثيرا ما يخالفه ، ولا يمتدح مسألة الرد بنظر
وحجة ، وكان يقول : « إنما أدخل كثيرا من الناس الى التقليد نقض القول ودناءة الهمم ،
وانظر ص ٦٩ - حيث النص على أنه كان مسجبا بقول الشافعي : « لو ان الناس تكلموا في
العلم بصحة القول لقل اختلافهم فيه ... قرب حامل فقه الى من هو أفقه منه ، ورب حامل
فقه غير فقيه » ، كما في الحديث النبوي .

(١٦٢) انظر مرسى لقبال ، دور كتابته ص ٤٦٣ وما بعدها .

(١٦٣) انظر مرسى لقبال ، ٤٦٣ ، وهـ ٢٣٥ - حيث الرجوع الى معالم الايمان ، والنص
على قول أبي تاجي : « جرى الله مشيخة القيروان شيئا ، هذا يموت وهذا يضرب .. وهم
صابرون لا يفترون ، ولو فروا لكفرت العامة دفعة واحدة » .

تساهل الداعي ومرونته :

ومن الواضح أن الجدل الديني هذا اتصف بالتساهل والمرونة على عهد الداعي ، الذي كان شعاره : « ان دولتنا دولة حجة وبيان ، وليست دولة قهر واستطالة » (١٦٤) ، والذي كان يقوم بتهدئة أطراف المناظرة ، عندما يحتد الجدل ، وتوعيتهم بآداب الحوار ، مثلما فعل مع ابن الحداد ، صاحب الصوت الجهور واللسان الفصيح والمنطق الفخم والمعاني الصائبة (رياض النفوس للمالكي ، ج ٢ من ٦٣) ، وهارون بن يونس (شيخ المشايخ الكتامي) صاحب المزاج الحاد والانفعال السريع ، والذي ياجأ الى الاقتناع بالرمح بدلا من الحجة . والحقيقة أيضا أن تفاصيل المناظرات وطولها ، يدل على أن أبا العباس ، أخا الداعي رغم ما قيل من اتصافه بالعجلة وكثرة الكلام وضعف العقل كان يملك القدرة على ضبط النفس واحترام آداب الجدل والمناقشة . ولا شك أن كل ذلك كان مما يتعارض مع مبدأ الولاية والطاعة للامام « المهدي » ، ويثير خطره ، رغم ما كان يظهره من الحرص على مجادلة الخصوم ، بل وتهديئة خاطرهم ، كما فعل مع ابن الحداد (١٦٥) . وهكذا كان من الطبيعي أن تتغير سياسة الدين هذه ، بعد وفاة الداعي وأخيه ، حيث كان فرض مذهب آل البيت دون ما سواه ، انذارا ببداية « الأزمة الفاطمية » وعهد « شهداء المالكية » كما يظهر في كتب التاريخ وتراجم أهل السنة ، من علماء القيروان وزهادهم ، ممن كانوا يسوون بين علي وبقية الراشدين ويفضلون البعض عليه (١٦٦) ، أو يسقطون « حبي علي خير العمل » من الأذان (١٦٧) ، أو يرفضون الدخول في المذهب (١٦٨) ، أو ممن ظلوا يفتنون

(١٦٤) حسن ابراهيم حسن ، الدولة الفاطمية ، ط ٤ ص ٥١ - ٥٢ .
(١٦٥) رياض النفوس للمالكي ، ص ٥٩ ، ٦٠ - حيث عرض ابن الحداد آراء المخالفة في تفسير الولاية (الطاعة) للامام حسبما جاءت في حديث غدير خم على أساس انها ولاية في الدين فقط ، فقد قال له المهدي : « اتصرف لا ينالك أحسد » ، وإن كان أبو جعفر البغدادي ، الكاتب والمقرب من الامام ، تصححه بكتابتان ذلك المجلس .

(١٦٦) مثل ابن البرزق ، وابن هذيل ، ابن عذاري ج ١ ، ص ٣٤١ ط : بيروت أو حسن بن مفرج الفقيه أو محمد الشاذلي الزاهد (ص ٢٦٢) .

(١٦٧) مثل عبدروس المؤذن ، ابن عذاري ط : بيروت ج ١ ص ٦٦٥ .

(١٦٨) مثل محمد بن حفص الفهم ت ٣٠٢ هـ ، ابن عذاري ط : بيروت ج ١ ص ٢٦٦ - ٢٦٧ ، حيث النص على انه كان يتقاضى راتباً شهرياً مقداره ١٠ دنانير ، وإن المروزي أحضره وقال له : لا يؤم بنا إلا ولي من أولياء أمير المؤمنين - فادخل الى بعض الدعاة يأخذ عليك البيعة - وتبقى في حلتك . وطلب الرجل أمهاله ليتأمل في الأمر ، فلما اعتذر في الغد ، صرل

يقول مالك (١٦٩) ، والذين تراوحت عقوباتهم ما بين العزل أو الضرب والحبس والتعذيب أو القتل والتشهير (١٧٠) .

والهم انه على عكس ما قد يظن من أن العصر كان عهد تسلط واستبداد وقهر ، ولا يناسب التقسّم العلمي والازدهار الأدبي ، والتفتح الفكرى مما ينسجم مع حكم الامام المعصوم ، بمعنى الحكم الدينى ، الالهى ، الذى لا يخطئ ، فقد كان الأمر على العكس من ذلك ، مما تحاول بيانه فيما يترتب على الحياة الدينية من أوجه النشاط الفكرى والثقافى .

الحياة الفكرية والثقافية :

المذهب الفاطمى موضوع لأدب خصب :

لما كانت نظرية حكومة المهدي انعموم تعنى : الحكم الدينى (التيقراطى) الشامل ، الذى يضى على الحياة الثقافية طابع المذهب الفاطمى ، فالحقيقة أن هذه الرؤية وإن كانت مقبولة ، فهي ليست صحيحة على إطلاقها ، بفضل مرونة المذهب والميونة فى تطبيق تعاليمه ، مما سمح له بالالتقاء مع مذاهب أصل الرأى من الحنفية والمعتزلة الذين تقبلوه بسهولة ، دون المسالكية المتسكين بالسنة والتقاليد المدنية . وهكذا يعتبر المذهب الشيعى بعمامة ، مذهب رخصة وتساهل ، الأمر الذى يظهر فى بعض أمور الأحوال الشخصية من الزواج والميراث (ما سبق ، ص ١٧) أو مما أدى إليه الرأى من التمسك بالاجتهاد فى استنباط الأحكام ، وهو ما استمر عندهم بينما توقف عنه أهمل السنة منذ القرن الرابع الهجرى/ ١٠ م ،

عن الصلاة - ورغم ما يقوله ابن عذارى من أن المروذى أراد من ابن جعفر أن يتشرك معهم ويدخل فى الكفر ، فمن الواضح أن الأمر لم يكن يتطلب أكثر من القسم بالطاعة . (١٦٩) مثل محمد بن العباس الهذلى ، ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٢٦٥ . (١٧٠) انظر موسى لقبال ، دور أكتامة ، ص ٤١٨ وما يسدها - حيث قائمة حسنة بالمحتجى ، رقادى محمود اسماعيل ، المسالكية والشيعية فى إفريقيا ، المجلد الصرية ، ٢٣ ، ص ٨٨ وما بعدها حيث إضافة مخالفات أخرى ، من التمسك بما نهى عنه من شروط فى كتب الصادق (ص ٨٨ ، عن الحنفى) أو عقوبات مبتكرة (ص ٨٩) مثل القتل دون أراقه دماء القتل ، كما حدث لمحمد بن خيرى الذى أمر عبيد الله بدوسه حتى يموت « فطلع السودان فوق السرىز ، نلقزوا عليه بأرجلهم » حتى مات (وانظر رياض النفوس ، ج ٢ ، ص ٥٢ ، ٥٤ وما سبق : ص ١١٩) ، وهى المادة المعروفة عند الترك - وانظر للمؤلف ، الترك والاسلام ، مجلة عالم الفكر - الكويت ١٩٧٩ ، المجلد ١٠ العدد ٢ ، ص ٤٤٩ .

فكانت له تأثيراته المميزة في مجالات الحضارة الفاطمية المختلفة ، من التنظيم والرسوم ، الى العمارة والفنون ، وخاصة العلوم والآداب .

فالمذهب الاسماعيلي الفاطمي كان موضوعا للأدب خصص أثرى الفكر الاسلامي على وجه العموم ، حيث دارت حول الموضوعات الخلافية فيه ، وما يتعلق بأصوله في الإمامة وشرعية نظام الحكم في الاسلام ، ومما يتعلق بفروعه في الأذان والزواج وتوريث المرأة والقياس ، مناظرات حاشية ومناقشات عميقة ، استخدمت فيها كل وسائل الاقناع من : بياضة ، عقلية منطقية ، مما سبقت الإشارة اليه (ص ١٣٣) .

فقد كان موضوع الامام المهدي المعصوم ، وريث النبوة وصاحب القداسة بفضل التقمص والحلول الالهي ، من الموضوعات التي أثارت خيال الشعراء الذين شبهوه بالأنبياء وبالغوا في ذلك الى حد التأليه (ما سبق ، ص ١٢٧-١٢٨) أو الذين شبهوا المهدي ، حضرته وعقره ، بالبيت الحرام في مكة (ما سبق ص ١٠٠ وهـ ٩٥) الأمر الذي يمثل بأكورة ضرب من الأدب والشعر الفاطمي الجديد ، الذي تضحج في المنرب على يدى شاعر الخليفة المعز محمد بن هاني الأندلسي ، والذي كان له تأثيره في الأدب الديواني في البلاط العباسي حيث ظهرت المصطلحات الغالية في الكتب والرسائل الانشائية ، مما يتعلق بالقاب الخليفة وصفات إمامة المؤمنين ، بما يشبه نعوت العصمة والهداية والشرف ، مما ظهرت نماذجه أيضا عند الملوك المتغلبين ، بل وعند عمال الدولة أيضا (١٧١) . والمهم في هذا الأدب الغالي

(١٧١) انظر ادام متر ، الحضارة الاسلامية ، الفصل التاسع ، رسوم الخلافة ، ج ١ ص ٢٥٥ وما بعدها حيث أصبح شعار الخلافة اللزني الأيسر (العباسي) والأبيض (الفاطمي) في مصر (ص ٢٥٦) ، كما أصبح سيف الرسول ذو الفقار من شعارات الخلافة العباسية ، (وهو عند الفاطميين سيف الامام علي ذو الشترتين) - ص ٢٥٥ ، وانظر فيما سبق ، ص ٢٢ - حيث قتل أبي يزيد الزناتي بذي الفقار ، وفيما بعد ص ١٨٥ وهـ ٦٨ حت وحبل المنصور ذو الفقار في قتال التائر .

هذا كما حملت على رأس الخليفة العباسي شمسة الخلافة (كما المظلة عند الفاطميين في مصر - ص ٢٥٧) أما أول من أخرج في ذكر الخليفة وصفه بالحضرة المقدسة النبوية ، اختراعا جعله قرينة ، فصار سنة ، ومضى في ذلك حتى خرق العرف والعادة « فهو كاتب الخليفة القادر » (٣٨١ - ٤٢٣ هـ / ٩٩١ - ١٠٣١ م) ، (ص ٢٥٩) وانتهى الأمر بأن اتخذ الملوك المتغلبون باللقاب التقليدية أيضا ، كما فعل أمراء بني بويه الشيعة الذين اتخذوا لقب شاهنشاه وملك الملوك ، الأمر الذي أثار القاضي المسوردي (ت ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م) صاحب الأحكام السلطانية .

انه كان محصورا في دوائر المذهب الخاصة ، بصفته معرفة من طبقة علم الحقيقة الذي لا تدركه العامة الذين يعرضون لسوء فهمه والانحراف عن مقاصده ، الأمر الذي دعا المهدي الى الطلب من الدعاة ، عديم نشر المذهب بينهم (ما سبق ، ص ١٣٢) .

بقاء العامة سنينة بفضل علماء المالكية :

وهنا لنا أن نتساءل ، بصدد بقاء جمهور العامة في الأريقية سنينة بفضل علمائه المالكية خاصة ، عما اذا كان نتاج هؤلاء العلماء العلمي والثقافي تصحح نسبته الى ذلك العصر الفاطمي الذي وقفوا منه موقف الرفض والمعارضة ؟ والحقيقة انه اذا كان نتاج علماء أهل السنة في تلك الفترة المبكرة من عهد الدولة الفاطمية ، هو ثمرة غرس ترعرع في ظلال العصر الأغلبي السني ، فمن الصحيح أيضا انه في موضوع التاريخ تصحح نسبة الأحداث الى أزمانها ، تماما كما تنسب الى مواضعها ، بصرف النظر عن طبيعتها التي لا تمنع من تصنيفها موضوعيا حسب المضامين . وهكذا يمكن تقسيم النشاط الثقافي في ذلك العصر ، كما في كل عصر ، الى نتاج رسمي ينمو ويزدهر تحت مظلة السلطة ، وهسو الذي ينسب الى العصر حقا ، بصفته نتاجا شرعيا مقبولا من الدولة ، وان لم يحظ برعايتها ، فهو ملتزم أو موجه ، كما يقال الآن ، ومجاله الجهر والعلن ، والى نتاج شعبي ينمو ويزدهر في أوساط العسامة بعيدا عن السلطة ، وربما في كنف المعارضة أيضا ، فهو ما بين حر تلقائي ، ومعارض مجاله الخفاء والستر . فمن أهل البسلاط المعارضة الذين عرفوا بعلمهم وأدبهم ، يذكر أبو عبد الرحمن بكر بن حماد بن سهر بن اسماعيل ، الزناتي ، التاهرتي (ت ٢٩٦ هـ / ٩٠٨ م - عن ٩٦ سنة) الذي كان عالما بالحديث وطبقات الرجال ، كما كان شاهرا مقلقا (١٧٢) .

على أساس انه من أسماء الله ، ولو أن الماوردي نفسه حمل لقب أقضى القضاة الأمر الذي آثار حلق فقهاء بغداد وقتئذ (انظر للمؤلف ، الماوردي بين التاريخ والسياسة ، سلسلة المحاضرات العامة بجامعة الاسكندرية ، لعام ١٩٧٠ - ١٩٧١ ، طبع جامعة الاسكندرية ، ١٩٧٢ ، ص ٣٣ - استنادا الى ابن خلكان وياقوت في معجم الأدياء ، ابن خلدون ، ط : بلاق ، ج ٣ ص ٤٤٩ ، والسبكي ، ج ٣ ص ٣٠٥) .
(١٧٢) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٥٣ ، ١٥٤ - حيث الانتسار الى انه كانت له رحلة (سنة ٢٩٧ هـ / ٨٠٣ م) سمع فيها من الفقهاء وجلة العلماء ، كما مدح الخليفة المتعصم ، الأمر الذي أدخله في صراعات مع شعراء العراق وقتئذ ، مثل دعبل - انظر ص ٢٨٢ - ٢٨٣

وعن نتاج النوافدين (من أصل السنة) الذين عاصروا الأغانية
وخدموهم ، نذكر أعمال أبي اليسر إبراهيم بن محمد الشيباني البغدادي ،
المعروف بالرياضي (ت ١٦ جمادى الأولى سنة ٢٩٨ هـ / ٢٠ يناير ٩١١ م)
الذي عمل كاتباً (وزيراً) للأغالبة ثم دخل في خدمة الداعي وسار معه إلى
سجلماسة ، وظل بعده في خدمة عبيد الله المهدي كاتباً ، وإن كنا لا نعرفه
صراحة إن كان قد دخل في المذهب أم لا . وهو الأمر غير المهم — على كل
حال . فالرجل الذي عرف بـ « الرياضي » لم يكن من رجال الدين أو
الدعاة ، بل عرف بأنه كان ظريفاً أدبياً ، رسالاً ، شاعراً ، حسن التأليف ،
ورغم اتجاهاته الأدبية ، بصفته كاتباً فقد كان من بين تأليفه ما هو في
علوم الدين ، مثل : سند في الحديث ، وكتاب في القرآن سماه (شرح
الهدى) إلى جانب كتب في الأدب منها « لقيط المرجان » ، ورسالة
« الوحيدة أؤنس » و « قطب الأدب » ، وغيرها (١٧٣) . أما عن ابن جعفر
البغدادي الذي خلف أبا اليسر في الكتابة للمهدي والذي صار أول رجال
البلاط المقربين ، فقد كان محباً للأدب ، يجالس أهله وخاصة من الأندلسيين
القاصدين إلى الحج (١٧٤) .

ومثل ذلك يقال عن الفقيه أحمد بن نصر بن زياد المالكي ، صحيح
المذهب (ت ٣١٧ هـ / ٩٢٩ م) الذي سمع من محمد بن سحنون ، والذي
كان عالماً بالمنظرة ، فقد كان يتردد على مجلسه بالقيروان الأندلسيون وهم
في طريقهم إلى الحج (١٧٥) .

حيث انتفاسه في الحياة السياسية وشادقه بانتصارات موسى بن أبي المانية على الحسن ابن
أبي العيث وحلفائه من البربر ، من : زواغة ونفزة ومنيلة وجراوة . ومن شعره في ذلك :
غنى منيلة بالسيف مذلة
وسقى جراوة من نقيع المنطل
وانظر العيون والبلدائق ، ج ٤ قسم ١ ص ٢٢٢ — حيث النص على أنه ولد في سنة
٢٠١ هـ / ٨١٦ م بتاهرت ، وأنه مدح بالمشرق كثرة في الحديث وكشاعر جيد ، وقارن رياضي
النفوس للمالكي — حيث الإشارة إلى خروجه هرباً من إبراهيم بن أحمد نحو تاهرت بقله ،
ثم مرأته في ولده عبد الرحمن الذي قتل في الطريق .
(١٧٣) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٦٢ — ١٦٣ — حيث يذكر في طرفه ، ما ادعاه عند أمير
الأندلس محمد بن عبد الرحمن ، من أنه رسول أهل الشام إليه ، وإحسان الأمير إليه رغم
مرفته زيف ذلك الادعاء .
(١٧٤) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٦٣ — حيث الإشارة إلى من كان يخاطبهم من الأندلسيين
في المغرب ، ممن كان يجالسهم في الأندلس عندما دخلها أيام الأمير عبد الله .
(١٧٥) ابن عذاري — ط : بيروت ج ١ ص ٢٧٥ — حيث الإشارة إلى دخول محمد بن

ومن أهل أفريقية يذكر أبو الأسود موسى بن عبد الرحمن بن جندب ، المعروف بـ « موسى القطان » (ت ٣٠٦ هـ / ٩١٨ م) ، وهو ممن أخذ عن محمد بن سحنون (ت في نفس السنة) ، وله تأليف في أحكام القرآن في ١٢ (اثني عشر) مجلدا (جزء) (١٧٦) .

ومن أهل التمرين والعلاج الذين استخدمهم عبيد الله المهدي : زياد ابن خلقون المتطبيب ، مولى بني الأغلب (ت ٣٠٨ هـ / ٩٢٠ م) ، الذي كان عالما بالطب ، حسن الذهن فيه . ومن المهم هنا هو أنه رغم حاجة المهدي الى الرجل وتقريبه له ، فإن تلك الصلة الوثيقة بالمهدي لم تكن لتضمن له الأمن والسلامة من عدوان القائل أبي سعيد الضيف في القيروان من رقادة (١٧٧) . وفي الحساب اشتهر ابراهيم بن يونس ، مولى موسى بن نصير ، وهو المعروف « بأبن الحساب » ، و « بحارث حسبة » (ت ٣٠٨ هـ / ٩٢٠ م) ، وكانت له ولاية الحكم والقضاء بالقيروان و رقادة (ابن عذاري ، ج ١ ص ١٨٥) .

وفي الوثائق أو الشروط كان لأحمد بن زياد الفارسي (ت ٣١٩ هـ / ٩٣٢ م بالقيروان) صاحب الوثائق الذي خُصم على أيام الأغلبة كتاب للقاضي عيسى بن مسكين ، كتب معروفة في هذا الفن ، وكذلك في مواقيت الصلاة . أما عن صاحب الوثائق وقتئذ بطرابلس ، وهو عبد الله بن سلمان ، الذي كان في هذا الفن من معاوني أبي جعفر البغدادي ، فقد كان منصرفا الى عشق الفرد من الأحداث (الفتيان) مما أثار بعض كبار رجال الدولة (خليل الشيعي - ابن اسحق) فرفع الأمر الى المهدي ، « خشية من

عبد الله بن مسرة القرطبي اليه حين توجه الى الحج ، وعند الشيخ جماعة من المناطرين في المسائل ، الأمر الذي يعني أن المجلس مشهورا ، وأنه كان مباحا للواردين من أهل العلم . وإذا كان ابن عذاري يتكلم عقب ذلك عن أحداث من العصر الأغلب ، فالرأي أن يكون مجلس المناظرة هذا من العصر الفاطمي الذي كان له من العصر عشرين عاما وأكثر من قبيل التركة الأغلبية .

(١٧٦) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٨٦ - حيث الإشارة الى أنه ولي قضساء طرابلس أيام الأغلبة ، وأن الأمير ابراهيم بن أحمد سخط عليه فأنصاه عن القضاء وسجنه . وانظر رياض النفوس ، ج ٢ ص ٦٣٢ حيث يشيد بحدق ابن الحداد في المناظرات . (١٧٧) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٨٣ - حيث النص على أن المهدي كان يحذر طبيبه من دخول القيروان عندما يكون أبو سعيد الضيف هناك . وعندما تهاون زياد ، ذات يوم في الالتزام بتلك النصيحة ، تخلى عنه الضيف بمعرفة جواميسه .

شتر هذه الدولة الزاهرة وادخال العيب فيها ، كما كان الحال على أيام
الأغالبة ، حيث يذكر ابن سلمان هذا لقبيع القسول ، في رجز لابن عامر
الفراري ، منه :

نار ابن سلمان على الغزلان شبيه بدر فوق غصن بان
ما ان له في حسنه من ثاب كأنما صيغ من العقيان

(ابن عذاري ، ج ١ ، ط بيروت ص ٢٩٠ - ٢٩١) .

ندرة علماء الشيعة :

ومن استعرض وفيات العلماء ورجال الدولة ، من أصحاب التواريخ
والنشاط الثقافي لا نجد ذكرا الا لقليل ممن ينص على أنهم من الشيعة ،
فالوقت كان ما زال بعيدا عن المعز ، حيث ظهر القاضي النعمان بن محمد بن
حيون ، بمؤلفاته الغنية في المذهب من ظاهره الى باطنه ، وفي تاريخ
الدعوة ، من افتتاحها الى سير انتهائها .

وهنا لا بأس من الإشارة الى انه كان من أهل السنة من يذهب مذهب
الشيعة ، بمعنى أن التشيع هو حب العلويين من آل البيت الفاطميين ،
وعلى رأسهم الامام علي . والمثل لذلك هو أبو عبد الرحمن بكر بن حماد
الزناطي ، التاهرتي (ت ٢٩٦ هـ / ٩٠٨ م) الذي رتب الامام عليا وهجا
قاتله ، بقصيدة يعارض فيها عمران بن حطان (١٧٨) .

ومن بعد الرعيل الأول من فقهاء المذهب الفاطمي ودعاته ، مثل ،
القاضي محمد بن عمر المروزي الذي كانت له ميوله الشيعة قبل قيام
الدولة ، فكان من أوائل من دخلوا في دعوة أبي عبد الله الداعي ، ومثل
أبي العباس المخطوم ، ممن جادلوا الخصوم واستخدموا الاقناع في نشر المذهب
والدفاع عنه الى جانب الارهاب ، لا يمر بنا في وفيات العلماء والزهاد في

(١٧٨) انظر : العيون والحدائق ، ج ٤ قسم ١ ص ٢٢٢ - ٢٢٣ حيث ينسب لقب

القصيدة الى ابن الجزار ، ومنها :

قل لابن ملجم والافتار غالية	خدمت ويحك للإسلام أركانا
قتلت أفضل من يمشي على قدم	راول الناس اسلاما وإيمانا
سهر النبي الذي أهدى المالك	به نوراً أضاء به ديننا ودنيا
من كان منه على رغم الحسود له	مكان عارون من موسى بن عمران

ابن عذارى الا أسماء قلة من الشيعة ، رغم ما كانت تكتفى به الدولة من مجرد اعلان الولاء أو البيعة كشرط للدخول في المذهب ، وإن كان ذلك على يدى أحد الدعاة (انظر فيما سبق ، ص ١٢٦) . ولقد دخلت الدعوة قلة من سلالة الأمويين ، أو ممن كانوا في خدمة العباسيين أو قبلت خدمة الدولة . فكان ممن دخل منهم في الدعوة أبو الفضل محمد بن عبد السلام ، من ولد عبد الملك بن مروان (ت ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م) والسني تولى جيساية طرابلس وتونس (١٧٩) . كما يذكر محمد بن سلام بن سيار ، البرقي ، الهمداني (ت ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م) على انه كان متفهما على مذهب الشيعة ، وإن لم تذكر له مؤلفات ما (ابن عذارى ، ط بيروت ، ج ١ ص ٢٦٤) .

ما بين آداب الدنيا والدين :

ومما يسترعى الانتباه في وفيات ابن عذارى ، موت المغني البغدادي ، مولى موسى بن بقا ، فجأة ، سنة ٣١٤ هـ / ٩٢٦ م (البيان ط . بيروت ، ج ١ ص ٢٦٩) ، بمعنى وقوع العاصمة الفاطمية تحت تأثيرات الحصار العباسية في مجال الغناء والموسيقى ، تماما كما كان الحال بالنسبة لقرطبة الأمويين والأندلس ، التي كان قد نزلها تلميذ الموصل الشهير زرياب ، على عهد الأغالبة ، وبذلك كانت ثقافة بغداد من : دينية وترويحية تنتشر ، على طول طريق الحج ، ما بين الأندلس والمغرب (١٨٠) .

هكذا كانت الحياة تسير في توازن معقول ، ما بين آداب الدين وآداب الدنيا ، الأمر الذي يخفف من غلواء « الأزمة الفاطمية » عند البعض (١٨١) أو « عصر شهداء المالكية عند الآخرين » (١٨٢) . والحقيقة أن الأزمة وعصر الشهداء لا يظهرون بحده الا في تراجم أهل السنة من العلماء وبخاصة

(١٧٩) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٥٣ - حيث النص على انه توصل الى أخذ نعمته ، ومات في عذاب الشيعة ، ص ٢٦٢ .

(١٨٠) انظر فيما سبق ص ١٣٨ - عن البغداديين الذين دخلوا الأندلس قبل أن يسلموا في خدمة المهدي ، وكانت لهم مجالسهم مع حجاج الأندلس . وانظر ابن عذارى ، ط : بيروت ج ١ ص ٢٥٦ ، عن محمد بن أحمد . من ولد عثمان بن عفان (ت في تونس ٣٠٧ هـ / ٩١٩ م) الذي كان قد ملا على إبراهيم بن أحمد الأغلبى ، ودخل الأندلس مرتين .

(١٨١) انظر ج . مارسية بلاد البربر والشرق الاسلامي في العصر الوسيط « بالفرنسية » (١٨٢) موسى لثيال ، دور كتابة في تاريخ الخلافة الفاطمية ، ص ٤٢٣ - استنادا الى ابن ناجة في معالم الايمان ، وانظر فيما سبق ، ص ٩٣ .

الزهاد منهم ، من المجاهدين في الأمر بالمعروف ، طلاب الشهادة وأصحاب الكرامات .

معارضة التشيع :

فجيلة بن محمود الصديقي ، مولى عثمان بن عفان (ت ٢٩٧ هـ / ٩٠٩ م) الذي تراه عند ابن عذارى ، المؤرخ ، فقيها زاهدا نبذ الدنيا وتبرأ من تركة والده الذي كان يعمل في الجباية ، والتي بلغت ٨ (ثمانية) آلاف دينار ، يظهر عند المالكي ، الفقيه ، رابطا بقصر الطوب قرب سوسة ، وصاحب كرامات يستطيع أن يخرج الثين الأخضر (الطازج) في غير زمانه لمن يشتبهه من الصغار ، ثم أمرا بالمعروف يرفض تنفيذ أوامر القاضي المروزي الخاصة بالالتزام بتعاليم الأذان والصلاة ، ويشتم الرسول والمروزي معا . وهو قبل ذلك ، يفتن غما شديدا لخروج بعض أهل القيروان لاستقبال الداعي ، وإن كان تقية ، كما رفض ما سمعه في خطبة الجمعة بجامع القيروان مما لا يجوز ، حيث كشف رأسه ، احتجاجا ، وسار من عند المنبر في عمق المصلى الى باب الخروج على رواق الصحن ، وهو يصيح : « قطعوها قطعهم الله » . ويعلق المؤلف قائلا : « فمن حينئذ ترك العلماء حضور جمعتهم ، وهو أول من نبه على ذلك ، رضى » (١٨٣) ، وهو الأثر المباني فيه من غير شك . فيصرف النظر عن الأمر بالمعروف وعن الخوارق والكرامات ، فالمشهور عند المؤرخين أن مقاطعة الناس لصلاة الجمعة لم تبدأ الا على أيام الزيريين قبيل منتصف القرن الخامس الهجري / ١١ م ، على أيام المعز الزيرى بالقيروان ، والمستنصر الفاطمي بالقاهرة ، وإن كان ذلك بالنسبة للعامة .

تشدد المهدي والقاضي المروزي :

وفيما يتعلق بالفقيهين ابن البردون وابن هذيل اللذين قتلتهما ابن أبي خنزير بأمر أبي العباس المخطوم ، فأولهما (ابن البردون) عند المالكي ، فقيه بارع في العلم ، قوى في الجدل وإقامة الحجج على المخالفين ، كواحد من تلاميذ ابن الحداد ، يفاوض المعتزلة على عهد الأغالبة ويتعرض لعقوبة الضرب من القاضي الصديقي الذي كان يقول يخلق القرآن . أما ثانيهما (ابن هذيل) فهو زاهد يأكل من كد امرأته التي كانت تغزل الكتان ، وهي المعلومات التي تعتبر إضافة مقبولة لما عند ابن عذارى وغيره

من المؤرخين . ولكن ما يلفت النظر هنا ، هو ما يضيفه المالكي من معلومات سبب في تل من سبب الحادثة ووقعتها . فبدلا مما سبب أيهما من : التسوية بين علي وبين بقية الراشدين ، والظعن على الدولة ، الى جانب وشاية الخنفية (مما سبق ، ص ١٣٢ وهـ ٦٠) ، يضيف رواية أخسرى تقول : ان المهدي هو الذي أمر بذبحهما وانتشهر بهما ، لما رفضا القول : « انه رسول الله » ، كما أمرهم الداعي أخوه « ، وهو لذلك يغير توقيت الحديث ، فبدلا من وضعه في موضعه في صفر سنة ٢٩٧ هـ / أكتوبر ٩٠٩ م ، أثناء وجود الداعي في سجلماسة ، يضعه في سنة ٢٩٩ هـ / ٩١١ م ، أي بعد حوالي سنتين من اقامة المهدي في رقادة (١٨٤) .

وعن التاجر أبو جعفر بن خيرون الذي ورث المهدي تركته بما فيها جامعه الخاص ، بعد أن مات في العذاب لمطالبته بوديعة كبيرة ، يسعى المروزي ، يقدم المالكي تفسيراً لعذابه بطريقة لا ندرى مدى صحتها ، ان هي من عادات الترك بخاصة ، وتتلخص في موت الرجل دهسا بأرجل الحرس السوداني ، حسب أوامر المهدي (ما سبق ، ص ١٣٥ وهـ ١٧٠) . وهو عندما يعدد أعمال المروزي السيئة ، يذكر انه ترك الناس يصلون التراويح (القيام) سنة واجدة ثم انه منعهم من ذلك (رياض النفوس ، ص ٥٦) والمعروف تاريخيا انه منع التراويح عند حلول أول رمضان بالقيروان وهو الأمر المقبول ، طالما كان الداعي قد منعها ، وهو في (يكجان) (١٨٥) .

أما عن القاضي المروزي ت ٣٠٢ هـ / ٩١٤ م الذي تأتي ترجمته في « الرياض » في ثنايا ترجمة ابن خيرون الأندلسي القرطبي - فينسب إليه الكثير من البلايا ضد أهل السنة الذين أخافهم ، حتى وصفت أيامه بأنها كانت « صعبة جدا » . وهكذا كانت نهايته بسعاية ابن أبي خنزير الذي ضج من كثرة ما كان المروزي يأتي له به من العلماء والصالحين ليقتلهم . وعندئذ مكن المهدي ابن أبي خنزير منه ، فأسرع في تمزيقه ، بههدف استصفاء ماله ، قبل أن ينتهي مرفوسا (مركوزا) في بطنه في اسطنبول

(١٨٤) انظر رياض النفوس ، ج ٢ ص ٤٧ - ٥٠ ، وقارن ص ٥٥ - حيث ينسب قتلها ، في رواية ثالثة ، الى القاضي المروزي .
(١٨٥) انظر ابن عذاري ج ١ ص ١٢٧ . ط : بيروت ص ١٧٠ (في يكجان) وص ٢٠٧ (في القيروان) .

الدواب ، دون أن يراق دمه ، على الطريقة التركية (١٨٦) ، كما كان الحال بالنسبة لابن خيرون الذى كان المروزي قد سعى عليه ، بينما كان ابن أبى خنزير نهب ماله (رياض ، ص ٥٤) .

وفيما يتعلق بابى عبد الله محمد السدرى (ت ٣٠٩ هـ / ٩٢١ م) فهو عند المالكي أحمد المريدين البدلاء (رياض ، ص ١٦٦) أى الأقطاب أصحاب الكرامات والكشف ، الذين لا يقوم العالم الا بهم ، فاذا مات أحدهم حل يديله محله . وهو مناضل ضد التشيع الفاطمي ، قد يابغ على جهاد عبية الله المهدي ، وأمن من عقابه اذ كان يطلبه فلا يتمكن منه ، حيث كان الجند يفضبون عليه كما كان البريد يخطئ فيه . وهكذا فهو لا يقتل الا عندما يسلم نفسه بمحض ارادته (رياض ، ص ١٧٠ - ١٧١) . وبسبب قتله ابتلى المهدي بعلّة انتفخ فيها جسده وتفجر بالدماء . وعندما توفى لم يفتح الله على المقرئ الا بالآية التي تقول : « يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود » (سورة هود ١١ ، آية ٩٨) (١٨٧) .

ما بين التاريخ والحرفات والأساطير :

وهكذا يختلط التاريخ بالحرفات والأساطير فى سير العلماء والزهاد فى كتث التراجم خاصة ، ويصبح الوصول الى الحقيقة ، هدف البحث التاريخي ، من الصعوبة بمكان . ولكنه اذا كان من المقبول إسقاط ذلك اللون من قصص الخوارق والكرامات ، فانه ينبغي ألا يفعل المؤرخ ذلك الا بعد اعمال الفكر فيه والروية ، فعسى أن تكون لبعض الأساطير أصول تاريخية تماما ، كما يمكن أن تتحول بعض الأساطير الشعبية ، مع مرور الوقت ، الى حقائق تاريخية . وبناء على ذلك ينبغي التأني فى الحكم على مثل تلك الموضوعات الشائكة مما يتعلق بالصراع الفكرى والمذهبى ، فعادة ما تكون الحقيقة فى الوسط ما بين الطرفين . وهكذا ، عندما سنحل القضايا

(١٨٦) رياض النفوس ، ج ٢ ص ٥٤ - ٥٦ ، وما سبق ، ص ١٣٥ وهـ ١٧٠ .
(١٨٧) رياض النفوس ، ص ١٧٢ - وانظر فيما بعدها حيث يأس السدرى عبية الله بفيلظ الكلام مثل : « لو كنت أمير المؤمنين ما أمرت بسب السلف وأظهرت الحمر والقبائل (الضارب على ما تباع فى الأسواق) والراصد ٠٠٠ » وكيف خافه المسكر فهربوا ، وقتلوا مكانه رميا الى جانب روايات أسطورية أخرى خاصة بقتله بعد سجنه ، وقارن ابن حمادة ، أخبار ملوك بني عبدة ، ص ٢٦ - حيث كانت وفاته من دواه سقاء اياه ابن الجزار لعلّة تقترس كان يشكو منها .

المروزي عما جرى على يديه من امتحان محمد بن محمد بن سحنون ، وكيف لم يشفع له صلاح والده وإمامة جده ، رد الرجل الذي اشتهر بقسوته مع مخالفيه ، والذي كان قد هدد حفيد سحنون بالقتل ، ومع ذلك فقد قنع من عقوبته بـ « درات يسيرة » ، قائلا : « ضربته شفقة عليه ، خرفا أن يرفع أمره إلى السلطان » (رياض النفوس ، ص ٥٥) . وهنا يظهر الجانب الآخر من القاضي الفاطمي الذي كان يخيف أهل السنة ، فهو رقيق القلب ، حريص على سلامة المعتبرين من أهل السنة ومثل هذا ما كان يفعل المهدي تبعا للظروف ، بمعنى أن ما يسمى بالأزمة الفاطمية أو عصر شهادة المالكية ، ما هو الا تسيير عن أحوال نسبية تطرا في كل عهد وزمان ، وهو ما يؤكد استقرار التاريخ الفاطمي في تطوراته المستقبلية ، وما توضحه بشكل ملموس إنجازاته الفكرية والحضارية ، في المغرب أو صقلية ، قبل مصر والشام .

صقلية الفاطمية : على عهد المهدي :

ورث عبيد الله المهدي جزيرة صقلية بين ما ورثه من تركة الأغالبة في بلاد إفريقية ، حيث كانت قد ظهرت أسر متخصصة - وانتخصص في الحكم والإدارة عند الخاصة ، كما في الحرف والصناعات عند المامة هو ظاهرة تلك العصور المتوسطة - في حكم صقلية ، وفي الجهاد فيما وراء البحار ، سواء في الجزيرة أو كلابريا (قلورية) وإيطاليا (الأرض الكبيرة) ، تتوالى على الإمارة بشكل شبه دوري رتيب . أما عن أحوال الجزيرة على أواخر أيام الأغالبة ، بعد حوالي ٨٠ (ثمانين) سنة من الفتح . فلم تكن تثير الاطمئنان في القيروان . فالجزيرة لم تكن قد أصبحت إسلامية تماما ، إذ ظل سلطان بن زنة موجودا في المدن والقلاع على الساحل الشرقي للجزيرة ، بينما كانت الأقاليم الإسلامية منشقة على نفسها ، عرقيا ومذهبيا ، بين العرب والبربر ، على الساحل الشمالي ، وجرجنت على الساحل الغربي ، حيث قامت النزاعات بينهم بل والحروب ، مما سبقت الإشارة إليه (ج ٢ ص ٢٧٢ - ٢٧٥) ، فلم يكن يوجد بين الفريقين الا النداء للجهاد ، وهو ما لجأ إليه أمراء الأغالبة الأواخر ، من إبراهيم بن أحمد وخليفته (ج ٢ ص ٢٧٦ وما بعدها) .

والحقيقة أنه كان قد بدأ يتكون في الجزيرة عرق على صقل ، شبه بجامعة المولدين في الأندلس له طموحات في التحكم والسيادة في مقابل خبراته في الحرب والجهاد ، صناعة أهل الجزيرة بالامتياز . هكذا ولي الجزيرة بسنة ٢٩٤ هـ / ٩٠٧ م محمد بن السرقوسي ، وإن لم يدمر طويلا في الإمارة ، إذ

عزل في السنة الثمانية ٢٩٥ هـ / ١٠٨٨ م ، وحل مكانه أحمد بن أبي الحسين
ابن رباح ، سليل قواد الجزيرة ، الذي لم يكتب له البقاء طويلا في منصبه ،
فبمجرد وصول أخبار انتصار الداعي وهرب زيادة الله الى مصر ، ثار أهلها
على : أحمد بن الحسين بن رباح ، فخلعوه واختاروا للامارة بدلا منه : علي بن
أبي القوارس في رجب ٢٩٦ هـ / ١٩٠٩ م ، الأمر الذي وافق عليه الداعي
بناء على طلبهم ، شريطة أن يقوم ابن أبي القوارس بواجب الجهاد ، برا
وبحرا .

الحسن بن أبي خنزير وأهله :

وبعد أن استقر المهدي في رقادة وبدأ يعيد النظر في إدارة الدواوين
وترتيبها ، نقل الحسن بن أحمد بن أبي خنزير من ولاية القيروان التي كان
قد أقر فيها عقب عودته من سجلماسة ، الى امارة صقلية ، فكان وصوله
الى مازر يوم عيد الأضحى (١٠ ذى الحجة) سنة ٢٩٧ هـ / ٢٠ أغسطس
٩١٠ م . ولا ندرى ما اذا كان اختيار الحسن بن أبي خنزير لامارة صقلية
قد تم بناء على قاعدة وضع الرجل المناسب في المكان المناسب ، لما عرف
عنه من الشدة والحزم ، أم لأنه تم في إطار ما كان يخطط له المهدي من
تفريق أصحاب الداعي ، قبل أن ينفرد به وحده (ما سبق ، ص ٦٦)
وهو ما لا تصرح به النصوص .

والمهم أن الحسن بن أبي خنزير ، بعد أن استقر في العاصمة بلرم
حيث « الارستقراطية » العربية بدأ باقرار الأمور في الجزيرة فعين أخاه عليا
وأهله على مدينة (البربر) جرجنت ، حتى يضمن ضبط المدينتين المتنافستين
فيما بينهما ، كما أقر قاضي الجزيرة ، المعين من قبل المهدي ، وهو : اسحاق
ابن أبي المنهال ، ليمارس عمله في القضاء والدعوة (١٨٨) ، ثم انه لم يتأخر
في اتباع ما كان يرجي فيه من سياسة القوة والحسم ، في الجهاد والحكم .
فلم تطلع سنة ٢٩٨ هـ / ٩١١ م الا وكان يسير على رأس قواته الى حيث .

(١٨٨) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٤٩ - حيث النص على أنه « جعل قاضيا بصقلية ، اسحاق
ابن أبي المنهال وهو أول قاضي تولى للمهدي » . واذا كانت بداية النص يفهم منها أن ابن
أبي خنزير هو الذي عين القاضي فإن نهايته ترجع أن تعيينه كان من قبل المهدي ، كما جرى
بذلك التقليد الذي يحق استقلال السلطة القضائية عن التنفيذية . وأنظر عزيز أحمد ،
صقلية الإسلامية (بالانجليزية) أدبيته ، ١٩٧٥ ، ص ٦ - حيث الإشارة الى أنه كان على
القاضي ابن أبي المنهال أن يعلن خلافة المهدي في الخطبة قبل بلرم .

ثار النصاري في مدينة دمشق (وادي الشيطان Val Demone - عزيز أحمد ، ص ٦) ، التي تعرضت لأعمال من العنف والاحراق ، انتهت بعزته بالغنمة والسبي . ولكن تطبيق مثل تلك السياسة داخليا لم يقدر له النجاح . فبعد مدة يسيرة تار به الأحرار من الصقليين ، فخلعوه من الإمارة سنة ٢٩٩ هـ / ٩١٢ م وألقوا به في السجن ، بعد أن نهبوا داره ، وكذلك فعلوا بأخيه وبعثوا إلى المهدي يعتذرون له عما بدر منهم في حق واليه الصعب ، فقبل عذرهم ، وانتهى الأمر بأن عين لهم واليا جديدا من قبله ، هو : علي بن عمر البلوي ، الذي وصل اليهم في ذي الحجة من نفس السنة (٢٩٩ هـ / يولييه ٩١٢ م) (١٨٩) . بينما عاد ابن أبي خنيزر إلى رقادة حيث سيعهد إليه المهدي بقيادة الأسطول ، كما سوف نرى .

ابن قُرهب والدعوة للعباسيين :

وإذا كان المهدي ، عندما وقع اختياره على : علي بن عمر للولاية ، فعل ذلك لكبر سن الرجل ، وما كان يتصف به من الرقة واللين ، على عكس سلفه ، كما يظن ، فإن الصقليين المتغلبين دائما ، والمتطلعين إلى الاستقلال لم يكونوا ليرضوا بذلك ، إذ تعللوا بضعف الرجل ، فعزلوه سنة ٣٠٠ هـ / ٩١٣ م ، وعرضوا الولاية على واحد من رجال الأغلبية السابقين هو : أحمد ابن زيادة الله بن قُرهب ، الذي لم يقبل - « تكتيكيا » كما يقال الآن - «تبالغ الرواية عندما تقول انه هرب منهم ، وتواري في بعض الفسائر - كانه واحد من الصالحين الذين يخشون أن يحملوا عبء الأمانة (في الحكم) - والحقيقة أن الرجل لم يكن يريد أكثر من صدق زعماء الجزيرة فيما يعرضونه لحملته من الإمارة ، وذلك انه عندما اجتمع وجوه أهل البلد إليه ، واستألوه التآمر عليهم ، وأوتقوه من أنفسهم أنهم لا يخذلونه تولى أمرهم (١٩٠) » .

وأغلب الظن أن قبول ابن قُرهب للولاية كان مشروطا بالموافقة على قطع علاقة الجزيرة بالشيعية الفاطمية في أقرية ، على أن يستبدلوا بذلك

(١٨٩) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٥٠ وقارن ابن عذاري ، ج ١ ص ١٦٨ - حيث يضع النوبة على الحسن وأخيه علي في غير موضع (في سنة ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م) وهو تاريخ النوبة الثانية التي خلعوا فيها علي بن عمر .
(١٩٠) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٦٨ ، ط : بيروت ص ٢٢٣ - حيث يبدأ النص بأن النوبة كانت على الحسن وعلي ابن أحمد بن أبي خنيزر ، وهي رواية النوبة السابقة ، وضعت في غير موضعها كبدائية لنوبة ابن قُرهب ، كما سيأتى الإشارة في الهامش السابق .

إعلان الطاعة للخلافة العباسية . فلقد كتب ابن قرقب إلى الخليفة المقتر
ببغداد يطلب الموافقة على أن يكون تابعا له على الجزيرة نظير الدعوة له في
خطبة الجمعة . ووافق الديوان الخلافي ببغداد على ذلك وبعث إلى ابن قرقب
بالأعلام العباسية السود ، والملايس الرسمية السوداء ، كما أنعم عليه
بوسام « الطوق الذهبي » (١٩١) .

ابن قرقب مجاهدا :

وكما هي العادة ، وفي سبيل لم شمل زعماء الجزيرة حوله كان عليه
أن يبدأ عمله سنة ٢٩٩ هـ / ٩١٢ م . بالجهاد فبعث حملة صغيرة إلى كلابريا ،
عادت بالمغانم والأسرى من الروم . ثم انه في السنة التالية (٣٠٠ هـ /
٩١٣ م) سار ابنه عليا على رأس حملة لحصار قلعة طبرمين الحديثة ، وكان
هدفه كما تنص الرواية أن يجعل منها ، إذا ما ملكها ، قاعدة احتياطية له
يشبحتها بماله وعبيده وأولاده ، « فإذا رأى من أهل صقلية ما يكره امتنع
بها » (١٩٢) . ولسكن الحصار الذي طال إلى ٦ (ستة) أشهر أثار الملل في
نفوس العسكر الذين ثاروا بقائدهم ابن الوالي ، إلى حد أن « أحرقوا خيمته
وسواد عسكره ، وأرادوا قتله ، فمنعهم العرب » (ابن الأثير ج ٨ ص ٧١) ،
وجو ما يعنى أن العسكر الثائر كان من البربر من أهل جرجنت وأن ابن
قرقب كان يجاهد منذ البداية تحت شعارات الدولة العباسية السوداء .
وأن كان ذلك يثير تساؤلات عما إذا كان اضطراب العسكر البربري نوعا
من الاحتجاج على قطع ابن قرقب وقتئذ ، لصلات صقلية بأفريقية ، بلادهم
الأصلية ، ووصلها ببغداد البعيدة ، أو انه كان بتحريض من المهدي ، بمعنى
أن : شراء صداقة بعيد بعداوة قريب ، مما لا ينصح به سلامة الحس لفداحة
الثلث .

ولا بأس أن يكون ابن قرقب قد أراد أن يؤكد سياسته هذه ، وذلك
عندما تجرأ في السنة التالية ٣٠١ هـ / ٩١٤ م وشن غارات بحرية بعيدة

(١٩١) ابن عذاري ج ١ ص ١٦٨ . وقارن ابن الأثير ، الذي يجعل ذلك بعد قيام ابن
قرقب بنشأته الحرب في قنودية (كلابريا) وفي الجزيرة ، وأن لم يحدد التاريخ ، فرائنا
أن سلامة الحسن ترجع أن يكون ابن قرقب قد بدأ بالاتصال بالخلافة ، فعلا ، وأنه بدأ
بممارسة نشاطه في الحكم والجهاد قبل أن تأتيه الموافقة من بغداد ، الأمر الذي يفسر صحة
ترتيب الأحداث عند ابن الأثير بالشكل الذي أخذنا به .

(١٩٢) ابن الأثير . ج ٨ ص ٧١ .

المضى على طول السواحل الفاطمية فكانها سواحل دار الحرب فى بلاد الروم .
ففى مرسى « لص » نجحت مراتب ابن قره ب ، بقيادة ابنه محمد ، فى
مفاجأة الأسطول الفاطمى الرابض هناك بقيادة الحسن بن أحمد بن أبى خنزير ،
فاستولت عليه ، وأسرت من طاقمه ٦٠٠ رجل ، من بينهم قائده ابن أبى
خنزير ، وتبدل العقوبة التى أنزلها محمد بن قره ب بهذا الأخير ، من : ذبحه
بيديه وقطع يديه ورجليه (١٩٣) ، وهى عقوبة المفسدين فى الأرض ، بأن ثمة
انتقاما فى الأمر وثارا ، مما يرجح أن يكون للحسن يد فى تأليب بربر
جرجنت على واليهم الذى وجه أنظاره بعيدا من بلادهم نحو المشرق وبغداد .
ولم تجد محاولة المهندى الذى سار العساكر لانقاذ الأسطول الذى كان قد
تم احتراقه ، ولا للتصدى للصقليين الذين هزموهم (١٩٤) ، قبل أن يواصلوا
غارتهم على سفاقص التى خربوها ، ولو أنهم لم يستطيعوا - عندما وصلوا
الى طرابلس مواجهة ولى العهد أبى القاسم ، بقواته الكبيرة المتجهة وقتئذ ،
نحو مصر ، فمادوا من حيث أتوا ، الى قواعدهم (١٩٥) .

الاتصال بخلافة بغداد وبداية النهاية لتنظيم ابن قره ب :

ولا بأس أن يكون ابن قره ب قد أخبر بغداد بما حققه من انتصارات
على الفاطميين فهذا ما يقصر وصول الخلع السود والألوية اليه من الخليفة
المقتدر (ابن الأثير ، ج ٨ ص ٧١) . ومن الطبيعى أن يكون قد عمل على
تأكيد تفوقه البحرى بغارات جديدة على جنوب إيطاليا وسواحل أفريقية .
فابن الأثير يشير الى أنه أخرج قوات برية (جيشا) محمولة فى البحر الى
كلابريا (قلورية) ويقول انها غنمت وخربت وعادت - كما حدث فى أول
ولايته ، دون أن يحدد التاريخ (١٩٦) . وهنا يكون اللجوء الى رواية تاريخ

(١٩٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٧١ حيث الإشارة الى انه أحرق الأسطول جميعا ، بمعنى
أن الحريق كان قصدا ، ولم يكن صدفة أو عملا حربيا غير مقصود لذاته . وقارن ابن الأثير
ج ٨ ص ٧١ - حيث النص على إحراق الأسطول ، وقتل الحسن وحمل رأسه (الى صقلية)
وقارن المكتبة الصقلية لأمارى ، ج ١ ، الباب ٢٧ : تاريخ جزيرة صقلية من حين دخلها
المسلمون حسب تاريخ العالم . المعروف بخطوط كامبريدج ، ص ١٦٨ - حيث النص على
خروج مراتب ابن قره ب فى ٩ يولييه (سنة ٦٤٢٢ من تاريخ العالم) وعلى أن إحراق مراكب
أفريقية وقتل ابن أبى خنزير كان فى ١٨ منه (يولييه) .

(١٩٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٧١ .

(١٩٥) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٧١ .

(١٩٦) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٧٢ - وهنا يمكن الظن أن تلك الحملة - بسبب غياب

صفليه (حسب تاريخ العالم) الذي يحدد جملة إخراجيت من صفليه بن اول
سبتمبر (سبتمبر) من السنة اسليه لاجراي الاسطول انطاطمي وقتل
ابن أبي حنزيير ، وهي سنة ٣٠٢ هـ / ١٥ - ١٦ م . وينص على أن وجهتها
كانت « جلزيانا » ، ونقنها انتهت باهلاك في البحر غربا (١٦١) . وتبع سوء
الطالع هذا فشل أسطول ابن قرهب في محاوله جديدة ضد الأراضي العاطمية
اذ نصلى له أسطول المهدي ونجح في اسر مراكبه ، فكان ذلك بداية للنهايه
بالنسبة لنظام ابن قرهب في صفليه ، اذ « طمع فيه الناس ، وكانوا
يتخافونه » . وكان الخارجون عليه ، بطبيعة الحال ، هم : بربر جرجنت
الذين بدأوا الاتصال بالمهدي أو عاودوا ذلك ، الأمر الذي كان يمكن أن
يؤدي الى حرب أهليه (فتنة) بين العرب والبربر ، لولا ، أن أهل الرأي في
الجزيرة ، وجدوا أنه من المصلحة العوده الى طاعة القيوان ، فراسلوا المهدي
سرا (١٦٨) . وهنا استحسن ابن قرهب استخدام سياسة المدايرة مع خصومه ،

فذكرهم بعهدهم له ، وعندما تيقن من عدم استجابتهم ، قرر ترك الجزيرة
واللجوء الى الأندلس . وفعلوا أكثرى عددا من المراكب وشحنها بما كان عنده
من المال والمتاع ، ولكن خصومه حالوا بينه وبين الهرب ، فهاجموا على المراكب
ونهبوا ما كان فيها ، كما قبضوا عليه وعلى ابنه محمد : قائد الأسطول على
ما نقلن - وكذلك على قاضيه المعروف بابن الحامي ، وذلك في سنة ٣٠٣ هـ /
٩١٥ م . ويعتوهم في ١٤ يوليو / ٢٨ ذي الحجة - مقيدين الى سوسة التي
وصلوها في المحرم من سنة ٣٠٤ هـ / ٩١٦ م . وكان انتقام المهدي الذي كان
في انتظارهم مروعا ، اذ أنزل بهم عقوبة القتل وتقطيع الأيدي والأرجل ،
على قبر الحسن بن أبي حنزيير بباب سالم ، من أبواب القيوان - حيث شجر

التاريخ - ربما كانت تكرارا لحقة كلابريا الأولى (ما سبق ص ١٤٨ و١٩٢) ولكنه من المقبول
أن يتم الصفليون بصرف النظر عن واليهم - بحملاتهم الدورية في البحر من أجل الخفاف ،
ما أصبح بالنسبة لهم بعضا من نشاطهم اليومي .

(١٩٧) أماري ، المكتبة الصفلية ، ج ١ ص ١٦٨ - حيث تحفيد السنة بـ ٦٤٢٣ -
حسب تاريخ العالم ، وانظر عزيز أحمد ، صفلية الاسلاميه (بالانجليزية) ، ص ٧ - حيث
النص على أنه رغم تحطم القوة البحرية الصفلية ، فإن القائد البيزنطي في كلابريا ، وهو
أوستاثيوس ، وافق على دفع الجزية - هذا ولو أن المرجح في ذلك ، وهو ج . جاي .
(J. Gay) يشير الى أن ذلك كان سياسة مائية جسيمة انتهجها بعض القواد
البيزنطيين ، ولو أنه يقترح أكثر من تاريخ لذلك ما بين سنة ٩١٥ وسنة ٩١٨ . انظر فيما
بعد ، ص ١٥٤ .

(١٩٨) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٧٢ ، ابن عذاري ، ج ١ ص ١٧٤ .

بهم صليبا (١٩٩) .

« الاتصال بالمهدي » وتعيين أبي سعيد « الضيف » واليا :

على عكس ما كان يظنه عقلاء الزعماء من رجاء مظنة السلام القاطمى بدلا من الفتنة العباسية ، فالظاهر أن روح اخلاف المتأصلة نى نفوس الصقليين ، ان لم تكن روح ابن قرقب التى ذهبت ضحية الفرقة فيما بينهم ، قد حادت بهم عن الطريق السليم . وذلك أنهم كتبوا الى المهدي يطلبون منه أن يرسل لهم « عاملا (واليا) وقائما » فقط . لأنهم « لا يحتاجون الى رجال ولا مدد » (٢٠٠) - فكأنهم ما زالوا مصرين على الاستقلال عن القيروان ، بالأمر الواقع ، بمعنى أن تكون طاعتهم للدولة نوعا من الولاية التى لا طائل وراءها . وهنا تكون قد لحقت بهم لعنة ابن قرقب حقا ، حيث تذكر المهدي مقاتله له فيهم ، وهى : ان أهل صقلية يكثرون الشغب على أمرائهم ، ولا يطيعونهم ، وينهبون أموالهم ، ولا يؤول ذلك الا بعسكر يقهرهم ويزيل الرئاسة عن رؤسائهم (٢٠١) . وهكذا عهد عبيد الله المهدي بأمانة صقلية الى واحد من مشاهير القضاة من رجاله وهو : أبو سعيد موسى بن أحمد المشهور بالضيف ، وأخرجه مع كثير من شيوخ كتابة على رأس الجيوش والأساطيل ، التى أرسيت بمينا طرابلس في ١٥ أغسطس (أوت) من نفس السنة ٣٠٤هـ / ١٩ صفر ٩١٦م ، وفي ٢٨ من سبتمبر / ٣٠٤هـ ١٦ ربيع كانت قواته تدخل العاصمة بلرم برا ، كما دخلها الأسطول بحرا (٢٠٢) .

(١٩٩) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٧٤ - وقارن ابن الأثير ، ج ٨ ص ٧ - حيث تضطرب الرواية بعض الشئ ، كما تصد الثورة على ابن قرقب - سنة ٣٠٠هـ / ٩١٢م ، بدلا من سنة ٣٠٣هـ / ٩١٥م ، وقارن المكتبة الصقلية ، ج ١ الباب ٢٧ ، تاريخ صقلية حسب تاريخ العالم من ١٦٨ - ١٦٩ - حيث النص على أنه في ١٤ يوليو سنة ٦٤٢٤ عزلوا الصقليون ابن قرقب ونفيه الى أفريقية ، ومات بها هو وولده .

(٢٠٠) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٧٤ .

(٢٠١) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٧٢ ، وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ١٧٤ - حيث النص على ان المهدي استقبل بن قرقب لئسأله عن سبب خلافه ، فقال له : « أمل صقلية راكوى وأنا كاره وخلصنى وأنا كاره » .

(٢٠٢) انظر ابن الأثير ، ج ٨ ص ٧٢ ، والمكتبة الصقلية لأمازى ج ١ فصل ٢٧ - تاريخ صقلية (حسب تاريخ العالم) ، ص ١٦٩ - حيث النص على أنه في ١٥ أغسطس ٦٤٢٤ اتا أبو سعيد الضيف الى صقلية بعسكر كبير ، وأنه في ٢٨ سبتمبر دخل بلرم .

ضرب المقاومة الصقلية ودخول بلرم :

وكان وصول القوات الفاطمية هذا ، بمثابة انذار بالخطر لكل أهل الجزيرة ، بصرف النظر عن اختلافاتهم العرقية أو المذهبية . فلم يأت ١٧ أكتوبر ٩٦٠م / ١٨ ربيع حتى قامت قائمة الصقليين جميعاً ضده ، إذ تحالف ضد أبي سعيد الضيف كل من يربر جرجنت وعرب بلرم (المدينة) بل ونصارى الجزيرة الذين تقوى بهم الثوار أيضاً (٢٠٣) ، وضربوا عليه الحصار . وتمكن أبو سعيد من كسر نطاق ذلك الحصار البرى بفضل السور الذى أحاط به قواته فكان يمكنه من السيطرة على المرسى (٢٠٤) . والمهم أن القتال انتهى بتراجع الثوار الى المدينة (بلرم) تتبعهم قوات أبي سعيد التى حاصرتهم برا وبحرا ل ٦ (ستة) شهور وقتلت عددا من رؤوسائهم وأسرت منهم آخرين ، وقامت المدينة من الجوع والغلاء حتى بلغ سعر الملح فيها : « أوقية بخروبتين » (٢٠٥) ، كما قاست ضواحي المدينة من ذلك الحصار الطويل حيث راح كثير من النساء والصغار ضحية عبت الكتامييت بهم . والظاهر أن أبا سعيد الضيف انتهز الفرصة وكتب الى المهدي بأخبار ما حققه من الانتصارات ، وطلب المزيد من المعونة والامدادات لكسر شوكة العصاة نهائيا . وعندما وصلت المراكب الحربية عليها الأعداد الوفيرة من الرجال ، انتهى الأمر بطلب الأمان على أن يقدم المسئولون عما وقع فى المدينة من الأحداث . وبذلك دخلت العساكر بلرم وتسلم أبو سعيد الضيف المدينة فى ١٢ مارس / ٢٥ رمضان (٢٠٦) .

(٢٠٣) أنظر المكتبة الصقلية ، ج ١ فصل ٢٧ تاريخ صقلية - حسب تاريخ العالم ، ص ١٦٩ .

(٢٠٤) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٧٢ .

(٢٠٥) أنظر المكتبة الصقلية ، ج ١ فصل ٢٧ تاريخ صقلية - حسب تاريخ العالم ، ص ١٦٩ .

(٢٠٦) أنظر ابن الأثير ، ج ٨ ص ٧٢ - ٧٣ ، وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ١٧٤ - حيث يلخص كل من المؤرخين الأحداث ذات المصدر الواحد ، كما نرى دون تواريف وبشكل يوحى بأنها وقعت متزامنة فى وقت واحد . ولكن المقارنة بين النصين تساعد على التفرقة بين الأحداث تبعاً لتسلسل وقوعها المنطقي ، وقارن البيروني والمذائق ، ج ٤ قسم ١ ، ص ٣٦٩ وحده ١ - حيث الإشارة الى انتهاء نقل المؤلف من كامل ابن الأثير وبيان ابن عذارى . أما عن تاريخ صقلية حسب تاريخ العالم المكتبة الصقلية لأمارى ، ج ١ فصل ٢٧ ، ص ١٦٩ . فله الفضل فى ترتيب الأحداث ترتيباً دقيقاً حسب السنوات حسب تاريخ العالم . حيث وصول الضيف الى صقلية فى ١٥ أغسطس سنة ٩٤٢٤ وعودته الى أفريقية فى سبتمبر سنة ٩٤٣٦ .

وكانت فرصة اغتنامها الضيف وقرر أن يكون الاستلام شاملا ، وإلى الأبد ، كما تصور ، فجعل من يلزم مدينة « مفتوحة » ، كما يقال ، فهدم سورها وجرد أهلها من الخيل والسلاح ، ثم أنه فرض عليهم غرامة مالية ثقيلة ، تتناسب مع ثقل وزرهم على ما نظن ، وإن لم يعرف ثمنها . أما عن اعتقالهم ضمن يشك في ولائهم أو خطورة وجودهم في الجزيرة ، فقد بحث بهم إلى المهدي ، ولكن ظروف البحر لم تسمح لهم بالوصول سالمين (٢٠٧) .

ولاية سالم بن راشد :

وعندما أتى كتاب المهدي يأمر أبا سعيد الضيف ، بالعبء عن العامة (٢٠٨) ، كان ذلك يعني أن الأمور قد هدأت تماما في صقلية وأن الهيمنة الفاطمية على الجزيرة قد أصبحت كاملة ، وهكذا عهد أبو سعيد بولاية الجزيرة إلى : سالم بن راشد ، وترك معه حامية كتامية ، وانصرف هو عائدا في شهر سبتمبر / ربيع الأول إلى القيروان .

والهم في ولاية سالم بن راشد هذه أنها طالت إلى أكثر من ٢٠ (عشرين) سنة إلى ما بعد وفاة المهدي (سنة ٣٢٢هـ / ٩٣٤م) وولاية القائم الذي أقروا في الإمارة إلى أن انتهى أمره بشكل غامض خلال الاضطرابات التي ألمت بالجزيرة اعتبارا من سنة ٣٢٥هـ / ٩٣٧م والتي استمرت لسنوات طويلة . وعلى عكس سنوات الاضطراب التي ختمت عهد سالم ، تلاحظ أن الحواريات المغربية في كل من ابن عذارى وابن الأثير وهي أخصبها ، تكاد تغفل أحوال صقلية خلال أيامه الطويلة ، باستثناء النص على بعض الأعمال الحربية فيما وراء البحار ، في كل من : كلابريا وأرض إيطاليا ، أو الهدنة مع نصارى الجزيرة ، مثلا .

العلاقات مع كلابريا وجناب إيطاليا :

وهنا لا بأس من التساؤل عما إذا كان ذلك يعني استتباب الهدوء

(٢٠٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٧٤ - حيث النص على أنه بحث بين أخذ منهم إلى مبيد الله في حراكب ، فانكفأ بهم البحر . وقارن ابن الأثير ، ج ٨ ص ٧٣ - حيث النص على أنه أمن أهل المدينة الا رجلين هما آكارا الفتنة ، فرفضوا بذلك ، وتسلم الرجلين ، وسرحهما إلى المهدي بأفريقية .

(٢٠٨) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٧٣ .

والسكنية ، بمعنى حياة خير والرخاء ، في الجزيرة وسيادة الامن وا
 مسخ الروم (البيزنطيين) في كلابريا والامارات الإيطالية المختلفة
 نابوي وساليرنو الى جرجانتو وجاينته وغيرها (انظر شكل ٢ ص ١٥٥) .
 أنه يمكن ان يفهم من المصادر الرومية ، ومنها ما هو مذكور باللغة الم
 مثل : تاريخ صقلية حسب تاريخ العالم (١٠٩) . ان كبار القادة وال
 في كلابريا ، وفي جنوب إيطاليا — مثل : أوستاثيوس (Osthios)
 وموزالون (Muzalon) لانوا قد عملوا وقتلوا على اقامة نوع من
 المعاشة او حسن الجوار مع العرب الغزاة ، طالما عجزوا عن ردعهم
 الأمر الذي يتلخص في تحويل الفدية التي كانوا يدفعونها الى نو
 الضريبة المنتظمة (٢١٠) . وهكذا فان القائد أوستاثيوس الذي كان
 للامبراطور وافق على أن يدفع ضريبة قدرها ٢٢ (اثنين وعشرين) ألف
 ذهبية وذلك حوالي سنة ٩١٥ هـ / ٩١٦ م / ٣٠٣ / ٣٠٤ هـ . وهو ال
 الذي يحدده أماري ، على أيام ابن قزح ، او ما بين سنتي ٩١٧ — ١٨
 على عهد سالم ابن راشد ، كما يقترح ج . جاي (٢١١) . كما اضطر
 القائد أوستاثيوس ، وهو البطريق : جان موزالون الى زيادة الضرا
 لكي يوفى بتعهداته المالية الى العرب ، الأمر الذي أدى الى الثورة
 وقتله فيما بين سنة ٩٢٠ هـ / ٣٠٨ هـ وسنة ٩٢٢ م / ٣١٠ هـ ، وهي الس
 التي كانت فيها بلاد اللومبارد وكلابريا مسرحا لجلوات أساطيل
 والمهدية .

وبناء على ذلك فلا بأس أن تكون سياسة شراء السلم هذه
 استمرت على أيام سالم بن راشد ، الأمر الذي تؤيده الحملات التي كانت
 من المهديّة مباشرة الى إيطاليا وأغلب الظن أن المهدي لم يكن ليستفيد

(٢٠٩) مخطوط كابرديج ، في المكتبة الصقلية لأماري ، ج ١ فصل ٢٧ . ص ٦٦

(٢١٠) ج . جاي ، إيطاليا الجنوبية . . (بالفرنسية) ، ص ٢٠٢ .

(٢١١) والمحققة ان ج . جاي ، مرجعنا في ذلك ، يقترح لتلك المعاهدة سنة ٩١٧ .
 ٣٠٥ هـ اعتمادا على المؤرخ اليوناني سكيليتزس (Skylitzes) عند تناوله للحرب مع البر
 التي دفعت الى ذلك الاتفاق ، وان كان يرجع ، فيما للتسلسل المنطقي للأحداث ، سنة ١٨
 ٣٠٢ هـ التالية ، أي بعد التهام دير ونهبها ، حسب تاريخ صقلية بالنسبة الى تاريخ العا
 ج ١ ص ١٦٩ . انظر ج . جاي (J. Gay) إيطاليا الجنوبية والامبراطورية البيزنطية . . .
 باريس ، ١٩٠٤ ، ص ٢٠٢ — وفيما سبق ، ص ١٤٩ وما ١٩٧ .

أما عن السياسة التي اتبعها سالم في صقلية فنجدها فقد هدفت الى تهدئة الأوضاع في الجانب المسيحي الرومى ، الذى كان قد تقوى بفضل الاضطرابات الداخلية . فلقد عقد سالم هدنة مع أهل طبرمين وسائر القلاع المجاورة لها على الشاطئ الشرقى للجزيرة ، وذلك فى أواخر السنة التالية (ديسمبر ٩١٨م / رجب ٣٠٦هـ) . والظاهر أن الهدف من مهادنة نصارى الجزيرة كان تهينة الظروف المناسبة لنقل الحرب الى الشاطئ الآخر فى جنوب إيطاليا . وإن كان ذلك لم يحدث - فى ضوء ما لدينا من الوثائق - إلا بعد ٥ (خمس) سنوات .

فلقد كانت مدينة (شنت أغاثى) (St. Agathe) المجاورة لريو (جى ، ص ٢٠٦) هدفا لغارة بحرية قامت بها (٢٠٠) عشرون مركبا من نوع الشينى ، بقيادة مسعود الفتى (الصقليى) ، اجتاحت المدينة وعادت الى المهديّة بالغنائم والسبي ، وذلك سنة ٣١٠هـ / ٩٢٢م (٢١٤) .

أما عن حملة سنة ٣١٢هـ / ٩٢٤م التي استهدفت أيضا غزو بلاد الروم والتي كانت قيادتها الى الحاجب ، الوزير ، جعفر بن عبيد ، فالظاهر أنها خرجت فى وقت غير مناسب من أواخر الصيف وبداية الحريف ، وذلك أن الأسطول الخلفى اكتفى بقضاء الشتاء فى صقلية وعاد - عندما تحسنت الأحوال الجوية - دون لقاء العدو (٢١٥) .

حملات على جنوب إيطاليا :

وعوضا عن تلك الحملة التي أجهضت لسبب أو لآخر ، كان جنوب إيطاليا هدفا لالحملة مزدوجة فى السنة التالية ٣١٣هـ / ٩٢٥م ، من جانب

(٢٢٣) المكتبة الصقلية تاريخ صقلية حسب تاريخ العالم ج ١ ص ١٦٦ .
(٢١٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٨٨ ، ط : بيروت ص ٢٦٤ ، وقارن المكتبة الصقلية ، ج ١ ص ١٦٩ حيث النص على أن شنت أغاثى هي مجموعة من القلاع ، وقارن ، ج ١ ص ٢٠٦ - حيث الإشارة الى أنه اعتبارا من تلك السنة (٩٢٢م) بدأ ظهور عصابات البلغار فى كامباني ، ولكن الخطر الأعظم من ذلك كان يتمثل وقتئذ فى حلفاء جدد للمسلمين هم صقلية البحر الأدرياتي ، الذى دخل كثير منهم فى خدمة المهدي (كخدي يتربون فى كتف الخلافة قبل أن يصل بعضهم الى المراكز القيادية) .
(٢١٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٨٩ ، ط : بيروت ، ص ٢٦٦ ، وقارن المكتبة الصقلية ، تاريخ صقلية حسب تاريخ العالم ، ص ١٦٩ - ١٧٠ - حيث النص على أن جعفرا الحاجب أخذ برمصانه ؟

أسطول صقلية بقيادة الأمير سالم بن راشد ، وأسطول المهدي بقيادة الحاجب (أبو أحمد) جعفر بن عبيد . ورغم ما توحى به رواية ابن الأثير من التنسيق بين الأسطولين ، فمن الواضح أن كلا منهما سار في وجهة خاصة به . فبعد أن اتجه جيش بلرم إلى بلاد اللومبارد (أنكبردة) حيث تحقق فتح مدينتي : الب « غيران » وأبرجه « وتم الحصول على مغنم وفيرة ، عاد جنوبا نحو كلابريا ومدينة « طارنت » التي حوصرت وفتحت عنوة في شهر رمضان / نوفمبر ، ومنها عرجت القوات الصقلية على مدينة « إدونت » التي حوصرت ولكنه لم يمكن اجتياحها ، فاكتمل بتخريب منازلها . وكان ذلك الفشل نذير سوء للحملة ، حيث عصف الوباء بالرجال واضطهرهم إلى العودة من حيث أتوا (ابن الأثير ، ج ٨ ص ١٥٩) .

اجتياح أوربة :

أما عن حملة أسطول المهدي بقيادة الحاجب جعفر ، فقد اتخذت مساراً آخر إذ نزلت قرب طارنت ، وحقت انتصارات كثيرة ، كان المعيا : التقدم نحو مدينة أوربة (Oria) واجتياحها بعنف أسفر عن مقتل ٦ (ستة) آلاف رجل من محاربيها ، وسبى ١٠ (عشرة) آلاف من نسائها . وكان من بين الأسرى بطريق بلدة مجاورة دفع خمسة آلاف دينار كفدية عن نفسه وصلاح عن مدينته . وكان على القائد الحاجب ، وهو في طريقه إلى صقلية ، عبر كلابريا أن يهادن أهلها ، على دفع « الجزية » من غير شك ، إذ أخذ منهم رهينتين من أكبر أعيان الناس هما : « لاوه » أسقف صقلية ووالى قلورية (كلابريا) . وذلك قبل أن يسير إلى صقلية ليصلح من شأنه ، ويخبر المهدي بانجازاته ، قبل الرجوع إلى المهدي في ٢٦ من ربيع الآخر . ليقدّم الحساب عما حصل عليه من المغنم (٢٦٦) التي استقلها المهدي — رغم كثرتها

(٢٦٦) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٩٠ وط . بيروت ، ص ٢٦٧ (حيث الاسم وادى بدلا من أوربة) ، تاريخ صقلية حسب تاريخ العالم ، المكتبة الصقلية لأماري ، ج ١ ص ١٧٠ وقارن ج . جاي (J. Gay) إيطاليا الجنوبية ص ٢٠٧ — حيث الإشارة إلى أن أوربة (وادى عند ابن عذاري ، وأوره في المكتبة الصقلية) كانت مدينة آهلة بالسكان فيها جالية يهودية كبيرة ، وأنه كان من بين الأسرى العالم اليهودي شيمطاي الذي انتفى بعد عدة أشهر في طارنت . ولا بأس أن يكون المقصود بالبطريق قائد البلدة المجاورة ، كما في نص ابن عذاري هو (رئيس من اليهود) الذي صالح عن نفسه وعن مدينته ، وأن كان « جاي » يأخذ برواية أماري التي يرى فيها أن يكون صلح البطريق وبلدته هو صلح أوربة نفسها ، الذي صدق عليه المهدي بعد أن وعده الامبراطور رومان لسكابين (Lécapène) بأن يدفع قائد كلابريا الجزية بانتظام .

وارتفاع قيمتها - فبإل ان حاجبه القائد لم يعطه من « الجيول الا اذنيه »
(ما سبق ص ١٢٠) . أما عن سنة ٣١٤ هـ / ٩٢٦ م ، فتتص رواية صقلية
حسب تاريخ العالم ، على أنه أتى من قبل الحكومة المركزية بالمهدية ، شيخان
هما البليزمي والقلشاني - بصحية سالم ، وأنهم جباوا ضريبة من أهل
صقلية ، دون إشارة الى نوعها أو مقدارها أو سبب فرضها (٢١٧) .

حملات صابر الفتى :

ورغم الهدنة التي عقدت في سنة ٣١٣ هـ / ٩٢٥ م ، فسرعان ما يقوم
والى القيروان ، وهو صابر الفتى « الصقلبي » ، المولى السابق لابن قره صاب
(ابن عذارى ، ط : بيروت ، ص ٢٦٩ - سنة ١١٤) بثلاث حملات دورية
يغزو فيها بلد الروم : جنوب ايطاليا . وأولى تلك الحملات ، وهي التي
قامت في سنة ٣١٥ هـ / ٩٢٧ م ، وحوث ٤٤ (أربعة وأربعين) مركبا ،
سارت الى صقلية ، ومنها الى جنوب ايطاليا حيث فتحت عددا من المواضع
أحدها ربما كان « أوترنتوه » (Otrante) وذلك في ١٧ أغسطس (٢١٨)
والحملة الثانية لصابر الفتى كانت في السنة التالية ٣١٦ هـ / ٩٢٨ م ،
وهدفتها السواحل التيرانية من جنوب ايطاليا ، حيث هاجمت موضع القيروان
وقلعة الحسب ، واستولت على ما فيها ، قبل الزحف الى ساليرنو التي صالحه
أهلها على فدية من مال وديباج ، ثم الزحف الى نابولي حيث تم الصلح على
نفس الشروط (٢١٩) . وقبل العودة من صابر بكالابريا حيث عقدت معه
هدنة لمدة سنة واحدة - نظير مبلغ من المال من غير شك (٢٢٠) . وفي حملة

(٢١٧) المكتبة الصقلية ، ج ١ فصل ٢٧ ص ١٧٠ .

(٢١٨) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٩٠ ط : بيروت ، ص ٢٧٠ ، وقارن ، المكتبة الصقلية ،
تاريخ صقلية حسب تاريخ العالم ، ص ١٧٠ - حيث تحديد التاريخ وقراءة صابر في شكل
صاين ، وهو ما أخذ به ج . جاري الذي جعل عدد المراكب ٥٠ (خمسين) ، وأنها حاصرت
طارنت واقتحمها وقتلت جزءا من الحامية ، وأرسلت الباقي الى افريقية ، وذلك قبل مهاجمة
أوترنتوه ، وان العرب انسحبوا عندما حل بهم الوباء - ايطاليا الجنوبية والامبراطورية
البيزنطية ٢٠٠ ، ص ٢٠٨ .

(٢١٩) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٩٢ ، ط : بيروت ، ص ٢٧٣ ، وقارن المكتبة الصقلية ،
تاريخ صقلية حسب تاريخ العالم ، ج ١ ص ٨٧٠ - حيث الإشارة الى عبور الصقلبي (صابر)
الى لانكيدوه (لومبارديا) حيث أخذ سببا كثيرا ، ولم يحكم على مدينة ، وقارن ، ج . جاري
جنوب ايطاليا ، ص ٢٠٨ .

(٢٢٠) المكتبة الصقلية ، تاريخ صقلية ٠٠ ، ج ١ ص ١٧٠ ، وانظر ، ج . جاري ،
ايطاليا الجنوبية ، ص ٢١٨ - حيث النص على أن فرغن الفرائب كان على ساليرنو ونابولي .

صاير الثالثة في السنة التالية (٣١٧ هـ / ٩٢٩ م) ، والتي كانت أشبه بغارة صغيرة تقوم بها ٤ (أربعة) مراكب ، مما جعل ج . جاي يصف والى انقروان اصطليبي بالقرصان ، على ما نظن ، تقدم صاير الى البحر الأدرياتي ونجح بمراكبه الاربعة في هزيمة مراكب الروم السبعة التي كان يقودها حاكم كلايريا القائد الذي يحمل لقب سرد غوس (Stratège) ، لكي يتوغل بعد ذلك الى ما وراء جرجانتو (Garganto) ويقتحم مدينة ترمولة (Termoli) التي أخذ منها الكثير من السبي ثم عاد الى المهدي (٢٢١) .

جباية الضرائب في صقلية :

اما اهم أحداث صقلية على أواخر أيام المهدي ، فيذكر منها صاحب تاريخ صقلية حسب تاريخ العالم ، ما وقع على كاهل أهل الجزيرة ، سنة ٣١٩ هـ / ٩٣١ م ، من الضرائب الثقيلة . حيث قدم من المهدي شيخان ، مثلما حدث في سنة ٣١٤ هـ / ٩٢٦ م (ما سبق ، ص ١٥٨) هما : ابن سلمة وابن الدية ، وقام سالم بن راشد باصطحابها في جولة جمعا فيها مالا كثيرا ، أزهق الناس من غير شك ، وأثار شكواهم . وهو ما يظهر في السنة التالية (٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م) عند عودة الجايين الى أفريقية ، حيث النص على أن أمير المؤمنين (المهدي) سخط عليهما (٢٢٢) ، تماما كما كان يحدث من قبل في برقة وغيرها (ما سبق ص ١١٨) . وهذا ما تختتم به الحوليات الصقلية حسب تاريخ العالم ، قبل وفاة المهدي في سنة ٦٤٤٢ من تاريخ العالم ، الموافق ٣ مارس (٩٣٤ م / ١٢ ربيع الأول سنة ٣٢٢ هـ) التي وصل خبرها الى صقلية في ٢٥ أغسطس مع اعلان خلافة ابنه أبي القاسم بعده (٢٢٣) .

والهم في تاريخ صقلية وجنوب إيطاليا على عهد القائم انه بدأ قويا بحملة ناجحة خرجت من دار الخلافة ، في نفس سنة ولايته : ٣٢٢ هـ / ٩٣٤ م ، الى مدينة جنوة فاجتاحتها ، فكانت بمثابة هدية عزيزة على قلوب رعيته يقدمها بمناسبة عيد جلوسه .

(٢٢١) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٦٣ ، ط : بيروت ، ص ٢٧٥ ، وقاون المكتبة الصقلية ،

ج ١ ص ١٧٠ حيث يقدر عدد السيايا ب ١٢ (اثني عشر) ألفا .

(٢٢٢) المكتبة الصقلية ، ج ١ ص ١٧٠ .

(٢٢٣) المكتبة الصقلية ، ج ١ ص ٧٠ .

الفصل الثاني

الفاطميون في المغرب من وفاة المهدي حتى النقلة إلى مصر :

- القاسم (أبو القاسم محمد : ٣٢٢ - ٣٣٤ هـ / ٩٣٤ - ٩٤٥ م)
- المنصور (أبو الطاهر اسماعيل : ٣٣٤ - ٣٤١ هـ / ٩٤٥ - ٩٥٢ م)
- المعز (أبو تميم محمد : ٣٤١ - ٣٦٢ هـ / ٩٥٢ - ٩٧٢ م)

تمهيد :

توفي المهدي في منتصف ربيع الأول سنة ٣٢٢ هـ / ٥ مارس ٩٣٤ م^(١). بعد خلافة ناهزت ربع قرن قضاها في تكثير الأولياء بنشر المذهب ، والقضاء على الأعداء بحشد الجيوش وانفا الأموال ، وعلى الجملة باستخدام سياسة الترغيب والترهيب ، الأمر الذي انتهى بتوطيد أركان دولة الفاطميين الشرقاء في كل أرجاء المغرب ، مع طرق أبواب كل من مصر وإيطاليا ، عن طريق

(١) هذا ما يتفق عليه معظم الكتاب باستثناء رواية القاضي النعمان في افتتاح الدعوة (ص ٣٢٩) حيث تاريخ الوفاة ١٠ من جمادى الثاني / ٢٩ مايو ٩٣٤ م . ومع أننا لا ننازع محقق الكتاب فيما يراه من أن هذا هو التاريخ المضيوب (لكافة النعمان ، بصقته أحد كبار رجال الدولة ، إذ قضى ٩ (تسع) سنوات في خدمة المهدي (المجالس والمسائرات ص ٧ وما بعدها) قبل أن يدخل في خدمة القاسم ثم المنصور والنز إلى وفاته سنة ٣٦٢ هـ / ٩٧٤ م بالقاهرة ، فإننا نقبل الايقاع على التوقيت الدارج إلى أن نتأكد صحة الرواية الواجدة أن كانت صحيحة ، إلا إذا كانت الروايتان صحيحتين بمعنى أنه كانت للقاسم الذي يبيع في نفس اليوم الذي مات فيه والده ، بيمتان : أولاهما سرية خاصة ، والأخرى علنية عامة ، خاصة وأن بعض الروايات تشير إلى أنه كتم وفاة والده لبعض الوقت . فالقاضي أدريس (الميون والحداثي ، ص ٧٧) ينص على أنه كتم خبر وفاته لمدة ١٠٠ يوم ، وأنه أظهرها في ٢٥ من جمادى الآخر ، وهو ما يقترب من ١٠ جمادى الآخر في افتتاح الدعوة ولا بأس أن يكون أملاً له . أما الرواية الثانية فهي لابن الأثير (ج ٨ ص ٢٨٤) وتقول إنه أخفى وفاة المهدي مدة سنة لتدبير كان له (الخوف من اختلاق القاسم) . وأنه عندما أعلن ذلك كان قد تمكن .

برقة وصقلية - وهكذا كانت خلافة المهدي بمثابة عهد التأسيس وارساء القواعد ، بعد عهد التمهيد والمطاولة على أيدي الداعي ، وكان المنتظر أن يبدأ عهد التشييد وارتفاع الصرح بوصول أبي القاسم القائم ، ساعد المهدي الأيمن وشريكه في الحكم ، إلى عرش الأمامية . وإذا كانت ولاية أبي القاسم قد بدأت قوية ، سنة ٢٢٢ هـ / ٩٣٤ م بغارة كبرى على جنوة كانت لها أصدأوها المدوية في كل من المشرق الإسلامي وأوروبا المسيحية (انظر فيما بعد ص ٢٥٦) فإن الأحداث لم تلبث أن تغير مسارها بعد فترة وجيزة ، في صقلية حيث اشتعلت نيران الفتنة بين أهلها من عرب وبربر ، الأمر الذي استشرى في المغرب بقله عشر سنوات عندما انفجرت الثورة الزناتية الكبرى تحت رايات أبي يزيد ، صاحب الحمار ، ودمغت العهد بطابعها فجعلته عهد الفتنة العامة والحرب الأهلية ، كما نشرت ظلالها القائمة على بقية العصر الغاطمي في المغرب ، فجعلته عهد المآسى والمعاناة - عهد الأثمة بالنسبة للحكام والمحكومين على السواء . وهكذا كان الانفصال الذي تم على عهد المعز بانتقال الإمامة من القيروان إلى الفسطاط حتمية تاريخية بدأت منذ سعى المهدي إلى طرق أبواب مصر أكثر من مرة . ومن الواضح ان حين العودة إلى المشرق بدأ منذ عبور قافلة عبيد الله حدود مصر إلى برقة ، وأخذ يأخذ شكل الهاجس الملح على طول الطريق حتى سجلماسة . فهذا ما عبرت عنه أحاسيسه عندما وصل إلى القيروان وازتاح إلى مشاهدة رقة أهلها أصحاب الحضارة والتدين ، الذين ذكروه بأهل مدائن المشرق ، على عكس حفاة طواغيت البربر ، - حسب الاصطلاح الحاذق - الذي عرفهم في يواذي المغرب (٢) .

القائم بأمر الله (٢٢٢ - ٢٣٤ هـ / ٩٣٤ - ٩٤٥ م) :

ولايته :

أعلنت خلافة أبي القاسم محمد بن عبيد الله المهدي (٣) بالبيعة له في

(٢) انظر افتتاح الدعوة ، ص ٢٩٢ .

(٣) هنا لا بأس من الاشارة إلى الجدل حول حقيقة العلاقة بين عبيد الله المهدي وبين أبي القاسم محمد القائم ، إذ يرى بعض الكتاب انها علاقة أبوة روحية ، بمعنى ان أبا القاسم هو صاحب الحق الشرعي في الإمامة ، وأنه من هذا الوجه امام « مستقر » بينما المهدي امام « مستودع » كما هو الحال بين الحسن والحسين . - حسب المصطلح الشيعي - انظر المجالس والمسايرات للقاضي النجاشي ، ص ٢٦ حيث النص : « سلم الإمام المهدي بالله إلى ولده القائم رقبته تراثي إليه وديعته وأمانته وأظهر القبية » (عن ذكر المعاني ، ص ٢٩٢) .

نفس اليوم الذي مات فيه أبوه الهدي : ١٩ ربيع الأول ٣٢٢ هـ / ٥ مارس ٩٢٥ م - ولقب بالقائم بأمر أبيه وهو يومئذ في مطلع العقد الخامس ، عقد الرجولة المثمرة (٥) : ومن الواضح أنه كان لصيقاً بوالده أثناء ولايته للعهد دون أخوته الخمسة الذين لا نعرف غير أسمائهم عند ابن حمادة (ص ٧٩) . باستثناء أحدهم ، وهو أحمد الذي دار ذكره على الألسن في بعض الأحيان كما أفسح حتميل لأبي القاسم في ولاية العهد (ما سبق ، ص ١٠٩ وص ١١٣) (٥).

صفاته :

وهنا لا بأس من الإشارة إلى أن علاقة القائم بأبنة إسماعيل المنصور سم تكن على ما يرام فهذا ما يفهم من رواية النعمان التي تنص على أن القائم كنتم تعيينه للمنصور ولما للعهد أكثر من ١٠ (عشر) سنوات (٦) أو الرواية الأخرى التي تقول أن القائم فكر في صرف الخلافة إلى المعز مباشرة بدلاً من المنصور والده (٧) . ومن المعروف أنه كان الأمير « المشير » على عهد والده حيث آلت إليه قيادة الجيوش إلى ميادين القتال في إفريقية والمغرب ، كما كانت له قيادة الحملات الموجهة إلى مصر . مما سبق ذكره . فهو من هذا الوجه مناضل شجاع على عكس ما ينسب إليه النعمان من النقص في الحزم وعدم الميل إلى القزوة (٨) ، الأمر الذي يعبر عن موقفه السلبى - فى بعض الأحيان - من ثورة أبى يزيد (أنظر فيما بعد ، ص ١٨١ وهـ ٥٦) . والحقيقة أنه لا بأس أن يكون القائم قد جمع فى شخصه بعض النقائص من : مركبات النقص أو عقد النفس أو الشعور بالذنب أو الاكتئاب النفسى . مما هو من موضوعات علم النفس . فالرجل الذى كانت الحرب صناعته ، وميادين القتال مسرح مشاهداته ، لم يطلق صبراً على قراق والده « فظهر

(٥) أنظر ابن حمادة ، ص ٢٩ - حيث العدد ٧ والأسماء ٦ فقط ، وابن عذارى ،

ط : بيروت ، ص ٢٩٥ (دون ذكر أسمائهم) .

(٥) أنظر ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٢٧٢ - حيث النص على أنه كان من أسباب

عدم لقاء أبى القاسم القائم بالثائر الزناتى محمد بن خرد ببلاد الزاب ، وعودته إلى المهدي .

وردود كتاب من قبل ابنه قاسم يعلمه أن الناس تحدثوا ببياضة عبيد الله لابنه أحمد المكنى

بأبى علي . وأنه (أحمد) مثل بالناس عبيد الفطر وعبيد الأشجى - وأنظر سيرة جورد ،

ص ١٠٥ - حيث الإشارة إلى أحمد بن المهدي وتشجيعه على الامام المعز وعزل جورد .

(٦) المجالس والمسايرات ، ص ٤٤٨ - الأمر الذى أثار امتعاض المنصور وتبعه ، كما فى

ص ٤٤٨ -

(٧) المجالس والمسايرات ، ص ٤٦٩ .

(٨) المجالس والمسايرات ، ص ٢٢ .

من الحزن عليه ما لا يُمهد لثله ، وواصل الحزن لفقدته ، وأدامه من بعده ، (٩) .
وهنا لا بأس أن يكون ذلك الحزن العميق على الوالد القدوة ، وما سبقه
من ذكريات الملاحم المروعة قد أصابته بنوع من الصدمة النفسية ، مما كان
يلم بالزهاد والمتصوفة فتحولهم الى حياة التأمل الروحية ، والانقطاع عن
الأعراض الدنيوية ، الأمر الذي أكدته بعد ذلك ردود فعل الثورة الزناتية .
وهكذا ما ركب (القسائم) دابة من باب قصره منذ مات أبوه الى أن قبض
سوى مرتين « كما » لم يركب طول امارته بمظلة (فازه) (ابن عذارى ،
ج ١ ص ٥٩٥) .

ولا بأن أن يكون ذلك نوعا من الاحتساب والنهي عن المفكر ، الأمر
الذي دعاه الى اتباع سياسة دينية متشددة كانت من أسباب معاناته فيما
عرض له من الاضطرابات وأعمال العصيان والثورات . فرغم النص على أن
القسائم سار على نفس السياسة التي رسمها والده ، فهناك رواية لابن حمادة
ينقلها ابن عذارى تنص على أن أبا القاسم الشيعي « لما مات أبوه عبيد الله
أظهر مذهبه ، وأمر بسب (الصحابة) وغير ذلك من تكذيب كتاب الله
تعالى ، فمن تكلم عذب وقتل واشتد الأمر على المسلمين (١٠) » . ومع أن
النص يظهر القسائم وكأنه المسئول عن التطرف الذي لحق بالمذهب الفاطمي ،
فالحقيقة أن النص وضع ليكون مقدمة طبيعية لتبريره ثورة أبي يزيد الزناتي
سنة ٣٣٢هـ / ٩٤٣م ، التي تكاد تشغل - عند الكتاب - كل عهد القسائم
وتغطي على غيرها من الأحداث ، رغم أنها لا تحتل - زمنيا ، من عهد القسائم
الذي يزيد على اثني عشر عاما الا حوالى ثلاث سنوات فقط (٣٣٢ - ٣٣٥هـ /
٩٤٣ - ٩٤٦م) (١١) .

وهكذا اتخذ عهد القسائم طابعا حرييا ، فلا يكون من الغريب أن يبدأ

(٩) ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٢٩٥ ، وقارن النعمان ، اقتراح الدعوة ،
ص ٣٣١ - وهو مصدر ابن عذارى - حيث اضاف انه « اذن في البكاء عليه » .
(١٠) ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٣٠٧ ، وانظر ابن حمادة ، أخبار بني عبيد ،
تحقيق جلود البدرى ، الجزائر ، ١٩٨٤ ، ص ٢٦ - ٢٧ ، حيث وفاة المهدي وكشانه ٠٠٠ .
ص ٢٩ - حيث ولاية القسائم دون اشارة الى رواية ابن عذارى .

(١١) انظر ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٣٠٧ - حيث تكتمل رواية ابن حمادة
عن مقالة القسائم في المذهب بالنص على حيوط أبي يزيد من جبل أوراس يدعو الى الحق
بزعمه ، ولم يعلم الناس مذهبه ، فرجوا فيه الخير والقيام بالسننة ، فخرج على الشيعة .

ولايته بوصول الأوامر إلى « عماله في سائر البلدان بعمل السلاح وجميع الآلات الحربية » (ابن عذارى ، ط بيروت ، ج ١ ص ٢٩٦) ، وأن لا يظهر خلال العشر سنوات الأولى من ملكه إلا بعض الأحداث الأخرى التي لا تشغل - عند المؤرخين - إلا حيزاً ضئيلاً .

الأحوال الداخلية :

الكتاب والحاجب :

والحقيقة أن القوائم اقتضى أثر والده في سياسته ، وهذا ما يظهر في إقرار أبي جعفر البغدادي على البريد (أي المخابرات) والكتابة (الاتصالات الحفية والرسائل من داخلية وخارجية) ، إلى جانب تفويضه في كثير من أمور السلطنة (١٢) بمعنى أن يمارس الرجل سلطات رجل الدولة الأول - وهو الحاجب الذي كان يقوم حينئذ مقام الوزير - أما عن حاجبه : « جعفر بن علي » مولى المهدي وحاجب المنصور أيضاً (عيون الأخبار للداعي ، ص ١٩٤) ، « فالواضح أنه يأتي بعد أبي جعفر ، ولم يشاركه سلطاته ، وإن كان يقيم صلاة الجمعة في المسجد الجامع ، الأمر الذي قد يعني أنه كان كبير السعاة (١٣) » .

ثورة ابن طالوت طرابلس :

أما أول الثورات التي يسجلها الكتاب في بداية عهد القائم (سنة ٣٢٢ هـ / ٩٣٤ م) فكانت في الأقاليم الشرقية ، وهي ثورة ابن طالوت القرشي في منطقة طرابلس . وتأخذ هذه الثورة أهميتها من طابعها المذهبي ذي الشكل الشيعي . إذ ادعى الرجل أنه المهدي حقيقة ، ونجح في اقناع أهل الناحية من البربر بذلك فساروا معه نحو مدينة طرابلس ، ولكنهم قتلوا في قتالها ، الأمر الذي شكك في صحة دعوى الرجل . قتلوا عليه وقتلوه ، وبعثوا

(١٢) ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٢٩٦ ، وقارن بما سبق ، ص ١٣٩ ص ١٢٣ .

(١٣) هذا ما يظهر من النص على أن إقرار أبي جعفر البغدادي في وظيفته كان من أول الأعمال التي قام بها القائم (ابن عذارى ، ص ٢٩٦) رغم ورود اسم جعفر بن علي كحاجب قبل ذلك مع ابن أبي المهيال كواحد من قضاته (ابن عذارى ، ص ٢٩٥) - وهو من قضاة المهدي (ما سبق ، ص ١١٩ و ١٣٤) - ويتأكد ذلك بما يخص عليه الداعي إدريس (عيون الأخبار ، ص ١٩٤) من أن جعفر بن علي كان ما زال حاجباً ، يقيم الجمعة في المسجد الجامع إلى ما بعد النصر على أبي يزيد سنة ٣٣٥ هـ / ٩٤٦ م .

براسه الى القنائم (١٤) . والظاهر ان الأمور كانت قد استقرت في الأقاليم الشرقية حتى ان القنائم بعث في السنة التالية (٣٢٢هـ / ٩٣٥م) عسكريا لقيادة فتاه زيدان ، وكان عليه ان يتقوى ببعض عساكر كتامة هناك ، ويتجه نحو الاسكندرية ، ولكنهم انهزموا أمام قوات محمد الأخشيد (١٥) .

الصراع من أجل المغرب :

أما عن الأوضاع في الأقاليم الغربية فقد كانت قلقة بالنسبة لعهد القنائم ، إذ تظهر من الأسباب التي أملت حالة الاستعداد الحربية ، وخروج ميسور الفتى الى المغرب في بدء ولاية القنائم سنة ٣٢٢هـ / ٩٣٤م ، حيث وقع المغرب الأقصى من فاس الى ما وراءها من سبتة وطنجة ، الى بلاد ملوية ، تحت الهيمنة الناصرية في قرطبة ، بفضل الأعوان من موسى بن أبي العافية الى الشرفاء الأدارسة . ورغم تداخل الأحداث بشكل اثار الاضطراب في النصوص المتأخرة من ابن الأثير الى ابن عذاري الى ابن خلدون ، الأمر الذي يدعو حقا الى إعادة النظر في تحقيقها بأسلوب علمي ، فإنه يمكن ترتيب الأحداث على الوجه الآتي : خرجت حملة ميسور الكبيرة وهي تهدف الى استرجاع فاس ، حيث أحمد بن بكر الجذامي ، عامل موسى بن أبي العافية أو حليفه ، وعادتها الى الطاعة . والظاهر أن موسى الذي أخذ بالحشد الفاطمي الرهيب تنحى عن طريق ميسور ، وذهب ليعتصم ببعض قلاع في حصن « لكاي » بمعقله في منطقة تسول (١٦) وواصل ميسور المسيرة الى فاس لكي يخرج له أحمد بن بكر ملاطفا بالهدايا والمال ، تعبيرا عن الطاعة ، ولكن ميسورا غدر به ، فقبض عليه وسيره الى المهدي (١٧) .

(١٤) النعمان ، افتتاح الدعوة ، ص ٣٣٢ ، قارن ابن الأثير ، ج ٨ ص ٢٨٤ (حيث النص على انه ابن المهدي وليس المهدي نفسه ، وكذلك الأمر في ابن عذاري ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٢٩٥ .

(١٥) ابن عذاري ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٢٩٦ ، وقارن ابن الأثير ، ج ٨ ص ٢٨٥ . حيث النص على ان المراد بالغ في الثقة على تلك الحملة .

(١٦) ابن خلدون ، المعبر ، ج ٦ ص ١٣٥ ، وأنظر القرطاس ، ص ٨٦ - حيث يرحل ابن أبي العافية بعد حصار فاس ، وقارن ابن عذاري ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٢٩٦ ، حيث تلخص الأحداث بطريقة مختلة ، تجعلها تبدأ بهزيمة ابن أبي العافية قرب فاس وأخذ ابنه أسيرا . ما يحدث فيما بعد .

(١٧) ابن عذاري ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٢٩٦ ، قارن القرطاس ، ص ٨٥ - حيث النص على ان ابن أبي بكر خرج لميسور مباحيا مع هدية ومال جسيم .

محاولة استرجاع فاس :

والجزم ان أهل فاس لم يمكنوا ميسورا من مدينتهم ، اذ اختاروا واليا مكانه . هو : حسن بن قاسم اللواتي ، وتمكنوا من انصمود أمام الحصار الذي ضربه عليهم ميسور مدة ٧ (سبعة) أشهر (١٨) . وعندما طال الحصار وغابت أخبار الفتح لمدة طويلة عن المهدي أرسل القبائل المدد الى ميسور بقيادة صندل الغنى الأسود الذي كان عليه ان يزيل نفوذ قرطبة الأموي عن امارة نكور ، ويرجعها الى الأخرى الى طاعة المهدي التي كان قد خرج منها في جمادى الثاني سنة ٣٢٣هـ / مايو ٩٣٥م : وعندما وصل صندل الى نكور ، رفض أبو أيوب إسماعيل بن عبد الملك ، أميرها من بني صالح الخروج اليه مكتفيا بإعلان الطاعة عن بعد . وعندما ألح عليه صندل اعتصم بقلعة « اكري » بعد أن قتل رسوله ، الأمر الذي دفع صندل الى اجتياح تلك القلعة في قتال رهيب ، انتهى بقتل صاحبها أبي أيوب ، واكتفى صندل بتعيين وال من لدنه على القلعة ، هو الكتامي : مرمازوا ، لكي يسرع باللتحاق بميسور وهو على حصار فاس . وكانت فرصة انتهزها أحد أمراء بني صالح ، وهو موسى بن رومي ، ليقود أهل نكور لاستعادة القلعة وقتل الوالي الكتامي مرمازوا . الذي بعثوا برأسه الى الناصر بالأندلس (١٩) . ورغم وصول صندل وقواته مددا ، لم يتمكن ميسور من اقتحام فاس ، بسبب مضايقات موسى بن أبي العافية على ما يظن . وذلك أنه رضى من أهل فاس بما لم يرض به صندل من أهل نكور . فاكثفى بقبول الاعتراف بسيادة القبائل ، مع دفع فدية ٦ (ستة) آلاف دينار ، مقابل اقرار حسن اللواتي في ولايته . ورفع الحصار . وهكذا ترك ميسور فاس وسار للقاء موسى بن أبي العافية ، وألحق به هزيمة موجعة ، كما أسر ابنه « البورى » وسيره الى المهدي .

تأديب نكور والتحالف مع الإدارة :

وكان على ميسور بعد ذلك أن يؤدب عصاة نكور ، فمر ببلادهم في طريق العودة (٢٠) . هذا ، كما أنزل بموضع ورزيفة الأهل بالسكبان عقوبة شديدة من قتل الرجال وسبي النساء (٢١) ، قيل أن يمر بأرشقول

(١٨) ابن عذاري ، ط ١ : بيروت ، ج ١ ، ص ٢٩٦ .

(١٩) البكري . ص ٩٨ .

(٢٠) أنظر ابن الأثير ، ج ٨ ص ٢٨٤ - حيث النص على ان حملة ميسور الى كل من فاس

ونكور (تكرور - خطأ) .

(٢١) البكري ، ص ١٥٥ .

محاولة استرجاع فاس :

والمهم ان أهل فاس لم يمكنوا ميسورا من مدينتهم ، اذ اختاروا واليا مكانه ، هو : حسن بن قاسم اللواتي ، وتمكنوا من الصمود امام الحصار الذى ضربه عليهم ميسور مدة ٧ (سبعة) أشهر (١٨) . وعندما طال الحصار وغابت أخبار الفتح لمدة طويلة عن المهدية أرسل القائم المدد الى ميسور بقيادة صندل الغنى الأسود الذى كان عليه ان يزيل نفوذ قرطبة الأموى عن إمارة نكور ، ويرجعها الى طاعة المهدية التى كان قد خرج منها فى جمادى الثانى سنة ٣٢٣هـ / مايو ٩٣٥م : وعندما وصل صندل الى نكور ، رفض أبو أيوب إسماعيل بن عبد الملك ، أميرها من بنى صالح الخروج اليه مكتفيا بإعلان الطاعة عن بعد . وعندما ألح عليه صندل اعتصم بقلعة « اكرى » بعد أن قتل رسله ، الأمر الذى دفع صندل الى اجتياح تلك القلعة فى قتال رهيب ، انتهى بقتل صاحبها أبي أيوب ، واكتفى صندل بتعيين وال من لدنه على القلعة ، هو الكتامى : مرمازوا ، لكن يسرع باللاحق بميسور وهو على حصار فاس . وكانت فرصة انتهزها أحد أمراء بنى صالح ، وهو موسى بن رومي ، ليقود أهل نكور لاستعادة القلعة وقتل الوالى الكتامى مرمازوا ، الذى بعثوا برأسه الى الناصر بالأندلس (١٩) . ورغم وصول صندل وقواته مددا ، لم يتمكن ميسور من اقتحام فاس ، بسبب مضايقات موسى بن أبي العافية على ما يظن . وذلك أنه رضى من أهل فاس بما لم يرض به صندل من أهل نكور . فاكتمى بقبول الاعتراف بسيادة القائم مع دفع فدية ٦ (ستة) آلاف دينار ، مقابل اقرار حسن اللواتي فى ولايته ورفع الحصار . وهكذا ترك ميسور فاس وسار للقاء موسى بن أبي العافية وألحق به هزيمة موجعة ، كما أسر ابنه « البورى » وسيره الى المهدية .

تأديب نكور والتحالف مع الإدارة :

وكان على ميسور بعد ذلك أن يؤدب عصاة نكور ، فمر ببلادهم فى طريق العودة (٢٠) . هذا ، كما أنزل بموضع ورزيفة الأهل بالسكان عقوبة شديدة من قتل الرجال وسبى النساء (٢١) ، قبل أن يمر بآرشقول

(١٨) ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج ١ ، ص ٢٩٦ .

(١٩) البكرى ، ص ٩٨ .

(٢٠) أنظر ابن الأثير ، ج ٨ ، ص ٢٨٤ - حيث انتهى على ان حملة ميسور الى كل من فاس

ونكور (تكرور - شط) .

(٢١) البكرى ، ص ١٥٥ .

حيث خلع أدريس بن ابراهيم ، وجعل مكانه في الامارة ابا العيش بن عيسى (٢٢) . وهناك استعان بالأدارة في التخلص ، بشكل مؤقت من موسى بن أبي العافية وأتباعه الداخلين معه في طاعة الامويين بالاندلس ، فطرده من نواحي ملوية ووطاء الى ما وراءها من الصحراء (٢٣) ثم انه أسرع في العودة الى المهديّة التي وصلها في سنة ٣٢٤ هـ / ٩٣٥ م وبذلك دخل الإدارة في طاعة القائم ، وتملكوا ، كان بيد موسى (٢٤) . وإن كان ذلك الى حين .

القلقل في الزاب وأوراس :

وفي هذا الوقت (٣٢٤ هـ / ٣٥ - ٩٣٦ م) عانت بلاد الزاب من بعض القلاقل التي دفعت علي بن حمدون المعروف بابن الأندلسي ، الى تخريبه مدينة المسيلة التي كان قد بناها بأمر القائم ، سنة ٣١٣ هـ / ٩٢٥ م ، كما تقول الرواية ، والتي كانت تعرف عند الشيعة باسم المحمدية ، نسبة اليه (٢٥) . والظاهر ان ذلك التخريب كان شكليا فقد بقيت مدينة المسيلة مقرا لجمع بن علي بن حمدون ، الذي كان له شأن كبير فيها ، بعد والده الذي هلك في ثورة أبي يزيد سنة ٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م ، حيث كانت له الرئاسة في كل بلاد الزاب حتى سنة ٣٦٠ هـ / ٧٠ - ٩٧١ م ، على عهد المعز (٢٦) .

والحقيقة ان سيطرة القائم على الاقاليم الغربية من الدولة ، اعتبارا من الزاب وأوراس الى المغرب البعيد ، بدأت تخف تدريجيا مع ازدياد قوة خليفة قرطبة عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ / ٩١٢ - ٩٦١ م) الذي كان ملاذا لكل الخارجين على الدولة الفاطمية منذ نشأتها ، ابتداء من البرغواطيين المصامدة وتادلواتامسنا الى موسى بن أبي العافية المكتاسي ، وانتهى بابي يزيد الزناتي الذي كان قد بدأ يظهر منذ الآن في أوراس وقبيلية (الجريد) .

(٢٢) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٣٦ .

(٢٣) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٣٥ ، القرطاس ، ص ٨٥ ، وقارن ابن عذاري ، ط ٤ بيروت ، ج ١ ص ٢٩٧ الذي يبدأ الأحداث بهزيمة موسى بن أبي العافية في حيز فاس وأسر ابنه .

(٢٤) ابن خلدون ، ج ٧ ص ٨٦ .

(٢٥) ابن عذاري ، ط ٤ : بيروت ، ج ١ ص ٣٠٤ ، ٣٠٦ .

(٢٦) أنظر ابن عذاري ، ط ٤ : بيروت ، ج ١ ص ٣٠٦ .

موسى بن أبى العافية رجل الأمازيغ في فاس ضد الإدارة :

موسى بن أبى العافية ، بعد الهجرة التي لحقت به على يدى ميسور ، وفراره إلى زمال القفار ، عاد إلى فاس فملكها بعدوتها ، واحتفظ لنفسه بعدوة القرويين ، وولى على عدوة الأندلس أباً يوسف محارب الإزدى الذي كان به افضل في تحضيرها وتمدينها . وزاد موسى في توثيق علاقته بالناصر فراسله يطلب منه المعونة في مواجهة الإدارة (من بنى محمد) في تلمسان . وفعلنا تم التنسيق بينهما فأرسل الناصر مدداً من أسطوله أتجه نحو تلمسان بينما سار ابن أبى العافية إليها في البر . ولم يستطيع الأمير الإدريسي أبو العيش مواجهة القوتين المتحالفتين ، ففر إلى قاعدته أرشقول واعتصم بها ، بينما سار موسى إلى تكور التي كان قد استولى عليها أبو العيش فاستردها . وهكذا عظم شأن ابن أبى العافية حتى اتصلت ببلاده ببلاد محمد بن خزر (فى الزاب) . وبذلك ارتفعت الرايات الناصرية الأندلسية في معظم بلاد المغرب بفضل دعاية الزعيمين المغربيين (البربريين) ، وخاصة موسى بن أبى العافية الذي أرسل ابنه مدين إلى قرطبة ، زيادة في تأكيد رابطة الحلف والولاء للناصر (٢٧) .

سجلماسة الصفرية والمذهب المالكي :

أما عن صحراوات المغرب الجنوبية وسجلماسة التي توفي أميرها المعتز بن محمد سنة ٣٢١ هـ / ٩٣٣ م قبيل وفاة المهدي ، فانها ظلت بين أيدي أمرائها من بنى واسول . فقد خلف المعتز ابنه أبو المنتصر الصغير ، الذي كان تحت وصاية جدته ، والذي لم يقدر له البقاء في ولايته ، حيث تضاعفت الظروف ضده ، من : شغب القاطمين عليه بسبب انتمائه إلى حزب موسى بن أبى العافية وبعده إلى معسكر أبى يزيد ، الأمر الذي انتهى بأن قام

(٢٧) انظر ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٣٦ ، وانظر صبح الأعشى ، ج ٥ ص ١٨٤ حيث انص على ان الناصر الاموي عقد له على أعمال آبيه ثم انه اقتسمها مع أخويه : البورى وأبى منقذ . ولقد أجاز البورى إلى الناصر بالأندلس سنة ٣٣٥ هـ حيث عقد له على بلاده . وكانت وفاة البورى سنة ٣٤٥ هـ أثناء حصاره لأخيه مدين بمدينة فاس . فعقد الناصر لابنه منصور على عمله . وعندما توفي مدين ، عقد الناصر لأخيه أبى منقذ على عمله . ثم غلبت مغرارة على فاس وأعمالها واستفحل أمرهم بالمغرب ، وأزاحوا مكتاساً من شؤونهم وأعماله . وأجاز اسماعيل بن البورى ، ومحمد بن عبد الله بن مدين إلى الأندلس فجزلوا إلى أن أجازوا هم وأقرب إمام المنصور بن أبى عامر عندما خرج زيرى بن عطية عن طاعتهم سنة ٣٨٦ هـ / ٩٩٣ م .

عليه ابن عمه محمد بن الفتح الذي ترك المذهب الصفري لكي يدخل في المذهب السني المالكي ، وبالتالي الدخول في طاعة خلافة بغداد الشرعية ، وإن كان قد تسمى بأمر المؤمنين واتخذ اللقب الخلفي « الشاكر لله » سنة ٣٤٢ هـ / ٩٥٣ م (٢٨) .

أبو يزيد مغل بن كيداد والثورة البربرية بقيادة زناتة :

تلك كانت خريطة المغرب السياسية على عهد أبي القاسم محمد القائم بأمر الله ، وهي تبين أن البلاد لم تصف تماما لدعوة الفاطميين ، رغم المجهودات المضنية التي قام بها الداعي والنتائج الاعجازية التي حققها ، ومن بعده المهدي ثم القائم . فالنزعات البربرية الاستقلالية أو الانفصالية كانت في كل مكان ، من برقة شرقا ، وكانت تابعة من قبل لخلافة بغداد ، إلى سبتة وطنجة وبلاد برغواطة في تادلا وتامسنا الواقعة تحت هيمنة قرطبة الناصرية . وهكذا تدعم هاجس المهديّة المتمثل في الخوف من البربر المغاربة على أسرة المهديين المشاركة برغبة مزدوجة من قبل العباسيين في المشرق والأمويين في أقصى المغرب والأندلس ، وكان كل من الطرفين أشبه بقطب جذب شديد مضاد للطرف الآخر ، الأمر الذي يفسر ذلك التحزق الواضح في الخريطة السياسية للبلاد . وإلى جانب ذلك جاءت السياسة المالية المتسفة ، والحياة الندينية الصعبة لكي تزيد في سوء الأحوال العامة ، وتخلق ذلك الوضع الذي أطلق عليه البعض اسم « الأزمة الفاطمية » ، والذي تفجر في الثورة باسم السنة ورفض التشيع ، وهو ما نادى به أبو يزيد صاحب الحمار .

أبو يزيد : شخصيته وتكوينه على يد أبي عماد الأعمى :

أبو يزيد « صاحب الحمار » هو مغل بن كيداد الزناتى اليفرنى (٢٩) ، وأصله من قسطنطينية من بلاد الجريد حيث مضارب (قيطون) زناتة هناك . أما عن مسقط رأسه فهو مدينة كوكو السودانية المشهورة التي كان والده

(٢٨) البكري ، ص ١٥١ ، ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٣٦ .

(٢٩) أنظر ابن خلدون ، العبر ، ج ٧ ص ١١٣ - حيث النص على أنه من بني وازكو من بطون يفرن بن جانا (زناتة) ، الجزء الحادي عشر لمجلد حسب سلسلة النسب التي يذكرها ابن خلدون مع الإشارة إلى أنه يمكن أن يكون من بني واسين بن سبك بن جانا ، كما في الرقيق .

يتردد عليها للتجارة ، بينما كانت أمه جارية هوارية اسمها سيكة (٣٠) .
ونقد حسب أبو يزيد الذي عاد والده به صغيرا إلى مضارب زناته بقسطنطينية ،
في مدينة توزر التي استقر فيها والده مع التردد على مدينة تقيوس . وهكذا
تعلم مغلد القرآن وتآدب بكل من توزر وتقيوس ، حيث كان ينتشر مذهب
الحوارج الإباضية الذين ينتمون أصلا إلى إمامة تاهرت . وهناك خالط
جماعة النكارية وأخذ بمذهبهم وهو مذهب المنشقين على الأئمة الرستميين ،
الداعين إلى تطبيق مبدأ الشورى أى الاختيار والمساواة في انتخاب الإمام
(انظر فيما سبق ج ١ ص ٣١٥ وما بعدها) - ومع شغفه بالمذهب ورغبته
في الاستزادة من العلم به سار إلى تاهرت حيث تفقه على المشايخ هناك .
ومنهم أبو عبيدة (عبد الحميد) بن عمار الأعشى ، في الوقت الذي كان يعلم
الصبيان ، وذلك في الوقت الذي كانت تسقط فيه تاهرت بين يدي الداعي
أبي عبد الله ، وهو في طريقه إلى استنقاذ المهدي بسجلحاسة حوالي سنة
٢٩٦ هـ / ٩٠٩ م (٣١) . وهكذا كان على أبي يزيد أن يرجع محسورا إلى
بلدة قسطنطينية التي صارت ملجأ للوافدين عليها من أبناء المذهب الخارجي
من تاهرت ، ومنهم شيخ المذهب أبو عمار الأعشى الذي ربط مصيره منذ
الحين بمصير أبي يزيد . وهنا نشير إلى أنه لما كان أبو يزيد يوصف بالفرج
والقصر وقبح المنظر جميعا ، وكان أبو عمار يعاني من فقد بصره فلا بأس
أن تكون ثمة علاقة بين عاهة كل من الرجلين ، هي التي ربطت بينهما منذ
هذا الوقت المبكر ، واستمرت إلى أن أصبح الأعشى منظرا للمذهب
ومستشارا للقائد الأعرج ، حتى انتهى الأمر بهلاك المعوقين ، وهما يفاضلان
جنباً إلى جنب ، وسط الحصر والضيق ، في شعاب قمم الجبال الشاهقة .
فقتل المنظر (الايدولوج) بينما أخذ القائد (الأمير) في رمقه الأخير .

الاحتساب :

والمهم أن والد أبي يزيد القاصر توفي وتركه فقيرا من غير مال ، إذ
أنه اشتغل بتعليم الصبيان القرآن في مضارب (قيطون) الزناتية ، إلى

(٣٠) عن كوكوا انظر الاستبصار ، ص ١١١ ، وعن سيكة أم مغلد التي صارت أم ولد
بعد انجابها لمغلد بمعنى أنها كانت اجارية (: ملوكة) حسب رواية ابن خلدون (ج ٧
ص ١٣) ، الأمر الذي يعني أنها كانت سودانية أصلا ، هوارية حسب رواية ابن الأثير .
ج ٨ ص ٤٢٢ ، بالولاء ، على ما نظن .

(٣١) ابن خلدون ، ج ٧ ص ١٣ ، وقارن ابن الأثير ، ج ٨ ص ٤٢٢ .

جانب تعاليم النكارية ، وكان يتعيش من فضل مالهم (ابن خلدون ، ج ٧ ص ١٣) . وكان التعليم وقتئذ من أعمال الورع والتقوى التي تؤدي احتسابا ، فكانها من أعمال الأمر بالمعروف . والحقيقة أن أبا يزيد قام فعلا كأمr بالمعروف ناه عن المنكر ، من وجهة النظر الاباضية النكارية ، اذ اشتهر عنه تكفير المخالفين لمذهبه من المسلمين بعمامة ، وتخصيص الشيعة الفاطمية بذلك ، اذ كان يرد على سيهم الصحابة بسب الامام علي (٣٢) . والظاهر أن احتساب أبي يزيد لقي استحسانا من الناس ، الأمر الذي أدى الى تحسن أحواله المعاشية . فعندما تشبه المسئولون الى نشاطه المعادي للدولة . انتقل الى شيوخ حيث اشترى صنيعه . وأقام يعلم فيها (٣٢) ، وهو يأمر بالمعروف ، ويخص بذلك حياة الضرائب ، ويدعو الى الخروج على السلطات حتى ثار أهل تقيوس بواليهم فقتلوه . وعندئذ خاف أبو يزيد على نفسه ، وخرج مع أبي عمر في زى الحجاج ، وذلك سنة ٣١٦ هـ / ٩٢٨ م ، ولم يكند يصل الى طرابلس حتى شعر بالارهاق من شدة البحث والتقصي عن المطلوبين من البربر ، ففضل العودة الى تقيوس (٣٤) .

والظاهر أن أبا يزيد رأى أن يخفف من ضغطه على المسئولين من رجال الدولة ، فوجه احتسابه الى العامة ، فأخذ « يحتسب على الناس » في أفعالهم ومذاهبهم . ولقيت تلك الدعسوة نجاحا حتى اشتهر أمره ، وأصبحت له جماعة تناصره وتعظم من شأنه ، وذلك اعتبارا من سنة ٣١٦ هـ / ٩٢٨ م على أيام المهدي (٣٥) ، وهي السنة التي كانت بلاد الزاب تضطرب فيها بأعمال محمد بن خزر الزناتي ، والتي تشير فيها الحوليات المغربية الى ابتداء أمر أبي يزيد (٣٦) .

(٣٢) ابن خلدون ، ج ٧ ص ١٣ ، وقارن ابن عذاري ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٢٧٣ . حيث النص في أخبار سنة ٣١٥ هـ / ٩٢٨ م على ابتداء أمر أبي يزيد الذي يأخذ بمذهب النكار ويحلل دماء المسلمين ويروجهم ، ويسب على ابن أبي طالب .

(٣٣) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٤٢٢ .

(٣٤) ابن خلدون ، ج ٧ ص ١٣ ، ابن عذاري ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٢٧٣ ، ابن الأثير ، ج ٨ ص ٤٢٢ - حيث الإشارة الى أن مذهبه تكفير أهل الملة ، واستباحة الأموال والدماء وإشروع على السلطان .

(٣٥) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٤٢٢ .

(٣٦) ابن عذاري ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٢٧٣ ، أنظر فيما سبق ، ص ١٠٩ .

بداية الثورة في توزر :

وإذا كانت التصانيف لا تقدم لنا ، عن دعوة أبي يزيد منذ سنة ٣١٦ هـ / ٩٢٨ م إلا معلومات عامة ، من : اشتداد شوكته وكثرة أتباعه على أيام القائم (٣٧) ، فإن الفضل يرجع إلى عبر ابن خلدون في تقديم معلومات ثمينة ، وفريدة ، عن دعوة أبي يزيد قبل انفجارها سنة ٣٢٢ هـ / ٩٤٣ م . فلقد أوعز القائم إلى أهل قسطنطينة بالقبض على أبي يزيد ، الذي تنبه إلى ذلك فهرب إلى المشرق إلى أن خف عنه الطلب فعاد إلى وطنه ، ودخل توزر مستترا سنة ٣٢٥ هـ / ٣٦ - ٩٣٧ م (ابن خلدون ج ٧ ص ١٣) ، ولكن أمره انكشف عندما وشى به أحد خصومه ، ممن تطلق الرواية عليه اسم ابن فرقان (من الفرقة والانقسام) ، عند والي البلد فقبض عليه ، واعتقله بدعوى أنه مطالب بالحراج ، وليس مطلوبا لذاته . وعندما أسرع أهله من الزناتية ، وعلى رأسهم أبو عمار (عبد الحميد) الأعشى ، وفشلوا في اقناع الوالي بإطلاق سراحه ، عمدوا بصحبة ابنه : فضل ويزيد إلى إخراجه من السجن عنوة بعد قتل الحراس . وهكذا تكون حركة أبي يزيد النكارية قد بدأت في الخروج من نطاق الدعوة السرية إلى الثورة العلنية ، على يد أبي عمار الأعشى وولدي أبي يزيد : الفضل ويزيد (٣٨) .

دار الهجرة في أوراس :

فقد كان على أبي يزيد أن يلجأ إلى بني وارجلا حيث أقام ، وهو يدعو قبائل المنطقة إلى الثورة في : جبل أوراس ، ومواطن بني برزال بجنوب المسيلة ، وبني زنداك المفراويين . وتطلب الأمر مدة سنة خرج أبو يزيد بعدها مع ممثلي القبائل ، الاثنى عشر داعيا ، وبصحبه أبو عمار الأعشى إلى أوراس حيث استقروا بمنطقة النوات النكارية ، أي في سنة ٣٢٦ هـ / ٩٣٧ - ٩٣٨ م (٣٩) .

وبذلك أصبحت منطقة النوات في جبل أوراس دار هجرة جديدة

(٣٧) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٢٢٢ .

(٣٨) قارن رواية طيفات الدرجيني ، ج ١ ص ٩١ وما بعدها ، وانظر فيما سبق ، فصل

المصادر ، ص ٣١ وما بعدها حيث تأخذ الرواية شكل قصة فلكلورية .

(٣٩) ابن خلدون ، ج ٧ ص ١٣ - حيث النص على أنه وصل النوات في ١٢ من

الراجلة .

لأبي يزيد وأصحابه الإباضية النكارية (الشعبيين) وبعد (الخمس) سنوات اجتمع اليه خلالها القراية ، وتدفق عليه مختلف الحوارج ، أخذت له البيعة بزعامه الحركة ، سنة ٣٣١ هـ / ٤٢ - ٩٤٣ م . وتمثلت شروط عقد البيعة ، في : قلب النظام الشيعي الفاطمي ، وإقامة دولة المساواة النكارية المثالية ، القائمة على الشورى والمساواة ، واستخدم العنف والارهاب ، من : استباحة الغنائم والسبي (ابن خلدون ، ج ١ ص ٣٠٣ - ٣٠٤) في سبيل تحقيق الهدف النبيل .

الثورة الكبرى ومراحلها :

وهكذا بدأت في السنة التالية ٣٣٢ هـ / ٤٣ - ٩٤٤ م الثورة الرائعة ضد الأئمة الشرفاء . وقسمت المسلمين في القارة المغربية والجزيرة الصقلية إلى أخوة اغداء من عرب وبربر ، طوال أربع سنوات دامية ، ساد فيها القتل والحرب ، وعم خلالها الظلم والفساد حتى أصبحت في الفكر الشيعي حتمية مستقبلية (حدثانية) يعرفها الأئمة ويستسلمون لمقدراتها الأزلية ، من : محنة تعم جميع البلاد ، ومنة تظهر تبشيرها عند باب مصلى المهدي (انظر ما سبق ص ٩٢) .

ويمكن تقسيم الثورة إلى أربع مراحل ، على عسدد سنينها ، الأولى : استولى فيها أبو يزيد على بلاد الزاب والأقاليم الساحلية الشمالية في باجة وتونس . والثانية غلب فيها على القيروان ، فهي بمثابة مرحلة التأسيس لدولة الشورى الوليدة ، حلم النكارية العزيز . والثالثة حاصر فيها المهدي نفسه ، وبلغ المد ذروته بالوقوف على عتبة بابها ، واقتحام الخيل لمياه بحرها . ثم الرابعة ، وفيها الانحسار عن المهدي والقيروان ، لكي تنتهي الثورة في مسقط رأسها ، غارقة في دم أهلها ومشعلها .

والصادر الشيعية المنشورة حديثا مثل كتب النعماني ، من افتتاح الدعوة إلى المجالس والمسائرات ، ثم العيون والأخبار للداعي إدريس بخاصة ، تقدم لنا معلومات تفصيلية مرهقة عن الثورة الزناتية مما يمثل الأصول التي رجع اليها المتأخرون من مؤرخي المشرق والمغرب . مثل : ابن الأثير الذي احتفظ بنسبة وفيرة من معلوماتها ، وابن عذاري الذي اكتفى بالاختصار ، مركزا على نتائج الأحداث دون حشوها ، وإن كان له فضل التركيز على أخبار فقهاء المالكية وموقفهم من أبي يزيد ، راجعا إلى الترقيق القيرواني وابن معدون ، وهي المعلومات التي ليس لها ذكر في المصادر

الشيوعية ، وهو الأمر الطبيعي من حيث يقف أهل السنة هؤلاء موقف المناصر لأبى يزيد ضد أنقائم • ثم ابن خلدون الذى أخذ قدرا كبيرا من المصادر الشيوعية ، وزعه فى عبره على تاريخ القبائل والدول حسبما ارتآه من خطط منهجية خاصة به • وهكذا لا يغيب عن الذهن أن مصادر الخصوم هذه تقف من أبى يزيد موقف العدو المدود • فهو عندهم الدجال الذى يدعو إلى الكفر فى آخر الزمان بينما هو عنه أهل المذهب آمر بالمعروف يحثسب على الناس فى أفعالهم ومذاهبهم •

فتح بلاد الزاب :

والهم أن ثورة أبى يزيد بدأت سنة ٣٣٢ هـ / ٩٤٤ م عندما ظهر فى منطقة اوراس وكتب أهل بلدة قسطنطينية وخاصة بنى واسين منهم ، فاجابوه ، ثم نزل منها ليجتاح بلاد الزاب فى أوائل سنة ٣٣٣ هـ / أغسطس ٩٤٤ م • إذ حاصر باغاية وفتحها صلحا بعد حرب وإيهاب كيون ، قبل أن يسير بأهلها لفتح تبسة التى أمنها على أن تؤدى له أموال كيون وأصحابه من السكتامين (٤٠) ، ومجانة التى هدم سورها • بعد ذلك دخل مدينة مرماجنة حيث • أهدى له حمار أشهب طليح • ، ركب أبو يزيد (٤١) استكمالا لما كان يظهره من الزهد والتقشف بلبس جبة صوف قصيرة ، مفتوحة العواتق ، ووضع قلنسوة بيضاء كذرة على رأسه ، ولذلك أطلق عليه اسم صاحب الحمار ، الذى أصبح دارجا بين الناس من الاتباع الذين يجلبون فيه رمز البساطة والنسك ، والأعداء الذين أخذوه مأخذ الهز والسخرية من المعوق الأعرج • وبعد هزيمة القوات الكتامية فى سبيبة التى صلب عاملها ، انتهت الحملة العاصفة على مسيرة يوم من القيروان بفتح الأريس فى ١٥ من ذى الحجة / ٢٩ يولييه ٩٤٥ م ، التى أحرقت ونهبت ، كما قتل الناس فى مسجدها الجامع ، تماما مثلما حدث على أيدي الكتامين أصحاب الداعي الفاطمى ، حسب رواية أهل السنة ، قبل فتح القيروان منذ أقل من ٤٠ (أربعين) سنة ، وهو ما كان يتذكره المستنون من أهلها ، الأمر الذى أثار

(٤٠) عيون الأخبار ، للداعي ادريس • ص ٨٠ - ٨١ - حيث النص أيضا على أنه غنم المائل وسبى النساء والذرية وأغنم ذلك البربر ، وأخذ بزعمه الخس • وقارن ابن الأثير ، ج ٨ ص ٤٢٢ ، ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٤ - حيث الإشارة إلى ترمذ غيبة وإلى باغاية قبل الضرب على بسطها ، وأنها امتنعت •
(٤١) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٤٢٢ - ٤٢٣ ، وقارن عيون الأخبار للداعي ادريس • ص ٨٠ - ٨١ -

الخوف والفرح بين أهل المهديّة ، اذ قالوا للقائم : « الأريس باب أفريقية ، ولما أخذت زالت دولة بنى الأغلب » (٤٢) .

الاستيلاء على الأقاليم البحرية الشمالية في باجة وتونس :

وهكذا تنتهى أول مراحل الحرب الزناتية بتقدم صاعق من جانب أبى يزيد ، وموقف انتظار سلبي كان سببا في وصف القائم بالضعف وعدم الحسم ، وإن وجد تبريرا رسميا في اعتقاد القائم بما نسب إلى المهدي من حتمية وصول الناصر الزناتي حتى باب المصلى من المهديّة ، الذي عرف بعد ذلك بباب الفتح (انظر فيما سبق ، ص ٩٢ وما بعد ص ١٨١) . وهناك أول تدخل من قبل القائم عندما أخرج الجيوش لضبط البلاد المهتدة بالخطر . فقد أعد جيشين سير أولهما بقيادة ميسور الفتى في ١٣ من المحرم ٣٣٣ هـ / ٦ سبتمبر ٩٤٤ م ، نحو القيروان ، والآخر بقيادة بشرى الفتى إلى باجة . وعلى عكس ما كان متوقعا من مسير أبى يزيد بقوة الرئيسية نحو القيروان القرية ، فالظاهر أنه رأى تحاشي مواجهة محتملة في قاعدة المالكية ، بصفة مؤقتة . فكان اللقاء مع جيش باجة حيث نجح بشرى في إلحاق الهزيمة به ، ولكن الناصر الزناتي الذي كان يحسن حرب الكر والفر في الميادين المفتوحة ، فاجأ معسكر بشرى وخيامه ، وحول الهزيمة الأولية إلى نصر حاسم عندما اجتاحت باجة فاستباحها ، نهبا وسلبا واحراقا (٤٣) .

(٤٢) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٤٢٢ ، وقارن عيون الأخبار للداعي ادريس ، ص ٨١ - ٨٢ .
- حيث النص على حرب اسحاق بن خليفة عامل الأريس ، وأمر أبى يزيد قائده سليمان بن خيران الزويل (من مزاة) بقتل وحرق كل من على الطريق ليذهب كثافة ، إلى جانب ما فعله النواذ المنهزمون من الكتائب من مهاجمة أمتعة أبى يزيد في مجاعة قبل دخولهم المهديّة في ٥ محرم سنة ٣٣٣ هـ / ٢٨ أغسطس سنة ٩٤٤ م ، وابن خلدون ، ج ٧ ص ١٤ حيث الأريس بدلا من الأريس .

(٤٣) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٤٢٢ ، وقارن عيون الأخبار ، ص ٨٤ - ٨٥ . حيث يزيد من التفاصيل المرحمة والتواريخ الدقيقة عن خروج قواد أخر إلى رقادة في ١٦ من ذي الحجة سنة ٣٣٢ هـ / ١٥ أغسطس سنة ٩٤٤ م ووصول خليل بن اسحق التميمي إلى القيروان في الأربعماء ٢٢ من ذي الحجة وتقديم أبى يزيد لإبراهيم بن أبى سلاسى إلى باجة ، وقوله له : « ان كنت لي ناصبا فاقتل من لقيت وأسب حريمهم ونهذ أموالهم » ، ونزول أبى يزيد عن دابته بعد الهزيمة وركوب حساره وأخذ عصاه ، إلى غير ذلك من انقضاء العذارى في باجة في المسجد الأعظم ، الأمر الذي أدى إلى حمل أئمة امرأة يوم باجة ، إلى فظاعات أخرى تمتثلت في قتل الأطفال غربا برؤوسهم في أعنة الجامع وحيطانه .

وكان ذلك النصر على قوات المهديّة تشجيعاً للقبائل على تلبية ندا أبي يزيد للانضمام إلى جانبه . كما ساعده على تطوير قواته في شكل جيش نظامي يقيم في المعسكرات ، ويستخدم آلات الحرب المتقدمة ، ويرفع الشعارات من الرايات والبنود (٤٤) .

ومن باجه اتجه أبو يزيد نحو تونس التي لجأ إليها بشرى الصنّلي ، والتي ساءت أحوالها إلى حد مكتاتبة أهلها لأبي يزيد والدخول في طاعته ، الأمر الذي دفع بشرى إلى الخروج منها بصحبة الوالي حسن بن علي (بن أبي الحسين الكلبي) إلى سوسة في ٢٥ من المحرم ٣٣٣ هـ / ١٨ سبتمبر ٩٤٤ م (٤٥) . والحقيقة أن الصراع استمر طويلاً بين بشرى وأبي يزيد الذي اعتمد حرب التخويف والإرهاب النفسي بأعمال العنف والتخريب ، الأمر الذي كان يؤدي إلى أعمال انتقامية من قبل القوات الفاطمية (الكتامية) التي لم تحترم بدورها ما هو متعارف عليه من حقوق الأسرى ، لتنفس عن كبريتها ، اثر انتصارات محلية في منطقة الجزيرة قرب تونس ، بقتل فئات المتعساء المكبلين بالأغلال منهم (٤٦) .

تحول القيروان :

وبعد أن أخضع أبو يزيد بثأره من الكتاميين فهزمهم في وادي مجردة (٤٧) ، تبعهم إلى القيروان وقيادة التي نزل في شرقها في ١٠٠ (مائة) ألف رجل في ٢٧ من صفر سنة ٣٣٣ هـ / ٢٩ أكتوبر ٩٤٤ م ، بينما كان الوالي خليل ابن اسحق لا يحرك ساكناً ، بعد أن فرق عساكره في الضنايق والدور ، انتظارا لوصول جيش ميسور الفتى . وأمام الحاج القيروانيين ،

(٤٤) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٤٢٣ ، وقارن عيون الأخبار للداعي الأديس ص ٨٧ .
(٤٥) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٤٢٤ ، حيث النص على أن أبي يزيد نجح في دخول تونس رغم هزيمة لمقت به من قبل بشرى ، وأنه ولي عليهم رجلاً من أمهاته اسمه رحون ، وقارن عيون الأخبار للداعي الأديس ص ٨٧ ، حيث النص على اختلاف عامل تونس ، حسن الكلبي رآخيه عمار رغم نجاحهما في هزيمة البربر ، مع تحديد تاريخ الخروج إلى سوسة .
(٤٦) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٤٢٤ ، وقارن عيون الأخبار ص ٩٠ حيث النص على عمليات عسكرية بين حسن بن علي وبشرى الخادم وبين أيوب بن خيران الزويلى قائد أبي يزيد بدأت في الجزيرة وانتهت قرب مرقطية وسوسة بقتل أربعة آلاف على رأسهم أيوب ، وأسر ٥٠٠ أسير سار بهم إلى المهديّة حيث قتلهم العامة بالصعي والحجارة .
(٤٧) ابن خلدون ، ج ٧ ص ١٤ - حيث القراءة سجدة .

حاول خليل أن يتخلص من العدو الرهيب بأهول الأساليب عن طريق الغدر حيث اتصل ببعض أصحاب أبي يزيد من الرويليين ، الأمر الذي لم يتحقق . وأخيرا اضطر خليسيل الى الخروج مكرها الى القنصل لكي يعود منهزما من الزناتيين الى القيروان حيث اعتكف في قصر الامارة ، تاركاً البربر يدخلون المدينة ويقتلون ويفسدون الى أن انتهى أمر خليل - الذي لم يعرف مثل ذلك سوء تدبير - بالقتل غدرا بعد الأمان في ٢٣ صفر / ١٦ أكتوبر (٤٨) .

التحالف مع شيوخ المالكية :

وهكذا لم يكن أمام شيوخ القيروان من المالكية الا أن يخضعوا لأبي يزيد فخرجوا اليه برقادة يطلبون الأمان حتى يكتب رجاله عن النهب والتخريب ، وهنا تقول الرواية السننية التي ينقلها ابن عذاري أن أبا يزيد عندما دخل القيروان في صفر/سبتمبر ، أظهر لأهلها خيرا وترحم على أبي بكر وعمر ، ودعى الناس الى جهاد الشيعة والتمسك بذهب مالك . وبناء على ذلك فقد انضموا الى أبي يزيد ، وخرج الفقهاء والعباد الذين سماهم ابن سعدون رجلا رجلا - لحرب القائم - وفي يوم الجمعة التمسالي اجتمعوا بالمسجد الجامع ، وركبوا مع أبي يزيد بالسلاح والطبول ، والبندود : فيها آيات الجهاد والنصر . وهما يلتفت النظر أن عدد البندود سبعة من بينها اثنان أصفران وواحد فيه : « نصر من الله وفتح قريب ، على يد الشيخ أبي يزيد » . وبعد خطبة الجمعة التي كان موضوعها الجهاد ولعن عبيد الله وابنه ، خرج

(٤٨) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٤٣٤ - ٤٣٥ ابن خلدون ، ج ٧ ص ١٤ . وقارن عيون الأخبار ص ٨٨ - ٨٩ حيث النص على سوء تدبير خليل عندما أبى رجاله في المدينة ولم يتخذ له مسكرا خارجها ولو أنه كان قد اعتنى بأبواب القيروان وسورها ، وإن عمت أخبار أبي يزيد عنه مع الإشارة الى أن رجاله كانوا ألفا فقط من الجنود والمبيد الذين كانوا يطالبونه بأزواجهم فيحتفهم ويهزأ بهم . الأمر الذي أدى بهم الى الانضمام الى أقاربهم الذين كانوا مع أبي يزيد عندما اقترب من الأبواب الأمر الذي أضعف من متويناكه وأصابه بالاحباط فأغلق دأره عليه . ومنه القاضي أحمد ابن يحيى ، والكاتب عبد الله ابن زياد ، وصاحب النفقات : سهيل بن نفس ، وعامل القيروان من قبله : منصور بن عمار في حوالي ٤٠٠ (أربعمائة) رجل . أما عن شدة الحصر فصورها فضل خليل في الاتصال بالقائم حتى عن طريق الحمام . الأمر الذي أدى الى طلب الأمان والنزول الى أعوان أبي يزيد متدليا بالحبال ، واعطاء أمان مكتوب له ثم حملته الى خيمة أبي يزيد حيث قيد بالسلاسل ، قبل أن يقتل بعد يومين بموافقة أبي عمار الأعرجي مع أصحابه في حكومة القيروان المحلية . وبينما مات خليل واقفا وهو يضرب بالسيف ، حال الأمر أحمد بن يحيى القاضي جزعا ، فتسارعت كفيه تقتل الفضلاء .

الناس مع أبي يزيد لقنال الشيعة (٤٩) .

ويفضل انضمام شيوخ القيروان الى أبي يزيد ويفضل مغامرة بنو كملان الكتامية في صفوف ميسور ، وهو في موقفه الاستراتيجي عند ملتقى الطرق بين القيروان والمهدية ، تكرر استقرار الثائر الذي حسناو حينئذ يحمل لقب « شيخ المؤمنين » ، في القيروان بعد هزيمة جيش ميسور الذي لقي مصرعه في المعركة في ١٢ من ربيع الأول/ ٤ نوفمبر ٩٤٤ م (٥٠) .

الهجوم على منطقة الساحل وحصار المهدية : (انظر شكل ٣ ص ١٨٠) :

وهنا شعر أبو يزيد بقوة ، وبقرّب فوزه النهائي ، فسير الكتب بها حقه من النصر الى عامة البلاد ، بصفته ولي الأمر الشرعي ، كما بدأ يتطلع الى تأكيد سلطانه عند الملوك في الخارج ، فبعث رسله مع وفد من أهل القيروان الى الخليفة عبد الرحمن الناصر بقرطبة وهو يعين الطساعة له ويلتزم بالدعاء له من فوق المنابر (٥١) . وبذلك تحول شيخ المؤمنين من محتسب ناسك الى ملك مرفه ، فترك لبس الصوف وركوب اقماع ، وارتدى ثياب الديباج والحريز ، وركب صهوة الخيل ، وجمع في حريمه أصناف الجوارى لم يفرق بين الحرة والأمة ، ولا بين الأخت وأختها على أساس ملك اليمين (٥٢) . وكان لهذه الأنباء أثر سييء في أطراف المهدية وفي زويلة

(٤٩) ابن عذاري ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٣٠٨ - ٣٠٩ - حيث تتبع ذلك رواية أخرى تنص على أنه عندما استقر أمر أبي يزيد ، ورأى أن الشيعة كاد يبيد ، دبر مكيده يتخلص منها من حلفائه مشايخ القيروان عن طريق كشفهم أمام الأعداء أثناء القتال ، الأمر الذي أدى الى العداء بينهم وبينه . ومع أن كل هذه الأحداث قد سجلها ابن عذاري سنة ٣٣٢ هـ / ٩٤٤ م فمن الواضح أن قتل أولياء الله ، شهداء مشايخ المالكية بالقيروان ، يوضح بعد حصار المهدية ، عندما نازم ووقف القسام .

(٥٠) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٤٢٥ - حيث النص على حمل رأس ميسور الى القيروان والطواف بها تشهيرا . هناك - راقن الاحتجاج الدعوة ص ٣٣٢ ، يحون الأخبار للداعي إدريس ، ص ١٠٤ . وما بعدها حيث النص على سعي كملان الكتامية في التخلص من القائد الصقلي مع تعصباته . في سير المعركة التي انهزم فيها أبو يزيد - تكتيكيا - كما كانت عادته - ثم هودته المفطرة على ميسور الذي أسبب بضره سهم في الدماغ . ثم إقامة الرجال في معسكر ميسور بشن الفجارات وبتنجز الجندون ، وحمل القمام والسبي اليه .

(٥١) ابن خلدون ، ج ٧ ص ١٤ - مع النص على تكرار مثل هذه السفارة سنة ٣٣٥ هـ / ٩٤٦ م . بمعرفة ابنه أبيب .

(٥٢) يحون الأخبار ، ص ١١٠ - وحيث النص أيضا على أن أبا يزيد كان يأمر

يقتلون الرجال ويسبون النساء ويحرقون المدينة ، ويشقون الفروج ويحرقون البطون حقيقة لا مجازا ، بحثا عن الذهب الذي كان يخفيه البعض في أماكن حساسة من جسمه ، وعندما وجد البربر بعضه غالوا في التمثيل بالناس طمعا في المزيد ، « حتى لم يبق في أفريقية موضع معمور ولا سقف مرفوع » ، كناية عن عظم المحنة ، كما تقول الرواية (٥٣) .

واستعدت المهديّة للحصار بحفر الخنادق حول أرباضها اعتبارا من آخر ربيع الثاني ٣٣٣هـ / ١٨ ديسمبر ٩٤٤م (٥٤) ، كما أرسل الكتب إلى كتامة يدعوهم إلى الإسراع في القدوم إلى المهديّة « بالحيل والرجال لجهاد الفاسقين الكفرة المارقين ، أهل أوراس ، إذ جهادهم أفضل من جهاد المشرّكين » ، الذين نزلوا غير بعيد من المهديّة (٥٥) . وهنا أسرع أبو يزيد بالرحيل نحوها حيث نزل على بعد ١٥ (خمسة عشر) ميلا منها ، وأخذ يبيت سراياه في كل نواحيها ، وبعد لقاء مع الكتّامين وأتباع القوائم الذين انهزموا أمامه ، وصل إلى باب الفتح (المصلى) بل وحاول اقتحام المدينة من ناحية البحر (٥٦) .

وبدأت الأمور تتحسن بالنسبة للقوائم عندما استجابت صنهاجة إلى دعوته ، وحضر زعيمهم زيري بن مناد ليرجع كفة كتامة ، في وقت كانت المهديّة تعاني من الحصار الذي استمر من جمادى الأولى ٣٣٣هـ / ٩٤٤م إلى

(٥٣) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٤٢٦ ، وقارن عيون الأخبار ص ١٠٨ ، ابن خلدون ، ج ٧ ص ١٥ - حيث النص على القتل والنهب ، وأن « من أفلته السيف أملاكه الجوع » .
(٥٤) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٤٢٦ ، وقارن عيون الأخبار ص ١١١ - حيث ٢٢ ربيع الأول / ١٥ نوفمبر .

(٥٥) عيون الأخبار ، ص ١١٢ - حيث النص خطساب منها كان قد وقع بين يدي أبي يزيد .
(٥٦) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٤٢٧ ، ابن خلدون ، ج ٧ ص ١٥ - عيون الأخبار ، ص ١١٥ - ١١٨ ، وانظر افتتاح الدعوة ، ص ٣٣٣ - حيث النص على أن الأولياء من كتامة يوقعهم كانوا يقاتلون أثناء حصار المهديّة بلا نظام ولا رئيس عليهم ، ص ٥٥٤ - حيث لفت النظر تنجيا من كيفية حدوث الثورة والدولة بها ٧٠٠٠٠ (سبعون ألف) مقاتل ويزيدون ، وقارن عيون الأخبار ص ١١٥ - حيث النص على أنه عندما سار أبو يزيد نحو المهديّة في ٣ جمادى الآخرة سنة ٣٣٣هـ / ٢١ يناير سنة ٩٤٥م ووجه البربر إلى باب الفتح كان منهم أهل التبروان ، ومن جبل أوراس وأعمال أفريقية ، وانظر ص ١١٧ - ١١٨ - حيث النص على أنه عندما كان السجّال (أبو يزيد) على باب الفتح كان القوائم في مجلس له على البحر ، وكان مستبشرا لا يكتئب . وأنه عندما انصرف أبو يزيد ، قال القوائم لحافيه : « ليس تروى بعد هذا بالغا إلى هذا المكان أبدا ، فاستبشر القوم » .

مطلع سنة ٢٣٤ هـ / أغسطس ٩٤٥ م أي قرابة ثمانية أشهر ، والذي شارك فيه بربر أفريقية وطرابلس والزاب وخاصة الزناتية منهم (٥٧) . وبسبب قطع الطريق وشده الحصر والجوع والغلاء ، رغم ما قام به القائم من فتح الأهراء وتوزيع الطعام ، هاجر كثير من أهل المهديّة من السوقة والتجار عن طريق البحر إلى صغية وطرابلس ومصر ، بل وإلى بلاد الروم ، فلم يبق في المهديّة سوى اجند . وتشنع الروايات التسييعية بأبي يزيد فتقول : « أنه لما أقفرت البلاد ولم يعد هناك ما ينهب تركه رجاله ، فلم يبق معه الا حوارة إلى جانب الرواد الاوائل من أهل جبل اوراس . والاتباع الجدد من بنى كملان الكتامين (٥٧) م . وهنا وجه أبو يزيد أنظاره نحو القيروان حيث طلب من أهلها الخروج اليه بالفازات (المظلات) والسلاح والعدة ، وعندما وصل مددهم زحف بهم الزحفة الثالثة نحو المهديّة في ٢٣ رجب ٢٣٣ هـ / ١٢ مارس ٩٤٥ م (٥٨) . وأمام تحريض القائم لرجائه من الكتامين وتسييعهم بالحوارين والأنصار وأبناء المهاجرين والأنصار ، كانت هزيمة أبي يزيد الذي قتل فيها كثير من أهل القيروان ، وهي معركة شهداء المالكية التي يوردها ابن عذاري وينسبها إلى مخامرة أبي يزيد والكتامين الذين كشفوا أهل القيروان ليتخلص منهم (٥٩) .

أما هزيمة أبي يزيد الرابعة فكانت يوم الجمعة ٢٣ شوال من سنة ٢٣٣ هـ / ١٠ يونيو ٩٤٥ م وبها تكرر الفشل وخاب الأمل بالنسبة لأصحابه ، والظاهر أنها كانت فرصتهم الأخيرة في السلب والنهب والقتل والفساد ، وتكرار تلك المشاهد المروعة من : « شق البطون والأرحام طلباً

(٥٧) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٤٢٦ - ٤٢٧ . ويعدد الكتاب ٤ (أربع) زحفات جريئة ضد المهديّة إلى آخر شوال / ٢ أغسطس ٩٤٦ م . كان الشار العتيد يعرض فيها نفسه للخطر ، كما حدث عندما نجح وكان أهل الأرباض يأخذونه باليد ، فلم يتخلص الا بصعوبة لكي ينسحب نحو معسكره في ترونت ويحفر حوله خندقاً .

(٥٧) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٤٢٧ - ٤٢٨ .

(٥٨) عيون الأخبار ، ص ١٢٠ .

(٥٩) انظر فيما سبق ص ١٧٩ ، ص ٤٩ . ولقد خلد جعفر ابن منصور البيهقي

(ابن حوشب) هذا النصر بقصيدة يؤكد فيها علم الأئمة بالحدثان ومنها :

الحمد لله هذا الفتح والظفر هذا الذي كان للإيمان ينتظر

سيهزم الجمع إذ تجاوزوا الحربكم والمارقون فقد حابوا وقد خسروا

فإن وعد أمة المؤمنين لكم حق به جاءت الآيات والسور

عن جده المصطفى الهادي وحيه والله العز جاء المسلم والخير

لجبايا الدنانير ، ، الأمر الذي يذهب بأيمان الناس وعقولهم (٦٠) .

، مريض من المهديين :

ومنذ شهر ذي القعدة سنة ٣٣٣هـ / يونية ٩٤٥م بدأت الدائرة تدور على الثوار ، وأخذ الجند الفاطمي يحقق عليهم بعض الانتصارات المحلية ، التي لم تمنع بعد مآسى الحصر والجوع والهجرة ، وأعمال العنف وقطع الطريق . ومع مطلع سنة ٣٣٤هـ / أغسطس ٩٤٥م قامت الانشقاقات في المعسكر النكاري ، وانضم بعضهم الى المعسكر الفاطمي ، كما جرب البعض طريق الخلاص في الدعوة الخليفة بغداد (٦١) .

وهال أبو يزيد هذا الفشل الذي كاد يودي به فجأة فاضطر الى العودة سريعا نحو القيروان التي وصلها في أوائل صفر / منتصف سبتمبر ، تاركا معسكره نهبا لرجال القوائم الذين أفاقوا من شدة الحصر ، بتوفر الحاجيات المعيشية ورخص الأسعار . وتصور الروايات المعادية سوء حالة أبي يزيد وقلة رجاله في معسكره بموضع المصلى خارج المدينة ، عندما تشير الى أن صبيان القيروان خرجوا يلعبون حوله ويضحكون منه ، بل وأن أهل القيروان فكروا في القبض عليه (٦٢) .

وهكذا بدأت أحوال المهديّة في التحسن ، إذ كاتب أهل القيروان القوائم ، كما قامت الثورة على أبي يزيد في بعض البلاد كما في سوسة التي أمدّها القوائم بمراكب الطعام وكذلك تونس وباجة (٦٣) . وفي الوقت

(٦٠) أنظر عيون الأخبار للداعي ادريس ص ١٢٥ - حيث يروى عن بعض القيروانيين أنه شاهد إمرأتان في شهر رمضان قبل المعركة تكيان وتقولان : « لو كان في السماء إله لغير هذا الفعل » . ويرد الداعي على تلك القولة بما هو معروف تقليديا من أن الجنة تحصى المؤمنين وتطهرهم .

(٦١) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٤٢٩ - ٤٣٠ ، وقارن عيون الأخبار للداعي ادريس ص ١٢٧ - ١٣٣ - حيث النص على هروب أصحابه نحو القيروان ، فلم يبق معه إلا امرأة وبنتو كملان وأوراس .

(٦٢) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٤٣٠ ، قارن عيون الأخبار للداعي ادريس ، ص ١٢٤ وما بعدها حيث عتقه صاحبه أبو عمار الأعشى للتشافل عن الجهاد ، وأكل لذية الطعام ولبس اللين من الثياب ، وانفضاض الأبتكار ، وما ترقب على ذلك من توبة أبي يزيد بالرجوع الى لس الصوف وركوب الحمار ، ابن خلدون ، ج ٧ ص ١٥ .

(٦٣) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٤٣١ ، وقارن عيون الأخبار ، ص ١٣٦ - ١٣٩ - حيث =

الذى كانت تزداد الفرقة في صفوف أبى يزيد. وكان يتآمر بعض أصحابه على قتله ، أتى اضطراب العيوان نتيجة سوء سلوك رجاله ، ليزيد الحالة سوءا لما استمر عصيان المدن عليه ودخولها في طاعة القائم ، كما حدث في جزيرة رادريس (١٤) .

ورغم ما أحاط بأبى يزيد من الصعاب فقد كان الرجل من ذلك النوع من الرجال الذين لا تزيدهم الشدائد الا قوة . وذلك انه كان يحاول تقويم الموقف المتضخم دون هوانة او ملل . ولقد خوف أهل الزيروان من القائم ، كما انتقم من أهل تونس وباجة ، الأمر الذى يذكر بإيام فوته . فهو بعد ان يهزم في ربيع الأول سنة ٣٣٤هـ / أكتوبر ٩٤٥م أمام استتال العسكر الفاطمى وارتفاع منوياته ، يمود من جديد في جمادى الثانى / يناير ٩٤٦م لحصار سوسة القرية من المهدية بالندبابات والمنجنيقات (٦٥) .

ولكنه مع ظهور على بن حمدون (ابن الأندلسى) عامل المسيلة الذى استجاب لنداء القائم فجيش كتامة في منطقة قسنطينة ، كما نشط في حشد الرجال من بلاد الزاب ، تعدل ميزان القوى تماما لصالح الفاطميين في بلاد كتامة وفي الزاب ، حيث هزمت هوارنة واستعبدت مدينتا تيجس وباغاية رغم نسيابة على التمسعة (٦٦) ، وذلك قبيل وفاة القائم في شوال سنة ٣٣٤ هـ / يولييه ٩٤٦ م .

قبض على عامل مخلص بسوسة : احمد الهوارى ليث القائم مكانه : عباس بن منذر مع المراكب لضبطها حتى قدم اليها الحسن بن ماكسين لاستقرت أمورها . اما عن تونس وباجة فاستمر الصراع بين من عينهم القائم وبين من يعت بهم « الدجال » لفترة من الوقت عرف فيها أهل كل من المدينتين صخفا من الحاناة والعذاب حتى أصبحت « تونس خرابا لا مقام فيها ولا أهل لـ » . اما عن باجة فكانت الأولياء يقيمون بها نهارا ، ويخرجون عنها ليلا إلى الصعاري - حذرا من البربر .

(٦٤) عيون الأخبار - للذاهى ادريس ، ص ١٣٩ - ١٤٣ .

(٦٥) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٤٣٣ - ٤٣٤ ، قارو عيون الأخبار ، ص ١٥٠ .

(٦٦) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٤٣٣ - ٤٣٤ ، ابن خلدون ج ٧ ص ١٥ ، وقارن عيون الأخبار ، ص ١٤٥ - ١٤٦ - حيث قام بجولة كبرى في بلاد الزاب انضم اليه فيها حسن بن منصور مقدم بنى عراش ، وتوبان بن أبى سلاس . ولكن مفاجأة أيوب بن أبى يزيد له انتهت بهلاكه في بعض الأوعار . وقارن ابن حنادة ، ص ٣١ - حيث سقط من جرف عال فانكسرت يده ورجلاه وظهره .

نهاية الثورة على عهد المنصور :

ومع خلافة المنصور الذي كان في غفوان الثانية والثلاثين من عمره ،
يبدأ انحسار الثورة الزناتية ، وتنتهي دولة أبي يزيد النكارية ، فلقد جمع
المنصور كل قواه النهرية والبحرية لمطاردة أبي يزيد الذي انهزم من أمام
سوسة الى القيروان ، ولكنه لم يتمكن من دخولها بسبب رفض أهلها له ،
ودخلهم في طاعة المنصور الذي سار اليهم يوم الخميس ٢٥ شوال ٣٣٤هـ /
٢٩ يولييه ٩٤٦ م ، ووجد فيها جماعة من حرم أبي يزيد وأولاده فحملهم
مكرمين الى المهديّة (٦٧) . بينما سار أبو يزيد بأصحابه الى ناحية سببة
القرية . وبعد محاولات غير مجددة للعودة الى القيروان باشر المنصور فيها
القتال بنفسه في مواجهة أبي يزيد وحشوده ، وأظهر خلالها شجاعة نفسية
نادرة وكفاءة شخصية رائعة في مواجهة الأهوال ، وزاد من هيئته في قلوب
الناس وهيا الصمود والظفر للرجال (٦٨) . وهي المطالبة التي استمرت على
جبهة القيروان من ذي القعدة ٣٣٤هـ / يولية ٩٤٦م الى سنة ٣٣٥هـ / أغسطس
٩٤٦م . ورحل أبو يزيد عن أفريقية تاركا في أرض المعركة بالقيروان أكثر
من عشرة آلاف رجل من عسكره بعد الهزيمة المروعة التي لحقت به يوم ١٣
من المحرم / ١٤ أغسطس (٦٩) .

(٦٧) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٤٣٤ - ٤٣٦ ، وقارن عيون الأخبار للداعي أدریس ، ص
١٦٥ - ١٧٠ - حيث النص على أنه عندما وصل أبو يزيد مغولا عند باب أبي الربيع شتمه
أهل القيروان ، ونادوا « لا طاعة الا طاعة اسماعيل » ، ثم انهم أحاطوا بدار أبي عمار الأعمى
وحاصروه ٥٠٠ فأجمع رأيهم أن ينصرفوا مؤقتا عن القيروان .

(٦٨) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٤٣٦ - ٤٣٧ ، قارن عيون الأخبار ، ص ١٦٦ ، ١٧١ وما بعدها
- حيث الإشارة الى سرايا أبي يزيد الاستطلاعية وحفر المنصور خندق حول عسكره - في
ذي القعدة ، وبطولة المنصور في الدفاع عن معسكره بسيف جده ذي الفقار ، والمظلة مرفوعة
على رأسه ، فوضعه معروث ، والأولياء في ٥٠٠ فارس فقط والبربر في ٣٠ ألفا (ص ١٧٣) ،
الأمر الذي جعل تلك الملحة المنقبة موضوعا لتصانيد الشعراء مثل عبد الله بن أمّيج الذي
قال في تلك المناسبة :

ويوم بارض القيروان شهدته وقد
ومثل محمد بن الحارث بن سعيد الأيروطنى ، الذي قال :
ولم أر كالممنصور بالله ناصرا
لدين ولا أحسن للملك امنعا
(ص ١٧٣ - ١٧٧)

(٦٩) عيون الأخبار ، ص ١٩١ - ١٩٣ ، ص ١٩٦ - حيث نسخة الكتاب للوجه الى
المهديّة بهذا الشأن .

طلب المعونة من عبد الرحمن الناصر :

وخلال تلك الفترة كان أبو يزيد متحيراً ما بين قطع الطريق ومهاجمة المهديّة ، وبين الوعد بطاعة المنصور نظير نسائه وبناته وأولاده ، ونساء رجاله ، الذين أرسلوا من القيروان إلى المهديّة (عيون الأخبار ، ص ١٨٤ - ١٨٧) أو مواصلة الصراع بطلب المعونة من عبد الرحمن الناصر بقرطبة ، حيث أرسل له ابنه « يستنصره » ويعده بالقيام معه « ، وإن كانت المعونة العسكرية والمالية التي بعثها الناصر مع ابن أبي يزيد لم يقدر لها الوصول إلى هدفها ، إذ وقعت بين يدي عامل تاهرت الفاطمي : عبد الله بن بكار (٧٠) .

ولا شك أن عبد الرحمن الناصر أصيب بخيبة أمل نتيجة لفشل معونته في تاهرت ، كما هو الحال بالنسبة إلى أبي يزيد ، بل وربما أصابه القلق للموقف الصعب لحليفه المتوقع ، فاستجاب لمراسلاته الملحة ، وشرع في تجهيز حملة انقاذ بحرية كبيرة تحمل العدد والسلاح والأموال ، وتخرج بها من قاعدة المرية . وعهد الناصر بأعدادها إلى عامله على مدينة بجاية بساحل جنوب الأندلس : محمد بن رماحس . والظاهر أن الرجل الذي كانت له علاقات تجارية ما بين المغرب والأندلس تباطأ في تنفيذ أوامر الناصر الذي كان قد أسرع بإرسال كاتبه إلى المرية لأعداد المراكب . وبناء على ذلك فعندما سار إلى المرية متأخراً بعد زجر الناصر له ، كان عليه أن يقضى فصل الشتاء من سنة ٣٣٤هـ / ٩٤٤ - ٩٤٥م هناك وعندما تحسنت الأحوال الجوية سار ابن رماحس بالأسطول إلى مدينة بونة (عنابة من شرق الجزائر حالياً) ، ولكنه لم يكد يصل إلى أسوار المدينة حتى بلغته أنباء هزيمة أبي يزيد ، فكرر رجاءه إلى ناحية تنس ومنها إلى الأندلس ، بعد معاناة شديدة في أهوال البحر ، غرقت فيها أكثر مراكبه . كما تقول الرواية الفاطمية ، في ذلك الربيع المبكر ، فلم ينج الرجل بنفسه إلا بشق الأنفس (٧١) .

محمد بن خزد الزناتي في طاعة المنصور :

والهم أن أبا يزيد رحل بعد الهزيمة إلى بلاد الزاب وتبعه المنصور منذ أواخر ربيع الأول ٣٣٥هـ / أكتوبر ٩٤٦م ، ولحق به قرب باغاية ، ففر أمامه

(٧٠) عيون الأخبار للدامي ادريس ، ص ١٨٧ - ١٨٨ ، وم ٣٤٤ ص ١٨٨ - حيث الإشارة إلى ادريس (من الزيريين) ج ١ ص ٢١ - ٢٢ .
(٧١) عيون الأخبار للدامي ادريس ، ص ٢٠١ - ٢٠٢ .

نحو طنبنة (عاصمة الاقليم) في ٢٠ ربيع الآخر / ١٩٦٠ (نومبر ٧٢) . وهنا تحلى من الثائر العنيد واحد من اثنين جداله ، هو محمد بن خزر الزناتي احدى دخل في طاعة المنصور بعد ان كان في صفه الماسر الاموي ، واخذ على عاتقه التخلص من الثائر وتتبّع آثاره نظير ما رعد به الامام من المال الذي بلغ ٢٠ (عشرين) حملا . ومن طنبنة انتهت المطاردة نحو تسطيلية وبلاد الجريد الى بسكرة حيث وافاد جعفر بن حلي بن حمدون ، صاحب المسينة بالحيل والابل . وانهت المطاردة (الاولى هذه) باعتصام أبي يزيد بآخ ملاحية نوار المغرب الأوسط ، وهو جبل أوراس العنيد ، الذي بدأت منه الثورة - ككل ثورة - واستقر بين الأباضية النكار في موضع منه يعرف بجبل برزال ، موطن بني برزال ، رواد الثورة الأوائل ، ولكنه لم يتمكن من الثبات أمام القوات الفاطمية ، رغم وعورة المنطقة . وبذلك اضطر الى سلوك القفر الذي لم يسلكه جيش قط ، والمنصور مجد في اثره ، مصر على تعقبه اياه ، رغم ما تعرض له الجيش من الشدة حتى بلغ ثمن غليق الدابة دينارا ونصف دينار ، وبلغ ثمن قربة الماء دينارا - حيث لا عمارة وراء تلك القفار الا بلاد السودان . وعندما اتضح ان الثائر الزناتي « اختار الموت جوعا وعطشا على القتل بالسيف » ، عاد المنصور الى بلاد صنهاجة حيث وصل اليه زيري بن مناد ، مددا بعساكر صنهاجة ، كما أتت كتب محمد بن خزر تعرفه بالخوضم الذي لجأ اليه أبو يزيد في تلك القفار (٧٣) .

(٧٢) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٤٣٨ ، عيون الأخبار ، ص ٢٠٦ .

(٧٣) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٤٣٨ - ٤٣٩ ، وقارن عيون الأخبار للدهلي ادرسي ، ص ٢٠٥ - عز محمد بن خزر ، ص ٢٠٧ - عن جعفر بن علي ابن الأندلس - ص ٢١١ - عن قتال الثائر في بسكرة واعتصامه بعد الهزيمة بالمسالك والأوعار ، ص ٢١٢ - عن الوصول الى بني برزال ، ص ٢١٤ - حيث وصف القتال في كتاب الامام الذي دار في ١٤ جمادى الأولى سنة ٣٣٥هـ / ١٢ ديسمبر ٩٤٦م مع الثائر ومن معه من حوارة وبني برزال وبني كملان . وفي صير الإمام قال بعض الشعراء :

احمد ، ولم يفخر بها انسان

لك يسل يوم آية لم ياتها

وفي ذلك اليوم قال المنصور لنفسه :

أجرب القفار وأطوى الرمال

وأحمل نفسي ليهول مهول

رحس ٢٦٩ - عن الهروب في الرمال ، ص ٢٢٠ - عن غلاء الأسعار والمنااة في تلك القفار المتصلة ببلاد السودان ، ص ٢٢٢ - عن موالة زيري بن مناد ، وكتاب محمد بن خزر عن المكان الذي انتقر فيه محمد .

معركة قلعة كيانة واسر أبي يزيد :

والظاهر ان ما قام المنصور من الجهد أدى به الى المرض (٧٤) ، وكانت فرصة لكي يعود أبو يزيد الى الزاب مرة أخرى . وعندما شفى المنصور من المرض كان أبو يزيد معتصما بقلعة كيانة (٧٥) ، ورجالہ ينزلون لقطع الطريق وتخطف الناس ، ولكنه كان قد فقد أهم أعمامه من بني كملان وهوارنة الذين دخلوا في طاعة المنصور (٧٦) . وهكذا انتهى التأثير العجيب ، المعوق بقصر القامة والرج ، وقبح الصورة ، وساعده الأيمن : أبو عمار الأعمى ، مستشاره الأول ومنظر المذهب ، بعد قتال يائس من جانب الثائر في قنة الجبل في قلعة كيانة ، والحاج رافع في تتبع أثره من جانب الامام الفاطمي الشاب ، اعتبارا من ١٠ شعبان / ٧ مارس ٩٤٧م حتى أول رمضان / ٢٦ مارس ٩٤٧م بعد ملاحم راقصة في النهار وفي الليل ، تحت المطر وفي ضوء المشاعل ، تماسك فيها الرجال بالأيدي ، ورموا بالصخر من رؤوس الجبال ، وكثير القتل حتى ظنوا أنه القضاء . فقد سقط أبو يزيد في الوعر في مكان صعب إثر محاولة يائسة في الخروج من الحصر في حيلة خارجية ، وهو محمول على أيدي الرجال ، فأدرك وحمل الى المنصور مشغفا بالجراح التي مات منها في أواخر المحرم سنة ٣٣٦هـ / أواخر أغسطس ٩٤٧م (٧٧) .

(٧٤) عيون الأخبار ، ص ٢٢٢ - بقى مغفى عليه مدة ١٢ يوما .
(٧٥) أنظر افتتاح الدعوة ، ص ٣٣٣ و ٢ ، والمجالس والمسايرات ، ص ١١٥ - حيث الإشارة الى انها القراءة الصحيحة على عكس « كتابة » عند ابن الأثير وابن خلدون ، أو كقراءة في سيرة جود ، وكيانه في ابن حماد وان كانت في الترجمة الفرنسية صحيحة في شكل كيانة .

(٧٦) ابن الأثير ، ج ١ ص ٤٤٠ - حيث الإشارة الى اقبال هوارنة وأكثر من مع أبي يزيد .
يطلبون الأمان ، فأمنهم المنصور ، وأنظر المجالس والمسايرات ، ص ٢٥٧ - حيث الإشارة الى ان بني كملان كانوا يكفرون عن شغلهم هذا في حق القائل عندما انظفوا الى جيش المنصور فيما بعد .

(٧٧) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٤٣٩ - ٤٤١ - حيث التاريخ ٢٩ المحرم ٣٣٦ / أغسطس ٩٤٧ ، وقانون عيون الأخبار للداعي ادريس ، ص ٢٢٤ - متابعة مخلد في أدلة على ١٢ ميلا من المسيلة في ١٠ شعبان ، ص ٢٢٥ - هرويه (مخلد) ومتابته في رؤوس الجبال والاودية وعقر زيري لجواده وقتل ابنة يونس ومعلمته بين كنفه وهربه ص ٢٢٦ - جعفر بن منصور .
الذين كان حاضرا وسمى المعركة بيوم المسيلة ، وفيها قال في المنصور :

يهيأ لك النصر فيما دمت من سبب
يا سيد الخلق من عجم ومن عرب
ص ٢٢٠ لجوء أبي يزيد الى قلعة شاكور في جبال كيانة من جبار عقار ، ص ٢٣٢ متابعتة في الوعر ومع بني كملان ، ص ٢٢٤ - البربر يلحقون الصخر من أعلى الجبال ، ص ٢٣٤ =

نجح في ردع التوار ودفعهم بعيدا ، يوم الجمعة أول صفر / ٢٢ أغسطس سنة ٩٥٧م (٧٦) .

وإذا كان معبد بن خزر ، الذي كان أخوه محمد في طاعة المنصور .. قد ارتدع وكف عن الفساد (٨٠) ، فإن الفضل ابن أبي يزيد ظل يمثل اعتداد ثورة أبيه النكارية . فلقد ظهر الفضل في جبل اوراس ورموه على الناس بأن أباه « حتى لم يمت » ، الأمر الذي اجتذب عامة الناس وأربابهم من البربر ، فسار بهم إلى قسطنطينية وفسدة من بلاد الجريد ، حيث خافه الناس وتوقعوا سقوطها بين يديه . وعندما خرج إليه المنصور في أول شعبان من سنة ٣٢٦هـ / ١٥ فبراير ٩٤٨م اتبع الفضل أسلوب والده في الفرار إلى الرمال ، مما دعا المنصور إلى فتح بعض القري والحصون التي كانت لأعدائه ، مثل : قصر حمونس وبرحمانه ، قبل الوصول إلى سبيطة ثم قفصة التي وصلها في ٢٠ شعبان / ٧ مارس ، بينما عاد فضل إلى جبل اوراس من حيث هاجم باغابة (٨١) . وكان على المنصور أن يثار من عامة بني يفرن في المنطقة ، من : كلاله وبرادية وبني شداد وبني نمت ثم يتبع أصول أهل بيت أبي يزيد من بني واسين ليستأنصلهم ، وكذلك المكناسيين ، من : بني مولاب ومزرعة ، الذين لجأت فلولهم إلى حصن ماواس ، حيث وقع عبء الاستيلاء عليه على عاتق ولي العهد ، في رواية منقمية أظهر فيها من رباطة الجأش وحسن التدبير ما كان موضوعا لشعر جعفر بن الحسن منصور اليميني (٨٢) .

(٧٦) أنظر ابن الأثير ، ج ٨ ص ٤٤١ - حيث النص على : محمد بن خزرون بدلا من معبد ، وقارن ابن خلدون ج ٧ ص ١٦ ، عيون الأخبار للدهلي ادريس ، ص ٢٨٣ - حيث النص على معبد بن خزر فقط دون الفضل ، وعن أعمال كل من معبد وفضل أثناء الكفاح أنظر نفس المصدر ، ص ٢٥٢ ، ٢٥٤ - حيث مهاجمتهما لمدينة طينة وانهزامها بعد أن تحالفا معا من حيث أن معبد كان يرى رأى الخوارج .

(٨٠) عن نهاية معبد الذي قبض عليه وقتل سنة ٣٤٠هـ / ٥١ - ٩٥٢م أنظر ابن خلدون ، ج ٧ ص ٢٦ .

(٨١) عيون الأخبار ، ص ٢٩١ وما بعدها - حيث النص على وصول فضل إلى مدينة مديلة وعاملها القاطن هو باطيط بن يعلى بن باطيط الزناني ، وقارن ابن خلدون ، ج ٧ ص ١٦ حيث يفتقد ذلك في اختصاره .

(٨٢) أنظر عيون الأخبار ، ص ٢٩٤ - ٢٩٩ - حيث النص على أن المنصور وجهه في ولي عهده رغم صغر سنه ، ما لا يوجد في شعر الأفيه - ومن شعر جعفر بن الحسن ذي الوقعة :

النعم بمرك وما ابن خير الناس ويسا جيساك الله في مساواس

وامام اخفاق الجيوش النظامية في متابعة - حرب العصابات التي كان يشنها فضل بن أبي يزيد في منطقة باغاية ، لا بأس أن يكون المنصور قد لجأ الى أسلوب الخداع والغدر فأوعز الى بعض رجاله في المنطقة ، وهو ما طيعه ابن يعلى أن يحتال في قتل فضل بن أبي يزيد بطريقة أو أخرى .

وهكذا خرج المنصور وبصحبه الى عهده المزمع من حصن ماواس في ٥ رمضان ليصل الى المنصورية في ١٥ من رمضان قبل الرحيل الى المهديّة في ٢٥ رمضان (٣٣٧هـ / ٢٩ مارس ٩٤٩م) . وفي ٢٠ من ذي القعدة / ٢٤ أبريل كان ماطيط بن يعلى يصل الى المهديّة برأس فضل بن أبي يزيد بعد أن غدر به وهو يحاصر باغاية ، الأمر الذي كان موضوع احتفال الداعي جعفر بن حسن منصور النيمن (٨٣) .

وبمقتل فضل انفض أصحابه جميعا . وباجتثاث أصول بني يفرن من آل بيته ثم القضاء على الدعوة « الزيدية النكارية » ، انتهى أهم أدوار بني يفرن السياسية ، وراثهم ابن خلدون اثر ذلك « بالبقاء لله » كما هي عادته في نعي الملوك والدول (٨٤) .

تهمة المغرب :

وتطلبت رحلة العودة الى المهديّة (في شهر رمضان سنة ٣٣٦هـ/مارس ٩٤٨م) من المنصور أكثر من ٦ (ستة) أشهر كان عليه أن يقضيها في اقرار السلام في المنطقة ، وفي بلاد المغرب البعيدة - ففي المسيلة ، بلد جعفر بن علي بن حمدون الأندلسي أقام المنصور ١٧ (سبعة عشر) يوما ، أقيم أثناءها «مهرجان النصر» الذي طيف فيه في شوارعها بجلد أبي يزيد المنفوخ كتمثال بالثمن ، وهو في القفص مع القردين اللذين يلعبان عليه ويصفعانه ، وفيها واقاه زعماء الكتامين المنشقين من بني كملان يتضرعون اليه ويسألونه العفو ، فقبل منهم وأصدر لهم سجلا بالأمان ، وشملهم

(٨٣) انظر عيون الأخبار . ص ٣١١ ، حيث قال في المنصور شعرا ، منه :
أراد النجاة إذ فر فضل بن مخلد
لينجو فاجتباء طول التمدد
ولم يزل المنصور بالله قبادرا
يبسده عداه بالقسا المنهد
(٨٤) ابن خلدون ، ج ٧ ص ١٦ ، وقارو عيون الأخبار للداعي ادريس ، ص ٣١٠

باحسانه (٨٥) *

حملة تاهرت ضد الزناتية أتباع الناصر :

وعلى عكس ما كان متوقعا من اتجاه المنصور جنوبا بشرق ، عبر بلاد الزاب ، نحو القيروان والمهدية كان عليه أن يقوم بحملة أخرى الى منطقة تاهرت في الشمال الغربي . فقد رافقه الأنبا من تاهرت تفيد ان المدينة مهدمة من قبل ابن واليها الأسبق ، وهو : حميد بن يصل المكناسي الذي غلب على الضواحي ، وطمع في أخذ المدينة نفسها ، فحضر عليها الحصار . وكان حميد الذي عرفناه من أولياء المهدي في تاهرت سنة ٣٢١هـ / ٩٢٣م ، قد خرج على القوائم سنة ٣٢٨هـ / ٣٩ - ٩٤٠م لكي يدخل في طاعة الناصر الأموي بقرطبة ، ويحصل منه على ولاية الغرب . ولقد انتهز الزناتية من بنى خزر فرصة النجاح الذي حققه ابن جلدتهم أبي يزيد ، وهاجموا مع حميد بن يصل تاهرت في أواخر سنة ٣٣٣هـ / ٩٤٥م على ما نظن ، وقتلوا عامل المدينة عبد الله بن بكار وأسروا قائدها مسرورا الخادم (٨٦) فلما ظهرت علامات الفشل على ثورة أبي يزيد انفض الحلف الزناتي المكناسي بدخول محمد بن خزر في طاعة المنصور ، وان بقي أخوه معبد متعاطفا مع فضل بن أبي يزيد . وهنا لا بأس أن يكون حميد قد أراد أن يحل وقتئذ محل الزناتية في تاهرت رغم ضعف موقفه .

وهكذا كان على المنصور أن يغادر المسيلة الى هناك ، وذلك في تمام الساعة التاسعة من ليلة الثلاثاء ١٨ صفر ٣٣٦هـ / ٩ سبتمبر ٩٤٧م لكي يصل الى تاهرت بعد مسيرة ١٢ (اثني عشر) يوما بعد عصر الاثنين أول ربيع الأول/ ٢٠ سبتمبر ، ونصب المنصور معسكره خارج المدينة ، وابتدأ بتأمين أهلها قبيل الطواف بجلد أبي يزيد في أرجاء المدينة ، في مهرجان شعبي صاخب ، حسبما نظن ، وان كان في مدينة الخوارج الصفرية . ولا بأس أن يكون احتفال التشهير هذا بمثابة انذار لحמיד بن يصل الذي لم يفر الى الصحراء هذه المرة بل فيما وراء البحار الى الأندلس لدى

(٨٥) عيون الأخبار للداعي أدريس ص ٢٨٤ - ٢٨٥ *

(٨٦) انظر ابن خلدون ، ج ٧ ص ٢٦ . حيث النص على ميسور الخصى ولما كان مقتل ميسور بالقيروان أثناء ثورة أبي يزيد (ما سبق) ص ٧٩ و ٥٠ ، فأغلب الظن انه مسرور الخادم ، الوالي الجديد (انظر ص ١٩٣ و ٨٨) *

عبد الرحمن الناصر ، وكان قد دخل في طاعته (٨٧) .

مسرور الخادم وإليسا لتأهزته وتنس :

ولما كان حميد قد ركب من تنس ، مرفا تاهرت ، الى الأندلس ، فقد كان على أهلها أن يسارعوا بالقدوم الى حضرة المنصور بتاهرت لتقديم فروض الولاء والخضوع . ولقد أحسن المنصور استقبال التنسين وأكد أمانهم بإصدار سجل شريف به ، وجعل ولاية كل من المدينتين ، تاهرت وتنس ، الى قائده مسرور الخادم ، الذي احتفل بتقايده يوم الثلاثاء ، ربيع الأول / ٢١ سبتمبر ، محمولا على سرج محلي (٨٨) . وبذلك تأكد ولاء المنطقة للمهدية من جديد ، من الداخل حتى الساحل .

مرض المنصور :

وكما حدث أثناء متابعة المنصور - وهو في المسيلة - لأبي يزيد ، عندما مرض ذلك المرض الذي كان يصيبه بالاعماء الطويل ، اعتل بتاهرت أيضا علة شديدة ، وإن كانت من نوع آخر - ربما كان الذرب (البواسير) الذي عرفه ابراهيم ابن أحمد (أنظر فيما سبق ، ج ٣ ص ٢٨٣) ، وذلك أنه ظل يعاني من عدم القدرة على القعود أو القيام لمدة ٢١ (واحد وعشرين) يوما حتى أشفى على الموت ، كما يقول القاضي النعمان ، وفكر في الوصية . « حسبما يجب لله عليه » (٨٩) .

جولة أثرية في منطقة لواتة ، وتهجير قبائل كتامة :

وفي تاهرت ، بعد أن عادت اليه الصحة ، كان على المنصور أن يخضع قبائل لواتة في المنطقة ، وكانوا قد تحالفوا مع حميد بن يضل (٩٠) ، فخرج اليهم في ٨ ربيع الآخر / ٢٧ أكتوبر ٩٤٧ م ، ولكنه عندما وصل الى ديارهم ،

(٨٧) عيون الأخبار للداعي ادريس ، ص ٢٨٥ - ٢٨٦ .

(٨٨) عيون الأخبار للداعي ادريس ، ص ٢٨٦ - وقارن ما سبق ، ص ١٩٢ وما

حيث القراءة بمسور في ابن خلدون ، ج ٧ ص ٢٦ .

(٨٩) عيون الأخبار للداعي ادريس ، ص ٢٨٦ - ٢٨٧ - حيث الإشارة الى انه جميع

وجهاء القوم ليرميه ببثته في الوصية ، ولكنه ما أمسى الا مليقا ، وعادت القوة واتصلت

الصحة ، اعتبارا من يوم الخميس ٢٩ ربيع الأول / ٢٩ أكتوبر حينما خرج للتريض بناحية

نبح بناوة .

(٩٠) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١١٧ .

وجندهم قد هربوا الى رمال السودان وبراريه . وهكذا اكتفى المنصور بالقيام
بجونه بقديه في المنطقة البعيدة بالانار البيزنطية القديمة من عهد سليمان
(Solomon) قائد جستنيان ونيرودورا . لكن يعود بعد عشرة أيام ، في
٢٠ ربيع الآخر / ٩ نوفمبر ٩٤٧م الى المسيلة التي وصلها في ٢٩ من ربيع
الآخر / ١٧ نوفمبر . ومن المسيلة ارتحل فجر الخميس أول جمادى الأولى /
١٨ نوفمبر نحو سطيف حيث أقام بها ٣٠ (ثلاثين) يوما . ولقد قضى
المنصور هذه الفترة مشرفا على ما كان فرضه ، وقتل ، على قبائل كتامة
هناك من تهجير ١٤ (أربعة عشر) ألف أسرة (بيت) الى المنصورية للاقامه
بها في كنفه (عيون الاخبار ، ص ٢٨٨) . وهو بذلك كان يضرب عصفورين
يحجر واحد ، فهو من ناحية يستعملهم في الخدمة كحرس أميرى خاص ،
وهم من ناحية أخرى يقعون لديه رهينة يضمن بها طاعة أقاربهم وبنى جلدتهم
في بلاد القبائل . وفي سطيف أشبع المنصور هوايته بالانار ، فنظر فيما
كان يحويه قصرها القديم الذي تبلغ مساحته حوالى ٥ (خمسة) آلاف متر ،
من عجائب البناء بالحجر والطوب ، والزخرفة بالواح الرخام (٩١) . وبعد أن
أعطى الأمان لرجل من أولاد أبى يزيد ، خلع عليه وأكرمه بألف درهم ،
رحل من سطيف يوم الأربعاء ٦ جمادى الآخر / ٢٣ نوفمبر ٩٤٧م الى ميله
التي أقام بها ٩ (تسعة) أيام استقبل فيها وفود الكتامين المهاجرين الى
المهدية معه . وفي ١٨ جمادى الآخرة / ٥ ديسمبر رحل الى سبيبة حيث
كانت وفود القيروان فى استقباله فى ٢٦ من جمادى الآخرة ٣٣٦هـ /
٢٣ ديسمبر ٩٤٧م .

احتفالات النصر بالقيروان :

وهكذا خرج المنصور من سبيبة الى القيروان في موكب ضخم من
رجال الجيش ، والكتامين المهاجرين ، وفود المستقبلين من القيروانيين .
يتقدمهم الأولياء من كبار القواد وأهل البلاط والحاشية في ملابسهم الرسمية
المطرزة . وفي القيروان قوبل المنصور بالتهليل والتكبير ، فسجد لله شكرا
على عرف فرسه ، قبل أن يدخل قصره الجديد ، بضاحية صبرة التي سوف
تعرف بالمنصورية منذ الحين ، فى يوم الخميس ٢٩ من جمادى الآخرة

(٩١) عيون الاخبار للداعي ادريس . ص ٢٨٩ - حيث طول قصر سطيف ٣٠٠٠ ذراع
وعرضه ٦٠ ذراعا . وانظر هامش ٥١٤ ، ص ٣٥١ - حيث الإشارة الى افتتاح الدعوة
وابن حنبل ، واليعقوبى ، والادريسي .

سنة ١٣٣٦ م / ١٦ ديسمبر ١٩٤٧ م . وفي اليوم التالي كان على أهل القبروان.
أن يحتفلوا بعيد النصر لمدة ٣ (ثلاثة) أيام ، طيف فيها بشوارع المدينة
وأسواقها بجلد أبي يزيد مشهرا على الجمل بالطرطور وبالقردين ، قبل أن
ينتقل ذلك المهرجان الى المهديّة حيث انتهى تمثال الناصر العتيق ، المصنوع
من جلد مخرقا على سور المدينة ، بفعل الرياح والعوامل الجوية الأخرى (٩٢) .

خلاصة المنصور الفاطمي

شخصيته :

هو أبو الطاهر اسماعيل بن أبي القاسم محمد . وفي وصف شخصيته يقول ابن عذاري انه ولد في سنة ٣٠٢ هـ / ٩١٤ م برقادة بالقيروان (١) ، وبذلك يكون قد ولي الملك وعمره ٣٢ (اثنان وثلاثون) سنة ، وانه توفي سنة ٣٤١ هـ / ٩٥٢ م وعمره ٣٩ سنة بمعنى انه حكم سبع سنين (٢) .

الفصاحة والصفح والضعف الصحي :

اما عن أهم صفاته فقد كان فصيحاً بليغاً ، كما كان خطيباً مفوهاً ، « يخترع الخطبة لوقته » (٣) . وكما هو الحال بالنسبة لسائر الأئمة لا نعرف شيئاً عن صفاتهم الجسمانية ، حتى عند الكتاب الذين خدموهم عن قرب ، مثل : القاضي النعمان الذي يكتفي بالإشارة الى ان المنصور كان ميالاً للعقور والصفح عن قدر عليه (٤) ، بمعنى أنه كان ليناً لا يميل الى العنف . ولا بأس أن يكون ذلك بسبب اعتلال صحته لما كان يعانيه من المرض . كذلك الذي كان يصيبه بالغيوبة من « صرع » أو غيره ، أو من « داء الدرب » (اندوستاريا أو البواسير) الذي كان يعذبه واقفاً أو قاعداً (أنظر ما سبق ص ١٩٣) . ولا بأس أن يكون كل ذلك من الأسباب التي جعلت القسام يمنع اعلان ولايته إياه للعهد لمدة طالّت الى أكثر من ١٠ (عشر) سنوات (٥) .

(١) أنظر البيان المغرب ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٣١١ - حيث النص على أنه ولد بالمهدية التي لم يتم سكنها الا في سنة ٣٠٨ هـ / ٩٢٠ م ولهذا عدلنا المهدية الى رقادة .
(٢) ابن عذاري ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٣١٤ .
(٣) ابن عذاري ، نفسه ، ابن الأثير ، ج ٨ ص ٤٩٧ .
(٤) اقتراح الدعوة ، ص ٣٣٤ .

(٥) أنظر المجالس والسايريات ، ص ٢٢ (المقدمة) وص ٤٤٨ - حيث النص - رواية عن المنصور على ان القسام لم يتقدم لتولية الأمر بعد وفاة المهدي الا بعد أن أخذ يبدى (المنصور) وخلايى فقلدني عهده ، وأسر الى ذلك ، واستمكنى إياه - وه ٤ - حيث الإشارة الى تسميته جودز بذلك . وأنظر ميرة جودز ، ص ١٥٩ - حيث النص على اشارة القسام للتسمي .

وهنا لا نستطيع أن نلتصم العذر للقائم بأن الحكمة كانت تقضى بسك
بسبب ثورة أبي يزيد التي لم تبدأ إلا سنة ٣٢٢هـ / ٩٣٤م أى بعد ٩
(تسع) سنوات من ملكه ، وكان المنصور وقتئذ ناضجا قد بلغ سن
الرشد . ولا بأس أن يكون ضعف المنصور ضعيفا هو الذى جعله يفكر
فى أن يعهد الى جفيدة المعز (معد) بن المنصور بولاية العهد ، متخطيا
والده (٦) . الأمر الذى لا يحدث عادة إلا لعدم الأهلية كما فى سابقة تمحية
الصادق لولده اسماعيل ، التى لم يقبلها أتباع اسماعيل . وهذا ما يحول
دونه قلق اسماعيل المنصور من طول انتظاره الاعلان عن ولايته للعهد التى
تعنى مشاركته فى الحكم كنوع من التمهيد للعمل والتأهيل . هذا ، كما
يمنع من عدم كفايته ما أظهره منذ اعلان ولايته للعهد ، وإن كان قبل فترة
وجيزة من وفاة القائم ، من : كفاءة شخصية بل ومن قوة احتمال بدنية ،
وشجاعة روحية ، وتضحية بالنفس والنفيس ، الى غير ذلك من البساطة
والتقشف والنزاهة (٧) . وهى الصفات المؤهلة دون غيرها من الصفات
والفضائل لتولى الخلافة وإمارة المؤمنين فى أوقات الحرب والفتن (٨) ، وهى
الصفات التى أظهرها فى قتال أبي يزيد ، مما سبقت الإشارة اليه .

التساؤل :

ومن الواضح ان المنصور كان متفائلا بنتيجة الصراع ضد الزناتية
عن طريق الارادة أصلا والاختيار ، على عكس والده القائم الذى يظهر متوكلا
منتظرا عناية الله وقدره المقدر (٩) . فالمنصور جرى يثير النخوة فى قلوب

(٦) المجالس والمسايرات ، ص ٤٦٩ - حيث النص على ان القائم كان يخاف على المعز
من تنكر المنصور له .

(٧) مما يشير اليه المنصور نفسه ، فى رسالة له الى جوذر فى اهل القصر حيث يقول :
« قد علم الناس كافة انى كنت نشأت معروضا عن الدنيا زاهدا فيها ، شبيها براهب من
الرحمان ... » الى قوله : ثم والله الذى لا اله الا هو ولا رب غيره : ما قبلت من أحد من
العباد درصا فما فوقه هدية قط الا من جوذر .. (سيرة جوذر ، ص ٦٢) .

(٨) انظر الأحكام السلطانية للساردى ، ط ١ : فصل الخلافة ، ص

(٩) عيون الأخبار ، ص ١٦١ - عن رؤيا خريطة البلاد ومدنها مفضية بالسواد كناية
عن استيلاء أبي يزيد عليها ، فكان المنصور كلما وضع يده على شيء منه يزول فى الحال ،
المجالس والمسايرات ، ص ١٣٢ - حيث يعلم المنصور علم النجوم الذى يغير المنظور ولكنه
لا يعمل به ضد أبي يزيد . وعن موقف اللامبالاة من قبل القائم انظر فيما سبق ،
ص ١٨١ وم ٥٦ .

رجاله وانفزع من نفوس أعدائه ، والهيبة في أعين الناس ، حتى قيل ان
المسيحى كان يعرف انه كاشف المحنة ومطفىء نار الفتنة ، وهو جنين في بطن
أمه (١٠) . وهو صاب في مواجهة متاعب الطريق ، من : سلوك الشمعاب
وتسليق الجبال ، والسير الطويل المسافات . ويظهر تفاؤل المنصور فيما كان
يرتديه من ملابس الحرب الزاهية الألوان التي تشدد الانتباه ، والمظلة
المرتفعة « على رأسه كالعلم » ، فموضعه معروف للانتصار والأعداء . فهو
عند التعبئة وآخر أيام الكفاح في بلاد الزاب وقلعة كيانة « يلبس جوشنا
وفوقه خفتان أحمر مثقل بالوشى ويتنعم بعمامة صفراء » (انظر عيون
الأخبار ، ص ٢١٩) أو « يلبس قباء أصفر ويتنعم بعمامة صفراء » ويرضى
ذرايته « (عيون الأخبار ، ص ٢٤٨) ، أو يخرج للقتال في ثوب أحمر
موشى ، مذهب الأكمام والأذيات ، وعمامة حمراء معملة الطرفين مذهبة ،
وقد أرخى لها ذراية ، وبهذه درقة مفشاة بديباج أحمر مصبغ بصفرة (عيون
الأخبار ، ص ٢٥٦) .

الجرأة والعلم :

ولا شك ان تلك الجرأة التي صدمت الأعداء نفسيا ، ورفعت شأن
الأولياء معنويا ، كانت تستند الى جانب صدق النية وقوة العزيمة - الى
صحة العقيدة وسلامة الايمان بتعاليم المذهب ، وخاصة فيما يعد به من النصر
والظفر في علم الحدثن . وهنا يصور الكتاب ، وعلى رأسهم القاضي النعمان ،
أبا الطاهر اسماعيل جامعا بين فخر الجهاد المظفر وزهو العلم الأصيل المتمثل
في التأويل . فهو محب للعلم جماع للكتب (١١) . وهو عالم بالنجوم ، وان
كان لا يؤمن بتأثيرها في الخطوط ، فلا يلتفت الى استخدامها أثناء فتنة
أبى يزيد (١٢) . هذا كما ان المنصور جمع الى فصاحته وبلاغته القدرة على
نظم الشعر . فمن ذلك ما نظم في انتصاره يوم المسيلة على أبى يزيد ،
ويعتد الى ولي عهده المعز ، ومنه :

أنا الطاهر المنصور من نسل أحمد بسيفي أقد اليهم تحت المغافر

(١٠) عيون الأخبار ، ص ١٦٢ .

(١١) المجالس والمسايرات ، المقدمة ص ٢٣ والنصر من ٥٠٢ - حيث التول ان المهدي
كان يوجه المنصور الى الاهتمام بطلب الأرواح أى علم الباطن ، وأنه ناو له كتابا ضخما في
هذا المجال ولكنه طلب اليه ألا يراه أحد لديه ، بل والا يطلع أباه عليه .

(١٢) المجالس والمسايرات ، ص ١٢٢ وص ١٣٣ - حيث الإشارة الى عدم ايمان الصادق
بعلم النجوم أيضا ، وانظر أيضا ص ٤٢١ .

ومنه أيضا :

أجوب القفسار وأطوى الرحال وأحسب نفسي لهول مهول
(عيون الأخبار ، ص ٢١٧)

وهكذا لم يكن من الغريب أن يكون المنصور هو المعلم الأول لولي عهده المعز الذي يعتبره القاضي النعمان « مصدر كل العلوم وأساس التأويل وكاشف الأسرار » (١٣) . فالمنصور هو الذي علم المعز أصول الجدل والمناظرة ، وتعريفه بالقاعدة الذهبية في الجدل ، وهي : أن العلم لا يثبت الا بعد الحجة والمعارضة (١٤) .

وفي سبيل العلم والدفاع عن المذهب لم يترك المنصور عدوه أبدا يزيد بذلك مشغلا بجراحه بل يأمر بعلاجه ومداواته ، لكي يقوم بمناظرته من أجل معرفة كنه دعوته ، وأسباب احتسابه ، وما كان ينكره على الأئمة . وهو يفحمه في كل ذلك ، حسبا تعلمه من أصول الجدل وأساليب المناظرة ، بناء على قواعد المذهب واستنادا الى علم الأئمة (أنظر فيما سبق، ص ١٨٩ و ٧٨) .

والمنصور في النهاية محب للعلوم الدينية ، فهو مغرم بالآثار المغربية القديمة . يشاهدها أثناء جولاته الحربية ، ولا يكتفى بالاستمتاع بجمالياتها المعمارية والفنية ، بل يطالب المترجمين العارفين باللغة اللاتينية لفك رموز نقوشها ، وقراءتها ، وترجمتها الى العربية ترجمة صحيحة ، كما حدث في حملة لوانة قريبسا من تاهرت (أنظر فيما سبق ، ص ١٩٣ - ١٩٤) . وتظهر محبته للعمارة والفن فيما أنجزه وخلد ذكره ، في تحويل ضاحية صبرة بالقيروان الى مدينة ملكية تحمل لقبه ، فهي المنصورية (أنظر فيما بعد ص ٢٠١) .

ورغم كل هذه الصفات التي رفعت من شأن المنصور وهيبته في القلوب مما كان يمكن أن يكون مصدر زهو وتكبر له ، عرف المنصور بتواضعه .

(١٣) المجالس والمسايرات ، المقدمة ص ٢٤ ، ٤٣٥ حيث قراءة الحكمة يوم الجمعة ، واتفاق الفقهاء على دفتر يقال له « مجلس الحكمة » يقدم الى المسر ليحيز تلاوته على المؤمنين بمعرفة داعي الدعاة .

(١٤) المجالس والمسايرات ، ص ١١٧ ، ١٣٣ - حيث كان المنصور يشجع المسر على مناظرته .

فهو ينهى القاضي النعمان عن تقبيل الأرض بين يديه - الأمر الذي لم يقبله
المعز بعده (١٥) .

جوامع الأئممة :

وهكذا يكون المنصور قد جمع في شخصه عددا من المتناقضات .
من : الصحة والمرض ، وحب الحرب والعلم ، مما يتمثل في القوة والضعف
أو السماكة والشفافية ، ويرمز في النهاية إذا صح القول - الى وحدة
الأضداد متحدة في النفس الانسانية بمنازعتها الى الخير والشر .

السياسة الداخلية :

كتمان توليته للعهد :

رغم ما عاناه المنصور من كتمان توليته للعهد لمدة طالت الى أكثر من
اثنى عشر عاما ، فانه عندما آلت اليه الخلافة بعد وفاة القائم كان عليه أن
يبقى في الظل لأكثر من خمسة عشر شهرا من خلافته ، حتى تنتهي ثورة
أبي يزيد (١٦) ، فكان الكتمان قد أصبح مع قيام الدولة الفاطمية من مبادئ
أصول الحكم والسياسة ، بعد أن كان من قواعد التشيع والمذهب . وهكذا
ظل المنصور يمارس اختصاصاته وكأنه أمير ولي للعهد ، مفوض من قبل
الامام ، الى نهاية الثورة الزناتية . فهو يصدر السجلات ، (الخطابات
الرسمية) الى العمال ويخاطبهم باسم « الأمير اسماعيل » أو « ولي عهد
المسلمين » مباشرة دون إدارة ، أو مع الإشارة الى أن الكتاب موجه الى
أمير المؤمنين اذا دعت الحاجة الى ذلك ، وإن اختلف الأمر بالنسبة للدعاء
في الخطبة على المنابر حيث يقتضى الأمر ذكر الأئمة متسلسلين ، ومن بينهم
آخرهم : محمد أبو القاسم القائم - دون ذكر اسمه هو (١٧) .

(١٥) المجاليس والمسايرات ، ص ٥٧ . هذا وإن قالت رواية أخرى ، ص ٦٥ - أن المنصور
كان أرفق بالناس من المنصور ، وذلك بمناسبة نزاحم الناس في ساحة القامى .

(١٦) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٤٥٥ .

(١٧) انظر سيرة الأستاذ جودر ، ص ٤٤ حيث استخلف جودر على المهديّة وسائر
البلاد وكانت ترد اليه مكاتبات المنصور باسم القائم بأمر الله ، بعد وفاة القائم ، ص ٤٥
- حيث خطب انتصار يوم الجمعة على أبي يزيد ، وفيه « ولي عهد المسلمين سيف أمير
المؤمنين » يوجه الخطاب الى « سيدنا ومولانا أمير المؤمنين » . وقارن عيون الأخبار للذهبي
ادريس ، ص ١٦٤ - حيث أمر المنصور حاجبه (جعفر بن علي) بالتوجه الى جامع القيروان =

اعماله الخالقة :

وفي نفس اليوم الذي تم الظفر فيه بأبي يزيد ، وهو الخميس ٢٩ من المحرم سنة ٣٣٦هـ / ٢١ أغسطس ٩٤٧م أصدر المنصور الأوامر بالسلام عليه ، وتوجيه الخطاب اليه : باسم : « أمير المؤمنين » ، والكتابة بذلك الى الأمصار أو الأعمال ، لاداعته بين الرعية ، والدعاء به على المنابر ونقشه على المنسوجات الحكومية ، الخاصة بالملابس الرسمية ، وطبعه على النقود (١٨) .

أما عن ابنه معد (أبو تميم المعز) فقد كان اعلان ولايته للعهد سنة ٣٤٠هـ / ٩٥٠م أى قبل فترة وجيزة من وفاة المنصور سنة ٣٤١هـ / ٩٥٣م التالية (ابن عذاري ، ط : بيروت ج ١ ص ٣٢٤) .

بمنه المنصورية :

أما عن أول أعمال أمير الظاهر اسماعيل المنصور ، بعد أعماله الحربية ضد الزناتية ، هو اتخاذ مدينة ملكية جديدة تعبر عن طيبة عهده الذي يمثل النصر والفتح الايجابي ، فبنى المنصورية ، على عكس المهديّة التي مثلت في الفكر الشعبي الدفاع والصمود . والذي يفهم من التنف الصغيرة التي

فصل الجمعة وأقام الخليفة باسم الأمير اسماعيل . ص ١٩٦ - حيث كتب المنصور كتابا الى المهديّة وأمر جودز الأستاذ أن يقرأ على المنبر في المهديّة ، وفيه يصف نفسه « بولي عهد المسلمين سيف أمير المؤمنين » ، وفيه « وقد بعثت كتابي هذا الى أمير المؤمنين مولانا وسيدنا ، بتأريخ ذي القعدة / يونية ٩٦٤م » ، وص ١٩٧ حيث وجه الخطاب الى كسامة ، وفيه من الأمير اسماعيل ولي عهد المسلمين ، ص ٢١٢ حيث الخطاب الموجه الى قدام الخادم ، عاملة على المنصورية والقروان - بتاريخ ١٤ جمادى الأولى سنة ٣٣٥هـ / ١٢ ديسمبر ٩٤٦م ومثل كتاب النصر النهائي على أبي يزيد وأسرهم ، المؤرخ في ٢٥ محرم سنة ٣٣٦هـ / ١٧ أغسطس ٩٤٧م ، حيث يرسل الكتاب « من الأمير اسماعيل ولي عهد وابن أمير المؤمنين » ص ٢٦١ ، وأنظر ص ٢٣٩ حيث خلع الفطر سنة ٣٣٥هـ / ٢٥ أبريل ٩٤٧م ، وفيها اسم القسام ، وكذلك خطة الأضحي في نفس السنة ص ٢٥١ .

(١٨) عيون الأخبار ، ص ٢٨٠ - حيث النص في الخطاب الموجه الى عامل إفريقية ، على انه « لم يزل أمير المؤمنين يأخذ نفسه بطي ما آلاء الله من شرف الخلافة وفخر الإمامة ... لانشغاله بالجهاد وطلب الفاسق مخلد ابن كنداد ... وبعد هلاك الفاسق أحب أمير المؤمنين ابداء ما اختصه الله من كرامته من بهاء خلافة ... وأمر انشاء الكتب الى جميع الأفاق ... (حيث) انتظم أمر الدين وقامت شرائعه ... والتقدم في الأولياء والعلمية والرعة ليحمدوا الله على ما منحهم ببركة أيام أمير المؤمنين ... فاقم الدعوة على المنابر ... وهر باليات ذلك في الطرّ وفي دار الضرب .

يقدها الكتاب أن المنصور اختار موضع صبرة ، وهى الضاحية الجنوبية على بعد نصف ميل من القيروان فى مقابل رقادة الشمالية ، لتكون مقرا جديدا له ، وذلك عندما لاحت تباشير النصر على عدوه أبى يزيد الذى كان ينهزم أمامه فى القيروان فى أواخر سنة ٣٣٤ هـ / يونيه - يوليه ٩٤٦ م . وذلك أن الأوامر صدرت بالبناء الذى عهد به الى قدام الخادم الصقلي عقب انتصار القيروان الفاصل على أبى يزيد فى معركة يوم الجمعة ١٤ محرم سنة ٣٣٥ هـ / ٦ أغسطس ٩٤٦ م ، فى نفس مكان معسكره فى أرض المعركة ، استبشارا بالمكان وبالحدث . وهكذا فبعد أن أقام المنصور بالله فى خندقه بقية شهر الحرم وشهر صفر ، وأخذ يستعد للخروج فى أثر أبى يزيد « أمر بعمارة مدينته فى ذلك المكان ، فى شهر ربيع الأول سنة ٣٣٥ هـ / أكتوبر ٩٤٦ م ، وسماها المنصورية » ، « وأمر بأحكام سورها ورفع بنيانها » - وعند الرحيل أصدر الأمر بتعيين قدام الخادم واليا (عاملا) على كل من القيروان والمنصورية ، وطلب اليه ألا يتراخى فى البناء (١٩) ، ومنذ ذلك الوقت كان قدام الصقلي يتلقى أخبار الحملة المظفرة بصفته أمين دار الخلافة ، وأقرب العمال الى الأمير (انظر فيما سبق ، ص ٢٠١ حيث بقية هـ ١٧) .

التخطيط :

اما عن التخطيط حسبما ينقل عن البكرى ، فكانت المنصورية مربعة لها ٤ (أربعة) أبواب فى الاتجاهات الأصلية الأربعة (٢٠) بمعنى انها كانت شطرنجية الشكل يخترقها طريقان رئيسيان متقاطعان ، ينتهى طرف كل منهما عند واحد من الأبواب الأربعة . والمفروض أن يكون موضع تقاطع الطريقين الرئيسيين هو سرة المدينة حيث المسجد الجامع الذى لا يبعد عنه القصر كثيرا ، والذى تحيط به الأسواق التجارية التى نقلت بأمر المنصور

(١٩) عن يوم الجمعة أنظر سيرة جودر ، ص ٤٢ - حيث رسالة المنصور ، وقارن ابن حوقل ، ص ٧٤ ، وقارن عيون الأخبار ، ص ١٩١ وما بعدها ، وص ٢٠٢ - ٢٠٣ (عن المنصورية) وابن عذارى الذى يجعل البناء فى سنة ٣٣٦ هـ / ٤٧ - ٩٤٨ م ، أى عقب النصر النهائي وأسر أبى يزيد .

(٢٠) انظر البكرى ، ص ٢٥ - حيث النص على انه كان لصبره ٥ (خمسة أبواب) : قبل (جنوبى) وجوفى (شمال) وشرقى وباب الفتوح (غربى) بالإضافة الى باب كتامة الذى لا يعرف اتجاهه . وقارن ابن حماد ، ص ٣٤ - حيث الباب الشرقى : زويلة ، والجوفى : كتامة ، والغربى : باب الفتوح .

من القبروان الى مدينته الجديدة (٢١) . اما عن انتقاله فكان في ٢٩ شوال سنة ٢٢٧هـ / ١ مائة ٩٤٩م ، عقب عودته من حملة المغرب ، وبقائه في القبروان لبعض الوقت (٢٢) .

ولقد تانت المنصورية موضع عناية المعز ، بعد المنصور ، اذ زادت رعتها ومبانيها وازدهرت قصورها ومرافقها ، فجلب لها الماء على الحنايا من الجبال البعيدة ، كما شق لها الأنهار ، مما يرد ذكره في مجالس النعمان ومسايراته (٢٣) . والحقيقة ان الاختلاف في تاريخ طريق الانتقال اليها ، قد يعنى بقاء مبدا الكتمان مع استمرارية نفس نظام الحكم ، مما يتمثل في بقاء الحياجة مع جعفر بن علي .

البقايا :

ولقد دلت التنقيبات الأثرية في خرائب صبره المنصورية ، على بقايا من الحجر والرخام المنقوشين والزجاج الملون ، كما بينت بقايا القصور عن أساسات تتداخل فيها ٣ (ثلاث) قاعات متوازية . أما عن مواد الرصف فهي مربعات من اللبن المجروق أو قوالب الطوب بغير « مونة » أو بمونة من التراب والحصى ، مع وجود بعض قوالب الطوب المزججة من وجه واحد . أما عن مواد الكساء فتتراوح ما بين طبقة من الجص المنحوت بورقة الاكانتوس أو مربعات الفخار من مزججة وغير مزججة (٢٤) .

(٢١) البكري ، ص ٢٥ - حيث النص على ان طوله في القبروان كان ميلين تقريباً ، وانظر ابن عذاري ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٣١٢ . أما ما نقل عن ابن حوقل في وصف المنصورية ، فهي حصة عجيبه الابنية واسعة الالنية ، معدومة النظير ، عيون الأخبار للداعي ادريس ص ٢٩١ .

(٢٢) ابن حوقل ، ص ٧٤ ، انظر ابن عذاري ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٣١٣ - حيث نص ابن حسادة الذي يقول ان المنصور دخل القبروان سنة ٣٣٧هـ / ٤٧ - ٩٤٨م عقب طغرى نابى يزيد ، فقتل بعض الناس وعذب آخرين ، بينما ينسب تاريخ دخوله المنصورية في سنة ٣٣٧هـ / ٤٨ - ٩٤٩م الى القضاء ، وقارن ابن حوقل الذي يحدد التاريخ الذي أخذنا به بدقة ، ويصف المنصورية بأنها من ظهر القبروان أى من ضواحيها الخارجية . وقارن عيون الأخبار ، ص ٢٩ - حيث الإشارة الى ان ولي عهده المعز لحق به هناك .

(٢٣) انظر ابن حسادة ، ص ٣٤ - حيث أسماء قصور : الايران ، الكافور ، الناج ، الريحان ، الفضة ، الخلافة ، الخورنق ، وغيرها . وانظر لسؤلف ، العمارة والفنون في دولة الاسلام ، ط : الاسكندرية ، ١٩٨٥ ، ص ٣٦٩ - ٣٧٠ .

(٢٤) انظر سليمان مصطفى زبيس ، الهندية وسيرة منصورية ، المجلة الآسيوية (J.A.t. CCXLIV) سنة ١٩٥٦ ، ص ٨٤ - ٩٢ (عن المنصورية) .

أصول الحكم عند المنصور :

التهادنة والتوافق :

مغزى بناء المنصورية :

بناء المنصورية يعتبر رمزا لنظام حكم جديد ، فاعاصمة الجديدة بالنسبة للدولة نوع من تغيير الرى القديم برى حديث . يغير من الهيئة الى ما هو افضل . ولما كان المقام فى المنصورية بدلا من المهديّة يعنى العودة الى القيروان ، فإن هذه تعنى بالتالى الوثاق بين نظام الحكم الفاطمى وبين أهل العاصمة الإفريقية العريقة . وبناء على ذلك فإن ما يقال من أن المنصور أساء الى أهل القيروان بعد ظفقه بأبى يزيد ، وأن محتجهم معه بقيت حتى وفاته (٢٥) ربما كان المقصود بها ملاحقة بعض من كان لهم نشاط خاص مع أبى يزيد . فالمقروض أن القاعدة الذهبية فى العمل عند المنصور ، وهى أعز نصيحة كان يقدمها لولى عهده المعز ، تتلخص فى : « اعمل ما يسرك أن تقتدى به » (٢٦) . ويظهر برنامج السياسى فى أول خطبة له فى عيد الفطر ، بعد إعلان ولايته للعهد ، وإيماز القائمة اليه بوصيته مما يعتبر عند الداعى ادريس : استقلالا بالامر . وظهورا من السر الى الجهر (٢٧) . فكان أول ما بدأ به المنصور ، بعد البسملة والحمد له والتشهد ، هو « طلب المغفرة من الناس » ، وحثهم على الحفاظ على الدين - ضمير المسام الحق - وفى ذلك قال الشاعر محمد بن أحمد الطرزي :

يحق لنا أن نتصف الفخر والمجد ، ونكثر فيك الشكر لله والحمد (٢٨)

الكرم والتواضع :

والمنصور يتخذ الكرم وبذل المال مبدأ أخلاقيا فى الحكم . فهو يفتى كتمان وفاة أبيه القوائم بكترة الضلالت (٢٩) ، كما أخرج بهذه المناسبة الصدقات فى المساكين والفقراء والمحتاجين (عيون الأخبار ، ص ١٥٨) . وهو بمناسبة انتصار يوم الجمعة بالقيروان (١٣ المحرم سنة ٣٣٥ هـ / ١٤

(٢٥) ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٣١٣ .

(٢٦) المجالس والمسايرات ، ص ٩٦ - « اعمل من الأعمال ما يسرك أن يقتدى بك فيه » .

(٢٧) عيون الأخبار ، ص ١٥٩ .

(٢٨) عيون الأخبار ، ص ١٥٧ .

(٢٩) المجالس والمسايرات ، ص ٩٦ .

أغسطس ١٩٤٦م) ، يعلن عن طريق حاجبه جعفر بن علي من أعلى منبر الفيروان الاعفاء العام من ضرائب سنة ٣٣٥هـ / ٤٦ - ٩٤٧م ، من العشر « ضريبة الأرض » ، والصدقة (الزكاة) وجميع اللوازم من المسلمين والذميين . رفقا بهم ، وعون لهم على عمارة أرضهم وبواديهم . كما تقرر ألا تؤخذ منهم الضرائب في السنوات التالية إلا حسبما تقضي القوانين الشرعية : عينا من نوع الانتاج ، سواء كان نباتيا أو حيوانيا (٣٠) . والمنصور لا يكتفى بالعفو عن أحمد أنشأ أبي يزيد عندما طلب الأمان ، بل يهديه الخلع ، ويعطيه ألف درهم (عيون الأخبار ، ص ٢٨٩) . وهو يبدأ عهده بعد ذلك بالعفو عن المحبوسين فيطلق سراحهم من السجن (عيون الأخبار ، ص ١٦١) . ويظهر تعاطفه مع الضعفاء من الناس وتواضعه وعدم تعاليه في رده على والده عندما أوصاه بخادمه (المملوك) جوذر ، إذ قال له : « هل جوذر إلا واحد منا » (٣١) ، فكانها دعوة « الإخاء والمساواة في ذلك العصر الوسيط . ومنذ ذلك الوقت ارتفع شأن جوذر ، إذ ولاه المنصور المهديّة العاصمة وقتئذ ، وجعل له الحل والربط في جميع الأمور (عيون الأخبار ، ص ١٦١) ، فكان جوذر بذلك أصبح « الحاكم » العام على البلاد كلها نيابة عن الامام (٣٢) .

اقامة العدل :

والى جانب الكرم تتمثل سياسة الوفاق في اقامة العدل ، الذي به يحيا الناس . كما تقتضي به أصول السياسة المدنية (٣٣) . وتمثلت العدالة

(٣٠) أنظر عيون الأخبار للداعي ادريس ، ص ١٩٥ .

(٣١) سيرة الأستاذ جوذر ، ص ٤٤ ، عيون الأخبار ، ص ١٥٨ .

(٣٢) أنظر سيرة جوذر ، المقدمة ص ٦ - حيث كانت كتب المنصور ترد الى المهديّة باسم «لقبائهم وهي في الحقيقة لجوذر . وبعد النصر على أبي يزيد كافا المنصور جوذرا فعتقه وشرقه بلقب « مير أمير المؤمنين » ، وهو اللقب الذي لم يشاركه فيه سوى جواهر الصقل بعد فتح مصر على عهد المنصور ، وأن احتفظ بالصدارة ، فكان ثالث رجل في الدولة بعد الامام رول العهد ، فكانه في مرتبة الوزير التي لم تكن معروفة وقتئذ ، الى غير ذلك من مراتب التشريف التي حباها بها المنصور ، من : اثبات اسمه على الطرز ، والركوب في مركب رسي ، والجلوس الى مائدة الامام ، وفي ذلك أنظر النص ص ٣٩ (جوذر صاحب بيت المال ومستودع المنصور) ، ص ٤٤ (استخلاف جوذر على سائر البلاد) ص ٥١ (عتق جوذر وتلقيه) ص ٥٢ (اسم جوذر على الطرز والبسط) ، ص ٦١ (رسالة المنصور الى جوذر في أهل العصر) .

(٣٣) أنظر كتاب العهود وسر الأسرار ، نشر وتحقيق عبيد الرحمن بدوي ، ط - دار الكتب ، القاهرة ١٩٥٤ ، ص ١٢٦ ، وقارن ابن خلدون ، المقدمة ، تحقيق علي عبد الواحد ، ص ١ ص ٤١٦ ، وانظر فيما بعد ، ص ٣٦٩ و ١١٤ .

أيام المنصور في شخصية النعمان بن محمد بن ميمون الذي عين قاضيا بالناصرية الجديدة المنصورية ، بعد الفراغ من بنائها ، مع القيروان وكل أعمال إفريقية ، و « جميع ما استولت عليه المملوك العلوية ، ودعوة الشريف الفاطمية » (٣٤) فكانه المسئول عن القضاء في كل بلاد ، مثل قاضي القضاة في المشرق العباسي . وبهذه المناسبة كان نهى المنصور للقاضي النعمان عن تقبيل الأرض بين يديه ، وهو ما يعتبره الفاطمي المخلص في خدمة الأئمة . أمرا غير ملزم لأنه اختبار بمثابة النهي عن المعروف (٣٥) . أما عن ساحة القضاء فكانت سقيفة القصر الخلفي التي لم تتسع وقتئذ لوقوف جميع المتقاضين وخاصة النساء منهم ، والضعفاء الذين لا يتحملون مزاحمة الرجال لهم ، الأمر الذي دعا القاضي النعمان الى عرض المسألة على ولي العهد المعز الذي تدخل لدى والده الامام حتى صدر توقيع المنصور بالمال اللازم لبناء موضع فسيح يصل فيه الناس الى القاضي دون معاناة (٣٦) . ويصل اهتمام المنصور بالقضاء الى حد تأنيب النعمان الذي كان يرجع اليه في الصغيرة والكبيرة ، واتهامه بالتقصير نتيجة لهذا الضعف الذي بدر منه ، فكانه أراد له أن يتشدد في أحكامه حفاظا على هيئته كقاضي ، وأن يكون المرجع الأخير في تلك الأحكام حتى يتحقق للقضاء ما يرجى له من نزاهة واستقلال (٣٧) .

إعادة الثقة مع الكتاميين :

وتظهر سياسة الوفاق هذه في أجلى معانيها ، في العمل على إعادة الثقة بين الدولة وبين أتباعها الأوائل من الكتاميين الذين انضمت وحدثهم بثورة أبي يزيد الذي نجح في استمالة بعضهم اليه مثل بني كملان . فالمنصور يرد الاعتبار الى قبائل كتامة الذين أظهروا بدورهم استعدادا طيبا للعودة الى انس الطاعة والبقاء في الخدمة ، الأمر الذي يعنى تقوية « الجبهة الداخلية » كما يقال الآن ، من غير شك ، فالمنصور بالغ في تحريض

(٣٤) عيون الأخبار ، ص ٣١٥ .

(٣٥) انظر المجالس والمسايرات ، ص ٥٧ - ٥٩ ، وانظر فيما سبق ، ص ٢٠٠ و ١٥٥ .

(٣٦) المجالس والمسايرات ، ص ٦٥ ، ٧٠ .

(٣٧) المجالس والمسايرات ، ص ٧٥ - وهنا لا بأس من الإشارة الى ما يذكره القاضي

النعمان (ص ٣٤٨) من تعامل المخلصين عليه لما ولاه المنصور قضاء إفريقية ، وكيف أنهم ووجوا الشائعات في شأنه ، فكان يقول ان ذلك كان السبب في تأنيب المنصور له ، الأمر الذي دعا الى الشكوى الى المعز ولي العهد الذي مداه من روعه وبين له انه أهل للثقة فيه .

استكثامين على الإخلاص للدولة ، وبسألخ في مديحهم الى حد القول :
« لو أعداؤنا في الجنة لاختر الكتناميون النار » (٣٨) .

وتتظهر تلك المحاباة لكتامة ، ودعوتها الى التمسك بالطاعة في الكتب
التي كان يرسلها اليهم المنصور بعد القائم ، أثناء الثورة الزناتية ، وكذلك
في الخطب التي كانت تلقى من أعلى المنابر يوم الجمعة أو في المناسبات
المختلفة . ففي خطبة القائم التي ألهاها القاضي أيام حصار المهديّة ، تذكر
لكتامة بما مضى عليه أبائهم من لزوم الطاعة والمجاهدة لله ، وانهم « خبيثة الله
لهذا الحق المحمدي الفاطمي المهدي » وانهم « كحواري عيسى وأنصار محمد » ،
فهم « أبناء المهاجرين والأنصار والأوليين السابقين المقربين » (٣٩) . وفي خطبة
المنصور التي يعلن فيها موت أبيه القائم يصف كتامة بأنهم أهل الدعوة
وأنصار الدولة ، الذين فضّلهم الله على كافة الخلق في غرب وشرق ،
« اذ بصركم والناس عميان واذا هداكم والناس ضلال الى دينه ونصرة حقه
وطاعة وليه » . وهو يعلن في الختام : « اللهم اني أصبحت راضيا عن كتامة
لاعتصامهم بحبلك وصبرهم على البأساء والضراء في جنبك ، تعسدا لنا
واعترافا بفضلتنا ، وأداء لما افترض الله على العباد لنا ، وتوسلا اليك
بطاعتنا ثم يأتي الدعاء لهم بمضاعفة حسناتهم ومحو سيئاتهم ، وحشرهم
في زمرة النبي الذي دانوا به والولي الذي والوه » (٤٠) .

أما عن كتاب القائم الى الكتناميين بعد سقوط القيروان ، فهو موجه
الى جماعة لهيصة يخبرهم بما سبق أن وجه اليهم من الكتب ، وبأمرهم
بالإسراع في الخروج لجهاد الفاسقين الكفرة ، الذين ظفروا بالآرسل والقيروان
بنفاق أهل أفريقية ، وغدرهم بخليل في القيروان ، ويأخذ عليهم تشاقلهم
عن القدوم ويحذّرهم من ذلك ويرغبهم في ابتغاء رضا الله وحمد أمير
المؤمنين (٤١) . وكتاب المنصور الى كتامة بتاريخ ٢٩ ذي القعدة سنة ٣٣٤هـ/
٣ يولية ٩٤٦م بعد انتصار « يوم الجمعة » بالقيروان ، يشير فيه الى تنابيح
كتبه اليهم لما فيه رضا سيدهم (القائم) الذي رضا من رضا رب العالمين
وتثاقلهم . وهو يزجرهم ويشبههم بأشباه الرجال ويهددهم بعدم الكتابة

(٣٨) المجالس والمسايرات ، ص ٢٠٣ .

(٣٩) أنظر سيرة جوقر ، ص ٥٤ ، عيون الأخبار ، ص ١٢٠ - حيث النص خطأ على ان

الفاشي هو المروزي (محمد بن عمر) .

(٤٠) سيرة جوقر ، ص ٥٩ .

(٤١) عيون الأخبار ، ص ١١٢ - ١١٣ .

اليهم بعد هذا ، ويرجو لهم التوبة (عيون الأخبار ، ص ١٩٧ - ٢٠٠) .
وعما ورد في خطبه انعط . أول شوال سنة ٢٣٦ هـ / ٢٠ أبريل ٩٤٨ م ،
فى مصلى الخدييه خارج المدينة ، حيث اجتمعت اعائلة الاماميه ، من : الحسين
وروى العهد المعز وخلفه أفراد العائلة المهديّة على طبقاتهم من : الأعمام ثم
الأخوة وأبناء الأخوة . وبعد النواج على الوالد (القسام) والجد (المهدي)
وجه المنصور الخطاب الى : أهل الدعوة من الأنصار من كتامة ، وذكر
ما اختصهم الله به من الفضل على كافة الخلق فى غرب وشرق فبصرهم
والناس عريان ، وعلمهم والخلق جهال ، لكن يختتم الخطاب مقررًا انه أصبح
راضيا عن كتامة لاعتصامهم بسبيل الله . وصنهم على الباساء والضراء ،
والدعوة لهم أخيرا برضاء الله عنهم ، ومضاعفة حسناتهم ، وتخليد العز فى
أعقابهم (عيون الأخبار ، ص ٣٠٣ - ٣١٠) - الأمر الذى سيزداد توثقا
ووضوحا على عهد المعز .

اعادة الحجر الأسود :

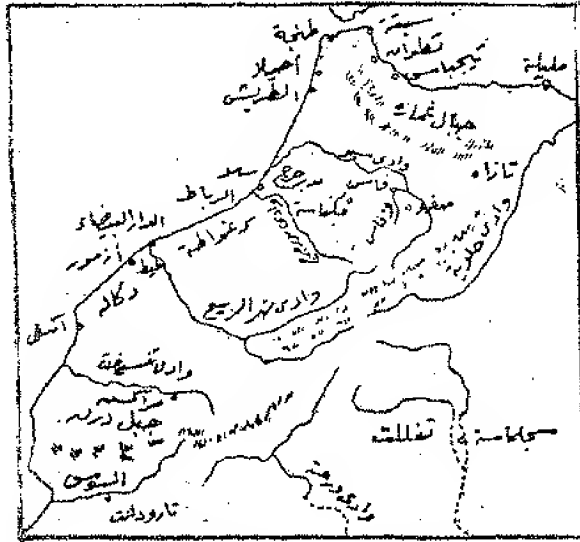
ومن أهم ما يدخل فى سياسة التهذيب والوفاء ، عمل المنصور على
اعادة الحجر الأسود الى موضعه فى الركن من الكعبة . الأمر الذى يعتبر نوعا
من التوفيق العام بين المغرب الفاطمى والمشرق العباسى ، أى بين الشيعة
والسنة ، فهو أشبه بما يسمى أيامنا هذه الوفاق بين الشرق والغرب بنظمهما
الرأسمالية والاشتراكية . وفى سنة ٣٣٩ هـ / ٥٠ - ٩٥١ م قام المنصور
بإتصالات مفيدة مع القرامطة بالمشرق ، انتهت برّد الحجر الأسود الذى كان
قد خلعه سنة ٣١٧ هـ / ٩٢٩ م ، أيام الخليفة المظيع العباسى . أى بعد غيبة
٢٢ (اثنين وعشرين) سنة (٤٢) .

الصراع فى المغرب : (انظر شكل ٤ ص ٢٠٩) :

ولكن سياسة الإدارة والوفاء بالنسبة للمشرق العباسى حيث الخلفاء
الضعاف وقتئذ ، لم يكن من الممكن ممارستها فى المغرب البعيد اذ كان
الصراع على أشده مع الأمويين خلفاء قرطبة ، وكان الوقت هو عصر أعظمهم
عبد الرحمن الناصر الذى امتد حكمه من سنة ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م الى ٣٥٠ هـ /

(٤٢) انظر ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٣٠٣ - حيث ترد روايتان احدهما
قول بتحرك المنصور بنفسه الى بلاد المشرق لهذا الغرض . وهو ما لا يعرفه المؤرخون -
والأخرى تقول ان اخوة القرمطى هم الذين ردوه بعد موت أخيهما .

٩٦٦ م . وهكذا قدر الصراع أن يستمر بين القيروان وقرطبة على عهد المنصور والناصر في المغرب الأقصى في كل جهات تادلا وتامسنا حيث البرغواطيين ، وفي فاس حيث المكناسيين من آل ابن أبي لعافية ، وفي تاهرت ونكور وارشقول حيث الأدارسة (من بني محمد) وبني صالح (العبد الصالح) ، وأخيرا في سبلماسة البعيدة حيث كانت أسرة الملوك من بني واسول قد غرست جذورها بعيدا في أرض الاقليم .



المغرب الأقصى

(شكل ٤)

برغواطة والزندقة :

في منطقة تادلا وتامسنا ، غرب بلاد مصيب بورجرج (أبو الرقراق) كانت أسرة البرغواطيين من يربر مصمودة التي نشأت نشأة خارجية أيام ثورة ميسرة سنة ١٢٢هـ / ٧٤٠م ثم انتهت بالزندقة عندما حاولت ترجمة القرآن الى البربرية ، كما نطن (أنظر ج ٢ ص ٤٣٠ وما بعدها) وكان ملكها حينئذ : أبو الأنصار بن عبدالله بن أبي عفير الذي حكم منذ مطلع القرن الرابع الهجري / ١٠م ، واقعيا في سياسته عندما والى عبد الرحمن الناصر ودخل في طاعته ، ونصح ولده : « أبو منصور » عيسى الذي ولى سنة ٣٤١هـ /

٩٥٢م ، وهي نفس السنة التي انتهى فيها عهد المنصور وبدأ عهد المعز ، بأن يسير على نفس سياسة الموالاة لأمر الأندلس (٤٢) . والحقيقة أنه بسببه الموقع الجغرافي المتطرف فإن أمير الأندلس كان يكتفى من البرغواطيين بالإعلان بالولاء والطاعة ، الأمر الذي ظهر بجلاء على عهد الحكم المستنصر (بن الناصر) عندما أرسل أشهر الملوك البرغواطيين ، وهو أبو منصور عيسى بن أبي الأنصار عبد الله بن عفير ، رسوله المشهور « أبو صالح زهور البراغواطي » في شوال سنة ٣٥٢هـ / أكتوبر - نوفمبر ٩٦٣م إلى قرطبة ، فعرف بأصل الأسرة وأحوال ملوكها عن طريق المترجم عنه باللسان العربي : عيسى بن داود المسطاسي (٤٤) .

وبسبب المنتأى لم تكن بالفاطميين حاجة إلى بسط سلطانهم ، بل ولا نشر نفوذهم حتى بلاد البراغواطيين في تادلا وتامسنا حيث كانت زندقتهم من شئون دول المغرب الأقصى وحدها ، ابتداء من الأدارسة وحتى الموحدون الذين بنوا من أجل جهادهم ، مدينة الرباط - رباط الفتح - الحالية .

غمارة وادعاء النبوة :

ومثل هذا يقال عن حركة حاميم الغربية في بند غمارة ، قرب تكور وأحواز طنجة وتطوان . وصاحب الحركة هو أبو محمد حاميم (حم) بن من الله من بني وجفال ، والمشهور بالمفتري لادعائه النبوة ، كما تقول الرواية . وأظهر حاميم دعوته في موطنه بجبل قريب من تطوان (تيطوان) وظهرت دعوته كحركة انفصالية بعيدة الانحراف عن الاسلام ، بفضل صبيغتها المحلية . فهي مبنية على عادات أهل المنطقة وتقاليدهم في أعمال السحر والشعوذة والتنبؤ بالغيب من أجل التحكم في حظوظ الناس ، مما كانت تقسم به العجائز من النساء ، مثل عممة حاميم الذي وقع تحت تأثيرها ، كما يظن . ومن تفاصيل الحركة التي يصفها الكتاب بالزندقة والتنبؤ ،

(٤٢) البكري ، ص ١٢٧ - حيث صفه أبي الأنصار : أظلم شبه أسود الوجه ، ناصح ، بياض الجسم ، طويل اللحية ، يلبس السراويل والملحفة ولا يلبس الخيش ولا يعتم إلا في الحروب ، ولا يتم في بلده إلا الغرياء . أما من أخلاقه فكان طريقا يقف بالمعهد ويحفظ الجوار ويكنى بترويه من حوله من القبائل بالغزو ، فتهاديه وتستألفه . وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٢١ .

(٤٤) أنظر البكري ، ص ١٣٤ وما بعدها ، وقارن الاستيعصار ، ص ١٩٧ وما بعدها ، وقارن ابن عذارى ، ط - بيروت ، ج ١ ص ٣٩٨ .

يظهر أنها تميل أصلا على الأخص إلى الرخص والتساهل في تطبيق التعاليم ، مما يتعلق بترجمة القرآن إلى اللغة البربرية والصلاة والصوم والحج ، وفي بعض أمور الطعام وآداب المائدة ، من حل وتحريم - وهي الأمور التي ربما تحورت عند الكتاب مع مرور الوقت (٤٥) .

والهم أنه إذا كان حاييم قد قتل سنة ٣١٥ هـ / ٩٢٧ م بمنطقة مصمودة الساحل بأحوار طنجة ، فإن ابنه عيسى الذي خلفه في زعامة المنطقة كان له شأن ، كما يقول البكري ، دخل الأندلس على عهد عبد الرحمن الناصر ، بمعنى موالاة الحركة الغمارية للأمويين في قرطبة (٤٦) .

غمارة والسحر في جبالها :

ويضيف البكري إلى حركة حاييم ، حركة أخرى في جبل مجكسة من بلد غمارة لرجل من السحرة يعرف بأبي كسية ، نسبة إلى كساه الذي يلتحف به ، ويخرج البرق من تحته عندما يلوح به . وينص الشكري (ص ١٠١) على أنه كان لبني الرجل وعقبة في القرن الخامس الهجري / ١١ م ، على أيامه ، منزلة رمزية على من سواهم . أما عن فاس وبقية مناطق المغرب من تاهرت إلى ملوية وما يدخل في نطاقها فقد ظلت موضع صراع ما بين قرطبة والمهدية على عهد المنصور بينما كانت سجلية البعيدة خارج النفوذ الأموي وكان لها وضعها الخاص . وإذا كانت كفة الصراع قد مالت بعد ذلك إلى ناحية المتمردين الفاطميين اعتبارا من سنة ٣٤٧ هـ / ٩٥٨ م ، عندما قام جوهر الصنقلى بجولته المغربية الكبرى حتى سواحل المحيط ، فإن اشتغال المعز بأمور مصر والمشرق ، وما صاحبه من وصول الحكم المستنصر (ابن الناصر) إلى خلافة قرطبة ، خففت من حمية الصراع ، وألقت بشعبته في القيروان على الزيريين ، خلفاء الفاطميين بالمغرب .

(٤٥) أنظر البكري ، ص ١٠٠ - ١٠١ - حيث التمس على تنبؤ حاييم الذي وفسح قرآنا بلسانهم وكيف جعل الصلاة ثلاثين فقط ، وصوم يوم الخميس ونصف الأرباع ، على أن تكون غرامة المخالف (خمسة) أثور ، وتحديد العيد باليوم التالي من الفطر ، وتحديد الزكاة بالمشتر من كل شيء إلى جانب إسقاط الحج والطهر والوضوء ، وتحريم الذكر من الخنزير فقط وتركبة الموت (السمك) أي ذبحه . وتحريم بقي الطيور عامة . قارن الاستنبصار ، ص ١٩١ ، ابن عذاري ، ط ١ : بيروت ، ج ٢ ص ٢٧٤ .

(٤٦) البكري ، ص ١٠٧ .

فاس ما بين مكناسة والأدارسة :

وفيما يتعلق بفاس (القرويين) التي كانت تسمى بولاية حسن ابن قاسم اللواتي مع قبول البيعة للقائم بعد الصلح مع ميسور الصقلي ، فانها ظلت بوضعها هذا بعد عودة موسى بن أبي العافية اليها سنة ٣٣٥هـ / ٩٣٧م ، اذ عهد بولاية عدوة الأندلس الى يوسف بن محارب الأزدي الذي مدنها ، بعد أن كانت حصونا - أشبه بجبهة قتال (أنظر فيما سبق ص ١٦٩) . ولا بأس أن يكون موسى بن أبي العافية قد قبل طاعة شكلية لا ظاهري وراها من قبل حسن اللواتي . وبذلك يكون الأدارسة قد تملكوا ما كان بيد موسى ، وقاموا بدعوة أبي القاسم الفاطمي ، كما تقول الرواية (٤٧) باستثناء مدينتهم التاريخية فاس . الأمر الذي لا يتنافى مع تنازل حسن اللواتي عن ولاية فاس الى واليها السابق أحمد بن بكر ، عندما قدم متكررا من المهدي بعد اطلاق سراحه سنة ٣٤١هـ / ٩٥٢م (٤٨) مع نهاية عهد المنصور وبداية عهد المعز ، وهي نفس السنة التي توفي فيها موسى ابن أبي العافية - حسب بعض روايات ابن خلدون (٤٩) .

والحقيقة ان الصراع ظل مستمرا بين الأدارسة وبين أبناء موسى بن أبي العافية الذين لم تنقرض دولتهم الا سنة ٣٦٣هـ / ٧٣ - ٩٧٤م ، على عهد محمد بن عبد الله بن ابراهيم بن موسى الذي توفي سنة ٣٦٣هـ / ٩٧٤م (٥٠) ، وان مالت الكفة الى صالح الأدارسة الذين لن يكتفوا بالدخول في طاعة الأمويين قرطبة ، بل بلغ بهم الأمر الى حد منازعة الأندلسيين خلافتهم في قرطبة نفسها ، مع انهيار المرwanيين في مطلع القرن الخامس الهجري / ١١م .

(٤٧) ابن خلدون ، ج ٧ ص ٨٦ .

(٤٨) ابن خلدون ، ج ٧ ص ١٦ ، وقارن ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٣٦ - حيث الاشارة الى الصراع بين الخضر بن محمد بن خرد وعدين بن موسى بن أبي العافية ، وتدخل الناصر لاصلاح ذات البين بينهما بوساطة قاضية « مقدر بن سعد » ، وان كان خاق البوري بن موسى ابن أبي العافية بأشبه مدين بعد فراره من العسكر الفاطمي سنة ٣٣٥هـ / ٩٤٦م (بقيادة أحمد بن بكر) وانقسام البلاد معه ومع أخيه الآخر منقلد كان مما زاد في تعقيد الأمور حتى اعتبرهم ابن خلدون « ثلاثة الاثافي » .

(٤٩) ابن خلدون ، ج ٧ ص ٨٦ - وان قدم رواية أخرى تذكر ان موسى توفي قبل ذلك سنة ٣٢٨هـ / ٣٩ - ٩٤٠م - وهي الرواية الراجعة .

(٥٠) ابن خلدون ، ج ٧ ص ٨٧ .

بنو محمد الأدارسة : القاسم بن معتمد « كتون » :

فيعد فرار موسى إلى الصحراء سنة ٢٢٥هـ / ٩٣٦م أمام ميسور الفتى ، آلت الرئاسة في بني محمد الأدارسة إلى القاسم بن محمد المعروف بـ « كتون » (جنون) والذي ذاع صيته إلى حد القول بأنه « ملك كل بلاد المغرب إلا فاس » ، وكان مقره في حجر النسر (٥١) ، من بلاد أرشكول . والحقيقة أن الأدارسة هددوا النفوذ الأموي في المغرب ، وخاصة عندما اعترفوا بسيادة أبناء عمومتهم الفاطميين ، فهذا ما أزعج له الناصر حتى أنه جهز وزيره قاسم بن محمد بن طلسم ، وجعله يعبر المضيق سنة ٢٣٣هـ / ٩٤٤م إلى المغرب لحرب الأدارسة من بني محمد ، كما دعا الزعيم المغراوي : محمد بن خزر إلى تقديم العون لعساكره في مهمتهم هذه (٥٣) . وأنت الحملة بما كان يرجوه الناصر دون قتال ، وذلك أن الأدارسة من بني محمد سارعوا بالدخول في الطاعة ، وأرسلوا وفودهم يعلنون ذلك إليه بقرطبة (٥٤) .

أبو العيش بن كتون :

أما عن كتون فقد تمسك بالندوة الفاطمية ، وظل يناجز خصومه من أنصار الأمويين إلى أن هلك بقلعته « حجر النسر » سنة ٢٣٧هـ / ٩٤٨م . وقام بعده ابنه أحمد بن القاسم كتون الذي اشتهر بأبي العيش ، وهو من مشاهير النابيين منهم ، إذ عرف إلى جانب شجاعته بفقهاء وعلمه ، وخاصة في الأيام والأخبار ، الأمر الذي أدى إلى اشتهاره بلقب « الفاضل » . وكان أبو العيش أحمد الفاضل له ميل للمروانية ، كما يقول ابن خلدون ، وهو مما تقضى به سلامة الحس من حيث خسارة الصفقة التي يشتري فيها صداقة البعيد بعدواة القريب ، كما نرى . وهكذا دعا الفاضل للخليفة

(٥١) ابن خلدون ، ج ٧ ص ٨٧ - حيث النص على مشاركة أخيه إبراهيم له في الرئاسة قبل نبوغه ، وقارن أيضا ، ج ٦ ص ٢١٧ .
(٥٢) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢١٧ .
(٥٣) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢١٧ - حيث النص على أن أول من سارع إلى ذلك منهم ، هو : أبو العيش إدريس بن عمر الذي بعث بابنه محمد إلى قرطبة فاحتفل لدخوله وأكد له القصد ، وكذلك فعل مع سائر بني محمد الذين بعثوا وفودهم إلى قرطبة . وقارن البكري ، ص ١٣٠ حيث وفد على الناصر : حسن بن القاسم (جنون) وأخوه عيسى يوم الاثنين ١٢ من شوال سنة ٣٣٣هـ / ٢٩ مايو ٩٤٥م ، وتبعيا في ضيافة الناصر أكثر من ٣ أشهر ، إلى صفر سنة ٣٣٤هـ / ٩٤٥م .

الناصر ، وخطب له على منابر عمله ونقض طاعة الشيعة ، مما أدى الى مبايعة أهل المغرب كافة الا سجلماسة ، بمن فيهم أهل فاس التي استعمل عليها محمد بن الحسن (٥٤) . ومع ذلك فقد كان أحمد الفاضل يعلن الطاعة للناصر ولكنه كان في نفس الوقت غيورا على استقلال بلاده حتى انه رفض أن يمكن الناصر من طنجة وسبتة ، الأمر الذي تطلب من الناصر ترهيبه بالأسطول والزامه بالبقاء مع أقاربه من الأدارسة تحت الطاعة بمدينة تنسى البصرة وأصيلة (٥٥) .

الصراع فيما بين أتباع الناصر :

هذا ، كما كان الصراع يدور أحيانا بين أتباع الناصر « الأعداء فيما بينهم » ، كما حدث في سنة ٣٣٨ هـ / ٩٤٩ م عندما أدى الصراع بين البوري ابن موسى بن أبي العسافية وبين الحسن بن عيسى الذي لجأ الى أرشسكول وهزيمة هذا الأخير وإرساله الى الناصر بقرطبة (٥٦) . ومثلما نجح الأدارسة

(٥٤) ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ٢١٧ ، وقارن ج ٧ ص ٨٨ - حيث اذعان أهل المغرب للناصر والخطبة له على المنابر من تامرت الى طنجة ، ما عدا سجلماسة ، وقارن البكري (ص ١٢٩ - ١٣٠) الذي يرى ان « الفاضل » عالم الأدارسة هو : أحمد بن إبراهيم بن محمد الذي كان يلده من أجاين قبلي حجر النسر الى مدينة سبتة ، أما فاضلنا - فاضل ابن خلدون - وهو أبو العيش (أحمد) بن جنون (القاسم بن محمد) الذي كان يلده من أجاين الى فاس ، فهو أحمد الأكبر الذي اشتهر بالعلم ، وكان له علم وقدر بالمغرب ، وهو الذي استجلب الشاعر بكر بن حماد ، ولكنه يعرف بـ « الكرتي » فكان الكرتي هو أحمد الأكبر ، والأفضل هو أحمد الأصغر ، وان كانا متعاصرين . فالفاضل أحمد الأصغر - عند البكري - هو الشهديد المبلل الى خلفاء بني أمية - لامتداد أملاكه الى سبتة الداخلة في نفوذهم - وهو الذي فكر في دخول الأندلس مجاهدا عندما استشار قاضي الجماعة بقرطبة محمد بن عبد الله بن عيسى سنة ٣٣٢ هـ / ٩٤٣ م ، فامر الناصر بتشجيعه على ذلك بالوعد بتشريفه ببناء القصور له والمنازل على طول طريقه الى محلة بلات حيد بأقصى الشرف ، وبمنققة يومية تصل الى ألف مثقال . أما الكرتي أحمد الأكبر فقد وفد على الناصر من اخوته بني جنون : حسن وعيسى ، مما سبقت الإشارة اليه - ه ٥٢ ص ٢١٣ .

(٥٥) ابن خلدون ، ج ٧ ص ٨٨ ، وقارن ج ٦ ص ٢١٨ - حيث أخذ طنجة من يد أبي العيش الذي بقي في أصيلا على يدعة الناصر ، وانظر القرطاسي ، ص ٨٨ .

(٥٦) البكري ، ص ٧٨ ، وقارن مع ما ورد في البكري فيما بعد ، ص ١٤٢ - ١٤٣ - حيث الإشارة الى أسر الحسن حفيد أبي العيش (عيسى ابن إدريس محمد بن سليمان) ، مؤسس جراوة حيث وقع بين يدي البوري بن موسى بن أبي العافية ، سنة ٣٣٨ هـ / ٩٤٩ م ، في حصن سمالوا ، قبلي جراوة . وكان الحسن قد انتقل الى ذلك الحصن بأهله وماله وولده ،

من بنى محمد في الأخذ بشأريهم من البورى سنة ٣٤١ هـ / ٩٥٢ م بأن
عنموه في موضع يعرف بـ « الشيخ » في بلد مغيلة ، وغنموا ما كان في
معسكره (٥٠) . وكذلك كان الأمر في سنة ٣٣٨ هـ / ٩٤٩ م عندما أجمع
الأدارة من بنى محمد بن القاسم على هدم مدينة تطوان (تيطوان) ثم
عودتهم بعد ذلك إلى بنائها من جديد ، وهو ما أثار اعتراض أهل سبينة
لما كان ينزل بهم من الضرر الذي يصيب مرافق مدينتهم . وهنا استجاب
الناصر لشكوى أهل سبينة ، فسير قائده : أحمد بن يعلى سنة ٣٤١ هـ /
٩٥٢ م بالجيش إلى سبينة بغرض هدم مدينة تطوان ، وطلبه إلى وإلى مدينة
تيجساس وقتل ، حميد بن يصل ، قائد الفاطميين الأسبق ، بالتقدم إلى
سبينة لمؤازرة أحمد بن يعلى . وفعلا التقى القائدان في سبينة في السنة
التالية ٣٣٩ هـ / ٩٥٠ م ، ولكن حميد بن يصل لجأ إلى السياسة ففاوض
بنى محمد الأدارة ، وانتهت المفاوضات إلى رضوخهم إلى مطلب الناصر ،
من التخلي عن مدينة تطوان ، وبعث أبنائهم إلى بلاط قرطبة ، تعبيرا عن
الطاعة والولاء (٥٨) .

غلبة الناصر على المغرب ما عدا سجلماسة :

وهكذا غلب الناصر على بسائط المغرب وأذن له أهله ، « وخطب
له على المنابر من تاهرت إلى طنجة ، ما عدا سجلماسة (ابن خلدون ، ج ٧
ص ٨٨) ، الأمر الذي أدى إلى ضعف بنى محمد حتى رأى أميرهم أبو العيش
أحمد الفاضل أن ينهي أعماله بالجهاد في ثغور الأندلس حيث استشهد
سنة ٣٤٣ هـ / ٩٥٤ م ، بعد أن استخلف أخاه الحسن بن كنون في عمله ،
وظل الحسن مواليا للناصر حتى وفاته سنة ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م (٥٩) .
أما عن أحوال تاهرت وسواحلها في نكور وأرشقول فلم تختلف كثيرا عنها

وهي المناسبة التي خلفها الناصر بكر بن حماد ، في قصيدة منها :

سنان زواغة عن فصال سيوفه ورمحه في العارض المتهللسل
عنت مغيلة بالسيوف مذلة وسقى جراوة من تقيع المنظفيل

(٥٧) البكري ، ص ١١٧ .

(٥٨) البكري ، ص ١٣٠ - ١٣١ ، وقارن ابن خلدون ج ٧ ص ٨٨ - حيث الإشارة إلى

أن حميد بن يصل أوقع ببربر غماره ، أنصار عيسى بن أحمد الفاضل .

(٥٩) ابن خلدون ج ٦ ص ٢١٧ - ٢١٨ - حيث النص على حسن استقبال الأفضل في

الأندلس وبناء التصور له حقيقة وليس وعدا ، كما تريد الرواية المنقبة ، على طول ٣٠ مرحلة

إلى الثغر كما أجرى عليه ألف دينار في كل يوم . وقارن فيما سبق ، ص ٢١٤ وهـ ٥٤ .

في فاس ومناطق امتداداتها في تطوان وسبينة وطنجة ، من حيث كونها منطقة صراع بين الأمويين الأندلسيين والفاطميين المغاربة مع قربها من الأندلس التي كان لها التفوق ، الأمر الذي ساعد عليه اضطراب البلاد الأفريقية بالثورة الزناتية ، ومحاولة أبي يزيد التحالف مع عبد الرحمن الناصر الذي لم يتردد في اهتبال الفرصة وإرسال الامدادات البرية والأساطيل البحرية لتجده . ولكنه في ذلك الوقت المتأزم من سنة ٣٣٣هـ / ٩٤٤م كان والي تاهرت الفاطمي عبد الله بن بكار يستطيع أن يقطع الطريق على المعونة الواردة من الأندلس إلى الثائر النكاري ، وأن يجهض عملية الانقاذ الناصرية لثورته (انظر فيما سبق ، ص ١٨٦) .

اجتياح تاهرت باسم الناصر :

ولقد تمثل انتقسام الناصر ، كما نرى ، في زحف تابعه محمد بن خزر ، في نفس سنة ٣٣٣هـ / ٩٤٤م مع قومه المغراويين وعلى رأسهم ابنه الخير (بن محمد) ، وعنه عبد الله إلى جانب يعلى بن محمد وقومه ، ونجاحهم في اجتياح تاهرت باسم الناصر الأموي ، وقتل عاملها عبد الله بن بكار . وأسر قائدها مسرور الحادام . وبذلك تقاسم المغرب محمد بن خزر وابنسه الخير بن محمد مع يعلى بن محمد (٦٠) . والمهم أن خضوع الأتباع من المكناسية (أبناء ابن أبي العافية) أو المغراوية الزناتية (أبناء محمد بن خزر) للناصر ، وما قام بينهم من تحالف لم يكن يمنع من الصراع فيما بينهم ، كما حدث بين : مدين بن موسى بن أبي العافية والخير بن محمد ابن خزر ، الأمر الذي اقتضى تدخل الناصر (انظر فيما سبق ص ٢١٤) فالمسألة لم تكن تتعلق بمصالح مستقرة من هذا الطرف أو ذاك ، بل كانت بمثابة انتهازية وردود فعل آنية عند كل الأطراف . وتلك خطيئة عصور التمزق والانفصال .

هكذا ولي تاهرت أيام المنصور الفاطمي صلاص بن حبوس ، ولكنه لم يلبث الا قليلا حتى استجاب إلى اغراء الدعاية الأموية فيما وراء البحر ، فترك ولايته وانضم إلى الخير بن محمد بن خزر ، رجل قرطبة في زناقة المغرب . وعندئذ عهد المنصور إلى قائده مسرور الحادام بتاهرت ، فصار مع أحد أمواته القواد وهو : أحمد بن الرحالي ، اللذين اعتقلا لفترة من

(٦٠) ابن خلدون ج ٧ ص ٢٦ - حيث النص على ميسور الذي عدلناه إلى مسرور ، كما سبق في ص ١٩٢ وس ٧٩ قبلها .

الوقت قبل اطلاق سراحهما . ومع أن رواية ابن خلدون لا تنص على الشروط التي أدت الى ذلك ، فمن المستغرب انه يختم هذه الرواية بان تاهرت هذه « لم تزل بعد لأعمال الشيعة وصنهاجة في سائر أيامهم » (العبر ، ج ٦ ص ١٢٢) ، فكان الاتفاق كان لصالح المهزوم ! ولكن هناك زاوية أخرى عن ابن خلدون ، في تاريخ بني يفرن (ج ٧ ص ٢٦) ترجح أن تكون هذه الأحداث قد وقعت سنة ٣٤٠ هـ / ٩٥١ م ، وهي السنة التي قبض فيها من قبل المنصور على معبد بن خزر (أخى محمد) وقتل عقابا له على موالاته من قبل لأبى يزيد ، كما وفد في تلك السنة فتوح بن الخير مع مشيخة تاهرت وهران ، على الناصر بقرطبة فآكرمهم وأعادهم الى أعمالهم - بمعنى دخول تاهرت مع وهران في طاعة الناصر بدلا من المنصور الفاطمي ، وهو الأمر المقبول كمنع لاطلاق سراح مسرور وابن الرحالي (٦١) .

سجلنامه : محمد بن الفتح والدعوة العباسية :

اما عن سجلنامه فتح لابن خلدون أن ينص على انها - دون بقية المغرب - لم تخضع للخليفة الناصر الأموي ، حيث كانت لها أسرتها الملكية العربية المثلثة في أسرة بنى مدرار من أبناء واسول الذين رضى بهم الفاطميون حكاما للمدينة عندما افتتحوها على عهد المهدي لأول مرة . اكتفاء بتغيير الواحد من بنى مدرار بابن عمه . وهكذا خلف أحمد بن ميمون ابن عمه المعتز ابن محمد ثم ابن هذا الأخير ، وهو أبو المنتصر محمد سنة ٣٢١ هـ / ٩٣٣ م ، على أواخر أيام المهدي لمدة عشر سنوات اذ خلفه ابنه الصغير المنتصر « سيمكو » حوالي سنة ٣٣١ هـ / ٩٤٢ م ، على عهد القائم ، وكان تحت وصاية جدته التي كانت تدبر أموره ، وذلك قبيل ثورة أبى يزيد . وهنا لم يرض بذلك أحد أبناء عمومته من أمراء الفرع الحاكم السابق وهو محمد بن الفتح بن ميمون (الأمير الأسبق) ابن مدرار (٦٢) .

والذي يفهم من قصة محمد بن الفتح أن الرجل كان انتهازيا في

(٦١) العبر ج ٧ ص ٢٦ ، وقارن ابن عقاري ، بيروت ص ٢٧٩ - حيث الإشارة الى خروج حميد بن يصل من تاهرت سنة ٣٣٣ هـ / ٩٤٤ م ، وجوازه الى الأندلس ، وولاية مسور الفتى (بدلا من مسرور الحادم) عليها وإسائه الى أهلها ، الأمر الذي جعلهم يلجأون الى محمد بن خزر الزناتي وابنه الخير وغدرهم به وأسرهم ، قبل اضطراب المدينة وتقلب يعل بن محمد اليفرنى الزناتي عليها الى قدوم جرهم سنة ٣٤٩ هـ / ٩٦٠ م .

(٦٢) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٣١ .

سياسته التي كانت توجهها رياح الفتنة حسبا يكون اتجاهها . فلقد بدأ ثورته أيام القائم سنة ٣٣١هـ / ٩٤٢م ، على ابن عمه الفتى الصغير مستعينا بموسى بن أبي العافية الذي كان يدعو للناصر الأموي ، لكي يؤازر بعد ذلك حركة أبي يزيد التي سعت الى تأييد الناصر أيضا . وعندما انتهت ثورة الزناتية بالفشل على عهد المنصور ، رأى محمد بن الفتح أن يواجه سخط الفاطميين عليه بالانضمام الى المعسكر العباسي ، والدعوة الى خليفة بفساد . وفي سبيل ذلك كان عليه أن يتصل من مذهب أهل سجلماسة الصغرى ، الخارجي ، وأن يعلن الدخول في الجماعة على مذهب المالكية . ولكن الأمر انتهى في سنة ٣٤٢هـ / ٩٥٣م بأن اتخذ لنفسه اللقب الخلفي ، فتسمى بـ « الشاكر لله » ، وأضاف الى ذلك شعارات الملك الأخرى من اتخاذ البنود ، وضرب السكة باسمه ولقبه هذا . وبسبب جودة سبيكة تلك السكة ، حيث كانت سجلماسة من أهم مراكز تجارة الذهب السودانية وقتئذ ، ذاعت شهرتها ، كما رفعت من شأن محمد بن الفتح من حيث حملت لقبه فكانت تعرف باسم « الدراهم الشاكرية » ، كما وسمته بالعدالة والخير (٦٣) . الأمر الذي كان من الأسباب التي أدت الى ما اتخذه المعز لدين الله من اجراءات حاسمة في سبيل إعادة المغرب الأقصى الى الخضوع والطاعة .

نهاية المنصور :

وهكذا كانت سيادة بلاد المغرب البعيدة متنازعة بين الناصر الأموي ، والمنصور الفاطمي ، الذي وافته منيته في آخر شهر شوال سنة ٣٤١هـ / ٢٦ مارس ١٠٥٠م ، وهو في عنفوان التاسعة والثلاثين من عمره ، بعد ملك لم يطل الا الى ٧ (سبع) سنوات ، قضى معظمها في اطفاء نيران الثورة .

(٦٣) البكري ، ص ١٥١ ، ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٢١ - ١٢٢ - حيث النقل من ابن حزم القرطبي الذي يصف الشاكر بالله محمد بن الفتح ، بأنه كان غاية في العدل ، وقادر للجلال والمسايرات ، ص ٤١١ .

الزناينة بقيادة ابي يزيد ، صاحب الحمام ، فلم يقدر له أن يستمتع طويلا
بشجرة التنزه ، سواء في قصوره بالمنصورية او فيما حوله من الاستمتاع
بالتنزه في منطقة جالولاء الفنية ببساتينها وازهارها وزياحينها في السنة
السابقة (٣٥٠ هـ / ٩٤٩ م) ، من حيث عاد مريضنا ، بسبب رقة حالته
الصحية ، مما سبقت الإشارة اليه ، على ما نظن (٦٤) .

(٦٤) انظر فيما سبق ، ص ١٩٦ ، وانظر ابن الاثير ، ج ٨ ص ٤٩٧ - ٤٩٨ - حيث
النص على انه خرج متنزها سنة ٣٤١ هـ / ٩٥٢ م الى جالولاء فصادقه في طريق العودة برد
ومطر أدى الى مرضه ، فوصف له دخول الحسبام - وهم مراضة طيبه اسحق بن سليمان
الاسرائيلي - فكان السبب المباشر لزيادة علته ووفاته ، وقارن ابن خلدون ج ٩ ص ٤٥ ،
وقارن ابن عذاري ج ١ ص ٢٢١ - حيث النص على أنه صلى عيد الفطر مريضاً في تلك السنة
التي خرج للتنزه فيها وهي سنة ٣٤٠ هـ / ١٠٤٩ م ، بمعنى أن مرضه طال لمدة سنة اذا صح
« انه توفي في سلخ شوال من السنة التالية ٣٤١ هـ / ١٠٥٠ م » ، وعن متنزهات جالولا
انظر الاستبصار ، ص ١١٩ .

المعز لدين الله (أبو تميم محمد)
٣٤١ هـ / ١٠٥٠ م - ٣٦٢ هـ / ٩٧٣ م
الانتقال الى عصر

ولايته :

ولد المعز بالمهدية في رمضان ٣١٩ هـ / سبتمبر ٩٣١ م على ٤٥٠
المهدي ، وكانت ولايته للمعهد ، بمعرفة والده سنة ٣٤٠ هـ / ١٠٤٩ م .
السابقة على ملكه سنة ٣٤١ هـ / ١٠٥٠ م ، بمعنى أنه ولي الأمر وعمره
٢٢ سنة (١) ، أي وهو على عتبات سن الرشيد الأولى .

شخصيته :

والمعز هو أشهر الخلفاء الفاطميين قاطبة ، لعدة أسباب ، أولها : أنه
أول من ملك مصر (٢) ، وبني القاهرة التي ارتبط اسمها باسمه فهي
« المعزية » ، بعد أن بدأت باسم « المنصورية » مثل قصور صيرة . ضاحية
القيروان . وثانيها : أنه عالم الأسرة ومنظر مذهبا مما يظهر في كتب
القاضي النعمان (٣) . وثالثها : أنه واضع تراتيب الدولة الشريفة ومقعد

(١) ابن عذاري ج ١ ص ٢٢١ ، ط بيروت ج ١ ص ٢١٥ ، وقارن المخطط للمقريزي ،
ج ١ ص ٢٥١ حيث رواه ابن عذاري ، ولما تنص على أنه ولد في النصف من رمضان سنة
٢١٧ هـ / ٩٢٩ م وأنه ولي وعمره ٢٤ سنة ، كما عند ابن الأثير أيضا ، ج ٨ ص ٤٩٨ .
والثانية ج ١ ص ٢٥٢ ، وتنص على أنه ولد بالمهدية في ١١ رمضان سنة ٢١٩ هـ / ٢٧ سبتمبر
٩٢١ م .

(٢) ابن عذاري ج ١ ص ٢٢١ ، ط بيروت ج ١ ص ٢١٥ .

(٣) انظر افتتاح الدعوة ، ص ٢٢٨ - حيث ينص النعمان على أن المعز قام بأمر دعوته
بنفسه راجيا على ذلك ثواب الله ، غير مستكر ولا مستنكف - وأنه أقام صلاة الأعياد وكثيرا
من الجمع والمطبة في ذلك بنفسه . ودليل تأييد الله أنه لم يكن له معلم . غير ما ألقى به
ولي الله . وإن الله دل بذلك على تورث امامته . وذلك مما أثبتته في سيرته . وانظر المجالس
والمسايرات ، ص ٢٤ (المقدمة) حيث الإشارة إلى أن معظم كتب النعمان ألفت في عصر المعز
ص ٦٠ - حيث المعز مجتهد يستنبط الأحكام وص ٣٦١ - حيث يعزم النعمان عرض كسبل
كتاب يكتبه في الدين والفقه على المعز ، ص ٢٥ - حيث يحصل المعز غسل علم الأولين
والآخرين ، فالمعز يعرف علم الظاهر والباطن ، والعلوم الرياضية والطب والهندسة ،

رسوماتها ، مما يشهد به المقرري ومن أخذ عنهم^(٤) ، وهو أخيراً مبتكر ، تسجل له الاختراعات وتكتب باسمه البراءات^(٥) ، وهو على الجملة جبار بيت الشيعة وفحلهم منذ أوليتهم^(٦) .

الصفح مع الخزم والخمس :

وكل ذلك يعنى أن المعز هو أعظم أفراد الأسرة الفاطمية على كل المستويات من سياسية ودينية وحضارية . أما على المستوى الشخصى فلا نعرف شيئاً عن هيئته الجسمانية أو صفاته الأخلاقية والنفسية أو أسلوب حياته الأسرية باستثناء بعض الإشارات العابرة . من ذلك أنه تتلمذ على يد أبيه المنصور الذى علمه الجدل والمناظرة^(٧) ، أو ما قيل من أنه كان أرفق بالناس من والده المنصور^(٨) . أما ما تؤكده الرواية من أن العلاقة الوثيقة بين المعز ووالده المنصور الذى اشركه معه فى جلائل الأمور كقتال فضل بن أبى يزيد ، بعد قتل والده ، فكان يصدر أوامره بقتال العصاة وعمره ١٧ عاماً^(٩) ، الأمر الذى أدى إلى اغناء المعز ، جزعاً عند موت والده^(١٠) ، وأنه اقتدى بسيرة المنصور فى العفو عن العصاة حتى هدأت

ص ١٣٤ - حيث يامر بتأليف كتاب فى النحو ، ص ١٩٩ ، ٣١١ - حيث يتناقش مع نهوى ويعرض أحجية لنوبة ، ص ٢٢٤ ، ٤٤١ ، ٣٨٨ - حيث الحش على تعلم الحكمة ، والنص على أن تفاوت الناس فى فهمها لا يحول دون تلقينها ، ص ٣٣٤ - حيث يتصفح كتاباً فى تاريخ العباسيين وينتقده من حيث الاعتزاز بأعمال الدهو واللعب . وانظر الإعلام لابن الخطيب ، ص ٥٧ - حيث يقول ابن هانى فى مدحه :

وإذا إلى علم الغيوب مسبيلاً
وإذا إلى علم القياس دليلاً

ولا حجاب دون علمك حاجز
ولا لم يكن التفكير واعظاً

- (٤) انظر الخطط ، ج ١ ص ٣٦١ - ٣٦٢ ، وانظر فيما بعد ، ص ٢٦
- (٥) مثل : القلم الحازن ، الذى يكتب بلا استعداد ، المجالس والمسايرات ، ص ٢٦ (انقصة) ، ص ٣١٩ (النص) ، ومثل القصص المبتكرين اللذين أعدوا لابن واسول وابن بكر صاحبى سجلنامه وفاس - نفس المصدر ، ص ٤١٨ .
- (٦) الإعلام لابن الخطيب ، ص ٦١ .
- (٧) المجالس والمسايرات ، ص ٢٦ ، ١١٧ ، ١٢٣ .
- (٨) وذلك فيما يختص بالزحام فى سقيفة القاضى النعمان بقصر المنصورى التى وسعها المعز - المجالس والمسايرات ، ص ٦٥ .
- (٩) صيون الأخبار للداعى لادريس ، ص ٢٩٤ .
- (١٠) المجالس والمسايرات ، ص ١١٢ وقارن ص ٤٦٩ - حيث رواية مباكسة تنص على أن القائم جد المعز - كان يغشى عليه من تنكر والده المنصور له .

الروعات وسكن الناس (١١) ، فمن الواضح أنه كان لا يتسامح مع من يخرج عن حدود الأدب في التعامل معه ، وبالتالي مع أفراد الأسرة المالكة ، مما عرف حديثا بالعيب في الذات الملكية - ان لم نقل انه كان حقودا فيما يتعلق بهذا الأمر . فهذا ما نخرج به مما حدث لمظفر الصقلي الذي كان له فضل تعليمه الخط ، صغيرا - فلقد ضاق خلق الخادم مظفر ذات يوم وهو يخدم أميرنا الصغير ، فصدرت منه ، في ثورة غضبت أملت به ، كلمة بالصقلبية علقت بذهنه ، وإن لم يفهم معناها - وعز على الخليفة المعز ألا يفهم لغة من كان يتعامل معهم من الخشم والخدم ، وقرر لا أن يتعلم الصقلبية فقط ، بل وسائر اللغات المعروفة في المملكة مما يعرض في البلاط من أفراد الحاشية أو من رجال الدولة ، من : البربرية والرومية والسودانية والصقلبية - وذات يوم عرف المعز المعنى القبيح للكلمة التي كان مظفر الصقلي قد تفوه بها أثناء خدمته له ، وكان الموت عقوبة المرأة على العيب في الذات الملكية ، وبأثر رجعي أيضا - مما لا تعرفه الا القوانين الاستثنائية (١٢) .

ومع ذلك فلا بأس أن تكون تلك الخصوصية هي السبب في التخلص من المملوك الصقلي الذي ارتفع شأنه كواحد من كبار القواد ، مثله في ذلك مثل مولاة الآخر قيصر . وفي ذلك تقول رواية ابن خلدون ان الأمر انتهى بأن غلب كل من موليه : قيصر ومظفر على دولة المعز ، حيث استبد أحدهما بالمغرب والآخر بالشرق ، فلم يكن أمامه سد من القبض عليهما سنة ٣٤٩هـ / ٩٦٠م ، وقتلها (١٣) . وهكذا يكون الفتيان ضحية تداخل أمور الدولة العامة في شئون الخليفة الخاصة ، إذ الحقيقة ان الخط الفاصل بين ما هو خاص وما هو عام لم يكن واضحا في نظم الدولة ، وتتشدد .

ومن الواضح ان المعز كان شديد الحساسية بالنسبة للافتئات على حقوقه وخاصة السياسية منها . فهذا ما يظهر فيما كان يراه في مناماته من خصومة العصاة والمعادين له ، وقد نزلت بهم الهزائم والنكبات (ما سبق ٢٤ وما يأتي ، ص ٢٢٧) الأمر الذي يشبع حاجاته النفسية من غير شك .

(١١) افتتاح الدعوة ، ص ٢٣٥ .

(١٢) الخطط ، ج ١ ص ٣٥٣ .

(١٣) المعز ، ج ٤ ص ٤٧ - هذا وأن ابن خلدون قبل ذلك (ج ٤ ، ص ٤٦ ، سبق كوال لبغاوية من بلاد الزاب - دون ذكر لمظفر كواحد بين سائر الولاة .

البساطة وحب العمل :

ومن المعروف من حياة المعز الخاصة ان موند ابنه نزار (العزيز) كان في سنة ٣٥٥هـ / ٩٥٥م (ابن عذاري ج ١ ص ٣١٦) وان نشاطه الشخصي وتغانيه في العمل كان مضرب المتسل والقذوة التي يجب أن يهتدى بها رجال الدولة وكبار القواد من الكتاميين ، لا يمنعهم من ذلك تقلب الأحوال الجوية السيئة . فهو في وقت البرد الشديدة من فصل الشتاء يصحو مبكرا للنظر في الرد على ما ورد الى ديوانه من الرسائل ، من المشرق والمغرب - في ذلك الوقت من سنة ٣٤٧هـ / ٩٥٨م عندما كان القائد جوهر يوجب بلاد المغرب غازيا حتى اقامتها الغربية . وهو لا يهتمتكف الاستئناس برأى زوجته أم أولاده الأمراء ، التي كانت ناهضة الى جواره ، وذلك عندما قرر استدعاء زعماء كنامة في تلك الحالة الجوية الصعبة ، لكي يعرفوا ماذا كان يفعل الامام وقتئذ ، في مجلسه البسيط ، المفروش باللبود ، وثيابه الخشنة المكونة من كساء فوقه جبة ، بدلا من أن تذهب بهم الأوهام وتغزو ، ما بين التفكير في تمتعه بمباهج الحياة من الأكل والشراب الرقيق والتقلب في الثياب الناعمة والطور الثمينة ، في تلك الظروف الصعبة . والهدف النهائي الذي أراده المعز تربوي بصفته الامام المعلم ، وهو يقومه للزعماء الكتاميين ليكون حافزا لهم على التقشف ، وخاصة فيما يتعلق بعدم الكلف بالنساء والاكتفاء بالزوجة الواحدة حفاظا على سلامة الجسم والعقل ، وضانا لحسن الخدمة والعمل (١٤) .

وقريب من هذا ما تقوله الرواية في السياسة المالية وجمع الأموال التي كانت تتراكم في ألوف الصناديق في القصر الخلافي تحت اشراف المعز المباشر ، قبل استدعاء صاحب بيت المال ، أبي جعفر حسين بن مهذب ، الذي كان عليه مراجعة محتوياتها بمساعدة معاونيه من الموظفين في بيت المال والفراشين ، وتسجيل كل ذلك في دفاتره ، قبل ختم الصناديق بخاتم المعز نفسه وحملها الى خزائن بيت المال لتكون في عهده تحت طلب الامام . والأمر هنا يتعلق بما كان قد جمعه المعز سنة ٣٥٧هـ / ٩٦٨م من الأموال اللازمة للنفقة على حملة فتح مصر ، والتي بلغ مجموعها ، حسبما رصده ابن مهذب ، ٢٤ مليون دينار (١٥) .

(١٤) انظر الخطوط ، ج ١ ص ٣٥٢ ، وقارن نشاط الخلفي ، ج ١ ص ١٣٦

(١٥) انظر الخطوط ، ج ١ ص ٣٥٢ .

الزهدي :

والهم انهم انهم ما أفاء الله على المعز من « الملك والسعة والبسطة واستقامة الأمور » ، مقارنة بما كان عليه والده المنصور الذي عاش عصر الفتنة والتعب ، فلم « يتمتع من الدنيا بما يتمتع به من يملك مائة دينار فما دونها » ، فان النعمان ينص على أن المعز « ما كان يتلذذ في ذلك بكثير مطعم ولا مشرب ولا نكاح ولا طرب » ، فما كان تلذذه إلا بالحكمة والتذكر بالمواظب الحسنة ، الى جانب انشغاله بأمور الدولة وصالح الرعاية .

برنامج العمل اليومي :

فهو يترك منزله من الصباح الى ديوانه حيث يبقى في تصريف أمور الدولة حتى وقت الظهر . وعندئذ يعود الى المنزل لتناول طعام الغداء ، ويؤدي فرض الصلاة ، ويأخذ قسطا من الراحة وقت الغيلولة ، لكي يعود الى ديوانه بعد صلاة العصر ، لكي يبقى هناك الى الليل . وهو عندما يدخل الى داره بعد ذلك يصرف قدرا من الليل بصحبة خاصته في النظر في الكتب والعلوم والكتابة والتأليف ، فذلك كان نظامه اليومي في العمل ، باستثناء الأيام التي يخرج فيها للفرجة والتي غالبا ما تكون أيضا ، للاطلاع على أحوال الناس والنظر فيما يصلح شئونهم (١٦) .

وكل ذلك يعني ان نظام الحكم الذي طبقه المعز في ادارة شئون دولته ، كان من ذلك النوع الكلي الذي يؤول كل شيء فيه الى الخليفة الامام ، من حيث هو مصدر كل السلطات بمعنى ان كل من حوله من رجال الدولة والحاشية ليسوا بأكثر من أعوان يمكن له أن يستشير بأرائهم ، ولكن دونما التزام .

سياسة المعز المغربية ، ما بين الاقدام والتربص :

رغم الآمال العراض التي ترتبت على نهاية المقاومة الزناتية في بلاد أفريقية ، الأمر الذي يرمز له ترك المهدية تنعى من بناها ، والعودة المذفورة الى ضاحية المنصورية بالقبروان ، فان مواجهة التدخل الأموي في الحدود المغربية ، وما وازعها من بلاد المغرب الأقصى والتحالفات التي عقدتها

عبد الرحمن الناصر مع ملوك البربر وأمراء الأدارسة ، تطلب المزيد من الجهد من جانب المعز الذي وقع عليه ذلك العبء ، شابا يافعا . والحقيقة انه لم تنقض ست سنوات على امامة المعز حتى كانت جيوشه المظفرة تكتسح بلاد المغرب الأقصى ، من أدناها الى أقصاها فلا تقف أمامه الا سبتة . حيث ثبتت القوات الأموية أقدامها بعناد يمكن أن نتفهم أبعاده من حيث كانت سبتة باب العبور الى الأندلس . وكذلك تراوحت سياسة المعز المغربية - رغم قوتها - ما بين الخوف والرجاء ، فهو يناجز الحصون في المغرب دون هواده ، ويعمل في نفس الوقت بكل صمة على فتح مصر ، أول مرحلة في سبيل تحقيق الحلم الكبير ، المتمثل في تصحيح ما ألم بتاريخ صدر الاسلام من الانحراف نحو الأمويين والعباسيين على حساب آل البيت من الفاطميين .

الصراع مع الأمويين في المغرب :

ولكنه قبل تصحيح مسار تاريخ المشرق البعيد كان على المعز أن يقوم ما أعرج من تاريخ المغرب المعاصر الذي مالت كفته لصالح عبد الرحمن الناصر الذي دانت له بلاد المغرب ، اثر الثورة الزناتية بعد أن كانت خاضعة كلها ، باستثناء سجلماسة في أقصى الصحراء الجنوبية ، لأبي القاسم القائم ، جده (١٧) .

نقوذ الناصر في أرشقول وقاسمنا :

والظاهر أن عبد الرحمن الناصر الذي حاول استغلال ثورة

(١٧) انظر ابن خلدون ج ٧ ص ٨٦ - حيث النص على أنه خطب وقتله لأبي القاسم على المنبر من مدينة تاهرت (بالمغرب الأوسط) الى مدينة طنجة (بساحل المدونة) ، ما عسدا سجلماسة التي كانت حينئذ مستقلة تحت سيادة بني مدرار . وقارن ابن حيسان ، ج ٥ تحقيق شاليتا وآخرين ص ٢٥٩ - ٢٦٠ - حيث الإشارة الى أن الأوضاع كانت مختلفة من حيث الصراع عليها في سبيل السيطرة على منطقة الساحل في المغرب الأقصى على عهد المهدي سنة ٣١٧ هـ / ٩٢٩ م وما بعدها ، فينس محمد بن نحر في كتبه الى الناصر ، على أن مدينة تاهرت هي « قاعدة الشيعة وفترة مشابها » . كما يذكر ابنه الحير بن محمد في مخطوطة الناصر بعد ذلك ، أخبار نزول أبي القاسم (عبد الرحمن) ولد الشيعي ، مبدل الإيمان ، بالساحل لديهم ، وأنه (الحير) استرجع حصنا كان قد بنسأه (القائم) هناك . وبذلك « ظهر الأرض منهم فليس لهم بالساحل مكان ، ولا منبتق ، ما خلعت مدينة تاهرت » ، التي يصفها بدار المشركين ، وماوى الملحدين ... وانظر فيما سبق ص ٣٥ ، ٣٦ .

أبى يزيد إلى أقصى حد في سبيل توطيد أقدامه ليس في المغرب فقط بل وفي إفريقيا (ما سبق ص ١٨٥) رأى أن فشل الثورة يحتم عليه مضاعفة جهوده في رد الخطر الفاسطى بعيدا عن بلاده ، وذلك بمساعدة خلفائه من زعماء البربر والموالين له من الإدارسة . وفى سنة ٢٢٨هـ ٩٤٩م كان البورى ابن موسى بن أبى العافية يحقق النصر على الحسن عيسى (بن أبى العيش) الإدريسي فى أرشقول ، ويبعث به إلى الشام بقرطبة - علامة خضوع نهائى (١٨) . وفى نفس هذا الوقت كان يعلى محمد بن خزر اليفرنى (الزناتى) يمدن مدينة فكان (أو افكان) عس حسب تاهرت حيث انتقل إليها أهل معسكر تاهرت (١٩) . وامتد نفو الناصر إلى منطقة تامسنا ، وهى المنطقة الساحلية غرب سلا والرباط فيما بين أسافل نهري بورجرج وأم الربيع والتي كانت تقطنها قبائل يرغواطة التي عرفت بأنها صاحبة زندقة أو ما يشبه الردة عن الاسلام (٢٠) والمهم هنا أنه عندما ولى أميرهم أبو منصور عيسى سنة ٣٤١هـ / ٩٥٢م تقول الرواية ان أباه أبا الأنصار الذى عرف بالسخاء والظرف وأنه لا يشبه الا فى الحرب كان قد أوصاه بموالة صاحب الأندلس (٢١) ، أى مداراة واطهار الخضوع له ، مما يأتى ذكره .

خضوع الأدارسة فى طنجة والعدوة المغربية :

وفى مطلع عهد المعز كان زعيما الأدارسة فى طنجة والعدوة المغربية وهما الأخوان : أبو العيش والحسن بن كنون قد دخلا فى طاعة الناصر وكعلامة إخلاص له استأذنه أبو العيش فى الجهاد فى الأندلس فرحب الناصر

(١٨) البكرى ص ٨٧ .

(١٩) البكرى ص ٨٩ .

(٢٠) والحقيقة ان هذه الزندقة التى بدأت فى ثمايا حركات الحوارج الأولى بالمغرب ، والتي تنطوى فى الاستقلال السياسى أو ما يشبه الحكم الذاتى ، مع تطويع الاسلام بصفتها الكلية من حيث هو دين ودولة واقتصاد واجتماع الى متطلبات الحياة فى المنطقة وخاصة فيما يتعلق بترجمة القرآن الى اللغة البربرية وأداء الفرائض بنفس اللغة المحلية مع تطويع بعض أمور الأحوال الشخصية والمعاملات بما يتفق والمادات المتوارثة ، من : محاولة تحليل لحد أنشئ التخزين على أساس ان النص فى شكل الذكر ، أو المبالغة فى تزكية الحيوان عند الذبح كى تشمل السمك (الحوت) ، أو بتبجيل الديكة على أساس ان صاحبها فجرا هو نوع من الأذان والدعوة الى الصلاة الأولى ، الى غير ذلك مما اعتبره الكتاب ديانة مجسدة خارجة عن الاسلام - انظر البكرى ص ١٣٦ ، الاستبصار ص ١٩٧ - ٢٠٠ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٣٢١ .

(٢١) البكرى ، ص ١٣٦ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٣٢١ .

بإلزام وأحسن وفادته عند مجيئه . ولكنه عندما خرج الحسن بن كنون على الناصر ، بعد وفاة أخيه أبي العيش بالأندلس سنة ٣٤٣هـ / ٩٥٤م ، ودخل في طاعة المعز في المنصورية ، كان رد الناصر عنيفا بقدن ما كان سريعا ، اذ غلب على بلاد المغرب بما فيها أملاك الحسن ابن كنون (٢٢) . وفي نفس سنة ٣٤٣هـ / ٩٥٤م كان كلا من الزعيمين الزناتيين يعلى بن محمد بن صالح والحير بن محمد (بن خزر) قد دخلا في طاعة الناصر الأموي ، وكان يعلى قد ملك وهران منذ سنة ٣٤٣هـ / ٩٥٤م . ولما كان يعلى بالتحالف مع الحير بن محمد ، قد استولى على تاهرت من يدي كل من مسرور الفتى وعبد الله بن بكار سنة ٣٣٣هـ / ٩٤٤م ، فان ملكه كان قد عظم بالمغرب بقدر ما كان يخطب للناصر على منابر ما بين تاهرت الى طنجة ، الأمر الذي استدعى من الناصر تولية رجال بيته (٢٣) .

هيمنة الناصر على سبتة والأدارسة في تطوان :

هكذا ، كما كان الناصر يؤازر أهل سبتة ضد الأدارسة من بني محمد الذين كانوا ينازعون البوري بن موسى بن أبي العافية منطقة مغيلة (٢٤) ، الأمر الذي أدى بالأدارسة الى عدم مدينتهم تطوان (تيطاوان) . التي كانت منافسة لسبتة وذلك سنة ٣٣٨هـ / ٩٤٩م ، وعدم تمكنهم من إعادة بنائها عندما رغبوا في ذلك بسبب اعتراض أهل سبتة ، ووقوف الناصر بحزم الى جانبهم ، الأمر الذي انتهى بإرسال الجيوش لناصرتهم سنة ٣٤١هـ / ٩٥٢م ، مما أدى الى خضوع الأدارسة ودفعهم لأبنائهم رهائن في قرطبة في نفس تلك السنة (٢٥) . ولما كان الزناتية من بني خزر قد أصبحت لهم السيادة على فاس بصفتهم نواب الناصر الذي ولي عليها محمد بن الحير بن محمد اليفرنى (الزناتى) الذي رحل بدوره الى الأندلس .

(٢٢) ابن خلدون ، ج ٧ ص ٨٩ .

(٢٣) ابن خلدون ، ج ٧ ص ١٧ - حيث الإشارة الى أمر مسرور ، ومثل عبد الله بن بكار الذي كان مطلوبا لقتله والد محمد بن صالح مع الإشارة الى اشتطاط ماذنة القرويين سنة ٣٤٤هـ / ٩٥٤م بمسرفة أحمد بن بكر ، (ابن أحمد بن عثمان بن سيم) الذي آلت اليه ولاية فاس من ابن عمه محمد بن الحير (ابن محمد بن عشيرة) عندما نسك واستأذنا في الجهاد والرباط بالأندلس . ومن الاستيلاء على تاهرت سنة ٣٣٣هـ / ٩٤٤م ، انظر ج ٧ ص ٢٦ .

(٢٤) البكري ص ١١٧ - وان كان ذلك فيما بعد سنة ٣٤١هـ / ٩٥٢م عندما هزمه .

(٢٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ٣٦٧ .

باسم الجهاد ، كما فعل أبو العيش الإدريسي من قبله ، تاركا ابن عمه أحمد بن بكر الذي بنى منار الجامع القروي سنة ٣٤٤هـ / ٩٥٥م ، وإيب عليها (١٦) ، كما كانت لهم السيطرة على إقليم تهرت ، فإن الناصر يكون قد غلب فعلا أو كاد على كل بلاد المغرب ، كما يقول ابن خلدون (٢٧) .

سجل ماسة تدخل في الدعوة العباسية :

أما عن سجل ماسة فلم تكن قد استقلت فقط تحت رئاسة ملوكها القدامى المداريين من بني واسول ، بل إن محمد بن الفتخ الذي استولى على السلطة من ابن عمه أبو المنتصر بن المعتز انتهى به الأمر إلى أن أجرى تحولات ثورية سريعة الإيقاع في أحوال سجل ماسة ، وذلك أنه ترك مذهب الصفرية الحوارج الذي كان يعتنقه بنو مزار ، ودخل في السنة على المذهب المالكي في سبيل الدخول في طاعة خلافة بغداد العباسية ثم لم يلبث أن اتخذ اللقب الخلفي عندما تسمى بـ « الشاكر لله » وضرب النقود - رمز السيادة والتي عرفت باسمه ، فهي « الشاكرية » (٢٦) .

الصراع البحري ضد الأمويين :

ولم يكن من الغريب أن يستشري ذاك الصراع بين الناصر والمعر ، من البر إلى البحر ، وإن حدث ذلك بمحض الصدفة ، وربما بدون قصد منهما ، وإن كان الصراع في البحر بينهما يعتبر أمرا حتميا من حيث أن كلا من الدولة الفاطمية والدولة الأموية الأندلسية كانت قوة بحرية بالامتياز ، نتيجة طبيعية لأوضاعهما الجغرافية ، من حيث أن لكل منهما سواحل طويلة على المتوسط ، أما في مواجهة الشواطئ البيزنطية شرقا في مقابل كريت وصقلية وجنوب إيطاليا أو الشواطئ الفرنسية والإيطالية مع جزر كورسيكا وسردينيا المواجهة لشرق الأندلس ، إضافة إلى شواطئ المحيط من حيث كان يتهدد الأندلسيين الخطر النورماندي .

(٢٦) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٨٨ .

(٢٧) المعبر ، ج ٦ ص ٨٩ .

(٢٨) البكري ، ص ١٥١ ، ابن الأثير ، ج ٨ ص ٥٢٤ ، ابن خلدون ، المعبر ، ج ٦ .

الصدام البحرى قرب صقلية وفي سواحل الأندلس والمغرب :

وكان أول صدام فى البحر سنة ٣٤٤ هـ / ٩٥٤ م ، عندما مر مركب أندلسى بدير ، كان قادما بمتاجر من الاسكندرية ، ببعض الجزر الافريقية الواقعة على سبت صقلية ، فوجد بها قارباً من قوارب البريد الفاطمية فى طريقه برسائل رسمية من صقلية الى المهدي . فخشى الأندلسيون ان ينذر أهل القارب بهم . فأخذوا سكان (رجل) القارب ، كما طمعوا فى بعض الامتعة فاستولوا عليها ، ومنها حقيبة جلدية (خريطة) كان فيها كتاب عامل صقلية الى المعز (٢٩) . وكان من الطبيعى أن يغضب المعز لجرأة البحرىين الأندلسيين ، رعية العدو الاموى فى الاعتداء على بريده البحرى ، بين صقلية والمهدي ، فيما يمكن أن يعتبر بحق مياها فاطمية اقليمية . فأمر باعداد قوات برية بحرية مشتركة يحملها أسطول صقلية بقيادة والى الجزيرة ، الحسن بن على نفسه ، وأن تكون مهمتها متابعة المركب الأندلسى الكبير حيثما كان ، والتأثر منه لفعلته الشنعاء . ولم يكن من العسير على والى صقلية العثور على المركب المطلوب فى ميناء المرية بجنوسوب شرق الأندلس . ولم يكتف العسكر المعزى بأحراق المركب الآثم الذى كان قد أرسى لتوه هناك ، بل انهم نزلوا الى البر بميناء المرية نفسه الذى يعتبر مجمع المراكب والأساطيل الاموية ، ودار صناعة السفن هناك ، فاستولوا على المدينة اجتياحاً ، وأحرقوا ما بها من المراكب والمخازن ، وما كان فيها من المعدات البحرية ، من الصواري والعدد وانهبوا جميع ذخائرها ، وعادوا جميعاً الى المهدي سالين (٣٠) .

(٢٩) المجالس والمسايرات ، ص ١٦٤ - ١٦٥ - حيث رواية النعمان هنا بدون تاريخ وقارن ابن الأثير ، ج ٨ ص ١٢ - ٥١٣ (أحداث سنة ٣٤٤ هـ / ٩٥٤ م) - حيث النص على ان المركب الأندلسى الكبير ، الذى لم يعمل مثله ، كان لعبد الرحمن الاموى (الناصر) ، وأنه قطع على المركب اللطفى الذى كان فيه رسول من صقلية الى المعز ، وأخذوا ما فيه وأخذوا الكتب التى الى المعز ، بمعنى أنها غارة مقصودة لم تات عرضاً حسب رواية النعمان التى رجحناها .

(٣٠) المجالس والمسايرات ص ١٦٥ واليوامش ، وقارن ابن الأثير ج ٨ ص ٥١٣ (حوادث سنة ٣٤٤ هـ) - حيث الاشارة الى ان الصلابة الفاطمية أخذوا المركب اللطى وفيه امتعة لعبد الرحمن (الناصر) وجوار مغنيات ، واقتناح الدعوة ، النص العربى ص ٣٣٦ - حيث الاشارة الى احراق أساطيل المهدي ودار الصناعة بها ، مع التلميح فقط الى ان السبب هو « جور جاريه بنو أمية » فى البحر الى المشرق دون أمر أميرهم ، والترجمة الفرنسية ص ٤١٣ فقرة ٣٠٢ وهـ ٢ - حيث تحديد تاريخ الواقعة بسنة ٣٤٤ هـ / ٩٥٥ م (حسب تاريخ ابن الأثير بشكل عام) مع الاشارة الى ليش بروفستال ، اسبانيا الاسلامية ، ج ٢ ص ٧٠٦ .

وكان من الطبيعي أن يتمثل رد فعل عبد الرحمن الناصر في تجهيز أسطوله للقيام بعمل ثأري فنزلت مراكبه « في العسام القابل » (٣٤٥ هـ / ٩٥٥ م) (المجالس ، ص ١٦٦) ، بقيادة غالب مولاة بعض السواحل الأفريقية تخرب وتنهب ، ولكنه كان على الأندلسيين العودة الى مراكبهم والزحيل نحو بلادهم عند مجيء القوات الفاطمية ، بعد مناوشات خسر فيها كل من الطرفين أعدادا من القتلى . وعندما عاد الأندلسيون في السنة التي تليها (٣٤٦ هـ / ٩٥٦ م) ، في ٧٠ (سبعين) مركبا ، فاجأوا بها مرسى الحزر في المغرب الأوسط ، قبل أن يواصلوا المسيرة الى جهات سوسة في ساحل القيروان ثم طبرقة (طرنة) في سواحل برقة (٣١) .

وأمام تهديد عبد الرحمن الناصر لوجود الفاطمي في المغرب الأقصى وغاراته البحرية التي وصلت الى سواحل برقة ، وجرة أمير سجلماسة المدبري على اتخاذ اللقب الخلافي ، فكانه أراد - دون قصد - أن يزيد في تفتت الخلافة الى أربع « خلافات » بدلا من ثلاث ، كان على المعز أن يتخذ اجراء عسكريا رادعا يعيد به السلطة الفاطمية الى منطق العدوة مقابل الأندلس ، ويعطى له الثقة في نجاح ما كان يخطط جديا له منذ ذلك الوقت من فتح مصر -

(٣١١) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٥١٢ (أحداث سنة ٣٤٤ هـ / ٩٥٤ م) وقارن رواية النعمان في المجالس والمسائرات ص ١٦٦ - حيث الإشارة الى أن الأموي الذي أصابه الملع نتيجة لما نزل بأساطيله بالبرية على أيدي قوات المعز لم يكتف بتسيير مراكبه (ضد بلاد المعز) بل أنه طأ الى الاستنصار بطاغية الروم التي سير مراكبه مع المراكب الأندلسية والذي أخذ يساوم المعز على عقد هدنة طويلة الأمد معه نظير انصرافه عن الأمور . والحقيقة هنا ان رواية النعمان تربط بين صراع المعز مع الناصر وصراعه مع الروم في صقلية وجنوب إيطاليا (انظر ص ١٦٧ وما) الذي انتهى بهدنة سنة ٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م ، ولعدة خمس سنوات ، الأمر الذي أدى أيضا الى طلب الناصر الصلح مع المعز ، انظر فيما سبق ، ص ٢٣ - حيث امتنع المعز من الصلح بسبب انتفاخ الأموي للقب الخلافي ، وقارن ص ١٩٤ - ١٩٥ حيث الإشارة الى احتياج صاحب الأندلس على ما نزله باتباعه من البربر الذين أرسلهم لغزو بلاده عندما عطيت مراكبهم ، من الأسر والبيع بالكلاب ، حيث لا يجوز بيع أحرار المسلمين ، وهو ما رد عليه المعز بأنه لم يبع ذلك لأن عقوبتهم الشرعية هي القتل أو المن .

حملة معزية تفتاح المغرب من أدناه الى أقصاه
بقيادة القائد جوهر الصقلي : ٣٤٧ هـ / ٩٥٨ م :

ولا ندري ان كانت سياسة التهذئة تلك ، المتمثلة في الاحسان والترغيب قبل الاساءة والترهيب ، قصده بها المعز نشر « السلام الفاطمي » في بلاد المغرب قبل النقلة الى مصر ، أم أنها كانت تمهيدا لاجتياح المغرب الأقصى بمعرفة جوهر القائد ، واقضاء النفوذ الأموي عنه ، أم ان ذلك الاجتياح للمغرب البعيد (٣٤٧ هـ / ٩٥٨ م) كان بمثابة تدريب أو مناورة تمهيدية للحملة التي كان على القائد الصقلي أن يقودها لفتح مصر سنة (٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م) . هذا ، ولو أن المنطقي أن نعتبر أن حملة جوهر المغربية هذه والتي صاحبه فيها زيري بن مناد ، تكملة للحملة التي قادها المعز بشخصه سنة ٣٤٢ هـ / ٩٥٢ م على جبل أوراس وبلاد الزاب ، والتي انتهت بالقضاء على آخر أوكار المقاومة هناك ، بعد أن استأمن بنو كملان ، ومليلة من هوار ، ودخلوا في طاعة المعز ، كما استأمن اليه محمد بن خزر بعد قتل أخيه معبد (٣٢) .

أما عن السبب المباشر لتسيير حملة جوهر سنة ٣٤٧ هـ / ٩٥٨ م عند ابن خلدون ، فهو ما بلغ المعز من مداخلة يعلى بن محمد اليفرنى للأمويين من وراء البحر ، وبالتالي نقض أهل المغرب الأقصى لطاعة الشيعة (٣٣) .

تاهرت :

والهم أن المعز سير الحملة التي توصف بأنها جيش كثيف (ابن الأثير ج ٨ ص ٥٢٤) ، يزيد عدده على ٢٠ (عشرين) ألف رجل (٣٤) ، وعلى رأسها القائد جوهر الذي كان قد عظم شأنه عند المعز حتى بلغ رتبة الوزارة ، كما يقول ابن الأثير ، فكانه نائبه في تلك الحملة ، وبصحبته جمع من كبار القواد ، منهم : الزعيم الصنهاجي زيري بن مناد ، صاحب أشير ، وجعفر بن علي صاحب المسيلة (٣٥) . وكان وصول الحملة الى تاهرت دفعة

(٣٢) العبر ، ج ٩ ص ٤٦ ، وقارن المؤنس لابن أبي دينار ، ص ٧٤ - حيث الاشارة الى ان زيري بن مناد حفر مع المعز لدين الله عند دخوله للمغرب سنة ٣٤٢ هـ / ٩٥٢ م ، والتي استعمله المعز بعدما على أشير وما والاها .

(٣٣) العبر ، ج ٤ ص ٤٦ .

(٣٤) ابن خلدون ، ج ٧ ص ٨٩ .

(٣٥) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٥٢٤ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤٦ .

واحدة ، دون عمليات عسكرية جانبية ، يعنى جدوى حملة التهدة التي قادها المعز في السنوات السابقة في جبل أوراس وبلاد الزاب . ويظهر ذلك في استسلام يعلى بن محمد بن خزر الذي يعنى انتظام الأسرة جميعا في صف المعز بدلا من عبد الرحمن الناصر .

ولكن خضوع يعلى كان مؤقتا اذا لم يلبث أن انتهز الفرصة وخالف القائد الفاطمي لاجئا الى مركز قيادته في بلده فكان (أو أفكان) بالقرب من تلمسان (ما سبق ، ص ٢٣٦) ، حيث طارده جوهر الى هناك ، وخرّب المدينة ، ونجح في القبض عليه وعلى ولده (٣٦) ثم انه قتله وبعث برأسه الى المعز بالمصورية بالقبروان ، في جمادى الآخرة ٣٤٧ هـ / سبتمبر ٩٥٨ م ، حيث عرض عليه مع رأس أخيه (٣٧) .

هذا ، ولو ان ابن خلدون يورد روايتين أخريين ، احدهما تقول : ان جوهر اقبل اذعان ازعيم الزناتى يعلى وهو يضمم الفتك به ، وأنه فعل ذلك يوم خروجه من البلدة ، على أيدي الأنباع من الكتامين والسنهاجيين ، لكي يتبدد دمه هدرا ، الى جانب تخريب مدينة « ايفكان » . أما الرواية الأخرى فتتص على أن الفتك بـ يعلى كان بناحية شلف ، وأنه بمقتله لم يجتمع بنو يفرن الا بعد حين على ابنه يدو بالمغرب ، وأن الكثير منهم لحقوا بالأندلس (٣٨) . وكان لقتل يعلى رنة حزن شديدة لدى الناصر الأموى ، حسبما ينص على ذلك القاضي النعمان ، بحيث تبدد العسكر الأندلسى الذى كان في مرحلة الاستعداد في المرية لعبور المضيق ونجدة يعلى (٣٩) .

سجلهاصة :

ومن تاهرت اتجه جوهر بجيوشه نحو فاس التي كان يليها أحمد بن بكر (الجندامى) خليفة محمد بن الخير بن محمد اليفرنى الزناتى ، الذى كان حليفا للناصر الأموى في قرطبة ، فولاه على فاس ثم انه عندما سار الى الأندلس لكجهاد عهد بفاس الى أحمد بن بكر ، الذى خلص له الأمر بعد وفاة

(٣٦) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٢٤ - حيث الاشارة الى ان اصحابه هم الذين ثاروا بعد القبض عليه .

(٣٧) ابن خلدون ، ج ٧ ص ٨٩ ، المجالس والمسايرات ، ص ٢٧٥ .

(٣٨) الأثير ، ج ٧ ص ١١٧ - ١١٨ - حيث « يدوى » بدلا من « يدو » .

(٣٩) المجالس والمسايرات ، ص ٢١٧ - ٢٧٥ .

محمد بن الحير بالأندلس سنة ٣٤٣ هـ/ ٩٥٤ م ، فخلد اسمه هناك في السنة التالية ٣٤٤ هـ/ ٩٥٥ م ببناء منذنة (صومعة) جامع القرويين (٤١) . هذا ولو أن ولدى موسى بن أبي العافية ، وهما : مدين الخليف السابق لأحمد بن بكر ، والبورى ، الذى كان في سنة ٣٤٥ هـ/ ٩٥٦ م فى طاعة الناصر ، كانا ينازعان أحمد بن بكر ولايته لفاس ، حيث تنص رواية ابن خلدون على أن البورى توفى وهو يحاصر أخاه مدين بفاس (٤١) .

والمهم أن أحمد بن بكر قرر المقاومة فى فاس ، فأغلق أبوابها ونجح فى الدفاع عنها أمام هجمات القوات الفاطمية ، الأمر الذى دفع جوهر إلى الاستماع إلى نصيح الناصحين له من أمراء الأدارسة الفاطميين من اقصى المنطقة (السوس) ، الذين أتوا إليه مرحبين وبإلهادايا مهنئين ، بالا يتهك قواه فى عمليات الحصار ، وأن يعجل قبل ذلك بالمسير إلى سجلماسة ، هدفه الأبعد (٤٢) .

ولم تكلف سجلماسة القسوات الفاطمية الكثير من العناء ، وذلك أن صاحبها ، محمد بن الفتح ، المتلقب بالشاكر لله ، خرج منها بمجرد علمه باقتراب جوهر ، إلى بعض حصونه القريبة ، والظاهر أنه بقى فى المنطقة متخفيا يتحسس الأخبار ، الأمر الذى انتهى بأن غدر به بعض خصومه (من مدشرة) فوقع فى أسر رجال جوهر ، وذلك فى شهر رجب التالى من نفس سنة ٣٤٧ هـ/ أكتوبر ٩٥٨ م (٤٣) .

فاس :

ومع قدوم فصل البرد كان على جوهر أن يقضى الشتاء فى المغرب وأن يستقبل العام الجديد (المحرم) ٣٤٨ هـ/ مارس ٩٥٩ م هناك .

(٤٠) ابن خلدون ، ج ٧ ص ٨٨ .

(٤١) العبر ، ج ٦ ص ١٣٦ .

(٤٢) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٥٢٤ .

(٤٣) البكرى ، ص ١٥١ ، ابن الأثير ، ج ٨ ص ٥٢٤ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٢٢ -

حيث النص على أن جوهر قتل ابن واسول ، وهو غير صحيح ، وإن كان له الفضل فى تحديد التاريخ بشهر رجب .

سبّنة وطنجة وتطوان :

ولا بأس أن يكون جوهري قد استغل تلك الفرصة ليؤكد النفوذ الفاطمي في المغرب الأقصى ، وبخاصة في منطقة العدو المواجهة لسواحل الأندلس ، في منطقة سبّنة وطنجة وما وراءها ، وهو ما تؤكد رواية ابن الأثير التي تقول انه وصل الى البحر المحيط (٤٤) ومن الواضح أن وصول جوهري الى منطقة العدو حيث كان الأدارسة يجاهدون في الحفاظ على سلطانهم في تلك المنطقة الشبيهة بالأرض الحرام بين المتحاربين من الأمويين الأندلسيين والفسطاطيين الأفريقيين ، عن طريق الميل مع من تمسك كفته رجحانا ، من الطرفين ، وكانت كفة الناصر وقتئذ هي الراجحة ، كما سبقنا الإشارة . فالحسن بن كئون آخر ملوك الأدارسة بالمغرب ، والذي خلف أخاه أبا العيش (الذي توفي سنة ٣٤٣ هـ / ٩٥٤ م مجاهدا في الأندلس) بموافقة الناصر ، كان عليه أن يفر هاربا الى الأندلس (٤٥) .

أما عن موقف بني محمد ، أصحاب تطوان (تيطوان) من الأدارسة ، فالمعروف أنهم كانوا على خلاف مع أهل سبّنة أتباع الناصر ، وانهم اضطروا الى هدم مدينتهم تيطوان سنة ٣٢٨ هـ / ٩٤٩ م (٤٦) ، وكانوا وقتئذ قد دخلوا في طاعة الناصر . ولكنهم عندما خرجوا على طاعته في السنة التالية ٣٣٩ هـ / ٩٥٠ م (٤٧) ثم أرادوا إعادة بناء تطوان من جديد سنة ٣٤١ هـ / ٩٥٢ م ، اعترض عليهم أهل سبّنة من حيث أنه يضر بمصالحهم ، وذلك بتأييد من الناصر لهم . ولكنه عندما هددهم الناصر بما أرسله اليهم من قواته بقيادة : حميد بن يعلى ، وبما أصدر من الأوامر الى حميد بن يعلى ، صاحب تيجيساس ، قاعدة تلك الجهات ، تخلوا عن إعادة بناء تطوان ، بل وبعثوا بأبنائهم رهائن الى قرطبة حسب طلب الناصر ، في نفس السنة على أن يكون استبدلهم في السنة التالية : ٣٤٢ هـ / ٩٥٣ م . ولا نعرف ماذا كان موقف بني محمد الأدارسة من جوهري عندما حاول حصار سبّنة ، ولكنه لم يقدر عليها على كل حال الأمر الذي اعتبره صاحب سبّنة انتصارا على عسكر جوهري ، يستحق أن يكتب به الى الناصر (٤٨) .

(٤٤) الكامل ، ج ٨ ، ص ٥٢٥ .

(٤٥) ابن خلدون ، ج ٨ ، ص ٨٩ .

(٤٦) البكري ، ص ٣٤ .

(٤٧) ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ٢١٧ .

(٤٨) البكري ، ص ١٢٤ ، ابن عذاري ، ج ١ ، ص ٢٢٢ - ٢٢٣ .

فاس : سقوطها على يد زيري بن مناد الصنهاجي :

رسم تحسين الأحوال الجويه في فصل الربيع ، كانت القوات الفاطمية تنبج إلى نحو فاس وتضرب عليها الحصار . ونجحت مدينة المولى ادريس ، التي عرفت بشجاعة رجالها ، وقوة تحصيناتها وكثرة أطعمتها ، في الصمود أمام قوات جوهر ، كما أن أهلها أصموا آذانهم عن الاستماع إلى رسائل المعز اليهم بالاستسلام نظير الأمان^(٤٩) ، فلم تسقط الا عندما نجح زيري ابن مناد مع قومه الصنهاجيين في مفاجأة أهلها ليلا ، باستخدام السلايليم العالية لتسلق أسوارها من أذناها (الستارة) إلى أعلاها ، وفتح أبوابها لكي يدخلها جوهر على رأس قواته حسب العلامة المتفق عليها ، وسط أصوات الطبول وأضواء المشاعل . ويسقط في أيدي أحمد بن بكر الذي اختفى لمدة يومين لكي يقبض عليه ، وذلك في رمضان من سنة ٣٤٨ هـ / نوفمبر ٩٥٩ م^(٥٠) .

وهكذا بعد أن قضى جوهر في المغرب حوالى سنتين ثبت فيها أقدام الفاطميين في كبريات الحواضر التي عهد بها إلى الأولياء هناك ، عاد وبصحبه صاحبى سجلماسة محمد بن الفتح الشاكر لله ، وفاس : أحمد بن بكر ، مشهورين في قصص كآنا قد أعدا لهما مسبقا ، بمعرفة الخليفة المعز ، الخبير في علم الخيل (اليكانيكا) . وإذا كان حمسل أميرى فاس وسجلماسة إلى المنصورية يرمز إلى خضوع كل المغرب الأقصى بشرطيه الشمالى والجنوبى ، من تخوم سبتة إلى وادى درعة ، فإن قلل الماء التى حملها جوهر ، وكان يسبح فيها سمك المحيط الأطلسي (البحر المحيط) ، كان رمزا لوصول الفتوح الفاطمية في المغرب إلى منتهاها ، حيث لا أرض وراء المحيط^(٥١) . أما عن عاصمة المغرب الأوسط تاهرت ، فكانت حكومتها من نصيب زيري ابن مناد ، جزاء له على ما أظهره في تلك الحملة من البطولة وحسن البلاء ، وخاصة في فتح فاس^(٥٢) .

(٤٩) المجالس والمسايرات ، ص ٤٩١ - ٤٩٢ .

(٥٠) ابن الأثير ، ج ٨ ، ص ٥٢٤ ، ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ١٥٤ - ج ٧ ، ص ٨٩ - حيث

للاشارة إلى فتح فاس سنة ٣٤٩ هـ / ٩٦٠ م .

(٥١) ابن الأثير ، ج ٨ ، ص ٥٢٥ .

(٥٢) ابن خلدون ، ج ٩ ، ص ٤٧ .

دعوى محمد بن خزر في طاعة الفاطميين :

والحقيقة أنه إذا كان بعض بني محمد بن خزر قد دخلوا في طاعة الناصر إلى جانب يعلى بن محمد بن صالح ، فالمعروف أن سياسة الناصر في تقريب يعلى والعهد له بالمغرب وأعماله ، إلى جانب العقد لمحمد بن يصل (المكناسي) على تلمسان وأعمالها ، كانت سببا في مراجعة محمد بن خزر - رأس الزناتية الأكبر - لموقفه من الفاطميين ، ودخوله من جديد في طاعتهم . فلقب وفد على المعز في بداية خلافته سنة ٣٤٢ هـ / ٩٥٢ م . فآكرمه وأحسن إليه حتى أنه ظل مطيعا إلى ما بعد عودة جوهر من حملته سنة ٣٤٨ هـ / ٩٥٨ م . بعد ذلك كانت وفادة محمد بن خزر الثانية على المعز في سنة ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م ، حيث هلك بالقيروان وقد تجاوز المائة من عمره . وهكذا ، فقد توفي عبد الرحمن الناصر خليفة قرطبة في نفس تلك السنة ، وقد انتشرت الدعوة الشيعية بالمغرب ، في مقابل تقلص النفوذ الأموي الذي لم يكن يتجاوز أعمال سبتة وطنجة (٥٣) . وبذلك كان على الحكم المستنصر العمل على تعديل ميزان القوى بما يسمح بدفع الخطر الفاطمي بعيدا عن حدود الأندلس ، الأمر الذي سوف يقع على عاتق محمد بن الخيز ابن خزر (الزناتي) من الجانب الأموي . وعلى قرينه زيري بن منذ الصنهاجي من الجانب الفاطمي (٥٤) ، الأمر الذي يعني بواكير عهد الأسرة الزيرية في إفريقية والمغرب الأوسط ، والعصر الصنهاجي على طول بلاد المغرب وعرضها وبذلك تبدأ عصور حكم الأسر المغربية البربرية ، بعد الأسر المشرقية العربية ، وهو ما سوف ينسحب على بلاد الأندلس أيضا ، وهو الأمر الذي سيتكرس على أيدي المعز خلال السنوات العشر التالية .

السنوات الأخيرة من العصر الفاطمي في المغرب :

سياسة مزدوجة ينتهجها المعز : ما بين تأكيد الوجود ، والعمل الجاد من أجل الرحيل :

رجع جوهر إلى إفريقية بعد حملته الكبرى في المغرب ، وهو يحصل صاحبى فاس وسجلماسة : أحمد بن بكر ، ومحمد بن واسول ، وتصحبه وقود رهائن أهل المغرب (٥٥) ، ومنهم الفاطميون (الإدارة) (٥٦) ، شهادة

(٥٣) ابن خلدون ، ج ٧ ص ٣٦ .

(٥٤) ابن خلدون ، ج ٧ ص ٣٦ .

(٥٥) المجالس والمسايرات ، ص ٤٨٣ .

(٥٦) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤٧ .

خضوع البلاد لسلطات المعز . أما عن قلال أسماك البحر المحيط التي قدمها لسيده المعز ، فهي رمز الى أن خيرات البلاد جميعا من برها الى بحرها أصبحت دانية القطوف بالنسبة للامام وهو مرتاح في قصوره بتصوره بتصورية القيروان - تماما كما كان الرشيد يخاطب المعز العابرة فوق قصر الذهب ، قائلا : امطري أينما شئت ، فإن خراجك لي ، وكما سوف يستمتع العزيز ابن المعز ، وهو في القاهرة باطباق طرف الكرز البعلبكي يوم ظهور بشائرها هناك ، بفضل حسن تنظيم البريد الطائر بالحمام الزاجل ، ووصى صاحبه (مديره) ، وذلك يعقوب بن كلثوم الوزير (٥٧) .

سياسة مناهضة لصاحبي فاس وسجلماسة :

ويظهر من رواية القاضي النعمان في المجالس والمسابير أن الخليفة المعز كان يعول كثيرا على القبض على زعماء الثوار من البربر ، واحضارهم أحياء لديه ، وخاصة صاحبي فاس وسجلماسة : ابن بكر - وابن واسول ، ممن كانوا لا يقلقونه في صحوه بل ويؤرقونه في منامه (٥٨) . وإذا كان القصد بعد ذلك اشفاء غليله منهما بالعقاب مواجهة ، والاذلال (٥٩) ، فإن هذا لا يمنع من أن يكون تفكير المعز قد تطرق الى امكانية اعادتهما الى طاعته بعد اخضاعهما لنوع من التاهيل النفسي اللازم لذلك (٦٠) .

(٥٧) حسن ابراهيم حسن ، الدولة الفاطمية ، ص ٢٩٥ - ويذكر أنه كان من الغريب أيضا ما حدث على عهد البازوي وزير المستنصر ، من توجيه الخمام من الفريجة الى مصر ، وإن كان الفلقسندى صاحب تلك الرواية يتحفظ قائلا : والمعدة على الراوي .
(٥٨) المجالس والمسابير ، ص ٣٨٥ - ٣٨٦ ، حيث يرى المعز أمير فاس في منامه .
وانظر ص ٢٥٢ - حيث يرى المعز حمزة بن يضل - عميل الناصر في منامه متهمًا .

(٥٩) أنظر المجالس ، ص ٤٥٨ - حيث المعز يبيتهم ، ص ٤٦٨ - حيث يخترع المعز لكل منهما قصصا خاصة عجيب الشكل على عجل ، له وتدان يديران السيرير بين عليه ليرى كثر من حوله وجهه ، ولا يملكون بمن يديره للتشهير بهما ، ص ٣٩٠ - حيث المعز يربح وقته أهل سجلماسة على عصياتهم وسماحهم لصاحبهم باتخاذ لقب أمير المؤمنين وإمام المسلمين .
(٦٠) هذا ما يفهم من أنه عاتبهما لعصياتهما (المجالس ، ص ٤٥٨) ، وإن ابن واسول تاب أمام المعز - واعتذر بجهله وانتهازيته عندما اتخذ اللقب الخلافي (المجالس ، ص ٤٦٥) ، هذا الى جانب مناظرته عندما سأل السماح له بحضور صلاة الجمعة خلف المعز ، في مسألة اتخاذ اللقب الخلافي الذي هو من حق الأئمة وهدم (المجالس ، ص ٤٦١) ، ثم السماح لابن واسول بحضور صلاة الجمعة وما كان يدور معه بعدها من الجدل مع القاضي النعمان حول مدحه المالك ، وبأنه آل البيت الفاطمي ، مما كان يتضح منه أن الرجل (بربري الطبع) =

هذا ، وتضيف روايات المجالس والمسايرات عن « ابن واسول » معلومات مفيدة تسد فراغا فيما هو معروف لدينا عن أحداث سجلماسة . عتب حملة جوهر سنة ٣٤٧ هـ / ٩٥٨ م . وذلك اننا نجد . ابن جانب محمد ابن واسول الشاكر لله ، في رواية النعمان ، شخصا آخر من نفس الأسرة ، كان رهينة هو الآخر في المنصورية ، وهو المنتصر بن محمد بن المعتز . أما عن كيفية وصوله الى بلاط المعز وارتدائه لحين الفصل في أمره فيتلخص في أن جوهر الذي يشار اليه بلقب (القائد) فقط ، صفح عن أهل سجلماسة لتركهم الشاكر لله يخرج من المدينة دون اعتراض ثم إنه ولى عليهم واليا منهم ، من المدرارين بنى واسول ، ولكنهم لم يلبثوا بعد مسيره أن ثاروا بواليه وقتلوه ، وأقاموا مكانه « منتصر بن محمد بن المعتز » ، وذلك دون تحديد التاريخ . ولكي يدرا أعيان سجلماسة عن أنفسهم سيخط المعز وانتقامه كتبوا اليه يعتذرون عما بدر منهم في حق واليهم الذي أساء السيرة ويعلمون ولايتهم ، ويلتمسون العفو والسماح ، الأمر الذي لم يقبله المعز إلا أن يأتي وجوههم الى الحضرة ومعهم المنتصر ، وهو ما استجاب له السجلماسيون في التو واللحظة ، حيث أتى منهم مائتا رجل مع المنتصر مسارعين في أعقاب الرسول الى حضرة المعز . وبعد ترهيب المنتصر وعتاب السجلماسين وتقريعهم ، قرب المنتصر وصفح عنهم ، وعندهما رأى المعز صرفهم ، عقد للمنتصر على سجلماسة وعملها وخلع عليهم ، كما أكرم صحبه . وكساهم (٦١) .

= لم يرد علمه في أمور الدين عن نطاق ما قرأه من كتب الطاعة ، « وكأنه ظن أنه ليس الحق إلا ما انتهى اليه ، ولكنه كان « اذا سمع الحق أصغى اليه » ، واذا بين له وشرح وفسر مجمله رجع اليه وانقاد ، ولم يلج في الباطل ، كما يفعل كثير ممن انتحل مذمبا ونشأ عليه ممن شاعده » (المجالس ، ص ٤٣٤ - ٤٣٥) .

(٦١) أنظر المجالس والمسايرات ، ص ٣٨٨ - ٣٩٥ . وأنظر هامش ٢ ص ٣٨٩ - حيث الإشارة الى أن المنتصر ولى سجلماسة به أبيه سنة ٣٢١ هـ / ٩٣٣ م ، وثار عليه ابن عمه محمد بن فتح (ابن واسول) سنة ٣٢٢ هـ / ٩٤٣ م وهو غلام حدث ، الأمر الذي لا يتفق زمنيا مع رواية المجالس هذه . والحقيقة انه يمكن إيجاد تفسير لقصة ذلك اللبس الذي يحيط بأبن واسول الرهينة في بلاط المعز ، اذا أخذنا برواية ابن عذاري التي تنص على مقتل ابن واسول الأول على يدى جوهر (أنظر فيما سبق ، ص ٤٣ - ٢٣٣) . ثم القبض على المنتصر بعد ما أحدثه في المدينة عقب انصراف جوهر ، وذلك أثناء وجوده في المغرب انتظارا لفتح مدينة فاس ، ليكون ابن واسول الذي حملته جوهر الى جانب أبي بكر صاحب فاس في القفصين (البكاينيين) ، هو المنتصر ، وهنا يكون المائتا رجل الذين صحبوه هم في الحقيقة رعاثن أهل سجلماسة والمنطقة . وبذلك يصرف النظر عن قصة مكاتبة أهل سجلماسة للمعز وذماب المنتصر مع وجهائهم ببعض اودعتهم - وهو الأمر المقبول .

رد الفعل الأموي في الأندلس :

كان للانتصارات التي حققها جوهر على أمراء الزناتية في المغرب رنة حزن وأسى في نفس الناصر بقرطبة - حيث فشل الدعم العسكرى الذى كان يعده فى المربة (٦٢) لمساندة أنصاره فى المغرب ، والذى أصبح غير ذى موضوع بعد أن وصلت أنباء القضاء على يعلى بن محمد بن صالح ، تابعه فى تاهرت ، ولجوء أهله الى الأندلس (٦٣) . ولا ندرى ان كانت مثل هذه الأنباء الحزينة قد أثرت فى نفسية عبد الرحمن الناصر الذى توفى بعد ذلك بفترة قصيرة فى سنة ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م .

والهم أن ابن الناصر وخليفته ، الحكم المستنصر ، وهو الأمير العالم ، المشغول باثراء مكتبته الذائعة الصيت ، سار على نفس سياسته القوية فى مناهضته للنفوذ الفاطمى فى المغرب ، والتي واتها الظروف المناسبة ختم نص ، ابن عذارى ، على أنه « طاع له المغرب كله » (٦٤) ، ولا بأس أن يكون قصد ابن عذارى ما حدث فيما بعد ، بفضل نشاط محمد بن أبى عامر ، واستغراق المعز فى الاعداد لحملة مصر ، ثم نقلته الى القاهرة ، ووقوع عبء مواصلة الصراع مع الأمويين على عاتق آل زيرى الصنهاجيين .

الكفاح من أجل الهيمنة على العدو تامسنا :

فمن الواضح أنه فى سنة ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م والسنوات التى تليها كاند الحكم المستنصر يكافح من أجل اقرار سلطاته فى سببته وطنجة وما يجاورهما - كإقليم تامسنا حيث قبائل برغواطة المتهمه بانحرافاتهما الخارجية ثم الزندقية . والحقيقة أن الحكم المستنصر حقق نجاحا هائلا فى سياسته المغربية عندما استقبل سفير أمير برغواطة وقتلته ، وهو : أبو عيسى منصور ابن أبى الأنصار الذى كانت ولايته بعد أبيه ٣٤١ هـ / ٩٥١ م ، وذلك فى شوال من سنة ٣٥٢ هـ / أكتوبر ٩٦٣ م . أما السفير فهو أبو صالح زمور البرغواطى وبصحبته ترجمانه الى اللغة العربية ، وهو : عيسى بن داود السطاسى . قالى الحكم المستنصر يرجع الفضل فى تعريفنا بمنطقة تامسنا وأهلها ، وتاريخ الأسرة الحاكمة فيها ، التى ترجع الى طريف (ابن ملوك) :

(٦٢) المجالس ، ص ٢١٧ .

(٦٣) المجالس والمسايرات ، ص ٢١٧ .

(٦٤) البيان ج ١ ص ٢٢٧ ، ط : بيروت ، ج : ص ٢٢٤ .

صاحب الحملة الاستكشافية الأولى في فتح الأندلس ، وابنه صالح (بن طريف) الذي سمي نفسه صالح المؤمنين ، والمهدي الأكبر ، فكأنه كان يتشيع رغم ما تنص عليه الرواية من أنهم بدأوا خوارج صفرية ، مناصرين لميسرة المدغرى . سنة ١٢٢ هـ / ٧٣٩ م (٦٥) . وهكذا يكون تاريخ المغرب مدين للحكم المستنصر ، وللبعثة البرغواطية التي أتت تقدم فروض الطاعة للمعاهل الأندلسي ، بمعلومات طريفة عن حقبة خفية من تاريخ تاصتيا وعادات قبائلها البرغواطية التي تعد من فروع قبائل المصامدة ، وخاصة ما يتعلق بقضية زندقته مما يجب أخذه بشيء من الحذر والحيطه (ما سبق ، ص ٢٠٩ والهامش ٤٣ ص ٢١٠) .

وإذا كان الحكم المستنصر قد اطمئن الى ولاء برغواطة ، البعيدة نوعا ما عن المجاز ، فانه كان في السنة التالية ٣٥٣ هـ / ٩٥٤ م يعمل على شراء رضا اهل سبتة عن طريق رفع الضرائب عنهم ، وكذلك الأمر فيما يتعلق بما عليهم من ديون (التقييط) حيث وقع عبء سدادها على أهل شرف اشبيلية (٦٦) .

سقوط كريت بين أيدي البيزنطيين :

أما عن أهم أحداث سنة ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م في شرق البحر المتوسط فهو سقوط جزيرة كريت « اقريطس » التي كانت تابعة نظريا الى الخلافة العباسية منذ أن استولى عليها الأندلسيون عند خروجهم من الاسكندرية سنة ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م . بين أيدي الروم البيزنطيين بقيادة تقفور فوكاس (٦٧) . وهو الأمر الذي عمل المعز على الاستفادة منه منذ أن علم بخبره عن طريق بعض وسطاء الأخشيدي صاحب مصر (المجالس ، ص ٤٤٤) ثم عندما طلب منه أهل كريت المعونة (المجالس ، ص ٤٤٦) الى أقصى حد . فلقد اتخذ من تدخله في شئون المسلمين في جزيرة كريت ذريعة للتدخل في شئون مصر عن طريق تدبير خطة مشتركة للعمل مع

(٦٥) أنظر البكري ، ص ١٢٦ - ١٢٧ م ، ابن عشاري ، ج ١ ص ٢٢٣ وما بعدها .

(٦٦) ابن عشاري ، ج ١ ص ٢٢٧ .

(٦٧) أنظر ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤٧ - حيث نال الروم الجزيرة في ٧٠٠ مركب واثمحوها عليهم ولم يتمكن المسلمون من استعادتها ، وقارن ارشيبالد لويس ، القوى البحرية والتجارة في حوض المتوسط ، الترجمة العربية ص ٢٦٥ - ٢٩٦ - حيث النص على أن القوى البحرية البيزنطية تكومت من ٢٠٠٠ سفينة حربية منها ١٣٦٠ سفينة للمؤن والامداد .

الأخشيديين ، حسبما يشير اليه النعمان ، من الهدنة التي عقدت بين الروم والمعز في سنة ٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م ولدت خمس سنوات ، وما يرد في كتاب المعز أيضا الى امبراطور الروم والأخشيدي والى مصر (٦٨) .

تهديد الامبراطور الرومى :

فمجرد وصول خبر غزو الروم للجزيرة بادر المعز بالكتابة الى امبراطور الروم يهدده بالغاء الهدنة بينهما اذا استمر في العدوان على اهل كريت الذين بعثوا اليه بسفيرهم باعتبارهم في حمايته ، وعلى اساس انه صاحب امر المسلمين بالحق الالهى ، سواء أطاعوه أو امتنعوا منه (٦٩) .

محاولة اجتذاب الأخشيدي في مصر للمهل سويا :

أما عن كتابه الى أبى الحسن على الأخشيدي في مصر - عن طريق وسيط - فقد نص فيه على أن الله خوله أن يكف أيدي الكفرة عما تطاولت اليه من حرب المسلمين في هذا الصنيع وهو مع ذلك يحثه على الجهاد وتقديم المعونة البحرية لأهل دعوته من الكريتيين ، ويعدده بعدم الخوف منه على مراكبه التي ستعود اليه بعد أن يتم لهم الفتح . وهو يعد أن يطمئن الأخشيدي على مراكبه ويعطيه الموائيق والعهود ، يطلب منه أن يبعث المراكب المصرية الى مرسى « طبرقة » من أرض برقة ، لقربه من جزيرة اقريطش (٧٠) . ولقد حدد المعز موعد اجتماع الأسطولين المصرى والفاطمى فى مرسى برقة هذا ، فى أول ربيع الثانى من سنة ٣٥٠ هـ / ٢٠ مايو ٩٦١ م . والمعز يختم خطابه

(٦٨) المجالس والمسايرات ، ص ٤٤٢ ، هـ ١ ص ٤٤٤ - حيث الاشارة الى ان هدنة سنة ٣٤٦ هـ / ٩٥٧م كانت بين المعز وقسطنطين السابع ، وأنظر حسن ابراهيم وطه شرف ، المعز لدين الله - القاهرة - ١٩٤٧ ، المذوق الأول ص ٣٠٣ - ٣٠٤ ، ط ٢٠ ، ١٩٦٣ ، ص ٤٦ ، ٤٧ - حيث الاشارة الى توجه عرب كريت نحو بغداد وسيف الدولة الحمداني وصاحب مصر فلما لم يستفهم هؤلاء ، ولما وبخروهم شطر التصورية ، وكان رد فعل المعز الاتصال بالأخشيديين للتعاون وتحذير الروم .

(٦٩) المجالس ، ص ٤٤٤ وهـ ١ - وهو هنا بضرب المثل للامبراطور قسطنطين (السابع) بما فعله هو وابوه من التمسك بحقيهما فى استرجاع ملكهما الذى كان اغتصبه رومانوس (رومانوس) ليكاتبين سنة ٩١٩ م .

(٧٠) أنظر المجالس ، ص ٤٤٥ حيث القراءة مرسى طينة من أرض برقة ، هـ ٣ - حيث اقتراح ان تكون الكلمة تحريف للبدنة ، وهى مدينة برقة الأثرية ، اما اقتراحنا طبرقة فهى بناء على قراءة حسن ابراهيم وطه شرف مما أشرنا اليه أعلاه (هـ ٦٨ ص ٢٤٦) .

هذا ، بأنه سيرسل أساطيله لمساعدة المسلمين في الجزيرة على كل حال ، سواء استجاب الاخشيدي لدعوته تلك أم لم يستجب (٧١) . وهو الأمر الذي لا نجد له صدى بعد ذلك في النصوص . ولا شك انه لم يكن من مصلحة المعز أن تتفاقم مشكلة كريت بينه وبين الروم بحيث تؤدي الى صراع يمكن أن تكون له آثاره السلبية على مشروع فتح مصر .

هل تحققت الأمانى :

المعز يرسى قواعد الاحتفالات الفاطمية الشعبية الكبرى :

احتفالات الختان :

والذي ينفث النظر أنه في السنة التالية ، وهي ٣٥١ هـ / ٩٦٢ م ، التي أعقبت غزو الروم لجزيرة افريطش كانت مجالا لاحتفالات شعبية كبرى ، مما أرسى قواعده المعز ، وذلك بمناسبة عملية الاعذار أو الختان التي كانت تجرى لصغار أولاد المسلمين ، فجعلوها وكأنها أول مراسم سن البلوغ ، بمعنى « الرشيد الديني » ، من حيث أنها عملية ظهور وتطهير ، مما يجب القيام به قبل الصلاة ، قريبا من مطلب الوضوء أو أدنى من ذلك الى مطلب الغتسال من الجنابة ، والتي أصبحت من وقتئذ نوعا من التعميد عند غير المسلمين ، بما يتطلبه من احتفال يشيع خبره بين الناس ، وتبقى أصداؤه في نفوس الصغار والكبار .

هكذا قرر المعز في مطلع سنة ٣٥١ هـ / ٩٦٢ م بمناسبة ما قرره من ظهور أبنائه الثلاثة : عبد الله ونزار (العزيز) وعقيل ، أن يجعل من ذلك احتفالا شعبيا عاما ، يشارك فيه أهل المملكة على طول الشمال الأفريقي من برقة شرقا الى سجلماسة غربا ، ومن صقلية شمالا الى بوابات السودان في الصحراء جنوبا ، وذلك لمدة شهر كامل « وهو شهر ربيع الأول من تلك السنة ، الذي كان يوافق موسم الربيع فعلا حيث امتد من ٩ ابريل الى ٨ من مايو ، فكانت « نوروز » فارس أو « نسيم » مصر » .

(٧١) المجالس ، ص ٤٥ - ٤٤٦ . أما عن رسول أهل كريت الذي وصل الى المعز متأخرا بمضى الله ، فقد بين للمعز خطورة استيلاء الروم على جزيرة كريت ، بسبب موقعها الاستراتيجي الهام الذي يرجو أن يكتسب « من فتح القسطنطينية والمشرق » الأمر الذي استحق عليه تقدير المعز ، مع الإشارة الى أنه لو كان قد جاءه في وقت مبكر لكثت أساطيله وقتئذ عندهم . وانظر بحثنا « موقف ليبيا فيما بين قيام الفاطميين في أفريقيا ونقلتهم الى مصر » ، مجلة كلية الآداب ، الجامعة الليبية ، المجلد ٩ سنة ١٩٥٥ ، ص ٩٣٣ .

وأخطر المعز الخاصة من رجال البلاط وأهل الحاشية والجند والعبيد ، وكذلك مسائر أهل الحاضرة من التجار والصناع وعمامة الرعية بالمنصورية والقيروان وسائر مدن أفريقية وكورها من حاضري وباد ، كما أصدر الأوامر الى المسئولين عن الولاية والعمال في سائر أنحاء الدولة بأن ، يتقدموا في ظهور أبنائهم يوم الثلاثاء أول يوم من شهر ربيع الأول سنة ١٣٥١ هـ / ٩ أبريل ١٩٦٢م الى انقضاء هذا الشهر * . كما صدرت الأوامر أيضا بإرسال الأموال اللازمة للاتفاق على عملية الطهور ، وما يصاحبها من الخلع والهدايا على الصغار « المتطهرين » وأولياء أمورهم . والظاهر أن نصيب كل ولاية من مال الطهور تقدر بحوالى خمسين حملا من المال ، وهو القدر الذي أرسل الى صقلية فعلا ، دون حساب الخلع والكسي (٧٢) .

وكان قصر البحر (برقادة) هو المركز الرئيسي لعملية الختان العامة . ففي ساحتها ضربت السرادقات حول بركة المساء الشيبية بالبحر ، حيث كان الخلع الكبير يجري تحت إشراف المعز شخصيا ، الذي بدأ بختان أبنائه ثم سمح لبقية الحضور من الصبيان ، مع كافة أصناف طبقات السلم الاجتماعي ، بالدخول مع من صاحبهم من الآباء والأمهات أو العبيد والخدم . هذا ولقد زاد من تسارع الناس بأبنائهم الى الختان ما أعطى للعملية من صبغة رسمية ، وما أصبح من أنها ستكون « سببية » بمعنى دورية كل سبع سنوات ، فكان ذلك مما تقضى به أصول المذهب « مذهب السببية » ، وأن الخروج على ذلك يعتبر انحرافا عن الرغبة الامامية ، وهي الشائعة التي استعصمها المعز ، طالما كانت في مصلحة الجميع . ولقد استغرق الإشراف على العملية الكثير من وقت المعز الذي كان يجلس لاستعراض صفار « المتطهرين » ، من وقت الضحى (الفداة) حيث يمرون بين يديه فيصيبون من الكساء والصلوات جميعا ، دونما استثناء ، وإن كانت هداياهم تبعا لتصنيفهم الاجتماعي والطبقي من : الشرفاء والخاصة الى العامة والعبيد السودان . وكان متوسط ما يعطى لكل صبي من أهل الحاضرة ، غير الكسوة ، من ٢٠٠ (مائتي) درهم الى ١٥٠ (مائة وخمسين) درهما ، أما أقل ما أعطى لصبيان أهل البادية فهو ٢٠ (عشرة) دراهم (٧٣) .

(٧٢) المجالس والمسايرات . ص ٥٥٦ .

(٧٣) انظر المجالس والمسايرات ، ص ٥٥٧ . حيث جرت عملية الختان عن طريق جلوس

« الختانيين » في السرادقات على الكراسي وبين أيديهم المقاعد المرتفعة (المنابر) لجلوس الصبيان .

أما عن أعداد صغار المتطهرين فقد بلغ متوسطها اليومى بالحاضرة ، خلال شهر الاحتفال ما بين ٥ (خمسة) آلاف و ١٠ (عشرة) ألف صبي ، ولا ندرى مدى صحة هذه الأرقام قياساً على ما قيل من أن جملة من تظهر من صبيان صقلية بلغ ١٥ (خمسة عشر) ألفاً . وسواء صححت تلك الأرقام أم كان مبالغاً فيها (٧٤) ، فقد كانت بالنسبة لأهل ذلك الزمان تبييراً عن كثرة المتطهرين الصغار ، وقبل ذلك عن كثرة ما أنفق عليهم من الأموال ، الأمر الذى كان يثير شفقة بعض المسئولين من رجال الدولة كالفاضى النعمان الذى أسر الى سيده بما انتابه من القلق لولا تطمين المعز الذى هدأ من روعه ، عندما عرفه أنه أعد للأمر عدته ، وأنه عزل من المال ما يستغرق انفاقه بقية الشهر ، وإن القصد من ذلك هو الخير للناس مع إقامة الفرض ، وإحياء السنة المحمدية والملة الإبراهيمية . والمهم أنه لم ينقض الشهر إلا وكان جميع الصبية ، فى كل المملكة ، قد تم تطهيرهم عن آخرهم حسبما رسم المعز وقنن (٧٥) .

وعن هذا الطريق بدأ المعز فى المغرب إرساء قواعد الاحتفالات والرسوم الفاطمية بهذا العيد الشعبى الكبير الذى طال أمده شهراً كاملاً . فكانت أيامه : « أيام أعياد ومسررات وأفراح وهبات لكل وجبة وجهه من مملكة أمير المؤمنين من بدو وحضر ، وعصم فضله وتبين عليهم أثره . وارتفق به أغنياؤهم ، وانتعش له فقراؤهم ، ودخلت المسرة على أهل كل بيت منهم ، وكان له أثر جميل لم يسبقه إليه (صغ) أحد قبله ٠٠٠ » ، كما يقول النعمان (٧٦) . ولا شك أن مرامى المعز من ذلك العيد كانت أعمد من المظاهر الاحتفالية التى سماحبتة ، وذلك بشد الرعية الى امامها الذى يكرمها ،

والمساعدون يسكنونهم فى حجورهم ، ويندرون الذرات المسكة للدم على خفائهم ، ويقفون بالبخور وماء الورد على رؤسهم ويرشونهم على وجوههم لما يشترينهم من الروح - والمعز من أهل السند بأصناف الملاعب قيام عليهم يلعبونهم ، ويصحبون من طهر منهم ، يزفون به الى منزله .

(٧٤) انظر المجالس ، ص ٥٧٧ وحد ٢ - حيث التعليق على تلك الأرقام بأنها خيالية مبالغ فيها . وقارن ص ٥٥٨ - حيث النص على أن عدد المتطهرين فى آخر يوم من الشهر بلغ ١٢ (اثني عشر) ألف صبي .

(٧٥) المجالس والمساربات ، ص ٥٥٨ .

(٧٦) المجالس ، ص ٥٥٨ .

ويأخذ بيد الضعفاء منها ، ومساندة دولته وتأييد سياسته (٧٧) .

فكان المعز يؤيد أعماله العسكرية التي هدفت الى تثبيت أقدام الأسرة الفاطمية بالترهيب ، بأعماله السلمية التي قصدت اكتساب قلوب الرعية المغربية بالترغيب - وكل ذلك كما نرى ، كمقدمة للحفاظ على وحدة الدولة عندما يتجهى لها تحقيق أمليها فى الهيمنة على المشرق بدأ بفتح مصر .

السياسة الدينية :

وهنا يمكن ادخال ظاهرة الختان الكبرى هذه ، وما صاحبها من التوسعة على الرعية ، وبخاصة الفقراء وأهل الحاجة منهم ، فى إطار سياسة المعز الدينية ، من حيث اعتباره مقنن المذهب الفاطمى وواضع قواعده ، وإن كان بقلم النعمان ، قاضيه ومستشاره وكبير دعااته مما سبقت الإشارة اليه (أنظر فيما سبق ، ص ٢٢٠ وهـ ٣) . فهو يجعل مسألة الختان جهدا فى سبيل اقامة فروض الدين والسنة النبوية والملة الابراهيمية ، مما ذكر أعلاه .

اتتمسك بشعائر المذهب :

اما عن سياسته الدينية فتتمثل فى اكمال ما كان بدأه الرواد الأوائل ، من : الداعى أبى عبد الله وأخيه أبى العباس . والقاضى المروزي ، وما كان اكده المهدي ثم القائم من شعائر مذهب أهل البيت مما يتعلق بالأذان والصلاة مما يقع فيه الاختلاف مع أهل السنة وخاصة المالكية منهم ، الأمر الذى ربما كان قد وقع فيه شيء من التراخي ، وخاصة بعد تجربة أبى يزيد النكاري . ففي سنة ٩٣٤هـ / ٩٦٠م أصدر المعز أوامره الى أئمة المساجد والمؤذنين يأمرهم بالآ يؤذنون الا ويقولوا : « حى على خير العمل » ، وأن يقرأوا « بسم الله الرحمن الرحيم » فى أول كل سورة ، وأن يسلموا تسليمتين ، وأن يكبروا على الجناز خمساً ، وألا يؤخروا صلاة العصر ، ولا يكبروا بالعشاء الأخيرة (٧٨) .

(٧٧) انظر المجالى ، ص ٥٥٩ - حيث تظهر مشاعر الميز الإنسانية هذه فيما عبر به عندما قال : والله لقد ساءنى من رأيتهم يمر من أهل الفقر والسكنة . وإن كانوا قليلا فى كثير ، لأنهم رعبتنا ومن تحب أن يكونوا أغنياء تظهر نعمة الله (تح) عليهم بنا ، إذ قد جرى مثل هذا .

(٧٨) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٢٣ . هذا الى جانب تنظيم الاحتفالات الجنازية بمنع النساء المشيعات من الصياح خلف الميت ، وعدم قراءة الميكان القرآن بالمقابر الا عند الدفن فقط ، =

أحياء التلاحن مع الأمويين :

وهنا لا بدس من الإشارة مرة أخرى الى أن الصراع السياسي مع الأمويين بالاندلس من أجل السيطرة على المغرب ، والذي بفاقم على عهد المعز بما قام به البحريون الاندلسيون من الأعمال العدوانية ضد رجال المعز ، وما ترتب على ذلك من تبادل الأعمال الانتقامية ، ثم ما قام به المعز من فرض الهيمنة الفاطمية بالقوة حتى شواطئ المحيط فيما وراء طنجة ، وبالتحالف مع زعماء البربر ، والتقارب مع أبناء العم الآخرين من الفاطميين الإدارية . أصحاب قاس أو بنى محمد أصحاب حجر النسر . كل ذلك كان سببا فيما يمكن أن يقال انه احياء لصراعات فتنة التحكيم العلوية الأموية ، وما ترتب عليها من تبادل اللعن من فوق المنابر ، الأمر الذى استمر على عهد الأمويين الى خلافة عمر بن عبد العزيز صاحب الفضل فى منعه . وهكذا كان الصراع من أجل المغرب الأقصى ومنطقة العداوة المغربية سببا فى احياء التلاحن الدينى بين الفاطميين والأمويين ، على عهد الناصر ، منذ أن اتخذ اللقب الخلفى بخاصة ، الأمر الذى أثار حساسية شديدة لدى الفاطميين الذين اعتقدوا أنهم أصحاب الحق وحدهم فى حمل اللقب .

ومن الواضح أن الناصر الأموى وأتباعه من أمراء البربر كانوا يكتفون بتسجيل لعن الفاطميين الشيعية فى الخطابات الرسمية المتبادلة فيما بينهم ، بل وربما بالغ زعماء البربر فى ذلك اكتسابا لرضاء الناصر ، ولكن الفاطميين خرجوا عن هذا النطاق الى لعن الأمويين من فوق المنابر ، وكانهم يأخذون بثأرهم من الأمويين الذين مارسوا اهانتهم فى خطب الجمعة لأكثر من نصف قرن . فهذا ما يفهم مما فعله الناصر الأموى عندما أرسل مبعوثا من لدنه ، عن طريق وسيط ، الى المعز يطلب الصلح ، ويحتج على

ما يدخل فى جهود المعز كرائد ترتيب الرسوم الفاطمية . ولما جاب ذلك تذكر محاولة المعز تصحيح اتجاه قبلة القيروان التى كانت متحرقة نحو الشرق منذ أن بناها عقبة ، كما تقول بعض الروايات . وأن المعز عندما وجد معارضة شعبية لذلك على أساس ان من من قبلة عقبة أصابه الله بسوء بدعا عقبة المستجاب ، قرر المعز الانتقام منهم بنش قبر عقبة بتهودة ، وأرسل لذلك سنة ٢٤٠هـ / ٨٥٩م (٥٠٠) خمسمائة رجل ، ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك إذ تارت بهم العواصف التى ردتهم على أعقابهم - البكرى ، ص ٧٤ - وقارن الاستنصار ، ص ١١٤ .

- يمارسه المعز من لعنهم وهم مسلمون (٧٩) . وإذا كانت تلك الرواية لا تشير إلى اللعن من فوق المنابر ، فإن المعز يشير في مجلس آخر إلى أنه بلغه أن الناصر يلعنهم على منابرهم « كل من سلفه الفسقة لأمر المؤمنين على (عم) وينكر علينا لعنه » (٨٠) .

اللقب الخلفي من أسباب الخلاف :

هنا ، كما كان اتخاذ عبد الرحمن الناصر لقب الخلافة ، من وجهة النظر الشيعة الفاضحة دخلا في ذلك الصراع الديني (السياسي) القائم بين الطرفين ، على أساس أن الإمامة والخلافة وقف على الأئمة الفاطميين ، دونه ودون من سواه ، ومن حيث ما يروونه من أن الله فرض عليهم محاربة من اشتمل ذلك دونهم وادعاه . وبناء على ذلك يقول المعز للأوسطة : « ما أنا بالمداهن في دين الله ، ولا الراكن بالمودة إلى أعداء الله ، ولا بالمخادع في أمر من أمور الله » (المجالس والمسائرات ، ص ١٦٨) .

والمعروف أن تلك المراسلات تمت عن طريق بعض خواص كل من الطرفين ، أي الناصر والمعز . الأمر الذي يعني أن المسألة كانت تتعلق

(٧٩) أنظر المجالس والمسائرات ، ص ١١٥ - ١١٦ - حيث يسير المعز في رده إلى تأويل بعض الكلمات في عدد من الآيات القرآنية على أنها تعني الأمويين ، مثل : ألا لعنة الله على الظالمين (هود ، ١٨) والشجرة الملعونة في القرآن (الاسراء ، ٦٥) ، والتي تشمل الأصول والفروع .

(٨٠) أنظر المجالس والمسائرات ، ص ١٧٦ - ١١٧ - حيث يستخدم المعز نفس الجدول الذي يستند في لعنه للأمويين إلى تأويل بعض الآيات القرآنية (كما في الهامش السابق) مع الإشارة إلى قوة سنده في لمن الأمويين إلى الآيات القرآنية ، بينما الناصر ، عندما يلعنه أو يشتمه فيالافتداء بسلفه الذين شتموا (الرسول ؟) ولعنوا وصيه إلى جانب تفسيره اللعن بمعنى الطرد والإبعاد من الجماعة وهو ما فعله النبي بهم - الأمر الذي اقتنع به وسول عبد الرحمن الناصر ، قبل أن ينصرفه عائداً إلى بلده - وقادراً أيضاً ص ٢٨٥ - حيث ينتهي المعز على علمه بأن الأمويين لمعومهم على منابرهم بالأندلس كما يلعن أبائهم علياً ، مع تكرار القول بأن الطرد يعني اللعن ، وهو الأمر القديم فيهم منذ أيام الرسول ، مع النص على أن افتخار الأمويين بالانتساب إلى عبد الملك بن مروان أمر لا يمتز به ، فهو اللعن بن الحسين : الحكم ومروان ، وهو الأمر الذي يرد عليه ابن خلدون في المقدمة ، مستنداً إلى ما ذكره ابن أبي عمير في المطبوع - حيث يشهد بمقالة عبد الملك ومروان - أنظر المعز ، ص ٢٨ عن انقلاب الخلافة إلى ملك ، ص ١٧٢ - حيث يقول فقد احتج مالك في المطبوع بعمل عبد الملك ، وأما مروان فكان من الطبقة الأولى من التابعين وعدلهم معروفة .

بوساطة خير تهدف الى حقن دماء المسلمين . وإذا كان القاضي النعمان لا يحدد تاريخ تلك المراسلات ، فمن الواضح من روايته أنها تمت قبل حملة جوهر الكبري التي سيرها المعز الى عدوة الأندلس والمغرب الأقصى سنة ٣٤٧ هـ / ٩٥٨ م ، فهذا ما يفهم مما تقوله الرواية من أن رسول الأموي عندما رجع يلج في الصلح من جديد ، صرفه المعز خائبا دون جواب ، « وأمر بتجهيز الجيوش الى أرض المغرب لتتبع كل من مال الى بني أمية بالقتل ، واجتياحهم عن جديد الأرض » فإذا طهرها الله منهم فيما وإلاه من البربر جهزهم اليهم - ان شاء الله - في البحر لقطع دابرهم ، واصطلامهم عن آخر بحول الله وقوته « (٨١) » .

في الحرية المذهبية والخلق :

وفي مجال ذلك الصراع المذهبي السياسي وما دار حوله من الجدل ، يرفض المعز ما يباحى به الناصر من تركه الحرية المذهبية للناس يختارون ما يحبونه من المذاهب دونما اكراه حتى « نزع الناس اليه وسكنوا ببلده لذلك » ، على أساس أن ذلك سمة حكم المتغلبين من الأمراء غير الشرعيين الذين يسعون الى عاجل الدنيا ولا ينظرون في أمور الدين (٨٢) .

أما عن ادعاء الناصر بمنح حجاج أهل الأندلس من المرور بأفريقية ، فهو الأمر الذي ينفيه المعز ، بل ويلقى على الناصر (الفاسق) بتيعته ، لثلا يؤدوا بزعمه أخباره اليها . والحقيقة أنهم يذهبون ويرجعون دون أن يمنعهم أحد . « وكيف نصعد عن بيت الله ونحن أهل أم تمنع من زيارة قبر جدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) ونحن ولده (٨٣) » . وهنا لا بأس

(٨١) المجالس والمسايرات ، ص ١٧٠ .

(٨٢) أنظر المجالس والمسايرات ، ص ١٦٠ - ١٦١ - وذلك حسيما تقضي قواعد المذهب الفاطمي . من : ان الله عز وجل يرسل الرسل و (منا) اقام الأئمة الا لاطهار دينه ، وتقويم عبادته عليه ، والدعاء اليه . اما عن سبب نزوح الناس الى بلده ف « لما أباح لهم من شرب الخمر والمجاهرة بالمعاصي » . اما عن انصاخاره بنزوح الناس الى بلده ، فالمعروف انه لا توجد قرية فضلا عن المسابر والمدن ، من المغرب الى المشرق ، الا وفيها طائفة من أهل الأندلس قد نزحوا اليها ووطنوا بها . وان كثيرا منهم ليذكر ان الذي نزح به خوف سقط الله لما رآه من اظهار المعاصي ببلده . فضلا عن تنقل الناس بين البلدان اختيارا وتغير علة على قديم الزمان في كل مكان .

(٨٣) المجالس والمسايرات ، ص ١٩٣ .

من الإشارة الى أن إعلان أمان المعز لأهل مصر الذى قرأه جوهر عليهم عندما دخل القسطنطينية فى أواخر شعبان سنة ٣٥٩ هـ / أوائل يولييه ٩٧٠ م ، والذى كان بمثابة إعلان مبادئ الحكم (أى الدستور) الفاطمى ، المبني على أصول الإسلام والسنن النبوية ، فى مقابل دستور الحكيم الأخشيدي العباسى المبني على الأغراض الدينية والأهواء الفاسدة (٨٤) ، كان من بين بنوده ما ينص على « إقامة الحج الذى تعطل » - بسبب القرامطة أبناء مذهبيهم الاسماعيلى ، و « أن أجبركم فى المواريث على كتاب الله وسنة نبيه (صلى الله عليه وسلم) واضع ما كان يؤخذ من تركات موتاكم لبيت المال من غير وصية من المتوفى ، فلا استحقاق لحصيرها لبيت المال » و « رم المساجد وتزينها بالفرش والايقصاد » ، وبيان أن الإسلام سنة واحدة وشرعية متبعة ، وأن « يجرى الآذان والصلاة وصيام شهر رمضان وفطره وقيام لياليه ، والزكاة والحج والجهاد على ما أمر الله فى كتابه ، ونصه نبيه (صلى الله عليه وسلم) فى سنته (٨٥) . وهذا يعنى ان الإصلاح الدينى كان فى مقدمة البرنامج السياسى الذى أعده المعز لمصر .

أحوال المغرب ما بين فتح جوهر لمصر ونقله المعز إليها :

والحقيقة أن المعز كان على أهبة الاستعداد لفتح مصر بمجرد وفاة الأستاذ الأسود أبو المسك كافور الأخشيدي (٣٥٧ هـ / ٩٦٨ م) ، الذى آل إليه حكم مصر بعد وفاة ولدى الأخشيدي : أنوجور (ت ٣٤٩ هـ / ٩٦٠ م) وعلى (أبو الحسن) (ت ٣٥٥ هـ / ٩٦٦ م) . وسامت العلاقة بينه وبين أخوة الأخشيدي الذين كانوا وقتئذ لاجئين ببلاد الشام - فالمعز كان على دراية بالفراغ السياسى والدستورى الذى سيحدثه اختفاء كافور عن مسرح الأحداث فى القسطنطينية ، والظاهر أنه كان على دراية أيضا برقة حالة كافور الصحية . وهذا ما تعبر عنه الرواية التى كانت تقول ان فتح مصر يتم عندما يزول الحجر الأسود (٨٦) ، كناية عن وفاة كافور ، فى تلك الأوقات

(٨٤) حيث استمرى الفساد ، ليس بين رجال الدولة فقط ، بل بين النساء الأخشيديات أيضا ، حيث كانت بعضهن تشتري الجارية الغالبة الثمن من أجل الاستمتاع بها - انظر اتماط الخفا ، ص ١٣٤ - حيث اشترت الأميرة الأخشيدي صبيبة مغربية ، كانت السلطات الفاطمية قد دستها فى أسواق القسطنطينية ، ب ٦٠٠ دينار لتتبع بها .

(٨٥) انظر كتاب أمان جوهر فى اتماط المنفا للمقرئى ، ص ١٤٨ - ١٥١ ، وحسن

ابراهيم حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ١٤٤ - ١٤٥ .

(٨٦) اتماط المنفا ، ص ١٤٦ .

الصعبة حيث كانت مصر تعاني من سوء الأحوال الاقتصادية نتيجة لدورة المحل والوباء التي امت بها بسبب انخفاض فيضان النيل الذي استمر لتسع سنوات متوالية ، من : ٣٥١ - ٣٦٠ هـ / ٩٦٢ - ٩٧١ م (٨٧) .

الاعمال التمهيدية :

وهكذا فلا بأس أن يكون المعز قد بدأ الأعمال التمهيدية لفتح مصر منذ سنة ٣٥٥ هـ / ٩٦٦ م ، حيث صدرت أوامره بحفر الآبار على طول الطريق الى مصر ، وبناء الاستراحات ، من : المنازل والقصور (٨٨) ، وذلك تحت تأثير علم الحداث الذي كان يعرفه الأئمة ، وضغوط الاتباع من الشيعة والدعاة الذين اعتقدوا في ذلك ليس في حصرة الخلافة بالقروان بل وفي مصر والمشرق (٨٩) . وكان من الطبيعي أن يستغرق هذا العمل عدة سنوات ، ولا بأس أن تكون وفاة كافور سنة ٣٥٧ هـ / ٩٦٨ م ، قد زادت من حمة المعز في انجاز تلك الأعمال . ففي تلك السنة كان المعز منهكاً في ترتيب صناديق الأموال التي بلغت الآلاف في قصر المنصورية ، والتي قدرت قيمتها بـ ٢٤ (أربعة وعشرين) مليون دينار (انعاظ الحنفا ، ص ١٣٨) ، ويعهد بها الى صاحب بيت المال ، مما تأتي الاشارة اليه (ص ٢٥١) . كما تضيف رواية ابن خلدون ان المعز خرج بنفسه ، في قلب الشتاء الى المهدي ، وأخرج من قصر آباءه ٥٠٠ (خمسمائة) حمل من المال عاد بها الى القروان ليزيد ميرة بيت المال بقصر المنصورية (٩٠) .

جولة مبدئية في بلاد كتابة :

هكذا ، وتضيف رواية ابن خنكان أن المعز أصدر أوامره الى جوهر بأن يتجهز للخروج الى مصر . وإذا كانت تلك الرواية تقول ان جوهر

(٨٧) أنظر امانة الأمة للمقريزي ، ص ١٢ - ١٣ - حيث كان مستوى الفيضان ما بين ١٢ ذراعاً (كما في سنة ٣٥٦ هـ / ٩٦٧ م) و ١٥ ذراعاً ، كما في سنة ٣٥٣ هـ / ٩٦٤ م - الأمر الذي لم يقع مثله في الملة الإسلامية كما يقول المقريزي .

(٨٨) انماط الحنفا ، ص ١٢٨ - وقارن المؤنس لابن أبي دينار ، ص ٦٤ .

(٨٩) أنظر الجائس والمسائرات ، ص ٥٠٧ - حيث كان المنصور يتنبأ للمعز ، ابنه ، بفتح مصر ، ص ١٣٨ - حيث كان المعز نفسه لا يشك في النتائج المشرق قريباً ، وص ٤٧٥ - حيث يبنى ، وقد مشرقى يفتح المعز على غزو المشرق .

(٩٠) وفيات الأعيان ، ترجمة المعز العبيدي ، ج ٥ ص ٢٣٦ ، وقارن ابن أبي دينار المؤنس ، ص ٦٤ - حيث الخروج دون ذكر فصل الشتاء ، وقصور أبيه بدلا من آباءه .

بدأ بالخروج الى جبهة المغرب لاصلاح أموره وكان معه جيش عظيم ، الامر الذى يوحى بقيامه بحملة جديدة على بلاد المغرب ، قد ينهك فيها قواه فى ذلك الوقت غير المناسب ، فان بقيه الرواية تجعل تلك الحملة من الأعمال التمهيدية المقبولة بالنسبة لفتح مصر . فرواية ابن خلكان التى تظهر أصداؤها عند ابن أبى دينار ، تشير الى أن الهدف من الحملة كان حشد الأجناد من قبائل كتامة(٩١) ، فى اقليم القبائل الصغرى ، الى جانب جباية الأموال التى كانت على « قطائع » البربر ، والتى ببلغ مقبضها ٥٠٠ (خمسمائة) ألف دينار(٩٢) .

وعندما عاد جوهر من جولاته تلك فى بلاد كتامة بعد أن تم له ما كان يبغيه من حشد الرجال والأموال ، وذلك فى ٢٧ من المحرم سنة ٣٥٨هـ / ٢٢ ديسمبر ٩٦٨م ، صدرت اليه أوامر المعز بالخروج الى مصر ، الأمر الذى تم خلال فترة لم تتجاوز الشهر الا بأيام قليلة . وخلال تلك الفترة كان المعز يشرف بنفسه على تجهيز العسكر الكبير الذى حوى المتطوعة من بربر أفريقية ، وخاصة من قبائل كتامة وزويلة ، الى جانب الجند النظامى . ولم ييخل المعز فى النفقة على العسكر ، والتى تراوحت ما بين ٢٠ (عشرين) ديناراً و ١٠٠ (مائة) دينار لكل فرد منهم(٩٣) .

المسير من الحضرة :

وهكذا كان منير جوهر من الحضرة فى اتجاه مصر ، يوم ١٤ ربيع الأول سنة ٣٥٨هـ / ٦ فبراير ٩٦٩م ، فى احتفال عظيم ، حضره الخليفة المعز الذى ودعه جوهر مقبلاً يده وحافز فرسه(٩٤) . كما قدم لجوهر

(٩١) هنا فضلنا رواية ابن أبى دينار التى تشير الى حشد كتامة على رواية ابن خلكان (عن المعز ، ج ٥ ص ٢٢٦) التى تشير الى جمع قبائل العرب الذى يتوجه بهم الى مصر ، حيث كان العرب يقفون وقتلوا فى اقليم برفة ، قبل الهجرة الهلالية . مما تشير اليه فيما بعد (ص ٤٢٤) .

(٩٢) ابن خلكان (عن المعز) ج ٥ ص ٢٢٦ ، وقارن المؤنس بن أبى دينار ، ص ٦٤ .
(٩٣) أنظر ابن خلكان ، ج ٥ ص ٢٢٦ ، وقارن ابن أبى دينار ، المؤنس ، ص ٦٤ - حيث تاريخ مسيرة الحملة (٤ ربيع الأول) الى جانب تحديد عناصر الجيش من البربر والكتامين الزويليين والمجند .

(٩٤) ابن خلكان (عن الجوهر) ج ١ ص ٣٧٥ - ٣٧٧ ، وحسن إبراهيم حسن ، الدولة الفاطمية ، ص ١٤٠ .

ما يليق بمكانه من التعظيم والتبجيل من كبار رجال الدولة ، وعلى رأسهم
الأمراء أبناء الخن الذين ترجلوا عن خيولهم بأمر الخليفة الوالد (ابن خلكان
جوهري ج ١ ص ٢٧٧) . ويقدم الخليفة المحمل بأكداسي المال (٩٥) ،
الذي وصفه محمد بن هانيء الأندلسي ، قائلا :

رأيت بعيني فوق ما كنت أسمع
وقد داعني يوم من الحشر أدوع
غداة كان الأفق سد بمثابة
فعداد غروب الشمس من حيث تطلع (٩٦)

وعند عودة المعز إلى قصره ، أرسل إلى جوهري كل ما كان عليه من
ثياب سوى الخاتم (ابن خلكان ، جوهري) رمزا لنيابته العامة عن المعز
مع استمرار كون النكامة الأخيرة للخليفة ، صاحب الحق الشرعي في امضاء
الأمر مهما تكن الأحوال . وعلى طول الطريق كان جوهري يتلقى من ولاية
الأقاليم ما هو مقرر عليهم من المعونة ، ومن واجبات التبجيل والاحترام
نحو القائد الذي كان قد ارتقى إلى مرتبة الوزارة ، كما تقول النصوص ،
وذلك في المراكز الكبيرة ، مثل : قابس وطرابلس وبرقة ، على ما نظن .
فالمعروف أنه كان على جوهري في برقة أن يستقبل حشد العرب الذين
يسرون معه إلى مصر مع حشد كثامة (انظر أعلاه ص ٢٥١) كما كان على
والى برقة أيضا وهو وقتئذ أفلح بن ناشب أن يقوم بواجب التحية نحو
جوهري فيترجل له (عن حصانه) ويقبل يده ، الأمر الذي دفعه إلى عرض
١٠٠ ألف دينار على الخليفة المعز في سبيل اعفائه منه فلم يلق استجابة له
(انظر فيما بعد ص ٢٧٩ وما ١٧٠) .

مسيرة الأسطول :

ولما كانت خطة الفتح تقضي بمسير الأسطول في البحر محاذيا للمحملة
البرية ، فإن هذا التعاون المشترك بين القوات البرية والبحرية كان

(٩٥) انظر ابن خلكان ، ترجمة جوهري ، ج ١ ص ٣٧٦ - ٣٧٧ - حيث النص على بروز
جوهري في أكثر من ١٠٠ (مائة) ألف فارس ، ومعه أكثر من ١٢٠٠ (ألف ومائتي) صندوق
من المال ، وقارن ابن أبي دينار ، المؤنس ، ص ٦٤ - حيث النص على أن يسير جوهري كان
في عدد يقصر عنه الوصف ، ومعه ألف حمل من المال .
(٩٦) حسن إبراهيم ، الدولة الفاطمية ، ص ٢٤٠ .

سما سهل فتح الاسكندرية . الذى يقول فيه ابن هاني . :

نقول بنو العباس هل فتحت مصر
فقل لبنى العباس قد قضى الأمر
وقد تجاوز الاسكندرية جسر
تطالعه البشرى ويصعبه انصر(٩٧)

وبعد فتح الاسكندرية كان على جوهر أن يسير بمحاذاة فرع النيل الغربى ، مروراً بمدينة تروجة المزدهرة وقتئذ ، بينما كان على قطع الأسطول أن تصعد في النيل من مصب رشيد ، محاذية الجيش البرى ، نحو مدينة مصر : القساط . وكان الوصول الى الجيزة يوم ٧ من شعبان/ ٢٦ يونيه ٩٦٩ م ، من حيث كان عبور النيل في ١٦ شعبان/ ٥ يوليه ، ووضعت حجر الأساس لبناء مدينة القاهرة التي سماها جوهر بالمنصورية ، في اليوم التالى : ١٧ من شعبان سنة ٣٥٨ هـ / ٦ يولية ٩٦٩ م .

وبقى المعز في قصره بالمنصورية يتلقى أنباء الفتح المبين أولاً بأول ، وكانت أول بشارة تصله في ١٥ رمضان سنة ٣٥٨ هـ/ ٢ أغسطس ٩٦٩ م ، تلنها بشارة فنوح الشام . الى أن تقررت قواعده بالديار المصرية . فقرر المسير الى هناك في شوال سنة ٣٦١ هـ/ يوليه ٩٧٢ م ، بعد ٣ (ثلاث) سنوات قضائها هو الآخر ، في اقرار قواعد الدولة بديار أفريقية والمغرب .

اضطرب قبائل زناتة بقيادة محمد بن الحخير بن محمد بن خزرج
(سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م) :

بمسير جوهر والكتامين الى مصر ، وقع عبء اقرار السلام القاسمى في بلاد المغرب على كتفى المعز ، قبل أن يلقيها بدوره على كاهل معاوية من آل زيرى الصنهاجيين .

ففي نفس سنة فتح مصر اضطربت قبائل زناتة من جديد في بلاد الزاب ، وذلك بقيادة أميرها محمد بن الحخير بن محمد بن خزرج الذى استماله المستنصر الأموى الى جانبه(٩٨) . وكان على المعز أن يخرج بنفسه الى لقائه

(٩٧) انظر حسن ابراهيم حسن ، الدولة الفاطمية ، ص ١٤٧ .
(٩٨) ابن خلدون ، ج ٧ ص ٢٦ ، وقارن ابن الاثير ، ج ٨ ص ٥٩٩ - حيث الاسم

أبو خزرج الزناتى .

فى باغاية . ولكن ابن الخير الذى كان يتبع فى حرية أسلوب قبائل البادية المتمثل فى الكر والفِر ، بمعنى عدم الالتحام بالخصم اكتفاً بارهاقه على طريقة « اضرب واهرب » ، كان عليه أن يفر الى الصحراء المجبولة عن طريق سلوك الدروب الوعرة . وهنا أسلم المعز الى بلقين بن زيرى بن مناد الصنهاجى مطاردة الثائر الزناتى ، الى أن اختفت آثاره (٩٩) . والمهم ان محمد بن الخير لم يستسج رياضة المطاردة الصحراوية العنيفة فقرر فى السنة التالية ٣٥٩هـ / ٩٧٠م ، العودة الى أنس الطاعة ، فوصل بنفسه مستأثماً الى المعز الذى رحب به وأحسن اليه ، فأجرى عليه راتباً يضمن به معاشه (١٠٠) .

ثورة محمد بن الخير الزناتى سنة ٣٦٠هـ / ٩٧٠م (١٠١) .
ومقتل زيرى بن مناد :

ولكن المعز لم يلبث أن واجه تحالفاً من قبيل جعفر بن على ابن الأندلسى ، صاحب المسيلة وأحد المرشحين لخلافته بأفريقية ، وأخيه يحيى مع الزناتية من بنى خزر ، القائمين بدعوة الحكم المستنصر الأموى بالأندلس ضد أعوانه الصنهاجيين من : زيرى بن مناد صاحب أشير ، ووالى تاهرت . وما يفتحه بسيف المعز من بلاد المغرب ، وابنه بلقين (١٠٢) .

فعندما شق جعفر بن على ابن الأندلسى عصا الطاعة سنة ٣٦٠هـ / ٩٧٠م ، وتقرّب الى الحكم المستنصر الأموى ، كان عليه أن يترك اقتطاعه فى المسيلة وأن يلحق بمحمد بن الخير بن محمد بن خزر الزناتى لكى يسير الجميع عبر الصحراء لمفاجأة زيرى بن مناد ، غير بعيد من ولايته بتاهرت . على ما يظن . ورغم دفاع زيرى البطولى بما يليق بأسمه فإن المعركة انتهت بمقتله ، واحتواء بنى ابن الأندلسى والزناتية على معسكره (١٠٣) .

(٩٩) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٥٩٨ .

(١٠٠) ابن الأثير ج ٨ ص ٥٩٩ ، وانظر افتتاح الدعوة ، ص ٣٣٦ - حيث النص على ان ذلك لم يفعله من قبل لأحد غير المعز .

(١٠١) ابن عذارى ، ج ٢ (الأندلس) ص ٢٤٣ ، وقارن ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦١٦ - حيث الاسم خطأ محمد بن الحسين الزناتى بلداً من الخير .

(١٠٢) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٢٤٢ .

(١٠٣) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٢٤٣ .

ورغم ما يفهم من روايات ابن عذارى التي جمعها من محمد بن يوسف الوراق وغيره . والتي تظهر غير متسجمة بعض الشيء ، من ان الزعيم الزناني محمد بن الخير هو الذي قتل زيرى بن مناد ، فمن الواضح ان جعفر بن علي ابن الاندلسي اندفع بكل حماس الداخل الجديد في الدعوة الأموية . نكابة في المعز ، لياخذ علي عاتقه فخر قتل الزعيم الصنهاجي زيرى بن مناد . تابع المعز المقرب . وهكذا يادر جعفر بمراسلة الحكم في قرطبة ، مدلا على صدق دخوله في دعوته بتقديم رأس زيرى ، كأعظم هدية يمكن أن يتوقعها العاهل الاندلسي ، وذلك بمعية أخيه يحيى وأمرء بني خزر الزنانية . واستقبلت قرطبة رأس عدوها في احتفال عظيم شهده كبار رجال دولة المستنصر في أوائل شهر ذي القعدة من نفس السنة (٣٦٠ هـ / أغسطس ٩٧١ م) . أما عن ذروة الاحتفال فكان في ٢٨ من ذي القعدة / ٢٤ سبتمبر ، حيث جلس المستنصر فوق السرير لاستقبال جعفر بن علي ابن الاندلسي ومن أتى معه من أمراء زناتة ، الذين كان قد بدأ الترحيب بهم منذ أن نزلوا في مرسى مالقة ، حيث كان في استقبالهم محمد بن أبي عامر ، الذي كان يشغل منصب قاضي أشبيلية ، بصفته نائبا عن الحكم (١٠٤) .

ثار بلكين من محمد بن الخير الزناني :

وحق للمعز أن ينزعج أشد الانزعاج لما نزل بقائده زيرى الصنهاجي ، في ذلك الوقت المرح حيث كان يرتب أموره من أجل المسير إلى مصر ، ولكن قلقه لم يستمر طويلا ، وذلك ان بلكين بن زيرى نجح في قطع تلك الأعياد التي أقيمت في الاندلس ابتهاجا بمقتل والده ، وذلك بالثار من الزعيم الزناني ، محمد بن الخير ، عندما نجح في مفاجاته بدوره على حين غرة ، في ١٧ ربيع الآخر سنة ٣٦٠ هـ / ١٧ فبراير ٩٧١ م ، وهو في بعض مجتمعاته ، الأمر الذي دفع ابن الخير المعتز بنفسه ، والذي لم يقبل ضيم الرقوع في الأسر ، عندما أحيط به ، ولا القتل بيد خصمه ، إلى الانتحار بأسلوب أقرب إلى ما عرف حديثا بطريقة (الهاز اكبرى) اليابانية وذلك بالانكاء على سنان سيفه وقتل نفسه ، الأمر العظيم الذي كانت له أصداؤه الرائثة في كل بلاد المغرب ، والذي استقبله المعز بما يعادله من الشعور بالراحة والغبطة ، حتى انه جلس لتقبل التهاني لثلاثة أيام متوالية.

فكانها مناسبة العيد (١٠٥) ، وكانت في الحقيقة مناسبة الرحيل .

والخليفة انه بينما كان المعز يسير نحو المشرق في أواخر شوال من السنة التالية ، ٣٦١ هـ / يولييه ٩٧٢ م ، كانت الأحوال قد تغيرت فقد المغرب حيث انفض التحالف بين جعفر بن علي بن الأندلسي الذي انضم الى صفوف بنكين وبين الزناتية ، وبدأ يحاربهم باسم المعز . كما كان الصراع دائرا في العدو المغربية ما بين الأمويين وشيعتهم في سبتة وبين شيعه الفاطميين من الأدارسة ، وعلى رأسهم الحسن بن قنون ، تلك الصراعات التي ستصبح تركلة المعز لنائبه بنكين بن زيري . اما عن الاضطرابات التي عرفتها صقلية وقتئذ فقد انقطعت تماما عندما أعاد المعز الامارة الى بنى الحسن انكلبين ، فعين أبا القاسم بن الحسن واليا للجزيرة نيابة عن أخيه أحمد (أبو الحسين) ، فقاموا بشئون الجزيرة وبواجب الجهاد خير قيام .

أحوال صقلية من عهد القسام الى انتقال المعز الى القاهرة :

غارة على جنوة :

بدأ عهد القسام سنة ٣٢٢ هـ / ٩٣٥ م ، بحملة قوية خرجت من الميمنية ، بقيادة يعقوب بن اسحق ، الى جنوة التي كانت تعتبر من أرض الأفرنجية ، فاجتاحها قبل أن تعود بالمغانم والسبي - الأمر الذي كانت له أصداءؤه المدوية في كل من الجانبين الاسلامي والمسيحي على السواء (١٠٦) .

(١٠٥) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦٦٦ ، ابن عذاري ، ج ٢ ص ٢٤٣ ، وأنظر انماط المنفا ، ج ١ ص ١٢٨ - حيث وردت الرسل في شعبان سنة ٣٦٠ هـ / ٩٧٠ م من المغرب برأس محمد بن خزر ، ومع ٢ آلاف رأس ، فقرأ عبد المسيح يوم الجمعة كتاب المعز بغير المذكور - وحيث تحديه تاريخ انتصار محمد بن الحارث بس ١٧ ربيع الآخر سنة ٣٦٠ هـ / ١٧ فبراير ٩٧١ م .

(١٠٦) المكتبة الصقلية ، مخطوط كامبروج ، تاريخ صقلية حسب حوايات العالم ، ج ١ ص ١٧٠ - حيث النص على أخذ جنوة ، وأنظر ابن الأثير ، ج ٨ ص ٨٥ - حيث جنوة من بلد الروم ، وقارن افتتاح الدعوة ، ص ٣٣٩ - حيث الاشارة بشكل عام الى افتتاح مدائن الروم ، وغزوهم بتاجبة الأندلس (جنوة) ، ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٠٩ - حيث النص على أن وجهة الحملة كانت بلد الروم فافتتحت جنوة ، الأمر الذي جعل ارشيبالد لريس ، القوي البحرية التجارية ، الترجمة ، ص ٢٣٤ - ٢٣٥ ، يقول ان نشاط الاسطول البيزنطي أزعمج الفاطميين في غرب المتوسط حتى أنهم أرسلوا عام ٩٣٥ م (٥) أسطولا كامل الاستعداد ليثبت دعائم =

استمرار ولاية سالم بن راشد :

أما عن صقلية فإن القوائم أقر على ولايتها سالم بن راشد . وفي السنة الأولى من إمارة سالم على عهد القوائم ، تذكر الخوليات الصقلية حسب تاريخ العالم مقتل والي طبرمين المسمى زنداش ، ذلك في حملة كان يقوم بها ضد قلعة « قصر سالم » في ١٠ مارس من تلك السنة ٩٣٥م / ٢ ربيع الثاني ٣٢٣هـ . وفي السنة التالية تعرضت الجزيرة يوم الأحد الموافق ١٩ أكتوبر ٩٣٦م / ٣٠ ذي القعدة ٣٢٤هـ ، لنوء عظيم سالت له الأودية من المرتفعات المحيطة بمدينة بلرم فأغرقت الناس ، وهدمت الكثير من الدور في أرباض المدينة وداخلها . وعلى العكس من ذلك تعرضت بلرم في صيف العام التالي ، الى ريح « سموم » عاصفة في يوم ١١ يولييه ٩٣٧م / ٢٤ رمضان ٣٢٥هـ ، ترتب عليها حرق دوالي العنب والثمار فلم يكن في تلك السنة قطاف (١٠٧) .

والظاهر ان سالم بن راشد لم يكن موفقا في السياسة التي واجه بها تلك الصعوبات الطبيعية ، وما ترتب عليها من أزمة اقتصادية ، إذ تبع ذلك اضطرابات خطيرة انتهت بها فترة ولايته للجزيرة التي تجاوزت العشرين سنة ، والتي كانت أشبه بتلك الاضطرابات التي عرفتها البلاد على أيام سلفه : أبى سعيد الضيف . ففي سنة ٣٢٥هـ / ٩٣٧م اشتعلت الفتنة بين أهل صقلية وأمرائهم ، وذلك عندما أعلن أهل مدينة جرجنت (حيث البربر) العصيان على سالم ، متهمين إياه بسوء السيرة - ربما لتشده في جباية الأموال ، مما عرف عنه في بداية ولايته على عهد المهدي (انظر فيما سبق ، ص ١٥٩) ففي ١٧ من إبريل ٩٣٨م / ١٨ جمادى الثانية ٣٢٦هـ ، ثار الجرجنتيون على الأمير سالم بن راشد ، وطردهوا عامله عليهم « ابن عمران » من قلعة البلوك ، كما نهوا من كان لديهم من تجار اللومبارديين (النردبارين) . وهنا أعد لهم سالم عسكريا ممن كان تحت امرته ، من : الكتامين والصقليين (١٠٨) ، إضافة الى جماعة من رجال

سلطانهم على مياه البحر التيراني ، وليغزو على سردينية وكورسيكا ، وربما جنوة أيضا (٩) رغم ما تخصصه النصوص العربية من غزو جنوة ، وأنه استطاع أن يحرق الكثير من السفن والذي نراه ان المؤلف لا يعتقد بالنصوص بل يخط لنفسه الطريقة في تفسيرها والتعليق عليها حسبما يقرأه له ، وإن لم يطق مع معشوق النصوص .

(١٠٧) المكتبة الصقلية ، ج ١ ص ١٧١ .

(١٠٨) المكتبة الصقلية ، ج ١ ص ١٧١ ، وقارن ابن الأثير ، ج ٨ ص ٣٣٧ - حيث النص .

« أهل صقلية وأفريقية » (بدل الكتامين) .

القائد ميمون بن موسى ، وجعل قيادتهم الى المقدم : أبي دقاق الكتامي . وسار هؤلاء العساكر نحو جرجنت حيث ضربوا فازاتهم (أخيتهم) في موضع يقال له عصرة . وهنا رأى الجرجنتيون أن تكون لهم المبادرة بالعمل ، فزحفوا الى معسكر قوات بلرم ، ودارت الحرب بين الطرفين ، في يوم السبت ٢٤ يونيو / ٢٧ شعبان ، وانتهت بهزيمة العسكر الكتامي الذي قتل كثير من رجاله وعلى رأسهم قائدهم ، المقدم أبي دقاق . ووقع النصر من روح أهل جرجنت الذين تابعوا المنهزمين من العسكر الأميري الى بلدتهم بلرم ليحاربوها نفسها . وكان من الطبيعي أن يقبل الأمير سالم ذلك التحدي . فخرج الى لقاء الجرجنتيين وبصحبته القائد ميمون بن موسى . وتم اللقاء في يوم الأحد ٢ يولييه / رمضان ، في موضع يعرف بـ « مسيه الييس » كان النصر فيه لأهل المدينة (بلرم) الذين أوقعوا بالجرجنتيين خسائر كبيرة ، وتبعوهم حتى موضع « مطاحن مرنوه » (١٠٩) .

ثورة الصقليين في بلرم :

ولما كان التمرد والعصيان معديا كالمرض ، بالنسبة للعامة على الأقل ، لم يكن من الغريب أن يشور الصقليون داخل بلرم ، وذلك بقيادة رجلين منهم ، هما : ابن السبابة وأبو طار ، على الأمير سالم ، وأن يقتلوا بعض أعيان رجاله ، كما فعلوا بأبي نظار الأسود يوم الأحد ١٧ سبتمبر (سبتمبر) ٩٢٨م / ١٦ ذي القعدة ٣٢٦هـ . ولكن الأمير سالم بن راشد لم يلبث أن أوقع بالصقليين بعد ثلاثة أيام ، حيث هزمهم يوم الأربعاء ٢٠ من نفس الشهر / ١ من ذي الحجة ، هزيمة منكرة ، اشتهرت بـ « مقتلة الكلاب » - انتقاما من شأن المهزومين . ومن الواضح أن سالم بن راشد أدرك أن التمرد الذي استشرى بين العسكر من أهل صقلية أكبر من أن يواجه بقواته المحدودة في الجزيرة فأرسل الى الخليفة القائم بالمهدية يسأله بالموقف الحرج ، ويطلب منه المدد .

وقبل أن يصل المدد الذي أعده القائم تحت قيادة واحد من كبار المخلصين للإمام ، هو : خليل بن اسحق (أخو يعقوب بن اسحق) ، كان الصقليون في بلرم يتحركون مرة أخرى بأعداد كبيرة ضد سالم ، وذلك

(١٠٩) الكتبة الصقلية ، ج ١ ص ١٧١ - ١٧٢ ، وقارن ابن الأثير ، ج ٨ ص ٣٣٧ - حيث الإشارة الى أن هزيمة أهل جرجنت كانت في شعبان .

فى يوم السبت ٧ أكتوبر / ٦ ذى الحجة ، ولكن سالم نجح فى هزيمتهم مرة أخرى هزيمة كبيرة ، داخل المدينة حيث حصرهم بالقلعة القديمة (القصر القديم) (١١٠) .

شمهله خليل بن اسحق :

ما بين المواقف الشجنية والأعمال الشارية :

ويمضى خليل بن اسحق بقوات المهدي فى ٢٣ من أكتوبر / ٢٤ من ذى الحجة (١١١) ، ظهر وكان تغيير القيادة فى الجزيرة قد أمن عودة اليدو والسكنة اليها . فند حرج اليه أهل بلرم مظهرين الطاعة ، شاكين ظم سائم وجوره ، كما خرج النساء والنسبيان يكون ويشكون ، وبلغت العواطف أوجها عندما أثار الموقف الشجن فى نفوس العساكر فانخرطوا ، هم أيضا فى البكاء . وشجع الموقف العاطفى الحزين أهل بقية البلاد وبضمنهم أهل جرجنت (البربر) على المضى الى بلرم للقاء القائد الجديد ، خليل بن اسحق . وهنا يكتمل الشكل القصصى للرواية التى يقدمها ابن الاثير ، عندما يصبح الدس والوقية هما المحرك للعلاقات بين رجلى الدولة المشاركون فى ولايه أمر الجزيرة . فمن الواضح ان الخليفة القسائم أرسل خليل بن اسحق مددا لسالم ، وليس أميرا بدلا منه ، الأمر الذى سمح لسالم أن يمارس سياسة تعقيد الأمور بالنسبة له حتى يقلل من فرصة مزاحمته له فى إمارة الجزيرة . فهذا ما يفهم من اجتماع سالم بالقادمين للقاء خليل ، وخاصة من الجرجنتيين الذين كانوا لا يضمرون له ودا ، واخبارهم ان خليل لم يحضر من قبل الخليفة القسائم الا من أجل الانتقام منهم بمن قتلوه من عسكره ، الأمر الذى جعلهم يتريثون فى تحديد موقعهم منه (١١٢) .

وبصرف النظر عن صحة قصة التآمر بين كبار رجال الدولة أو اصطفاها ، فمن الواضح ان الأمور سارت فى مجاريها الطبيعية ، فخليل حضر وهو يعرف ماذا يواجهه من تمرد أهل صقلية ، وهو ما سوف

(١١٠) المكتبة الصقلية ، ج ١ ص ١٧٢ ، وقارن ابن الأثير ، ج ٨ ص ٣٣٨ .

(١١١) المكتبة الصقلية ، ج ١ ص ١٧٢ .

(١١٢) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٣٣٨ - حيث النص على انهم عندما سمعوا مقالة سالم

فعاودوا للخلاف ولكن ما يأتى بعد ذلك جعلنا نعدلها الى التريث فى تعديد الموقف .

تؤكد هذه الأحداث التالية وما صاحبها ، من تواتر أعمال الحلاف العنيدة .
وبالتالى الانتقامات الحاقدة ، فبمجرد دخول خليل بعساكره الكثيرة الى
بلرم بدأ بتجريد المدينة من دروعها ، وجعلها مدينة مفتوحة ، يهدم سورها
وخلع أبوابها ، ونقض الكثير من تحصيناتها ، واشروع فى بناء مدينة
بديلة أو قلعة حصينة ، من نوع ما سوف يعرف فيما بعد ، بـ « القصبه » ،
بمعنى مركز الحكم والادارة ومقر الخنازية ، وسماها « الخالصة » (١١٣) .
والحقيقة انه اذا كان نقض تحصينات بلرم يعنى جعلها مدينة مفتوحة
بالنسبة للمدينة الحكومية الجديدة ، فان بناء الخالصة اعتبر بمثابة انذار
موجه الى أهل جرجنت ، الذين أخذهم الخوف ، وتحقق عندهم ما قال لهم
سالم ، « فحصبوا مدينتهم واستعدوا للحرب » .

وأعد خليل من جانبه العدة للمواجهة ، فحشد الرجال من صقليين
وأفريقيين ، وخرج اليهم بقوة الكبيرة يوم الجمعة ٩ مارس سنة ٩٣٩م /
١٣ جادى الأول سنة ٣٢٧هـ ، وضرب عليهم الحصار فما كان من الجرجنتيين
الا أن تخلصوا ممن كان لديهم من العمال الفاطميين ، مثل : ابن أبى خنزير ،
وعلى بن أبى الحسين ، صهر سالم بن راشد ، فقتلوه . ورغم تشديد خليل
الحصار عليهم لمدة ثمانية أشهر ، فانه لم يقدر لهم على شئ ، حتى اضطر
عند اقبال الشتاء الى رفع الحصار فى ٢٢ من أكتوبر / ٢٧ من ذى الحجة .
والعودة الى الخالصة (١١٤) .

**ثغرات متبادلة ، من : تشديد الحصر ، والاتصال بالقسطنطينية ،
والهجرة الى بلد الروم :**

وانتهز أهل جرجنت فرصة رفع الحصار التى اعتبروها انتصارا لهم
على قوات الخلافة ، وقاموا بدعاية واسعة النطاق ضد خليل ، كما بثوا
سراياهم فى كل اتجاه ، الأمر الذى انتهى مع مقدم السنة التالية ، بخلاف
أهل مازر وجميع القلاع على خليل . وبلغ الأمر بالجرجنتيين الى حد مكاتبة
أمير طور القسطنطينية وطلب النجدة منه ، وكانت فرصة انتهزها
الباسيليوس (الملك) فأمدهم بالمؤن والرجال عن طريق الأسطول ، كما
انتهزها رجاله من المسئولين فى كلابريا وجنوب إيطاليا للكسب غير المشروع

(١١٣) المكتبة الصقلية ، ج ١ ص ١٧٢ - حيث بانرم بدلا من بالرم ، ابن الأثير ، ج ٨
ص ٣٣٨ - حيث النص على أنه أخذ أبواب بلرم ليحصن بها الخالصة .
(١١٤) المكتبة الصقلية ، مخطوط كمبريدج ، ج ١ ص ١٧٢ ، ابن الأثير ، ج ١ ص ٣٣٨ .

(انظر ما يأتي ، ص ٢٦٢) . وكان على خليل ان يخاطر الخليفة باستفحال امر اهل جرجنت ، وتهاجم خطر الثورة بالجزيرة ، بعثت اليه جيشا كبيرا خرج به خليل الى جانب من معه من الصقليين ، لاسترجاع الحصون الثائرة . من : قلعه ابي نور ، وقنصه السيراط ، واسكلافينه حتى استردوها دون عناء . بينما قاومت قلعة البلوط في ملحمة مروعة في ١٠ يولييه ٩٤٠ م / ١ شوال ٣٢٨ هـ . اما قلعه ابلاتنو فقاومت ولم تستسلم (٢١٥) .

. وقاوم الجرجنتيون مقاومة انيائس ، ففي نوفمبر ٩٤٠ م / صفر ٣٢٩ هـ . نجحوا في عملية ليلية مفاجئة من فك الحصار عن قلعة البلوط ، بعد أن طردوا رجال خليل واستولوا على خيامهم (١١٦) . وخلال تلك الأحداث الدامية مات سالم بن راشد في هذه السنة في قصره بالحالصة ، بينما ضربت المجاعة المدينة (بلزم) وكذلك البوادي ، «حتى أكل الوالدون أولادهم» (١١٧) . وفي شهر مارس ٩٤١ م / جمادى الآخرة ٣٢٩ هـ سقطت قلعة ابلاتنو (بلاطينة) ، وتبعها تشديده الحصار على جرجنت التي ضربتها المجاعة ، كما ضربت غيرها من القلاع والبوادي التي خلت من أهلها ، الى أن انتهى الأمر بسقوطها في ٢٠ نوفمبر ٩٤٢ م / ٢٣ صفر ٣٣١ هـ (١١٨) .

ونتيجة للمجاعة وطول الحصار ، وما ترتب عليها من تفجر العداوة والحقد ، سار كثير من أهل جرجنت الى بلاد الروم ، بل وتنصر كثير منهم . أما الباقيون الذين طلبوا الأمان فبعد أن استجاب لهم خليل - وطلب منهم النزول من القلعة غدر بهم وحملهم الى المدينة (بلزم) ، كما بعث منهم سببا كثيرا الى أفريقية . هذا ، وتبين الرواية ان خليل بن اسحق حمل وزر كل ذلك راضيا فخورا (١١٩) .

(١١٥) المكتبة الصقلية ، مخطوط كمبرج ، ج ١ ص ١٧٢ ، ابن الأثير ، ج ٨ ص ٣٣٩ .

(١١٦) المكتبة الصقلية ، ج ١ ص ١٧٣ .

(١١٧) المكتبة الصقلية ، ج ١ ص ١٧٣ .

(١١٨) المكتبة الصقلية ، ج ١ ص ١٧٣ ، وقارن ابن الأثير ، ج ٨ ص ٣٣٩ - حيث النص

على أنها سقطت في سنة ٣٢٩ هـ .

(١١٩) انظر المكتبة الصقلية ، ج ١ ص ١٧٣ ، ابن الأثير ، ج ٨ ص ٣٣٩ - حيث الاشارة

الى أنه غدر أيضا بأعيان اهل جرجنت الذين سحبيهم معه الى افريقية حيث جعلهم في مركب وافر بنجيه فماتوا في لجة البحر غرقا ، وانظر ابن عذاري ، ج ١ ص ٢١٥ - حيث الاشارة الى أن ما فعله خليل بن اسحق بأهل صقلية مما لم يعمل أحد قبله ولا بعده من المسلمين ، الى حادب انتخاره بظلمه في مجالسه عندما عاد الى افريقية ، حيث كان يستقل ما قيل من أنه قتل =

والى جانب هجرة الصقليين من الثوار الذين تجاوزوا الى بلاد الروم ، وما كانت تقوم به بيزنطة من ارسال النجيدات والمؤن للتوار ، مما دس اعلاه (ص ٢٦٠) ، تشير النصصوص البيزنطية الى ان بعض قواد الروم في كالابريا (قلورية) ، استفاد من الموقف الصعب للصقليين بسبب انعط والجوع ، وباع لهم القمح والأطعمة بأسعار عالية ، وكان قد اشترعها من الكالابريين بأسعار رخيصة ، وأن انكشف امره كان نتيجة طبيعياً للرقابة الامبراطورية الحازمة على حكام الولايات . فلقد اتهم القائد المذنب بانكسب الفاضح وغير المشروع ، ولم يكتف بعزله ، عقوبة لجرمه فقط ، بل وبمصادرة جميع املاكه (١٢٠) . والمهم بعد كل ذلك هو أنه نتيجة لتلك الثورات التي ألمت بصقلية ، ضعف العرب الموجودون في كالابريا ، وأصبحوا تحت رحمة اليونان . أما عن الخليفة الفاطمي في أفريقية فكان لا يستطيع المطالبة بإعادة الفارين من الجزيرة ، الذين كان النيوناسيون قد أسروهم وحملوهم الى القسطنطينية . هذا ، كما ان الضريبة السنوية التي كانت تدفعها المدن الكلابرية قبل وفاة المهدي ، أصبحت بطبيعة الحال غير ذات موضوع (١٢١) .

نهاية مهمة خليل بن اسحق :

والذي يفهم من الرواية الخاصة بنهاية مهمة خليل بن اسحق في صقلية ، ان القائد الفاطمي الذي أغرق الثورة الصقلية في الدم والجوع ، رأى أنه أدى ما هو مطلوب منه عندما استسلمت القلاع العاصية ، وعادت البلاد الإسلامية الى طاعته ، فقرر العودة الى أفريقية . ورغم ذلك فلا بأس من أن تكون عودة خليل الى المهدي قد تمت بناء على تعليمات من الخليفة القائم ، الذي كان ولا شك قد عرف بما تم من الظلم والجور في حق المتكودين من ثوار صقلية ، من جانب تابعه الذي بالغ في اخلاصه في الخدمة الى تجاوز الحدود المتعارف عليها ، خاصة وأن والى الجزيرة سالم بن راشد

من الصقليين . بين مليون (على الأكثر) أو مائة ألف (على الأقل) فكان يقول : (لا والله الاكثر) بينما كان البعض يقول له : « يا أبا العباس : لك في قتل نفس واحدة ما يكفيك » . مع الإشارة الى خدمته المهدي في أعمال الجبايات ومحاسبة الدواوين والعمال ، وان المهدي انتهى به الأمر الى أن كرهه وأبغضه ، وأنه لولا ابنه أبو القاسم لامتلكه .

(١٢٠) جاي (J. Gay) إيطاليا الجنوبية والامبراطورية البيزنطية ، بالفرنسية ، ص ٢١٢ .

(١٢١) جاي (J. Gay) ، إيطاليا الجنوبية والامبراطورية البيزنطية ، ص ٢١٣ .

كان قد توفي ، فكان من المقبول أن يحل تحليل محله أو رأى ديوان المهدي
أمايته لتستل هذا المنصب .

ولاية ابن عطف :

وسكنا ، وفي تلك الظروف الشاذة ، كان على خليل بن اسحق أن
يفادر صقلية الى أفريقية في ١٠ سبتمبر (شتمبر) ٩٤٣م / ٦ محرم
سنة ٣٣٢هـ (١٢٢) ، بعد أن ترك على يلرم متولين ، أحدهما : ابن الكوفي
والآخر ابن عطف (١٢٣) . والذي يفهم من رواية ابن الأثير ان الامارة كانت
لابن عطف أصلا (١٢٤) ، بمعنى ان ابن الكوفي كان مساعدا له أو نائبا
يمكن أن يقوم مكانه اذا حدث له حدث في تلك الظروف الصعبة ، حيث
« كثرت السرقة والأذى ، وصار القوي يأكل الضعيف » (١٢٥) ، الا اذا كان
ابن الكوفي هو عامل الحراج ، كما جرت العادة من فصل الادارة السياسية
عن الادارة المالية التي كان لها عاملها المستقل .

والهم ان الحوليات الصقلية لا تقدم شيئا عن أحوال الجزيرة في الفترة

(١٢٢) وذلك تبعا لتاريخ صقلية الحولى الذى يتبع تاريخ بدء الخليفة (مخطوط كمبودج)
المكتبة الصقلية ، ج ١ ص ١٧٣ ، مع ان الرواية القاطية التي ينقلها ابن الأثير تحدد ذلك
بذى الحجة الذى لا يبعد كثيرا عن المحرم سنة ٣٢٩هـ / ٩٤٠ - ٩٤١ . ولما كانت الرواية
تجمل أعمال خليل إجمالا في ٤ (أربع) سنوات أو ٥ (خمس) . ما بين ٣٢٥هـ /
٩٣٧م و ٣٢٩هـ / ٩٤٠ - ٩٤١م ، دون أى تحديدات زمنية أخرى ، فانا فضلنا تحديدات
حوليات التاريخ العالمى في المكتبة الصقلية لأمارى ، مخطوط كمبودج ، التي تتصف بالدقة
من حيث تحديد اسم اليوم وتاريخه والسنة العامة بالنسبة لتاريخ العالم والتي تبدأ بسنة
٣٣٥ ، تاريخ دخول المسلمين صقلية ، سنة ٢١٢هـ / ٨٢٧م ، وتنتهى في أكتوبر ٧٤٣ حينما
نزل مانويل الى الجزيرة (أكتوبر ٩٦٥م / صفر ربيع ٣٦٥هـ) ، على عهد بنى أبى الحسين
الكلبيين ، سنة وفاة المنصور . وذلك على طول ١٣٨ سنة ، تحدث فيها تواريخ الأحداث التي
تتفرّد بها في كثير من الأحيان ، وتحديدًا مدتها وان احتاجت بعض أسماء الأعلام أو بعض
الكلمات الاصطلاحية الى نوع من الأيضاح أو الشرح . ولا يضيرنا في هذا الا ان الس ١٣٨ سنة
شمسية يقابله ١٥٣ هجرية ، بفارق ١٤ سنة . والفروض ان الفارق لا يتجاوز خمس سنوات
فقط ، وهو الامر الذى يتطلب المراجعة . وان لم يقلل من قيمة التاريخ العتيق بحوليات تاريخ
العالم ، الذى كان يستعمله مستعمرة صقلية ، كما نرى .

(١٢٣) المكتبة الصقلية ، ج ١ ص ١٧٣ .

(١٢٤) الكامل ، ج ٨ ص ٤٧١ - أحداث سنة ٣٣٦هـ .

(١٢٥) المكتبة الصقلية ، ج ١ ص ١٧٣ .

ما بين نزول خليل بن اسحق الى المهديّة ، وتعيين حسن بن علي بن أبي الحسين أميراً لصقلية ، سنة ٣٣٦هـ / ٤٧ - ٩٤٨م ، وهي الفترة التي تتأهز ٦ (ست) سنوات ، والتي يمكن تفسير خواتمها الموضوعي بانسفال الدولة الفاطمية ما بين ٣٣٢هـ / ٩٤٣م و ٣٣٦هـ / ٩٤٧م بثورة أبي يزيد الزناتى ، والتي غلبت أحداثها على كل ما سواها (١٢٦) . ولا شك ان الثورة الزناتية فى أفريقية كانت لها ردود فعل سلبية فى صقلية ، على المستوى الخارجى ، من حيث تحسن موقف القلاع البيزنطية والأراضى الخاضعة للنفوذ الرومى فى الجزيرة بفضل تحررها من الضغوط الإسلامية وبالتالى من دفع ما كان مفروضاً عليها من مال الهدنة (١٢٧) ، وعلى المستوى الداخلى من حيث ضعف الولاء ابن عطف الذى اتضح منذ البداية ، مما سبقت الإشارة اليه ، والذي زاد مع الثورة الزناتية بحيث عجز عن فرض سلطاته على العصبية فى الجزيرة . وفى أواخر سنة ٣٣٥هـ / ٩٤٧م كان بنو الطبرى ، من أعيان الجماعة بصقلية ، بفضل أتباعهم الكثيرين ، ومن كان يميل اليهم من أهل العاصمة بلرم ، يسكنهم تحدى ابن عطف ، كما فعلوا يوم الاحتفال بعيد الفطر (أول شوال / ٢٥ ابريل) من نفس السنة ، حيث تمكنوا من قتل عدد من رجاله ، واضطروه الى الهرب من مقره الرسمى فى الخالصة الى الحصن ، تاركاً لهم أعلامه وطبوله التى انصرفوا بها الى ديارهم (١٢٨) .

ولاية حسن بن علي بن أبي الحسين الكلبى :

وعندما بلغ الخبر الى الخليفة المنصور ، رأى أن يستبدل بابن عطف رجلاً على مستوى مسئولية قيادة صقلية بقضاياها الاستراتيجية الخارجية ومشاكلها الداخلية من سياسية وعرقية ومذهبية . ولا شك أن المنصور كان موفقاً فى اختيار حسن بن علي بن أبي الحسين الكلبى ، الذى كان له بالذء فى حرب الثائر الزناتى أبى يزيد ، والذي كان على دراية بأحوال

(١٢٦) لما كانت بداية ثورة أبى يزيد فى سنة ٣٢٢ - ٣٣٣هـ / ٤٢ - ٩٤٤م تتفق مع تاريخ نزول خليل بن اسحق من صقلية الى افريقية حسب حولى تاريخ العالم الصقلية ، فان ذلك التوافق يمكن أن يرجع نزول خليل سنة ٣٣٣هـ / ٩٤٣م بدلا من آخر سنة ٣٢٩هـ ، كما عند ابن الأثير ، إذ يكون انقطاع أخبار صقلية منذ بداية الثورة الزناتية ، وليس قبلها بستين شاغرتين ، دونما تفسير .

(١٢٧) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٤٧١ .

(١٢٨) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٤٧٢ .

صقلية . فولده علي بن أبي الحسين هو عامل جرجنت الأسبق ، الذي قتله الطبرجنتيون عندما دخلوا في مواجهتهم مع خليل ابن اسحق سنة ٣٢٥هـ / ٩٣٧م . مما سبقت الإشارة إليه . والحسن هو صاحب الفضل في اصلاح احوال الجزيرة وضبطها ، بل وتكوين أسرة اميرية رفعت من هبة صقلية ، ومن شأن الدولة الفاطمية كواحدة من قوى المتوسط البحرية الكبرى ، رغم المسعوبات التي واجهته في بداية امارته من العصبية القوية ، وعلى رأسها بنو الطبري .

ردع بني الطبري الصقليين في بلرم :

فعندما حضر الحسن الى الجزيرة ، ونزل بمراكبه في مرسى مدينة مازر ، لم يلتفت اليه أحد . وفي الليل أخته جماعة من المغاربة والكنامين ليعتذروا له عن عدم مجيئهم اليه نهارا خشية علي بن الطبري وأخويه من الصقليين . وكان ابن الطبري قد سار الى أفريقية مع بعض أنصاره ، مثل : محمد بن عبدون ، ومحمد بن جنا ، للسعي لدى المنصور لكي يعفيهم من ولاية حسن بن علي ، مع وصاية أبنائهم بمنعه من مفارقة مراكبه أو دخول البلد الى أن تصلهم أوامره . وعندما أتاه بعض أصحاب ابن الطبري ، رأى أن يخادعهم ثم انه أسرع السير الى الحالصة وبلرم حيث أتاه رجال الدولة من أصحاب الدواوين ، ومن أهل البلد ممن يرجون الأمن والعافية ، الأمر الذي اضطر بني الطبري الى الخروج اليه والتظاهر بالترحيب به ، وهم يضربون له القدر ، ويحاولون إثارة أهل البلد على عبيده . وبقي الحسن خائفا متوجسا من خيانتهم الى أن أخته كتب المنصور تعرفه بالقبض على زعماء المخالفين ، من : علي بن الطبري وأعوانه ، ويطلب منه القبض على من بقي لديه منهم ، الأمر الذي نفذه حسن بن علي بالحيلة والحداد عندما دعا اسماعيل بن الطبري وجماعته الى بستانه ثم قبض عليهم ، وأنزل بهم عقوبة المفسدين في الأرض فقطع أيديهم وأرجلهم وصلبهم ، كما صادر أموالهم ، الأمر الذي حقق له تأييد أهل البلاد الذين التفوا حوله (١٢٩) .

(١٢٩) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٤٧٢ - ٤٧٣ . وقارن المكتبة الصقلية بخطوط كمبرج .

ج ١ ص ١٧٣ - حيث تحديد تاريخ ذلك بيوم الميلاد : الاثنين ٢٤ ديسمبر ٩٥٠م / ١٠ رجب ٣٣٩هـ .

الصراع ضد الروم :

وهنا ما به الروم بالجزيرة وأحضروا له مال الهدنة المتأخر عليهم منذ ثلاث سنوات (١٣٠) . وكان ذلك نديرا باستئناف الصراع بين الفاطميين والبيزنطيين من أجل الهيمنة على كلابريا ، واثبات الوجود في جنوب إيطاليا ، وكان الأمر قد انتهى إلى صالح البيزنطيين أثناء تلك الحروب الأهلية التي عرفتھا صقلية على أواخر أيام سالم بن راشد ، وحسلة خليل بن اسحق .

والظاهر أن البيزنطيين هم الذين بدأوا بالمبادرة بشقوية مركزهم في الجزيرة ، وذلك عندما أرسلوا في البحر جيشا كبيرا إلى صقلية بقيادة أحد البطارقة الذي الذي كان عليه أن ينسق العمل مع « السردغوس » : قائد كلابريا ، ونائب الملك في جنوب إيطاليا ، فكان على الحسن أمير صقلية أن يعرف الخليفة المنصور بالخال ، ويطلب منه إرسال المساعدة (١٣١) . وفي يوم الأربعاء ٢ يولييه ٩٥٢ م / ٥ صفر ٣٤١ هـ ، وهو التاريخ الذي تحدده الحوايات الصقلية حسب تاريخ العالم ، وصل الأسطول الفاطمي بقيادة الفتى فرج مولى المنصور ، إلى بلرم محملا بـ ٧ (سبعة) آلاف فائوس و ٣٥٠٠ (ثلاثة آلاف وخمسمائة) راجل ، سوى أفراد البحرية من قوات الخلافة . فقام الأمير حسن بن علي بحشد قواته من الصقليين والأفريقيين . وبعد عشرة أيام ، أي في يوم السبت ٢٠ يولييه / ١٥ صفر ، كان الحسن يسير بهم في تشكيل برى يعبري نحو مسينا ، من حيث عبر إلى مدينة ريوه (Reggio) ، أول مدن قلورية عبر المضيق ، التي وجدت خالية من أهلها فتركت . وساحت السرايا في أرض قلورية (كلابريا) ، ووصلت إلى مدينة جراجة (Gerace) وضربت عليهم الحصار الذي انتهى بالصلح على دفع ضريبة مالية أخذها الحسن عندما عرف بقدوم قوة رومية للنجدة ، وانصرف بعد أخذ رهائنهم ، ضمانا للوفاء بالمعهد ودفع الضريبة (١٣٢) . واتجه حسن بن علي نحو الروم الذين فروا أمامه من غير حرب لكي يعتصموا بمدينة باري (باره) ، فصار نحو مدينة قسانه

(١٣٠) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٤٧٢ - ٤٧٣ .

(١٣١) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٩٧٣ .

(١٣٢) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٤٧٤ ، وانظر أيضا ص ٤٩٣ - ٤٩٤ (سنة ٣٤٠ هـ) -

حيث اسم صاحب الأسطول فرج بدلا من ترج ، كما في حوايات صقلية العالمية ، المكتبة

الصقلية (كمبريدج) ، ج ١ ص ١٧٤ .

(Cassano) عبر نهر كراتي (Crati) ، حيث اتخذ مقابلها مركزا للقيادة على أن يدير منه العمليات في المنطقة لمدة شهر انتهى بالصلح نظير دفع المال الذي أخذه الحسن لكي يعود مع دخول الشتاء الى ميسيني ، حيث خشي الأسطول ، بينما عاد هو لقضاء الشتاء في بلرم (١٣٣) .

قائد كلابريا يستعين بالبراطور الروم :

وكان من الطبيعي أن يطلب قائد كلابريا المعونة من الباسيليوس . امبراطور القسطنطينية الذي سسير الأسطول بقيادة مكروجهارنيس (Macrojoharènes) يحمل جيشا بريا كبير العدد يقوده البطريق ملجان (مالكينوس : Malakenos) الذي كان عليه أن يضم اليه قوات قائد كلابريا ، السردغوس ، باسكاليوس (Paschalios) (١٣٤) . وعندما وصلت الى المنصور أخبار الحملة البيزنطية الى كلابريا أصدر أوامره الى حسن بن علي بالعودة الى هناك ، وهو ما فعله الحسن عندما تحسنت الأحوال الجوية ، اذ عبر المجاز (المضيق) وسار نحو جراجة حيث التقت قواته في الطريق بالقوات الرومية الكلابرية بقيادة ملجان (Malakenos) ، وذلك يوم عرفة (١٠ من ذي الحجة) ٣٤٠هـ / ٩ مائة ٩٥٢م ، وانتهت المعركة بانتصار رائع للمسلمين ، قتل فيه البطريق ملجان ، وهرب باسكاليوس (السردغوس) بصعوبة ، كما غنموا عددهم وسلاحهم ودوابهم (١٣٥) ، كما فتحوا حصنين في المنطقة ، هما : « رمتسة » و « لطره » واخذوا منها سبيا كثيرا ، أرسل الى أفريقية ، كما تقول الرواية الصقلية أن قائد الأسطول الرومي « أو محل » : « مكروجهارنيس » كان مكبلا بين الأسرى الذين أرسلوا الى أفريقية حيث صلب (١٣٦) .

(١٣٣) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٤٧٤ . المكتبة الصقلية . ج ١ ص ١٧٤ - حيث النص (في مائتة نوار) غير بدج) على انه شتى سنة ٤٦٠ (الجديدة ، من تاريخ العالم) التي تقابل ٩٥٣م . سنة ٣٤٦هـ - بينما توقفت هذه الأحداث عند ابن الأثير في سنتي ٣٣٩هـ و ٣٤٠هـ . وأنظر جاي (J. Gay) ، إيطاليا الجنوبية والامبراطورية البيزنطية ، بالفرنسية ، ص ٢١٣ .

(١٣٤) أنظر جاي (J. Gay) إيطاليا الجنوبية والامبراطورية البيزنطية ، بالفرنسية ، ص ٢١٣ .

(١٣٥) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٤٧٤ ، وأنظر أيضا ص ٤٩٤ (سنة ٣٤٠هـ) ، وقارن المكتبة الصقلية حيث التاريخ يقابل سنة ٩٥٤م / ٣٤٣هـ ج ١ ص ١٧٤ .

(١٣٦) المكتبة الصقلية ، ج ١ ص ٢٧٤ .

الحسن يقرض الهدنة على أقروم :

ومع بداية سنة ٣٤١ هـ / يونيه ٩٥٢ م كان الحسن يقصد جراحة مرة أخرى ، ويحصرها ، الأمر الذى دعا الامبراطور البيزنطى الى طلب الهدنة (١٣٧) ، عن طريق مبعوث من لدنه هو جان بلاطوس (Phatos) (١٣٨) .
وفعلا تم الاتفاق على عقد هدنة وافق البيزنطيون فيها على السماح للحسن ببناء جامع فى مدينة ريوة (Reggio) . فسار الحسن الى ريوة حيث بنى فى وسطها منجدا كبيرا له مئذنة فى أحد أركانه . وكان من شروط الاتفاقية أن يحترم الروم المسجد فلا يدخله نصراني ، ولا تمنع عمارته واقامة الصلاة فيه والأذان ، وان يكون ملجأ آمنا لأسارى المسلمين ، سواء كانوا مرتدين أو مقيمين على دينهم . وهو ما وفى به البيزنطيون . وان كان الى حين . ثم عاد الحسن بعساكره الى صقلية حيث أقام الى وفاة المنصور فى أواخر السنة (شوال ٣٤١ هـ / فبراير ٩٥٣ م) وخلافة المنصور (١٣٩) ، فسار عنها الى أفريقية بعد أن استخلف على صقلية ابنه أبا الحسين أحمد ، واتصل بالمعز (١٤٠) .

صقلية على عهد المعز حتى نقلته الى مصر :

بعد شودة الحسن بن عيسى بن أبى الحسين السكيتى الى أفريقية ، واستخلافه لابنه أبى الحسين أحمد على صقلية بمناسبة وفاة المنصور ، أقر المعز إمارة أحمد على صقلية خلفا لوالده ، فكانه وافق من حيث المبدأ ، على أن تكون إمارة الجزيرة وراثية فى بنى أبى الحسين الكلبيين . والظاهر أن صقلية عرفت فترة من الهدوء والسكينة خلال السنوات الأولى لولاية أحمد بن الحسن ، الأمر الذى استتبعه استقرار الأوضاع فى الأقاليم

(١٣٧) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٤٧٤ - حيث النص على أن قسطنطين ملك الروم أرسل اليه يطلب الهدنة ، وقارن ، المكتبة الصقلية ، مخطوط كميريدج ، ج ١ ص ١٧٤ - حيث يجعل الهدنة فى سنة ٦٤٦٢ / ٩٥٥ م / ٤٣ - ٣٤٤ م) ، ويعمل المفاوض الرومى الذى عقد الهدنة هو الراهب اخرويلس .

(١٣٨) جاي (J. Gay) ايشاليا الجنوبية والامبراطورية البيزنطية (بالفرنسية) ص ٢١٤ .

(١٣٧) أنظر ابن الأثير ، ج ٨ ص ٤٧٤ - حيث تضيف الرواية ان الحسن اشترط على الروم : ان أخرجوا حجرا من المسجد هدمت كنائسهم كلها بصقلية وأفريقية ، وان الروم وفرو هذه الشروط ذلة وصغارا .

(١٤٠) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٤٩٤ .

الواقعة تحت النفوذ الفاطمي في كلابريا وجنوب إيطاليا . ولا بأس ان يدون ذلك نتيجة طبيعية أيضا لما كان يلاقيه البيزنطيون من المضاعف مع الإمارات الإيطالية ، كدوقية نابولي ، الحليفة التقليدية للمسلمين « السارازان » ، وإمارة كابو (Capoue) اللومباردية ، وبثفت التي تحالفت ضد إمارتي سالرنو وآمالفي ، وكذلك من أجل قتال البيزنطيين ، الأمر الذي تطلب من القسطنطينية إرسال حملة في سنة ٣٤٦ هـ / ٩٥٦ م بقيادة ماريانوس أجيروس (Marianos Agyros) إلى إقليم الكامباني لتأكيد السلطة البيزنطية في ولاياتها الإيطالية هناك (١٤١) . هذا ، كما كان المعز في تلك السنوات الأولى من خلافته يعمل على توطيد سلطانه بالقضاء على بقايا الثوار والعصاة ، بخاصة في منطقة جبل أوراس والراب ، وكذلك في منطقة تاهرت التي كان النفوذ الأموي الأندلسي يتطلع دائما إلى الامتداد إليها .

حملات أحمد بن الحسن في إيطاليا :

ولكنه مع بداية سنة ٣٤٥ هـ / ٩٥٦ م كان المعز في موقف يسمح له بالتطلع إلى إعادة هيمنة دولته على أراضيها فيما وراء البحر في صقلية وكلابريا ، وهذا ما يؤكده قيام أول حملة على عهد أبي الحسين أحمد ، وإلى صقلية الأولى للخليفة المعز إلى بلاد الروم ، في جنوب إيطاليا . ففي نهاية سنة ٩٥٧ م / ٣٤٥ هـ ، أتى عمار بن علي بن أبي الحسين الكلابي (أخو حسن بن علي) بأسطول أفريقية ليشتمى في بلرم ، حتى يبدأ الصائفة في كلابريا مبكرا في ربيع سنة ٩٥٨ م / ٣٤٧ هـ . ولكن ضابطا بيزنطيا ، يرتبة قائد سفينة ، من الرتب الصغيرة هي « ابروطوقاربوس : Protarebos » اسمه باسيل ، نزل في ريوه (Reggio) وهمد المسجد ثم هاجم بجرأة ، الشواطئ الصقلية ، واستولى على مدينة ترميني (Termini) (١٤٢) . وفي ذات سنة ٣٤٧ هـ / ٩٥٨ م عبر أبو الحسين أحمد مضيق مسينا إلى كلابريا حيث التقى مع عمه عمار ، وسارا بقواتهما

(١٤١) لاي ، إيطاليا الجنوبية والإمبراطورية البيزنطية ، بالفرنسية ، ص ٢١٦ - ٢٢٧ .
- حيث الإشارة أيضا إلى أنه كان على القائد البيزنطي أن يوجه قواته بعد ذلك ضد العرب (السارازان) في صقلية .
(١٤٢) انظر المكتبة الصقلية ، مخطوط كمبريدج ، ج ١ ص ١٧٤ - ١٧٥ - حيث تضيف الرواية أنه هاجم ميناء مازر حيث هزم الأمير حسن (أبو الحسين أحمد) ، وقتل جماعة من المسلمين ، وفارن جاي (J. Gay) إيطاليا الجنوبية والإمبراطورية البيزنطية ، ص ٢١٧ .

المشتركة للقاء قائد كلابريا (السردغوس) مريان ، الذى هرب من أمامهما ، وان كان قد نجح فى أخذ مركب من مراكب المسلمين (١٤٣) . وفى السنة التالية ٣٤٨ هـ / ٩٥٩ م قامت الصائفة بميامها المعتادة فى نابريا ، ولكن الخط لم يكن موافيا فى رحلة العودة فى ٢٤ سبتمبر (سبتمبر) ١ / شعبان ٣٤٨ هـ ، حيث ثارت بها الرياح فأعطبت الأسطول ، الأمر الذى دعا الأمير أحمد الى انشاء أسطول آخر فى نفس السنة (١٤٤) . وفى سنة ٣٤٩ هـ / ٩٦٠ م التالية لا تذكر الحوادث الصقلية من الأعمال الحربية سوى أخذ المسلمين لواحد من وجهاء الروم هو « افريته » فى مقابل واحد من أعيان الافريقين أخذه الروم أسيرا هو « ابن يصلوس » ، الذى وجهوا به الى القسطنطينية . ولا بأس أن تكون تلك المعلومات تمهيدية للفداء الذى حدث فى السنة التالية (٣٥٠ هـ / ٩٦١ م) بين الروم والمسلمين فى صقلية حيث استعاد الروم « افريته » ، ولا بأس أن المسلمون قد استعادوا ، بدورهم « ابن يصلوس » ، وان لم تنص حولية كامبريدج الصقلية على ذلك (١٤٥) .

نشر المذهب الفاطمى فى صقلية :

وفى نفس تلك السنة كان على الأمير أحمد أن يستجيب لما كان يرثى اليه الحز من احياء المذهب الفاطمى ونشره فى بلاد الامبراطورية ، خاصة فى ذلك الوقت الذى كان يكتسب فيه رضا الناس عن طريق احتفالات الختان فى كل أرجاء الدولة ، وما صاحبها من العطايا والهبات لصغار الظهريين وأولياء أمورهم الكبار ، الأمر الذى كان لصقلية فيه نصيبها المميز من أحوال المال . هكذا كان على أمير صقلية ، بعد عقد الفداء مع الروم الذى يعنى هو الآخر سياسة خارجية مبنية على الأخرى على انهادنة وحسن الجوار ، أن يذهب الى الحضرة المعزية بصحبة أعيان الصقليين ، ليعلنوا دخولهم فى مذهب أمير المؤمنين الذى أحسن

(١٤٣) المكتبة الصقلية . ج ١ ص ١٧٥ .

(١٤٤) المكتبة الصقلية ، ج ١ ص ١٧٥ وقارن جوى ، ايطاليا الجنوبية والامبراطورية البيزنطية ، بالفرنسية ، ص ٢١٨ ، الذى لا يعرف ما ورد فى تلك الحولية الصقلية العربية بل يرجع الى المؤرخ اليونانى سكيلتزيس (Skylitzēs) الذى يشعح المأسفة خطأ فى السنة السابقة على أساس أنها شنت سفن عمار واحد .

(١٤٥) المكتبة الصقلية ، ج ١ ص ١٧٥ .

وفادتهم (١٤٦) .

وإذا كانت حولية تاريخ صقلية ، حسب تاريخ المسالم (مخطوط كمبريدج) تكاد تكون المصدر الوحيد لأخبار الصراع بين المسلمين الروم في صقلية وكلايريا وجنوب إيطاليا مع ما كان يتخلل ذلك الصراع من اتفاقات هدنة وعلاقات سلمية ، وذلك خلال السنوات العشر السابقة (٣٤١ هـ / ٩٥٢ م - ٣٥١ هـ / ٩٦٢ م) فإن الحوليات العربية الإسلامية ، وعلى رأسها حوليات ابن الأثير تعود إلى المشاركة في التعريف بأحوال مسلمي صقلية والروم بعده تلك الفجوة الطويلة التي اعترتها .

الاستيلاء على قلعة طبرمين :

ففي شهر ديسمبر ٩٦٢ م / ذي القعدة ٣٥١ هـ ، نجح الأمير أحمد ابن الحسن في الاستيلاء على قلعة « طبرمين » الجديدة ، بعد ٧٠ (سبعين) سنة من استيلاء الأغالبة على مدينة طبرمين العتيقة ، سنة ٢٨٩ هـ / ٩٢ م ، حيث امتنع الامبراطور وقتئذ من لبس التاج في القسطنطينية لمدة سبعة أيام حداذاً ، وهو يقول : « لا يلبس التاج محزون » (١٤٧) . وكان الأمير أحمد قد جيش عساكره من الصقليين والأفريقيين ، وضرب الحصار على القلعة المنبئة في مايو ٩٦٢ م / ربيع الثاني ٣٥١ هـ ، وقطع الماء عنها حتى اضطر العطش أهلها ، خلال الحصر الذي استمر سبعة أشهر ونصف الشهر ، إلى طلب الصلح على أن يكونوا رقيقاً للمسلمين ، وتكون أموالهم أيضاً ملكاً (فيئا) لهم ، نظير الحفاظ على أرواحهم . وهكذا تحولت طبرمين الجديدة التي سكنها المسلمون ، إلى المعزية ، تيمناً بلقب الخليفة (١٤٨) .

(١٤٦) المكتبة الصقلية ، ج ١ ص ١٧٥ - حيث النص على أن أمير صقلية هو حسن بدلاً من أبي الحسن أحمد .

(١٤٧) انظر للمؤلف تاريخ المغرب العربي ج ٢ ص ٢٨١ - ٢٨٢ .

(١٤٨) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٥٤٣ ، المكتبة الصقلية ج ١ ص ١٧٥ ، وانظر جاي (J. Gay) إيطاليا الجنوبية والامبراطورية البيزنطية ، ص ٢٩٠ - حيث النص على أن هناك وإلى صقلية كان انخضاع المنطقة الجبلية جنوب ميسني وتحويل المدن المسيحية التي تدفع الجزية إلى ملة خاضعة ، والعمل على نشر الإسلام في كل البلاد عن طريق زرع مستعمرات إسلامية . كما حدث في طبرمين التي صودرت أملاك المسيحيين فيها ، وحول اسمها إلى المعزية .

فتح رمطة : انتصارات لامعة على الروم :

وبعد أخذ طبرمين سحر الأمير أحمد ابن عمه حسين بن تمار على رأس قواته في رجب سنة ٣٥١ هـ / أغسطس ٩٦٢ م ، الى مدينة رمطة التي ضرب عليها الحصار . ولكن موقف المحاصرين في رمطة اختلف تماما عن موقف أندلس الذين استسلموا في طبرمين امام غائلة العدائس ، حيث قدر لرمطة أن تصمد الى سنة ٣٥٣ هـ / ٩٦٤ م .

فلقد راسل الرمطيون الباسيليوس (الامبراطور) تففور فوكاس ، فأرسل اليهم من القسطنطينية في البحر ، جيشا عظيما ، يعتبر أعظم ما نزل بالجزيرة من عسكر الروم ، اذ جاوز الأربعين ألف مقاتل (١٤٩) ، وضم اليهم الأرمن وجنود الخسومات معاونين ، من الروس والبولصيين (Pauliciens) والتراقيين . وكانت القيادة للخصي ، البطريق تقيتناس (Nicetas) ، والى جانبه مانويل ، ابن أخى الامبراطور ، قائدا لفرقة الخيالة (١٥٠) . وهنا سار الأمير أحمد بن الحسن بنفسه الى الخليفة المعز (في شهر أغسطس / شعبان) (١٥١) ، يطلب منه العساكر ، كما شرع هو في اصلاح الأسطول ، وبناء المراكب الجديدة في دار الصناعة . وحشد المعز الرجال ومعظمهم من البربر ، وسيرهم الى الأمير أحمد بقيادة والده الحسن بن علي ، فكان وصولهم الى صقلية في رمضان ٣٥٢ هـ / سبتمبر ٩٦٣ م . وكان على الحسن أن يشتى برجاله في بلرم ، ولكنه لم يقدر له الحياة الى أن تبدأ الصائفة ، فمات بعد شهرين في نوفمبر / ذي القعدة من نفس السنة (١٥٢) ، فلم يكن له حظ المشاركة في انتصارات رمطة البرية ووقعة المجاز البحرية . أما الروم فكان وصولهم على المراكب في شهر شوال التالي / أكتوبر ٩٦٣ م ، قرب مسيني ، من حيث بدأوا المسيرة نحو رمطة . وهنا قرر حسن بن عمار أن يقسم رجاله الى قسمين ، أحدهما يبقى على حصار رمطة لمنع قواتها من الخروج والاتصال بالروم حتى لا ينحصر المسلمون بينهم ، على أن يسرع هو بالقسم الآخر للقاء البيزنطيين قبل أن يصلوا الى رمطة .

(١٤٩) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٥٥٦ .

(١٥٠) جاي ، إيطاليا الجنوبية والامبراطورية البيزنطية ، بالفرنسية ، ص ٢٩٠ .

(١٥١) المكتبة الصقلية ، ج ١ ص ١٧٦ .

(١٥٢) المكتبة الصقلية ، ج ١ ص ١٧٦ .

وكانت ملحمة عظيمة بين المسلمين والروم أبلى فيها الطرفان أشد البلاء ، سواء أمام رمطة أم في مواجهة جيش الإسطنطينيه الذى كادت تكون له الغلبة بفضل الكثرة ، وحسن التسليح . وأخيرا تم يده ابن عمار له خلاصا الا فى الشخص من قواد الجيش العظام ، وعلى رأسهم فائدهم مانويل ، صاحب الحيلة الذى كان يقود بنفسه الهجمات المؤثرة فى المسلمين . فكان هدفا واضحا لابن عمار ورجاله الذين تنبهوا الى عدم تأثير سلاحهم فى ثيابه القوية الثقيلة ، فركزوا الرمي على فرسه حتى قتلوه ، وبذلك تمكنوا من مانويل فقتلوه ، كما قتلوا جماعة من قواده المساعدين . وعندئذ انهزم الروم أقبح هزيمة « الى حد ان الجماعة الرئيسية منهم راحت لدشستهم ضحية السقوط فى جرف عظيم صار مقبرة جماعية لهم حيث قتلوا فيه بعضهم بعضا . وتتبع المسلمون المهزمين فى كل مكان ، وهم يقتلون ويسبون حتى « غنموا من السلاح والخيل ، وضموف الأموال ما لا يحصى » (١٥٣) . وكان القائد البطريق نيقيتاس بين الأسرى الذين بعث بهم الى أفريقية (١٥٤) .

وكان من الطبيعي أن تسقط رمطة اثر ذلك ، بعد أن ضعفت قلوب رجالها مع قلة الأوقات عندهم ، الأمر الذى دعاهم الى اخراج من فى المدينة من الضعفاء ، فلم يبق فيها الا المقاتلة . ومع ذلك فلم تؤخذ المدينة الشديدة المراسى الا ليلا ، عندما فاجأها رجال ابن عمار الذين تقدموا تحت جنح الظلام وصعدوا على أسوارها بالسلالم ، ليأخذوها عنوة ويستبيحوا لأنفسهم ما كان فيها من رجال وسبى وأموال .

وكما حدث فى طبرمين تركت جماعة من المسلمين ليسكنوا فى رمطة من أجل اعمارها ، حتى لا يعود اليها النصارى والروم ، كما كان يحدث من قبل ، الأمر الذى اعتبره آمارى ، فى مسلمى صقلية وتابعه فى ذلك جاي ، فى ايطاليا والامبراطورية البيزنطية ، محاولة من جانب أحمد بن الحسين بن على بن ابي الحسين الكلبى ، أمير صقلية وقتئذ ، لازاحة البقية الباقية من المسيحيين من الجزيرة ، وزرع مستعمرات اسلامية مكانها . فى سبيل نشر الاسلام فى كل أرجاء صقلية . وهو الأمر المقبول بالنسبة لسياسة الخليفة المعز الدينية التى لم تكن تهدف الى نشر الاسلام بشكل عام فى أنحاء الدولة ، بل وعلى المذهب الفاطمى ، مذهب الدولة الرسمى ،

(١٥٣) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٥٥٧ .

(١٥٤) جاي ، ايطاليا الجنوبية والامبراطورية البيزنطية ، ص ٢٩١ .

وهر ما حاوله في صقلية الأمير أحمد ، مما سبقت الإشارة اليه ، استنادا
الى حوليات صقلية حسب تاريخ العالم .

وقعة المجاز البحرية ٣٥٤هـ / ٩٦٥م :

هذا ، كما حقق المسلمون نصرا بحريا رائعا على المهزمين من الروم
في البحر ، صار بمثابة درة ثانية ترصع اكايسل اغار الذي تجمل به
الامير احمد في رمطة ، والذي رفع من شأن أسرة بنى الحسن بن على
الصقليين بين كل حكام الطوائف الذين عرفتهم دولة الاسلام في حوض
البحر المتوسط بل وفي تاريخ الاسلام البحرى .

فلقد تجمع الناجون من جيش مانويل ، وأخذوا معهم فى مراكبهم
من وجدوه من روم صقلية وجزيرة ريوة المواجهة لسينى ، كنوع من التحصن
فى البحر بعيدا عن متناول أيدي المسلمين فى البر . كما يتص
ابن الأثير (١٥٥) ، انتظارا لما يقرره قوادهم بشأن الرحيل أو معاودة الكرة
مع المسلمين .

وهنا وجد الأمير أحمد الا مجال للانتظار أو التوقع ، فاعد عساكره
ونزل بهم فى المراكب هو الآخر ، وزحف لقتال الروم فى الماء . ودارت
معركة بحرية شديدة اظهر خلالها المسلمون الصقليون كفائتهم العالية فى
الحرب البحرية ، اذ نزلت جماعات الغطاسين منهم لنقب مراكب الروم التى
غرق الكثير منها ، كما قتل الكثيرون من رجالها . وعندئذ وجد الروم
الا مناص لهم من الانسحاب سريعا فى مراكبهم ، وهم لا يملكون على شىء ،
وبذلك تمت عليهم الهزيمة البحرية التى تعرف فى الحوليات الصقلية العربية
باسم « وقعة المجاز » .

وهكذا كان على المدن الرومية فى صقلية أن تطلب الهدنة من جديد ،
فى سنة ٣٥٤هـ / ٩٦٥م ، فعقدت لهم نظير دفع الأموال المقررة (١٥٦) .

(١٥٥) الكامل ، ج ٨ ص ٥٥٨ - حيث النص : « وركبوا مراكبهم يحفظون نفوسهم » ،
وقارن جاي ، ابطالبا الجنوبية والامبراطورية البيزنطية ، ص ٢٩٠ - حيث الاشادة الى أن
الأسطول الرومى لجأ الى ريوة ولكن العرب تبعوه وشتوه .

(١٥٦) انظر ابن الأثير ، ج ٨ ص ٥٥٨ ، وقارن المكتبة الصقلية (مخطوط كمبريدج)
ج ١ ص ١٧٦ - حيث ينتهى المخطوط بنزول مانويل (بجيشه) فى يوم الاثنين من شهر
أكتوبر سنة ٦٤٧٣ التى تعادل ٩٦٥ م/ذى الحجة ٣٥٤ هـ .

تماماً عن سواحل كلادريا وجنوب إيطاليا فقد أضحت منذ ذلك الحين هدفاً للغارات جبايات عربية كانت ترغم المدن على دفع الفدية الثقيلة (١٥٧) .

محاولة اعفاء بنى الحسن الكلبيين من حكم صقلية :

ومما يؤسف له انه بانقطاع الحوليات الصقلية المنتظمة حسب تاريخ اعالم ، سنة ٩٦٤م / ٣٥٤هـ ، تنقطع أخبار صقلية لمدة خمس سنوات ، فلا تظهر في حوليات ابن الأثير ، أكثر الحوليات الصقلية انتظاماً بعد ، وأكثر توثيقاً ، الا في سنة ٣٥٩هـ / ٩٦٩ - ٢٧٠م ، وذلك بمناسبة الاضطراب الذي ألم بالجزيرة ، عندما فكر الخليفة المعز ، وهو يعد العدة للرحيل الى مصر ، في اعفاء بنى الحسن بن على الكلبيين من حكم صقلية ، خشية استقلالهم بها اذا ما خلا لهم الجو يعد رحيله ، تماماً كما فعل مع جعفر بن على بن الأندلسي ، صاحب المسيلة عندما خاف من طموحه فأخذه ، وقدم عليه زيرو بن متاد الصنهاجي ، والدبلكين الذي آلت اليه نيابة إفريقية بعد رحيله - فاكتمل عداوة ابن الأندلسي الذي انضم الى صفوف الاعضاء المتحالفين مع محمد الرحمن الناصر ، خليفة الأندلس الأموي (انظر فيما يأتي ص ٢٨٠) .

والهمم أنه في سنة ٣٥٩هـ / ١٩٧٠م ، عزل المعز أبا الحسن أحمد بن الحسن بعد ١٦ (ستة عشر) عاماً من حكم الجزيرة ، وأرسل يستدعيه من صقلية الى إفريقية مع كل أعضاء الأسرة الكلبية ، ومواليهم ، وخدمهم ، ومن له صلة بهم (١٥٨) . ولكي يخفف من وقع الحدث على بنى أبي الحسن وأتباعهم الذين خدموا الأسرة الفاطمية في إفريقية ، وقت الشدائد والمحن والذين رفعوا من شأن المعز نفسه حربياً وديبلوماسياً في إيطاليا وصقلية ، بالنسبة للمختصوم البيزنطيين ، حتى على عهد ياققور فوكاس ، المحارب الجسور ، الذي طلب الهدنة ودفع الفدية (١٥٩) ، والذي

(١٥٧) جاي (J. Gay) إيطاليا الجنوبية ، ص ٢٩١ .

(١٥٨) أحمد (عزير) صقلية الإسلامية ، بالانجليزية ، ص ٣١ .

(١٥٩) بينما كانت قواته تنتزع المدن الإسلامية في شمال الشام والجزيرة ، وتغلب على المسلمين في كريت (اقريطش) حتى قال فيه ابن الأثير ، الذي يظهر متشاكساً في تقييمه لشاغل المسلمين التاريخة الكبرى - كما يفعل بناتبة غزو جنكيز خان للمشرق الإسلامي - وان كان هنا بناتبة مقتل ياققور بتدبير من أمراته زوجة الملك السابق وأم غياله : « وهما » المسلمون عبدة عظيمة ولم يشكوا في أنه يملك جميع الشام ومصر ، والجزيرة ، وديار بكر . نخلو الجميع من مانع » - الكامل ج ٨ ص ٦٠٦ - ٦٠٧ . أحداث سنة ٣٥٩هـ .

دخل سفيره عندما رأى المعز رأى المنصورية ، فتنصوره الهيا يكاد يرقى قو السماء (١٦٠) ، لكن ذلك رأى المعز أن يكون يدبيل الأمير أحمد هو أحد موالى أسرة بني الحسن الكلبيين ، وهو يعيش مولى الحسن نفسه (١٦١) ، لعل فو ذلك عزاء لهم .

والذي يظهر من رواية ابن الأثير أن الأمير يعيش المولى حاول أن ينظم العمل في دار الصناعة (صناعة السفن) ببلرم ، حرفة أهل الجزيرة المحاربين البحريين بالامتياز ، فيجمع القبائل للعمل هناك ، ولكن الأمر انتهى بالنزاع بين موالى كتامة الذين كانوا خبراء في صناعة المراكب ، تبعاً للأقدمية على الأقل ، حسبما نظن ، وبين غيرهم من موالى القبائل الأخرى ، فتقاتلوا فيما بينهم . ولما كانت نهاية القتال غير عادلة ، إذ كانت خسائر موالى الكتامين أكثر من قتل منافسيهم موالى أهل ناحية سرقوسة ، فإن الشر استشرى في الجزيرة وتمكنت العداوة بين الكتامين - عصبية الدولة الرئيسية - وبين منافسيهم . وترتب على عجز يعيش عن إصلاح ذات البين بين الخصوم ، أن انتشر الفساد ، ووقع الظلم بالعامه من الناس ، وخاصة بأهل المراعى والنصارى من سكان القلاع ، أصحاب العهد والأمان .

أقراء بني الحسن الكلبيين من جديد في ولاية صقلية :

وهكذا كان على المعز أن يعيد النظر في أمر تولية يعيش اماره صقلية ، فعزله وعين مكانه أبا القاسم بن الحسن بن علي بن أبي الحسين ، ولكن بالنيابة عن أخيه أحمد (١٦٢) . وكان ولاية هذا الأخير ، لم تنقطع ، لا باستعمال يعيش مولى الأسرة الكلبيه ولا باستعمال أبي القاسم ، حيث يفهم من وظيفة العامل أنه صاحب الخراج أو الجباية ، الى جانب الأمير صاحب الحرب والادارة . وأتى هذا التغيير المنطقي بما كان يرجى منه ، إذ فرح أهل صقلية بوصول أبي القاسم بن الحسن اليهم ، وزال الشر من بينهم واتفقوا على طاعته (١٦٣) .

(١٦٠) على عكس ما رآه فيها بعد في القاهرة ، ملكاً من الملوك - انماط الخلفاء - من

(١٦١) انظر ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦١٠ ، وانظر أحمد (عزير) صقلية الاسلامة بالانجليزية ، ص ٣١ .

(١٦٢) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦١٠ .

(١٦٣) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦١٠ .

وبعد وفاة الأمير أحمد بعد أشهر قليلة ، أقر المعز أبا القاسم في
الولاية ، وبذلك يكون المعز اعترف بالأمر الواقع الذي يعنى الحكم الوزائى
لصقلية فى أسرة بنى أبى الحسين الكلبيين (١٦٤) .

أحوال الأقاليم الشرقية فى كل من طرابلس وبرقة واجدانية قبل رحيل المعز الى مصر :

باستقرار الأمور فى صقلية داخليا وخارجيا يكون المعز قد اطمأن
على أملاكه فيما وراء البحار فى صقلية وكلايريا ، كما سبق له الاطمئنان
على أراضيه المغربية بمسد سلطانه على المغرب الأقصى ، أو بلاد الغرب ،
حسب المصطلح الأندلسى ، باستثناء سبتة على المجاز الى الأندلس ، كما
كانت أحوال الأراضى الشرقية فى طرابلس وبرقة مطمئنة تماما منذ الثورة
الزناتية التى كانت لها آثارها الايجابية هناك ، حيث ازدهرت كل من
الولايتين اللتين كانتا ملجأ لمن آذتهم الحرب الزناتية فى أفريقية ، والذين
قاموا بنشاطاتهم العمرانية هناك ، كما اعتمدت الدولة على موانئها ،
وخاصة طرابلس التى مثلت عمقا للدولة لا تطله أيدي الثوار فى أفريقية .

والحقيقة أن الأقاليم الشرقية فى طرابلس وبرقة كانت دائما موضع
اهتمام الأئمة طالما كانت أميتهم هى فتح مصر . وهكذا اهتم القائم
- قبل الثورة الزناتية من غير شك - بمدينة اجدانية فجعلها بجامع حسن
البناء كان له مثذنة مشمعة بديعة (الشكل ١٦٥) . وبعد الاضطراب الذى
عرفته منطقة طرابلس سنة ٣٢٢هـ / ٩٣٤م عند وفاة المهدي حيث كانت
ثورة ابن طالوت القرشي (انظر فيما سبق ص ١٦٥) لا تذكر الحوليات
التاريخية - شيئا خلال حكم القائم والمنصور بخلاف أن طرابلس كانت
أقرب ماوى للاجئين الفارين من جحيم الثورة الزناتية ، وخاصة من أهل
المهدية ، كما حدث سنة ٣٣٣هـ / ٩٤٤ - ٩٤٥م (انظر فيما سبق
ص ١٨٢) . وعلى عهد المعز كانت كل من طرابلس وبرقة موضع اهتمام
المسؤولين الأمر الذى ترتب عليه تمتعهما بالرفه والرخاء . وفى سنة ٣٤٥هـ
/ ٩٥٥ - ٩٥٦م ، قام والى طرابلس أبو الفتح زيان الصقلوى بتجديد سور
المدينة (١٦٦) . كما ازدهرت طرابلس نتيجة لتوثق علاقاتها بصقلية ، منذ

(١٦٤) انظر احمد (عزيز) صقلية الاسلامية (بالانجليزية) ، ص ٣١ .

(١٦٥) الاستبصار . ص ١٢٤ .

(١٦٦) الفيحاني ، الرحلة . ص ١٧٢ .

الثورة الزناتية حتى أصبحت على عهد المعز منافسة لسوسية والمهدية ، حيث آلت ولايتها الى نصير الحازن ، أمين الأموال والسلاح ، الذي كان يستخلفه المعز بالمهدية (١٦٧) .

طرابلس قاعدة للأسطول الصقلي :

وهنا يمدنا كتاب سيرة الأستاذ جوذر بمعلومات مفيدة عما كان يقوم به الطرابلسيون من أصحاب مراكب الشحن الكبيرة من نقل ما كان يرسل من الشعير الى صقلية ، معونة للغزاة (١٦٨) . كما نفهم أيضا ان طرابلس كانت على اواخر أيام المعز قاعدة لأسطول صقلية ، حيث كان يأتي اليها بنو الحسن ولاة الجزيرة في المراكب بأموال صقلية ومغانم الروم . فينفق منها نصير الخادم الوالي على صيانة الأسطول ورواتب عسكره ويرسل بذلك بيانا الى الخليفة ، وبما تبقى لديه من المال . ولا شك أن أموال طرابلس هذه كانت من الكثرة بحيث أن المعز كان يرجو أن تعوضه عن بعض نفقات حملة جوهر الضخمة الى مصر (١٦٩) .

برقة حاضرة مزدهرة :

أما برقة فكانت لها أهميتها الاستراتيجية الكبيرة ، برقا وبحريا ، بالنسبة لفتح مصر بخاصة . ففي سنة ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م عندما ثارت قضيه كريت (اقريطش) التي كان يفتحها نفقور فوكاس على المسلمين ، كان المعز يخطط لاتخاذ بعض مراسيها (طبرقة ٩) قاعدة لرسو الأسطولين المصري والفاطمي ، تأهبا لاحتمال اتخاذ اجراءات مضادة لأعمال البيزنطيين في كريت (أنظر ما سبق ص ٢٤١) . ومنذ سنة ٣٥٥ هـ / ٩٦٦ م كان العمل هناك يقوم على قدم وساق في بناء المنازل والقصور ، كما على طول الطريق من أفريقية الى حدود مصر ، تمهيدا لمسير حملة الفتح (أنظر فيما سبق ، ص ٢٥٢) .

(١٦٧) سيرة جوذر ، ص ٨٨ .

(١٦٨) سيرة جوذر ، ص ٨٧ - ٨٨ وانظر للمؤلف موقف ليبيا فيما بين قيام الفاطميين في المغرب ونقلهم الى مصر - مجلة كلية الآداب بالجامعة الليبية ، المجلد ١ - ١٩٥٨ ، ص ٢٣٤ . - حيث شكوى متولى البحر من ابن رستم الاطرابلسي من حيث خيانتة في ذلك التمهيد .

(١٦٩) سيرة جوذر ، ص ١٧١ ، وانظر للمؤلف موقف ليبيا - مجلة كلية الآداب بالجامعة الليبية ، مجلد ١ ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .

هذا ، كما يفهم أن برقة كانت تعيش وقتئذ فترة من الازدهار والرفاهية . فهذا ما يستشف من كثرة اسوال وايها افلح ابن ناشب وعريض سخائه . فهو عندما يطلب منه جودر عشرة جمال يضاعف الهدية الى عشرين جملا . وهو في سبيل الحفاظ على وجاهته - يعرض على المعز أن يعفيه من الترجل لجوهر وتقبيل يده (أو حافر فرسه) عندما يمر به في طريقه الى مصر ، نظير تقديمه ١٠٠ (مائة) ألف دينار (١٧٠) .

وبذلك تكون الاقاليم الشرقية من الدولة الفاطمية في دورها المغربي . قد تمتعت بالرخاء نتيجة للاستقرار الذي عرفته زمن الثورة الزناتية ، ولاهتمام المعز بعد ذلك بفتح مصر ، وتوجيه سياسته تبعاً لذلك وجهة شرقية .

الرحيل الى مصر - ٢١ شوال ٣٦١ هـ / ٦ أغسطس ٩٧٢ م :

الاعداد للموكب الخلافي :

هكذا كانت الظروف مواتية لكي تدق ساعة الرحيل الى مصر ، في أعقاب جوهر ، بعد ٣ (ثلاث) سنوات كانت لازمة للتمتت من استقرار فتح مصر ، وضمان تهدئة الأوضاع في أفريقية وبلاد المغرب . ففي يوم ٢١ شوال سنة ٣٦١ هـ / ٦ أغسطس ٩٧٢ م خرج المعز من المنصورة الى قرية سردانية القرية من القديوان (١٧١) ، والتي اتخذها مقراً مؤقتاً للاعداد للموكب الخلافي في تحركه نحو المشرق ، وانجاز ما كان قد تبقى من الأعمال السياسية والإدارية الخاصة بأوضاع المغرب وتراثيته . ففي سردانية لحق به رجال حاشيته وعماله ، وأهل بيته وجميع ما كان في قصره من أمتعة وأموال . وفيما يتعلق بالأموال تقول الرواية انه كان لدى المعز من الدنانير المكدسة بعد ما أنفق على حملة جوهر مما بلغت قيمته ٢٤ مليون دينار (أنظر فيما سبق ، ص ٢٥٠) ، ما سمح بسبكها وجعلها كهيئة الطواحين ، التي حملت كل طاحونتين منها على جمل (١٧٢) .

(١٧٠) سيرة جودر ، ص ٩٥ ، ابن خلكان ، ترجمة جوهر ، ج ١ ص ٣٧٧ . وانظر المؤلف ، مرقف ليبيا - مجلة كلية الآداب ، الجامعة الليبية ، المجلد ١ ، ص ٢٣٥ - ٢٣٦ .

(١٧١) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦٢٠ ، ابن خلكان ، ترجمة المعز ، انماط الحفا ، نشر الشيال ، ص ١٤٤ .

(١٧٢) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦٢٠ ، وللمقارنة مع ما أنفق على حرب أبي يزيد ، انظر ص ٢١ - حيث بلغت أكثر من ١٢ مليون دينار .

ترتيب شئون الحكم في المغرب وصقلية :

أفريقية :

والحقيقة أنه رغم ما تقوله الرواية من أن المعز ، خلال إقامته تلك في سردانية ، اتخذ القرارات الخاصة بترتيب شئون الحكم والإدارة في بلاد المغرب وصقلية ، فالمعروف أنه كان قد حزم أمره بالنسبة لذلك قبل الرحيل بوقت كاف ، ولا بأس أن يكون ذلك قد تم قبل ذلك بسنوات من حيث الأمر الواقع على الأقل ، أن لم يكن من إنشائه القانونية — وهو الأمر المنطقي ، خاصة وأن المعز لم ير أفراد من يفوضه للنيابة عنه في أفريقية بالسلطة وحده في كل البلاد ، بل ولا أن تكون له كل السلطات ، فهو يحيطه بعدد من الولاة في أطراف الدولة ، كما يضع إلى جانبه عددا من العمال في حضرة القيروان ، مركز الحكومة . فزيري بن مناد وابنه بلكين يوسف كانا قد قدما في الخطوة لدى المعز على صاحب المسيلة جعفر بن علي ابن الأندلسي ، الأمر الذي أدى إلى غضب هذا الأخير ، بل وإلى انضمامه إلى صف أمراء الزناتية ، حلفاء عبد الرحمن الناصر ، الذين تألبوا على زيري بن مناد وقتلوه ، الأمر الذي افتخر به جعفر ، تقريبا إلى الناصر (انظر فيما سبق ، ص ٢٥٤-٢٥٥) . ترتب على ذلك أن عهد المعز بولاية أفريقية إلى بلكين أميرا ، وإلى جانبه القاضي ، وصاحب الخراج وصاحب الخبز (البريد) عمالا تابعين للخلافة (١٧٣) .

ولا بأس أن الأموال هي التي كانت تهم المعز أكثر من غيرها ، وذلك أنه جعل لها ٣ (ثلاثة) عمال إلى جانب يوسف بلكين ، أولهم : زيادة الله

(١٧٣) انظر ابن خلكان ، ترجمة المعز ، انماط الحنفا ، ص ١٤٤ . حيث الإشارة إلى أن جعفر بن علي طلب ما يشبه الاستقلال عن الخلافة نظرا « لبعد ما بسين مصر والمغرب » ، الأمر الذي أغضب المعز ، بينما تحفظ بلكين عندما عرض عليه المعز الاستخلاف ، وافته الذي طلب أن يكون عمال الخلافة إلى جانبه وأن يقوم هو بين أيديهم لمواجهة المعصاة . ومن الواضح أن الرواية موضوعة فيما بعد ، وأنها تدبر عن الحالة الراضنة وقتذاك ، مما يعبر عن الضمانات التي اتخذها المعز لبقاء أفريقية تحت سلطانه . وعن مشكلة النيابة في أفريقية هذه ، انظر محمد البحار ، حول نيابة محتملة للأمير الفاطمي عبد الله بن المعز في أفريقية في القرن الرابع م ، ١٠/م ، دفاتر (كراويس) تونس ، المجلد ٢٢ ، المجلد ١ ، ٢٠ لسنة ١٩٧٤ ، بالفرنسية ، ص ٩ وما بعدها . حيث فكر المعز — بعد التفكير في جعفر بن علي ، وجوزر ، وبلقين — في أنابة ابنه عبد الله ، والسند لذلك : قصيدة لابن مانيء يقول فيها :
لما سمعت بعبد الله عروته
أعزرت منه مصون الأمر لم يدل

ابن القديم ، على الجباية ، وهو رئيسهم كما يستشف من النص ، والآخرون على الحراج ، وهما عبد الجبار الخراساني ، وحسين بن خلف الموصلي (١٧٤) .
وإذا كانت الرواية تنص على أن المعز أمرهم بالانقياد ليوسف بن زيري ،

فهذا لا يمنع من تبعيتهم أو تبعية رئيسهم ، ابن القديم على الأقل ، المباشرة للمعز . فهذا ما يفهم من سياق الرواية التي تنص على أن المعز كان يعرف سلفا أن الأمر سينتهي باستقلال بلكين ، وهي الفكرة الرئيسية التي جعلته لا يفوض بلكين في حكم كل أملاكه في الشمال الأفريقي ، وما وراء البحار في صقلية وجنوب إيطاليا .

طرابلس :

فلقد أخرج المعز طرابلس وما يتبعها ، من : سرت واجداية ، من إمارة بلكين ، وكون منها إمارة جديدة عهد بها إلى أحد قواد كتامة هو : عبد الله بن يخلف الذي كان أئيرا لديه (١٧٥) ، الأمر الذي كان يعني استرضاء قبائل كتامة ، أنصار الدولة السابقين الذين اعتر بهم المعز وعمل على إعادة الثقة فيهم ، عن طريق غفران ما كانوا قد وقعوا فيه من الزلل أيام المهدي ، وأيام القائم عندما انضم بعضهم إلى الأعداء ، على أساس أنه خطأ في الاجتهاد ، قد لا يعاقب المرء عليه إن لم يثاب (انظر المجالس والمسائرات ، ص ٢٤٥) .

وإذا كانت الرواية لا تضع ولاية برقة ضمن الولاية الكتامية الشرقية ، التي تكاد تعادل البلاد اليبلية الحالية ، باستثناء برقة ، فإن ذلك يعني أن المعز أخذ بالتنظيم الإداري القديم ، من حيث كانت برقة من أعمال مصر .

صقلية :

وكذلك فعل المعز بصقلية التي كان قد أقر فيها أسرة بني أبي الحسين الكلبيين ، منذ إعادة أبي القاسم بن الحسن ، نائبا عن أخيه أحمد ، سنة ٣٥٩ هـ / ٩٧٠ م ، فأعاد تثبيتته مستمرا في ولايته إلى سنة ٣٧٢ هـ /

(١٧٤) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦٢٠ - ٦٢١ ، وقارن المقرئ ، اتحاد المفاتيح ، ص ١٤٢ .

(١٧٥) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦٢٠ . وانظر الطاهر أحمد الزاوي ، تاريخ الفتح العربي

في ليبيا ، ص ١٧٣ .

٩٨٢م - بعد وفاة أحمد قبل قليل من سير المعز الى مصر (١٧٦) .

وبذلك يكون المعز قد أقام نوعاً من التوازن بين نوابه في أملاكه المغربية ، بتقسيمها الى ثلاث ولايات منفصلة ، في إفريقية وطرابلس ، وصقلية . ورغم ذلك فقد كان يلكين هو الممثل الحقيقي للدولة الفاطمية في أملاكها الغربية ، وهذا ما يفسر كيف ضمت ولاية طرابلس الكتامة اليه بعد فترة وجيزة . أما ولاية بنى الحسن الكلبيين في صقلية فقد واصلت أمجادها في الجزيرة ولكن الى حين .

الرحلة الى مصر :

والهمم أنه بعد أن اطمأن المعز الى ترتيب أمور دولته في المغرب ، واستكمل تجهيزاته الأمر الذى تطلب إقامة شهرين في سردانية ، خرج يوم ٢٠ من ذي الحجة ٣٦١هـ / ٣ أكتوبر ٩٧٢م (١٧٧) متجها نحو مصر في موكبه الفخم ، تتقدمه توابيت آبائه ، كناية عن الرحيل دون التفكير في العودة ، ويحيط به حراسه ورجال حاشيته ، ويصحبه يوسف يلكين حتى قابس ، حيث أدى تحية الوداع بما يليق بسلطان الامام من التعظيم ، من تقبيل اليد والرجل على ما نطق ، ان لم يكن تقبيل حافر القوس كذلك .

اصول الحكم في إفريقية ، وآخر وصايا المعز :

وكان آخر ما أوصى به المعز نائبه الصنهاجى يلكين ، هو : ألا يرفع السيف عن البربر ولا يرفع الجباية عن أهل البادية وأن يفعل مع أهل الحاضرة خيراً ، ولا يؤل أحداً من أخوته أو يبنى عمه (١٧٨) . كما أنزله

(١٧٦) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦٢٠ - حيث النص تجاوزاً على أن الولاية كانت للحسن بن علي أول أفراد الأسرة الذى كان قد مات مجاهداً أثناء ولاية ابنه أحمد (سنة ٣٥٤ هـ / ٩٦٥ م) (ما سبق ص ٢٧٢) . وانظر حسن إبراهيم وطه شرف ، المعز لدين الله ، ص ٦٣ ، وانظر للزلف موقف ليبيا ٠٠٠ ، مجلة كلية الآداب ، الجامعة الليبية ، المجلد ١ ص ٢٣٨ ، حيث الاستشارة الى مزيد من المعلومات في ميشيل امارى ، تاريخ المسلمين في صقلية Storia dei Musulmanidi Sicilia ج ٢ ص ٢٢٧ ، ٢٧٥ - عن بداية الحسن بن علي ، ص ٢٧٩ - عن أسرة بنى الحسن في صقلية .

(١٧٧) انظر انعام الحفا ، ص ١٤٤ ، وقارن ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦٢١ - حيث يقول ان الإقامة في سردانية استغرقت ٤ (أربعة) أشهر ولكن دون تحديد التواريخ .

(١٧٨) التويرى ، ص ٣١١ ، ابن خلدون ، ج ٦ ص ١١٥ ، ابن الخطيب ، اعتمسال الاعلام ، تحقيق مختار العبادى والكتانى ، ج ٣ ص ٦٥ . وانظر فيما بعد ص ٣٣٥ .

القيروان ، وسماء يوسف وكناه أبا الفتوح ، ولقبه سيف الدولة (١٧٩) .

وهذه الوصية ، ان جاز أن تكون موضوعة ، مثل قصة تمنع ولكن عن الولاية أو زعمه فيها ، فهي تبين على كل حال المبادئ الأساسية التي ينبغي أن تتبنى عليها سياسة أية حكومة مغربية في ذلك الحين . والمبدأ الأول يعنى ان البربر أهل اضطراب لا يرضون بالخضوع لسلطان الدولة ، فيجب مراقبتهم والضرب على أيدي العصاة منهم . والمبدأ الثانى يعنى أن ولاء سكان البوادر لا يتأكد الا بخضوعهم للنظام العام بالأمر الذى لا يتأتى الا بدفعهم المنتظم لما هو مقرر عليهم لبنيب المسال . والمبدأ الثالث يعنى أن أهل الحضر هم عصب الدولة الحقيقى ، ويعنى حيويتها ومصدر ثروتها ، فالواجب إذن أن يحسن الأمير اليهم . أما عن المبدأ الرابع الخاص بتحذير بلكن من أقاربه ، فالوضع فيه واضح ، إذ هو يعبر عما حدث فيما بعد من الاختلاف بين أبناء بلكن وبين أبناء عمومتهم الحمادين ، أصحاب القلعة ، الذين استقلوا عن دولة القيروان والمهدية .

وفى طرابلس سماء بعض رجال المعز أن يهاجروا الى المشرق ، فهربوا الى جبال نفوسة ، واعتصموا بالمنطقة الأباضية الخارجة على الدولة أبدا ، وفشلت كل الجهود التى بذلت فى سبيل استرجاعهم (١٨٠) . وتابع المركب سيره عبر مدن سرت وأجدابية ، والمعز ينزل للاقامة فى بعض المواضع ، ويجد السير فى مواضع أخرى ، الى أن وصل الى برقة فى ١٤ جمادى الأولى ٣٦٢هـ / ٢٠ فبراير ٩٧٣م ، حيث نزل بالقصر خارج المدينة (١٨١) فى موضع يعرف بـ « مياسر » (سيرة جوذر ، ص ١٤٧) .

وفاة محمد بن هانىء الأندلسى :

وفى برقة فقد المعز شاعره محمد بن هانىء الأندلسى الذى طالما غالى فى مديح المعز . ولقد قيل انه مات اثر ليلة بيضاء سهرا ، قضاه حمرأ عربدة وسكرا ، حتى فقد وعيه فبات عريانا فى برد ذلك الوقت من الشتاء ، فمات . هذا ، ان لم يكن قد قتل على أيدي رفقاء السوء فى تلك الليلة ، الذين

(١٧٩) سبج الأعشى ، ج ٥ ، ص ١٢٤ .

(١٨٠) ابن الأثير ، ج ٨ ، ص ٦٢١ .

(١٨١) المقرئى ، اتماط الحفا ، ص ١٨٦ .

عربوا عليه بعد أن سكروا (١٨٢) . هذا ، ولو أن ابن الأثير ينص على أنه اغتيل ، وأن لم يعرف من قتله ، حيث روى ملقى على جانب البحر في أواخر رجب سنة ٣٦٢ هـ / أواخر إبريل ٩٧٢ م ، وإن فهم من روايته التي يورد فيها أشارة الغالية في مديح المعز ، أن ذلك كان السبب في اغتياله (١٨٣) . بل وأكثر من هذا ما نسب إلى ابن هانيء ، مما نسب المؤرخون في مديح المهدي الغالي ، مثل :

خل برقادة المسيح خل بها آدم ونوح

... الخ (١٨٤)

وفي برقة توفي أيضا عم المعز : يوسف بن القاسم ، كما توفي مولاہ جوذر الصقلي الذي دفن بجامع القصر هناك (سيرة جوذر ، ص ١٤٧) .

ومن برقة سار المعز إلى الاسكندرية فوصلها في أواخر شعبان / أوائل يونيو ٩٧٣ م ، حيث استقبل بالحفاوة والترحاب من أهل مصر وأعيانهم ، ثم سار ليدخل القاهرة في ٥ رمضان سنة ٣٦٢ هـ / ١٠ يونيو ٩٧٣ م . وبذلك تخدم الدورة المغربية من تاريخ الدولة الفاطمية ، ليبدأ عصر النياحة الفاطمية في المغرب ، وهو العصر الذي يرى الصنهاجي ، فاتحة عصور الدول المغربية حقيقة أي البربرية لحما ودما .

(١٨٢) انظر ابن خلكان ، ترجمة محمد بن هانيء ، ج ٤ ص ٤٢٢ .

(١٨٣) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦٢١ - حيث قوله :

ما شئت لا ما شئت : لأقدار ما حكم فأت الواحد القهار وقوله :

أمدبرها في حيث دار فلما زاحمت حول ركابه - جبريلا

الشرطة الأولى في البيت الثاني في ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦٢١ ، ناقصة ما بين القوسين ، والتكملة من ديوان ابن هانيء حسبما أوردها التحقيق في أعمال الإعلام لابن الخطيب ، ج ٢ ص ٢٥٦ . وقارن المنول المذهب لأحمد النائب الأنصاري ، طرابلس ، ص ١٠١ - حيث بيتا الشعر ، كالآتي :

فكاننا أنت النبي محمد وكاننا انصارك الأنصار

ما شئت لا ما شئت : الأنداء فالحكم فأت الواحد القهار

(١٨٤) انظر فيما سبق ، ص ١٢٧ . وهذا ١٤٩ . وأن نص ابن الأثير على أن المتمسكين

لابن هانيء يقولون مقالاته تلك (ج ٨ ص ٦٢٢) .

الفصل الثالث

العصر الصنهاجي الأول في بلاد المغرب
الزيريون خلفاء الفاطميين في إفريقية

تمهيد :

برحيل المعز إلى القاهرة ومصر يبدأ عهد جديد في بلاد إفريقية والمغرب ، يمكن أن يعتبر نهاية لمرحلة من تاريخ الشمال الإفريقي في عصوره الإسلامية ، هو العصر العربي في مقابل ما يسمى بالدولة العربية في المشرق ، وبداية لفترة جديدة من ذلك التاريخ ، وهي : العصر البربري ، في مقابل العصر الفارسي في المشرق ، والمقصود بسمة العروبة في تلك الدورة من تاريخ المغرب في المرحلة الأولى ، ليس العرق ولا حتى اللغة — رغم ما لها من تأثير عميق في حياة المجتمع وتاريخه — بل الأثر الشرقي بعامة ، انوافد من مصر حيث مقر الخلافة الفاطمية ، وفي العراق حيث الخلافة العباسية ، بل ومما وراء ذلك في فارس وإيران ، من حيث وفدت تأثيرات عرقية وثقافية جديدة ، بل وفي أبعد من ذلك حيث بدأت في المغرب طلائع التأثيرات التركية الوافدة أصلا من أواسط آسيا ، من : عرقية وثقافية أيضا ، وهي المؤثرات التي ظهرت في المغرب مع بداية العصر الفاطمي ، والتي تدل عليها تسمية دعاء المذهب الاسماعيلي الفاطمي بـ « المشاركة » والمذهب الشيعي بمذهب « التشريق » ، فكان السمة الشرقية بعامة ، من : عربية وفارسية وتركية ، قد حلت محل العربية ، عرقا ولغة وعادات وتقاليد ، الأمر الذي يتفق مع مسار الأحداث التاريخية ، وتطور الأحوال الاجتماعية والحضارية ، وفي مقابل ذلك تمثلت سمة العصر البربري الجديد ، من تاريخ المغرب الإسلامي ، في قيام دول مغربية لحما ودما ، حيث قامت أسر بربرية حاكمة بدلا من الأسر الشرقية المستقلة عن الخلافة العباسية ، مما عرفته البلاد من قبل ، من : المروانية الأموية في قرطبة ، والأدرسية العلوية في فاس ، والرسنية الفارسية أصلا في تاهرت والأغلبيّة العربية التميمية في القيروان ، بصرف النظر عن الأسر البربرية المحلية ، من بني مدرار في سجلماسة ، وبني عصام في سبتة ،

وبنى مصالح في تكور ، وكذلك الامارات القبلية الصغيرة ، ذات الطابع المحلي ، في غمارة ، وبرغواطية ، ومقراوة ، وجراوة ولواتة وغيرها ، في مقابل شعوب زناتة وصنهاجة ومصمودة .

وهنا تحسن الإشارة الى أن دورات التاريخ الأندلسي كان لها نفس مسار الدورات المغربية ، من حيث مشاركة البربر للعرب ولاهل البلاد من : مولدين ومستعربة ووافدين من الممالك الصقلية ، في أمور سياسة والحرب والادارة . وكانت مشاركة البربر تزداد مع ازدياد قوة القبائل البربرية وخاصة صنهاجة إفريقية الذين كان لهم دورهم الايجابي في الأندلس ، ابتداء من عصر الدولة العامرية على وجه الخصوص . فكان لبربر دورهم في سقوط الدولة الأموية ، مثلما كان لصنهاجة الزييريين دورهم في منقلبة غرناطة ، الأمر الذي مهد لمرور أكبر لهم في عصر ملوك الطوائف ، قبل أن تمتد الهيمنة الصنهاجية على كل البلاد مع قيام دولة الملتحين المرابطين .

وإذا كان المعسر عندما سار الى مصر ، تقدمته توايبت آبائه بمعنى عدم التفكير نهائيا في العودة الى تلك البلاد التي امتحنت فيها الأسرة الشريفة حتى أشرفت على الهلاك أو كادت ، فإن تلك القطيعة بين المشرق والمغرب ، بما تمثلته من رفض المذهب الشيعي في أفريقية ، بعد قليل ، لم تكن قاطعة . حقيقة ان اعلان السنة ، كما كان الحال عند اعلان التشيع من قبل ، قد صاحبه اضطهاد الطرف الآخر ، مما عرف عند بعض الباحثين بـ « الأزمة الفاطمية »^(١) ، ولكن الروابط لم تنقطع بين المشرق والمغرب ، ان على المستوى الشعبي حيث استمر انتقال النساج من التجار والحجاج والعلماء ، أو على المستوى الرسمي ، حيث كانت السفارات والبعثات الأميرية تروح وتجيء ما بين القاهرة والقيروان بالهدايا وسجلات الولاية والعهد أو خطابات البيعة .

وما يستحق الانتباه أكثر من ذلك أن ما قام به الفاطميون في مصر ، عندما أطلقوا قبائل الهلالية على بلاد القيروان ، في تلك العملية الثائرة من نوابم الزييريين ، كانت له تأثيراته الجانية ، كما يقال ، على المستويات الاقتصادية والديموغرافية العرقية . فبينما يصير الكتاب على ما أثاره عرب

(١) ج ١ مارسية ، بلاد البربر والمشرق الاسلامي في المصور الوسطى ، بالفرنسية ، باريس ١٩٤٦ .

الهلالية من التدمير والتخريب في أفريقية والقيروان ، الأمر الذي أدى الى قلب الأوضاع السياسية والاقتصادية في البلاد رأسا على عقب ، تمثل أهم نتائج تخريبه الهجرة الهلالية على المدى البعيد في عملية تعريب البلاد على المستوى العرقي واللغوي ، بالشكل النهائي الذي آلت اليه حديثا ، والذي يظهر في تعريب كثير من قبائل البربر الذين رفعت أنسابهم الى الأجداد العربية العريقة ، كما فعلت زناتة بانتسابها الى القيسية ، أو صنهاجة بانتسابها الى الحميرية اليمنية .

هكذا ظهرت الدولة الصنهاجية الزيرية في بلاد القيروان وأفريقية بمظهر الدولة العربية حقا ، من حيث اتخاذ العربية لغة رسمية للدولة ، وعناية الأمراء بها في بلاطهم ، حيث استقبلوا العلماء والشعراء ، واستمعوا لمذائجهم وأجازوهم ، بل من حيث عناية بعضهم بالشعر والأدب - حسبما سمحت الظروف -

وهنا نحب الإشارة الى نظرية ابن خلدون التي تقول بأن الطابع الديني في الدولة الإسلامية يتناسب طرديا مع صيغتها العربية ، ونرى أنه لا بأس أن يكون ابن خلدون قد استنبط نظريته هذه من دراسته لتاريخ دول المغرب البربرية (٢) ، وأولها دولة الزيريين الصنهاجية ، حيث لا تشمل الأمور الدينية فيها حيزا من التاريخ يذكر بالمقارنة مع العصر الفاطمي السابق أو حتى الأغلبى العباسي الأسبق ، باستثناء تلك الفترة على التشيع مما حدث على عهد الأمير الرابع ، وهو المعز بن باديس ، والتي يمكن إرجاعها الى أسباب سياسية ، هدفها الخروج على سلطان القاهرة أصلا . وهنا لنا أن نضيف خاصية أخرى مرتبطة بالعروبة في تاريخ الدول المغربية البربرية ، وتتلخص في التناسب الطردى أيضا بين العروبة والتحضّر ، حيث يتسلسل البيون بين دول عصرنا البربري هذا ، ودول الأسر العربية المشرقية السابقة عليها ، بما فيها عصر أمراء دمشق الأسبق ، رغم ما ينسب له الكتاب الى بعضهم من أعمال الظلم والجور ، وخاصة بالنسبة لأهل البلاد من البربر ممن كان يطبق عليهم قانون الأخماس الحربي ، دون رعاية . فمن الأمور المستغربة ما ينسب الى بعض أمراء الزيريين من الفلظة والقسوة التي مارسوها مع كبار رجال دولتهم ، مما بلغ أحيانا الى حد القتل يبدى الأمير

(٢) الملتقى ، ص ١٢٢ ، فصل في أن الدعوة الدينية تزيد الدولة قوة على قوة الممكية

- حيث الإشارة الى كثرة الموحدين -

دون محاكمة ، ولو صورية ، أو إلى حد التمثيل ببعض النوار حتى أكل
أكبادهم مشوية ، وكذلك لهم ، الأمر الذي لا تبرره الأغراض السياسية
التي استهدفت ترهيب النوار أو لفت نظر رجال الخلافة إلى التوقف عن
اثارة المتاعب لأمير القيروان (٢) .

وفي مقابل دولة صنهاجة القيروان وأفريقية ، وهي في أوج تمدنها ،
حوالي منتصف القرن الخامس الهجري / ١١م ، كانت دولة المثلثين
الصنهاجية ، وهي دولة لتونة ومسوفة المرابطية في صحاروات المغرب
الأقصى ، دولة بربرية تصدق فيها مقولة ابن خلدون بالعلاقة الطردية بين
العزوية والصيغة الدينية الإسلامية ، وبالتالي بينها وبين درجة التمدن
والحضارة . فدولة المثلثين المرابطية كانت في بداية أمرها بدوية ساذجة
حتى عهد بطلها يوسف بن تاشفين الذي كان على درجة من البساطة والتشلف
تناسب مع قلة معرفته باللغة العربية حتى أنه كان يستخدم الترجمان .
هذا ، ولو أن الدولة المرابطية سرعان ما تنحمت بحضارة الأندلس ، بل أنه
فقدت أسباب وجودها وسط ذلك الترف

وتبعاً لسنة التطور والارتقاء ، وتحت تأثير الحضارة العربية الأندلسية
بدأت وريثة الدولة المرابطية وهي دولة الموحدين ، وهي أكثر رقياً وتحضراً .
فعلى المستوى اللغوي كان ابن تومرت منظر الدعوة ومرشد الدولة يجيد
العربية والبربرية ، ويكتب تأليفه في العقيدة والمرشدة بها جميعاً ، ويضمن
مذهبه أعلى ما وصل إليه من آراء المتكلمين ونظريات الشيعة ، في محاولة
توفيقية رائعة بين المذاهب الإسلامية . وعن طريق الأندلس غرباً وبلاد
القيروان شرقاً وقعت الدولة الموحدية تحت تأثير قطبي العروبة في الغرب
الإسلامي ، إلى جانب تغلغل عرب الهلالية في أقصى المغرب وحتى الأندلس ،
وبذلك بلغت الحضارة المغربية الأندلسية أوج ازدهارها . وإذا كانت
الدولة الموحدية قد ضاعفت في غمبار الرغبة العارمة في الجهاد ، وغواية
التمتع بمباهج الحياة ، فإن حرب الاسترداد ، وما ترتب عليها من طرد عرب

(٢) أنظر فيما سبق ص ٤١ - ولا تدرى أن كان هذا الأمر قد يتطلب منا مراجعة
بعض ما كنا نظنه قصصاً أسطورية من وضع غصدم البربر ، ما يتناول بعض غرائب العادات
عند بعض القبائل من الرخص في العلاقات الجنسية الخاصة بأكرام الأضياف إلى غيره من أعمال
الشرور ، مما يوجد في كتب الجغرافيسا ، وكتب المعاجيب ، وما يلخصه ياقوت في معجم
البلدان في مادة بربر .

الأندلس ، كان له أثره في تحضير المغرب من أقصاه إلى أدناه ، وصيغه بحضارة الأندلس حتى في أعماق بواديه ، وقتن جباله دون تفرقة ما بين عربيا وبربرها .

وهكذا تمت النقلة في تاريخ المغرب في حقبة الاسلاميه من عصر السيادة العربية الواقعة الى عصر السيادة البربرية المحلية ، تماما ، كما حدث في تاريخ الاسلام في المشرق حيث كانت النقلة من العصر العربي الى العصر الفارسي مبكرة منذ سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية ، وما صاحب ذلك من ازدياد نفوذ العنصر الفارسي بقياس الأسر الوزارية من آل برمك وآل سهل وغيرهم ، سواء كانوا في خدمة الخلافة أو في خدمة الأمراء المتغلبين أو السلاطين والمهم فيما يتعلق بالمغرب أن بلاد الأندلس هي التي قامت بدور فارس في مجال الحكم والحضارة ، حيث أمدت المغرب بما كان يحتاجه من رجال الحكم والادارة من أصحاب الدواوين والكتاب الوزراء ، الى جانب المهرة من العمال والتقنيين ، صناع الحضارة . وعن هذا الطريق تمت النقلة الحضارية في عصر الحكم الوطني ، مصاحبة للنهضة السياسية ، وكانت خطوات البداية مع حكم الزييرين ودولة صنهاجة ، بعد أن كانت فترة التمهيد الفاطمية ، في حقيقة أمرها ، دولة كتامية .

صنهاجة أفريقية :

المواطن والقبائل (انظر شكل ٥ ص ٢٩٠) :

ومن المهم في حركة النهضة القومية المغربية هذه أنها بدأت في كنف قبائل صنهاجة ، من حيث أنها تعتبر الجذم البرنسي في شجرة أنساب البربر . والبرانس من قبائل البربر هم أهل الأرياف والحضر ، في مقابل قبائل زناتة أشهر ممثلي الجذم البتري من البربر الذي يمثل أهل الصحاري والبادية (انظر ج ١ ص ٨٦) - وأهل الحضر أقدر على فهم الاقتصاد المدني ، وبالتالي أكثرهم قدرة على إقامة الدول من أهل البادية . وهكذا ما يفسر نجاح الدعوة الفاطمية في كتامة ، واستمرار دولتها في صنهاجة من بنى زيري . وعلى هذا الأساس يمكن تفسير قيام دولة اللثمين الصحراويين ، من حيث أصولهم الصنهاجية البرنسية الحضرية ، ومثل هذا يقال عن قبائل المصامدة (ومقردها فمصودة) الحضرية في منطقة السوس من المغرب الأقصى ، من حيث إقامتها لأعظم دول المغرب قاطبة ، وهي دولة الموحدين .

الصنهاجية ، وزناتة باقليم الزاب والحضنة ، والتي تقطن المنطقة جنوب الخط الوهني الممتد بين المسيلة ووهران ، وتمتد من شلف الى الخيط الأطلسي (٦) . وأهم مدن صنهاجة هي : الجزائر (جزائر بني مزغناي) ومليانة (المشرفة على سهول نهر شلف) ، والمدينة (جنوب غرب الجزائر) ، وهي المدن التي بنّاها بلكنين بناء على أوامر والده زيري (الإعلام لابن الخطيب ، ص ٦٣ - ٦٤) ثم المسيلة وسوق حمزة (البويرة) - وذلك قبل بناء القلعة وبجاية (٧) .

القبائل :

أما عن قبائل صنهاجة فان النطق الصحيح لاسم جدها الأسطوري هو : تزناج (زناج : زناق) . ورغم ما ينص عليه ابن خلدون من أنها كانت تمثل أكثر أهل الغرب (المغرب) على أيامه حتى قال كثير من الناس أنهم ثلث أمة البربر (٨) ، وأن فروعهم تصل الى ٧٠ (سبعين) بطنا ، فلم يكن لها كبير شأن على أوائل أيام الدولة الفاطمية ، حيث لا ذكر أثناء الثورة الزناتية ، على عهد القائم ، الا لقبيلة صنهاجة وحدها ، بقيادة مناد وابنه زيري ، دون اششارة الى تفرعاتها القليلة ، ولا الى كونها اتحاد قبائل ، كما هو الحال بالنسبة لكتامة (٩) . أما عن ولايتهم لعلي بن أبي طالب ، وولاية مغراوة (أو زناتة) لعثمان بن عفان ، فابن خلدون لا يعرف سببها ولا أصلها (العبر ج ٦ ح ١٥٢) ، وان كان من الواضح أن قصة اصطناع تلك الولاية يعود الى الأمر التاريخي الواقع ، من مساندة صنهاجة للفاطميين ضد الزناتيين الذين انضموا الى المعسكر الأموي في الأندلس ، وذلك في محاولة لتأصيل تلك التحالفات الطارئة في القرن الرابع الهجري / ١٠ م ، على أسس تاريخية تقليدية ، وهو ما يصرح به ابن خلدون بعد ذلك (١٠) .

أما عن صنهاجة أفريقية فيتمثلون في بني ملكان بن كرت الذين تمتد مواطنهم ما بين المسيلة ومليانة ، مرورا بسوق حمزة والجزائر والمدينة .

(٦) انظر ج ١ ص ٩٢ - شكل ٣ - عن توزيع قبائل البربر .

(٧) اسماعيل العربي ، دولة بني حماد ، ص ٤٠ .

(٨) العبر ، ج ٦ ص ١٥ .

(٩) والحقيقة انه رغم ما يقول ابن خلدون من كثرة بطون صنهاجة فانه لا يستطيع الا أن يعدد بعضا من مشايخ رجالهم في الدولة الإسلامية كإفراد وليس كقبائل أو جماعات ، مثل : الفاي ورمون الذي ثار بأفريقية على أيام السفاح ، وعبد الله بن سكرديد ، وعبد بن سادق .

من قواد حماد بن بلكنين . ج ٦ ص ١٥٢ - ١٥٣ .

(١٠) العبر ، ج ٦ ص ١٥٣ .

وإذا كان ابن خلدون ينص على كثرة بطونهم ، مشيل : أبو رغبة وبنو مرزغنه (الذين نسبت إليهم الجزائر) ثم بطوية وبنو يفرن (العبر ج ٦ ص ١٥٣) الذين يوضعون ضمن الزناتية في مواضع أخرى ، فإنه ينتهي إلى أن أكثرهم على أيام الأغالية هم بنود مناد ، وكان الأمر يتعلق وقتئذ بعشيرة ما أو قبيلة محدودة ، لا ترقى إلى مستوى الشعب — هم بنو مناد الذين تضخمتم أعدادهم مع تضخم سلطانهم ، حتى كان قصر الأمير منهم يحوى من النساء الألف امرأة وأكثر من المحارم أى اللاتي لا يجوز له (انظر فيما بعد ، ص ٣٥٧ وهـ ٨٩) أو من القرابة القريبة التي لا تتعدى الدرجة الثالثة كالحال والعلم ، في مقابل ابنة الأخت وابنة الأخ (١١ م) .

بنو مناد :

وهكذا يكون بنو مناد بن منقوش بن صنهاج الأصغر (١١) هم أهم ممثلي صنهاجة أفريقية في أواخر القرن الثالث الهجرى وأوائل الرابع ، ولا تبدأ الشهرة لصنهاجة إلا على أيام زيرى الذى جاء مناصرا للمنصور فى حرب أبى يزيد ، فى قومه ومن انضم إليه من حشود البربر ، وأبلى فى ذلك خير البلاء ، كما كان له فضل بناء أشهر مراكز صنهاجة الحضرية ، وأهم منجزاتها العمرانية من بناء : مدن أشير ، والجزائر (العاصمة الآن) ومليانة بالعدوة الشرقية لوادى شلف ، ومدينة المدية (حيث مستقر أهم بطون صنهاجة) ، وهى المدن التى أصبحت من أعظم مدائن المغرب الأوسط على أيام الزييريين (١٢) . وتتركس شهرة الأسرة الزييرية بتعيين بلكين بن زيرى نائبا للمعز فى حكم أفريقية سنة ٣٦١ هـ / ٩٧١ م .

الأسرة الزييرية :

بلكين بن زيرى بن مناد ملكا مؤصلا :

بتعيين بلكين نائبا للمعز فى حكم أفريقية أصبح الزعيم الصنهاجى

(١١) مكرر أنظر النويرى ، ص ٣١٧ — حيث النص على رواية ابن حزم التى تقول ان بلكين كان له فى موضع آلف امرأة لا يحل له نكاح واحدة منهم ، كلهن من أبناء اخوته وأخواته ، ومن الرجال مثل هذا العدد . هذا ، كما كان لبلكين ، قبل أن يستخلفه المعز ، قصور تشتمل على ٤٠٠ جارية . فيقال ان البشارات تواترت عليه فى يوم واحد بولادة ١٧ ولدا . وأنظر فيما بعد ص ٣٥٧ وهـ ٨٩ .

(١١) العبر ، ج ٦ ص ١٥٣ .

(١٢) العبر ، ج ٦ ص ١٥٤ .

الذى أعطاه الخليفة الفاطمى اسما عربيا اسلاميا هو « يوسف » ، وكنية عسكرية هي « أبو الفتوح » ولقبها ملكيا مدنيا هو « ناصر الدولة » (دولة الخلافة) ، اول شخصية بربرية (مغربية أصلية) تصل الى رتبة الملوكية بطريقة شرعية ، عن غير طريق انغلية والأمر انواقع .

وكون بلكين أسرة ملكيه توارثت الحكم ابنا عن أب ، واستفحل الملك فيها فاتخذت القصور الفخمة وغص بلاطها برجال الدولة وأصناف الحرير والجواري ، ولبس الأمراء عمامات التيجان المذهبة ودفنوا أمواتهم فى أكفان السبعين ثوبا وزيادة ، وقبروهم فى توابيت عود البخور الهندى الثمين . وهكذا لم يكن من الغريب أن يصطنع لهم الكتاب ممن عملوا فى خدمتهم بل ومن غيرهم ، النسب المناسب الذى يرقى بهم الى الأرومة العربية النقية ، من حمير : ملوك اليمن القدامى ورموز الحضارة .

فبينما ينص بعض التساوية على أن جد بلكين هو مناد بن منقوش بن صنهاج الأصغر (١٣) ، ينقل النويرى عن الأمير الصنهاجى عز الدين بن عبد العزيز بن شداد نسباً لبلكين ترتفع سلسلته الى أكثر من ٤٠ (أربعين) جدا حتى يعرب بن قحطان ، منهم ٢٥ (خمسة وعشرون) يصل بهم الى حمير بن سبأ . والرواية هنا موثقة بالشعر على نسق أيام العرب القديمة (١٤) .

مناد :

أما عن جد مناد بن منقوش فكان زعيما شديدا القوة-كثير المسال والبنين . وهو كريم مضياف له مسجد يلجأ اليه طالبوا القرى والحماية من : الوافدين والغرباء وعابري السبيل : . والى واحد من هؤلاء يرجع الفضل فى توقيع مناد الملك فى سلالته . وذلك أن الرجل-الغريب الشأن الذى جاء يلتبس العون من مناد بعد أن تعرض لنهب اللصوص : كان يحسن قراءة الطالع ، ولكن فى كثرة الشاة التى تقدم له على مائدة الضيافة : وعن هذا الطريق تنبأ الرجل بملك المغرب جميعه لواحد من أبناء مناد . واستطاع أن يدرك أنه زيرى والد بلكين ، رغم أنه كان ما زال جنيئا فى بطن أمه ، وذلك بعد أن استعرض أبناء مناد الذين قدموا اليه ، ولم يجد طالع السعد فى

(١٣) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٥٣ .

(١٤) النويرى تحقيق أبو ضيف ، ص ٣٠٠ .

جباهم (١٥) .

زيرى :

وهكذا نجعل الرواية المنقبة من زيرى والد بلكين ، الانيسان الذى حبه الطبيعة بمقامات الكمال - فالى جانب الجمال ، كان راجع العقل سد طفولته يسبق سنة بعشر سنوات ، فكانه بلغ سن الرشد وهو فى العاشرة من عمره . وفى شبابه الميكرو هذا ظهرت عليه مخايل اتجاهات قيادية نابغة ، فيما كان يقوم به مع أقرانه من ألعاب الشباب ورياضاته ، كمسما اتصف بالكرم ، أول خصال الزعامة ، فكان يستضيف أصحابه الصغار ويقدم لهم الطعام ، مكتفيا بخدمتهم . ومن ألعاب الطفولة البريئة ، ورياضة « العسكر واللصوص » ، تطورت جماعة الفتيان الأحداث الى عصابة مسلحة ، مدربة على مفاجأة الخصوم (١٦) ، وهنا تنتقل الرواية المنقبة القصصية الى أرض الحقيقة والواقع .

رئاسة زيرى وبنه اشير :

فعندما يبلغ زيرى بن مناد طور الشباب يرأس جماعة من بنى عمه ومن شجعان القبيلة ، كانت صناعتها شن الغارات على قبائل زناتة المنافسة . وعودة بالمغانم والسلب . وخلال أعمال الشطارة والفتوة هذه ، تكرست زعامة زيرى بفضل غريته وتطبيقه مبدأ المساواة بينه وبين الآخرين عنسده تقسيم المغانم . وعن هذا الطريق آلت اليه زعامة صناجة ، ووقع على عاتقه النهوض بععب الصراع مع زناتة ، حيث ظهر تفوقه عليهم بما كان يشنه من الغارات التي يبيتهم فيها ، ليلا فى أرض مغيلة ، كما زادت قوته وعدده وعتاده بما كان يغنمه من خيل جبل تيطرى ، التي زادت من عدد الفرسان بين أصحابه (١٦ م) . وعندما تسامع الناس بأخبار تلك النجاحات التي كان يحققها زيرى ، وفد اليه كل من هفت نفسه الى اتخاذ العسكرية صناجة له ، تحت قيادة زيرى الذى كان على استعداد لأن يضع سيفه وسيوف أصحابه فى

(١٥) التويرى ، ص ٣٠٢ . وانظر ابن خلدون ، التذكار ، ط - طرابلس ، ص ٢٢ - حيث تحولت الى علم الحدائق الذى كان يمرنه للميز لدين الله الذى دعا زيرى الى تقديم بنه العشرة اليه ولكنه لم يجد العلامة فى أى منهم فطلب العائز ، وهو بلكين الذى كان أصغرهم سنا وأحقرهم شيئا فوجد المميز فيه العلامة ، وقوض اليه من حينه واستخلفه . (١٦) التويرى ، ص ٣٠٣ .

(١٦) مكرر انظر التويرى ، ص ٣٠٩ - حيث الإشارة الى ان زيرى رزق من الاولاد ما يزيده على المائة كلهم انجاه كاد ان يكتفى بهم فى حروبه - رحمه الله .

خدمة من يدفع له الأجر ، ويطلبه بالحماية . فكانت تلك وسيلته في لفت نظر الخلافة الفاطمية اليه ، على عهد القائم ثاني الأئمة ، حوالى سنة ٣٢٤ هـ / ٩٣٥ م . عندما اتخذت قبيلة صنهاجة شكل الجماعة المنظمة تحت قيادته ، وذلك ببناء مدينة أشير (١٧) . وهنسا نلاحظ أن ابن خلكان ينص على أن زيرى ، جد العزيزين بإريس ، هو أول من ملك من بينهم ، وأنه الذى بنى مدينة أشير ، وحصنها أيام خروج أبى يزيد (١٨) . فكان بناء أشير عنده ، واتخاذها مقرا لزيرى يعتبر بمثابة تأسيس لكيان صنهاجى خاص ، نه سمة ما يعرف بالحكم الذاتى ان لم يرق الى مستوى الدولة التسامة النمو ، التى تستطيع أن تدافع عن حدودها ، وأن تكون لها علاقاتها الخارجية الخاصة بها .

بناء أشير : ٣٢٤ هـ / ٥ - ٩٣٦ م :

والحقيقة أن أول اشارة بشأن الصلة بين زيرى وبين القائم الفاطمى تظهر بمناسبة بناء مدينة أشير . فبعد اختيار زيرى للموقع القسيح ، الذى تتدفق فيه عينان عذبتان بالماء الصالح للاستهلاك اليومى والزراعة ، فى قمة الجبل العالى الذى يرتفع الى ١٤٠٠ متر ، من حيث يشرف على سهول التل الغربية ومنطقة القبائل الشرقية ، على مسافة حوالى ١٠٠ (مائة) كم جنوب شرق الجزائر العاصمة « جزائر بنى مزغناى » (١٩) (انظر شكل ٦ ص ٢٩٥) ، وكان عليه أن يبدأ البناء سنة ٣٢٤ هـ / ٥ - ٩٣٦ م بالاستعانة بالبنايين والنجارين الذين أتى بهم من المدن القريبة من : سوق حمزة (البويرة) والمسيلة وطبنة ، كما استعان بالخليفة القائم بأمر الله أيضا ، الذى بعث اليه بأشهر عرفاء العمارة فى أفريقية ، كما أمده بمواد البناء التى لا تتوفر فى المنطقة ، من الحديد وغيره (٢٠) ، الأمر الذى يعنى أن زيرى فى ذلك الوقت المبكر من سنة ٣٢٤ هـ / ٥ - ٩٣٦ م كان على علاقة وثيقة بالخلافة الفاطمية فى المهديّة . هذا ، كما أنه لا بأس أن يكون القائم هو الذى أوحى الى زيرى

(١٧) انظر الزيرى ، ص ٣٠٣ - ٣٠٤ .

(١٨) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، تحقيق احسان عباس ، ج ٢ ، ص ٢٤٣ . وقارن البكرى ، ص ٦٠ - حيث النص على أن الذى بنى سورها هو بلجيج بن زيرى سنة ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م .

(١٩) انظر اسماعيل العربى ، دولة بنى حماد ، ص ٤٤ - ٤٥ .

(٢٠) الزيرى ، ص ٣٠٤ ، وانظر البكرى ، ص ٦٠ - حيث التأكيد على انها من زيرى ، وعلى حصانة موضعها الذى يحيطه ١٠ رجال فقط .

باتخاذ مدينته في ذلك الموقع الاستراتيجي الذي يمكن الدفاع عنه ضد الغارات المحتملة من قبل قبائل زناتة التي كانت تسرح ، مستطيلة في المنطقة وتجول ، منذ أيام الأغالبة ، الأمر الذي دعا القائم الى القول بأن حاضرة العرب خير من مجاورة البربر (٢١) .



موقع أشير
(شكل ٦)

وبعد أن تم البناء كان على زيري أن ينقل وجوه عواصم المنطقة ، في :

(٢١) الزيري ، ص ٣٠٤ وقارن ابن الأثير ، ج ٨ ص ١٢٤ - حيث النص على بناء زيري لأشير وسكنها هو وأصحابه ، وإن كان التاريخ خطأ من كتابته في شكل ٦٢٤ هـ / بدلا من ٣٧٤ هـ / ٩٣٦ م ، مع الإشارة الى سرور القائم لأن مستحاجة أضحت بين البلاد وبين زناتة ، مما يعني الموافقة التسمية على أن تكون دولة حدود ، وقارن اسماعيل العربي ، دولة بني حماد ، ص ٢٠٢ - حيث الإشارة الى شكل الكتاب في أن يكون زيري هو باني أشير ، والنمساك برأيه بأن زيري وليس الخليفة هو الذي بناها ، استنادا الى شعر عبد الملك بن عيشون الذي يمجو فيه زيري قائلا :

يا أيها السائل من حينا وعين مع لي السكفر أشير
اسمها المعلمون زيرها فليمنه الله على زيري
(وانظر البكري ، ص ٦٠ - حيث النقل عن محمد بن يوسف الوراق) .

طينة والمسيلة وسوق حمزة الى آشير^(٢٢) ، ربما ليضمن ولاهم عن طريق وضعهم فالرصافين تحت اشرافه ، الأمر الذي ما كان ليتم الا بالتنسيق مع ديوان الخلافة ، وهو ما يمكن أن يكون قرينة ترجح احتمال أن يكون بناء آشير قد تم بعد موافقة الخلافة الفاطمية ، ان لم يكن بتوجيه منها .

ولم تلبث المدينة التي بنيت لأهداف استراتيجية دفاعية ضد غارات زناتة المحتملة في المنطقة ، من حيث أنها كانت حصينة لا تطل من شرفيها ، وأنه يمكن أن يحتميها عشرة رجال بفضل علوها ووعورة الطريق اليها ، أن امتلأت بالوافدين عليها من العلماء وفقهاء والتجار الذين تسامعوا بها^(٢٣) . وبفضل استقرار الأمن والطمانية ، الأمر الذي تحقق بفضل ردع الزناتية عن مضايقة أهل البادية ، انصرف هؤلاء الى الحرث والزراعة ، فعم الحبر والرخاء في المدينة . ومع مرور الوقت كانت آشير تزداد تحضرا ، فبعد أن كان اهليا يتعاملون في الأسواق بالمقايضة ، بالبيع والبيع والشاة ، ضرب زيري السكة من الذهب والفضة ، كما زاد في رواتب المسكر ، الأمر الذي أدى الى كثرة الدنانير والدراهم ، وبالتالي رواج التبادل التجاري^(٢٤) . ولا بأس أن يكون ذلك قد تم بموافقة الفاطميين^(٢٥) ، من حيث أن سك النقود يعتبر من شعارات السيادة ، فكان زيري كان فعلا أول ملوك الصنهاجيين ، كما يقول ابن خلكان^(٢٦) ، وهو ما يبرر تسمية دولة نواب الفساطميين بالقيروان والمهدية ، عند المؤرخين بالدولة الزيرية ، بدلا من الدولة البلكنية او اليوسفية .

زيري بن حماد والصراع ضد زناتة :

وهنا لا بأس من قبول الرواية التي تقول ان صيانة منطقة الأرياف المحيطة بأشير ضد اعتداءات قبائل زناتة وعمليات الردع التي كان يقوم بها زيري أدت الى تمكن العداوة بين صنهاجة وزناتة (النويري ، ص ٣٠٥) . ولما كان زيري يشعر بالاطمئنان الى سلامة مقره الجديد في آشير ، ففسد رأى أن يطبق ذلك المبدأ الحربي الذي يرى أن خير وسيلة للدفاع هي الهجوم ، وبناء على ذلك قرر متابعة خصومه الزناتية ، في عملية ردع ، الى

(٢٢) النويري ، ص ٣٠٥ .

(٢٣) النويري ، ص ٣٠٥ .

(٢٤) النويري ، ص ٣٠٥ .

(٢٥) انظر اسماعيل العربي ، دولة بني حماد ، ص ٥٥ .

(٢٦) الوفيات ، زيري ، ج ٢ ص ٢٤٣ .

عقر دارهم المغرب . وهنا تنفرد الرواية المحلية التي ينقلها النويرى عن
عن الدين بن شداد سليل الأمير تميم بن المعز بتسجيل إنجازات حربية ضد
حلفاء الأمويين في الأندلس ، مثل موسى بن أبى العافية أو قبائل برغواطة
وغمارة المعروفة بانحرافاتهما المذهبية . ومن المهم الإشارة الى أن تلك
الأحداث قد تأخذ طابعا منقبيا لا يؤيده ما هو معروف لنا من أحداث تاريخ
الفترة . فالى جانب عدم توثيقها بالتواريخ المناسبة فانها تتضارب أحيانا
مع وقائع تلك الأحداث من حيث المضمون أيضا .

وهكذا ينسب الى زيرى انه عهد بأشير الى أخيه ماكسن ، وخرج الى
المغرب نحو مدينة جراوة ، حيث موسى بن أبى العافية الذى كان يليها بمهد
عبد الرحمن الناصر الأموى . وهنا تأخذ الرواية شكلا منقبيا عندما تنص
ببساطة على أن الزعيم الكناسى خرج الى لقاء زيرى بهدية وعدد من الجوارى ،
وأنه اعتذر عن دخوله فى طاعة الأمويين مبرا ذلك بالرغبة فى ارهاب
الزناية . كما يقدم فى نفس الوقت فروض الطاعة والتبعية للزعيم
الصنهاجى مبرا ذلك بالحكمة التى تقول بخسارة الصفة التى تنتهى بعداوة
الجار القريب نظير صداقة البعيد ، حيث قال : « وسيف قريب منى أمنع من
سيف بعيد ، الأمر الذى أدى الى أن يقربه زيرى منه ويدنيه (٢٧) » .

التوجه الى جهاد برغواطة :

وتتأكد الصبغة المنقبية عندما يوجه موسى بن أبى العافية الزعيم
الصنهاجى بصفته ممثل الخليفة الفاطمى الى جهاد زردقة قبائل غمارة ، فى
بلاد الريف حيث ظهر متنبئهم المعروف بـ « حاميم : ح م » . وبنساء على
ذلك تتحول حملة الردع ضد زناية الى حرب جهادية ضد الخارجين على
الاسلام الصحيح ، من الزنادقة ، فيوقع بغمارة ، ويقبض على متنبئهم ،
ويجمله الى أشير ، حيث يفتى علماءها بقتله - الأمر الذى لا يتفق مع ما هو
معروف من أن قتل حاميم كان فى سنة ٣١٥ هـ / ٩٢٧ م أثناء حروبه مع
مصدودة الساحل أو مع جيوش الناصر الأموى (٢٨) .

(٢٧) النويرى ، ص ٣٠٥ - ٣٠٧ .

(٢٨) النويرى ، ص ٣٠٦ وهـ ١٥ - عن نهاية حاميم ، وقارن ابن الاثير ، ج ٨ ،
ص ٦٢٤ . وان وضع ذلك خطأ سنة ٣٦٤ هـ / ٩٧٤ م - حيث ينقل القصة الزيرية لابن شداد
كسندة لعهد بلكن .

المعونة في حرب أبي يزيد :

أما عن الحدث التالي فيتمثل في المعونة التي قدمها زيري بن منصور للخليفة القائم أثناء حصار أبي يزيد الزناتي النكاري للمهدي^(٢٩) سنة ٣٣٤ هـ/ ٩٤٥ م ، بعد عشر سنوات من بناء أشير ، وفيها معلومات تفصيلية عن تلك المعونة التي تكونت من : ألف حمل حنطة ، مع ١٠٠ فارس من صنهاجة و ٥٠٠ من عبيد زيري من السودان . هذا ، كما تنص الرواية على أن القائم رد على ذلك بهدية بديعة من الكساء والحيل والسروج المحلاة^(٣٠) .

هجوم الزناتية على أشير :

وعندما تاتي الحرب ضد زناتة تكون في شكل عملية ردع مضادة ، موجهة الى زيري وقاعدته أشير . فقد نزل الزناتي بقيادة : كبات بن مديني ، وخرج اليه زيري ، ولكن الحرب طالت سجالا ، ولم يقدر لها أن تحسم الا على يد ابن زيري الصغير ، كباب الذي لم يكن قد تمرس بالحرب بعد . فيدون اذن من والده زيري ، خرج كباب وتمكن من القائه الزناتي كبات فضربه بالسيف ضربة رائعة قتلت الدرع والعائق وأسقطت ذراع كبات الى الأرض وكأنه ثمرة تسقط من شجرة ، فتبعه سقوط الزعيم الزناتي الذي خر صريعا . وهكذا استحق كباب بن زيري أن يخلد اسمه الذي أعطي لباب المدينة الذي دخل منه وخرج ، فهو « باب كباب » . أما عن الأسرى الذين وقصصوا بين يدي كباب فقد أمر زيري بضرب رقابهم وصلب رؤوس قوادهم^(٣١) . وأخيرا يأتي القضاء على ثائر بجبل أوراس ، اسمه سعيد بن يوسف ، ولكن على يدي بلكين الذي أرسله زيري اليه ، وذلك على عهد الخليفة المنصور (٣٣٤ - ٣٤١ هـ/ ٩٤٥ - ٩٥٢ م) وكان سعيد الذي التقى به بلكين في غربي باغية ، بفحص غزاة ، قد حشد جموعا من قبائل هوارا وغيرهم ، ولكنهم لم يستطيعوا مواجهة قوات بلكين التي هزمتهم وقتلت سميدا وجماعة من رؤساء جندهم الذين أرسلت رؤسهم الى المنصور ، الذي كافأه على ذلك بتولية تاهرت وأعمالها وكذلك باغاية .

تقييم عهد زيري :

وتعتبر رواية ابن شداد الزيري التي ينقلها النويري بحذفها أو

(٢٩) النويري ، ص ٣٠٦ .

(٣٠) النويري ، ص ٣٠٧ .

يكاد ، ان هذه الانجازات الحربية الرائعة هي المقدمة الطبيعية لمقتل زيري .
اذ انها اثار حسد القبائل ضده ، فجمعت له الجموع ، وكان مقتله سنة
٣٦٠ هـ / ٩٧٠ م على أيدي منافسيه : جعفر بن علي بن الأندلس وحلفائه
الزناتية ، وعلى رأسهم محمد بن الحارث بن خزر ، مما سبق ذكره (ص ٢٥٥) .
أما عن تقييم عهد زيري الذي استمر لمدة ٢٦ سنة فتلخصه الرواية الزيرية
في : حسن السيرة في الرعية والتجارة ، وان اعتمد سياسة الشدة على
البربر ، كما كاد اعتماده في حروبه يكون على أبنائه الفرسان الأنجاد كلهم -
حيث رزق من الأولاد ما يزيد على المائة (٣١) .

وهكذا اعتبر زيري وكأنه أول ملوك صنهاجة الذين حملوا اسمه ، فهم
الزيريون ، وذلك تأصيلا للملك ابنه بلكين أول نواب الفاطميين في أفريقية ،
وتقنيننا لاستقلالهم ، وانفرادهم بحكم البلاد .

السياسة الداخلية في حكومة القيروان ، من : بلكين الى المعز بن بارس

(٣٦٢ - ٤٠٦ هـ / ٩٧٢ - ١٠١٥ م)

أفريقيا الزيرية نيابة فاطمية :

توزيع الاختصاصات بين الأمير والعمال ، والعلاقة مع الخلفاء بالقاهرة :

كما اقتطع الخليفة المعز من مملكته الأفريقية منطقة طرابلس وما يتبعها من سرت واجنادية وكذلك صقلية وما يتبعها في قلورية (كلايريا) وجنوب إيطاليا ، بهدف الحد من نفوذ نائبه بالقيروان ، فانه رأى أيضا ألا يركز السلطات أيضا بين يدي ذلك النائب عن طريق فصل الشئون المالية والإدارية في أفريقية عن نظر الوالي الأمير ، حيث يتبع عمالها خليفة القاهرة بشكل مباشر . ومع أن السجلات الرسمية لا تشير إلى طبيعة ذلك النظام الخاص بتوزيع السلطات ، وكذلك الأمر بالنسبة للأدبيات التاريخية التي لا تعالجه كموضوع خاص ، فانه يمكن الاسترشاد بالوقائع التاريخية في محاولة لتحديد طبيعة ذلك النظام بشكل نسبي على كل حال .

الإدارة المالية :

فالمعروف ان الخليفة المعز عندما استخلف بلكين واستعد للخروج الى المشرق أمر الكتاب أن يكتبوا الى العمال وولاة الأشغال بطاعته ، بصفته الأمير صاحب الكلمة العليا في أفريقية والمغرب كله (٣٢) . وذلك من حيث اتباب الأمن والسكينة على الأقل ، وتقرير حالات الحرب والسلام مع الجيران أو الأعداء ، وذلك انه الى جانب بلكين ولى المعز أيضا : أبا نصر زيادة الله بن عبد الله ابن القديم ، من أسرة بني القديم ، الذين خدموا في ديوان الخراج الأغلبى ثم الفاطمى على أيام المهدي (انظر فيما سبق، ص ٦٥ ، ص ٢٢١) نظر الدواوين بسائر الكور ، بمعنى الشئون الإدارية بعامة والمالية منها بصفة خاصة . وفى ذلك تقول الرواية ان المعز قال ليوسف (بلكين) عند وداعه : انى تركت زيادة الله بن القديم عونا لك على جميع الأموال بأفريقية ، فكان المقصود

بالدواوين هي الادارة المالية على وجه الخصوص (٣٣) . ولا شك ان المعز استوحى هذا النظام من تراتيب الفتوح الاسلامية الأولى على عهد عمر - أصل النظم الاسلامية - حيث روى الفصل بين أمور الادارة والحرب وبين شئون المال ، فجعلت الأولى للأمير والثانية للعامل ، وذلك قبل فصل السلطنة القضائية عن الولاى (الأمير) والمعهد بها الى القاضى الذى اختص بها . وهذا ما حدث فى أفريقية فعلا ، تطبيقا لمبدأ فصل السلطات الذى عرف فى البلاد المفتوحة على عهد عمر . والذى مارسته الخلافة فى العهدين الأموى والعباسى ، والذى طبقته الخلافة الفاطمية فى القاهرة ، فى نظمها المعروفة (٣٤) .

ولما كان من الواضح أن تعليمات المعز هذه كانت عامة غير محددة ، بل ان كثيرا منها كان يتم شقويا ، ربما بقصد الحد من سلطات جميع الأطراف المعنية ، وليس الأمير الصنهاجى وحده ، فانها كانت فضفاضة تسمح للولاى الأمير بتجاوز حدود اختصاصاته السياسية الى شئون الادارة والمال . فهذا ما يفهم من النصوص التى تشير الى انه عندما عاد يوسف بلكين من وداع المعز فى ١١ ربيع سنة ٣٦٢ هـ / ٢٠ ديسمبر ٩٧٢ ، أقام بالمصورية يعقد الولايات للعمال على البلاد ، كما سار فى البلاد يباشر الأعمال . ويطيّب قلوب الناس (٣٥) . فكان بلكين كان يرى ان تراتيب المعز الادارية والمالية تشكل عائقا يمنعه من ممارسته لسلطاته السياسية . هذا ، كما ان تلك

(٣٣) انظر النويرى ، ص ٣١١ .

(٣٤) انظر امطار الحنقا للقرزى ، ج ٢ ص ١٠٨ - ١٠٩ . حيث تعيين أبى العباس أحمد بن الموم قاضيا للقضاء وأعطاه سجلا باختصاصاته ، وهى القضاء والضلة والخلافة بحضرته . . . والحكم فيها وراء القاهرة المزية ومصر وإعمالها ، والاسكندرية . . . والحرمين ، ووبرقة ، والمغرب . وصقلية مع الاشراف على دور الضرب بهذه الأعمال . هذا ، وان ورد نص آخر فى امطار الحنقا (ج ١ ص ٢٤٧) يقرر أن الخليفة العزيز جعل ولاية القضاء الى نائبه بالقيروان منذ أيام بلكين الذى كتب اليه يشاوره فيما يولى القضاء ، فكتب اليه . قد رددت الأمر اليك . قول من شئت . . .

(٣٥) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦٢٢ ، وقارن ابن خلكان (بلكين) ج ١ ص ٢٨٦ . حيث النص على انه عندما استخلف المعز يوسف بلكين يوم ٢٣ ذى الحجة سنة ٣٦١ هـ / ٦ أكتوبر ٩٧٢ وأمر الناس السمع والطاعة له ، خرجت العمال وجباة الأموال بأسمه ، وقارن النويرى ، ص ٣١١ - حيث النص على انه عندما عاد بلكين من وداع المعز الى المصورية فى ١١ ربيع الأول سنة ٣٦٢ هـ ، ونزل بقصر السلطان ، وأخرج العمال وجباة الأموال الى سائر البلدان ، فكانه مارس السلطتين ، الادارة المالية ، والادارة السياسية .

التراتب الهلالية (غير الحدية) كانت تسمح للتقنيين من عمال الدواوين الادارية والمالية بممارسة انواع من النشاط السياسى الذى يعتبر من اختصاص الوالى الأمير .

النزاع مع عامل الخلافة ، رئيس الادارة المالية : ابن القديم :

كان من بين من عينهم بلكين من عمال المدن (أو ولايتها) فى ربيع الأول سنة ٣٦٢هـ / ديسمبر ٩٧٢م عامل المنصورية (صبرة) والقروان : جعفر بن تمرث الذى استقر فى العاصمة بحاميته الكبيرة المكونة من القروان (٣٦) ، الى جانب ابن القديم رئيس الادارة المالية التابع للخلافة مباشرة فى القاهرة . والظاهر انه رغم فصل السلطات ، كان هناك تعاون حثي بين العامل قائد الحامية بالقروان (ابن تمرث) وبين العامل مدير الادارة المالية (ابن القديم) ، وذلك ان نجاية الأموال كثيرا ما كانت تتطلب قوة جبرية ، كما كانت صيانة الأموال فى بيت المال تتطلب ، سواء كانت فى القصر أو فى مكانه الخاص ، نوعا من الحراسة المسلحة . وهكذا فعندما توفى والى القروان وصبرة (المنصورية) جعفر بن تمرث ، كتب ابن القديم بذلك الى بلكين ، يطلب منه أن يرسل اليه بدلا منه ليعاونه على أمور البلد (٣٧) . وهنا وقع اختيار بلكين لشغل المنصب السياسى العسكرى ، على تقنى

متخصص فى الشؤون الادارية والمالية - مثل ابن القديم - هو عبد الله بن محمد الكاتب ، الأغلب أصلا ، والذى شب فى اقليم نفزاوة ، فنشأ عالما بالعربية والبربرية ، والذى سبقت له الخدمة ، كاتباً (أى وزيراً) لدى كل من بلكين ووالده زيرى ، من قبل . والرواية تنص على ان عبد الله الكاتب قبل المنصب بعد تمتع شديد ، تحت التهديد والوعيد . ولا بأس أن يكون ذلك صحيحا على أساس أن الرجل ما كان يود أن يراحم زميلا له ، وهو فى منصب ليس فى تخصصه ، الا اذا كانت الرواية تقصد المداواة على تدبير خطط له مسبقا لحلج ابن القديم تابع الخلافة فى القاهرة (٣٨) . وهنا نصر

(٣٦) النويرى ، ص ٣٦٢ .

(٣٧) النويرى ، ص ٣٦٢ .

(٣٨) النويرى ، ص ٣٦٢ - حيث النص على استعفاء عبد الله الكاتب من قبل المنصب كعامل للقروان ومرة بعد أخرى ، وأنه لم يقبل الا مرغما تحت تهديد بلكين ورجال الاسرة الزيرية له بالقتل . وانظر التماسك الحنفى ، ج ١ ص ٢٢٣ - حيث النص على ان ابن القديم الذى يكتب اسمه فى الشكل : ابن الأديم ، (ربما حسب النطق الدارج) بدلا من ابن القديم ، هو صاحب خراج المعز بالمغرب .

الرواية على أن ابن القديم استقبل زميله عبد الله الكاتب خارج القيروان ،
وان الرجلين أعربا عن الاحترام المتبادل إذ ترجل كل منهما ، ورغم ما تقوله
روايته من أن نلتهما صارت واحدة ، فقد كن من الطبيعي أن ينتهي الأمر
بخلاف الذي يوصف في الرواية الزيرية المحلية التي ينقلها النويري « بالفتنة
العظيمة » (ص ٣١٤) . بمعنى الحرب الأهلية الشديدة ، وهو ما يوضحه
ابن الأثير الذي يقول أنه كان لكل من الرجلين طائفة من الأعوان انضموا في
شبه تشكيل عسكري ، ودخلوا في حروب ، عدة دفعات (الكامل ج ١ ،
ص ٦٢٢) ، وانتهت تلك الحروب بغلبة عبد الله الكاتب تابع الأمير ، في
ربيع الأول سنة ٣٦٤ هـ / نوفمبر ٩٧٤ م . وبها انتهى ابن القديم . تابع
الخليفة نهاية تمسة في السجن ، إذ مات معتقلا في حبس بلكين في ١١ جمادى
الأولى سنة ٣٦٦ هـ / ٦ يناير ٩٧٧ م بعد حوالي سنتين من استقلال عبد الله
الكاتب وحده بالأمور ، من : سياسية عسكرية وإدارية مالية فكانه الوزير
نائب الأمير بالتفويض (٣٩) . ورغم ما تقوله رواية المقرري من غضب الخليفة
الحسن عندما بلغه نبأ قبض يوسف بن زيري خليفته على المغرب ، على
« ابن القديم » صاحب خراجه بالمغرب ، وتهديد يوسف بالعودة إلى المغرب
لاستئصال آل مناد ، بل صنهاجة ، ورغم ما يقول اسماعيل بن إسباط ،
رسول المغرب ، من ارتعاد بلكين وانتفاخه ، وامتناعه لأمر رد ابن القديم إلى
النظر في الخراج ، بعد قراءة السجل سرا مع كاتبه وترجمانه ، وقوله :
« نفعل والله » ، بل وكتابته برد « ابن الأديم » إلى نظره ، فقد كان كل ذلك
مدارة لا طائل وراءها (٤٠) .

أصداء التخلص من ابن القديم : محاولة إثارة كناسة أنصار الخلافة :

كان من الطبيعي ألا يمر التخلص من ابن القديم ، عامل الخلافة للشعوب

(٣٩) أنظر النويري ، ص ٣١٣ ، وابن الأثير ، ج ٨ ص ٦٢٢ - حيث النص : إلى أن
يوسف بلكين كان مائلا مع عبد الله لصحبة قديمة بينهما - الأمر الذي يمكن أن يفهم منه أن
عبد الله الكاتب شغل المنصب باسم الخلافة الفاطمية - وإن كانت في فترة تأليه . وقارن
ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٣٠ حيث وفاة ابن القديم في سجن عبد الله الكاتب .

(٤٠) أنظر الحفا ، ج ١ ص ٢٢٣ - ٢٢٤ . ويؤيد تثبيت بلكين بعزل عامل الخلافة ،
منافسته ، ما يقوله ابن إسباط بعد ذلك من سرور بلكين بنبأ وفاة الحسن إذ ضرب فرسه
وحركه فأنابه راقده . وهو يهرج رجه ويصيح : أبلكين ! أبلكين ! (اسم أمه) أزيرو !
أمناد ، وقوله للسفير سرا : « بعدت مصر من المغرب » وقد صار المغرب والله في أيدينا إلى
دع طويل .

عسالية ، دون أن تكون له أسدء مزعجة بالنسبة لـيوسف بلكين . ففي سنة ٣٦٤هـ / ٩٧٤م التي قبض فيها على ابن القديم رهن الاعتقال ، قامت حركة مناهضة لحصنه عبد الله الكاتب على يد واحد من أنصار ابن القديم . وبالتالي من أنصار الخلافة الفاطمية ، من حيث أن حركته تطورت بعد ذلك إلى ثورة غارمة في بلاد كتامة ، أنصار الفاطميين وأصحاب دولتهم .

بوذة خلف بن خير :

بدأت الحركة في أرض بني هراش ، حيث اعتصم واحد من أفراد القبيلة هو : خلف بن خير الذي كان مساعدا لابن القديم (٤١) ، بقلمة منيعة هناك ، والتف حوله عدد كبير من سائر قبائل اليربر ، كما خرج إليه كل من خالف مع ابن القديم (٤٢) ، وذلك على التخوم الأفريقية لبلاد الزاب أو لجبل أوراس على ما نظن ، استنادا إلى أن القلمة الثائرة كانت في مجال ولاية عبد الله الكاتب بصفتها وإلى القيروان ، حيث أرسل إلى بلكين يخبره أن أفريقية استوت كلها ولا خوف إلا ممن اجتمعوا مع ابن خير في تلك القلمة . وهنا سار يوسف بلكين إلى المنطقة ولم يستغرق استيلاؤه على القلمة أكثر من ٤ أيام أنهاها بالانتقام من الثوار جزائيا بالأسراف في القتل حتى جمع ٧ (سبعة) آلاف من رؤوسهم ، بعث بها لتشهر في القيروان قبل أن يرسلها إلى مصر (٤٣) ، ليس لتشهر فقط ، بل للانداز أيضا ، كما نظن . هذا ، كما طبقت عقوبة النفي على كثير ممن نجوا من المذبحة ، كما أخذت كل أمتعتهم كغنيمة (٤٤) .

وإزاء هذه الأعمال الانتقامية التي تعبر عن المرارة والحقد بالنسبة للمتطابقين مع عمال الخلافة ، رأى خلف بن خير الذي نجح في الإفلات من القلمة أن يتجه إلى بلاد كتامة (٤٥) على أمل أن يتم الكشف عن حقيقة الصراع كمواجهة صريحة بين الخلافة الفاطمية ونايها الزيري في أفريقية . ولكنه بمجرد أن وجه بلكين التحذير الشديد ببرادة الذمة ممن يأوى النائر أو ينصره تحفظ الكتاميون على خلف مع ابنة وخصمة من بني عمه ، وأتوا بهم

(٤١) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦٢٣ .

(٤٢) النويري ، ص ٣١٣ .

(٤٣) النويري ، ص ٣١٣ .

(٤٤) انظر النويري ، ص ٣١٣ ، وقارن ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦٢٣ - حيث الإشارة

(٤٥) النويري ، ص ٣١٣ ، وقارن ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦٢٣ .

إلى حرب خلف فقط من القلمة .

الى بلكين فكافاهم على ذلك ثم انه بعث بخلف وقرائته الى عبد الله الكاتب
الذى شهر بهم وصلبهم احياء قبل أن يضرب رقابهم ، وبيع برؤسهم الى
مصر (٤٦) . علامة انذار مبطن وتحذير على ما نظن .

وهناك تفصيلات تدل على ضخامة تلك الحركة المناهضة للامير الزيرى
الاول باسم الخلافة وتعبير في نفس الوقت عن عجز قيادتها المثلثة في خلف
ابن خير وقدراته . ومن ذلك انه كان يوجد تحت امره خلف الآلاف من العبيد
المنتظمين في تشكيل حرس محارب ، وقفوا كثرة ناضجة بين يدي بلكين
ولشدة إعجابهم بهم اختار منهم ٤ آلاف « شبح يقتلهم » ، وأراد أن يجعلهم
ضمن عبيده . ولكنه تخلص منهم جميعا في ساعة واحدة ، عندما بدرت
الحياة من واحد منهم . ولكي يقضى بلكين على جرائم الثورة في مهدها ، رأى
أن ينذر أهل باغاية التي كانت ثائرة منذ ٢٦٢هـ / ٧٢٠ - ٩٧٣م (ابن الأثير
ج ٨ ص ٦٢٢) ، انذارا نهائيا ، بصفتها موطن كتامة بالامتنياز ، فأرسل اليهم
وفدا من عشرة رجال من أهل القيروان يحذرونهم من مغية الثورة ، ويطلبون
منهم تسليم قلعتهم والا لقوا مثل مصير قلعة خلف ، فنزلوا على حكمهم ،
وخرجوا من المدينة التي أخرج بلكين أسسوارها وتركها مفتوحة
كضواحيها (٤٧) .

تحسين العلاقة مع الخلافة :

واستعادة ولاية طرابلس وضمها الى افرقية :

وهكذا قضى يوسف بلكين بعنف وقسوة على بواذر أول حركة عصيان
يشتملها مشاركة عمال الخلافة في القيروان أو أنصارها في كتامة ، لكن يعود
الى افرقية حيث أناه قبا وفاة الخليفة المعز لدين الله (في ١١ ربيع الثاني
٣٦٥هـ / ١٨ ديسمبر ٩٧٥م) ، وخلافة ابنه نزار العزيز بالله ، الأمر الذى
اعتبره نهاية للتمعية لمصر ، وبداية لاستقلاله بالمغرب (٤٨) .

ومن الواضح ان بلكين كان قد ازداد قوة بما حققه من نجاحات ضد

(٤٦) ابن الأثير . ج ٨ ص ٦٢٣ . الزيرى . ص ٣١٢ .

(٤٧) الزيرى . ص ٣١٤ . حيث ضرب العبد ابن عم بلكين قبا منه أنه بلكين نفسه .
فقتله .

(٤٨) انظر فيما سبق . ص ٣٠٤ . وهو مؤيد .

خصومه ، سواء في أفريقية أو في كنانة ، كما ازداد ثقة بالنفس ، وكفاية في معالجة الأمور . فهو يحافظ على علاقات الود مع الخلافة بالقاهرة ، وهو بمجرد أن يأتيه نيا ولاية العزيز في القاهرة يسارع في جمادى الثاني سنة ٣٦٥ هـ / فبراير ٩٧٦ م برسالة هدية - مع تجديد البيعة من غير شك - ويخرج من رقادة ليشييعها (٤٩) . وإذا كانت الخلافة لم تتر مسأة عزل ابن القديم ، عامل المعز على الخراج ، فالظاهر أنها كانت قد قبلت الأمر الواقع ، من ولاية عبد الله بن محمد الكاتب كخلف له في القيروان ، بمعنى عامل أفريقية وكاتب للأمير أو وزير . والقرينة على ذلك هو ما قام به عبد الله بن محمد في نفس السنة ٣٦٥ هـ / ٧٥ - ٩٧٦ م ، عندما صدرت إليه الأوامر من بلكين ، بإقامة الأسطول بالمهدية وحشد رجاله من النوتية والبحريين ، وإن كان الأمر انتهى بفشل تلك التعبئة البحرية التي كرهها الناس عند اضطراب الرجال فهربوا من المراكب بعد أن نهبوا (أنظر فيما بعده ص ٣٢٨) . ودليل آخر هو ما قام به عبد الله الكاتب ، من جمع تبرعات إجبارية من أعيان البلاد وأعلامها من الفقهاء والعلماء ، بلغ مقدارها ٤٠٠ ألف دينار ، أرسلها إلى ديوان الخلافة بالقاهرة (٥٠) ، بهدف اكتساب رضا المسئولين هناك عنه ، وإضفاء الشرعية على منصبه كعامل لأفريقية ، تابع للخلافة ، وهو ما تدل الأحداث التالية على أنه حصل عليها فعلا . ففي السنة التالية ، ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م كان يوسف بلكين يستطيع أن يكتب إلى الخليفة العزيز يسأله أن يضم إلى عمله «أفريقية» ولاية طرابلس الشرقية وما ينضاف إليها من أعمال سرت واجدانية ، وهو ما استجاب له ديوان القاهرة (٥١) .

أخوة بلكين يلجأون إلى القاهرة :

ورغم ما تضيفه الرواية التي نقلتها ابن الأثير من أن يوسف بلكين استخدم عماله هناك ، وعظم أمره حينئذ ، وأمن من ناحية العزيز ، واستبد بالملك (٥٢) ، فإن تحسن العلاقات مع القاهرة كان يسمح لبعض أخوة بلكين

(٤٩) ابن عذاري ، ج ١ ص ٣٢٩ .

(٥٠) ابن عذاري ، ج ١ ص ٣٣٠ .

(٥١) النويري ، ص ٣١٤ ، وقارن ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٥٦ - حيث النص في رحيل

إلى المعز عليها وهو عبد الله بن يخلق الكناشي ، وقارن ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦٦٥ - حيث تجعل الرواية ذلك ضمن أحداث سنة ٣٦٥ هـ / ٩٧٦ م مع ولاية العزيز للخلافة وأقرب يوسف بلكين على ولاية أفريقية كأنها منحة من الخلافة دون أن يسألها بلكين .

(٥٢) الكامل ، ج ٨ ص ٦٦٥ .

مثل : كباب ومغنين ، ابنا زيرى من الهرب سنة ٣٦٩هـ / ٧٩ - ٩٨٠م من قصر بلكين حيث كانا محبوبين ، والالتجاء الى القاهرة مستجيرين بالخليفة ، فيكرمهما العزيز ويستضيفهما الى السنة التالية لكى يصرفهما الى بلكين مع أمره بالعفو عنهما فلا يكون أمامه الا السمع والطاعة (٥٣) .

عبد الله الكاتب يؤلف حرساً من العبيد السود :

هكذا ، ولو انه عندما وصلت رسالة من ديوان الخلافة بالقاهرة فى سنة ٣٧١هـ / ٨١ - ٩٨٢م ، وقتما كان يحارب الزناتية فى المغرب ، تطلب من يوسف بلكين أن « يتخير ألف فارس من اخوته الأبطال بصنهاجة ، منهم : حبوس وماكسن وزاوى وحمامة » ، بنو زيرى ويرسلهم الى القاهرة . رد بلكين مستغفياً من ذلك بسبب « تغلب بنى أمية على الغرب ، وان الدعاء لهم على المنابر ، وانه يحاربهم بهم مع التهديد المبطن بـ « ترك الغرب والمسير معهم الى الخليفة » (٥٤) . كما كانت العلاقة بين الخليفة ونائبه فى القيروان تسبح ، بعد لعبد الله الكاتب أن يظهر ، خلال خمس سنوات من تكوين حرسه السودانى الكبير ، أى فى سنة ٣٧٣هـ / ٨٣ - ٩٨٤م ، وهى السنة التى توفى فيها أبو الفتوح يوسف بلكين وكأنه أمير متوج . فلقد أحاط نفسه بأعداد ضخمة من العبيد السودان الذين اشتراهم مباشرة من أسواق النخاسة أو الذين فرضهم على من كان تحت امرته من الموظفين فى عمالة الحراج وغيرهم ، حيث فرض على كل واحد منهم أن يقدموا له ما بين عبد واحد وثلاثين عبداً ، كحد أقصى حتى اجتمع له الألوف منهم (٥٥) .

عبد الله الكاتب مركز قوة يخشى أمره فى القيروان :

وهكذا بينما كان بلكين يقضى وقته فى حزب الثوار فى المغرب الأقصى ، ومجاهدة الزنادقة كان عبد الله الكاتب يمارس ترف الانتقال من القيروان الى المدينة ، مركزه الصيفى حسب عادة كل عام ، مستخلفاً مساعديه : جعفر بن حبيب على المنصورية وبرهون على القيروان ، بينما كان المنصور ولى عهد بلكين ، يتلقى فى أشير نبأ وفاة والده ، الذى أودى به مرض

(٥٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٣٧ - ٢٣٨ . وقارن نشاط المنفى ، ج ١ ص ٢٥٣ .

(٥٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٣٨ . وأنظر فيما يأتى ، ص ٣٤٥ .

(٥٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٨ .

التولنج (القولون) ، وهو فى طريق العودة من سجن ماسية ، بعد أن أكد سلطانه فى المغرب الأقصى ، وذلك فى موضع واركلان (وارجلان) من صحراء المغرب الأوسط ، يوم الأحد ٢٣ ذى الحجة ٣٧٣ هـ / ٢٦ ماية ٩٨٤م (٥٦) .

وبناء على ذلك لم يكن من الغريب أن يكون أول رد فعل لذلك عند المنصور بن بلكين هو التفكير فى القبض على عبد الله الكاتب ، أثناء وجوده بالمهدية - تخلصا من عبء مولاته . ووقعت المهمة على عاتق أخيه يطوفت الذى خرج من أشير مسرعا نحو القيروان حيث فاجأ نائبي عبد الله ، وجعفر ابن حبيب وبرهون ، قبل فجر الثلاثاء ١٥ محرم ٣٧٤ هـ / ٩٨٥ م ، وكان أول ما فعله يطوفت هو التأكد من سلامة بيت المسال الذى كان مقفلا ، وسلامة ما كان فيه من الحزائن المعلقة ، ثم إنه أخذ المفاتيح وفرق على أصحابه من المسال والسلاح ، وخرج بهم لينتظر على عبد الله وهو فى طريقه من المهدية نحو القيروان ، ونهب متاعه ، واعتقاله بالمنصورية . والظاهر أن المنصور تنبه إلى أنه لم يكن من حسن السياسة التعجيل بالتخلص من رجل الخلافة ، وإلى أفريقية ، فترجع عن تنفيذ مخططه ، وأمر بإطلاق سراح الكاتب الوزير ، مع إيقافه عن العمل لبعض الوقت ، قبل أن يعيد إليه كل صلاحياته . مع الاعتذار له باستنكار ما فعله أخوه به (٥٧) . ولكنه عندما أتى وفد أفريقية من مشايخ القيروان والقضاة وكبار جباة الحراج ، وعلى رأسهم عبد الله الكاتب ، ممثل الخلافة ، من أجل أداء واجب العزاء ، رأى المنصور بعد أن أحسن استقبالهم ، وأمر عبد الله الكاتب بأعطائهم ١٠ (عشرة) آلاف دينار ، أن يعبر لهم أو لعبد الله خاصة ، عن حقيقة تقديره لطبيعة حكم الزيريين فى أفريقية وتقييمه لطبيعة العلاقة بين القاهرة والمنصورية . ففى خطابه التوديعي لهم قال : « أن أبى وجدى أخذنا الناس بالسيف قهرا ، وأنا لا أخذ إلا بالاحسان ، وما أنا فى هذا الملك ممن يولى بكتاب ويعزل بكتاب ، لأنى ورتنه عن آبائى وأجدادى ، وورثوه عن آبائهم وأجدادهم خير » ، أو كلاما

(٥٦) النويرى ، ص ٣١٤ - حيث النص على أنه ربما هانى أيضا من حبة (أو بيرة) خرجت فى يده ومات منها ، ابن الأثير ، ج ٩ ص ٣٤ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٣٢٨ - ٣٢٩ - حيث النص على أنه توفى فى موضع « واركشور » يوم الأحد ٢١ ذى الحجة وليس ٢٣ ذى الحجة .

(٥٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٣٩ - ٢٤٠ .

هذا معناه (٥٨) . وإذا كان نص ابن الأثير لا يشير إلى وراثة الزيريين للكهنة عن طريق الحميريين ، ملوك العرب القدماء ، فإنه يعقب على النص قائلا : « يعني أن الخليفة بمصر لا يقدر على عزله بكتاب » ، بقصد التقليل بالتالى من شأن سجل العهد بالولاية الذى كان يأتى من القاهرة (٥٩) .

المنصور يصحب عبد الله الكاتب إلى آشير :

والظاهر أن المنصور قرن القول بالعمل ، وإن فضل سياسة الخطوة خطوة ، كما يقال ، فى سبيل تحقيق ما كان يراه من حقه فى الاستقلال . فلقد ترك آشير وذهب إلى رقادة التى وصلها يوم الاثنين ١٩ رجب سنة ٣٧٤ هـ / ١٧ ديسمبر ٩٨٤ م ، لكى يقيم هناك لمدة أكثر من ٥ (خمسة) أشهر إلى ٢٧ ذى الحجة / ٢٢ مايو ٩٨٤ م ، وهو يصطحب معه إلى آشير عبد الله الكاتب الذى استخلف ابنه يوسف على القيروان . وعند قدوم المنصور خرج عبد الله الكاتب مع وجوه أهل العاصمة لاستقباله ، فوعدهم خيرا . وخلال إقامته أتاه عمال البلاد بالهدايا مما تصفه الرواية « بما لا يحيط به الوصف » ، الأمر الذى دعا المنصور إلى التفكير بدوره فى تقديم هدية جليلة إلى الخليفة بالقاهرة ، بلغت قيمتها حسبما تبلغ الرواية من غير شك مليون دينار (٦٠) .

ومن الواضح أن استصحاب المنصور لعبد الله الكاتب معه إلى آشير يعنى حرمانه من ذلك الاستقلال الذى كانت تهيئه له فرصة وجوده فى القيروان كممثل شرعى للخلافة بالقاهرة . مع امكانية السيطرة على ابنه يوسف نائبه فى القيروان ، بعد أن يجد نفسه مجردا من سنده ، جوار والده .

(٥٨) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٠ . وقارن النويرى ، ص ٣١٧ - حيث بعض الاختلاف الشكلى فى الرواية ذات الأصل الواحد .

(٥٩) الكامل ، ج ٩ ص ٣٤ .

(٦٠) النويرى ، ص ٣١٧ - ٣١٨ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٠ - حيث النص على أن الهدية سارت مع زوال بن نصر إلى مصر ، وأن قيمة ما فيها من الأمتعة والدراب والطرف ألف ألف دينار عينا .

يوسف بن عبد الله يساعد الداعي أبا الفهم :

هكذا ، ولو أن يوسف بن عبد الله الكاتب كان يستطيع في سنة ٣٧٦هـ / ٨٦ - ٩٨٧م أن يقدم ، بموافقة والده ، خدامته المزدوجة لكل من الخليفة بالقاهرة ، والأمير المنصور بأشهر ، رغم ما في ذلك من التناقض . فهو يساعد الداعي أبا الفهم حسن بن نصر الحراساني الذي وفد من القاهرة ، على الذهاب الى كتامة بهدف إثارة قبائلهم ، في محاولة من الخليفة العزيز بالله لاسترجاع أفريقية من المنصور ، حسبما تقول رواية ابن الأثير (٦١) ، عن طريق إمداده بالخيول والمسال . ونجح أبو الفهم فعلا في إثارة كتامة الذين اجتمعوا اليه لحساب الخلافة ، ومكنوه من جمع العساكر واتخاذ البنود بل وضرب السكة ، أحد شعارات السيادة ، حتى صار خطرا على دولة المنصور (٦٢) ، الأمر الذي سيحققه الأمير الزيري لوزيره الكاتب عامل الخلافة .

حدث هذا بينما كان يوسف في نفس الوقت يلبي مطالب المنصور من حيث البدء (في سنة ٣٧٦هـ) في بناء قصره الكبير الذي كان قد طلب ببناءه سنة ٣٧٥هـ / ٨٥ - ٩٨٦م وذلك بالمنصورية ويتفق عليه من مسال الخراج ١٠٠ ألف دينار (٦٣) . ولم يستغرق البناء طويلا إذ نزل المنصور قصره الجديد هذا ، عندما أتى من أشير الى أفريقية في ١٥ محرم سنة ٣٧٧هـ / ١٨ مائة ٩٨٧م التالية - بينما نزل عبد الله الكاتب وكبار القواد حوله ، في بعض المباني ، وربما في الخيام وأسراقات أيضا .

عبد الله الكاتب داعيا للدعاة :

وإذا كانت النصوص لا تشير الى موقف الخلافة من زحزحة عامل أفريقية التابع لها من مقره بالقروان ، واتخاذها كاتباً للأمير بأشهر ، فإنه مما يلفت النظر أن تصل الى المنصورية في ذلك الوقت ، كتب الخلافة تخبر المنصور بترقية عبد الله الكاتب الى مرتبة الداعي ، مع الأمر باتخاذ الاجراءات المناسبة لتنفيذ القرار . ويتضح من النص أن مرتبة الداعي كانت موقعا ساميا في

(٦١) الكامل ، ج ٩ ص ٥٥٢ ، أحداث سنة ٣٧٧ .

(٦٢) ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٤١ ، ابن الأثير ، ج ٩ ص ٥٢ .

(٦٣) ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٤١ ، وقارن النويري ، ص ٣١٨ - حيث يتضاعف المبلغ

بكتير من المبالغة الى ٨٠٠ ألف دينار .

سلم الوظائف الخلافية ، وبالتالي في المملكة الزيرية ، بفضل صبغته الدينية التي يدخل في اختصاصها أخذ البيعة للخليفة من الأمير وأفراد أسرته ، وهو ما حدث في الموضوع المعروف بـ « قصر الحجر » من قصر السلطان والذي فرش خصيصا للمناسبة بأمر المنصور ، في يوم الاثنين ٧ من جبادس الآخر / ٥ أكتوبر ٩٨٧م (٦٤) .

وتقول الرواية انه لما تم لعبد الله أخذ تلك البيعة ظهرت عليه بوادر البدوء والإراحة ، اذ مسح على رأسه ، وقال : « الآن قد خلصت من القتل ، وأمنت على شعري وبشري » . وإن كان النويرى يعلق على ذلك قائلا : « وما علم ان ذلك سبب هلاكه » (٦٥) . ولا بأس أن يكون في ذلك إشارة أيضا الى مصير الداعي الآخر : « أبى الفهم الحرساني » الذي كان ينير كرامة وقتئذ بتدبير من يوسف بن عبد الله الكاتب ، وبموافقة والده عبد الله في السنة السابقة ٣٧٦هـ / ٨٦ - ٩٨٧م ، مما سبقت اليه الإشارة (ص ٣١١) .

التخلص من اسكتاب داعي الدعوة :

والفهم ان عبد الله الكاتب ، بوصوله الى منصب الداعي ، بلغ ما لم يبلغه قرابة المنصور ورجال دولته ، فلقد بلغت به الأنفة والاعتزاز بالنفس الى حد انه لا يدارى أحدا من أبناء زيرى ، عمومة الأمير ، الأمر الذي انار عليه الأحقاد حتى من أقاربه المقربين له ، مثل : ابن خاله حسن الذي قدح فيه ، وأتهمه بمكاتبة وزير الخلافه « ابن كلس » وانه السبب في خروج الداعي أبى الفهم وأثارته لكتامة ، في محاولة للفدر بالمنصور . وبصرف النظر عن صحة الاتهام أو اصطناعه ، فقد كان من الطبيعي أن يخشى الأمير مزاحمة رجل الدولة الكبير ، صاحب الصلة القوية بالقاهرة ، من حيث كان يجمع ما بين عمالة أفريقية ، وهى الوظيفة الخلافية ورئاسة الكتابة وديوان الخاتم بمعنى وزارة الأمير الزيرى ، فطلب منه أن يعتزل عمل أفريقية ، وهو ما رفضه رجل الدولة العتيق ، معلنا لصاحبه : « القتل ولا العزلة » . فكان عبد الله الكاتب قرر مصيره التمس بنفسه ، حيث مات قتيلا بطعنات الرماح من قبل الأمير المنصور وأخيه عبد الله وهو واقف يقظي وجهه بكرامه ، ويقول : « على ملة الله ورسوله » ، كما لقي ابنه يوسف نفس

(٦٤) النويرى ، ص ٣١٩ .

(٦٥) النويرى ، ص ٣١٩ .

المخير صائحا مذعورا ، على يد المنصور وعمه ماكسن بن زيري ، وذلك يوم
الأحد ١١ رجب سنة ٣٧٧هـ / ٨ نوفمبر ٩٨٧م .

وحفظت القضية التي أصبحت غير ذات موضوع ، عندها جرى بقاضي
القيروان والشيوخ وأعلموا ان المسألة لا تتعلق بخيانة في المال أو مساس
بالشرف ، بل قضية من قضايا السيادة والسياسة ، حيث خشي الأمير على
نفسه فتخلص من غريمه - وهو التبرير المقبول - فدعوا له بطول العمر
وانصرفوا . وبذلك انتهت قصة رجل الدولة الذي ارتفع عاليا لكي يسقط
من حائق ، ودفن هو وابنه يوسف بغير غسل ولا كفن ، مثل الشهداء
أو كبار المجرمين ، لا ندرى (٦٦) .

ردود الفعل لقتل الداعي الكبير :

الحرس الأميري ينهب الضواحي :

ومن الأمور المستغربة انه عقب مقتل الوزير الكاتب ، مركز القوة
الكبير وابنه يوسف ، دار العسكر على الناس في القيروان ينهبونهم
ويسلبونهم ، كما خرجوا الى الضواحي في وادي القصارين وباب تونس حيث
نهبوا ما كان هناك من أثواب القماش والنسيج ، مثلما عرجوا على الطرقات
يقطعونها ويأخذون أموال المسافرين وأمتعتهم ، الأمر الذي راح ضحيته كثير
ممن حاول الدفاع عن نفسه أو عن أهواله (٦٧) . فكان المسألة كانت من جانب

(٦٦) انظر النويري ، ص ٣١٩ - ٣٢٠ - حيث تأخذ المسألة شكل القدرية أو الحتمية
التاريخية ، عندما ينسب الى عبد الله الكاتب أنه كان يتمثل يوم مقتله بيت الشعر الذي
يقول :

ومن يامن الدنيا مثل قابض على الماء خاتنه فروح الأصابع
وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٢ - حيث نفس الرواية وان اختلفت بعض تفصيلاتها
مع تكرار تداولها بين الرواة والكتاب ، فبدلا من بيت الشعر الذي تمثل به عند النويري
والذي يدعو الى عدم الثقة في الدنيا كان عبد الله عندما تنكر له المنصور يتمثل ببيت
شعر يشير الى خطورة الحساد الوداعين ، مهما قل عددهم ، بالنسبة للبائسين المائنين مهما
كثروا ، وفيه :

أرى لك بان لا يقوم لهادم فكيف بيان حوله لك هادم
كما كان عبد الله الكاتب ينتظر في ديوانه وبيده جزء من القرآن يقرأ فيه ، وانظر
ابن الأثير ، ج ٩ ص ٥١ - حيث الاشارة السريعة الى مقتل عبد الله الكاتب دون استطرادات
قصصية مثيرة .

(٦٧) النويري ، ص ٢٤٣ .

الدولة عملية ارحاب رسمية لأهل القيروان ، حتى يقبلوا بالأمر الواقع . وبعد عبد الله ولي أعمال أفريقية ، من قبل أبي الفتح المنصور ، يوسف بن أبي محمد الذي كان عاملا لمدينة قفصة ، فخرج لتقلد منصبه وهو يرتدو خلع المنصور ، وتتقدمه البندود والطبول ، وذلك في يوم الخميس ٢٥ شعبان ٣٧٧هـ / ٢١ ديسمبر ٩٨٧م وكان مقره دار القائد جوهر (٦٨) .

توتر العلاقة مع الخلافة وانتفاضة كتامة مع أبي الفهم :

ولا شك أن اقدام المنصور بن بلكين على قتل عبد الله الكاتب كان يعنى تازم علاقات بين القاهرة والقيروان ، بسبب ما أثاره الداعى أبو الفهم من الاضطراب فى بلد كتامة ، بصفته داعيا من قبل العزيز بالله ، وهو ما اعتبره المنصور خطرا يهدد كيانه بشكل مباشر ، وهو ما اعلنه قاضى القيروان والمتساخ عندما أقروا تصرفه . واطاهر أن المنصور أراد أن يسوى المسألة عن طريق اجراء ما تتخذه الخلافة الفاطمية بالقاهرة ، فأرسل الى العزيز بالله يعرفه بخطورة الداعى ، ولكن العزيز رد عليه بأرسال مبعوثين ينهيانه عن التعرض لأبى الفهم وكتامة ، الأمر الذى أثار الأمير المنصور ، الى حد أنه لم يكتف بأن يغلف للرجلين ، بل وللعزيز أيضا (ما بعد ص ٣٣٢) .

وبعد أن أقام السفيران لديه طوال شهرى شعبان ورمضان فى سنة ٣٧٧هـ / ديسمبر ويناير فنعهما من المسير الى كتامة ، وذلك أنه كان قد قرر أن يعالج مسألة الداعى بنفسه ، وأن يلحق أهل الخلافة درساً يمكن أن يكون حاسماً بالنسبة لتحديد العلاقات بين الطرفين . فلقد حشد المنصور عساكره ، وخرج بهم متشاقلا نحو كتامة ، مصطحبا معه سفيري القاهرة اللذين كانا مزودين بتعليمات من الخلافة لزيارة أبى الفهم . فلم يدخل بلد كتامة الا وقد دخلت سنة ٣٧٨هـ / ابريل ٩٨٨م . وعلى طول الطريق من ميلة الى سطيف ، انطلق رجال المنصور يخربون « القصور والمنازل » حتى استسلمت كتامة ، وسلمت أبى الفهم الذى عذب قبل أن يقتل ويمثل به بطريقة هجبية قصد بها ألا تثير الفزع فى قلوب الكتامين - الذين نزل بهم الذل والهوان - فقط ، بل وأن تثير التقزز والهلع فى ديوان الخلافة . فلقد عاد المنصور الى أشير ، بعد اجراء عملية تطهير فى كتامة راح ضحيتها عدد

(٦٣) التويرى ، ص ٢٤٣ ، وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٥ - حيث يوصف الرجل بالانشغال بالأكل والشرب وحسب الورد .

من وجوه الدعاة - ومن هناك أعاد السفيرين الفاطميين الى القاهرة لكي يعلنوا
المستولين هناك أنهما أتيا من عند « شياطين ياكلون لحوم البشر » (٦٩) .

رد ابن الخليفة مع تبادل المرسائل والهدايا :

وكان رد الخليفة لنا يهدف الى التهدئة والمصالحة ، اذ أرسل العزيز
الى المنصور يطيب قلبه ، وأرسل اليه هدية ، ولم يذكر له أبا الفهم (٧٠) .
أما عن ثورة كتامة في السنة التالية ٣٧٩هـ / ٨٩ - ٩٩٠م حيث ثار أبو الفرج
الذى ادعى أنه من أولاد القائم بن المهدي ، فليس فيها ما يشير الى تدخل
ما من قبل الخليفة (٧١) . وبذلك أصبحت ولاية إفريقية عمالة خاضعة للرواي
الذى استقل بها دون الخليفة . وهكذا كان للمنصور أن يعزل يوسف بن
أبي محمد عن العمالة ، وأن يولى مكانه محمد بن أبي العرب الكاتب ، سنة
٣٨٢هـ / ٩٢ - ٩٩٣م . بينما كان العزيز بالله يوصل له سجلا بولاية عيده
الى ابنه أبي مناد باديس وهي المناسبة التي أشاعت السرور في نفس
المنصور . وكانت مناسبة لكي يتلقى التهاني مع الهدايا من مختلف
البلدان (٧٢) ، من الداخل والخارج . ففي نفس سنة ٣٨٢هـ / ٩٢ - ٩٩٣م
وصلت الى المنصور هدية فيها زرافة من بلاد السودان (الأوسط - كسا
نرى - حيث تشاد وما وراءها) (٧٣) . كما وصلت من مصر هدية أخرى مع

(٦٩) انظر النويري ، ص ٣٢١ - حيث الرواية التفصيلية التي تظهر في ابن الأثير ،
ج ٩ ص ٥٢ - ٥٣ تحت عنوان معبر : عن سير المنصور لحرب كتامة ، وقارن ابن عذاري ،
ج ١ ص ٢٤٣ - ٢٤٤ - حيث الرواية حسنة التلخيص أيضا . وانظر انماط الحفا ، ج ١
ص ٢٦٣ ، وفيما بعد ، ص ٣٢٣ .

(٧٠) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٥٣ .

(٧١) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦٧ - حيث الإشارة الى أن أبا الفرج عمل أكثر مما عمله
أبو الفهم .

(٧٢) ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٤٦ ، وقارن ابن الأثير ، ج ٩ ص ٩٠ - حيث يضع
ذلك في سنة ٣٨١هـ / ٩١ - ٩٩٢م ، ويصف المزعول بأنه صاحب الطريقة نائب المنصور
في البلاد .

(٧٣) انظر عذاري ، ج ١ ص ٢٤٦ - حيث النص على أن المنصور خرج لاستقبالها
وأنها دخلت بين يديه ، وقارن المؤنس لابن أبي دينار ، ص ٧٨ - ٧٩ - حيث النص على أن
الهدايا وصلت بمناسبة شتان ولله باديس ، وأن هدية الزرافة أتت من قبل ابن الخطاب
عامله على زويلة (باب السودان الأوسط أي تشاد حاليا) ، الى جانب هدية عامل طرابلس
التي حوت ٢٠٠ حمل من المال سوى الخيل ولطائف المشرق .

جعفر بن حبيب ، سنة ٣٨٤هـ / ٩٩٤م ، فيها فيل عظيم (٧٤) ، بمعنى وجود علاقات طيبة أيضا ، وتبادل هدايا بين مصر والسودان الثيلي من حيث وفد هذا الفيل العظيم . وفى سنة ٣٨٥هـ / ٩٩٥م كان المنصور يولى يوسف بن أبى محمد ، الذى يصفه ابن عذارى هنا بالقائد ، عاملا على مدينة متيجة (٧٥) .

وبذلك ختم المنصور حكمه فى ٣ ربيع الأول سنة ٣٨٦هـ / ٢٧مارس ٩٨٦م ، والعلاقة حسنة بينه وبين الخلافة ، حيث ولى ابنه باديس ، وهو متمتع عند سنة ٣٨٢هـ / ٩٩٢م ، بشرعية ولاية العهد الخلافة من قبل العزيز بالله الذى قدر له أن يموت مع المنصور وفى نفس السنة ٣٨٦هـ / ٩٩٦م ويخلفه ابنه الحاكم بأمر الله ، الأمر الذى كان يتطلب تجديد كل من العهد والبيعة .

والحقيقة ان باديس كان قد هيا هدية سيرها الى رقادة مع القائد جعفر بن حبيب فى ١٦ رمضان / ١٣ أكتوبر . ولما كان قد ارسل فى طلب القاضى محمد بن عبد الله بن هاشم الى مصر - ربما لحاجة الخلافة الى الاستعانة به فى القضاء ، كما سبق وأن طلب المعز أخوة بلكين ، أبناء زيرى ، مع فارق أنه على عكس ما حدث فى المرة السابقة ، فان باديس كان حريصا هذه المرة على تلبية رغبة العزيز . فرغم أن حالة القاضى الصحية لم تكن تسمح له بالسفر فان الأوامر صدرت فى ٣ ذى القعدة للرجال بحمله قسرا ، تحت اشراف عامل افريقية ، محمد بن أبى العرب ، فأخذ بشيابة المنزلية محمولا على بساطه ، وأهل بيته يتبعونه نحو رقادة حيث الهدية المسافرة الى مصر . والعساكر على باب أبى الربيع على أهبة الاستعداد للتدخل اذا ما حاول أهل القيروان الاحتجاج . ولم تلبث سحابة الغم التى غلبت على الناس أن تقشعت عندما أتت الأخبار بوفاة العزيز - فكانت وكأنها كرامة أكرم الله بها القاضى الذى عاد الى داره - بعد تأجيل مسير الهدية (٧٦) .

الشرىف الباهرى يأخذ البيعة على باديس وصنهاجة :

والهم ان سجل ولاية أبى مناد باديس مع تلقية ب «نصير الدواة»

(٧٤) ابن عذارى - ج ١ ص ٢٤٧ .

(٧٥) ابن عذارى - ج ١ ص ٢٤٧ .

(٧٦) ابن عذارى - ج ١ ص ٢٤٨ .

وصل من القاهرة في ٢٣ ربيع الآخر سنة ٣٨٧هـ / ٦ أبريل ٩٩٧م ، مع سجل ثان بوفاة العزيز نزار ، وولاية الحاكم والجواب عن وفاة المنصور ، والعزاء عن العزيز وعن المنصور ، وذلك في معية الشريف الداعي : علي بن عبد الله العلوي المعروف بالباهري (٧٧) ، والذي كان يحمل سجلا ثالثا بالبيعة علي باديس وأهله من بني مناد للخليفة الجديد الحاكم . ورغم ما تقوله الرواية من أن وصول الداعي صادف عرضا عسكريا لرجال باديس من فرسان ورجاله ، كان باديس قد أعدّه في صفوف محتشدة امتدت من باب القصر بالمنصورة حتى باب قلشانة ، الأمر الذي لم يسبق للداعي أن رأى مثله ، فلا بأس أن يكون باديس قد انتهز الفرصة للقيام باستعراض قوة يسكن أن يتحدث به الداعي اثر عودته الى القاهرة .

والهم أن باديس أحسن وفادة الشريف فأنزله بدار الأمير يوسف بجوار القصر الأميري ، وذلك استعدادا لعقد البيعة ، حيث جلس الأمير وأحضر له بنو مناد ، وسائر زعماء قبائل صنهاجة ثم استدعى الشريف الذي أخذ عليهم البيعة ، ومن الواضح أن هذه كانت بيعة الخاصة التي تبعتهما بيعة العامة ، حيث كان يجلس الشريف الباهري في الدار المخصصة له ، ويستقبل الوافدين الذين كان يأخذ بيعتهم ، من الصنهاجيين وغيرهم . هذا ، كما أحاط باديس الشريف الداعي برعايته ، فوصله بمبلغ كبير من المال ، وتخوت ثياب ، وبراذين بسروج محلاة - كل ذلك هدية خاصة له . أما عن هدية الخليفة الحاكم فقد جهزت لكي تتبعه بعد ذلك الى مصر (٧٨) . وجاءت هدية الخلافة المقابلة من مصر في السنة التالية (٣٨٨ هـ / ٩٩٨ م) ، وكانت تحوى الأعلاق الشخصية من الجواهر وغيرها ، وخرج نصير الدولة باديس لاستقبالها والدخول الى المنصورة ، وهي تتقدمه في موكب احتفالي كبير (٧٩) .

(٧٧) ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٤٨ . وقارن النويري ، ص ٢٢٤ - حيث التقى « البهري » بدلا من الباهري .

(٧٨) النويري ، ص ٣٢٤ ، وقارن ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٤٨ - ٢٤٩ .

(٧٩) ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٤٩ .

أحوال الأقاليم اشرقية في طرابلس وبرقة :

الحلقة تحاول استرجاع طرابلس :

ولكنه لم تكد تستنج فرصه للخلافة الفاطمية لاسترجاع ولاية طرابلس ، بعد فترة وجيزة ، الا وانتهرتها . ففي سنة ٢٩٠ هـ / ١٠٠٠ م ، وبينما كان باديس يعاني من انقسام بنى زيرى ، وخروج كثير من عمومة ابيه عليه ، اذ بالأمور تتعقد بثورة قلقل بن سعيد الزناني الذي تحالف مع بعضهم ، واتصل نائبه بطرابلس تموصلت بن بكار بالخليفة الحاكم فهد القاهرة ، وعرض عليه تسليم مدينة طرابلس والاتجاه اليه . فما كان من الحاكم الا أن أمر واليه على برقة . وهو القائد يانس الصقلي بالمسير الى طرابلس وتسليمها ، وهو ما حدث فعلا في نفس السنة (٨٠) .

وفوجئ باديس بهذا الأمر ، واتصل بيانس يسأله ان كان معه عهد من الحاكم بالولاية ولما لم تقنعه اجابة يانس المراوغة من أنه إنما أتى الى طرابلس معينا ونجدة ، وان مثله لا يطلب منه عهد بولاية سير اليه جيشا التقى به خارج طرابلس . وانتهى اللقاء بمقتل يانس واعتصام أصحابه داخل المدينة التي ضربت عليها قوات باديس الحصار (٨١) . واستجاب الحاكم لطلب المدد من رجاله وسير اليهم جيشا بقيادة يحيى بن علي بن الأندلسي ، وبصحبه القائد زيدان الصقلي مشرفا على الشئون الادارية والمسالية للحملة (٨٢) . وتآزمت الأحوال عندما وجدت خزانة برقة التي كان عليها أن تمد الحملة بالمال ، خاوية . فاضطرت الى الاعتصام هي الأخرى بأسوار طرابلس ، وذلك في ٩ ربيع الأول سنة ٣٩٢ هـ / ٢٧ يناير ١٠٠٢ م .

(٨٠) ابن الأثير ، ج ٩ ص ١٥٤ ، وقارن المقرئى ، المعاط الحنفا ، ج ٢ ص ٣٤ . حيث الانساره الى وصاية برجوان على الحاكم وتدميره لأمور دولة الحاكم على مستوى العلاقات الشخصية حيث يتخلص من يانس الصقلي لانه ثقل عليه ، وأمره بالمسير الى طرابلس . لأن واليه لباديس وهو تموصلت بن بكار يرغب فى المسير الى مصر - مع خطا فى تاريخ تسليم يانس طرابلس فى ١٥ جمادى سنة ٣٧٠ هـ / ٢٧ نوفمبر ٩٨٠ م بدلا من ٣٩٠ هـ / ١٠٠٠ م .

(٨١) ابن الأثير ، ج ٩ ص ١٥٤ وقارن ، المعاط الحنفا ، ج ٢ ص ٣٧ - حيث النصر على ان برجوان عقد ليانس على ولاية طرابلس الغرب واته وصل اليها فى ١٥٠٠ فارس عندما هزم وقتل .

(٨٢) أنظر ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٥٦ .

وقتما كان فلفل بن سعيد مستوليا عليها منذ فترة وجيزة (٨٣) .

والهم أن زمام المبادرة آل الى فلفل الذي أراد انتهاز الفرصة واستغلال القوة الفاطمية في محاولة جريئة لدخول أفريقية تحت غطاء الشرعية الخلافية ، ولكنه لم يقدر لذلك التحالف النجاح أمام قايس التي وصلوا اليها في السنة التالية (٣٩٣ هـ / ٢ - ١٠٠٣ م) ، ربما بسبب عدم الانسجام بين زيدان الصقلي وفلفل ، وإن كان السبب الواضح هو نقص المال الذي وقع عبء تدبيره على زيدان الصقلي ، وبالتالي التقصير في اعطاء الرجال الذين تبند الكثير منهم ، حتى اضطر يحيى بن علي بن الأندلسي الى العودة بالبقية الباقية منهم الى مصر ، والتعرض لمخاطر مساءلة الحاكم وسخطه ، وإن نجح في اقناعه بقبول عذره (٦٤) . وبذلك خلصت طرابلس الى فلفل بن سعيد الذي استوطنها حتى وفاته سنة ٤٠٠ هـ / ١٠١٠ م ، واستعادتها في نفس تلك السنة من أخيه وروا بمعرفة باديس .

أبو ركووة والثورة الزناتية في برقة :

أما عما واجهه الحاكم من المتاعب في برقة بسبب ثورة أبي ركووة التي انتشرت فيما بين سنة ٣٩٥ هـ / ١٠٠٥ م ، حيث تم الاستيلاء على برقة بمساعدة عرب بنى قرة وبربر لواته وزناته ، وسنة ٣٩٧ هـ / ١٠٠٧ م ، حيث كان الدخول الى مصر في محاولة فاشلة ، استدرج فيها الثائر الذي اتخذ اللقب الخلافي « الناصر لدين الله » ، الى شرك أحكم نصبه له فوق فيه مستجيبا الى الحديعة ، بينما كان باديس منشغلا بأحوال المغرب ، من : انقسامات بنى زيري ، وتدخلات العاصريين الأندلسيين . فلقد رأس الثورة دعوى أموى أندلسي ، بدأ ، كما هي العادة في الثورات الإسلامية التي تبحث لها عن تبرير شرعي ، كأمر بالمعروف ، وتجمع في جمع قبائل برقة حوله ، وبخاصة الزناتية منها ، وعندما حقق النجاح على القوات التي بعثها الحاكم

(٨٣) ابن الأثير ، ج ٩ ص ١٥٤ ، وقارن انصاف الطغاة . ج ٢ ص ٥٢ ، ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٥٦ - حيث النص على مسئولية زيدان الصقلي فيما حل بالتملة من الفشل ، إذ بوصف بسوء العقل وضعف التدبير ، الأمر الذي أدى الى اختلاف المسكر ، واستخفاف فلفل بن سعيد به بل واحتقاره .
(٨٤) ابن عذاري ، ج ٢ ص ٢٥٦ ، ابن الأثير ، ج ٩ ص ١٧٧ - حيث النص على سوء مجاورة فلفل واستيلائه على خيول المصريين وعددهم الى جانب قلة المال ، وإن الحاكم أراد قتل يحيى ثم إنه مفا عنه .

الى برقة التى استولى عليها فى رجب سنة ٣٩٥ هـ/ابريل ١٠٠٥ م تدعى
اليه البربر من كل صوب وحذب(٨٥) . واذا كانت الرواية تشير الى أنه
أغرى البربر بفتح مصر ، فلا بأس أن يكون القحط والفلاء ، وما تبعها من
الوباء العظيم الذى ضرب أفريقية سنة ٣٩٥ هـ/ ٤ - ١٠٠٥ م(٨٦) ، من
الأسباب التى شجعت على قيام الحركة فى برقة كمحاولة الهجرة الى مصر
قبل أن تكون فتحا .

وهكذا كانت العلاقات تتأرجح بين الخلافة الفاطمية والنيابة الزيرية
ما بين الصعود والهبوط تبعا للظروف ومقتضى الأحوال ، خلال العقود الأربعة
منذ انتقال المعز الى مصر وحتى خلافة الحاكم ، حيث بلغت حدا من التندى
سمح باستخدام الانتهازية والفدر فى سبيل تحقيق مكاسب عابرة ، مثل :
محاولة استعادة ولاية طرابلس ، بل والتعدى على أفريقية نفسها بحصار
قابس بالتعاون مع الزناتية ، وهم الحلفاء المتقلبون دائما .

فلفل بن سعيد الزناتى فى طاعة القاهرة ، وملجأ لأبناء الكاتب :

وفى إطار تقلب المواقف بين الأطراف المختلفة كان تحالف القسوات
الفاطمية مع فلفل بن سعيد فى طرابلس بمثابة اعتراف من جانب القاهرة
بشرعية وجود الزعيم الزناتى فى طرابلس ، فكانها استردتها من الزيريين
الذين عهد بها اليهم فى أول خلافة العزيز ، وعهد بها الى فلفل سنة ٣٩٢ هـ/
١٠٠١ م ، على عهد الحاكم - الأمر الذى استمر الى سنة ٤٠٠ هـ/ ١٠٠٩ م .
فهذا ما يفسر من جهة كيف أنه بعد وفاة عامل أفريقية محمد بن أبى العرب
سنة ٣٩٦ هـ/ ١٠٠٥ م(٨٧) ، خلفه ابنه القاسم بن محمد بن أبى العرب ،
الذى أقر العمل على ما كان عليه أيام والده قلم يغير مساعديه ، وذلك سنة
٣٩٧ هـ/ ١٠٠٦ م(٨٨) ، فكان عمالة أفريقية قد صارت هى الأخرى وراثية ،
كما هو الحال بالنسبة للنيابة فى الولاية الزيرية ، بل وتحت الاشراف
المباشر للخلافة فى القاهرة ، حسبما خطط لها منذ بدايتها وان كان صاحب
تلك العمالة قد أصبح وزيرا للأمير الزيرى ، أكثر منه موظفا خلافيا . فهذا

(٨٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٥٦ - ٢٥٨ ، ابن الأثير ، ج ٩ ص ١٩٧ وما يندرج
- وانظر انماط الحنفا للمقرئى ، ج ٢ ص ٦٠ - ٦١ .
(٨٦) التويرى ، ص ٣٢٨ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٥٦ .
(٨٧) ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٣٧٠ .
(٨٨) ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٣٧١ .

ما يمكن أن يستشف من أحداث سنة ٣٩٩ هـ / ١٠٠٨ م ، عندما ساءت العلاقة مع أبناء محمد بن أبي العرب فهربوا من المنصورية يريدون الالتجاء الى فلفل بن سعيد بطرابلس حيث كان مقيما بموافقة ضمنية من الخلافة ، مما سبقته الإشارة اليه (ص ٣١٩) ، الأمر الذي أثار ثائرة باديس الذي أصدر أوامره الى عامل قابس بقطع الطريق عليهم ، فأخذ منهم عليا ويوسف فقتلها وبعث برأسيهما الى المنصورية في آخر المحرم / أكتوبر وان كان باديس قد عفا عن القاتل ، صاحب العمالة ، عندما عاد اليه معتذرا (٨٩) .

أبناء ينال التركي يوجهون أنظارهم الى باديس :

وفي إطار هذا التقلب في العلاقات بين الأطراف المعنية ، تشير النصوص الى أن بناء القائد ينال التركي ، والى برقة الذي قتل في سبيل استعادة طرابلس ، والذي كان قد كون أسرة لها مكانتها الاجتماعية والسياسية في طرابلس أثناء حكم فلفل بن سعيد ، ومنهم : عبد الله وشواش ومن كان في خدمتهم من الرجال ، كانوا مستعدين للانضمام الى جانب باديس سنة ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م وهو في طريقه الى قتال الزناتية في طرابلس ، بعد وفاة فلفل ، إذ « عرفوه انهم لما علموا بخروجه أغلقوا أبواب طرابلس ومنعوا الزناتيين منها ، فسر بذلك ، ووصلهم وأحسن إليهم » . هذا ، ولو أن المسألة تظهر في شكل تسوية - حسب صفقة شاملة ، كما يقال الآن - إذ أنه بعد دخول باديس طرابلس ، استجاب لطلب وروا أخى فلفل (فلفل) ومن معه من الزناتية ليس بتلبية الأمان فقط ، بل وبتميينهم عمالا على إقليم نفراوة المجاور ، شريطة الارتحال عن أعمال طرابلس (٩٠) .

وروا بن سعيد زعيما للزناتية في نفراوة :

والحقيقة انه إذا كان القلب قد بلغ يوروا ومن معه من الزناتية الى حد مخالفة باديس في السنة التالية ٤٠١ هـ / ١٠١٠ م ، والفرار من نفراوة ، فإن العلاقات مع الحاكم بأمر الله تعود الى مجاريها سنة ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م ، حيث وصلت هدية جليطة من الحاكم ، بحرا عن طريق المهديّة ، الى باديس (تصير الدولة) والى ولي عهده ابنه المنصور ، فخرج الاثنان مع أهل القروان لكي يعودوا بها من موضع قصر الماء ، في احتفال بديع تتقدمهم البنود

(٨٩) ابن عذاري ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٣٧١ .

(٩٠) النويري ، ص ٣٢٩ .

والطبول . والمهم بشأن سفارة الحاكم هذه أنها كانت تحمل سجلا باضائة ولاية برقة وأعمالها الى ولاية باديس (٩١) ، فكان الخلافة ارادت أن يكون لها حدود مشتركة مع نيابتها الزيرية فى أفريقية .

علاقات حسنة بين الحاكم وباديس :

تبادل السجلات والهدايا :

وازدادت الصلة بين الحاكم وباديس حتى كان الخليفة يطلع باديس على ما كان يتخذ من قرارات مصيرية بالنسبة للخلافة الفاطمية ذاتها ، من ذلك توليته العهد لابن عمه أبى القاسم عبد الرحمن بن الياس بن أبى على بن المهدي ، الذى وصل سجل به الى باديس سنة ٤٠٤ هـ / ١٠١٣ م ، فقرئ فى جامع القيروان ، الأمر الذى تطلب اثبات اسمه فى البنود ونقشه على السكة الى جانب اسم الحاكم ، رغم عدم رضا باديس عن فكرة تحويل ولاية العهد من الابن الى ابن العم (٩٢) . وهكذا كان على باديس أن يبعث فى السنة التالية ٤٠٥ هـ / ١٠١٤ م بهدية جليلة الى الحاكم ، كما ضمنها بديبلوماسية بارعة ، هدية أخرى من قبل أخته السيدة « أم ملال » الى السيدة (الست) أخت الخليفة الحاكم ، وقام بتشجيعها بنفسه من المنصورية بالبنود والطبول . ورغم أن وجهة الهدية الخلافة التى عهد بها الى القائد : يعلى بن فرج كانت المهدية من حيث يكون طريق البحر الى الاسكندرية والقاهرة ، فانها راحت نهبا لعرب برقة ، عندما رست المركب هناك ولكن أو للراحة .

علاقة عرب بنى قررة فى برقة بالقاهرة :

وتنسب الرواية الى يعلى بن فرج التقصير فى حفظ الهدية والعجز نى الدفاع عنها بما كانت تحويه من الأفراس الأصيلة ، والسروج المحلاة وأحمال الخز والسمور والأقمشة السوسية المذهبة ، الى غير ذلك من فتيان الصقالية والوصيفات ، فأسلمها جميعا لخطائنها بنى قررة ، من عرب برقة (٩٣) . ولا

(٩١) ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٣٧٣ - ٣٧٤ ، وقارن انساط الحنفا للمقريزى ، ج ٢ ص ٩٩ .

(٩٢) ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٣٧٥ . وقارن انساط الحنفا ، ج ٢ ص ١٠٠ .

(٩٣) ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٣٧٥ - حيث النص على أنها حوت ١٠٠

ندرى ان كان قاطعوا الطريق هؤلاء يعرفون انهم يمدون ايديهم الى أمتعة الخليفة ، اذ ربما تكون المسألة عندئذ نوعا من الثأر أو الانتقام لما نزل بأهل برقة الذين ساندوا أبا ركوته ، من العقاب عندما هاجموا مصر منذ أقل من عشر سنوات ، وهو الأمر الذي يرجحه تخلص الحاكم من ولاية برقة وعهده بحكمها الى باديس قبل ذلك بقليل فى سنة ٤٠٣ هـ/ ١٠١٢ م .

وكانت لفظة كريمة من الحاكم أن رد ، على الهدية المتهوبة ، فى نفس السنة ٤٠٥ هـ/ ١٠١٤ م ، بهدية جليلة ، وصلت مع سفيرين من لدنه الى المنصورية . وتكونت الهدية الخلافية ، من : خلع سنية ، وسيف مكلل ، الى جانب سجل بولاية العهد للمنصور بن باديس - الذى توفي بعد قليل - مع اعطائه لقب « عزيز الدولة » . واستقبل باديس السفارة والانعامة الخلافية بما يليق بها من التبجيل والترحيب والسرور . وبعد قراءة السجل من أعلى منبرى المنصورية والقروان تقبل باديس التهاني من وجوه رجال الدولة الذين قدموا له الهدايا والأموال (٩٤) .

سجل ولاية العهد للمنصور بن باديس والنزاع مع العلم حماد :

وكان سجل الحاكم بولاية العهد للمنصور بن باديس سببا فى اثاره نزاع بين باديس وبين عمه حماد بن يوسف بلكين والى آشير ، وصاحب القلعة . وذلك أن باديس أراد أن يؤكد ولاية العهد النظرية من قبل الخلافة للمنصور باجراءات عملية ملموسة ، مما يؤكد الولاية للمنصور ، من الأعمال (الولايات) الهامة له لكي يقطعها لأعوانه وأتباعه الذين يعضدون ولايته للعهد ثم ملكه عندما يرث والده . ورأى باديس أن يجعل من ذلك فرصة لاختبار نوايا عمه حماد ، الذى كانت قد اتصلته به أمور عنه أنكرها ، وذلك عن طريق تنازله عن بعض اقطاعاته التى كان يديرها بعض أصحابه ، بحيث

درس ١٨ قصبا للسروج و١٨ حملا للأقنعة والمنسوجات ، و٢٠ وصيفة و١٠ من الصفاة . وقارن اعطاء الحنفا ، ج ٢ ص ١١٠ .

(٩٤) النويرى ، ص ٣٢٩ - حيث اسم السفيرين : عبد العزيز بن أبى كندية ، وأبو القاسم بن حسين . اما عن المنصور بن باديس ولى العهد فى هذا السجل فلم تقدر له الحياة اذ توفي بعد فترة وجيزة لكى يحل محله اخوه الأصغر العز بن باديس . وقارن اعطاء الحنفا ، ج ٢ ، ص ١١١ - حيث السفير الثانى ابن حسن بدلا من حسين ، مع الإشارة الى احتمال الهدية على خلع وسيوف وتشريفات منصور بن نصير الدولة بولاية ما يتولاه أبوه فى حياته وبعد وفاته مع لقب عزيز الدولة .

تقدم لولى العهد لكي تعطى لبعض أعوانه . ووقع اختيار باديس على مدن :
تيجس وقصر الأفريقي وقسنطينة ، وكانت بيد القائد أبى زعبل ، لكنى
يتنازل عنها حماد ، فتعطى للقائد هاشم بن جعفر . وفى الوقت الذى أعده
فيه باديس كتابا الى عمه حماد يأمره بتنفيذ رغبته تلك ، كان يدعو هاشم
ابن جعفر ليخلع عليه ، ويعطيه الطبول والبستود ، ويطلب منه الخروج الى
هذا العمل . كما كان يعهد الى عمه ابراهيم الذى كان يشك فى تحيزه الى
أخيه حماد ، بعد مشاورات شكلية معه ، هدفها إعطاؤه الحرية فى اختيار
الفريق الذى يفضل الانضمام اليه ، بحمل كتاب أخيه حماد ، على أن يعمل
على تسهيل المهمة باقناع حماد بالاستجابة الى طلب الأمير ، ابن أخيه (٩٥) .

والهم أن ابراهيم خرج فى ١٩ شوال سنة ٤٠٥ هـ / ١٤ / ٤ / ١٠١٤ م
وبصحبه القائد هاشم بن جعفر الوالى المرشح للعمل المطلوب للمنصور ولى
العهد ، ولكنه عندما اقتربا من موضع حماد ، ترك ابراهيم رفيق سسفره
هاشما وحده ، على أمل اللقاء فيما بعد ، ولكنه لم يلبث أن ظهر مع أخيه
حماد ، وقد اجتمعت كلمتهما على العصيان ، وتبدأ بين الطرفين حرب غريبة
تختلط فيها القسوة بالحداد ، والغدر بالولاء (٩٦) ، لكي تتوقف أمام القاعة
الحمدية حيث توفى باديس فجأة أثناء حصاره لحمد فى ٣٠ من ذى القعدة
سنة ٤٠٦ هـ / ١١ مايه ١٠١٦ م ، مصابا بالذبحة (٩٧) .

(٩٥) أنظر النويرى ، ص ٣٢٩ - ٣٣٠ - حيث الاشارة الى تفصيلات يستدل منها على
أنه كان يمكن التأكد من نوايا حماد عن طريق اعتقال أخيه ابراهيم ، كما انه كان يمكن
التيقن بغدر ابراهيم من بعض أقواله وأفعاله ، مثل : طلبه مهلة ٣٠ يوما فقط للقيام بتلك
المهمة ، وخروجه بكل أمواله التى بلغت ٤٠٠ ألف دينار وبجميع خزانته وذخائره ورجاله
وعبيده - كما تبالح الرواية على ما نطق .

(٩٦) أنظر ابن الأثير ، ج ٩ ص ٢٥٤ - ٢٥٥ - حيث النص على أن باديس سير
جيشا الى قلعة حماد فغريها ، ولكنه لم يأخذ مال أحد . ولكن عندما لجأت جماعة من
جند القلعة الى باديس كان انتقام حماد وأخيه ابراهيم رهيبا ، إذ ذبح أبناءهم وهم على
مدور أمهاتهم ، قتل بيده منهم ٦٠ طفلا ، ثم قتل الأمهات . كما أنه عندما وصل حماد
الى مدينة دكة تجنى على أهلها وقتل منهم ٣٠٠ رجل . كما قتل فقيه البلد ، وحمل جميع
ما فيها من طعام وملج وذخيرة الى القلعة .

(٩٧) ابن خلكان (باديس) ، ج ١ ص ٢٦٥ - حيث النص على ان موته كان انتقاما
ربانيا وطقا بأهل طرابلس التى حلف انه « لا يدخل عنها حتى يعيدها فدنا للزراعة .
وذلك بفضل دعا الرالى الصالح ، المؤدب محرز ، الذى دعا قائلا : « يا رب اكفنا باديس » ،
فهلك فى ليلته بالذبة - والله أعلم ، وقارن الاعلام لابن الخطيب ، ص ٧٣ - حيث الوفاة
فى ٢٠ ذى القعدة / ١ مايه ، بدلا من ٣٠ ذى القعدة . وذلك لظن من الله بعمه حماد المحاصر
فى قلعة ، بسبب عرق قتالة تملكت بشيابه ، بدلا من القبة . وهكذا حتى لحمد الذى =

وعلى عهد المعز بن باديس رابع الأمراء تبدأ مرحلة جديدة فى العلاقات بين الخلافة فى القاهرة وبين النيابة فى القيروان ، هى مرحلة القطيعة — على المستويين الدينى والسياسى — وإذا كانت الروايات التاريخية تكاد تلقى بعبء تلك الأزمة على عاتق أمير القيروان الذى لم يكن قد شُبَّ عن الطوق بعد ، فمن المقبول أن يكون للخليفة الحاكم دوره — وهو ما هو معروف عنه — فى إثارة تلك الأزمة ، وكذلك من خلقه من الظاهر والمستنصر مما يأتى فى موضعه .

مبادئ الحكم فى العمالة الأفريقية وتطبيقاتها العملية :

أقرار الأمن :

المعروف أن الخليفة المعز لدين الله أوصى نائبه الصنهاجى ، القائد بلكين بن زيرى بن مناد ، بما ينبغى عليه أن يتبعه فى حكم ولايته الأفريقية ، وأنه من بين وصاياه الكثيرة ركز على ثلاثة منها ، هى :

الأ يرفع السيف عن البربر ، ألا يرفع الجباية عن أهل البادية ، وأن يفعل بأهل الحاضرة خيراً ، وهى الوصايا التى تعتبر بمثابة مبادئ للحكم أو برنامجاً للعمل السياسى ، ثم أنها صارت أربعة عندما أضيف إليها مبدأ خاص بالأسرة الزيرية نفسها ، أسرة بلكين ، ويتلخص فى عدم إشراك أحد من أهل بيته فى الحكم خشية أن يروا أنهم أولى منه بذلك (٩٨) .

والمقصود بالبربر الذين لا يرفع السيف عنهم ، هم قبائل زناتة ، أشهر ممثلى قبائل البتر بمعنى البدو الرحل ، أصحاب مضارب الخيام ، الذين لا يفهمون معنى الاقتصاد المدنى فكانهم المقصودون أيضاً بالمبدأ الثانى الخاص بضرورة إخضاعهم الى دفع الضرائب ، بسواء عن الزراعة أو تربية

تضافت منه رواية ابن الخطيب هذه ، أن يقول ، وهو يشرف على جيوش ابن أخيه باديس وهى تخلص له حيفا ، فتصرف بتاجوته فى خير ثبات وأحسن تعبئة : مثل هؤلاء يتخلص الملك وتبدل فيهم النعم ، وذلك مقارنة برجاله الذين أحسن اليهم فكان جزاؤه منهم القرار وتكران الجبل — وهو حى يرقز .

(٩٨) أنظر ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٥٥ — حيث تقتصر الوصية على ما يتعلق فقط بالتحقق على البربر وإخضاع أهل البادية للضرائب ، وإبعاد أهل بيته الزيريين عن مهام الحكم . وقارن النويرى ، ص ٣١١ — حيث النص على ٣ أشياء مع ذكر الأربعة جميعاً . والنص هنا مضطرب لم ينجح المحقق فى تصويبه وذلك أنه يذكر فى الوصية الأولى « أهل البلاد » بدلا من أهل البادية ، وفى الثالثة « ابن مضر » بدلا من أهل الحضر ، أما الرابعة ففيها اخوتك بدلا من أهل بيتك .

المباشية . فكان الهدف من تلك السياسة هو : توطيئهم والعمل على تحويلهم الى أهل حضر ومدن ، مثلهم فى ذلك مثل قبائل البرانس بمعنى الحضر ، وأهم ممثليهم فى القرن الرابع الهجرى/ ١٠ م الذى نحن بصدده ، وكذلك القرن الذى يليه (٥ هـ / ١١ م) ، هم : صنهاجة أفريقية ، قبيلة الزيريين ، فكان المقصودين بالاحسان اليهم هم : صنهاجة ، عصب الدولة ، ومن يلوذ بها من كتامة ، أنصار الفاطميين الأوائل ، وكذلك من يحوم حولهم من سائر اصناف البربر ، دون تفرقة بين بتر وبرانس أو زناتية وصنهاجية ، طالما دخلوا فى الطاعة وأصبحوا ضمن الرعية المرعية .

أما عن المسألة الخاصة بالأسرة الحاكمة ، فالتقصد منها أن يولى الأمير عنايته بانسبة لأهل بيته فلا يغفل عن التأكد من حسن سيرتهم ، وصدق نواياهم فى خدمة الأمير ، وبالتالي فى خدمة الدولة ، وعدم إعطاء الفرصة للطموحين منهم باشغال الفتنة ، أو محاولة اقتطاع امارات لهم فى الأقاليم البعيدة عن مركز الدولة - وهو ما عانت منه الدولة الزيرية منذ عهد الأمير الثالث : باديس ، والذى انتهى على عهد الرابع منهم وهو المعز بن باديس بانقسام الدولة الى مملكتين ، احدهما فى القيروان والمهدية ، وهى الدولة الزيرية ، والأخرى فى القلعة وبجاية وهى الدولة الحمادية .

وهكذا يمكن تلخيص البرنامج السياسى الذى رسمه المعز لنائبه ولكن فى المبادئ الأربعة التالية :

١ - انتهاج سياسة قوية ضد خصوم الدولة التقليديين من القبائل الزناتية ، حلفاء أعداء الفاطميين التقليديين أيضا ، وهم : الأمويون فى الأندلس ، بهدف اخضاعهم للدولة ، وتجنيدهم ضمن الرعية ، وهو ما يتحقق بتطبيق المبدأ الثانى .

٢ - إجبار أهل البادية ، وهم الزناتية بشكل عام ، على دفع الضرائب الواجبة عليهم لبيت المال (الخزانة العامة) ، بمعنى الزامهم بالعمل فى الزراعة وتربية الحيوان ، الأمر الذى يحقق الرخاء وبالتالي الأمن فى البلاد ، والذى يؤدى بالتالى الى تحويلهم الى رعية مستقرة ، مثل : أهل الريف والحضر ، عماد الدولة وقاعدة استقرارها ، من حيث هم جامعو المال بمعنى أنهم الأيدي صانعة الحضارة ، وهو ما يؤدى بالضرورة الى تطبيق المبدأ الثالث .

٣ - لما كان أهل الحضر من زراع وصناع وتجار وأصحاب أعمال

وإذى أملاك وخبرات ، هم رعية الدولة الحقيقين من حيث أنهم أدوات الانتاج ومصدر الأموال التى تسير دواليب أجهزة الحكومة المختلفة ، فمن الواجب رعايتهم والاحسان اليهم حتى تتحقق مقاصد اصول الحكم ، من : اقرار الأمن ، ونشر العدل ، وعلى الجملة توطيد أركان الرخاء للنساس ، وتأكيد أسباب السعادة لهم - حسبما تقضى به قواعد السياسة المدنية .

٤ - لما كانت التجربة التى عرفتها دولة الاسلام منذ العصر الأموى ، وما تفرع عنها من إمارات تابعة أو دويلات متغلبة ، قد أكدت أن أوفق نظم الحكم هو النظام الوراثى الذى ينتقل فيه الحكم من الأب الى الابن ، وهو الأمر الذى يمثل أصل توارث الامامة عند الفاطميين ، كان من الطبيعى أن تكون وصية المعز بأن يتبعه نائبه فى تطبيق نفس النظام فى أسرته اليوسفية ، دون بقية البيت الزيرى - حتى يبقى على الروابط القوية بين الأسرتين ، ويمنع من تفتيت ولايته بعد الاستقلال الذى كان مقدرًا لها - وهو الأمر الذى يؤكده ما ارتآه المعز بعد قليل من رحيله الى مصر ، من ارسال ألف من الفرسان الصنهاجيين ، وعسل رأسهم الأمراء أبناء زيرى ، وهو ما رفضه بلسكين ، وبرره بحاجته اليهم فى حرب زناتة بالمغرب (انظر فيما سبق ، ص ٣٤٤) .

وهكذا يمكن اعتماد تلك المبادئ المستنبطة من واقع التاريخ الفاطمى فى المغرب ، كمنادى رئيسية لدراسة الدولة الصنهاجية - التى بدأها بنظام النيابة الافريقية وعلاقتها بالخلافة فى القاهرة - حسبما يلى :

اقرار الأمن فى أفريقية وأعمالها :

بأغاية وتاهرت :

عاد يوسف بلكين ، بعد توديع المعز له ، الى المنصورية فى ١١ ربيع الأول سنة ٣٦٢ هـ / ٢٠ ديسمبر ٩٧٢ م ، واستقر فى القصر الأميرى ، وسط ترحيب أهل القيروان الذين أعلنوا فرحهم بالعهد الجديد ، واستبشروا به خيرا . وبمجرد خروج ولاية الأقاليم وجباة الضرائب الى أعمالهم فى مختلف البلدان ، « استقامت الأمور بحسن تدبيره » (٩٩) . والواضح من النصوص أن بلكين كان يعرف دوره كرجل دولة سياسى ، الى جانب كونه قائدا

عسكرياً . فهو ينتهى من ترتيب أمور المملكة فى بلاد الزاب وجبل أوراس ، ذات الميول الانفصالية قبل أن يتجه نحو بلاد المغرب حيث أعداء الدولة الزناتية ، فلا يستغرق الا فترة وجيزة لا تتجاوز ٣ (ثلاثة) أشهر ، اذ خرج فى شهر شعبان/مايه من القيروان للاطمئنان على سير الأمور فى أقاليم الدولة الغربية - وهو يعنى نصائح المعز التى تقضى باستخدام الشدة فى موضعها واللين فى موضعه - فعندما يصل الى مدينة باغاية ، يولى فيها عاملاً من قبله ، ويأمره باستخدام اللطف فى معاملتهم ، مما دعاهم الى اعلان الولاء والطاعة ، ولو أنهم لم يلبثوا أن ثاروا على العامل الجديد وتحصنوا بمدينتهم ، مما دعا بلكين الى التفكير فى العودة اليهم بعد أن اقتحم تاهرت النائرة ، لولا تهديد الزناتية لمدينة تلمسان (١٠٠) . والظاهر أن تلك الظروف كانت مواتية لكى تظل باغاية على عصيائها الى ما بعد القضاء على ثورة خلف بن خير فى كتامة سنة ٣٦٤ هـ/ ٩٧٤ م (انظر فيما سبق ، ص ٣٠٥) حيث استسلم أهلها لبلكين ، ونزلوا على حكمه بالطرد من القلعة التى أخربها (١٠١) .

اضطراب رجال الأسطول :

ومن المهم الاشارة الى أن الاضطرابات لم تكن تنور فى الأقاليم البعيدة عن مركز الحكم فى القيروان فقط ، مثل بلاد الزاب وجبل أوراس ، بل انها كانت تنفجر تلقائياً نتيجة لبعض الاجراءات التى كانت تتخذها الدولة ، مثل : حشد الرجال للعمل فى الأسطول فيما يمكن أن يشبه بالسفينة . وفى شهر ذى الحجة سنة ٣٦٥ هـ/ ٩٧٥ م أصدر بلكين أوامره الى نائبه عامل أفريقية : عبد الله بن محمد بن الكاتب باعداد أسطول - ربما لغزو بحرى لا تعرف المصادر بوجهته - مجهز بالرجال والسلاح . وهكذا خرج عبد الله ابن محمد الى المهديّة وأخذ فى حشد البحريين من كل البلدان ، كما أمر بجميع المتخلفين منهم ، سواء فى القيروان أو فى غيرها من المناطق ، ووضعهم فى السفن التى امتلأت بهم ، انتظارا لترحيلهم الى المهديّة ، الأمر الذى أثار القلق فى النفوس بين الخاصة والعامة حتى أنهم امتنعوا من الخروج ولزموا بيوتهم . وفى ذلك تقول الرواية ان اعتكاف الناس فى ديارهم بلغ الى حد أنه « اذا مات أحد عندهم لا يخرجوا الا النساء » (١٠٢) .

(١٠٠) النويرى ، ص ٣١١ ، ٣١٢ .

(١٠١) النويرى ، ص ٣١٤ ، وقارن ابن الأثير ، ج ٨ ص ٢٣ .

(١٠٢) ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٣٢٧ .

وفى أول المحرم من السنة التالية ٣٦٦ هـ / ٣٠ أغسطس ٩٧٦ م ،
كان الأسطول قد أعد لاستقبال البحريين من رجاله والافلاخ الى وجهته ،
ولكن الرياح لم تكن مواتية ، واستمر ركودها لفترة طالت الى أن نفذ الزاد
والماء فى البحر . وعندما فقد الرجال صبرهم نزلوا جميعا الى البر من :
نوتية وبحرية ، ثم انهم هربوا بما نهبوا من المراكب ، من عدة وسلاح ، الى
كل الجهات . وتطلب الأمر اجراءات شديدة فى ملاحقتهم ، بل وأنزل عقوبة
القتل بمن ظفر به منهم (١٠٣) .

ولا ندرى ان كان لهذا الاضطراب الذى عرفته القيروان والمهدية بسبب
تعبئة الأسطول هذه ، صلة بذلك الصراع الذى كان قد قام بين ابن القديم ،
عامل أفريقية السابق الذى كان معتقلا فى سجن عبد الله بن محمد الكاتب ،
وبين هذا الأخير ، فى ذلك الوقت الذى توفى فيه ابن القديم (٣٦٦ هـ /
٩٧٦ م) فى سجنه هذا . فهذا الصراع هو الذى أدى الى ثورة قبائل
كتامة ، أنصار الفاطميين ، الذين أثارهم خلف بن خير ، أحد معاوينى
ابن القديم السابقين ، الأمر الذى تطلب أعمال ردع قاسية من جانب بلكين .
بناء على نصائح عامل أفريقية عبد الله الكاتب نفسه (انظر فيما سبق .
ص ٣٠٥) .

واعتبارا من نهاية اضطراب تلك السنة ، وحتى وفاة بلكين سنة
٣٧٣ هـ / ٩٨٣ م ، كانت أحوال أفريقية وما يتبعها من الأعمال هادئة ،
الأمر الذى هيا الظروف المناسبة للعمل على اقرار نفوذه فى المغرب الأقصى ،
حيث قضى نحبه فى طريق العودة ، فى وارجلان ، من المغرب الأوسط . يوم
الأحد ٢٠ ذى الحجة سنة ٣٧٣ هـ / ٢٦ مايو ٩٨٤ م .

(١٠٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٢٩ - ٢٣٠ ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٣٢٨ .

عهد المنصور (٣٧٣ هـ / ٩٨٤ - ٩٩٦ م)

تمت ولاية المنصور ، دون صعوبة ، وذلك أن بلكين كان قد اوصى القائد أبا زعبل بن مسلم ، أحد خواصه من العبيد (السودان) ، بالعمل على تسهيل الامر على ولي العهد ، المنصور ، للجلوس على العرش ، وهذا ما قام به ابو زعبل عندما أسرع بإبلاغ المنصور ، حيث كان يقيم في اسير . بوفاة والده ، فاسترع باعتسلان النبا ، وجلس لتلقي العزاء في وفاة والده واستهنه بامارته . دونما اعتراض او صعوبة من قبل عمومته ، أبناء زيروى او غيرهم ، ممن كانوا في حاشيته باشير او في صحبه بلكين في حملته المغربية (١) .

اقرار البسلطان الاميرى : محاولة اقضاء الكاتب في القيروان :

وفيما يتعلق بالسياسة الداخلية كان أول أعمال المنصور سنة ٣٧٤ هـ / ٩٨٤ م هو اقضاء عامل أفريقية ، الكاتب أو الوزير ، عن منصبه بمعرفة أخيه يطوفت بن بلكين ، ولكنه عدل عن ذلك ، سياسة ، لكي يستقبل الرجل الذى تعرض للمضايقة الشديدة ، على رأس المهنيين من أهل أفريقية ، مع الاعتذار عما بدر فى حقه من أخيه ، وان أكد للوفد انه ليس ممن يولى بكتاب ريعزل بكتاب (انظر فيما سبق ، ص ٣٠٩) . فكان ذلك كان اعلانا من قبل الامير النزيروى بالاستقلال عن خليفة القاهرة الفاطمى . وهكذا لم يكن من الغريب أن يخرج أهل القيروان فى جموعهم الغفيرة وعلى رأسهم عبد الله الكاتب عندما يقدم عليهم المنصور يوم ١٩ من شهر رجب (٣٧٤ هـ / ١٦ ديسمبر ٩٨٤ م) ، ولم يكن من المستغرب بالنسبة للامير الذى يريد أن يثبت أقدامه فى أفريقية كحاكم مستقل أن يبين لتلك الجماهير أن من أهداف برنامجه السياسى : تحقيق الخير للجميع مع وعدهم بكل جميل (٢) . وخلال اقامته بالقيروان ، فى رقادة ، عمل على تأكيد الاحتفالات الفاطمية التى كان قد بدأها المعز فى المغرب ، من : الخروج

(١) النويرى ، ص ٣٧ ، انظر ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٣٩ - حيث الاسم : ابو زعبل ابن هشام (بدلا من ابن مسلم) ، ابن الاثير ، ج ٩ ص ٣٤ .

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٠ ، النويرى ، ص ٣١٧ - ٣١٨ .

الى المصلى يوم الفطر ، اول شوال فى موكب مهيب ، حيث ركب على سرج
مكمل بالدر والياقوت ، كان قد أعد له خصيصا لتلك المناسبة ، التى خرجت
فيها الى المصلى اعداد غفيرة من القيروانيين (٣) .

بعد ذلك لا نجد ذكرا لاقامة المنصور فى قصور صيرة المنصورية
بالقيرون ، الا فى سنة ٣٧٧ هـ / ٩٨٧ م حيث وصل يوم الاثنين ١٥ من
المحرم / ١٧ ما به ويصحبته عبد الله الكاتب الذى صار يقيم معه فى أشير ،
بينما ابنه يوسف (ابن عبد الله) كان يتوب عنه فى القيرون (٤) ، وهى
الاقامة التى تخلص فيها المنصور من وزيره : عبد الله الكاتب بالقتل ، وجعل
مكانه يوسف بن أبى محمد والى قذصة ، الذى عهد اليه المنصور بمسألة
أفريقية يوم الخميس ٢٥ شعبان سنة ٣٧٧ هـ / ٢٠ ديسمبر ٩٨٦ م ، فأعطاه
شعارات الولاية ، من : الطبول والبندود والحلج الأميرية ، كما أنزله فى دار
القائد جوهر (٥) .

فى كتامة : ثورة أبى الفهم :

أما عن عصيان كتامة فى السنة التالية ٣٧٨ هـ / ٩٨٨ م الذى يظهر
كعمل انتقامى من الخلافة بالقاهرة ضد نائبها الزيرى بالقيرون ، مما سبقت
الإشارة اليه (ص ٣١٤) ، فقد بدأ عملية تأهيل مذهبي للكتاميين ، أنصار
الدعوة الفاطمية . وذلك انه وصل الى القيرون سنة ٣٧٦ هـ / ٩٨٦ م أحد
الدعاة الحراسانيين ، وهو أبو الفهم حسن بن نصرويه ، وفدا من قبل
الخليفة العزيز بالله . ولما كان عبد الله الكاتب فى صحبة المنصور بأشير
فان الداعى نزل على ابنه ونائبه بالمنصورية ، يوسف ، الذى أحسن
استقباله ، وأغدق عليه الأموال الكثيرة من الرواتب الجارية والهدايا .

ولكنه عندما طلب أبو الفهم من يوسف أن يذهب الى بلاد كتامة
لدعوتهم ، رأى أن يستشير والده فكتب اليه بالأمر ، فما كان من عبد الله
الكاتب الا أن يطلب من ابنه أن يعطى المبعوث الفاطمى ما يشاء ، وأن يتركه

(٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٠ .

(٤) النويرى ، ص ٣١٦ . ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٢ .

(٥) النويرى . ص ٣٢٠ - حيث استمرت ولاية يوسف بن أبى محمد الى يوم الأحد
٢٣ ربيع الأول سنة ٣٨٢ هـ / ٣٠ ما به ٩٩٢ م عندما عزل المنصور وولى مكانه أباه عبد الله
محمد بن أبى العرب الكاتب - وأفلت فيما سبق . ص ٣١٥ .

يذهب حيث يشاء^(٦) . فكانما أراد أن يتخفف من عبثه بإيسر السبل
دونما احراج ما ، بين الخلافة والأمير .

وكان خروج أبي الفهم الى كتامة في موكب رسمي مهيب ، يحيط به
الفرسان على السروج المحلاة ، وتتقدمه صناديق (تخوت) الثياب الثمينة ،
وأكياس بدر الدراهم^(٧) . واستقبل الكتاميون داعي الخلافة بما يليق به من
التبجيل ، وقدموا له كل عون مادي ومعنوي الى أن انتهى به الأمر وكأنه
عامل مدشن ، فصار يجمع العساكر ويركب الخيل ، ويعمل البنود^(٨) ، يل
ويصك النقود حسب مقالة النويري (ص ٣٢١) ، وحتى قيل ان غرض
الخلافة كان أن تميل كتامة الى أبي الفهم وترسل اليه جنودا يقاتلون
المنصور ، ويأخذون أفريقية لما رأى قوته^(٩) .

الانتقام من ميلة :

وهكذا كان على المنصور أن يعرف الخلافة في القاهرة بخطورة الوضع
الذي ترتب على وجود الداعي الخراساني في كتامة ، بل وأن يحذر من مغبة
ذلك ، الأمر الذي دعا الخلافة الى أن تبعث سنة ٣٧٧ هـ / ٩٨٧ م التالية الى
المنصورية سفيرين ، أحدهما كتامي يكنى بأبي العزم ، والآخر من عبيد
الخلافة واسمه محمد بن ميمون ، يطلبان من المنصور ألا يعرض للداعي أو
لجماعة كتامة ، على أن يلحقا بالكتاميين بعد ذلك . وأوضحت المداوالات بين
الطرفين تعارض المواقف ، وانتهت بتبادل الشتائم بينهما^(١٠) . وكان على
القوة إذن أن تقرر مصير هذا التنازع فمنع المنصور السفيرين من الخروج الى
كتامة بعد أن أبقاهما لديه خلال شهرى شعبان ورمضان ، ثم صاحبهما معه

(٦) النويري ، ص ٣٢١ .

(٧) النويري ، ص ٣٢١ .

(٨) النويري ، ص ٣٢١ ، وقارن ابن الأثير ، ج ٩ ص ٥٢ - حيث النص على ان
العزير أرسله يدعو كتامة لطاعته ، وأنه كثر تبعه رقاد الجيرش وعظم شأنه .

(٩) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٥٢ .

(١٠) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٥٢ - حيث النص على اعلاط كل طرف القول للطرف
الأخر بما فيهم الخليفة العزيز نفسه ، وقارن النويري ، ص ٣٢١ - حيث نفس الرواية
وإن كانت أكثر تفصيلا حيث أسماء السفيرين مع تسمية الثاني منهما مرة أخرى
ب « ابن الوزان » ؟ كما تأتي الإشارة الى أن معزى العزيز بالله هذا المنصور بأن يعزى
الكتاميون به الى العزيز بحبل في عنقه (ص ٣٢٢) .

فى حملته لتأديب كتامة ، بعد عيد الاضحى ، فى اواخر ذى الحجة (اواخر ابريل ٩٨٨ م) ، وهو يسير متثاقلا حتى دخلت سنة ٣٧٨ هـ / ٩٨٨ م ، قبل ان يصل الى مدينة ميلة ، حيث أعلن عزمه على قتل أهلها . ولكن الأمير الصنهاجى الذى يظهر عتيفا قاسيا فى كثير من الأحيان ، يفجر هو الآخر باكيا عندما خرج له نساء ميلة وأطفالها يابن متضرعين ، الأمر الذى لم يمنع من قتل والى المدينة ، ونهب المساكن كل ما كان فيها ، مع هدم سورها ، ونقل أهلها بما خف حملة من المتاع والنقود - وإن وقع كل ذلك بين يدي ماكسن بن زيرى ، عم المنصور ، عندما اعترضهم فى الطريق (١١) .

تأديب كتامة والمثلة بالتائر :

ومن ميلة دخل المنصور الى بلد كتامة ، وهو يهدم القصور والمنازل والدور ، ويحرقها بالنار ، ويعير رسولى العزيز بضعف كتامة . ويقول لهما : « هؤلاء الذين زعمتم أنهم يعضون بى بحبل فى عنقى الى مولاكما » (١٢) . وفى منطقة سطيف حيث مركز قيادة الثورة كانت النهاية بالنسبة لأبى الفهم وتورته حيث هرب الى قلعة حصينة هناك فى جبل وعمر ، لدى عشيرة بنى ابراهيم الذين سلموه الى المنصور (١٣) . وكانت نهاية الداعى الخلافى ذروة مأساة ممجية مفعمة . فلقد اقتيد أبو الفهم الى حريم الأمير حيث ضرب ضربا مبرحا حتى أشرف على الموت ، ثم ان المنصور أمر به فأخرج أمام الملأ وقد بقيت فيه حشاشة من الروح ، فنحره ، وشق بطنه ، وأخرجت كبده فشربت وأكات ، « كما شرح عبید المنصور من السودان - الذين ربما كانوا أصلا من آكله لحوم البشر - لحمه وأكلوه حتى لم يبق الا عظامه » ، وذلك فى يوم الثلاثاء ٣ صفر سنة ٣٧٨ هـ / ٢٣ ماية ٩٨٨ م (١٤) .

وبعد أن قام المنصور بعملية تطهير فى كتامة فقتل أعدادا من زعمائهم ،

(١١) التويرى ، ص ٣٢٢ .

(١٢) التويرى ، ص ٣٢٢ .

(١٣) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٥٣ - حيث تقول الرواية ان بنى ابراهيم لم يسلموه ، وقالوا هو ضيفنا ولا نسلحه ، ولكن أرسل أنت اليه فغده ونحن لا نسلحه ، فأرسل فأخذه . (١٤) التويرى ، ص ٣٢٢ ، وقارن ابن عذارى ، حيث نفس الرواية ، ج ١ ص ٢٤٤ . ابن الأثير ، ج ٩ ص ٥٣ - حيث النص على ان الداعى قتل وسلخ « وأكلت مستحاجة وعبيد المنصور لحمه » .

منهم والى ميله ، حتى ذلوا ونزل بهم الهوان ، عهد بولاية بلد كتامة الى القائد أبى زعبل بن مسلم الذى فرق أولاده فى أعمالها ، ورحل عائدا الى أشير ، ومن أشير وجه أبى العزم وابن ميمون ، سفيرى العزيز ، الى مصر ، ليعرف المسئولين بما وقع للداعى الخلائى ، ويذيعا فى أرجاء القاهرة قولهما : « أتينا من عند شياطين يأكلون بنى آدم ، وليسوا من البشر فى شىء » (١٥) .

وبعد كسر شوكة كتامة عاد المنصور الى القيروان ليتتبع من كانت له علاقة بثورة كتامة فى منطقة العاصمة المنصورية ، فهدم دورهم (١٦) .

رد الفعل فى كتامة : ثورة أبى الفرج :

ورغم ما أنزله المنصور بكتامة من الذل والهوان ، فقد كان ما زال فى البلاد من القوة ما يسمح بالانتفاضة فى السنة التالية ٣٧٩ هـ / ٩٨٩ م حيث قام رجل اسمه أبو الفرج ، ادعى انه من أولاد الامراء بالمهدية وانتسب الى القائم بن المهدي (١٧) ، الأمر الذى قد يفسر وصفه بالدمى ونسبته الى اليهود ، حسب مقالة المشككين فى صحة النسب الفاطمى . والمهم أن استجابة كتامة لدعوة أبى الفرج كانت تلقائيا ، إذ احتشد الكثيرون حوله مما دعا الى اتخاذ الطبول والبنود كعسكر شرعى ، الأمر الذى يؤكده اتخاذ السكة ، كما فعل أبو الفهم الحراسانى (١٨) ، والزحف لقتال الوالى أبى زعبل . وبعد أن دارت الحرب سجالا بينهما ما بين ميله وسطيف ، رأى أبو زعبل أن يكتب بذلك الى المنصور . وعندما سار المنصور لحرب الثوار فى بلدهم ، لم يتمكنوا من الوقوف أمامه ، إذ هزمهم « وقتل من كتامة مقتلة عظيمة » . وينتهى أمر التأثير بأن سلمه بعض خدمه الى أبى زعبل الذى بعث به الى المنصور ، الذى قتله شر قتلة ، وشحن بلد كتامة بالعمل بالعساكر (١٩) ، ثم انه عاد الى أشير (٢٠) .

(١٥) النويرى ، ص ٣٢٢ .

(١٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٤ ، وانظر فيما سبق ، ص ٣١٤ - ٣١٥ .

(١٧) النويرى ، ص ٣٢٢ ، ابن الأثير ، ج ٩ ص ٢٧ .

(١٨) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦٧ .

(١٩) النويرى ، ص ٣٢٢ .

(٢٠) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦٧ .

طلعة سعيد بن خزرون الزناتي والعهد له بطبنة :

وفي اشير أتى الى المنصور في نفس السنة ٣٧٩ هـ / ٩٨٩ م ، سعيد ابن خزرون الزناتي معلنا الدخول في طاعته ، فاحسن المنصور استقباله وقربه من نفسه حتى توثقت العلاقة بينهما ، فعهد المنصور اليه بولاية طبنة أي بلاد الزاب ، كما وثق الروابط بينهما بالمصاهرة ، فزوج ابنه ببعض بنات سعيد بن خزرون (٢١) . ومن الواضح أن سعيد بن خزرون أتاب عن نفسه بعض أموانه في طبنة سنة ٣٨١ هـ / ٩٩١ م لكي يرجع الى أهله حيث بقي هناك الى سنة ٣٨١ هـ / ٩٩١ م ، ثم انه عاد الى ولايته طبنة سنة ٣٨٢ هـ / ٩٩٢ م ، ومنها قصد المنصور زائرا ولكنه اعتل وتوفي في أول رجب / ٢ سبتمبر ، من نفس السنة . وعندئذ قدم ابنه قلقل بن سعيد على المنصور لكي يخلف والده على ولاية طبنة (٢٢) . وبذلك يكون المنصور قد تخلف من عبه حكم ولاياته الغربية بطريقة مباشرة ، بمعنى توجيه اهتمامه الى قلب المملكة ، ولاية أفريقية وبلاد القيروان . فالهم هنا هو أن القيروان بدأت تحل محل اشير كمقر رسمي للأمير ، وهي المسألة التي تعني الغاء الكيان المتمثل في العمالة الإفريقية ، وبالتالي وحدة المملكة الزيرية بعد أن كانت شبه امارة متحدة ، حسب تخطيط المعز لدين الله .

عامل افريقيا تابعا للأمير :

وهكذا كان المنصور هو الذي يعهد بولاية خراج القيروان سنة ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م الى محمد بن عبد القاهر بن خلف . وذلك بعد وفاة المرصدي صاحب الخراج هناك (ابن عذارى ج ١ ص ٢٤٥) . وفي السنة التالية ٣٨١ هـ / ٩٩١ م ، كان المنصور يدخل قصره الجديد بالمنصورية وسط ترحيب أهل القيروان لكي يعزل « صاحب أفريقية » نائبه في البلاد . يوسف

(٢١) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦٧ - ٦٨ - حيث يجعل ابن الأثير لهذا التحالف الدخايل الزناتي سببا عابرا . هو ان المنصور كان يسأل سعيدا عن تقديره لكرمه بالنسبة له فرد سعيد بأنه أكثر كرما من الأمير المنصور من حيث أنه يقدم له نفسه في مقابل المال ، ونفسه اعز بطبيعة الحال . ويضيف ابن الأثير الى ذلك انه عندما لام المنصور بعض أهله ، قال : كان أبي وحدي يستغيثهم (الزناتية) بالسيف ، وأما أنا فمن رعائي يرمع رمته بكس ، حتى تكون مودتهم طيعا واختيارا (ج ٩ ص ٦٨) . وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٤ - حيث النص على ان المنصور زوج ابنته لوروا بن سعيد . (٢٢) انظر ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦٨ (سنة ٣٨١ هـ) ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٦ (سنة ٣٨٢ هـ) - حيث دمجتا الروايتين لتكمل احداها الأخرى كما يقتضى السياق .

ابن أبي محمد ، ، محب الحياة الناعمة ، وعاشق الورد ، لكى يستعمل بدلا منه على البلاد أبا عبد الله محمد بن أبي العرب (٢٢) . ومنذ سنة ٣٨٢ هـ / ٩٩٢ م كانت الأحوال مستقرة في أفريقية وبرزت القيروان ، فلا ذكر لأعمال شغب أو اضطراب ، بل احتفالات ومظاهر رخاء ، من ظهور ولي العهد أبي مناد باديس ، ووصول سجل عهده من القاهرة ، وهدايا بلد السودان والهدية التى أعطيت لفنفل (٢٤) ، والاحتفال بوصول ولي العهد من المغرب وأشير ، بعد أول رحلاته هنالك ، ووصول هندية من مصر فيها فيل عظيم (٢٥) ، كما تذكر وفاة الأمير عبد الله بن يوسف بلكين ، وتولية القائد يوسف بن أبي محمد ، صاحب أفريقية السابق ، على مدينة متيجة ، ووصول سفارة من مصر بانتصار قوات الخلافة فى حلب من بلاد الشام (٢٦) ، الى أن تاتى وفاة المنصور فى ٣ ربيع الأول سنة ٣٨٦ هـ / ٢٧ مارس ٩٨٦ م ، خارج صبرة المنصورية ، حيث دفن فى قصره ، ثم ولاية ابنه أبي مناد باديس الذى كان صبيا فى الثانية عشرة (١٢) من عمره (٢٧) .

باديس ما بين خلافة الحاكم فى مصر وولاية عمه حماد فى أشير :

يعتبر عهد باديس من المراحل الهامة فى تاريخ الدولة الزيرية ، وذلك من وجهين : أولهما يتعلق بالخلافة حيث عاصره الخليفة الحاكم بأمر الله ، الذى ارتقى العرش فى نفس السنة ، والحاكم ما هو معروف عنه من الاغراق فى التطرف ، الى حدود ما يعرف الآن باللامعقول ، مما كان يسمح بأن تصل العلاقة بينهما الى ذروة التوتر . والوجه الثانى هو استعمال عمه حماد بن بلكين واليا لأشير ، الأمر الذى يعتبر من العلامات البارزة بالنسبة للدولة الزيرية بأفريقية والقيروان ، لما توتب عليه من انقسامها الى مملكتين ، أحدهما فى القيروان والمهدية ، والأخرى يستقل بها فى القلعة وبجاية أبناء حماد .

والحقيقة أن ملك باديس الصبى الصغير كان يمكن أن يكون موضع

(٢٢) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٩٠ ، وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٦ . - حيث ارجع بين عزل يوسف واتهام أحد عبيد المنصور المعروف بالبوذى وابنه بالحياة فى المال .
(٢٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٦ (سنة ٣٨٢ هـ) .
(٢٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٦ (سنة ٣٨٤ هـ) .
(٢٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٧ (سنة ٤٨٥ هـ) .
(٢٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٧ ، ابن الأثير ، ج ٩ ص ١٢٧ .

شك منذ البداية بسبب ما يلا من محاولة نقض العهد من جانب بني زيري
أعمام أبيه ، لولا الموقف الصلب الذي أظهره حرس باديس من العبيد
السود ، وكذلك عبيد أبيه . وساعد على تأكيد ولاية باديس وصول عمه
يطوفت (أبي يبياش) والى تاهرت والمغرب ، لعزاء باديس في والده المنصور ،
والتهنئة بولايته للعرش ، وذلك في أواخر شهر شعبان/ أغسطس (٢٨) .
وأغلب الظن أن باديس خرج عندئذ الى سردانية لتلقى التعزية في والده ،
والتهنئة بولايته (٢٩) . وتأكدت شرعية ولاية باديس في ربيع الثاني
من السنة التالية (٣٨٧ هـ / إبريل ٩٩٧ م) ، عندما أتى سيجل الخليفة
الحاكم من القاهرة بولايته وتلقيه بـ « تصير الدولة » (٣٠) . وببيعه
باديس ، وجماعة بني مناد ، للخليفة الحاكم تكون اماره باديس بن المنصور
قد تكرست تماما (٣١) .

هذا ، ولا ندرى ان كان هناك مجال لذكر خروج ذلك الرجل الصنهاجي
المسمى خليفة بن مبارك ، فربما كان الرجل مريضا نفسيا ، اذا اكتفى
بالتشهير به ثم بسجنه تحقيرا لشأنه (٣٢) .

سمات الدولة الزيرية أيام باديس :

ما بين الامارة وعمالة اقراج :

اما عن تولية باديس مدينة أشير ، قاعدة صنهاجة ، لعمه حماد فقد
تم في شهر صفر من سنة ٣٨٧ هـ / فبراير ٩٩٧ م ، حيث خرج حماد الى
عمله بأشير مزودا بالخيول والسلاح والعتد (٣٣) . واذا كانت رواية ابن عذاري
تردّد ذلك بالقول عن حماد انه اتسعت عمالته وكثرت عساكره وعظم
شأنه (٣٤) ، اشارة الى ما سوف يحدث فيما بعد من تحول حماد في أشير
الى مركز قوة يخشى خطره من قبل باديس ، مثل أن يكون له دولته المستقلة ،

(٢٨) ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٤٧ .

(٢٩) ابن الأثير ، ج ٩ ص ١٢٧ .

(٣٠) النويري ، ص ٣٢٤ ، ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٤٨ - ٢٤٩ ، ابن الأثير ، ج ٩

ص ١٢٧ .

(٣١) انظر النويري ، ص ٣٢٤ ، ابن الأثير ، ج ١ ص ١٢٧ .

(٣٢) ابن الأثير ، ج ٩ ص ١٢٧ .

(٣٣) ابن الأثير ، ج ٩ ص ١٢٧ ، النويري ، ص ٣٢٤ .

(٣٤) ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٤٨ ، النويري ، ص ٣٢٤ .

لما حدث على عهد المعز بن باديس ، فإن العهد بأشير إلى عمه حماد يسمى .
تنازل الأسره عن مملكتها ، وتركة مؤسسها الأول زيري بن مناد ، فكان
باديس ورجال دولته قد قبلوا التخل عن أرض الوطن لعدم وبينه ، وكان
الحماديين أصبحوا ممثلي دولة صنهاجة الناهضة في المغرب ، بينما تحولت
سلالة المنصور ممثلة في باديس ومن جاء بعده ، إلى افارقة القيروانيين ،
أقرب إلى جماعة الأغلبية منهم إلى الفاطميين الذين كانوا سم أنفسهم نوايا
لهم ، الأمر الذي يفسر القطيعة المنتظرة ، وبخاصته على المستوى الديني
والمنهجي .

والخلاصة هي أن بقاء باديس في القيروان والمهدية يعني أنه حل مكان
عامل إريقيه صاحب الحراج ، الذي كان تابعاً للمعز لدين الله من وجهة
النظر التنظيمية ، وذلك في مقابل حماد ، صاحب أشير ، الذي حل محل
الأمير القائد ، صاحب السلطة العليا في الولاية - الأمر الذي يفسر واقع
الحال فيما نواتر من الأعمال التي أدت إلى تكريس انقسام الدولة إلى مملكتين
زيرية وحمادية ، لكل منهما عاصمتها ، وكتابها ووزارها ودواوينها
المختلفة ، إلى جانب جيوشها وأساطيلها الخاصة وسياساتها المميزة ،
وعلاقاتها الدولية النابعة من خصوصية مصالحها . وهكذا كان حماد في
بداية أمره في أشير ، القائد صاحب الحروب الحاشجية ، بخاصة في بلاد
المغرب ، فهو « المشير » أو « مارشال » أفريقية ، حسب المصطلح
الحديث (٣٥) .

فمتنما يصدر باديس أوامره سنة ٣٨٩ هـ / ٩٩٩ م إلى كاتبه محمد بن
أبي العرب بالمسير نجدة إلى عمه يطوفت بتاهرت ، يعرج ابن أبي العرب على
أشير ، معدن صنهاجة ، لكي يصحب حمادا بمساركه إلى هناك (٣٦) . وفي
سنة ٣٩٢ هـ / ١٠٠١ م كان حماد يبعث برسلة إلى ابن أخيه الأمير باديس
يخبره بأعماله الحربية ضد عمه ماكسن بن زيري ، عم والد باديس ، وضد
أبنائه وقتلهم (٣٧) . وبذلك تحول الأمير الصنهاجي متمثلاً في باديس - إلى

(٣٥) أنظر الإعلام لابن الخطيب ، ص ٨٥ - حيف وصف حماد بأنه « كان فريد دهره
وفحل قومه ، ملكاً كبيراً وشجاعاً نبهته ، ودأمية حقيقاً » .
(٣٦) التويري ، ص ٣٢ ، ابن عشاري ، ج ١ ص ٣٤٩ ، ابن الأثير ، ج ٩ ص ١٥٢ .
(٣٧) التويري ، ص ٣٢٨ - حيف النص على قتل ماكسن وأبنائه : محمد بن وباديس
وحبائمه .

حكك يملك نظريا ولا يمارس عمليا : حيث يقوم نوابه بمختلف الأعمال .
"غضب" الحرب على وزيره الكاتب ، عامل افريقيه ، وعمه ابقاند ، عامل أرض
الوطن الاصلية - اثير . وعندما يموت محمد بن أبي العرب سنة ٣٩٦ هـ /
١٠٥٠ م ، يعهد بإديس بوظيفته السامية ، الى ابنه القاسم ، وهكذا الأمر
بانتسبة لساكن الوظائف كالمقضاء مثلا أو وظيفة المظالم التي كان الأمير
يعتمد على صاحبها في اقرار الأمن الى جانب تحقيق العدالة . والمثل لذلك
صاحب المظالم محمد بن عبد الله (المتوفى سنة ٣٩٨ هـ / ١٠٠٧ م) الذي
عرف بوطائه الشديدة على أهل الفساد ، من : الضرب والقتل وقطع الأيدي
والأرجل دون رحمة أو شفقة (٣٨) .

انتفاضة كتامة :

ومن الأمور المستغربة حقا ، تلك الثورات الصغيرة التي تظهر في
شكل أعمال فردية غير مبررة من جانب أصحابها مثل تلك الثورة التي قام
بها سنة ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م أمر بالمعروف يشتغل بالتعليم ، فدعا لنفسه ،
سولكنه قبض عليه وحمل الى القيروان حيث شمر به ثم قتل مع واحد من
كبار أصحابه . ومن المهم الإشارة الى ما تقوله الرواية من أنه وجد مع هذا
الثائر خريطة فيهما أن أمره يظهر في كتامة (٣٩) ، فكان دعوة ذلك الأمر
بالمعروف كان المقصود منها التمهيد لثورة كبيرة في بلاد كتامة ، الأمر الذي
قد يثير علامات استفهام عن موقف محتمل للخلافة أو بعض أعوانها من تلك
الثورة .

نهاية باديس وهو يحاصر عمه حماد بالقلعة :

وإذا كان باديس قد تخفف في حروبه ، وخاصة تلك التي كانت ضد
بنى زيري الصنهاجيين ، اعتمادا على عمه حماد ، فانه سيضطرب في النهاية
الى قيادة عسكره ضد عمه حماد ، بعد أن فشل في اقتناعه بالتنازل عن بعض
اقطاعه لولي عهد المملكة ، المنصور بن باديس الذي توفي بعد قليل أنشاء
حصار باديس لقلعة حماد . فكان ذلك مما عجّل بوفاته باديس فجأة ، هو
الآخر أثناء الحصار على ما نظن - وذلك ليلة الأربعاء ٣٠ من ذي القعدة سنة
٤٠٦ هـ / ١٠ / مايه ١٠١٦ ، وولي بعده ابنه الصبي الصغير المعز بن باديس

(٣٨) ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٥٨ .

(٣٩) ابن عذاري ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٣٧٣ .

وان أعلنت ولاية عمه كرامت مؤقتا بمدينة المحمدية (المسيلة^(٤٠)) ، التي كانت معتبرة من حواضر الزاب الهامة ، حيث كان ذلك الاجراء يقيم فيها نوعا من التوازن مع نفوذ عم أبيه حماد بن بلكين .

الصراع ضد الزناتية :

منذ قيام الدولة الفاطمية في بلاد أفريقية واصطناعها اكتناميين أنصارا ، كان من الطبيعي أن يصبح الزناتية في انبلاد وفي الأقاليم المجاورة - سواء في الزاب أو أوراس أو الجريد ، وحتى في وادي شلف وتلمسان من المغرب الأوسط - خصوما طبيعيين للدولة ، من حيث كونهم من بربر البتر الرحل ، عكس اكتناميين البرانس الحضري ، وهذا ما يفسر ثورة زناتة العظمى تحت قيادة أبي يزيد النكاري ، صاحب الحمار ، وظل الحال على هذا المنوال على عهد الزيريين اصنهاجيين الذين كان لهم دورهم في انقضاء على تلك الثورة الزناتية ، عندما قدموا العون الى القائم ثم المنصور . ومن المهم الإشارة الى أن ذلك الصراع بين الفاطميين والزناتية كان قد تطور منذ البداية الى صراع تاريخي بين الفاطميين في المهدية وبين الأمويين في قرطبة ، من حيث أظلت دولة الأندلس الأموية كل خصوم الفاطميين في أفريقية والمغرب بحمايتها ، منذ بداية عصر الهيمنة الأندلسية بوصول عبد الرحمن بن محمد الى سدة الامارة في قرطبة ثم اتخاذه اللقب الخلافي ، الناصر لدين الله ، كمنافس شرعي للفاطميين العلويين من آل البيت الشرفاء .

وبالقيضاء على ثورة أبي يزيد النكاري انكسرت شوكة الزناتية في أفريقية فانزاحت أعداد كبيرة من قبائلهم نحو الغرب الى المغرب الأوسط والأقصى ، وهو الأمر الذي واصله جوهر سنة ٣٤٧ هـ / ٩٥٨ م على عهد المعز ثم صنهاجة بعده على يد زيري الذي راح سنة ٣٦٠ هـ / ٩٧١ م ضحية تحالف الزناتية ضده (انظر فيما سبق ، ص ٣٥٤ ، ٣٠٠) ، فكان عليهم أن يدفعوا ثمن ذلك غاليا على يد ابنه بلكين الذي طاردهم في المغرب الأقصى حتى سنة ، الأمر الذي الزعجت له حكومة قرطبة فاستنفرت جيوشها وأساطيلها ، كما حاولت استرضاءه بوقوفها ضد من قتل والده ، في الوقت الذي تنبه فيه بلكين الى أن قتال سبتة لا يتحقق الا بموازرة الأساطيل البحرية (ص ٣٤٣) .

(٤٠) الزيري ، ص ٣٣٤ - وانظر فيما بعد ، ص ٣٨٠ - حيث كان المعز وقتله بالمهدية من حيث انتقل الى المنصورية .

وبفضل نجاح بلكين في حربه لزنانة في المغرب الأقصى على أواخر أيام المعز لدين الله في أفريقية ، اطمان المعز الى اختياره نائبا عنه في حكم البلاد بعد أن أوصاه بالا يرفع السيف عن البربر يعني عن زنانة ، فدان استحکام الوحشة بينه وبين زنانة كان أيضا من الأسباب التي جعلت المعز لدين الله يأمن تغلب بلكين على البلاد ، كما يقول ابن الأثير (٤١) - فكان المعز وهـو يطلب من نائبه ألا يرفع السيف عن البربر كان يقصد ، في نفس الوقت ، أن يكون ذلك دعما لمبدأ توازن القوى الذي أراد إقامته في المغرب حتى لا ترجح كفة فريق على الآخرين .

والظاهر أن البقية الباقية من الزناتية كانوا قد استكانوا لسلطات الدولة داخل أفريقية ، كما كان المقيمون منهم على الأطراف قد ضعفوا عن مواجهة بلكين في بداية حكمه منذ أواخر سنة ٣٦١ هـ/ ٩٧٢ م ، ولمدة ٥ (خمس) سنوات حتى سنة ٣٦٧ هـ/ ١٩٧٧ م باستثناء ارمصاص خفيفة .

الزناتية فيما بين باغاية وتلمسان :

ففي بداية حكم بلكين عندما ثار أهل مدينة باغاية وهزموا عامله وأخرجوه من المدينة ، كما ردوا الحملة التي سيرها اليهم ، كان التاهرتيون ، في المغرب الأوسط ينتهزون افرصة ليطردوا بدورهم عامل بلكين هناك . وهكذا اضطر يوسف بلكين الى أن يوجه نشاطه من باغاية التي أجل الانتقام منها الى سنة ٣٦٤ هـ/ ٩٧٤ م بعد القضاء على ثورة خلف بن خير صاحب ابن القديم ، الى تاهرت التي كاد يوقع بأهلها ويخرب أسوارها ، لولا أن أتاه الخبر بنزول زنانة على تلمسان (٤٢) . ومن الواضح أن مثل هذه الاضطرابات التي قام بها أهل تلك المدن كان للزناتية يد في تحريكها . فرغم هروب الزناتية في منطقة تلمسان أمام بلكين فإن التلمسانيين أغلقوا أبواب مدينتهم دونه ، الأمر الذي تطلب حصار المدينة لبعض الوقت ، قبل أن ينزلوا على حكمه . ورغم العفو عن أهل تلمسان فإن بلكين نقلهم الى مدينة أشير ، في قلب المنطقة الصنهاجية ، حيث بنوا بالقرب منها مدينة أطلقوا عليها اسم تلمسان « الجديدة » (٤٣) .

(٤١) الكامل ، ج ٨ ص ٦٦٤ .

(٤٢) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦٢٢ .

(٤٣) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦٢٢ .

الزناينة يتهون الأسرة المدراوية في سجلماسة :

ويسود نوع من الهدنة بين الصنهاجيين والزناينة الى سنة ٣٦٧ هـ / ٧٧ - ٩٧٨ م ، وهو تاريخ ابن عذارى الذي أخذ نابه ، حيث يشتمل الصراع بين الطائفتين في المغرب الأقصى ، بمعنى صراع الصغار تحت مظلة الكبار ، من الأمويين في الأندلس والفاطميين في مصر (٤٤) .

وهنا كانت زناينة هي البائدة باشعال نيران الفتنة ، إذ جمع خزرون ابن فلفل (فلفل) بن خزر الزنايني (المغراوي) قوة كبيرة من قومه . وسار الى سجلماسة ليخضعها باسم الخلافة الأموية في الأندلس ، ومحمد بن أبي عامر (الحاجب المنصور) . وتم اللقاء بين خزرون بن فلفل وبين صاحب سجلماسة : أبي محمد المعتز ، خارج المدينة في ٢٥ رمضان ٣٦٧ هـ / ٧ مايه ٩٧٨ م ، وانتهى القتال الشديد بمقتل المعتز ، وسقوط سجلماسة بين يدي خزرون بن فلفل الذي أخذ منها الكثير من العدد والأموال . وانما هنا هو أن خزرون بعث برأس المعتز الى الأندلس (٤٥) ، اعلانا بالسيادة الأموية على مدينة صحراوات المغرب القصوى ، التي تعتبر من مداخيل السودان الغربي وأبوابه ، واعترافا بدخول زناينة في طاعة المؤيد هشام ، الذي اعتلى عرش قرطبة في السنة السابقة (٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م) ، تحت إشراف الحاجب محمد بن أبي عامر ، الذي سيتخذ لقب المنصور اعتبارا من سنة ٣٧١ هـ / ٩٨١ م (٤٦) . وبذلك ينتهي ملك بني مدرار بسجلماسة ،

(٤٤) ونحن هنا نرجع سنة ٣٦٧ هـ / ٧٧ - ٩٧٨ م ، حسب تاريخ ابن عذارى . وذلك من بين الروايات ذات الأصل الصنهاجي المحلي ، حيث نجح ابن عذارى في تحويلاته القيمة في ترتيب الأعمال الحربية التي قام بها بلطكن في المغرب الأقصى ضد الزناينة ترتيبا زمنيا متسلسلا بشكل متبول ، ينتهي بنهاية بتلك سنة ٣٧٣ هـ / ٩٨٤ م - عندما يحسن ابن الأثير تلك الأعمال أجلا ، اعتبارا من سنة ٣٦٥ هـ / ٩٧٥ م ، وكذلك الأمر بالنسبة للتويزي الذي يجعلها اعتبارا من سنة ٣٦٩ هـ / ٩٨٩ م ، حسبما فعل ابن خلدون (ج ٧ ص ١٩ ، ٢٨) وحتى سنة ٣٧٣ هـ / ٩٨٤ م .

(٤٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٣٠ - ٢٣٦ ، ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦٦٥ - حيث سرد أعمال بلطكن الأخيرة ، دفعة واحدة في بلاد المغرب الأقصى ، اعتبارا من سنة ٣٦٥ هـ / ٩٧٥ م وذلك بعد أن أقر المنز بلطكن في ولاية إفريقية . وقارن ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٣٧ - حيث وضع ذلك في سنة ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م ، وأن أجمل الأحداث كلها دفعة واحدة الى سنة ٣٧٣ هـ مثل ابن الأثير .

(٤٦) أنظر ابن عذارى ، ج ٢ ص ٢٥٣ (عن خلافة هشام الصغير) وص ٢٧٩ د عن تسمى ابن أبي عامر بالمنصور ، والدعاء له على المنابر) .

ويظم شأن زناته ويشتد ملكهم بسجلماسة (٢١) .

حملة بلكين الأخيرة بالمغرب الأقصى : ما بين فاس وسجلماسة وسببة :

أما عن رد الفعل فكان في السنة الثانية ٣٦٨ هـ / ٩٨٨ م حيث خرج بلكين في حملة ردة ضد الزناتية في المغرب الأقصى (٢١) . وبدأ يوسف بلكين بالتوجه بقواه الضخمة نحو فاس التي استولى عليها ، ثم انه أتبع ذلك بطرد زناته من سجلماسة واستعادها ثم الاستيلاء على كل بلاد الهبط ، ما بين قصر كتامة وساحل البحر المحيط . وبذلك يكون بلكين قد نجح في طرد عمال بني أمية الأندلسيين من جميع البلاد (٢١) . واستمرت مطاردة زناته الى سببة آخر ملاجئ الأمويين المحصنة في المغرب الأقصى ، والتي قرر الزعيم الصنهاجي محاصرتها ولسكنه بعد أن عاين منعة المدينة المحاطة بسياج من الجبسال العالية كالأسوار ، والغابات المتشابكة التي لا تسلك ، والمفتوحة على البحر من جهة الأندلس لتلقى امدادات الطعام والسلاح ، رأى استحالة فتحها دون أسطول بحري كبير (٢٠) . ورغم حصانة سببة الأسطورية هذه ، فإن الرواية المنقبة تجعل من الزعيم الصنهاجي بلكين ، شخصية غير عادية ، فكانت مجرد اطلالته على المدينة في سنة ٣٧٢ هـ / ٩٨٢ م من أعلى الجبال تثير الرعب في قلوب أهل المدينة ، من زناتية لاجئين وغيرهم ، فيفلقون أبوابهم كمسا كان حصاره للمدينة يثير الاشفاق في قلب محمد بن أبي عامر وهو في قصره بقرطبة ، اذ يحاول استرضاء

(٢٧) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦٦٥ ، ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٣١ .

(٢٨) أنظر ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٣١ - حيث يجعل خروج بلكين الى سببة سنة ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م ثم قوله بعد ذلك برحيله الى المغرب سنة ٣٦٨ هـ (في ٢٥ شعبان) ، نحو فاس وسجلماسة ، وهو التاريخ الذي رجحناه على تاريخ التويري : ٣٦٩ هـ / ٩٧٩ م ، وابن خلدون ، ج ٦ ص ١٣٢ - حيث يجعل خروج الزناتية الى سجلماسة سنة ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م .

(٢٩) ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٣١ ، التويري ، ص ٣٦٤ ، ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦٦٥ .

(٣٠) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦٦٦ ، التويري ، ص ٣٦٥ - حيث النصر على معاينته الجبال الشامخة والشمالي الغامضة التي تطلب الأمر قطعها وإحراقها لنفخ طريق تسلكه العساكر الى الموضع الذي يمكن منه الاشراف عليها ، وأنظر ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٣١ - حيث الوصول الى سببة وحصارها ، ابن خلدون ، ج ٧ ص ٢٩ حيث أطل عليهم بلكين من جبل تطاون ، فرأى ما لا قبل له به فارتحل ، واشغل نفسه بقتال برغرامة الى أن هلك منصرفاً من المغرب سنة ٣٧٢ هـ .

بلكين ، فيرسل اليه رأس عدوه ، قاتل أبيه وهو جعفر بن علي بن الأندلسي ،
وكان ابن عامر قد سخط عليه وقتله سنة ٢٦٧ هـ / ٩٧٧ م (٥١) .

وهكذا رجع يوسف بلكين عن سبنة التي بقيت وحدها ، دون كل
بلاد المغرب بين أيدي الأمويين بالأندلس والمنصور بن أبي عامر ، خارج
سلطانه ، ومضى نحو مدينة البصرة ، وهو يسوق أمامه قبائل زناتة الهاربة
منه إلى الرمال والصحارى (٥٢) . ومن البصرة عرج على أصيلا - غرب
طنجة (٥٣) - التي كانت لقبائل نواتة وكنامة وهوارة ، والتي كانت خاضعة
للأدارسة من بني محمد منذ سنة ٢٢٦ هـ / ٩٣٧ م (٥٤) ، فكان مصيرها
نفس مصير البصرة - على ما يظن - ثم إنه واصل المسير غربا إلى تامسنا ،
بلد قبائل برغواطة ، المعروفة بانحرافات المذهبية والزندقية ، وذلك على
عهد ملكهم صالح بن عيسى بن أبي الأنصار الذي « جعلوه نبيا ، وشرع لهم
شريعة ، فاتبعوه فضل وأضلهم » (٥٥) .

حرب برغواطة ومحاولة القضاء على زندقته :

وكانت الحرب الدينية في بلاد برغواطة شرسة لا توصف وإن انتهت
بظفر بلكين بعيسى بن أبي الأنصار ، وهزيمة عساكره الذين قتلوا قتلا
خزيما . أما عن السبى الذي أخذ من نسائهم وأبنائهم والذي أرسل إلى
أفريقية ، فقد استقبله عامل الولاية : عبد الله الكاتب مع أهل القيروان
والمنصورية (٥٦) ، يوم السبت ٨ ربيع الأول ٣٧١ هـ / ١٢ سبتمبر

(٥١) ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٢١ - حيث مقتل علي بن جعفر ٢٦٧ هـ / ٩٧٧ م .
دج ٢ ص ٢٧٩ - حيث النص على أن المنصور دبر قتل جعفر بن علي عندما أسكره وبعث
وراءه من قته ، وأنه بعث بالرأس التي كانت محفوظة في غيران في القصر أو مدفونة في بعض
حوائله ، سنة ٢٧٢ هـ / ٩٨٢ م ، أي في آخر مراحل الحملة البلكنية بالمغرب . ابن الأثير ،
ج ٨ ص ٦٦٦ ، النويري ، ص ٣١٥ .

(٥٢) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦٦٦ ، النويري ، ص ٣١٥ - حيث النص على أنها صدمت
ونهب حتى صارت كأن لم تكن بالأسس ، فلم تكن بصرة بالمغرب إلى الآن ، وذكر رسمها .
(٥٣) ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٢٦ .

(٥٤) ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٢٥ .

(٥٥) ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٢٧ ، وقارن ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦٦٦ ، النويري ،

ص ٣١٥ .

(٥٦) ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٢٧ .

٩٨١ م (٥٧) ، وقالوا فيه : « انه لم يدخل اليهم من السبي مثله قط » (٥٨) . ولا بأس أن يكون الهدف من كثرة السبي من الذراري هو تأهيلهم دينيا ومذهبيا ولغويا (عربيا) حتى يمكن فيما بعد استخدامهم كعمال مخاضين للامارة الصنهاجية والخلافة الفاطمية ، أو فيما يمكن أن يفيد في زيادة الروابط بين البرغواطيين ، أهل تامسنا ، وبين أهل أفريقية ، والقيروان من صنهاجيين وغيرهم .

واستمر بلكين في حملته العسكرية القوية ، وهو يؤكد سسلطانه في فاس ، العاصمة وسجلماسة وبلاد الهبط والبصرة وتامسنا طوال ما يناهز الخمس سنوات ، ٣٦٨ / ٩٧٨ - ٦٧٣ هـ / ٩٨٣ م (٥٩) . وخلال تلك الفترة التي ملك فيها أبو الفتوح يوسف بلكين كل بلاد المغرب ، كانت السجلات والرسائل الرسمية ترد عليه من مصر ، فتصله على البريد الى فاس أو غيرها ثم ترجع الى عامل افريقية فتقرأ بعد مدة من تاريخها (٦٠) . وكانت الرسالة التي وجهتها الخلافة الى بلكين تطلب منه ارسال ألف فارس من بينهم أبناء زيري الى القاهرة ، ضمن السجلات التي مرت بالمغرب الأقصى قبل أن تعود الى مستقرها في القيروان سنة ٣٧١ هـ / ٩٨١ م . وحتى وقتئذ للأمسير الصنهاجي أن يجيب الخلافة من المغرب يتغلب بنى أمية على المغرب ، وأن الدعاء لهم على المنابر ، وأنه يحاربهم بأخوته بنى زيري ، ولا ترك الغرب وسار معهم الى الخليفة (٦١) .

نهاية بلكين واسترجاع الزناتية فاس وسجلماسة :

والظاهر ان جهاد برغواطة ، ومحاولة تأهيلهم دينيا حسب تعاليم الاسلام الصحيح استغرقت كثيرا من الوقت . وذلك أن النصوص تشير الى أن وفاة يوسف بلكين كانت في أواخر سنة ٣٧٣ هـ / ٩٨٣ م عند قفوله

(٥٧) ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٣٨ .

(٥٨) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦٦٦ ، النويري ، ص ٣١٦ ، قارن ابن عذاري ، ج ١

ص ٢٣٧ .

(٥٩) ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٣٧ - حيث النص على أنه ملكها ، وأهل سبتة منه خائفون . وزيانة مشردون ، قارن ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦٦٦ ، والنويري ، ص ٣١٦ - حيث المدة من ٣٦٩ الى ٣٧٣ .

(٦٠) ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٣٧ .

(٦١) ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٣٨ .

من قتال برغواطة حيث عرج على سجله ، ومنها توجه مخترقا الصب
نحو المغرب الأوسط . وفي الطريق وصلته أنباء رجوع الزناتية بقيب
خزرون بن لعل الى سجلماسة ، وطردهم عامله واستيادهم عليها ، كما
فاس تعرضت هي الأخرى لغزو زيري بن عطية الزناتى (المفاوى)
العودة الى المغرب ، ولكنه مات فى موضع وارجلان من مرض القولنج ،
الاحد ٢٣ ذى الحجة ٣٧٣هـ / ٢٨ مائة ٩٨٤م (٦٢) .

وهكذا وقع على عاتق الأمير منصور مهمة استنقاذ كل من مد
فاس وسجله من أيدي الزناتية ، وكان على أخيه يطوفت ، بصفته
تاهرت والمغرب ، أن يقوم بالتنفيذ ، عندما يصدر له الأمر بذلك -
ما حدث فى سنة ٣٧٤هـ / ٩٨٣م .

زيري بن عطية يدافع عن فاس أمام يطوفت :

وفعلا خرج يطوفت بالعساكر والعدد الى بلاد المغرب ، واتجه ص
فاس وسجله ، ولكن التجربة الحربية أثبتت ان والى تاهرت والمغ
الصنهاجى لم يكن ندا لزيري بن عطية (المفاوى) المتغلب على فاس
اذ لم يكد الجيش الصنهاجى يقترب من فاس حتى عاجله زيري الملك
بالقرطاس ، بهجوم كاسح انتهى بهزيمة شنيعة ليطوفت ورجاله الى
تبعهم الزناتيون بالقتل والأسر ، حتى تمت عليهم الهزيمة الساحقة
تاهرت دفعة واحدة . وهكذا عاد يطوفت الى ولايته وقد ترك قاتدين
كبار قواده بين يدي خصومه . أحدهما هو ابن عامل الذى قتل ، والآخر
ابن شعبان الذى شهر به مسعرا على الباب الرئيسى بفاس (٦٣) . وبذ
النصر المؤزر ثبت زيري بن عطية قدمه فى ولايته (٦٤) ، وبدأت دولة ز
فى فاس .

(٦٢) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٢٤ ، النويرى ، ص ٢١٦ ، ص ٣١٨ - حيث النص
ان زفانة ملكت تلك البلاد بعد موت بلكين ، وقارن ابن عذارى ، ج ٦ ص ٢٣٩ -
التاريخ ٢٠ ذى الحجة / بدلا من ٢٣ منه ، وص ٢٤١ - حيث النص على ان الزناتية استمر
على كل من سجله وفاس بعد وفاة بلكين . وانظر فيما سبق ص ٣٠٨ .
(٦٣) ابن عذارى ، ج ٦ ص ٢٤١ ، وقارن النويرى ، ص ٣١٨ ، وابن الأثير ، ج
ص ٤٦ .

(٦٤) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٤٦ ، وقارن صبح الأعشى ، ج ٥ ص ١٨٥ - ١٨٦ -
يذكر أن الخليفة العزيز بعث من مصر : الحسن بن كنون الادريسي لاسترجاع ملكه بالمغرب

الفتشيل في مواجهة زناتة :

وعلى عكس ما يصف ابن عذارى المنصور به ، من : الصرامة والعزم (١٠) ، وعلى عكس ما أظهره المنصور من العنف والقسوة التي لا تعرف الشفقة والرحمة مع كاتبه الوزير عبد الله بن محمد الكاتب (ما سبق ، ص ٣١٢) أو ما أظهره من الهمجية والوحشية مع داعي الخلافة انثأثر في كتابه أبي الفهم الخراساني ، الذي أكل العبيد وصنهاجة أيضا لحمة فلم يبقوا الا على عظمه (ما سبق ، ص ٣٣٣) ، فقد اتضح خداع هذه المظاهر الكاذبة ، اذ كان الرجل ضعيفا ، من ذلك النوع من الرجال الذي لا يتحمل مواجهة الصعاب . فهو يتحسس عندما يصله خبر هزيمة أخيه يطوفت ، ويخرج من قصور المنصور في يوم الأربعاء ١٣ من ذي الحجة سنة ٣٧٤هـ / ٨ ماية ٩٨٦م ، يرسم التوجه الى الغرب ، ويصحب معه وزيره عبد الله الكاتب الذي استخلف ابنه يوسف على القروان . ولكن المنصور لا يلبث أن يغير رأيه فيبقى في أشير ، ويوجه منها أخاه الآخر عبد الله على رأس جيش الى تاهرت ، نجدة لأخيه يطوفت (٦٦) . ولكن الفتشيل يكتمل تماما بوصول يطوفت الى أشير ، ويصاب المنصور بما يشبه عقدة الزناتية ، « فام يتعرض بعدها لشيء من بلد زناتة » (٦٧) .

طينة ولاية زناتية بالوراثه : أسرة سعيد بن خزون :

وهكذا لا تشير النصوص الى صراعات صنهاجية زناتية ، الأمر الذي يعنى عدم الاعتداء أو حسن الجوار لمدة خمس سنوات ، الى أن يأتي الزعيم

وان المنصور بن أبي عامر يست طربه قريبه أبا الحكم عمرو بن عبد الله بن أبي عامر الملقب بمسفلجة سنة ٣٧٥هـ / ٩٨٥م ومن معه من الزناتية ، فالتجأوا الحسن الى الطاعن . وبعد عودة مسفلجة عقد المنصور على المغرب للوزير حسن بن أحمد بن عبد الودود السلمي ، وأثناء سنة ٣٧٦هـ / ٩٨٦م وعندما استقل زيري برئاسة مفراوة بعد موت أخيه مقابل بن عطية سنة ٣٧٨هـ / ٩٨٨م بقي الوزير الحسن بن أحمد الى أن قتل سنة ٣٨١هـ / ٩٩١م فعقد له المنصور فاستقبل ملكه حتى غلب على تلمسان فملكها من يد أبي البهار الصنهاجي . وبعد بالفتح الى المنصور فجدد له العهد . وزير بن عطية (الترطاس) هو باني مدينة وجدة سنة ٣٨٤هـ / ٩٩٤م حيث أنزل بها عساكره ، واتخذها حاضرة له بسبب موقعها المتوسط في بلاد المغرب - قبل أن يقسمها بينه وبين المنصور كما يأتي (ص ٣٦٣) .

(٦٥) البيسان ، ج ١ ص ٢٣٩ .

(٦٦) النويري ، ص ٣١٨ .

(٦٧) النويري . ج ١ ص ٣١٨ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤١ .

الزناتى سعيد بن خزرون ، الذى كان ولده قد استولى على سيجلماسة ،
وفضى على الأسرة المزارية فيها سنة ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م (ما سبق ، ص ٣٤٢)
طالباً لدخول في طاعة المنصور ، الذى أحسن استقباله وقربه من نفسه
حتى استعمله على مدينة طينة - عاصمة الزاب العريقة - بل انه أكد ذلك
التقارب بالمصاهرة - فزوج ابنه ببعض بنات سعيد (٦٨) .

وهكذا يكون المنصور قد تخفف من عبء ولاية الزاب ولطينة بالعهد
بها الى الزعيم الزناتى ، الذى كان يمكنه أن يستخلف عليها بعض اعدائه
لكى يسير الى أهله فى المغرب ، حيث يمكث لديهم الى سنة ٣٨١ هـ /
٩٩١ م ، عندما عاد الى ولايته ثم قام بزيارة للمنصورية حيث أنزله المنصور
بقصره ، وأجرى عليه النفقات الواسعة . ولو ان سعيد بن خزرون لم يلبس
نأ اعتل ومات فى الحضره الأفرقية ، فى أول رجب سنة ٣٨٢ هـ / ٢ سبتمبر
٣٩٢ م ، فاحتفل المنصور فى تجهيزه حتى أنه كفنه بس ٧٠ ثوباً . وبعد
فترة وجيزة وصل الى المنصور فلفل بن سعيد فأغدى عليه الهدايا الثمينة ،
ثم انه رده الى مدينة طينة أميراً عليها ، فكان ولاية طينة كانت مهياة لتكون
وراثية فى آل خزرون الزناتية (٦٩) .

أما ما يذكره ابن عذارى فى حولياته سنة ٣٨٤ هـ / ٩٩٤ م من وصول
ولى عهد المنصور ، وهو الأمير أبو مناد باديس من أول حركة له من جهة
المغرب فلا يذكر عن موضوعها شيئاً ، وان كان أبوه قد خرج لاستقباله مع
أهل القيروان ، الأمر الذى يعنى تدشين ولى العهد كقائد معتمد (٧٠) .
ولو كانت الحركة عبارة عن أول زيارة لأشير - مهد الوطن الصنهاجى

(٦٨) أنظر ابن الأثير : ج ٩ ص ٦٧ - ٦٨ ، حيث الاشارة الى ان تولية سعيد بن
خزرون لطينة جاءت بطريقة عقوبة عندما قام الجدل بين الرجلين حول اليهود وأيهما أكثر
من الآخر ، فقال ابن خزرون المقتز بنفسه انه أكثر من باديس من حيث انه يقدم له نفسه
بينما الأمير يقدم له المال ، والنفس أعز من المال . كما هناك رواية أخرى تقول انه
عندما لام المنصور بعض أهله لما كان يفعل بالزناتى الذى هو بمثابة عدوه ، قال : « كان
أبى وجدى يستنمئنه بالسيف ، وأما أنا فمن رمانى يرمح رمحته بكسى حتى تكون مودتهم
طبعاً واختياراً . وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٤ - حيث النص على ان المنصور زوج ابنته
من ورو بن سعيد .

(٦٩) أنظر ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٦ .

(٧٠) أنظر ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٧ .

سنة ٣٨٣ هـ / ٩٩٣ م ، بصحبة الجندة يعلن (٧١) .

هزيمة فاحشة لقواد صنهاجة الكبار على يدى زيرى بن عطية
أول عهد باديس :

وعلى عهد أبى مناد باديس الذى خلف والده المنصور الذى توفى يوم
الخميس ٣ ربيع الأول ٣٨٦ هـ / ٢٧ مارس ٩٩٦ م ، يعود الصراع من جديد
مع الزناتية على المستويين الخارجى فى تاهرت ، ضد زيرى بن عطية ،
والداخلى ضد فلفل بن سعيد فى الزاب وفى طرابلس .

فى سنة ٣٨٩ هـ / ٩٩٩ م قام صاحب فاس وما ولاها من بلاد الغرب ،
وهو زيرى بن عطية الزناتى (المغراوى) بالزحف فجأة على تاهرت ، حيث
كان يليها المنصور عمه يطوفت بن بلكين الذى كتب اليه يطلب المدد .
وصدرت الأوامر من قبل المنصور الى وزيره الكاتب محمد بن أبى العرب
بالخروج بالعساكر نجدة ليطوفت فى تاهرت . وخرج ابن أبى العرب من
المنصورية فى ١٥ صفر / ٦ فبراير نحو أشير حيث كان عليه أن يسير فى
صحبة واليها حماد بن بلكين وعسكره نحو تاهرت . وهناك اجتمع مجلس
الحرب فى أول جمادى الأول / ٢٠ ابريل برئاسة القواد الثلاثة : يطوفت
والى تاهرت ، وحماد والى أشير ، وابن أبى العرب عامل إفريقية ، على بعد
مرحلتين من موقع القرطاس : زيرى بن عطية ، فى موضع يعرف
بـ « أمسار » (٧٢) (أنظر شكل ٧ ص ٣٥٠) .

والذى يفهم من النصوص ان القوة الرئيسية فى الجانب الصنهاجى
كانت قوة أشير ، قلب الوطن الصنهاجى ، وعلى رأسها حماد بن بلكين ،
قائد الدولة أو مشيرها (المارشال) وإن أكثر عسكره ، وخاصة الوثلكانيين
منهم ، كانوا يكرهونه لاساءته اليهم على يدى غلامه خلف الحسرى الذى

(٧١) ادريس (هادى - دوجيه) ، بلاد المغرب (البربر) الشرقية على عهد الزيريين ،
بالفرنسية ، ج ١ ص ٧٣ ، هـ ١٦٧ - حيث الإشارة الى المؤنس لابن أبى دينار وأن البيان
لابن عذارى يهمل الكلام عن جده باديس . والحقيقة ان ابن عذارى أسقط رحلة الذهاب
سنة ٣٨٣ هـ / ٩٩٣ م ، وبذلك يكون الفضل لابن أبى دينار فى الاحتفاظ لنا بتلك المعلومة
الطريفة (المؤنس لابن أبى دينار ، ص ٧٩) .
(٧٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٩ ، ابن الأثير ، ج ٩ ص ١٥٢ ، النويرى ، ص ٣٢٥ -
حيث اسم الموقع أمسار .

ساهمهم الحسيف . وفى هذه الظروف غير المواتية تم اللقاء بين العسكرين
وكان من الطبيعي أن يهزم العسكر الصنهاجى أمام الزناتية ، رغم الحرب
الشديدة التى دارت بين الطرفين ، ورغم محاولات عامل أفريقية ، محمد بن
أبى العرب ، التى لم تنجح فى رد المنهزمين من الوثلكانيين ، الأمر الذى
أدى الى هزيمة الجيوش الثلاثة هزيمة تامة ، وصلت الى أشير . وكان ذلك
يعنى ضياع كل محلات القواد الصنهاجية بما فيها من عدد وأموال واعتاد
كما قتل الكثير منهم أثناء الهزيمة المروعة ، وأسر الكثير أيضا وذلك فى يوم
السبت ٤ جمادى الأولى سنة ٣٨٩هـ / ٢٢ إبريل ٩٩٩م .

وظهر زيرى بن عطية بمظهر رجل الدولة الأريب ، فقد اكتفى باحتواء
ما كان فى العسكر الصنهاجى ، وعامل الأسرى معاملة كريمة . وعندما
وصل الى تاهرت أحسن الى أهلها ووعدهم الجميل ثم انه تفضل على الأسرى
فأطلقهم ، فرجعوا الى أشير (٧٣) .

باديس يقود الصراع ضد الزناتية فى قلب أفريقية وفى المغرب :

وكما حدث فى بداية عهد المنصور عندما انهزمت القوات الصنهاجية
أمام رجال خزرون فى سجلماسة ، وزيرى (المغراوى) فى فاس ، بقى
القواد المنهزمون الثلاثة فى أشير ، دون أن يحركوا ساكنا ، كما بقى زيرى
ابن عطية على تاهرت . وعندما وصل نبأ الهزيمة الى المنصورية فى ٢٠ جمادى
الأولى/ ٨مايه ، أخذ المنصور يتجهز لمواصلة النضال . وكان خروجه للقضاء
زيرى بن عطية يوم السبت ٢ جمادى الثانية/ ٢١مايه ، على طريق
بلاد الزاب . وعندما اقترب من طينة ، عمالة فلفل بن سعيد بن خزرون
الزناتى ، بعث فى طلبه ، ولكن فلفل - الذى كان على صلة بزناتية فاس -
توجس خيفة ، وأرسل اليه يعتذر عن الحضور ، بل ويطلب منه أن يكتب
له سجلا جديدا بولاية طينة . ورغم اجابة المنصور بطلب تجديد العهد
بالولاية ، ورجيله بعيدا عن المنطقة ، فالظاهر أن حمى العصبية الزناتية
كانت قد نالت من فلفل ، فرأى أن ينضم الى جانب أهله وعشيرته بشكل
مكشوف ، وأن ينقل الصراع - وإن كان بشكل انتهازى - الى قلب الأملاك
الصنهاجية فى بلاد أفريقية . فهذا ما يفسر كيف أثقلت فلفل الزناتى ،

(٧٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٥٠ ، ابن الأثير ، ج ٩ ص ١٥٢ ، النويرى ،
ص ٣٢٥ - حيث اسم الصنهاجيين المخالفين « الثلكاتيين » الذى رجحنا عليه قراءة ابن عذارى
« الوثلكاتيين » .

ما بين عشية وضحاها ، الى بدوى جلف ، لا يفهم معنى الاقتصاد المدني -
فأخذ ينشر الخراب والدمار فى المنطقة من : طينة الى تيجس وبأغاية التى
حاصرها وأفسد جهاتها ، بينما كان نصير الدولة ياديس ، متماديا فى
سيره ، لا يلتفت اليه - عن غير قصد كما نظن - حتى وصل الى مدينة
أشير (٧٤) .

وعندما وصل باديس الى المسيلة رحل زيرى بن عطية عن تاهرت .
فقرر متابعته ، ولكنه عندما عرف انه متجه نحو مدينته فاس ، اكتفى بذلك
ورأى العودة الى تاهرت ، ومنها سار الى أشير وبصحبه عمه يطوفت الذى .
آلت اليه ولاية أشير مع تاهرت ، فاستخلف ابنه أيوب على تاهرت مع حامية
من ٤ (أربعة) آلاف فارس . وفى أشير عرف باديس بما فعله فلقل بن
سعيد من الافساد فى بلاد الزاب ، فسير اليه جيشا مع عدد من كبار قواده .
منهم : أبو زعل ، وجعفر بن حبيب ، ومحمد بن حسن ، ثم خرج هو فى
اثرهم للملاحقة الزناتى المخرب ، وبصحبه عم أبيه أبو البهار بن زيرى .
وكان وصوله الى المسيلة فى أواخر أيام رمضان فعيد بها الفطر (٧٥) .

باديس يحقق انتصارا كبيرا على فلقل بن سعيد الزناتى :

وخلال رحلة العودة ، التى بدأها باديس ثالث أيام الفطر (٣ شوال /
١٧ سبتمبر) الى مقره بالمنصورية بلغته فى بلزمة الأنباء السيئة عن انتصار
فلقل بن سعيد على العسكر الذى كان سيرهم ، وانه قتل أبا زعل وأسر
ابنه حميد ومثل به ، ثم قتله ، بل ان الزناتى أخذته العزة بالاثم فتبادى
الى القيروان . وهنا عرج باديس على بأغاية التى وصلها فى ١٩ شوال /
٣ أكتوبر ، وعرف ما عاناه أهلها من شدة حصر فلقل لهم الذى استمر
٤٥ يوما ، فكان قراره بمتابعة فلقل بعد أن أقام بها بقية الشهر ، اذ كانت
رحيله عنها فى غرة ذى القعدة / ١٤ أكتوبر الى مرماجة (٧٦) .

(٧٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٥٠ ، ابن الأثير ، ج ٩ ص ١٥٢ ، النويرى ، ص ٣٣٦ .
(٧٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٥٠ - ٢٥٩ ، ابن الأثير ، ج ٩ ص ١٥٢ - ١٥٣ .
النويرى ، ص ٣٣٦ - حيث الإشارة الى ان باديس كان مصرا على صحة اعمام أبيه أولا .
زيرى مبه ، وكانوا قد طلبوا البقاء مع يطوفت ، ولكنهم انتحلوا له الأعداء حتى سمح لهم
بالبقاء على أن يلحقوا به فيما به ، ولكنهم كثروا وحاولوا القبض على يطوفت الذى نجح
فى الحرب منهم ، ولحق بالأمير باديس بالمسيلة ثم صحبه الى افريقية .
(٧٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٥٦ ، ابن الأثير ، ج ٩ ص ١٥٣ ، النويرى ، ص ١٢٧ .

وعندما صار باديس الى بنى سعيد كان ذلك ايذانا ببسبب المعركة الفاصلة مع فلفل بن سعيد الذى زحف اليه يوم ٦ ذى القعدة (٣٨٩م / ١٩ أكتوبر ٩٩٩م) * ومن الواضح أن باديس لم يتعجل اللقاء اذ تنص الرواية على أنه : لم يلقه ولم يلتفت اليه ، الأمر الذى دعا الزناتى أيضا الى التروى وعدم الاندفاع فى المغامرة * هكذا ، لم يتم اللقاء الا يوم الاثنين ١٠ من ذى القعدة / ٢٣ أكتوبر ، فى ساحة تعرف بوادى أغسلان * وفى مقابل قوات باديس التى حوت صنهاجة والعبيد (السودان) كان يجتمع حول فلفل من أصناف البربر ما لا يحصى من زناتة ، « وكل من فى نفسه حقد على باديس وأهل بيته » * اما عن القتال فيوصف بأنه حرب عظيمة لم يسمع بمثلا صبر فيها الفريقان ، وثبتت صنهاجة بين يدي باديس ، وانتهت بانتصار باديس وصنهاجة وانهزم البربر وزناتة الى جبل « الحناش » حيث أتبعتهم صنهاجة والعبيد ، ولكنهم عندما وجدوا تبادى فلفل فى الهزيمة رجعوا عنه ، وعادوا الى محلته ، ونهبوا ما كان فيها * أما عن نتائج المعركة فقد أسفرت عن خسارة كبيرة فى الجانب الزناتى حيث قتل منهم ٩ (تسعة) آلاف رجل (٧٧) .

وأرسل نصير الدولة باديس بكتاب الفتح الى القيروان ليقرأ من أعلى منبر جامع عقبة (٧٨) ، وعاد باديس الى قصوره بالمنصورية ، وسط احتفال القيروانيين الذين كانوا يخافون من غارة يقوم بها فلفل على مدينتهم (٧٩) .

(٧٧) انظر ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٥١ - حيث النص على ٧ آلاف قتل من زناتة ، ابن الأثير ، ج ١ ص ١٥٣ - حيث ٩ آلاف قتل من زويلة (زناتة) سوى من قتل من البربر ، النويرى ، ص ٣٢٧ - حيث قتل من زناتة ٩ آلاف رجل سوى البربر . (٧٨) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٥١ -

(٧٩) ابن الأثير ، ج ١ ص ١٥٣ ، وانظر النموذج الزمان لابن وشيخ ، ص ٢٦٤ - حيث النص على أن الشاعر على بن هبة الله اللخمي ، المعروف بـ « العميلة » ، صنع لى سيدنا نصير الدولة (باديس) قصيدة ذكر فيها وفتته بزناة (سد ٣٨٩م / ٩٩٩م) ، مع ذكر مواضع القتال والوفائع والهزائم اليوم ، اذ خاطب محمد بن أبى العرب ، الوزير القائد قائلا :

ولما طفى وبني فلفل
دعاه اليه نصير الامام
فأضحك منهم ضياع الفلا
فأطلس - الذئاب *
فلماش به وأيه الآخر
وما فوق ذا امرى مفخر
وزارتهم الطلس والأفسر

تحالف أبناء زيري مع فلغل الزناتى الذى لجأ الى طرابلس :

ومع دخول سنة ٣٩٠هـ / ديسمبر ٩٩٩ - يناير ١٠٠٠م ، وصلت
الأنباء الى باديس بتحالف عمومة أبيه مع الشائر الزناتى ، فخرج فى طلبهم
يصحبة أبى البهار منهم ، الذى كان اعتذر عن قصتهم هذه ، الى قصر
الافريقى . وهنا افترق الطرفان فاتجه بنو زيري نحو الغرب باستثناء
ماكسن بن زيري الذى بقى مع فلغل الذى توغل الى الرمال هاربا ، الأمر
الذى دعا نصير الدولة باديس الى الرجوع الى حضرته بالمنصورية . وهنا ،
تبعا لتكتيك الفر والفر الذى يعرفه أهل الصحراء ، رجع فلغل الى منطقة
طرابلس ، التى كانت قد بدأت تتململ ، مما سبقت الإشارة اليه (ما سبق ،
ص ٣١٨) .

ويمكن أن يستشف من سير العمليات الحربية فى افريقية وفى الغرب
انه كان هناك نوع من التخطيط المشترك بين الزناتية ، وان كان من الممكن
أن يكون قد تم تلقائيا على المستوى الفردى دون اعداد مسبق . فبينما كان
فلغل بن سعيد يثير الاضطراب فى طرابلس ، فى شرق الدولة ، كان صاحب
فاس فى المغرب الأقصى ، وهو زيري بن عطية الزناتى يتجاسر على التقدم
نحو أشير ، قلب الوطن الصنهاجى . وهكذا كان على نصير الدولة باديس
أن يخرج من المنصورية فى شهر رجب سنة ٣٩٠هـ / يونية سنة ١٠٠٠م
الى رقادة استعدادا للتوجه الى القرطاس : زيري بن عطية ، ولكنه عندما
سجاء الخبر برحيل زيري الى الغرب ، كان على باديس أن يرجع بدوره الى
المنصورية (٨٠) .

أسرة زناتية بمدينة طرابلس (انظر شكل ٨ ص ٤٤٥) :

فلغل بن سعيد أميراً :

والحقيقة ان الظروف كانت مواتية لكى يستقر فلغل بن سعيد فى
مدينة طرابلس ، وأن يكون فيها ما يمكن أن يشبه بأسرة وراثية حاكمة ،

(٨٠) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٥١ ، ابن الأثير ، ج ٩ ص ١٥٣ ، الزيرى ،
ص ٣٢٨ - حيث الإشارة الى أن حرب فلغل الى الرمال اثر مطاردة باديس له كان فى
سنة ٣٩١هـ / ١٠٠١م ، وبالتالي عودة فلغل الى طرابلس حيث قبله أهلها بحر قبول ،
فدخلها واستوطنها .

قبضت على زمام الأمور طوال عشر سنوات الى سنة ٤٠٠هـ / ١٠٠٩ م .
عندما توفي فلفل وخلفه أخوه ورو بن سعيد .

ففي سنة ٣٩٠ هـ / ١٠٠٠ م كان « تموصلت بن بكار » نائب باديس
في مدينة طرابلس الذي أساء السيرة وجمع الأموال الطائلة ، بكتاب
الحليفة الحاكم بأمر الله يطلب منه أن يسلم اليه مدينة طرابلس على أن يقبله
لاجئا لديه بالقاهرة ، ويتم ذلك على يدي والي برقة الفاطمي : القائد يانس
الصقلبي . وعندئذ تتوتر العلاقات بين القاهرة والقبروان عندما لا يقبل
باديس مبررات يانس الشفوية لأخذه طرابلس ، ويحاصره في المدينة ،
الأمر الذي يتطلب من الخلافة ارسال نجدة الى يانس بقيادة يحيى بن علي
ابن الأندلسي الذي ينتهي به الحال الى التحالف مع فلفل الذي كان انتهز
الفرصة سنة ٣٩١ هـ / ١٠٠١ م ، ودخل طرابلس بمساعدة فتوح بن علي
وجماعة أهل المدينة ، واستوطنها من ذلك الحين (٨١) .

محاولة التمدد في افريقية وولاية نفزاوة :

والظاهر انه كان هناك نوع من التنسيق بين فلفل وبين ماكسن
ابن زيري ، فبينما كان فلفل يسيطر على طرابلس ويستوطنها سنة ٣٩١هـ /
١٠٠١ م ، كان ماكسن حليفه ، يحاول الاستيلاء على أشير حيث كان حصاد
ابن (أخيه) بلكين ، وتنتهي الحرب الشديدة بين الزيريين بمقتل ماكسن
وأولاده في ٣ رمضان / ٢٧ يولييه . ومما يسترعى انتباه المؤرخين من
غرائب الصدف : « وفاة زيري بن عطية الزناتي صاحب فاس والغرب كله ،
بعد تسعة أيام من مقتل ماكسن وأولاده أي في ١٢ رمضان / ٨
أغسطس (٨٢) » .

ومن المجهل ما قام به فلفل بن سعيد من الاستيلاء على بعض ولاية
افريقية نفسها ، عندما قام بمؤازرة يحيى بن علي بمحاصرة قابس التي
كان على ولايتها عطية بن جعفر ، وهي المحاولة التي انتهت بالفشل والعودة .

(٨١) ابن الأثير ، ج ٩ ص ١٥٢ ، ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٥١ - ٢٥٢ ، انصار
الحنفاء ، ص ٣٤ ، ادريس (ص - د) ، الزيريون ، بالفرنسية ، ج ١ ص ٩٩ .

(٨٢) ابن الأثير ، ج ٩ ص ١٥٢ - ١٥٥ ، ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٥١ - ٢٥٢ ،
التويري ، ص ٣٢٨ ، وقارن ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٥٧ ، ص ١٧٩ .

الى طرابلس في ٢٤ رجب سنة ٣٩٣ هـ / ١٥ سبتمبر سنة ٩٩٣ م (٨٣) .
 واستقر فلفل في طرابلس الى سنة ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م ، حيث توفي وخلفه
 عليها اخوه ورو الذي آلت اليه زعامة زناتة . وأثناء تلك الفترة كان
 فلفل قد يأس من معاونة خلافة القاهرة ، فبعث بطاعته الى المهدي محمد
 ابن عبد الجبار بقرطبة ، وأوفد اليه رسالة في الصريح والمدد . وهو الأمر
 المستغرب . وهناك فلفل قبل رجوعهم (٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م) (٨٤) . ولكنه
 عندما سار باديس الى طرابلس لحرب زناتة هناك ، فارقوا المدينة التي فر
 أهلها ، وملكها باديس . وانتهى الأمر على كل حال بالتسوية عندما راسل
 ورو باديس ودخل في طاعته على أن يستخدمهم كعمال له ، فأعطاهم نفراوة
 وقسطنطينية ، في نظير الرحيل عن أعمال طرابلس . كما دخل أيضا خزرون
 ابن سعيده ، أخو ورو ، في طاعة باديس ، وكان معه ٧٠ (سبعون) فارسا ،
 فأعطاه ولاية بعض المدن ، فخرج اليها بالبندود والطبول (٨٥) . ولو ان هذا
 لم يمنع من تجدد النزاع على طرابلس التي كان ورو يحاصرها سنة ٤٠٣ هـ /
 ١٠١٢ م بينما كان أخوه خزرون يحاول أن يمنعه من ذلك (٨٦) .

وخلال تلك الفترة وفيما بين سنة ٣٩٥ هـ / ٤ - ١٠٠٥ م و٣٩٧ هـ /
 ٦ - ١٠٠٧ م كانت قبائل زناتة في اقليم برفة تتحالف مع عرب بني قرة
 ضد حكومة القاهرة الفاطمية ، تحت قيادة الثائر أبي ركة الذي حاول
 اقتحام مصر نفسها ، ربما بسبب المجاعة التي اجتاحت المغرب سنة ٣٩٥ هـ /
 ٤ - ١٠٠٥ م على وجه الخصوص (انظر فيما سبق ، ص ٣١٩) .

هكذا ظل باديس يعاني من فتن زناتة ما بين داخل بلاده من طرابلس
 الى طينة وأشير وخارجها من تاهرت الى فاس وسجلماسة ، الى أن ينتهي
 الأمر بوفاة سنة ٤٠٦ هـ / ١٠١٥ م ، وهو يعاني من فتنه عمه حماد الذي
 كان محاصرا في قلعته (٨٧) .

(٨٣) ابن الأثير ، ج ٩ ص ١١٧ ، وقارن ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٥١ - ٢٥٢ .
 ص ٢٥٦ .

(٨٤) انظر ابن خلدون ، ج ٧ ص ٤٩ .

(٨٥) ابن عذاري ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٣٧٣ .

(٨٦) ابن الأثير ، ج ٩ ص ١٧٧ .

(٨٧) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٢٥٣ - ٢٥٤ .

وفي شوال من هذا العام / مارس كانت وفاة ورو بن سعيد ،
واختلفت كلمة الزناتيين بالاختلاف بين خليفة بن ورو وابن عمه خزرون .
وبذلك أوقع الله الشتات بينهم حسب مقالة ابن عذاري (٨٨) .

الانقدمات في الأسرة الزيرية :

رغم ان تاريخ الأسرة الزيرية الحقيقي لا يرتفع الى أكثر من جد بلكين
وهو متاد ، بصرف النظر عن سلسلة الأجداد الاسطورية التي ترتفع الى
ما يزيد عن أربعين جدا ، معظمهم لهم أسماء عربية (ما سبق ، ص ٢٩٣) ،
فان الأسرة ما لبثت الا قليلا حتى تضخمت بفضل سياسة تعدد الزوجات ،
واتخاذ الحريم الذي كان يحوى مئات الجوارى (النويرى ، ص ٣١٧) بين
سوداوات من العبيد ، وبيضاوات من الصقالبة الماليك ، حتى كان الأمير
منهم يبشر بالعشرة اولاد وأكثر في المرة الواحدة (النويرى ، ص ٣١٧) .
وهكذا تكاثرت الأسرة حتى كان يكون في قصر الأمير أحيانا ما يناهز الألف
امراة من ذوات المحارم الثلاثى لا يحزن له شرعا ، من : الأخوات الطبيعيات
أو في الرضاة والحالات والعمات (٨٩) .

وهكذا ظهر ما يمكن أن يشبه بما نسميه حاليا بالانفجار السكاني ،
وان كان في الأسرة الزيرية الصنهاجية ، منذ وقت بكر ، الأمر الذي أدى
الى ضيق الوطن الأصلي ، في منطقة أشير عن استيعابهم ، فخرجوا يطلبون
« أرض الله الواسعة » ، في المغرب الأقصى بعيدا عن حكومة القيروان
المركزية في افريقية ، وعن حكومة القسامة الخلافية في مصر ، حيث كانت
الأبواب الشرقية موصدة أمام الحارجين عن السلطة ، في القيروان وفي
القاهرة ، الأمر الذي دعاهم الى خرق كل ما تعصفت عليه الجماعة من
الأصول والقواعد أو التقاليد والأعراف ، من : شراء صداقة البعيد على
حساب الأقربين ، أو الارتقاء في أحضان الأعداء التقليديين ، أنه من مدارة
الأصدقاء التاريخيين ، مما أدى بهم الى التوغل بعيدا في قلب الأندلس من

(٨٨) البيار ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٢٨٢ .

(٨٩) النويرى ، ص ٣١٧ ، وقارن الاعلام لابن الخطيب ، ص ٦٨ - حيث الإشارة الى
ان زواى بن زيرى الذى لحق بالأندلس ، ثم عاد الى افريقية بعد وفاة باديس بن المنصور ،
كان له في الدنيا أزيد من ألف امرأة لا تحل له منهن واحدة - كلهن من نسل اخوته ،
وكذلك مثل هذا العدد من الرجال من نسل اخوته ، وهو ما يعتبره ابن حزم - حقا - من
فرائب الذم .

أجل الجهاد أو طلب الملك ، وهو الأمر الذى تنبأ به المعز لدين الله فى وصيته - المزعومة ، على ما نظن الى بلكين - التى حذره فيها من تولية أحد من أبناء عمومته أو من أهل بيته - وهى الوصية التى تعتبر ببساطة من واقع الأحداث ، وإن كانت بعض أفكار ما تمثله حتميات التاريخ .

وهنا لا بد من الإشارة أيضا الى أن الخلافات التى كانت تقوم بين الأمير وبين أفراد أسرته لم تكن دائما لأسباب سياسية . فذلك كان يشربها الطموحون عادة ، وهم قلة نادرة ، ولأسباب قد تتعلق بدرجة القرابة من المؤسسين الأول للأسرة أو الأمير الممارس للسلطة أو ولى العهد المميز . أو بالأحقية فى المشاركة فى الحكم عن طريق ولاية بعض الأقاليم أو محاولة الاستقلال ببعض الولايات . ولكنه الى جانب ذلك كثيرا ما كانت تتورأ الوحشة بين الأمير وأهل بيته لأسباب شخصية ، مما يتمثل فى سوء المعاملة والطمع فى ممتلكات الغير أو أموالهم ، أو حتى فى بعض أفراد أسرهم . ولعل هذه الأسباب ، مما يتعلق بمحاولة القوى الاستبداد بالضعيف ظهر ذلك النوع من القضاء العالى الذى عرف فى دولة الاسلام باسم « المظالم » ، وهو القضاء الذى كان يرأسه الأمير أو من ينوب عنه من كبار رجال الدولة ، والذى كان يفصل فى المنازعات التى يكون أحد أطرافها بعض أفراد الأسرة الحاكمة أو بعض كبار رجال الدولة أو مراكز القوى فيها .

الانشقاق الأول :

هروب أخوى بلكين الى القاهرة :

وفىما يتعلق بالأسرة الزيرية ظهر أول الشقاق بين الأمير وبعض أفرادها على عهد يوسف بلكين ، وذلك سنة ٣٦٩هـ / ٩٧٩م ، أى بعد سبع سنوات من ملكه . وفى ذلك الوقت كان بلكين ، يحتفظ باثنين من أخوته فى قصره بالمنصورة ، وهما : كباب - الذى أظهر فروسية مبكرة عندما نجح فى رد هجوم الزناتية على أشير ، وهو لم يبلغ الحلم بعد حتى أنه كان ممنوعا من الخروج من المدينة ، الأمر الذى استحق عليه أن يطلق اسمه على باب أشير الذى خرج منه وعاد مظفرا ، فصار « باب كباب » (٩٠) - والآخر مغنين ، ابنا زيرى . والرواية لا تعرف بأسباب غضب الأمير على

(٩٠) انظر فيما سبق ، من ٣٩٩ - هذا ان لم يكن بدء القصة سيما لقويا مبنى على لفظ كباب البربرية وباب العربية .

أخويه ، بل كان من الممكن الا تعرف قصتهما هذه التي لم تتفجر الا بسبب هروبهما من القصر ، والتجائهما مباشرة الى جوار الخلافة بالقاهرة . وقصة الهرب هذه طريفة ، وان كانت دارجه في بلاد الاسلام حيث لم تختلف ثياب الرجال كثيرا عن ثياب النساء . فلقد « لبسا ثياب النساء ، وخرجا في نسوة فن قد دخلن اليهما لزارتهما ، فوجدا الخيل والسلاح ، فركبا ، ومضيا الى مصر » . ولقد احتفى الخليفة العزيز بالأميرين الصنهاجيين ، وأبقاهما في كنفه الى نهاية ذلك العام . وفي السنة التالية ٣٧٠هـ / صرفهما العزيز الى بلكين أخيهما مع الأمر بالعفو عنهما (٩١) .

أولاد زيرى بن مناد والعلاقات مع الأندلس :

اما على عهد المنصور بن بلكين فقد ظهرت الانشقاقات بشكل واضح في الأسرة الحاكمة وذلك على المستوى الداخلى ثم انها اتسعت مع مرور الوقت لكى ترتبط بالسياسة الخارجية ، وليكون لها دورها السلبي في العلاقات مع الأمويين بالأندلس ومن ترتبط بهم من أمراء الغرب من الزناتية أو الحسينيين الأدارسة .

فعلى عهد المنصور ازداد نفوذ عبد الله بن محمد الكاتب - وغم كراهية المنصور له منذ بداية ولايته (سنة ٣٧٤هـ / ٩٨٤م) ، حيث تعرض الكاتب لاساءة متعمدة من جانبه ، على يدى أخيه يطوقت بن بلكين (كما سبق ، ص ٣٠٩) . فلقد صارت أمور الدولة كلها بين يديه من : « جمع المسال وترتيب الأحوال » ، حتى انه لثقته بنفسه « كان لا يدارى أحدا من أولاد زيرى ، ولا أكابر الدولة » (٩٢) . وكان ذلك يثير بغضا حقا للأمراء عليه ، الأمر الذى أدى الى وشايتهم به والطعن عليه (٩٣) . ومن ثم انتهى بمقتله سنة ٣٣٧هـ / ٩٨٧م على يدى المنصور وأخيه عبد الله ، كما قتل ابنه يوسف على أيدي المنصور أيضا وعمه ماكسن بن زيرى (٩٤) .

(٩١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٣٧ - ٢٣٨ .

(٩٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٢ ، قارن النويرى ، ص ١٩ - حيث النص على انه بلغ ما لم يبلغه قرابة المنصور وأهل دولته .

(٩٣) النويرى ، ص ٣١٩ - ٣٢٠ .

(٩٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٢ ، وانظر فيما سبق ، ص ٣١٢ .

الجهاد في جليقية :

ومن المهم الإشارة هنا الى أن الأمراء الصغار من أبناء زيري كانوا مضطرين منذ أواخر عهد أخيهام الأمير بلكين لا يضر ذلك أن كان ماكسن في سنة ٣٧٧هـ / ٩٨٧م يقف الى جانب ابن أخيه المنصور ، ويشاركة في القضاء على منافسهم رجل الدولة ووزيرها الكاتب عبد الله بن محمد . وفي الحقيقة ان ماكسن ، على العكس من ذلك ، كان يشارك في بداية عهد المنصور في سنة ٣٧٣هـ / ٩٨٣م ، أخويه زاوي وجلاله ، أولاد زيري ، وأخوة بلكين الصغار ، في الخروج على دولة ابن أخيهام المنصور ، بطريق غير مباشر ، عبر الصراع مع ابن أخيهام الآخر : حماد بن بلكين العامل على مدينة أشير ، فكانهم كانوا لا يقرون بالسيادة له وحده ، على مقر الأسرة ، وموطن صنهجة الأول (٩٥) . والمهم أن الصراع من أجل الوطن الأصلي انتهى بين أبناء زيري وأبناء أخيهام بلكين بغلبة حماد وطردهم من البلاد فاتجهوا الى الغرب نحو طنجة ، من حيث عبروا الى محمد بن أبي عامر (المنصور) بقرطبة ، الذي أحسن استقبالهم ، « وأجرى عليهم الوظائف » . ومن المهم أيضا أن الأمراء بني زيري لم يطلبوا من منصور قرطبة العون ضد ابن أخيهام منصور القيروان ، بل سألوه الجهاد في الأندلس ، وبلغ أمر اعتزازهم بأنفسهم أن رفضوا أن يشاركون أحد من أهل الأندلس في جهادهم هذا أو غيرهم ، باستثناء بني جلدتهم الصنهاجيين ، ومواليهم ومن يتبعهم من العبيد . وكانت حملتهم في أرض جليقية عبارة عن غارة من تلك التي تعرفها جماعات البندو ، مما يسمى بحرب الامكانات الخفيفة بمعنى حرب العصابات التي تعتمد المفاجأة ، وقطع الطريق والأشجار ، ونصب الكمائن ، وبيان المهارات الفردية ، والتي يكون هدفها النهائي العودة بالمغانم والسبي ، بعد نشر الفزع والهلع (٩٦) .

(٩٥) انظر ابن الأثير ، حيث النص على تبرير اختلاف بينهم بأنه قامت حروب مع أخيهام حماد (الصحيح ابن أخيهام) على بلاد بينهم .

(٩٦) انظر ابن الأثير ، ج ٩ ص ٣٢ - حيث سألهم (ابن أبي عامر) عن سبب انقسامهم ، فأخبروه ، وقالوا له : انما اخترناك على غيرك . . للجهاد في سبيل الله . فاستحسن ذلك منهم ، ووعدهم ووصلهم ، فأقاموا أياما - ثم دخلوا عليه وسألوه ما وعدهم به من النزو ، فقال : انظروا ما أردتم من الجند نمطكم ، فقالوا : ما يدخل معنا بلاد البندو الا الذين معنا من بني عمنا وصنهام وموالينا فأعطاهم الخيل والسلاح والأموال ، وبعث معهم دليلا .

ورغم ما تقوله الرواية من أن غارة جليقية التي قام بها الصنهاجيون من بنى زيري حسمت الأندلسيين ونشطتهم للغزو معهم مرة أخرى في ليون ، حيث أظهر جلالة بنى زيري (الصنهاجي) مهارة فردية عظيمة في القتال عندما تفادى ضربة القومس (الكونت : Comes) فمال عنها ووجه إليه ضربة أبانت عاقته ، وهي الغارة التي انتهت بالعودة بسبي عظيم ، تبالغ الرواية من غير شك ، عندما تجعله ٣٠ (ثلاثين) ألفاً (٩٧) . فالمعروف أن تلك الغارات غير المدروسة التي كانت تهدف إلى تخريب بلاد العدو واضعاف معنوياته ، كانت تأتي بسبب بساطتها وعفويتها وعدم استمراريتها بنتائج عكسية . فقد كانت تثير العدو وتنبهه إلى تقوية دفاعاته ثم قيامه بغارات ثأرية ، وأعمال ردع مستمرة كانت تثبط من هم المسلمين ، وتخرب بلادهم الحدودية وتجعلها أرضاً « بغير صاحب » (ro man's land) ، كما يقال في المصطلح الحربي ، مما أدى مع مرور الوقت إما إلى تبعية أهلها إلى العدو أو جلائهم عنها وضماها . بل وما هو أخطر من ذلك ، فإن استخدام ابن أبي عامر للبربر بكثرة في جيوشهم أدى إلى تفاقم أزمة الخلافة الأموية على المستويين السياسي والاقتصادي ، وبالتالي إلى انهيارها باختيار الدولة العاصمية ، وافتقار البلاد لوحدها بترقيها . بين عرب وبربر وممالك صقلية .

وهنا يكون أهم إنجاز حققه بنو زيري الصنهاجيون في الأندلس هو اقتطاع مملكة لهم في غرناطة بفضل نشاط زاوي بن زيري الذي يسميه ابن خلدون : « ملت الفتنة بالأندلس » ، اعتساراً من سنة ٣٩١هـ / ١٠٠١م ، الأمر الذي أدى إلى قيام أسرة بنى حبوس بن ماكسن الصنهاجي في البيرة وغرناطة ، وهي التي انتهت على يد يوسف بن تاشفين (٩٨) .

عصيان أبي البهار بن زيري :

ولا ندرى إن كان اضطراب بنى زيري اللاجئين إلى الأندلس كان له تأثيره على من بقي منهم في كنف بنى أخيهم بلكين في إفريقية والمغرب الأوسط . ففي سنة ٣٧٩هـ / ٩٨٩م عقب اضطراب بلاد كتامة بسبب

(٩٧) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٣٣ .

(٩٨) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٧٩ وما بعدها .

العدائى أبى الفهم (٧٧ - ٢٧٨هـ) ثم تابعة أبى الفرج سنة ٢٧٦هـ / ٩٨٩م ، وهى السنة التى صالح فيها سعيد بن خزرون الأمير المنصور ، ونال منه ولاية طينة ، ثار على المنصور عمه أبو البهار ، وإلى تاهرت والمغرب ، لأسباب لا يوضحها ابن الأثير ، فى روايته الغامضة التى تقول : « نشئ جرى عليه من المنصور لم يحمله لمزة نفسه » (٩٩) . وعندما سار المنصور اليه بعساكره ، ترك أبو البهار تاهرت ومعه أهله وأصحابه واتجه نحو الغرب . وهكذا دخلت عساكر المنصور تاهرت فانتهبوها ، وقتلوا كثيرا من أهلها قبل أن يطلبوا الأمان ، حسبما تقول رواية ابن الأثير وابن عذارى (١٠٠) ، فكانهم كانوا مساندين للشورة ، بينما تقول رواية ابن خلدون أن أهل تاهرت أمدوا المنصور ، بمعنى أنهم ساعدوه (١٠١) ، وهو الأمر المقبول من حيث أنه لا بأس أن يكون تصرف العسكر العدائى بالنسبة لمدينة مفتوحة أمرا عاديا بالنسبة لهم ، سواء كانت صديقة أم عدوة . بمعنى عدم السيطرة على الجنود فى جيوش ذلك الوقت ، أن لم تكن تلك سياسة معتمدة لترضية العساكر ، فكانها مكافأة أشبه بما يعرف بالحوافز فى أيامنا هذه .

وتتبع المنصور عمه قيما وراء تاهرت الى مسافة ١٧ (سبع عشرة) مرحلة ، الى أن أرهق عسكره ، فرجع أدراجه نحو أشير ، بعد أن عهد بولاية تاهرت الى أخيه يطوفت (١٠٢) .

التحالف مع زيرى بن عطية :

أما عن أبى البهار فانه قصص الزعيم الزناتى زيرى بن عطية ، القرطاس ، الذى رحب به وأدخله فى خدمته ، فكان رجاله يغيرون على أطراف بلاد المنصور . ومن فاس راسل أبو البهار المنصور بن أبى عامر قرطبة ، وعرض عليه الدخول فى طاعته على أن يبقى فى كنف زيرى بن عطية . ووافق المنصور بن أبى عامر شريطة أن يبعث أبو البهار ابنه رهينة الى قرطبة ، وهذا ما فعله أبو البهار بولدين من أبنائه غرق أولهما عندهما .

(٩٩) التكميل ، ج ٩ ص ٦٨ ، وفارن بن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٤ - حيث يكتفى بذكر الخلاف دون إشارة الى سببه .

(١٠٠) التكميل ، ج ٩ ص ٦٨ ، البيان ، ج ١ ص ٢٤٤ .

(١٠١) المعبر ، ج ٦ ص ١٥٧ .

(١٠٢) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦٨ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٤ .

عطب المركب الذي توجه به ، بصحبة ميمون بن الناية ، كاتب أبي البهار ، بينما وصل الثاني سالما ، وأقام في كنف أبي عامر (١٠٣) . وهكذا تم تحالف أبي البهار بن زيري الصنهاجي وزيري بن عطية المصراوي ، برعاية المنصور بن أبي عامر ، ضد المنصور بن بلكين ، وبدأ العمل ، سويا سنة ٣٨١ هـ / ٩٩١ م ضد الأراضي الزيرية المتاخمة لفاس ، حيث أوقعوا برجال المنصور ، واستولوا عليها (١٠٤) . وبقي أبو البهار في خدمة زيري بن عطية ، صاحب فاس ، تحت راية المنصور بن أبي عامر الى سنة ٣٨٣ هـ / ٩٩٣ م حينما قرر العودة ثائبا ، توبة الابن الضال ، الى بلده وأهله وعشيرته . فلقد بدأ أبو البهار اتصالاته من أجل العودة بأبن أخيه يطوفت والى تاهرت ، الذي كتب بدوره ، في نفس الوقت ، سنة ٣٨٣ هـ / ٩٩٣ م الى المنصور بذلك ، فطلب منه أن يبعث به اليه . وكان وصول أبي البهار الى المنصورية ليلة الاثنين ١٥ شعبان / ٦ أكتوبر ٩٩٣ م ، حيث أحسن المنصور استقباله وأعقد عليه الأموال والهدايا ، من : السكس والفسرش والجواري (١٠٥) .

أما عن زيري بن عطية ، القرطاس ، الذي كان قد وثق علاقته بالمنصور بن أبي عامر في نفس سنة ٣٧٩ هـ / ٩٨٩ م ، حيث قام ابن عطية - بعد أن ترك ابنه المعز في تلمسان - بزيارة ابن أبي عامر ، واستمرت العلاقة وطيدة بينهما الى أن فسدت سنة ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م ، مع بداية عهد باديس بن المنصور ، وقامت الحروب بينهما (١٠٦) . وشارك في تلك الحروب

(١٠٣) ابن عذاري ، ج ١ ، ص ٢٤٤ ، ط : بيروت . ص ٣٤٩ - ٣٥٠ .
(١٠٤) ابن الأثير ، ج ٩ ، ص ٦٨ . وقارن القرطاس ، ص ١٠٣ - حيث النص على أن ابن أبي عامر عقد لأبي البهار على تلمسان وتنس وهران وشلف وشرشال ، وجبال ونهرش والمهدي ، وكثير من بلاد الزاب ، وذلك اعتبارا من سنة ٣٧٧ هـ / ٩٨٧ م . وكانت الأمور مستقرة بينهما الى شهرين فقط قبل عودة أبي البهار الى افريقية ، حيث كان المنصور العامري قد بعث اليه بعهد وهدية وخلعة و٤٠ ألف دينار .
(١٠٥) ابن عذاري ، ج ١ ، ص ٢٤٦ - ٢٤٧ . وقارن ابن الأثير ، ج ٩ ، ص ٦٨ ، الذي يجعل ذلك من أحداث سنة ٣٨١ هـ / ٩٧١ . وقارن القرطاس ، ص ١٠٢ - ١٠٣ - حيث أجمال الأحداث عن أبي البهار .
(١٠٦) ابن عذاري ، ج ١ ، ص ٢٤٦ ، وانظر القرطاس ، ص ١٠٢ - ١٠٤ - حيث استقر ملك زيري بن عطية في فاس اعتبارا من سنة ٣٧٧ هـ / ٩٨٧ م تحت راية ابن أبي عامر بقرطبة ، ثم انه عهد اليه بعد عودة أبي البهار الى افريقية بجميع بلاده ، فجعل زيري من تلمسان مقرا لابنه المعز . وكان على زيري بن عطية أن يزور قرطبة ما بين سنين وآخر ، =

قائد ابن أبي عامر : الفتى واضح ، وابنه عبد الملك المظفر ، وانتهت بهزيمة زيري واستنصال رجاله ، ونجته منجنا بالجراح . وبذلك انبسط ملك المظفر عبد الملك سنة ٣٨٩ هـ / ٩٩٩ م على المغرب الأوسط ما بين تلمسان وتاهرت ، وفي المغرب الأقصى ، ومد سلطاته الى سجلماسة ، وصارت فاس هي قاعدة البلاد حيث استقر بعد اقامة المظفر فيها ، فتاه واضح ثم عبد الله ابن أبي عامر ، أخوه المنصور (١٠٧) .

الحلاف بين أولاد زيري وباديس :

عند وفاة المنصور بن بلكين سنة ٣٨٦ هـ / ٩٨٦ م ، لم يكن أولاد

كما حدث سنة ٣٨١ هـ / ٩٩١ م ، حيث عهد بعدوى فاس الى عبد الرحمن بن عبد الكريم ابن تلمبة (بالاندلس) وعلى بن محمد بن قشوس (بالقرويين) . ورغم الترحيب الكبير بزيري في قرطبة ، ووصله بطلب الوزير ، فانه رجع سائلا الى بلاده لا يريد الا الامارة دون الوزارة ، وأن تكون طنجة القاعدة الاندلسية ، ملكا له . وكان عليه أن يسترجع عدوه الاندلس من ابن جلدة البغرني ، يدو بن يعلى بعد أن قتله أثر حروب طويلة سنة ٣٨٣ هـ / ٩٩٣ م . وظلت علاقة زيري بن عطية فاترة بابن أبي عامر ، في الوقت الذي كان يؤكد سلطانه فيه بالمغرب ، وخاصة بعد بناء مدينة وجدة سنة ٣٨٤ هـ / ٩٩٤ م واتخاذها قاعدة للكل ، الى أن تسد تماما ما بينه وبين المنصور العاقرى سنة ٣٨٦ هـ / ٩٩٦ م . من حيث كاو زيري يشرف فقط بأمانة هشام المؤيد ، دون حجابة العاقرى ، وقيام الحروب بينهما - (١٠٧) ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٥٢ ، قارن ابن خلدون ، ج ٧ ص ٢٨ وما بعدها ، صبيح الأعشى للقلقيشندى ، ج ٥ ص ١٨٦ - حيث الإشارة الى فساد ما بين المنصور (ابن أبي عامر) وزيري ، وعقد المنصور لمواه واضح على المغرب وحرب زناتة ، واتباعه بابنه عبد الملك المظفر ، وانهزام زيري وجرحه وفراجه الى فاس التي امتنع عليه أهلها ونفاقه بالصحراء ثم عودته الى حرب صنهاجة بالمغرب الأوسط حيث فتح تاهرت وتلمسان ، وأقام الدعة فيها لهشام المؤيد والمنصور من بعده .

وانظر القرطاس ، ص ١٠٥ - ١٠٧ - حيث بحث المنصور قائده واضحا الفتى الذي أقام بطنجة يستكمل استعداداته للقتال ، ولكن المعركة انتهت بهزيمة واضح الى طنجة ، فكان على المنصور ابن أبي عامر أن يمدد بابنه عبد الملك الذي حقق النصر في معركة وادي منى من أحوال طنجة ، اثر غدر أحد غلمانه السود ، وطعنه بسكين في رقبته . وهكذا استحق عبد الملك لقب المظفر عندما أنهى محاولة تجمع فلول زيري بالقرب من مدينة مكناسة ، في ١٥ رمضان ٣٨٧ هـ / ٢٦ سبتمبر ٩٩٧ م . وكان على زيري أن يفر الى الصحراء بعد أن أغلقت فاس أبوابها في وجهه . وبذلك أصبحت فاس من أملاك قرطبة حيث توألى عليها بعد المظفر ، عيسى بن سعيد صاحب الشرطة ، ثم الفتى واضح ثم سنة ٣٨٩ هـ / ٩٩٩ م بشا كان زدى بن عطية يحوس فسادا ثم قلب الدار الصنهاجة ، ثم تاهرت وتلمسان والمسيلة الى أن خلفه ابنه الحسن سنة ٣٩٦ هـ / ١٠٠٦ م .

زيرى قد اطمأنوا بعد الى وضعهم فى الدولة ، اذ حاولوا الخلاف ومنع الولاية من ولى عهد المنصور الشاب الصغير أبى مناد باديس ، بمعنى أنهم لم يكونوا قد قبلوا بعد الأفراد الفرع البلكىنى بالملك ، دون سائر أبناء زيرى ، لولا موقف الحرس الأميرى من الممالك السودان (انظر فيما سبق ، ص ٣٣٠) . ولكنه على عهد باديس يظهر الانشقاق الزيرى بشكل أوضح ، بل ونجح الفرع الحمادى من أولاد بلكىنى فى اقتطاع امارة خاصة بهم فى اقليم القلعة الغربى ، منذ عهد باديس بولاية أشير الى عمه حماد سنة ٥٨٧ هـ / ٩٩٧ م ، ويتكرس ذلك الأمر بثورة حماد قبيل وفاة باديس سنة ٣٨٦ هـ / ٩٩٦ م ، وولاية الحز بن باديس ، فيستكمل شكله القانونى (انظر فيما سبق ، ص ٣٣٩ وما بعد ، ص ٤٠٩) .

وكانت الشرارة التى أشعلت الفتنة بين الأسرة الزيرية من أولاد زيرى (الأعمام) وأولاد بلكىنى (أبناء الأخ) هى الحرب التى اندلعت بين زيرى ابن عطية ، صاحب فاس وتابع المنصور بن أبى عامر ، حاجب قرطبة ووزيرها الأول ، وبين باديس بن المنصور سنة ٣٨٩ هـ / ٩٩٩ م ، فكانها كانت فرصة مواتية مكنى تعود الأمور الى أوضاعها المناسبة ، حيث ينضم خصوم الأمير الصنهاجى (باديس) من أبناء الأسرة الى مناصريهم الأمويين الأندلسيين . وإذا كانت الهزيمة المريعة التى لحقت بالجيش الصنهاجى على أيدى قوات زيرى الزناتية قد وجدت تبريرها على أساس سخط رجال حماد عليه ، فلا تدرى ان كان لأبناء زيرى - من : زاوى وجلاله وماكسن ، ممن خدم بعضهم فى الأندلس كمجاهدين بموافقة ابن أبى عامر ، أو كمساعدين لزيرى بن عطية ، كما فعل أبو البهار ، تأثيرهم فى مسار تلك الأحداث ، بعد أن ظهرت مواقفهم الثابتة بين الطرفين المتنازعين على سيادة المغرب من أبناء الاخوة ، ممثلى الفاطميين ، وزناتة الغرب أتباع الأمويين .

والهم ان أبناء زيرى أظهروا ما كانوا يضمرونه لباديس من الحقد بعد ما طرد ابن عطية بعيدا عن تاهرت التى أعطيت ولايتها الى يطوفت ، كما أعطيت له ولاية أشير التى استقر فيها ، بينما استخلف ابنه على تاهرت . فعندما سار باديس لمواجهة قلقل بن سعيد بن خزرون الذى كان يهدد بلاد الزاب وأوراس (انظر فيما سبق ، ص ٣٥١) تشبث أعمام أبيه ، أولاد زيرى - باستثناء أبى البهار منهم - بالبقاء مع يطوفت فى أشير ، كأعوان له . وعندما اعترض باديس على ذلك وتشبث بضرورة مصصاحبتهم له ، وعدوه بالحقاق به بعده أن يقضوا أمورا كانت لهم بأشير . وهكذا سار

باديس نحو المسيلة حيث عيد الفطر . وأثناء صلاة العيد ، وصلت الاحبار
الى ابى البهار بعضيان اخوته اولاد زيرى ، فى أشير وهم : زاوى وماكسن
بومغنين ، اذ تاروا بيطوفت ، وقبضسوا عليه واخذوا ماله ، بل وكادوا
يمتلونه نولا ان نجح فى الاحتيال عليهم ، والنجاة بنفسه ، والعودة الى
باديس .

وخاف أبو البهار ، الذى كان على صلة بأخوته ، أن يتهم بالمشاركة
فى تلك المؤامرة فهرب فى التو واللحظة بأهله وبنيه ، ولم يدرك عندما طلب
بالحق بأخوته بأشير (١٠٨) . وفى أشير قرر أولاد زيرى التحالف مع فلغل
ابن سعيد الزناتى ، الثائر على باديس فى قلب ولاية افريقية ، بدلا من
الذهاب الى الغرب البعيد وفاس . ولكنه عندما سار باديس فى أوائل
سنة ٣٩٠ هـ / ١٠٠٠ م ، ومعه أبو البهار الذى اعتذر عما بدر من اخوته ،
فقبل باديس عنده ، لحرب فلغل - بعد الهزيمة التى ألحقها به آخر السنة
الماضية - فخرج من المنصورية الى رقادة ثم قصر الافريقى ، خاف عموته
أولاد زيرى ، فنقضوا حلفهم مع فلغل ، وساروا نحو الغرب ، باستثناء
ماكسن بن زيرى وابنه محسن ، الأمر الذى دعا باديس الى العودة الى
حاضرتة ، المنصورية (١٠٩) .

مقتل ماكسن بن زيرى وبنيه :

وبينما كان فلغل يزيد اشتعال الفتنة القائمة فى طرابلس ضد
باديس باسم الخلافة الفاطمية ، محاولا الصيد فى الماء العكر ، كما يقال ،
كان ماكسن بن زيرى عم والد باديس يسير سنة ٣٩١ هـ / ١٠٠١ م الى أشير
فى محاولة لاسترجاع وطن الوالد من بين يدي حماد الذى ربما كان معاونا
للأخيه يطوفت هناك ، ان لم يكن قد استعاد ولايتها مرة أخرى ، بعد فقدانها
اثر هزيمة سنة ٣٨٩ هـ / ٩٩٩ م . والمهم أن تلك الحرب الضروس بين
ماكسن وابن أخيه حماد انتهت بكارثة بالنسبة لماكسن الذى قتل هو
(٣) ثلاثة) من أبنائه ، هم : محسن وباديس وحباسة - وهى الكارثة

(١٠٨) النويرى ، ص ٣٣٦ - ٣٣٧ - حيث الإشارة الى التقاء كل من بطون وأبى البهار
فى طريقهما ما بين أشير والمسيلة . وان أبا البهار حلف لبطون انه لم يعاهد اخوته على
الخلاص ، ولكنه يهرب خوفا على نفسه . ابن عذارى ج ١ ص ٢٥١ ، ابن الأثير ج ٩ ص ١٥٣
- قارى ابن خلدون ج ٦ ص ١٥٧ ، ١٧٩ .
(١٠٩) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٥٢ ، النويرى ، ص ٣٢٨ ، ابن الأثير ، ج ٩ ص ١٥٣ .

التي اعتبرها الكتاب نذير شؤم على حليف أبناء زيري ، السابق ، صاحب فاس ، الذي مات بعد ٩ (تسعة) أيام فقط ، في ١٢ من رمضان / ٢٧ أغسطس (٩٩٩) (١١٠) .

زاوي (بن زيري) في الأندلس من جديد :

أما عن بقية أولاد زيري الذين اتجهوا نحو الغرب ، للدخول في خدمة المنصور بن أبي عامر تحت راية الأمويين ، فالمعروف أن زاوي منهم لحق في سنة ٣٩١هـ / ٩٩٩م بجبل شنوق من منطقة مليانة ، من حيث عبر مع أولاده وأولاد أخيه (ماكسن ؟) وحاشيته ، إلى الشاطئ الأندلسي . وهناك نزلوا على المنصور بن أبي عامر الذي أحسن استقبالهم وأكرم وفادتهم ، وجعلهم أعوانا لنفسه ، إذ نظمهم في طبقات البربر الذين اصطنعهم للخدمة في القوات الأندلسية بدلا من العساكر الأموية النظامية ، وقبائل العرب من المتطوعة . وعن هذا الطريق قويت شوكة صنهاجة في الأندلس ، فأصبحوا عصبية الدولة العامرية على أيامه وأيام ولديه : المظفر عبد الملك ، والناصر عبد الرحمن (شنجويه) ثم كان لزاوي شأنه في فتنة قرطبة التي رفعت المستعين سليمان ممثل البربر إلى عرش الخلافة .

وعند استباحة قرطبة كان هم زاوي هو البحث عن رأس والده زيري بن مناد « المنصوب بجدران قرطبة ، فأزاله إلى قومه ليدفن في جدته » (١١١) .

(١١٠) ابن الأثير ، ج ٩ ص ١٥٤ ، ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٥٩ - ٢٥٢ ، التويري ، ص ٢٢٨ - حيث وصول الخبر في سنة ٣٩٢هـ / ١٠٠٠م ، ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٧٩ ، وانظر فيما سبق ، ص ٣٦٤ .

(١١١) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٧٩ - حيث وصف زاوي بأنه « ملث » تلك الوقائع ومحشى حروبها ، بمعنى عاجتها وخابزها ، قيل قليل من عودته إلى الفريفة سنة ٤١٠هـ / ١٠١٩م بعد غياب دام ٢٢ سنة . وقارن صبح الأعشى ، ج ٥ ص ٢٥٧ - حيث النص على استيلاء زاوي على غرناطة ثم عن له أن قدم على المنصور بن باديس (ما بعد ، ص ٤٠٦) واستخلف ابنه له على غرناطة ، فأساء السيرة فملكوا ابن عمه حبوس بن ماكسن ، وعظم سلطانه إلى أن توفي سنة ٤٣٩هـ / ١٠٣٧م ، وملك بعده ابنه باديس بن حبوس الذي تلقب بالمظفر ، والذي مصر غرناطة وأختط قصبتها وشيد قصورها وحسن أسوارها سنة ٤٧٧هـ / ١٠٨٤م ، وقد ظهر المرابطون بالمغرب . . وحفده عبد الله بن بلقين هو الذي خلعه ابن تاشفين سنة ٤٨٣هـ / ١٠٩٠م .

الصراع بين باديس وعمه حماد :

أما عن أخطر الخلافات بين الزيريين ، فكان ذلك الذي حدث بين باديس بن المنصور وبين عمه حماد بن بلكين ، من حيث هو صراع بين آل بلكين ، ومن حيث ما انتهت إليه من تقسيم الدولة الى مملكتين . والأمر هنا لا يتوقف على الحقوق المشروعة لآل بلكين في المشاركة في حكم الدولة « اليوسفية البلكنية » ، بصفة حماد من السلالة الحاكمة ، بقدر ما يتوقف على شخصية حماد نفسه . فمُنذ بداية عهد باديس بن المنصور (٣٨٦هـ / ٩٩٦م) حل حماد بن بلكين محل يطوفت أخيه ، صاحب أشير والوطن الصنهاجي ، وأصبح قائد الدولة أو مشيرها « المارشال » الذي يعهد إليه بقيادة الجيوش ضد زناتية الغرب - بصرف النظر عن مكانه من القيادة أو من النصر والهزيمة (أنظر فيما سبق ، ص ٣٤٩) ، والذي يقاثل حلفاء زناتية الداخل من عمومته أولاد زيري ، بل ويقتل ماكسن منهم ، وكذلك أولاده الثلاثة (ص ٣٦٦) . وهو في النهاية لا يستجيب لمطالب باديس بالتنازل لولي العهد عن بعض أقطاعه ليرفع من شأن ولاية العهد ، ويكثر من أتباعها الأقوياء ، فكانه في حقيقة الأمر يرفض ولاية العهد بطريق التسلسل من الأب الى الابن ، ويفضل عليها حق الأسن وحق الأقوى ، على الأقل في وراثة وتوريث أقطاعه في أرض صنهاجة الوطن ، بأشير (١١٢) .

وفي ذلك وقف الى جانبه أخوه ابراهيم ، فكان على حد السيف أن يقرر مصير الدولة ، ولن تكون اليد العليا فيها . وبدأت حرب قدرة استمات فيها حماد وأخوه ابراهيم ، وجلسا الى أساليب مجبوجة من أعمسبال القتل

(١١٢) أنظر الاعلام لابن الخطيب ، ص ٦٩ وما بعدها - حيث الإشارة الى ان باديس انهض عمه حمادا الى الزناتية المخالفين ، وجعل له تملك كل ما يفتحه ، وأغناه من الوصول الى أفريقية بعد ، وكمل شروطا كثيرة تشطط فيها حماد لكبره وحرصه مدبري دولة باديس على الاستراحة منه . وأنظر ادريس (هـ - د) ، الزيريون ، بالفرنسية ، ج ١ ص ١٠٦ - ١٠٧ - حيث تلخص صفات حماد - في أنه : جريء ، مخادع ، حكيم جيد ، كريم ، قاسي . ورغم انه قرأ الفقه صيبا في القبروان ، فهو طاغية لا يتورع عن القاء عمه «ماكسن» حيا الى الكلاب . وإذا كان ادريس لا يحب التشكيك فيما كان يظهره حماد من التقوى ، أو رميه بالفراق ، قلنا أن نتساءل ، هنا ، عما اذا كان حماد مخلصا فيما دعا اليه بمناسبة خروجه على باديس ، من : مخالفة دعوة باديس (الفاطمية) ، وقتل الرافضة ، وإظهار السنة ، والترضى عن الشيخين ، وتبليط طاعة العبيديين جملة ، ومراجعة دعوة آل الرباس ، وذلك في سنة ٤٠٥هـ ، حسبما ينص ابن خلدون (ج ٦ ص ١٧١) .

والنهب والتخريب (ص ٣٢٤ و٣٩٧) ، وتحمل فيها حماد هزائم قاسية دون أن تنكسر له شوكة . وفي النهاية لم ينقذه من الحصار الأخير الذي أحكم حوله في القلعة (٤٠٦ هـ / ١٠١٥ م) إلا وفاة باديس فجأة بالذبحة ، وهي السكتة القلبية . فكان من حقه أن يكتسب حق وراثة ولايته أشير منذ بداية عهد حفيد أخيه : المعز بن باديس .

السياسة المالية والأحوال الاقتصادية :

لم يكن من الغريب أن يكون من أهم وصايا المعز لدين الله لنائبه يوسف بلكن التركيز على المسألة المالية وجباية الضرائب ، الأمر الذي يعنى الاهتمام بالأحوال الاقتصادية ، ركيزة الدولة المتحضرة ، وأصل الحضارة ، كما تقضى العلاقة السببية بين المال والحضارة ، من حيث أن الحضارة تبع لكفنى والثروة ، ومن حيث أن الدولة هي السوق التي تنفق فيها أسباب الحضارة ، من المطالب فوق الحاجة ، أى الكمالية ، كما تقضى بذلك نظرية ابن خلدون (١١٣) . وكما تقضى به أيضا السياسة المدنية مما يأتى ملخصا في الدائرة الثمانية التى يسميها ابن خلدون بالدائرة الحكومية الفلسفية الإلهية ، والتى تقرر : أن الملك راع يعضده الجيش ، وأن الجيش أعوان يشدهم المال ، وأن المال رزق تجمعه الرعية ، التى يستعبد بها العدل الذى يحيا به العالم (١١٤) .

وهكذا ، فكما قامت السياسة المالية بدورها في حياة الدولة الفاطمية في المغرب ، من حيث تجميع المال من مظانه المختلفة ، وخاصة الضرائبية ، الأمر الذى لا يتحقق بدون تشجيع الزراعة والحرف والصناعات والتجارة حتى تغتنى الرعية ، وبالتالي يكثر المال الذى تحتاجه الدولة للنفقة على الدواوين الإدارية ، والجيش والأساطيل الحربية التى تحقق الأمن ، وعن طريقها ينتشر بالتالى العدل ، الذى هو أساس الملك وبه يحيا العالم .

بناء على ذلك لم يكن غريبا أن يوصى المعز نائبه بلكن ، بعدم رفع الجباية عن أهل البادية ، والعمل بأهل الحضارة خيرا ، من حيث تحصييل

(١١٣) المقدمة ، فصل التدرج العمرانى ، (من البداوة الى الحضارة) ، الفصل الثالث ،

١٥٠ ، ص ١٤٤ .

(١١٤) المقدمة ، تحقيق على عهد الواحد ، ج ١ ص ٤١٦ ، وأنظر كتاب سر الأسرار ،

بتحقيق عبد الرحمن بدوي ، ط : دار الكتب ، القاهرة ، ١٩٥٤ ، ص ١٢٦ وشكل ص ١٢٧ .

الحماية من أهل البادية بانتظام ، بمعنى دفعهم الى العمل في زراعة الأراضي واجباتها ، وبالتالي دفع ضريبة الحراج المطلوبة منها ، وذلك العملية تعنى في ثناياها تجنيز أهل البادية ، ورفع مستواهم الحياتي والعمرائي . أما الاحسان لأهل الحاضرة فهو معاملتهم بالجنسي وعدم التجني عليهم في أخذ الضرائب ، تشجيعا لهم على مواصلة العمل وزيادة الانتاج ، وبالتالي زيادة الثروة القومية ، دعامة التحضر ، وارتفاع مستوى المعيشة .

الادارة المالية تابعة للخلافة :

وهكذا فصل المعز الادارة المالية للولاية الافريقية عن الامارة ، وجعلها تابعة له مباشرة ، بتعيين ابن القديم عونا لبلكين على جميع الأموال بافريقية^(١١٥) كما ان بلكين ، بسورم ، عندما تسلم زمام ازمور في ولايته ، بدأ باخراج المال وجباة الأموال الى سائر البلدان^(١١٦) . فكانه بدأ بخرق أوامر المعز التي تقضي بالفصل بين الولاية بمعنى السلطة السياسية والادارية ، والعمالة بمعنى السلطة المالية ، بقصد تجميعها جميعا بين يديه ، الأمر الذي يفسر كيف أنه تخلص من ابن القديم ، عن طريق كاتبتهم الأسبق عبد الله بن محمد الكاتب ، ولو أن المسألة انتهت بسيطرة هذا الأخير على الشئون المالية ، والظهور بمظهر صاحب إخراج المستقل ، التابع للخلافة وليس لأمير القيروان^(١١٧) .

تبرعات اجبارية يجمعها العامل باسم الخلافة :

وهذا ما يفسر كيف كان عبد الله محمد الكاتب يستطيع في سنة ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م ، أن يفرض على المقتدرين من أعيان الناس بافريقية والقيروان ، الذين بلغ عددهم ٦٠٠ رجل ، اثاوة معينة بعد أقصى قدره ١٠ (عشرة) آلاف دينار ، مع استثناء رجال الدين من الفقهاء والصلحاء ورجال العلم والأدب ، من هذا الغرم ، الى جانب رجال الدولة من أولياء السلطان . فكان تلك الاثاوة وقعت على التجار والأغنياء من أصحاب الأراضي الزراعية ، والعقارات أو المتيسرين من أصحاب الحرف والصناعات ، وهي الطبقات العاملة أو المنتجة ، دون غيرهم . والمهم ان عبد الله بن محمد الكاتب جمع من منطقة القيروان وحدها ، أكثر من ٤٠٠ (أربعمائة) ألف دينار .

(١١٥) التوبري ، ص ٣١١ ، ما سبق ، ص ٣١٠ ، وانظر ما سبق ، ص ٢٨٠ - ٢٨١ .

(١١٦) التوبري ، ص ٣١٢ ، وما سبق ، ص ٣١١ ، وانظر ما سبق ، ص ٣٠٢ .

(١١٧) ما سبق ، ص ٣٠٤ .

ومن الواضح أن جباية تلك الأتاوة لم تتم بسهولة ، بل استوجب إجراءات قمعية ضد بعض المطالبين بالدفع ، الأمر الذي كان له أصداء سيئة في نفوس الناس الذين جأروا بالشكوى حتى وصلت أسماع المستولين في ديوان الخلافة بالقاهرة ، الذي أصدر أوامره إلى أبي الفتوح يوسف بلكين « برفع الغرم عن الناس » فأطلقهم عبد الله الكاتب في أواخر شوال (يونيو) .

وفي سنة ٣٦٧هـ / ٩٧٧م التالية ، كان عبد الله الكاتب ، عامل إفريقية ، يبعث ، بموافقة بلكين ، بتلك الأموال التي وضعت في صرر ، حسبما جمعت ، إذ وضعت على كل صرة اسم صاحبها ، إلى الخليفة العزيز بصرر ، وكان صدورها من القيروان في ٢٥ من جمادى الثاني / ٢٣ أكتوبر . والأمر المستغرب هو أن ديوان الخلافة بالقاهرة رد بعض تلك الضرر إلى أصحابها (١١٨) . ولا يأس أن كان هؤلاء من المحظوظين ، من بين الذين جأروا بالشكوى من تلك الغرامة أو المظلمة .

والحقيقة أن الخلافة كانت تعمل على تحسين صورتها في أعين الناس ، فكانت تحاول علاج مثل هذه الأعمال عن طريق العطاء أحيانا دون الأخذ . وكانت مناسبة خروج نفود جديدة من دار السكة بالقاهرة مناسبة جيدة يمكن استغلالها بإرسال مجموعات من تلك القطع الجديدة لكي تفرق على الناس . فهذا ما حدث بمناسبة ولاية العزيز للخلافة سنة ٣٦٥هـ / أواخر ٩٧٥م حيث صرحت دنابر ذهبية جديدة تحمل اسمه ، وأرسل بعضها إلى المغرب وإفريقية وقرقت على الناس (١١٩) .

زيادة الخزائن :

والظاهر أن نشاط عبد الله الكاتب ، ومن كان تحت إدارته من الجباة كان يؤدي إلى نتائج المرجوة من زيادة الأموال في الخزانة العامة . فهذا ما يفهم مما قام به سنة ٣٧٣هـ / ٩٨٣م . وهي السنة الأخيرة من عهد يوسف بلكين ، حيث قام عبد الله الكاتب بعمل خزانة جديدة من الحديد صلاها بالأموال ، إضافة إلى خزانة خشبية ، امتلأت هي الأخرى (١٢٠) .

(١١٨) ابن عساري ، ج ١ ص ٢٢٠ .

(١١٩) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦٦٥ .

(١٢٠) ابن عساري ، ج ١ ص ٢٢٧ .

ولا بأس أن تكون خزانة الحديد مخصصة لصنوع الأموال الذهبية من الدنانير ، وأن تكون الخشبية للورق من الدراهم الفضية ، والفلوس النحاسية ، وأغلب الظن أنه كان من مهام بيت المال تزويد الصنيارة في الأسواق بما كان يلزمهم من قطع النقود الصغيرة من فضة ونحاسية عند الحاجة ، وخاصة في مناسبات الأعياد والمواسم (١٢١) .

ولا شك أن اتخاذ بيوت مال (خزانات) جديدة ، كان يثير خيال الطامعين في أموال الدولة ، وكذلك خوف المسؤولين وشكهم فيما يمكن أن يكون لتلك الأموال من اغترابات قد تؤدي إلى انحراف المسؤولين عن جبايتها ، فضلا عن حفظها ، من عمال الجباية أو بيت المال .

محنة أولية لعبد الله الكاتب :

وهكذا كان أول عمل يقوم به المنصور عندما بلغه نبأ ولايته بوصول خبر وفاة يوسف بانكين والده ، هو أن يتأكد من أمانة عبد الله الكاتب - الذي ربما دارت حوله شائعات عن استبداده بالأموال من قبل الحساد والكارهين له - عن طريق التأكد من سلامة بيوت الأموال ، وكذلك خزانات السلاح بكل من الهندية والمنصورية ، وصحة بيانات حفظها ، عن طريق التفتيش المفاجيء والجرد المباشر ، الأمر الذي كلف أخاه بطوفت القيام به ، وإن كان بطريقة فجأة وأسلوب مهين بالنسبة لرجل الدولة ، صاحب عمالة أفريقية ، المسئول أمام ديوان الخلافة مباشرة ، حسبما تم رسمه بمعرفة الخليفة المعز لدين الله - وهو ما اعتذر عنه المنصور عندما تبين له أمانة الكاتب الوزير ، ونظافة يديه (١٢٢) ، وإن كانت المسألة أكبر من أن تكون موضوع محاسبة الأمير الوالي الذي تجب طاعته لصاحب الحراج العامل ، إذ كانت أشبه ببداية لتصفية حسابات بين قرينين ، بمعنى تابعين للخلافة بالقاهرة ، مما سبقت الإشارة إليه ، وإن كانت التفرقة واضحة بين الأمير الوالي والعامل صاحب الحراج .

والهمم أن التفوق كان للأمير الوالي الذي كان يستطيع التصرف في

(١٢١) انظر التويرى ، ص ٣٢١ - بمناسبة خروج الداعي أبي الفهم إلى كتامة في مركب بين يديه تحت التياب ، وبدر الدراهم (أي آكياس الدراهم الفضية) .
(١٢٢) انظر ابن عساري ، ج ١ ص ٢٣٩ - حيث النص على أن يطوفت نظر إلى الخزائن منفصلة والى بيت المال مقلدا ، فاخذ المفاتيح وفتح بيت المال والسلاح .

الأموال ، وان كان بطريقة غير مباشرة عبر العمل ، صاحب الحراج ، فعندما حضر وفد افريقية الى أشير لتهنئة المنصور ، برئاسة عبد الله الكاتب ، كان المنصور يستطيع أن يأمر عبد الله الكاتب ، بصفته صاحب بيت المال بأعطاء الوفد ١٠ (عشرة) آلاف دينار كمكافأة ضيافة وبدل انتقال .

هدايا وقصور للأمير :

اما عندما ذهب المنصور ، بعد ذلك الى قصور رقادة في نفس سنة ٣٧٤هـ / ٩٨٤م فقد انهالت عليه هدايا العمال وعاطاياهم ، كما أتحفه عبد الله الكاتب بالهدايا الجليلة التي لا يحيط بها الوصف (١٢٣) . وفي السنة التالية ٣٧٥هـ / ٩٨٥م كان يوسف بن عبد الله الكاتب ينفذ أوامر المنصور بعمل أبواب حديد جديدة للقيروان وبناء قصر كبير له بالمنصورية (١٢٤) ، بلغت النفقة فيه ٨٠٠ (ثمانمائة) ألف دينار ، كما تبلغ رواية النويري ، على ما نظن (١٢٥) ، وحول هذا القصر ، وقصر آخر مجاور له كان قد بناه شميح انصقلي ، صاحب المظلة ، أقيم سور محقق عليهما غرست حوله الأشجار من كل جهة (١٢٦) .

صعوبة موقف العامل بين الخليفة والأمير :

والحقيقة أن موقف عامل الحراج ، صاحب بيت المال ، كن دقيقا من حيث ما هو مفروض عليه من ترضية كل من أمير القيروان وخليفة القاهرة ، فعند وصول الداعي أبي الفهم الحراساني الى القيروان في طريقه الى كتامة يشعر عبد الله بالحرج ، ويجيب على تساؤل ابنه يوسف عما اذا كان يسمح له بالخروج الى بلد كتامة بأن يقدم له التسهيلات اللازمة من المال والمتاع للخروج الى أي وجهة يريد . وبناء على ذلك يخرج الداعي في هوكب مهيب ، على أفراس بسروج محلاة ، وبين يديه نخوت ثياب وبلدر دراهم حسن مبالغة الرواية على ما نظن (١٢٧) . واذا كانت هناك اشارات في النصوص الى أن

(١٢٣) ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٤٠ ، النويري ، ص ٣١٨ .

(١٢٤) ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٤١ .

(١٢٥) النويري ، ص ٣١٨ ، وقارن ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٤١ - حيث النص على ان مبلغ الاتفاق على القصر في سنة ٣٧٦هـ / ٩٨٦م قبل تمامه ١٠٠ (مائة) ألف دينار .

(١٢٦) النويري ، ص ٣١٩ .

(١٢٧) انظر النويري ، ص ٣٢١ ، ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٤١ - حيث النص على مستغنية يوسف بن عبد الله الكاتب الذي أعطاء الخيل والمال فتوجه الى كتامة .

ثورة أبي الفهم في كتابة كانت من الأسباب التي أدت الى قتل عبد الله الكاتب على يدى المنصور ، فان المشهور أكثر من ذلك هو أن ادارته للأموال ، واستبداده بها كانت السبب الرئيسى فى التخلص منه ، فهذا ما يفهم أيضا مما نسب إليه من قوله بتلك المناسبة ، « ما قتلت عبد الله على مال ولا على شئ » أغتنته « (١٢٨) » .

والامر المستغرب أن التخلص من الرجل الذى كان يستبد بآدارة أموال الدولة ، والذى كان يخشى الحساد والهدامين حتى سقط وهو يمثل بهذا البيت :

أرى ألف بان لا يقوم لهادم فكيف بيان حوله ألف هادم ،
كان مناسبة للقيام بعملية تمت فى شكل مكافأة للحرس الأميرى الذى دار ينهب أموال الناس ويسلبهم ، من مسافرين على الطرق ، وتجار الأقمشة والتسيج خاصة ، وذلك فيما بين وادى القصارين وباب تونس من القيروان (١٢٩) ، فكان البيت المتمثل به قد صار حقيقة من مبادئ الاقتصاد ، وأصول العمران .

يوسف بن أبى محمد عاملا والبنوى مساعدا :

اسلوب خاص فى الجباية :

اما عن صاحب الإدارة المالية بعد عبد الله الكاتب ، وهو يوسف بن أبى محمد ، فكان من نسيج مختلف تماما عن سلفه . فهو وديع محب للعافية والحياة الناعمة ، مولع بالطعام والشراب اللين ، خصوصا فى فصل الربيع عندما تتحسن الأحوال الجوية ، ويطلع الورد الذى أغرم به فكان يجلس وينام فيه حتى سمي بـ « شيخ الورد » . وهو لكل ذلك ينيب عنه تابعيه من العمال فى القيام بمهمة جمع الأموال ، بينما هو مستغرق فى طعاهه وشرابه فى ربيع الورد ، حيث تكون جولاته من أجل تحصيل الضرائب .

وكان نائب يوسف بن أبى محمد الأول فى الجباية هو : أبو الحسن

(١٢٨) التويرى ، ص ٣٢٠ ، وأنظر ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٢ ، وفيما سبق ص ٣١٣ .
(١٢٩) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٣٤ ، وما سبق ، ص ٣١٣ - ٣١٤ .

البونى ، نسبة الى بونة ، وهى عناية الحالية ، كما كان الرقيق (ابراهيم)
الكاتب مؤرخ افريقية والقيروان ، الذى يأخذ عنه ابن الأثير ، وينقله النويرى
نقلا ، من المساعدين الذين يجوبون البلاد فى دورة جمع أموال الخراج هذه .
والى جانب الخراج الذى كان يدفع للبورنى ومساعديه ، كان ليوسف نصيبه
الخاص من الهدايا التى يقيضها أسدقاؤه المساحبون له ، وكذلك أفراد
عسكره . والى جانب راتب يوسف بصفته صاحب الخراج كانت له نفقته
اليومية الجارية التى كانت تنقسم الى نفقته الخاصة والذين يصحبونه ، والتى
كانت تكلف البونى من مال الخراج مبلغ ٥ (خمسة) آلاف درهم ، الى
جانب نفقات المطبخ والفساحة التى كانت تكلف ٥ (خمسة) آلاف درهم
مثلا ، مما يعنى أن مجمل نفقات يوسف بن أبى محمد أثناء موسم الجباية
كانت تبلغ ١٠ (عشرة) آلاف درهم يوميا (١٣٠) .

وكان من الطبيعى أن ينتهج يوسف سياسة مالية تتفق مع منهجه هذه
فى الحياة الناعمة ، وان كانت فى نفس الوقت تطبيقا لوصايا المعز لدين الله
لنائبه ولكن فى مجال السياسة المالية والاقتصادية ، مما يقضى بعدم رفع
الجباية عن أهل البادية والتوصية بأهل الحاضرة خيرا . وتلخص رواية
ابن عذارى تلك السياسة المالية التى طبقها يوسف بأن أهل الحاضرة كانوا
معه فى أمن وعافية ، بينما كان أهل البادية فى « عذاب وغرامة » (١٣١) .

الموقف الضرائبى فى بلاد كتامة :

واذا كانت الرواية تقول ان يوسف بن أبى محمد كان يخرج فى كل
سنة فيدور على كور افريقية ويجبى الأموال ويأخذ الهدايا من كل
البلاد (١٣٢) ، فالمعروف أن بلاد كتامة كانت مستثناة من دفع الضرائب على
أساس أنها بلاد « الأنصار » . ولكنه بعد ثورة أبى الفرج التى أعقبت ثورة
أبى الفهم الحراسانى الداعى الفاطمى شحنتها المنصور بالعساكر والعمال
جباة الضرائب - بعد أن كان لا يدخلها عامل قط - فجبروا أموالها وضيقوا
على أهلها (١٣٣) . هذا ، ولو أننا لا نعرف ان كان دوران يوسف على كور

(١٣٠) النويرى ، ج ١ ص ٢٤٥ .

(١٣١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٥ .

(١٣٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٥ .

(١٣٣) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦٧ . وانظر فيما سبق ، ص ٣١٤ .

افريقية خلال السنتين التاليتين ، أى حتى عزله سنة ٣٨٢هـ / ٩٩٢م كان يشمل بلد كنامة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة .

وهذا لا يعنى أن عامل خراج أفريقية كان مستتبدا بالادارة المسالية دون الأمير . ففى سنة ٣٨٠هـ / ٩٩٠م ، عندما توفى المرصدى ، صاحب خراج القيروان ، رأى المنصور (أبو الفتح) أن يعهد بتلك الوظيفة بعده الى رجلين معا ، هما : محمد بن عبد القاهر بن خلف ، وسلامة ابن عيسى ، اللذين كان عليهما الاجتماع معا فى ديوان خراج المنصورية (١٣٤) ، كنوع من الاحتياط فى التدقيق والرقابة .

محنة البونى : مساعد الخراج :

والظاهر ان تلك الرقابة أدت فى سنة ٣٨٢هـ / ٩٩٢م ، الى تغيير الادارة المسالية ، بل اتخاذ اجراءات قمعية عنيفة ضد المسئولين عنها . فاقدم قام المنصور بالقبض على أبى الحسن البونى نائب يوسف بن أبى محمد ، والمستول عن الجباية ، والنفقة الجارية ببذخ يوميا على رئيسه يوسف ، وكان ذلك بتهمة الخيانة فى الأموال . ولقد تعرض البونى نظير ذلك الى غرامة - تعادل المبلغ المتهم باختلاسه ، على ما نظن - ولما عجز عن السداد ، كانت عقوبته الذبح ، كالنكسة . أما عن يوسف بن أبى محمد ، صاحب افريقية ، ونائب المنصور فى البلاد ، فإنه عزل ، واستعمل بدلا منه أبو عبد الله محمد بن الى العرب الكاتب (١٣٥) ، ولو ان المنصور عاد الى استعمال يوسف مرة أخرى فى سنة ٣٨٥هـ / ٩٩٥م ولكن فى وظيفة ثانوية هى عمالة مدينة متيجة (١٣٦) ، ولو أن ذلك يمكن أن يعنى نوعا من توارث الوظائف العامة مما عرف فى النظم الاسلامية .

ومن المهم الإشارة هنا الى ما تقوله الرواية تبريرا للعقوبة البشعة التى نزلت بالبونى ، من أن المنصور كان يظن أن عنده مالا ، كائى عيد من عبيده يقدمه اليه عندما يطلبه (١٣٧) ، فكان الفقر أو عدم وجود المال عند واحد من خدام الأمير أو أهل دولته تعنى اهانة أو عيبا فى الدولة أو الأمير

(١٣٤) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٢٤٥ .

(١٣٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٦ .

(١٣٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٧ .

(١٣٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٦ .

يستحق صاحبه عليه العقوبة العظمى . والحقيقة ان هذا يعنى أيضا أن خزانة الأمير كانت خاوية ، وإن حاجته الى المزيد من الأموال التي كان يضيع الكثير منها قبل الوصول الى الخزنة العامة ، اما ضحية الغدر أو فى النفقة الباذخة على العمال ، أو بسبب الاعفاءات الأميرية كذلك الذى حدث سنة ٣٨٢هـ / ٩٩٢م ، عندما « ترك المنصور البقاياء للرعايا » بمعنى الاعفاء من المتأخرات الضريبية التي كانت أموالا جلية عجز أصحابها عن الوفاء بها (١٣٨) . وهو ما يعنى التخفيف من الطبقات الكادحة على كل حال .

نفقات البلاط :

ولما كانت نفقات البلاط هي الأخرى غاية فى البذخ والتبذير ، وخاصة فى المناسبات المختلفة من فرحية وحزنية ، وكذلك النفقات الجارية على الأعران ، من : الهدايا وأحصال المال ، وتواييت العود (العطر) الخاصة بالدفن ، وعشرات الأنساب الثمينة المخصصة للدفن ، مما كان يرهق الميزانية ، ويدفع الى اتخاذ اجراءات كريمة ضد أصحاب الأموال ، من : المصادرات وأعمال النهب والسلب مما كانت تصدر به ، أوامر الأمير أو مما يسمح به تفاضيه عن عدم انتظام العسكر ، أحيانا أو أعمال الابتزاز فى شكل هدايا ، مما سبقت الإشارة اليه على عهد المنصور خاصة ، وهو الذى وصفت أيامه بأنها « كانت أحسن الأيام (١٣٩) » .

أما عن عهد باديس فلا تعرف من أمر الادارة المالية شيئا فى النصوص ، وإن استمر الحال عصيا للحرب والمؤامرات السياسية . فكما كانت أموال سبجلماسة وعددها هدفا لحزرون بن قلقل الزناتى ، عندما دخلها على عهد بلكين سنة ٣٦٥هـ / ٧٥٤م (١٤٠) ، كذلك كانت أموال أشير هدفا لأعمام أبيه (أولاد زيرى) عندما أعلنوا العصيان ، وقبضوا على عمه يطوفت ابن بلكين ، فأخذوا ماله (١٤١) . وكذلك كان للمال دور فى محاولة

(١٣٨) ابن الأثير ، ج ٩ ص ١٢ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٦ .

(١٣٩) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٧ ، وأنظر فيما سبق ، ص ٣١٦ : عن هدية المنصور الى العزيز التي بلغت مليون دينار ، وص ٣٣٢ : عن الهدايا والأموال التي خرج بها أبو القهم الى كتامة ، ص ٣١٧ وص ٣٧٣ : عن الأموال الجلية التي وصلها المنصور للشرىف الدامى .

(١٤٠) ابن الأثير ، ج ٨ ص ١٦٦٥ .

(١٤١) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦٦٥ .

كرامت بن المنصور في منافسة ابن أخيه المعز في الولاية سنة ٤٠٦ هـ / ١٠١٥ م عندما حاول شراء الجنود بالمال ، فأعطاهم ١٠٠ (مائة) ألف دينار ، وإن لم يقبض لمؤامراته تلك النجاح (١٤٢) .

وهكذا تظهر أهمية السياسة المالية بالنسبة للمرحلة الأولى من تاريخ الدولة الزيرية بأفريقية ، وإن ظهرت أهمية المسائل المالية والاقتصادية بشكل أكثر وضوحا في المراحل التالية ، حيث يستفحل الملك الزيري على عهد المعز بن باديس في القيروان ثم في المهدية ، وكذلك الحال بالنسبة للحماة بن في القلعة ثم في بجاية .

الفصل الرابع

المعز بن باديس

(٤٠٦ - ٤٥٤ هـ / ١٠١٦ - ١٠٦٢ م)

يعتبر عهد المعز بن باديس علامة مميزة في تاريخ الدولة الزيرية ، بل في تاريخ المغرب الاسلامي ، من حيث انه كان العهد الذي أنهى مرحلة التشيع الفاطمي في بلاد القيروان و افريقية التي استمرت زهاء قرن ونصف قرن ، ساد فيها المذهب الاسماعيلي الفاطمي على حساب كل من المذهب المالكي الذي كان له السيادة على المستوى الشعبي بفضل كبار المالكية من تلاميذ امام دار الهجرة من أندلسيين كحبي بن يحيى ، ومغاربة كسحنون وابنه محمد ، والمذهب الحنفي ، مذهب الخلافة العباسية الرسمي ، الذي انتشر بفضل رجال الدولة من أصحاب الوظائف الدينية الكبيرة ، كالقضاء والفتوى وامامة المساجد الكبيرة في المدن ذات النساب . فمن طريق قطع العلاقة بين القيروان والقاهرة على عهد المعز بن باديس وإعلان الخطبة على المنابر باسم الخلافة العباسية ، عادت السنة الى أفريقية ، وانتهت أزمة التشيع ومعاناة مشايخ المالكية على أيدي السلطات الشيعية ، وإن بدأت فترة معاناة الشيعة الذين دفعوا بدورهم ثمن تشيعهم غالبا .

هذا ، فضلا عن استفحال الملك الزيري على عهد المعز حيث بلغت حضارة القيروان ذروة عصورها الذهبية بفض الاموال الطائلة التي كانت ترد الى بيت المال من مظائنها الكثيرة ، من الزراعة والحرف المهنية والتجارة ، وإن كانت موارد صقلية قد انقطعت عن المهدية بينما استنزفت الهدايا الموجهة الى القاهرة نصيبا لا بأس به من خزانة بيت المال . هذا ، وإن لم يقب عن الذهن أن انقلاب الأوضاع الاقتصادية في أفريقية الزيرية على أيدي العرب الهلالية ، ربما أعطت صورة مبالغ فيها بعض الشيء ، عن تضخم الحضارة القيروانية في العهد الزيري ، واستفحال الملك على عهد المعز بن باديس - قبضهها تتميز الأشياء ، كما يقال .

المعز قاصرا تحت وصاية العمة ، السيدة : أم ملال :

ولي المنزل الامارة وله من العمر حوالي ٨ (ثمانى) سنوات (١) ، وكانت الشخصية القوية فى قصر الامارة بالمهدية وقتئذ ، هى السيدة أم ملال ، اخت باديس التى تقبلت العزاء فى أخيها المتوفى ، وكذلك التهنئة بولاية ابن أخيها الصغير (النورى ، ص ٣٣٥) ، فكان ذلك اعترافا منهم بوصايتها على المعز (٢) ، تماما كما حدث فى القاهرة قبل ذلك بحوالى عشر سنوات حينما توفى الخليفة الفاطمى العزيز ، وعهد بالخلافة الى ابنه الشاب القاصر ، الحاكم بأمر الله فوضع تحت وصاية أخته الأسن منه ، وهى السيدة : ست الكل سلطانة ، التى أشارت اليها أصبح الاتهام عندما اختفى الحاكم ذات ليلة ، وهو يجوب بعض دروب جيل المقطم بالقاهرة (٣) .

وهكذا مارست السيدة أم ملال مهامها كوصية على الأمير الصغير الذى انتقل من المهدية الى المنصورة يوم ١٥ المحرم سنة ٤٠٧ هـ / ٢٤ يونيو سنة ١٠١٦ م ، الى أن يشب عن الطوق ، خلال سبع سنوات ، كانت طوالها من غير شك ، موضع كل تقدير ورعاية من جانب المعز ورجال دولته . ففى عندما اعتلت سنة ٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م لمدة أيام قبل وفاتها ، كان المعز يعودها كل يوم ويسمح لرجال دولته وعبيده بزيارتها (٤) . وهى عندما ماتت ليلة الخميس آخر رجب (٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م) ١٨ أكتوبر ، دفنت فى احتفال مهيب ، يليق بمقام الوصية الرفيع . فلقد صلى على جنازتها بالبنود والطبول ، والعماريات ، والسيدتان الجليلتان : الوالدة والأخت (أم العلو) بحال من التشريف لهذه الجنازة لم ير للملك ولا لسوقه مثلها (٥) .

(١) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٢٥٧ - بويج وعمره ٨ سنوات و٦ أشهر . ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٩٥ - ولي عمره ٨ سنوات أو سبعا ، ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٥٨ - بويج وعمره ٨ (ثمانى) سنين .

(٢) انظر المؤنس لابن أبى دینار ، ص ٨١ - حيث النص على أن جدته كانت تباشر الأمور وتصرف الأحوال من رأيها .

(٣) انظر اتعاف الخنقا ، ج ٢ ص ١١٥ . حيث كان فقده فى ٢٨ شوال سنة ٤١١ هـ . وحيث الإشارة الى أن ست الكل كانت امرأة حازمة ، وانها ربما تخلعت منه عندما رماها ذات مرة بالقصور .

(٤) ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٣٩٣ .

(٥) ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٣٩٣ ، الأمر الذى يؤكد ما هو معروف من مكانة المرأة السامية فى المجتمع البربرى (المغربى) بعامة والمجتمع الصنهاجى منه بخاصة ، وانظر المؤنس لابن أبى دینار ، ص ٨٣ - حيث النص على أنها دفنت بالمهدية ، وان المعز

الأحوال الداخلية :

اضطراب الصامة بالقروان :

ولما كانت السيدة أم ملال هي المسئولة عن تدبير أمور المعز في بداية ولايته ، فلا ندري ماذا كان موقفها من تلك الانتفاضة الشعبية التي عرفتها منطقة القروان سنة ٤٠٧ هـ / ١٠١٦ م ، والتي قامت ضد عامل الخراج - وربما صاحب السوق أو المحتسب وقتئذ - أبي البهار خلوف الذي ستؤول اليه السكناية أو الوزارة للأمير المعز بن باديس سنة ٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م ، بعد قتل وزيره محمد بن الحسن ، في السنة السابقة ٤١٣ هـ / ١٠٢٢ م . فلقد اجتمعت عامة القروان من أهل السوق على أبي البهار لشدة عليهم ، ربما لتشدده في فرض أو جباية ما يجب عليهم من الضرائب ، والجأوه إلى الفرار نحو المنصورية حيث تبعوه إلى داره هناك ونهبوها . وعندما سار إليه ابن أخيه فيمن كان لديه من الأعوان والعساكر ، نجدة ، نجح العامة في البطش به ، بل وقتله والتشثيل به ، وكذلك قتل كل من كان معه من الرجال . وتماذى العامة في اضطرابهم إلى حد زحفهم على المنصورية وهدم دورها - كما تبالغ الرواية (٦) - ومن الواضح أن ثورة أهل السوق بالقروان احتجاجاً على التعسف في الجباية ، كانت تعنى ثورة على الدولة بمعنى مباركة المسئولين لتلك السياسة المالية المتشددة ، وعلى رأسهم

أمر ببيع ٥٠ ناقة و ١٠٠ رأس من البقر و ١٠٠٠ شاة ، انتهى الناس ، وفرق في ماتمها على النساء ١٠ آلاف دينار - وهذا لا بأس من الإشارة إلى الاحتفال الكبير الذي شيعت به زوجة نصير الدولة (باديس) والدة المعز ، سنة ٤١٤ هـ / ١٠٢١ م ، ومن الواضح أنها السيدة الوالدة أم المعز ، حيث كلفت تحت إشراف السيدة أم ملال كما تقضي سلامة الحس - فيما قيمته ١٠٠ (مائة) ألف دينار ، ووضعت في تابوت من العود الهندي الثمين ، مرصع بالجواهر الثمين ومسامره من ذهب بلغت قيمتها ٢٠٠٠ (ألف) دينار - أنظر ابن عذاري ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٣٩٠ .

(٦) ابن عذاري ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٣٨٧ - ٣٨٨ ، وفاروق ادريس (ه - ر) ، الزيريون بالفرنسية ، ص ١٤٨ - حيث الربط بين هذه الثورة الشعبية وبين رد فعل السنة ضد الشيعة المشاركة الذين قتلوا تحت إشراف والي القروان ، الفقيه أبا علي بن خلدون الذي كان يثير العامة من السنة ضد الشيعة ، فكان الهجوم على المنصورية ونهب أسواقها كان حوجها من السنة ضد المعز بن باديس . وهذا لا بأس به لولا أنه لا يتفق مع ما هو دارج من وقوف المعز مع السنة ضد الشيعة ، مما يأتي حالا ، ولولا الاعتماد على كتب سير المشايخ أصحباب الكرامات والحواري . وهذا لا يمنع أن تكون الاضطرابات المذهبية قد استفلت لأغراض سياسية واقتصادية .

الوصية ، السيدة أم ملال ، فهذا ما يستشف مما سوف يقدمه الأمير القسّر على أبي البهار خليف من الاحسان وزيادة الرتبة الى الوزارة في نفس السنة التي توفيت فيها عمته ، السيدة أم ملال « ما يعد » ص ٤٠٣ .

مناهضة التشيع والعودة الى السنة :

أما أهم ما ينسب الى المعز بن باديس من العودة الى السنة وتبني الشيعة والقضاء عليهم ، فإذا صح ما يقال من أنه افتتح ملكه بتلك السياسة منذ سنة ٤٠٧ هـ / ١٠١٦ (٧) ، فإنه يكون للسيدة أم ملال نصيبا الذي لا ينكر في تلك السياسة . حقيقة أن بعض الروايات تنسب تلك السياسة أصلا الى الوزير العالم والفقير الزاهد أبي الحسن ابن أبي الرجال الذي وقع على عاتقه تأديب المعز طفلا وتحريضه على حب السنة ومذهب مالك بن أنس (٨) . ولكن ذلك ما كان يمكن أن يتم إلا تحت رعاية السيدة / العمة واشرافها . ومثل ذلك يصح بالنسبة للروايات الدارجة التي تنسب الى المعز بن باديس أنه كان منذ بداية ملكه سنة ٤٠٧ هـ / ١٠١٦ م ، « منحرفا عن مذاهب الرافضة ، منتحلا للسنة ، أعلن بمذهبه أول ولايته ولمن الرافضة ، والشيعة لا يعلمون ذلك ، وقتل من وجد منهم » (٩) . فليس من المقبول أن يتخذ طفل صغير قرارات خاصة بشئون دينية خطيرة ، يترتب عليها الموت أو الحياة لكثير من الناس . والحقيقة أن أكثر الروايات الخاصة بهذه المسألة تأخذ شكلا قصصيا متقبيا مصطنعا ، إذ تذكر أن المعز خرج في بعض الأعياد الى المصلى وهو غلام ، فكبابه فرسه ، فقال « أبو بكر وعمر » ، فكادت

(٧) أنظر ابن عذاري ، ط : بيروت ج ١ ص ٤٢٥ - حيث النص على أن « أول ما افتتح به شأنه قتل الرافضة ومراسلة أمير المؤمنين ببغداد » وأنظر القلشندي ، ج ٥ ص ١٢٤ - حيث النص على أنه كان منحرفا عن الرضى والتشيع ، منتحلا للسنة ، وأعلن بذلك في أول ولايته .

(٨) ابن عذاري ، ط : بيروت ج ١ ص ٣٩٥ - حيث ابن أبي الرجال بدلا من أبي الرجال التي أخذنا بها ، أنظر ادريس (هادي - روجيه) ، الزيريين ، بالفرنسية ، ج ١ ص ١٤٦ . - حيث القراءة « ابن أبي الرجال ، والشاذلي أبو يحيى ، الحياة الأدبية على عهد الزيريين ، بالفرنسية ، ص ١٢٣ - حيث القراءة « ابن أبي الرجال » .

(٩) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٥٩ - هذا ، مع الإشارة الى قتل الدعاء أيضا ، وإن كان ذلك بمناسبة ثورة العامة بالقسمة بعد كبره الفرس المشهورة وقول المسر : « أبو بكر وعمر » . وقارن ابن الأثير ، ج ٩ ص ٢٥٧ - حيث النص على أن المعز أول من حمل الناس بأفريقية على مذهب مالك . وإن اتبع ذلك بالقول وكان الأغلب عليهم مذهب أبي حنيفة . ، أنظر صبح الأثر ، ج ٥ ص ١٢٤ .

الشيعة التي في عسكره أن تقتله لولا عبيده ورجاله الذين كانوا يقتلون السنة ، إذ قتلوهم واندفعوا يقتلون الشيعة في كل مكان (١٠) . وتحور تلك الرواية في شكل آخر عندما تقول إن المعز ركب يوماً فمر بجماعة من الرافضة الذين يسبون أبا بكر وعمر ، فقال : « رضي الله عن أبي بكر وعمر ، فانصرف العامة من قورها إلى درب المعلى من القيروان ، وهو حي الشيعة ، فقتلوا منهم . والرواية هنا تبرر العمل بشهوة العسكر في النهب وطمعهم ، وباغراء عامل القيروان لهم وتحريضه لأسباب شخصية بحتة (١١) ، الأمر الذي يضعف من صحة تلك الرواية . أما ما تقوله الرواية المحلية التي يقدمها النويري ، والتي تشير إلى أن المعز بن باديس ركب في يوم السبت ١٦ من المحرم سنة ٤٠٧ هـ / ٢٥ يونيو ١٠١٦ م ، وصر بجماعة فسأل عنهم ، فقبل : رفضة ، والذين قبلهم سنة . فقال : « وأى شيء الرفضة والسنة » (١٢) . فكانه لم يكن يعرف شيئاً أصلاً عن الشيعة ولا عن السنة ، وهو الأمر المقبول من حيث أن الأمير المعز الصغير لم يكن قد تم ختانه إلا في أواخر سنة ٤٠٧ هـ / مايو ١٠١٧ م (١٣) . ولكنه عندما عرف أن الرافضة يسبون أبا بكر وعمر قال : « رضي الله عن أبي بكر وعمر » ، فانصرفت العامة من قورها إلى درب المعلى ، حي الشيعة إلى القيروان ، حيث « وقع القتل فيهم فصادفت شهوة العسكر وأتباعهم ، طمعا في النهب ، وانبسطت أيدي العامة فيهم » (١٤) .

مسئولية الأمير : طفلاً قاصراً :

ومن الواضح أن الرواية الأولى ، عند ابن عذارى ، منقبية تنسب إلى

(١٠) انظر ابن عذارى ، ج ١ ص ٣٩٥ - حيث النص على قتل ٢٣ ألف شيعي دفعة واحدة في موضع قريب من القيروان عرف لذلك باسم « بركة الدم » ، كما قيل : وصاح بهم في ذلك الوقت صائح الموت فقتلوا في سائر الأفرقة ، كما تقول الرواية : وحكي في قتل الرافضى سكانيات كثيرة مما رآه المعز في منامه ، وتأويل ذلك وغيره الغيبي ذكره . والمعز منذ ذلك الوقت ما زال يعمل فكره في قطع الدعوة إلى سنة ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م .

(١١) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٢٩٤ - حيث الإشارة إلى أن عامل القيروان كان يحرض على السلب والنهب لأنه كان قد عزل بعد أن أصحح أمور البلد ، فأراد إفساده قبل تركه . فكان الشيعة ضحية ذلك إذ قتل منهم خلق كثيراً ، وأحرقوا بالنار ونهبت ديارهم .

(١٢) النويري ، ص ٣٣٥ - ٣٣٦ .

(١٣) النويري ، ص ٣٣٨ - حيث النص على أنه ختن يوم الأحد ٢٠ ذي الحجة ٤٠٧ هـ /

٢٠ مايو ١٠١٧ م .

(١٤) النويري ، ص ٣٣٦ .

الغلام الصغير علما بأصول التشيع والسنة المالكية ، وتجعل من مقاتل الشيعة نتيجة طبيعية للترضية عن أبي بكر وعمر من قبل الأمير المحب للسنة والمالكية ، وكانها خطة مدبرة من قبل . أما الروايتان التاليتان ، عند ابن الأثير والنويري ، فهما من أصل واحد ان لم تكونا رواية محلية واحدة قد أصابها بعض التغيير مع التواتر والنقل ، وهما أكثر قبولاً من حيث الواقع والمنطق . فالأمير الصغير لا يعرف أصلاً معنى الشيعة أو السنة . وكذلك الأمر بالنسبة لتحديد وقت المركب بشهر المحرم بدلاً من يوم صلاة العيد في أول شوال أو في ١٠ من ذي الحجة . فالمحرم هو موسم مقتل الحسين في عاشوراء الذي يحتفل به الشيعة ذلك الاحتفال الحزين الذي يعذبون فيه أنفسهم بصنوف اللطم ، ندماً وتوبة على التقاعس في نجدة السبط ، الأمر الذي كانت له ردود فعل مضادة من جانب أهل السنة ، مما كان يؤدي عادة إلى الفتنة ، وذهاب الضحايا في هذا الجانب أو ذاك .

من كل ما تقدم نخلص إلى أن قصة نشأة المعز بن باديس على حب السنة والمالكية وكراهية التشيع وتبعه للشيعة منذ ولادته صغيراً ، منذ سنة ٤٠٧ هـ / ١٠١٦ م ، غير ذات موضوع ، وأنه إذا كان ثمة اهتمامات دينية متناهضة للتشيع فإنها تكون مرتبطة بأهداف سياسية معينة من جانب المسؤولين عن الدولة ، من الوصية أم ملال ، والوزير أبي الحسن بن أبي الرجال أو محمد بن حسن ، الذي وصل فيما بعد إلى الوزارة ، والذي بدأ تسليط الأضواء عليه اعتباراً من سنة ٤٠٧ هـ / ١٠١٦ م ، حيث كان عاملاً على طرابلس ثم انتقل إلى ولاية أمور المعز وجيوشه (٩٥) .

أول اهتمام بالأمور الدينية :

والمهم في هذه المسألة أن تكون تلك هي المرة الأولى في تاريخ الدولة الزيرية التي تحظى فيها الأمور الدينية باهتمام خاص يجعلها في المرتبة الأولى من شئون الدولة ، بمعنى أنها أخذت طابعاً عربياً مميزاً ، على أساس نظرية ابن خلدون التي تقرر نوعاً من العلاقة الطردية بين عروبة الدولة واهتمامها بشئون الدين الإسلامي .

فالحقيقة أن اهتمام أمراء الزيريين بأمور السنة ضد التشيع بدأ موازياً مع التوجه نحو الاستقلال السياسي عن خلافة القاهرة الشيعية . فعلى

عهد المنصور الذى قال لوفد القيروان سنة ٣٧٤هـ / ٩٨٤م كلمته المشهورة :
« وما أنا فى هذا الملك ممن يولى بكتاب ويعزل بكتاب » ، بمعنى
الاستقلالية عن خليفة القاهرة (مابىق ، ص ٣٠٩ - ٣١٠) ، رفع اليه ان عبدا من
عبيده (السودان) قذف بعض الصحابة فأمر بقتله وصلب جثته ، بينما
قطعت رأسه وطيف بها فى القيروان تشهيرا ، مع المناداة عليها بسبب
العقوبة (١٦) ، ردعا للمخالفين وتحذيرا خاصا للشيعية . هذا ، ولو ان
المنصور كان يجلس بعد ذلك ، فى سنة ٣٧٧هـ / ٩٨٧م مع أهل بيته .
حسب أوامر القاهرة ليعطى العهد على التمسك بالمذهب الفاطمى لعبد الله
الكاظم الوزير ، بمناسبة تعيينه داعيا للدعاة (ما سبى ، ص ٣١١) . وإذا
كانت النصوص لا تشير الى شيء من ميول سنية لدى باديس بن المنصور
والد المعز ، فان الإشارة الى سنية الوزير أبى الحسن بن أبى الرجال ،
وميله الى المالكية وتحريضه للأمير الصغير على الأخذ بها والابتعاد عن الرفض
بمعنى التشيع ، يعنى أن السنة كانت قد بدأت تتسلل الى قلب البلاط
الزيرى نفسه ، تماما ، كما حدث فى القاهرة حيث بدأت اتجاهات سنية
لدى بعض الوزراء الذين اهتم بعضهم ببناء المدارس لأهل السنة ، كما حدث
فى الاسكندرية - فيما بعد - من بناء ابن السلار مدرسة الطرطوشى ،
أقدم مدارس المالكية فى مصر .

أما ما حدث على عهد باديس ، والد المعز ، من قبل العم حماد عندما
خرج عن الطاعة سنة ٤٠٥هـ / ١٠١٤م ، وقتل الراضة ، وأظهر السنة ،
وراجع دعوة آل العباس ، فكان لأهداف سياسية ، ليس الا (١٧) .

وهكذا من يكن من الغرب أن يتبلور الاتجاه السنى على أوائل عهد
المعز بن باديس بتشجيع من المسئولين من رجال الدولة ، وهذا ما ترجحه
الرواية التى تقول : ان والى القيروان المعزول هو الذى كان يحرض أهل
السوق فى القيروان ضد الشيعة . أما عن الظروف التى أدت الى انفجار
الموقف ضد الشيعة فالأرجح أن يكون ذلك قد حدث بمناسبة الاحتفال
بيوم عشوراء الذى كانت له ردود فعل تؤدى الى الصراع بين طائفتى السنة
والشيعة ، كما كان يحدث فى بغداد بين حى الكرخ حيث الشيعة على الضفة
الغربية لدجلة وحى الرصافة حيث السنة على الضفة الشرقية للنهر . وكان

(١٦) ابن عسارى ، ج ١ ص ٢٤٠ .

(١٧) أنظر ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٧١ - وما سبى ، ص ٣٢٣ - ٣٢٤ .

النزاع بين الطائفتين يصل الى حد الحرب بينهما - ولكن الذي يثير الانتباه هنا هو أن الشيعة في القيروان وأفريقية كانوا أقلية مستضعفة ، الأمر الذي يعنى أن التشيع كان قد تقلص بشدة خلال نصف قرن أو أقل منذ نقله المعز الى القاهرة : ولا بأس أن يكون التشيع قد ضعف في البلاد منذ ثورة الخوارج النكارية بقيادة أبي يزيد الذي تحالف مع علماء القيروان لفترة من الوقت (ما سبق ، ص ١٧٨) ، الى جانب العناية السنية للقوية من قبل الأمويين بالأندلس وأنصارهم من زعماء البربر في افريقية ، ضد التشيع الذي وسم بأبشع النعوت والأوصاف (ما سبق ، ص ٣٥ - ٣٦) ، وذلك رغم جهود المعز الفاطمي النشطة في نشر المذهب ، وخاصة بين السكتاميين الذين طلبوا هدف الدعاة المبعوثين من القاهرة على أيام النيابة الزيرية (ما سبق ، ص ٣٣١ وما بعدها) والتمسك بتعاليمه (١٨) .

مهاجمة حي الشيعة في درب المعلى يوم عاشوراء :

هكذا تكون الثورة بالشيعة المستضعفين في القيروان وأفريقية ، قد وقعت انتهازا لصغر الأمير ، وبمناسبة شهر المحرم والاحتفال بعاشوراء . ولا بأس أن يكون ذلك قد بدأ بمهاجمة درب المعلى ، الحي الشيعي في القيروان ، حيث قتل الرافضة ونهبت دورهم ، وسرعان ما انتشرت أعمال العنف ضدهم على طول المدينة وعرضها ، كمسا راح كثير من الناس ضحية الشبهة في مذاهبهم (١٩) ، حيث قتل خلق كثير منهم . واستمرت مذبة الشيعة لمدة طويلة ، ففي يوم الثلاثاء ١٢ جمادى الأولى ٤٠٧ هـ / ١٧ أكتوبر ١٠١٦ م احتفى حوالي ١٥٠٠ نفس منهم بدار محمد بن عبد الرحمن حيث حوصروا وتعرض من كان يخرج منهم لشراء قوته للقتل تحت ادعاء أنه ظهرت لهم كتب حوت « الكفر والتعطيل للشريعة ، وإباحة المحارم » . وعندما ضاق بهم الحال أخرجوا الى قصر السلطان بالمنصورية حيث تحصنوا هناك خلال الفترة من أواخر جمادى الأولى الى جمادى الثانية (٢٠) .

وفي المهديّة هوجم الشيعة أيضا ، وعندما استموا بالمسجد الجامع اقتتلوا هناك دون اعتبار لحرمه المكان (٢١) .

(١٨) انظر فيما سبق ، ج ٢١ ، ٢٢ ، ٢٠٦ ، ٢٥٠ عن نشاط المعز ، ص ٣١٤ وما بعدها عن نشاط الدعاة الفاطميين .

(١٩) ابن عذاري ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٢٨٧ .

(٢٠) الزويري ، ص ٣٣٥ ، ابن عذاري ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٢٨٨ .

(٢١) ابن عذاري ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٢٨٧ ، ابن الأثير ، ج ٩ ص ٣٣٦ .

موقف ترقب ومهادنة في القاهرة :

ورغم ما لحق بالشيعية من الأذى ، وموقف أمير القبروان السلبى ، على الأقل ، فإن العلاقات مع القاهرة ظلت على ما هى عليه من حيث الشكل . ففى آخر ذى الحجة سنة ٤٠٧ هـ / ٢٩ ماية ١٠١٧ م . وصلت خلع الحاكم الى المعز بن باديس ، مع لقب شرف الدولة ، « ولم يذكر ما كان منه الى الشيعة من القتل والاحراق » ، كما يقول ابن الأثير (٢٢) .

هنا ، كما تصل هدية أخرى من الحاكم سنة ٤١١ هـ / ١٠١٩ م . بصحبة أبى القاسم بن اليزيد ، الى شرف الدولة أبى تميم المعز ، تحوى : سيفاً مكدلاً بنفيس الجوهر وخلعة من ثياب الخليفة وكان دخولها الى قصور المنصورية فى ٢٤ من صفر / ٢٠ مايه . وطق بتلك الهدية سجل حاكمي حملة محمد بن عبد العزيز ، ومعه ١٥ علماً منسوجة بالذهب والخلع التورطيف بها فى القبروان . ومع خلافة الظاهر قدم من لدنه رسول وصل المنصورية فى ٢٦ جمادى / ١٧ أغسطس ، معه تشريف جليل لأبى تميم المعز وهدية من أفراس مسرجة ، وخلعة ومنجوقان قد نسجا بالذهب (٢٣) .

محاولة الهجرة الى صقلية :

والظاهر ان مذابح الشيعة سنة ٤٠٧ هـ / ١٠١٦ م . أثارت خواطر القوم الذين استثمروا ضعفهم ودقة موقفهم فى افريقية ، فقررت جماعة منهم المنسيرة خفية الى صقلية . ففى سنة ٤٠٩ هـ / ١٠١٨ م كانت جماعة منهم ، مكونة من ٢٠٠ (مائتى) فارس بعائلاتهم من النساء والأطفال قد قررت الخروج من البلاد الى صقلية عن طريق المهدي . ولكنهم عندما وصلوا الى قرية كامل راحوا ضحية تأمر أهل الموضع عليهم ، اذ فاجأوهم ليلاً وهم نيام ، وقتلوهم . وبلغت شناعة الأمر الى حد الاعتداء على الشابات الجميلات من النساء ، بل وقتلن بعد فضحهن (٢٤) .

(٢٢) الكامل ، ج ٩ ص ٢٥٨ ، وقارن النويرى ، ص ٣٣٨ - حيث التصريح ٣٠ ذى الحجة ، ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٢٨٨ - حيث سجل الحاكم بلقب شرف الدولة أواخر سنة ٤٠٧ هـ .

(٢٣) انماط المنفا للمقريزى ، ج ٢ ص ١١٥ - ١١٦ .

(٢٤) ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٢٨٨ .

التقيسة :

وكان من الطبيعي أن تضع مثل هذه المناسبة حدا لعاناة الشيعة في افريقية الزيرية لفترة طويلة من الوقت ، وذلك أننا لا نجد في الحوليات المغربية ذكرا لتعرضهم لمثل هذه المتاعب لمدة ١٥ (خمسة عشر) عاما ، الأمر الذي يعنى أن البقية الباقية منهم إما أن يكونوا قد دخلوا في السنة تقية أو تسربوا خارج البلاد خفية أو الى بعض الأماكن المعزولة . فمثل ذلك ما حدث سنة ٤٢٣ هـ / ١٠٣٢ م ، عندما احتشدت جماعات من الشيعة وساروا الى أعمال نفطة من بلاد الجريد (قسطينية) حيث يتركز الشيعة - حسبما ينص البكري (ص ٧٥) - واستولوا على بعض بلادها واستقروا هناك . ولكنه ما كاد الخبر يصل الى مسامع المعز بن باديس حتى وجه اليهم العساكر لتدور حرب غير متوازنة بين الجند المحترف والانتعاء الذين كان عليهم أن يموتوا دفاعا عن الشرف وعن النفس ، حتى آخر رجل منهم (٢٥) .

حسم العلاقات بين الخلافة بالقاهرة والنيابة بالقيروان :

وتسكت الحوليات الافريقية مرة أخرى عن الإشارة الى الصراع ضد الشيعة الى أن تثير موضوع حسم العلاقات الهشة بين الخلافة في القاهرة والنيابة في القيروان والمهدية ، وقطعها بشكل نهائي . والروايات تعرض لهذا الموضوع تحت عدد من العناوين المتباينة ، متدرجة في التوقيت على مدى ٨ (ثمانية) أو ٩ (تسعة) أعوام ، ما بين سنة ٤٣٥ هـ / ١٠٤٣ م وسنة ٤٤٣ هـ / ١٠٥١ تحت العناوين التالية :

- ١ - الدعوة للقائم (العباسي) سنة ٤٣٥ هـ / ١٠٤٣ م .
- ٢ - قطع أسماء الفسطاطيين من الطراز والرايات سنة ٤٣٧ هـ / ١٠٤٥ م - مع مبايعة القائم والدعوة له .
- ٣ - قطع الدعوة الفاطمية سنة ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م ، وتبديل السكة في السنة التي تليها ٤٤١ هـ / ١٠٤٩ م .
- ٤ - لبس السواد (شعار خلافة بغداد) سنة ٤٤٣ هـ / ١٠٥١ م .
- ٥ - زحف العرب الهلالية الى المغرب (٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م - ٤٤٢ هـ / ١٠٥٠ م) - ويشمل أيضا الدعوة للقائم مرة أخرى ، وهو يساعد من غير شك ، في تحديد تاريخ القطيعة بين القاهرة والقيروان .

اختلاف الروايات :

هكذا تأتي الدعوة للعباسيين في بغداد في حواشي ابن الأثير سنة ٤٣٥ هـ / ١٠٤٣ م ، تحت عنوان : طاعة المعز بأفريقية للقائم بأمر الله ، حيث الإشارة إلى الخطبة للخليفة القائم ، وورود الخلع مع سجل التقليد ببلاد أفريقية وجميع ما يفتح للقائم من بلاد المغرب . كما أرسلت رموز الأمازة من قبل ديوان بغداد ، وتمثل في سيف (مرصع) وفرس (بسرج محلي) وأعلام (مطرزة مذهبة) ، وذلك عن طريق القسطنطينية - احترازا من أن تؤخذ في الطريق البري من مصر إلى القيروان . وكان وصول الأعلام يوم جمعة - دون تحديد السنة - في وقت الصلاة ، فدخل بها إلى الجامع والخطيب وقتئذ ، في الخطبة الثانية ، أي قبيل النزول من أعلى المنبر ، ومع ذلك لم يفته الإشارة إلى الحدث الهام ، فقال عنها (أي الأعلام) : « هذا لواء الحمد يجمعكم ، وهذا معز الدين بسمكم ، وأستغفر الله لي ولكم » . ومنذ ذلك الوقت قطعت الخطبة للعلويين ، كما يقول ابن الأثير ، وأحرقت أعلامهم (٢٦) .

وتأتي بعد ذلك رواية لابن خلدون تدعم رواية ابن الأثير السابقة ، تنص على أن المعز بن باديس عندما حقق على اليازوري وانحرف عنه « حلف لينقض طاعتهم ، وليحولن الدعوة إلى بني عباس ، وأنه قطع أسماءهم من الطراز والرايات ، وباع القائم ودعا له سنة ٤٣٧ هـ / ١٠٤٥ م ، وأنه وصله بعد ذلك أبو الفضل البغدادي ، مبعوث الخليفة العباسي ، وحظي بالتقليد والخلع ، وقرأ كتابه بجامع القيروان (٢٧) . ومن الواضح أن وصول رموز الخلافة عن طريق القسطنطينية استغرق وقتا طويلا فكان في سنة ٤٣٧ هـ /

(٢٦) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٥٢١ - ٥٢٢ - حيث أيراد نصوص من كتاب ديوان بغداد وفي أوله : « من عبد الله ووليه أبي جعفر القائم بأمر الله أمير المؤمنين ، إلى الملك الأوحده ، نعمة الإسلام ، وشرف الإمام ، وعمدة الأنام ، ناصر دين الله . قاهر أعداء الله ، ومؤيد سنة رسول الله » صلى الله عليه وسلم « أبي تميم المعز بن باديس بن المنصور ، ولي أمير المؤمنين بولاية جميع المغرب ، وما افتتحه بسيف أمير المؤمنين وهو طويل . وقارن النويري ، ص ٣٤١ - حيث نفس النص وإن كان يشي من الاستفاضة أو الاختلافات الطفيفة مما يرجع أصلا إلى التحقيق ، وقارن انماط المنفا للمقريري ، ج ٢ ص ١٩٠ ، حيث النص باقتضاب على قطع الخطبة سنة ٤٣٥ هـ / ١٠٤٣ م .

(٢٧) العبر ، ج ٦ ص ١٣ - ١٤ .

١٠٤٥ م هذه ، كما يقضى بذلك منطق الأشياء وسلامة الحس (٢٨) .

أما ابن عذارى فيجعل قطسح الخطبة لصاحب مصر سنة ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م ، حيث صاحبها أحرأق بنوده . وفي ذلك يقدم رواية ابن شرف التى تنص على أن المعز بن باديس أمر وقتئذ ، بالدعوة على منابر أقر يقية للعباس بن عبيد المطلب ، ويقطع دعوة الشيعة العبيديين ، فدعا الخطيب للخلفاء الأربعة ، ولبقية العشرة (رضه) (٢٩) .

الاتصال ببغداد ونوع من العصيان المدني بالقيروان :

ومع أن رواية اتعاظ الخنفا (ج ٢ ص ٢١٦) تقدم سنة ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م كتاريخ لقطع الدعاء للمستنصر ، فانها تضيف أن عهد بغداد أرسل بصحبة أبى الفضل بن عيد الواحد التميمي ، وأنه قرىء بجامع القيروان الذى نشرت فيه الرايات السود ، مع النص على عدم دار (الدعوة) الاسماعيلية بالقيروان . أما عن مقدمات القطيعة التمهيدية فيفهم منها أنه كان هناك نوع من المقاومة الشعبية ، مما يسمى بالعصيان المدني من قبل أهل القيروان ، وذلك فيما يتعلق بمقاطعة صلاة الجمعة حيث عمد ملوك صنهاجة أن تكون الخطبة باسم خلفاء الفاطميين ، وأن هذه المقاطعة كانت تزداد حدة مع مرور الوقت الى أن انتهى الأمر بأن قطع أهل القيروان صلاة الجمعة — التى تعطلت دهرًا — الى أن رأى المعز قطع دعوتهم فكان لذلك سرور عظيم بالقيروان (٣٠) .

(٢٨) قارن اتعاظ الخنفا ، ج ٢ ص ٢١٤ — حيث يضع المقرئى ذلك فى سنة ٤٤٣ هـ / ١٠٥١ م ، ورسول الخلافة هنا هو أبو غالب الشيرازى الذى قبض عليه فى بلاد الروم وأرسل الى المستنصر فزف فى القاهرة مجرسًا على جمل قبل أن يحرق العهد واللواء والهدية فى حفرة بين القصرين . هذا ، وتؤكد رواية أخرى (ج ٢ ص ٢٢٢) فى سنة ٤٤٤ هـ / ١٠٥٢ م ، تحت عنوان محضر القدر فى نسب الخلفاء المصريين ، تفسير سبب ذلك بما عمل مع الرسول المرسل الى المعز بن باديس الذى شهر به بالقاهرة على جمل مغلوب والكتاب فى عنقه ثم أحرقت الخلع والتقليد وأعيد الرسول الى ملك الروم . بسبب الهدنة المفقودة بين القاهرة والقسطنطينية ، التى كان قد بقى منها سستان .

(٢٩) ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٣٩٩ .

(٣٠) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٧٧ — حيث النص على أن بعض القيروانيين كان اذا بلغ المسجد ظهر الجمعة ، قال سرا : اللهم أشهد . ثم ينصرف يصلى ظهرًا أو بما ، وإن الخالد تنامى « حتى لم يحضر الجمعة من أهل القيروان أحد » فتعطلت الجمعة دهرًا ، ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٤٠٠ .

لمن الغاطمين :

ويضيف ابن شرف الى ذلك أن الأمر لم يقف عند استبدال الخطبة العباسية بالغاطمية ، بل ان الأمر تجاوز خلق العبيدين الفواطم الى التصريح بلعنهم من أعلى المنابر ، وذلك في خطبة عيد الأضحى - ١٠ ذى الحجة - ٤٤٠ هـ / ١٦ مايو ١٠٤٩ م (٣١) ، كما كان يفعل الأمويون أصحاب الأندلس على عهد عبد الرحمن الناصر ، وأتباعهم من أدراء الزناتيين من : مكناسين ومغراويين أو من الحسين الأدارسة ، مما سبقت الإشارة اليه (٣٢) فكان الصنهاجيين قد تبادلوا المواقف مع الزناتية ، وإن كان ذلك لحسابهم الخاص ، بعد سقوط الدولة الأموية العاصمية ، وقيام نظام ملوك الطوائف الذي هيا الفرصة لكي يسيطر أبناء صنهاجة الصحراء المغربية الكبرى سلطانهم على الأندلس ، فكاننا الآن على عتبات العصر الصنهاجي الكبير في كل المغرب والأندلس .

أحراق البنود وتبديل النقود والدعاء بخليفة بغداد :

أما عن ابن خلدون فهو يلخص الأوضاع الجديدة بين القاهرة والقروان بعد أعمال العنف والقتل ضد الشيعة بشكل عام ، والدعاة منهم ، بقوله : « وامتنعوا لذلك خلفاء الشيعة بالقاهرة وخاطبه وزيرهم أبو القاسم الجرجرائي محذرا ، حتى أطلق الجو بينه وبينهم الى أن انقطع الدعاء لهم سنة ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م على عهد المستنصر من خلفائهم ، وأحرق بنوده ، ومحا اسمه من الطرز والسكة ، ودعا للقائم ابن القادر (٣٣) » .

(٣١) ابن خلدون ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٤٠١ - حيث النص على قول الخطيب في لعنهم : « اللهم ألن القصة الكبار ، المسارقين القهار ، أعداء الدين .. المخالفين لأمرك .. المتبعين غير سبيلك والمبدلين لكتابك .. اللهم وإن سيدنا أبا تميم المفسر بن باديس بن المنصور القائم لديك ، والناصر لسنة نبيك والرافع لله أوليائك يقول : مصدقا لكتابك .. مدافعا لمن غير الدين ، وسددا غير سبيل الراشدين المؤمنين : يا أيها الكافرون لا أعيد ما تعدون » - (٣٢) ما سبق ، ص ٣٥ ويضيف ابن شرف ان الأمر ازداد حدة في الجمعة التالية - ١٧ ذى الحجة إذ أبلغ الخطيب بسببهم على منبر القروان بأشنع من هذا السب - ابن خلدون ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٤٠١ -

(٣٣) العبر ، ج ٦ ص ١٥٩ - حيث الإشارة أيضا الى أن خطاب القائم وكتاب عبده للمعز وحصل محبة داعيته أبي الفضل بن عبد الواحد التميمي ، فرماه المستنصر خليفة للمبيدين بالمغرب بنى جلال الدين كانوا مع الغرامطة ، وهم : رباح وزغبة والأنبج ، وذلك بمشاركة من وزيره أبي محمد الحسن بن علي البازوري ؟

وتأتى رواية دخول العرب الهلالية الى أفريقيا سنة ٤٤٢ هـ / ١٠٥٠ م فى حويلات ابن الأثير ، لتؤكد فى المقدمات والأسباب ان سنة ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م هى السنة التى خطب فيها المعز بن باديس للقائم بأمر الله العباسي ، وبالتالى التى قطع فيها خطبة المستنصر العلوي (٣٤) .

وهكذا تتسلسل المقاومة الشعبية للمذهب الاسماعيلي الفاطمي ، منذ بداية عهد المعز بن باديس فى سنتي ٤٠٧ هـ / ١٠١٦ م و ٤٠٩ هـ / ١٠١٨ م بإشراف رجال الدولة المسئولين من : الوصية أم ملال عمه المعز الى الوزير ابن أبى الرجال ، وعامل الحراج أبى اليهار ، والوزير محمد بن الحسن ومن كان تحت امرتهم من : والى القيروان أو قواد العسكر الذين كان يستهويهم النهب والسلب بصرف النظر عن الدوافع أو الأسباب - وتلك مرحلة أولى .

مسئولية المعز شابا راشدا :

أما المرحلة الثانية فهي التى تنسب الى المعز شابا راشدا يقدر مسئولياته ويقيم نتائج أفعاله ، وتبدأ بأحداث الشيعة فى نقطة سنة ٤٢٣ هـ / ١٠٣٢ م ، والمعز فى الخامسة والعشرين ، وقد تمرس بأعمال الحكم ، وتنتهى بالقطيعة مع الخلافة بالقاهرة سنة ٤٣٥ هـ / ١٠٤٣ م ، وهو فى عنفوان السابعة والثلاثين من عمره ، مما يذكر بعنفوان صلاح الدين فى مثل تلك السن عندما قاد رجاله ليحقق نصره العالمى فى حطين - بعد أن قضى من قبل على الخلافة الفاطمية فى القاهرة ، مع فارق الظروف والأحوال .

والحقيقة أن تحديد تاريخ القطيعة بين القاهرة والقيروان بسنة ٤٣٥ هـ / ١٠٤٣ م ، حسبما سبق عرضه يستدعى وقفة قصيرة ، من حيث وجود رواية أخرى تحدد ذلك بسنة ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م ، وإن كان ذلك يأتى عرضا فى ثنائى الأعداد لهجرة الهلالية الى المغرب . والحقيقة انه يمكن التوفيق بين التاريخين دونما تعارض ، وذلك اذا أخذنا سنة ٤٣٥ هـ / ١٠٤٣ م على أنها سنة القطيعة ، من حيث اجابة خلافة بغداد لمسعى القيروان للدخول فى طاعتها بدلا من طاعة القاهرة ، وهو الأمر الذى كان يتم فى السر خفية من وراء ظهر خلافة القاهرة ، بطبيعة الحال . والدليل

(٣٤) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٥٦٦ - حيث يضيف انه عندما كتب المستنصر الى المعز يهدده ، اغلظ المعز فى الجواب ، وكان ما كان من تدبير الوزير اليازورى من الإصلاح بين القبائل العربية وإغلاقها نحو افريقية .

على ذلك هو تجشم عناء ارسال شجعارات الامارة الى المعز بن باديس عن طريق القسطنطينية (ما سبق ، ص ٣٨٩) .

وهكذا تكون فترة الخمس سنوات من ٤٣٥ هـ / ١٠٤٣ م الى ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م ، قد انقضت في محاولات من بجانب خلافة القاهرة في رد الأمير الصنهاجي عن انحرافه نحو القاهرة ، الأمر الذي تأكد فشله تماما سنة ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م فكانت القطيعة النهائية التي انتهت بلعن خلفاء الفاطميين في عيد الأضحى من سنة ٤٤٠ هـ / ١٦ مايو ١٠٤٩ م . وفي سنة ٤٤١ هـ / ١٠٤٩ م التالية ، بدلت السكة عن أسماء الخلفاء الفاطميين من بنى عبيد ، وذلك في شهر شعبان / ديسمبر ١٠٤٩ - يناير ١٠٥٠ م .

وهكذا ألغيت الدنانير والدراهم التي كانت تحمل أسماء خلفاء الفاطميين ، وسبكت الدنانير التي كانت في بيت المال ، وكانت أموالا عظيمة . وخرجت الدنانير الجديدة تحمل على أحد وجهيها الآية التي تقول : ومن يتبع غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه ، وهو في الآخرة من الخاسرين . وفي الوجه الآخر حملت الشهادة : لا اله الا الله محمد رسول الله .

والهم أن إلغاء الدنانير الفاطمية لم يكن له تأثير على الأسواق في القيروان أو غيرها من المدن الإفريقية ، وذلك أن دار السكة ضربت كميات كبيرة منها ، كفت الطلب في الأسواق وزادت (٣٥) .

وهذه المرحلة الثالثة انتهت بالقطيعة النهائية التي يرمز اليها باتخاذ اللون الأسود شعار العباسيين في جمادى الآخرة سنة ٤٤٣ هـ / أكتوبر ١٠٥١ م (٣٦) . وبذلك انفجرت الأزمة الفاطمية على مستواها الديني والمذهبي ، حيث تبلور الشخصية الخاصة لبلاد المغرب تحت مظلة السنية

(٣٥) ابن عذاري ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٤٠٢ .

(٣٦) ابن عذاري ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٤٠٤ - حيث النص على أمر المعز بإحضار عدد من الصباغين واعطائهم ثيابا بيضا من فندق الكتان لكي تصبغ سوادا وبعد ذلك أعطيت للخياطين لتقطع أثوابا فرقا على الفقهاء والقضاة والحطباء والمؤذنين الذين اجتمعوا لديه في قصره ، لكي يكتسوا بذلك السواد . وهكذا كان الحطيب يصنع منبر القيروان في الثياب السوداء شعار الخلافة العباسية ويدعو للخليفة القائم بأمر الله ، كما دعا بعده للسلطان المعز بولونه أبي الطاهر تميم ولي العهد .

الملكية ، وعلى اكتاف العصبية الصنهاجية . في كل من افريقية التونسية
وببلاد الغرب المراكشية الفاسية .

من هذا العرض للأحوال الدينية وما قام من إشزاع بين المسدية
والقاهرة على عهد المعز بن باديس بفضل توجه الدولة الصنهاجية حكومة
وشعبا ضد المذهب الاسماعيلي الفاطمي ، والعمل على احياء المذهب المالكي
الذي أعلن انتصاره بعد فترة من التنازع أشبه بما يسميه ابن خلدون
بالمطولة ، مما يتعلق بالصراع بين نظامي حكم أحدهما قديم متهالك ،
والآخر جديد متماسك ، الأمر الذي لا تنضج معالنه الا بإلقاء النظر على
الجوانب الأخرى من المشكلة ، مما يتمثل في بقية الأحوال الداخلية في الدولة
الصنهاجية .

اقرار الأمن ومواجهة الفتن الداخلية :

إذا كانت مطاردة الشيعة وما ترتب عليها من ردود فعل أنية او
مستقبلية قد تعتبر علامة ناشزة في عصر المعز بن باديس الذي يعتبره
ابن خلدون عصر استفحال الحضارة الزيرية ، بل الافريقية ، فإن الحقيقة
قد تكون مختلفة بعض الشيء . فلقد عرف عهد المعز الى جانب مشكلة
الشيعة عددا من المشاكل المشابهة التي عكرت صفو الأمن والسلام وقتئذ ،
كما سببت المتاعب للأمير وأسأمت الى نظام الحكم والإدارة ، مثل الفتن
الطائفية التي شاركت فيها جماعات زناطة وكنانة ، بل وصنهاجة ، مثل
تلكاته ، والفتن الاقليمية والمحلية بين بعض المدن وغيرها أو بين أهل المدينة
الواحدة ، كما في الزاب وجربة وتونس .

التزاعات العرقية من زناطة وغيرها :

على عكس ما كان يظن من أن المشكلة الزناطية كانت قد هانت في
بلاد أفريقية منذ القضاء على الثورة التكرارية لأبي يزيد ، بل وانها كانت قد
انتهت تماما بعد أعمال زيري وبلكين ضد زناطة التي أخرجت ، ليس من
أفريقية وحدها ، بل ومن المغرب الأوسط مما سبقت الإشارة اليه
(ص ٣٣٠) ، فالحقيقة أنه كانت قد بقيت للمشكلة الزناطية ذيول نابعة
من أسلوب حياة الزناطية ، بصفتهم قبائل رعوية لا تعرف مفهوم الوطن
بمعناه الجغرافي السياسي ، من حيث أن المهم لديهم هو الحرية السياسية ،
وعدم الخضوع لسلطان الدولة ، وبالتالي التنقل من أرض الى أخرى ، حسبما

تتحكم الظروف وتقضي الأحوال . وهكذا نفاجأ بظهور الزناتية وحافاتهم من قبائل البربر (البثرية) ما بين القينة والأخرى ، بل انهم ربما هددوا العاصمة القيروان نفسها ، ولكن الى حين . وذلك ان كسل لقضاء المعز بالزناتية كانت تنتهى دائما لصالح المعز وعساكره ، بمعنى أن بقاياهم كانوا قد ضعفوا حقا ، فلم يعودوا يشكلون تهديدا خطيرا للدولة الصنهاجية .

وهكذا يجعل ابن خلدون موضوع الصراع بين المعز وزناتة فيقول : « كانت بينه وبين زناتة حروب ووقائع كان له الغلب فى جميعها ، كما هو مذكور » (٣٧) . وباستعراض الحوادث الزناتية الصنهاجية قبيل عهد المعز نجد أن والده باديس حاول إسترضاء بنى خزرون وأقطعهم طينة (ما سبق ، ص ٣٤٧-٣٤٨) وأكرمهم حتى صار أكرامه لهم مضرب الأمثال ، ودليلا على ضخامة ملك بنى زيرى بأفريقية والقيروان ، إذ أعطى باديس بن المنصور للفول بن سميد الزناتى ٣٠ حملا من المال و٨٠ نختا من الثياب (٣٨) . ورغم ذلك فقد كانت العلاقة متارجحة دائما ما بين الوثام والحصام بين باديس وسعيد ابن خزرون ، بمعنى أن عدم الثقة كان هو الأصل فى العلاقة بين الطرفين على كل حال . وهكذا قضى باديس سنواته الأخيرة فى صراع مع بنى خزرون الزناتية فيما بين بلاد الزاب فى غرب أفريقية وما بين طرابلس فى شرق البلاد ، حيث أثاروا الاضطراب فى اقليمها ، وغلبوا عليه مع محاولة الاستعانة بتأييد الخلافة الفاطمية فى القاهرة ، (ما سبق ، ص ٣٥٥) .

مهاجمة دواب المعز فى قابس :

والمهم أن أول ذكر لأعمال عدائية من جانب الزناتية على عهد المعز تقع فى سنة ٤١١ هـ / ١٠٢٠ م ، وتظهر فى شكل تحد شخصى للمعز ، وإن كان بشكل غير مباشر . إذ أغارت زناتة أفريقية على دواب للمعز بن باديس فى منطقة قابس ، بهدف أخذها ، لولا يقظة الوالى هناك الذى خرج لليم وقتلهم ، ونجح فى هزيمتهم (٣٩) . وهذا يعنى أن الغارة أتت من قبسل زناتة المستقرين فى شرق المملكة ، فى إقليم نفزاوة الذى استقروا فيه عندما أعطاهم باديس إياه بدلا من طرابلس (ما سبق ، ص ٣٥٦) ، وبعد حوالى

(٣٧) العبر ، ج ٦ ص ١٥٩ .

(٣٨) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٥٩ - حيث لفول بن سميد بدلا من سعيد .

(٣٩) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٣٢٢ .

٤ (أربع) سنوات متسرب قبائل زناتة من افليم نزاراة وما يناحسه من بلاد قسطنطينية ، وهى بلاد الجريدة ، اذ تقسول ابروايه ايهم خرجوا (اى عصوا) هناك سنة ٤١٥ هـ / ١٠٢٤ م ، فقطعوا الطريق وأفسدوا البلاد ، وكان على المعز بن باديس أن يواجه اضطرابهم هذا بما يناسبه من الأعمال العسكرية المفاجئة ، قبل فرارهم فى بحار الرمال التى اعتادوا عليها ، فسير اليهم جيشا ، جريدة ، وأمرهم أن يجدوا السير ويأخذوا العصاة على حين غرة ، قبل أن يصلهم خير قدومه اليهم . وهذا ما حدث فعسلا اذ انتهت المفاجأة بقتل كثير من الزناتية حيث قطعت رؤوس ٥٠٠ (خمسمائة) رجل منهم ، وضعت فى أعناق الخيل وكأنها أعلاق نقيصة ، وسيرت الى المعز الذى استقبلها باحتفال كانت له أصداؤه القوية فى منطقة القيروان (٤٠) .

مهاجمة المنصورية :

ورغم محاولات التهدة ما بين المعز وزناتة ، بل وكذلك بينه وبينه كنانة ، حيث انتهت المراسلات بينهم بالصلح والدخول فى الطاعة سنة ٤١٧ هـ / ١٠٢٦ م ، على أن يكون من حق الزناتية خفارة الطريق وحفظهما فى نظير اعطائهم مواطن آمنة لهم ، وأجراء الأموال المستحقة لهم نظير قيامهم بأعمال الحراسة (٤١) . فالظاهر أن تلك المفاجأة وذلك التمشيش الذى نزل بقتل الزناتية فى تلك الوقعة المفاجئة جعلت زعماء زناتة يعدون بدورهم مفاجأة مدهشة للمعز ، وذلك أنهم قرروا فى ثورتهم التالية سنة ٤٢٠ هـ / ١٠٢٩ م أن يكون هدفهم هذه المرة هو حضرة المنصورية ، حيث المعز نفسه « طمعا فى الملك » ، كما يقول ابن عذارى (٤٢) ، أى قلب نظام الحكم ، كما يقال الآن ، والاستيلاء على السلطة . وهنا كان على المعز شخصياً أن يواجه الخطر فجميع العساكر وسار بهم نحو التجمعات الزناتية المتربصة به . وتم اللقاء فى موضع يعرف بـ « حمديس الصابون » وانتهى القتال الشديد بهزيمة زناتة الذين قتل منهم العدد الكثير ، وأسر مثلهم ، بينما فر الباقيون الى الغرب ، وعاد المعز طاقرا غانما الى المنصورية (٤٣) . والذى يثير الانتباه هو تصعيد الزناتية لمستوى الصراع مع المعز بحيث كان هدفهم فى سنة

(٤٠) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٣٤٠ .

(٤١) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٣٧٧ .

(٤٢) البيان ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٣٩٦ .

(٤٣) ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٣٩٦ ، ابن الأثير ، ج ٩ ص ٣٣٧ .

٤٢٧ هـ / ٣٥ - ١٠٣٦ م هو الحضرة المتصورية التي زحفوا عليها مرة أخرى ، كما نجحوا في التفوق على قوات المعز التي خرجت للقائهم ، فهزموها في موضع يعرف « بالجفنة » قرب القيروان (٤٤) ، ولو أن المعز نجح في تقويم الموقف بعد قتال شديدا صبرت فيه صنهاجة ، وانجزت زناته هزيمة قبيحة ، وقتل منهم عدد كبير ، وأسر عدد كبير (٤٥) . وفي السنة التالية ٤٣٨ هـ / ٣٦ - ١٠٣٧ م خرج اليهم المعز بنفسه مرة أخرى ، ولم يكتف بكسرهم وهزيمتهم (٤٦) بل انه تتبعهم الى مساكنهم في البلاد فخر بها ، كما هدم قصورهم أو حصونهم (٤٧) . واستمرت أعمال القمع التي قام بها المعز ضد الثوار في السنة التالية ٤٢٩ هـ / ٢٧ - ١٠٣٨ م ، حيث سير عساكره الى بلاد الزاب حيث فتح موضع « قورس » وقتل من ثوار البربر هناك خلقا كثيرا ، كما فتح مواضع من بلاد زناته ، واستولى على قلعة « كردوم » من حصونهم القوية (٤٨) .

وفي سنة ٤٣٠ هـ / ٣٨ - ١٠٣٩ م زحف المعز الى زناته بجيحات طرابلس ولكنهم خرجوا اليه وهزموه هزيمة منكرة ، انتهت بمقتل عبد الله ابن حماد وسبب الأميرة أخت المعز « أم العلو » التي أطلقت وردت الى أخيها الأمير بعد حين (٤٩) .

أما عن الحملة التي سبها المعز في سنة ٤٣٣ هـ / ١٠٤١ م ضد زناته فكانت بقيادة ولي العهد الأمير نزار الذي حقق النصر على الزناتية ، وعاد متوجا بأكليل الغار (٥٠) . وفي نفس السنة (٤٣٣ هـ / ١٠٤١ م) كانت قوات المعز توقع بالثوار من قبائل لواتة (البثرية البدوية أيضا مثل زناته)

(٤٤) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٤٤٦ .

(٤٤) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٤٤٦ .

(٤٥) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٤٤٦ .

(٤٦) ابن عذاري ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٣٩٦ .

(٤٧) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٤٥٣ .

(٤٨) النويري ، ص ٣٤٠ .

(٤٩) ابن خلدون ، ج ٧ ص ٤٣ . هذا وتشير الرواية الى أنهم هزموا المعز مرة ثانية عندما أراد الثار فزح اليهم ، وان اتبعت له الكرة عليهم فغلبهم وأذعنوا لسلطانة .

(٥٠) ابن عذاري ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٣٩٨ - حيث النص على انه عند قوله أنشدهم

ابن شرف قصيدته التي أولها :

طلعت من الغربي شمسي الدين
بالسعد والاقبال والتسكين

هزيمة موجعة ، وتقتل عددا منهم ، وتغنم من أموالهم (٥١) . وإن كانت الرواية لا تحدد الموضع الذي أنزلت به تلك العقوبة بلواعة ، فمن الواضح أن يكون ذلك في الأقاليم الشرقية ما بين برقة ونقراوة .

اضطراب قبائل تلمكاته الصنهاجية :

والغريب أيضا أن بعض قبائل صنهاجة كانت مضطربة هي الأخرى ، الأمر الذي كان يسبب المتعاقب للدولة الزيرية ، من : الهزائم في الحرب والاضطرابات الداخلية أوقات السلم . والمثل لذلك قبائل تلمكاته التي كانت السبب في هزيمة جيوش المنصور أمام قوات زيري بن عطية الزناتي المغراوي ، صاحب فاس (ما سبق ، ص ٣٤٩) . ففي سنة ٤٣٩ هـ / ١٠٤٧ م ، قامت حرب طائفية بين جماعات من قبائل تلمكاته ، طالت واشتدت بما فيه الكفاية إلى حد قتل الكثيرين منهم (٥٢) .

الاضطرابات الإقليمية :

والى جانب النزاعات القبلية عرف عهد المعز بن باديس الاضطرابات الإقليمية ، كما في الزاب وجربة ، وبين المدن كما بين القيروان وسوسة أو بين أهل المدينة الواحدة ، كمسا في كل من القيروان وتونس ، إلى جانب ما كان يقوم به بعض عمال الدولة وكبار الموظفين فيها ، وخاصة من العاملين في الجباية وديوان الخراج أو غيرهم حتى من الأمراء بالمعروف ، من أعمال كانت تثير ردود فعل عنيفة من قبل الأمير ، ومن عساكر الحرس ، أو ما كان يثير خواطر العامة ويؤدي بالتالي إلى الفتنة .

ففيما يتعلق بالاضطرابات الإقليمية في بعض المناطق التي عرفت بميولها الفردية أو الانفصالية ، تطلب الأمر من المعز تسيير العساكر إلى بلاد الزاب سنة ٤٣٩ هـ / ٣٧ - ١٠٣٨ م ، حيث تم فتح حصن قورس ، وقتل خلق كثير من البربر ، الأمر الذي ربما كانت له علاقة بثورة زناتة في ذلك الوقت (٥٣) . وفي سنة ٤٣٠ هـ / ٣٨ - ١٠٣٩ م دخل بعض قواد

(٥١) ابن عذاري ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٣٩٨ - ويناسبة ورود خبر الاعتاج بلواعة ، شربت الطويل ، كما اتشد ابن شرف قصيده التي يقول فيها :

بالبين والسعد عسكو بالظفر موفق السورد غانم الصدر

(٥٢) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٥٤٢ .

(٥٣) اللويري ، ص ٣٤٠ .

المعز بن باديس جزيرة جربة ، المعروفة بسيولها الانعزالية ومذاهبها الانفصالية ، وقتل رجالها ، وأسر مقدمهم ابن كلدة ، وصلبه : عقوبة قطع الطريق والافساد في الأرض ، فضلا عن سوء اعتقادهم (٥٤) ، حيث كانوا من الاباضية النكارية ، مذهب أبي يزيد صاحب الحمار ، والظاهر انه لنفس هذه الأسباب كانت جزيرة جربة في السنة التالية ٤٣١ هـ / ٣٩ - ١٠٤٠ م ، هدفا مغارة بحرية من قبل جيوش مالقة ، كما تقول رواية ابن عذاري ، التي فتحها وانتقم من أهلها فقتلت الكثيرين منهم (٥٥) .

أما عن الفتن في المدن فتشير الحوليات الافريقية الى الفتنة التي قامت في القيروان سنة ٤٣١ هـ / ١٠٣٠ م بين الأجناد وبين العامة من أهل القيروان ، والتي أدت الى قتال دام بين الطرفين وانتهت نهاية حزينة بالنسبة لأهل العاصمة ، اذ قتل من عامتهم ٢٠٠ (مائتي) رجل (٥٦) . وعن الخلاف الذي وقع بين أهل تونس وأدى الى تنازعهم فيما بينهم سنة ٤٢٣ هـ / ١٠٣٢ م ، فقد تطلب تدخلا مباشرا من المعز نفسه الذي نجح في تسكين الفتنة بفضل الإصلاح بينهم (٥٧) . وفيما يتعلق بالفتنة التي كانت قائمة بين أهل القيروان وأهل مدينة سوسة ، ميناء القيروان فانها انتهت بالصلح بين أهل المدينتين التوأمين سنة ٤٤٢ هـ / ١٠٥٠ م . والظاهر أن سعاية أهل الخير بين الطرفين انتهت باقرار الحق للسوسيين على أهل القيروان ، وذلك أنه كان على القيروانيين أن يقيموا الدعوات الكريمة للسوسيين وكانت تنتهي بغسل الأيدي بماء الورد ، ومسحها بمناديل الشرب الرقيقة زيادة في التكريم (٥٨) .

ما بين الدعوة للفاطميين والأمر بالمعروف :

والى جانب ذلك هناك ذكر لما يمكن أن يكون محاولة لاثارة الفتنة عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهي المسألة الشنيعة بنا كان يقوم به دعاة الفاطميين قبل ذلك لحساب خلفاء القاهرة وخاصة في بلاد كتامة ، مثلما فعل أبو الفهم وأبو الفرج (ما سبق ، ص ٣٣١ ، ٣٣٤) مع الفاروق

(٥٤) النويري ، ص ٣٤١ .

(٥٥) البيان ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٣٩٧ .

(٥٦) ابن عذاري ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٣٩٦ .

(٥٧) ابن عذاري ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٤٢٦ .

(٥٨) ابن عذاري ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٤٠٣ .

في الامكانيات وبالتالي في الهدف ، ولو أنه يمكن ان يفهم من تفصيلات
احدث أنه كانت هناك نسبة عسلافة بين الامر بالمعروف هنا وبين خسلافة
القاهرة . ففي شهر رجب سنة ٤٤٦ هـ / نوفمبر ١٠٥٠ م كان أحد الوعاظ
القيروانيين ، وهو أبو عبد الله بن عبد الصمد ، الذي عرف بأنه فقيه
زاهد ، يطرد من مدينته القيروان ، تحت الحراسة المشددة نحو مدينة قابس
انتظارا للقافلة الشجرية الخارجة من القيروان الى مصر لتحميه الى هناك .
هذا ، وصدرت الأوامر الصارمة الى عامل قابس بعزل الرجل ، فمنع الاتصال
به ، كما حرم من مغادرة موضع اعتقاله .

أما عن الأسباب التي أثارت كل هذه الاحتياطات وتلك الضجة حول
أبي عبد الله بن عبد الصمد الواعظ ، فإنه كان يشد الناس الى حلقات
وعظه بسبب حدة لسانه ، الأمر الذي استدعى تحذير المعز بن باديس له .
والظاهر أن الرجل في وعظه لم يكن يتعرض لموضوعات سياسية تثير
الحكومة ، بل كانت موضوعاته تتعلق بأمور خاصة بالزهد والتصوف ، مما
يتعلق بموضوعات الفيض والحلول الالهية أو ما شابه ذلك ، وهي الموضوعات
التي أثارت من كان يجتمع حوله من فقراء القيروان ، أي عبادها وصلحائها ،
الذين استبشعوا مقالاته ، « فرفعوا رقاعهم الى المعز بذلك » ، فاتخذ قراره
بالنفي عن البلد ، بعد أن كان قد أنذره وأعدده .

ولكن الذي حدث هو أن الرجل المتصوف الصالح لم يقدر له الوصول
الى مصر حيث قتل وهو في القسافة ، في الطريق . وهنسا لم يسكت
عبد الصمد والد أبي عبد الله الذي كان يمارس وظيفة الوعظ التي أخذها
ابنه عنه ، بجامع القسسطاط (مصر) ، وأشار بأصابع الاتهام الى أمير
القيروان ، وقرر أن ينتقم منه انتقاما يتفق مع بشاعة الجريمة التي ارتكبت
في حق فلذة كبده ، عن طريق استخدام أقصى ما يمكن من وسائل الاعلام
في ذلك الزمان . فقام الرجل في التو واللحظة بالمسير الى مكة ، فكان يطوف
بالكعبة خلال الموسم ، وهو يصيح « يارب المعز ، عليك به يارب » .

وهنا تكون المناسبة لتفسير سبب خراب ملك المعز بن باديس بدعاء
ذلك الرجل بل والتأكيد على أنه « لم يشك أحد في اجابة » دعوته « (٥٩) » ،
فكان حكومة المعز التي توصف بضخامة ملكها وترفها وبذخها ، كانت

أضعف من أن تقفه أمام دعسرة مظلوم ، فما بالك بدعاء كل الكافرين للنظام ، من مظلومين وغير مظلومين ، لأسباب حقيقية أو لمآرب شخصية .

ما بين الأمير والوزير ورجال الدولة :

من أهم ما يميز حكومة المعز بن باديس هو طول عهده الذي امتد زهاء نصف قرن (٤٨ سنة : ٤٠٦ - ٤٥٤ هـ / ١٠١٦ - ١٠٦٥ م) ، مما يسمح بالمقارنة مع بعض أمراء الاسلام القريني العهد به ، مثل عبد الرحمن الناصر بالاندلس (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ / ٩١٢ - ٩٦١ م) ، والمستنصر الفاطمي بالقاهرة (٤٢٧ - ٤٨٧ هـ / ١٠٣٥ - ١٠٩٤ م) .

تكوين أسرة اميرية :

حقيقة أن المعز ولي الملك وهو غلام صغير في الثامنة ، الأمر الذي يمثل نوعا من القصور في أسلوب الحكم ، إلا أنه في نفس الوقت كان فرصة للتدريب العملي ، وتطبيق ما كان يمكن أن يتلقته من نظريات الحكم وفلسفة السياسة المدنية . ولما كان أول ما يجذب الاهتمام في ذلك العصر ، أن يكون الأمير أسرة تتوارث الملك ، فلأن ذلك الأمر كان يمنع الاختلاف بين أفراد العائلة الكبيرة من : الأعمام الصغار والاخوة الطموحين وأبناءهم الكبار . وهذا يمكن تفسير وصول زاوي بن زيري ، عم والد المعز الأكبر من الأندلس سنة ٤٠٨ هـ / ١٠١٧ م ، والمقاوة التي قوبل بها من قبل المعز (ما سبق ، ص ٣٦٧ وهـ ١١١ ، وص ٤٠٦) ، بأن ذلك يعني تأييدا لامارة المعز وسندا لا يستهان به .

زواج المعز بن باديس :

وهكذا كان على الأمير الصغير أن يتأهل للزواج ، بدأ بختنائه الذي حدث في أواخر ذي الحجة سنة ٤٠٧ هـ / ١٠١٦ م (الشويري ، ص ٣٣٨) . أما عن زواجه الذي مر عليه ابن عذارى سريعا ، رغم المبالغة في وصفه بأنه « ما تهيأ قط لأحد من ملوك الاسلام ، اكتفاء بما شرحه البرقي في كتابه ، فقد كان في سنة ٤١٣ هـ / ١٠٢٢ م . » . ويذكر لابن أبي دینسار . رغم تأخره ، أنه أشار إلى الوليمة التي صنعها المعز بالمناسبة ، والتي « لم يكن مثلها لأحد في بلاد المغرب » مع تقديم تفصيلات طريفة عن الاستعدادات

الخاصة بالعرس الكبير (٦٠) . وهكذا بدأت الأسرة المعزية البياديسية في الزيادة ، اعتبارا من شهر صفر سنة ٤١٥ هـ / إبريل ١٠٢٤ م . حيث ولد له ابنة كباب ، بينما كان مولد ابنه الثاني نزار في ١٠ من المحرم ٤١٧ هـ / ١ مارس ١٠٢٦ م (٦١) .

ممارسة السلطات المطلقة : نكبة الوزير :

والظاهر أن المعز عندما أدرك سن الحلم وهو في شبابه المبكر ، في الرابعة عشرة من عمره ، كان قد بدأ يمارس سلطاته المطلقة ، بل ويظهر اتجاهات استبدادية متطرفة . ففي ربيع الآخر سنة ٤١٢ هـ / ١٠ يولييه ١٠٢٢ م قتل وزيره وصاحب جيشه ، أبا عبد الله محمد بن الحسن بعد ٧ (سبع) سنين قضاها الرجل في الخدمة مستقلا بأمور الدولة ، أي منذ بداية عهد المعز . أما عن تبرير التخلص من الوزير قتلا ، فيرجع ، كما تقول الرواية إلى انفاقه كل دخل الدولة في وجوهها المعروفة ، بمعنى الموازنة بين الدخل والمخرج تماما ، دون ادخار أموال ، قد يستفاد بها عند الحاجة (٦٢) . وهو ما يعني أن الرجل كان مستقلا بإدارة المالية كما كان الحال بالنسبة لمشاهير سابقيه ، من : ابن القديم على عهد بالكين ، أبو عبد الله بن محمد الكاتب أيام المنصور ، أبي محمد بن أبي العرب علي عهد باديس ، مع علمه بالاخلاق بطبيعة الحال بحق الأمير في الرقابة على أعماله .

وإذا كانت بقية الرواية تضيف إلى ذلك طمعا في المال لكثرة

(٦٠) المؤنس ، ص ٨٣ - حيث انتهى على البلدة ، فم العرس بنصب القباب خارج المدينة ، ونشر ما هيا من الأثاث والسياب ، وحمل المهر على ١٠ بقال ، على كل بقل ١٠ آلاف دينار ، وحضر من آلاف الملاهي ما لا يحصى . ولقد قوم سباق التجول ما حصل للعروسة فكان أزيد من مليون (ألف ألف) دينار .

(٦١) النويري ، ص ٣٤٠ ، وأنظر ابن عذارى ، ط ١ : بيروت ، ج ١ ص ٣٩٨ - حيث النص على ولادة نزار بن المنصور بن باديس سنة ٤٢٨ هـ ، وعمره ٢١ سنة . والشهر : ٠ وفي تلك السنة ولد له الآخر أبا الاسم (العهد) ، وكناهه العزيز بالله ، وهو ابن ٨ أشهر . وتوفي بعد ذلك وهو ابن سنة ٣ أشهر - أنظر ابن عذارى ، ط ١ : بيروت ، ج ١ ص ٣٩٨ ، وأخيرا كانت ولاية العهد سنة ٤٤٢ هـ / ١٠٥٠ م لولد أبي الظاهر تميم - خلفه - ابن عذارى ج ١ ص ٤٠٣ ، ٤٠٤ .

(٦٢) النويري ، ص ٣٣٩ ، وقارن ابن الأمير ، ج ٩ ص ٣٢٧ - حيث يمكن أن يفهم من النص أن الرجل غدر في المال ، حيث قيل أن أبا عبد الله محمد بن الحسن أقدم سبعين سنين لم يحصل من الأموال شيئا (إلى الحسن) ، بل ويحبها ويوقعها عليه .

اتباعه ، يمتحن أنه أصبح مركز قوة ، وأنه أفضل مالا من الذخيرة لم يرد
عوضه ، حتى ضاقت الدولة واتسعت أحواله ، وكثرت أبنيته التي لا تصلح
إلا للملوك ، كما نلن براسل أكابر رجال الدولة بمصر فيهاديهم ويهادونه ،
إلى أن وصل إليه سجل خواص من السلافة ، فضايق منه المعز (٦٣) ، فان
اللائم الأخطر الذي توجه له الرواية هو أنه كان معترا بأخيه الذي كانت
له ولاية طرابلس ، حيث أعداء الدولة الزناتية الذين كان يمكن الاعتماد
على مساندتهم ، فبناء على ذلك تقول الرواية أن الوزير أبا عبد الله محمد
ابن الحسن شاعر بقرته وبدأ يزاحم الأمير في سلطانه ، حيث صار يذكر
اسمه إلى جانب اسم المعز في مخاطباته ، الأمر الذي ثقل على المعز وجعله
يفكر في التخلص من الوزير ، حيث دس عليه بعض خواصه للخدمة لديه
وتعريفه بتفاصيل أحواله ، وانتهى بقتله ، في ٧ ربيع الآخر ٤١٣ هـ / ١٠
يوليه ١٠٢٢ م مع اتخاذ الاحتياطات اللازمة للمتحفظ على أمواله وممتلكاته ،
وكذلك الأمر بالنسبة لرجال العاملين معه في الإدارة المالية (٦٤) ، فكانها
قصة الرشيد وجعفر البرمكي ، قد وضع لها « سيناريو » جديد يناسبها .

وفي سبيل تبرير عذر الأمير بالوزير تقدم الحولية التاريخية قصة
خيالية مفادها أن الوزير كان على دراية بما ينتظره من مصير مشوم ، فكان
المسألة تتعلق بشيء مما عرفه الفاطميون من علم الحدائق ، وذلك عندما رأى
أبو عبد الله محمد بن الحسن في منامه عبد الله بن محمد الكاتب وزير
المنصور وبأديس ، فحذره من مغبة عمله ونصحه بتقوى الله في الناس
كافة ، مع أبيات من الشعر تعبر عن قصر الحياة وعدم الاعتزاز بالدنيا ،
الأمر الذي انزعج له الرجل فانتبه من نومه مذعورا ، فلم ينقض على ذلك
غير شهرين حتى كان مصرع الوزير على يد الأمير (٦٥) .

عصيان أخى الوزير ، تحالفا مع زناتة في طرابلس :

والجزم أنه عندما بلغ الخبر إلى أخى الوزير في طرابلس تحالف مسيح

(٦٣) النويري ، ص ٣٣٩ - ٣٤٠ ، ابن الأثير ، ج ٩ ص ٢٢٧ .

(٦٤) النويري ، ص ٣٤٠ ، ابن الأثير ، ج ٩ ص ٢٢٧ .

(٦٥) ابن الأثير ج ٩ ص ٣٢٧ - ٣٢٨ - حيث يعرض عددا من أبيات الشعر يقول الثالث
مواويل منها على لسان عبد الله بن محمد الكاتب .

وأعظم أسوة لك بن لاني . ملكك ولم اعين طولا وعرضا
فلا تفتخر بالدنيسا واقدر . فان أوان اسرك قد تقضي

(ابن الأثير ج ٩ ص ٢٢٨)

زنادة في المنطقة ضد المعز ، بل وأدخلهم مدينة طرابلس نفسها ، فقتلوا من كان فيها من العسكر المعزي والصنهاجي واستولوا على المدينة . وكان انتقام المعز شديدا إذ أنه أمر بالقبيض على أولاد الوزير الى جانب عدد من أقربائهم فحبسهم ، ولكنه أمام احتجاج نساء المفتولين في طرابلس الثلاثي استغثن بالمعز بن باديس ، اضطر الى قتلهم بعد أيام من الاعتقال (٦٦) .

اما عن الذي خلف أبا عبد الله بن الحسن في الوزارة فهو أبو القاسم ابن محمد بن أبي العرب ، وصرف اليه النظر في سائر الحريقية ، في حفل رسمي قلده فيه سيفه ، وأخرجه في موكب تتقدمه الطبول والبند (٦٧) ، ولكنه لم يقدر للقاسم أن يستمتع بمنصبه الكبير طويلا . وذلك أن المعز فوض في ٢٥ جمادى من السنة التالية (٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م) ١٦ سبتمبر ١٠٢٣ م ، جباية الأموال وولاية العمال والنظر في العساكر وسائر الأشغال الى أبي البهار بن خولف (ما سبق ، ص ٣٨١) ، الذي استخدم الحزم والحسم حتى تحسنت الأمور ، وضبطت الأطراف والثغور ، واستقام التدبير حتى « رأى الأمير شرف الدولة (المعز) من حزمه وكفايته ما لم يقم به غيره » (٦٨) .

سياسة حازمة تجعل من الوزير أبي البهار مركز قوة يخشى امره :

ولا بأس أن تكون سياسة الحزم والحسم التي انتهجها أبو البهار بن خولف ، والتي تشير اليها رواية ابن عذاري قد أصبحت سياسة معتمدة من المعز ، وأنها التي تفسر سلسلة النكبات والمصادرات التي تشير اليها الحوليات المعزية الباديسية في ابن عذاري ، والتي صارت جزءا من السياسة المالية . منذ التخلص من الوزير أبي عبد الله محمد بن الحسن سنة ٤١٣ هـ / ١٠٢٢ م . ففي سنة ٤٢٣ هـ / ١٠٣١ م نكب محمد بن محمود بن السكاك ، الذي كان يتولى « أشغال أم المعز » ، وعن هذا الطريق استولى على دولته (٦٩) ، الأمر الذي يذكر بالطريقة التي استولى بها محمد بن أبي عامر الحاسبي المنصور ، على دولة الحكم المستنصر بعد ما دخل في خدمة زوجته السيدة

(٦٦) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٣٢٨ ، وانظر التبريزي ص ٣٤٠ - حيث النص على أنه بعد أن أمر المعز بالقبيض على جميع بني محمد حبسهم لفترة من الوقت قبل أن يقتلهم جميع للقتل .

(٦٧) التبريزي ، ص ٣٤٠ .

(٦٨) ابن عذاري ، ط : بيروت ج ١ ص ٣٩٣ .

(٦٩) ابن عذاري ، ط : بيروت ج ١ ص ٣٩٧ .

أم هشام المؤيد ! أما عن نكبة ولى نقطة ، وهو جوشن بن حميد الصنهاجى .
سنة ٤٣٩ هـ / ١٠٤٧ م ، فقد كانت بسبب مطالبتة بأموال كثيرة اتهم
باحتمجانها لنفسه ، وكان عليه أن يتحمل الكثير من العذاب والهوان ، في
سبيل اجباره على الاقرار بما اتهم به (٧٠) . هذا ، كما اتهم قاضى قفصة
أحمد بن حجاج هو الآخر ، فى مبلغ ١٠ (عشرة) آلاف دينار ، ولكن الرجل
الذى كان (متصاوتا) يخشى أن تخدش كرامته ، يادر بدفع المبلغ المطلوب ،
وحفظ نفسه (٧١) . وكذلك كان الحال بالنسبة للقائد عباد بن مروان سنة
٤٤١ هـ / ١٠٣٩ م ، وهو أحد الخاصة ، وكان يحمل لقب سيف الدولة فقد
تأسست نكبته على أساس اتهامه بالخيانة فى الأموال ، وذلك انه دفع الى
أعدائه مع الامر باستخراج أمواله ، كما قبض على من دخل فى خدمته من
العمال ، من أجل المساعدة على ذلك . وأخيرا ألقى الرجل فى سرداب من
نوع السجن المطبق المظلم فبقى حتى مات (٧٢) ، وذلك قبيل الوقت الذى
بدأت تتور فيه مشكلة العرب الهلالية .

الامير وأفراد الأسرة الحاكمة :

هكذا ، كان اضطراب الأجهزة الادارية يمثل مادة اضافية لاثارة
الخواطر وانفلق بين رجال الدولة وعمالها ، بل وبين ذوى الأملاك وأصحاب
الأموال من عامة الناس ، من التجار وغيرهم ، ولزيادة أسباب الاضطراب
الأخرى من نزاعات عرقية ومذهبية ، وصراعات محلية وعائلية . ومن بين
الصراعات العائلية كان للعلاقات الحسنة أو السيئة بين الامير أو الفرع المالك
من العائلة الزيرية الذى يتمثل هنا فى بنى المنصور بن بلكين ، وبين غيرها
من الفروع الاقدم ، كبنى زيرى أو الاحدث كبنى حماد ، أثرها الخطير على
استقرار الأمن والهدوء .

وقدما يتعلق بهذه المعز بن باديس أمكن التغلب على ما صادفه من
عقبات فى سبيل ارتقاء العرش قبل الطامعين فيه من أفراد الأسرة الزيرية ،
دون صعوبات كبيرة ، حيث أمكن التخلص بسهولة من كرامت بن المنصور

(٧٠) ابن عذارى ، ج ١ ص ٣٦٩ .

(٧١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٣٦٩ .

(٧٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٤٠٣ .

كبتافس على الامارة ، على يدى كل من الطرفين المتصارعين وقتئذ . وهما حزب حماد بن بلكين المعارض ، وحزب المعز بن باديس ولى السيد الشرعى . وإن كان ذلك قد تم عن غير قصد من جانب كل من الطرفين (ما سبق . ص ٣٧٧-٣٧٨) فلقد اقتضت السياسة ، من حزب المعز الحفاظ على تبة كرامت إلى جانبه ، فعقد المعز له اضافة الى ما كان بيده وقتئذ من ولاية أشير . على اعمال المغرب كلها ، فى سنة ٤٠٨ هـ / ١٠١٧ م (٧٣) وفى نفس السنة (٤٠٨ هـ / ١٠١٧ م) تحسن موقف الأسرة بالنسبة للمعز عندما وصل زارى بن زيرى من الأندلس ، شيخاً صلياً ، بعد ٢٢ (اثنين وعشر) سنة قضاه فى الأندلس مجاهداً للملوك ، ومثيراً للنهب الفتنه هناك . ومشاركاً فى إقامة نظام الطوائف بالعمل على استيلاء الصنهاجيين على غرناطة ، فاستقبله المعز فى المنصورة بما يلىق بشخصه من اجلال وتكريم ، الامر الذى اعتبر تمكيناً لمركز المعز وتأيداً له (ما سبق ، ص ٤٠١) فى مواجهة حماد بن بلكين ، عم والد المعز الذى بقيت مشكلته تنتظر حلاً .

الصراع ضد حماد بن بلكين :

بعد وفاة باديس والد المعز ، وهو يحاصر عمه حماد بن بلكين فى قلعه . وانصرف عسكر باديس الى افريقية نزل حماد على أشير حيث ابن أخيه كرامت بن المنصور ، الذى كان عليه الدفاع عنها ، بناء على نصيحة القاضي ، ونجح بعد هزيمة كرامت فى اخراجه ، بعد أن ارضاه بمبلغ من المال فى المحرم ٤٠٧ هـ / يولييه ١٠١٦ م . الى المعز بافريقية (٧٤) . وكان على المسئولين بالمنصورة أن يعدوا العدة لمواجهة تحدى حماد ، الأمر الذى استغرق أكثر من العام ، حيث كان خروج المعز من المنصورة الى بقيادة على رأس العساكر فى يوم الخميس ٢٣ من صفر ٤٠٨ هـ / يولييه ١٠١٧ م ، حيث أشرف على الرجال ، وفرق فيهم الأموال ، قبل المسير على رأسهم يوم ٤ ربيع الأول / أوج أغسطس ، فى الوقت الذى بدأت تأتية

(٧٣) النويرى ، ص ٣٣٩ .

(٧٤) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٢٥٧ ، وما سبق . ص ٤٠٥ ، وداود النويرى ، ص ٣٣٧ . حيث الاشارة الى ان جهة كرامت التلكتائين كانوا سبب الهزيمة إذ غدروا بكرامت وذهبوا بيت المال مع الاشارة الى أن حماد طالب التلكتائين والصنهاجيين بعد ذلك بما سار اليهم من أموال كرامت . مع الاشارة ان قوات حماد بلغت ١٥٠٠ رجل . بينما بلغت قوات كرامت ٧٠٠٠ رجل ، اما القود التى قدمها حماد الى كرامت فقد بلغت ٣٠٠٠ دينار فقط .

جماعات من عسكر حماد تطلب اندخول في خدمته ، وكذلك من كتامة (٧٥) ، بعد أن تفرقت عنه تلكاتة وبعض صنهاجة من أعوان كرامت في السنة السابقة (٧٦) . ولكنه على عكس ما كان يأمله المعز نتيجة لذلك ، من ضعف حماد وأخيه إبراهيم وقرب خضوعهما ، أتت الأنباء تبين أنهما يستعملان الحديعة والقدر في الايقاع بالمخالفين من أتباع المعز ورجاله . من ذلك ما فعله إبراهيم من التقرير بأيوب ابن يطوفت عامل باغاية ، عندما كان يحاصر مدينته ، اذ عاتبه وذكره بأنهم اخوة وإن ما حدث من الخلف بينهم إنما كان بقضاء الله وقدره ، وطلب اليه أن يرسل معه من يأخذ العهد على حماد بالطاعة ، حسب رغبة هذا الأخير ، ثم انه غدر برسولي أيوب ، وهما : حمامة أخى أيوب ، وحجوس بن القاسم بن حمامة ، فأساء إليهما ، وأرسلهما الى القاعة في ثياب رثة مثقلين بالحديد - حيث حماد الذى قتل تابيعهما : تودين ، غلام أيوب (٧٧) .

المعز ينزل الهزيمة بجماد :

وعندئذ لم يكن أمام المعز الا المسير بالعساكر الى حماد ، حيث أنزل به هزيمة مريرة في آخر ربيع الأول ٤٠٨ هـ / ٢٦ أغسطس ١٠١٧ م ، قتل فيها حمادة أصحابه ، كما وقع إبراهيم أسيرا ، بينما نجح حماد في الفرار وقد أصابه جراح وتفرق عنه أصحابه . واثار ذلك أضاف المعز الى أعمال كرامت بن المنصور ولاية المغرب (٧٨) ، بينما عاد المعز الى قصره في آخر

(٧٥) النويرى ، ص ٢٢٨ .

(٧٦) النويرى ، ص ٢٢٧ - ٢٢٨ - حيث كان قد طالبهم بأموال كرامت التي نهبوا فامتنعوا عليه وتفرقوا .

(٧٧) النويرى ، ص ٢٢٨ - حيث النص على أن حمامة وحجوس أنزلا في فاقة (مظلة) السلام ، وإن الذى جردهما من ثيابهما وألقى عليهما ملابس رثة ، هو : ذكنون بن أبى جلا . أما عن تبرير حماد لقتل تودين الغلام فيتخلص في قوله له : « هذان ابنا عمى ، وأنت فما جاء بك » . أودت أن تحدث . قال لى حماد ، وقتلت لجماد » .

(٧٨) النويرى ، ص ٢٢٩ ، ابن الأثير ، ج ٩ ص ٢٥٨ - حيث النص على مسيرة المعز بن باديس في ٢٢ سفر ٤٠٨ هـ ، وهو تاريخ خروجه الى رقادة عند النويرى الذى يقدم لنا تاريخ الوقعة (آخر ربيع) ، كما يشير الى جراح حماد ، وقارن ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٥٨ - حيث كان حماد قد دخل المسيلة وأشير وحاصر باغاية . أما عن حملة المعز فقد فتكت الحصار من باغاية كما كانت مسطيف آخر مطاف المعز ، وكذلك قصر الطين ، قبل التفلول الى حضرته .

جمادى الأولى ٤٠٨ هـ / ٢٢ أكتوبر ١٠١٧ م ، حيث أطلق سراح عمه ابراهيم وأحسن اليه (٧٩) .

الصلح بين حماد المعز :

وعندما طلب حماد الصلح ، وتيقن المعز من حسن نواياه ، قبل منا ما عرضه ، من سعى أخيه ابراهيم في الصلح ، وارسال ابنه القائد رهينة الى المنصورية ، ووافق على الصلح . وفعلنا وصل القائد بن حماد الى المنصورية في ١٥ شعبان ٤٠٨ هـ / ٢٨ ديسمبر ١٠١٧ م ، فأحسن المعز استقباله وعهد اليه بولاية المسيلة وطبنة ومرسى الدجاج وزواوة ومقرة ودكمة وبلزمة وسوق حمزة ، وأعطاه شعارات الولاية من البنود والطبول . وصرفه الى أبيه حماد بالقلعة ، في ٤ رمضان / ٢٤ يناير ١٠١٨ م . وبذلك يكون حماد قد دخل في طاعة المعز شكلا على الأقل ، حيث كان ابنا القائد يتردد الى المعز ما بين الحين والآخر (٨٠) . وتأكد الوقاق بالمصاهرة حيث زوج المعز أخته بعيد الله بن حماد (٨١) .

وانت تمام الاتفاق بين المعز وبين حماد وابنه القائد سنة ٤٠٨ هـ / ١٠١٧ م وانعقاد الصلح ، فان المعز كان يستطيع أن يبعث رسالة الى قبائل البربر وغيرهم ممن كانوا غير ملتزمين بالطاعة ، فيرجعون الى الهسود ، والسكينة ، مع ردع المفسدين منهم بالحرب والقتل ، الأمر الذي أدى الى سيادة الأمن والسلام بين سائر القبائل (٨٢) . وهكذا حق لابن خلدون أن يقرر : ان الحرب رفعت أوزارها من يومئذ واقتسموا المظلة ، والتحموا بالأصهار ، واقترب ملك صنهاجة الى دولتين : دولة المنصور بن بلقين بالقيروان ودولة حماد بن بلقين بالقلعة (٨٣) . وبذلك يكون وضع حماد

(٧٩) ابن الأثير ، ج ٩ من ٢٥٨ - ٢٥٩ - حيث خلع عليه وأعطاه الأموال والدواب .
(٨٠) التويرى ، ص ٣٣٩ ، وقارن ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٥٨ - حيث النص في حاجة الى الضبط إذ يقرر ان المعز وصل القائد بن حماد يعمل : المسيلة وطبنة والزاب وأشير وتاهرت وما يفتح من بلاد المغرب لكي يكرر مرة أخرى أنه عقد للقائد (بن محمد بدلا من حماد) على : طبنة والمسيلة ومقرة ومرسى الدجاج وسوق حمزة وزواوة ، كما انقلب بهدية ضخمة ، وانظر ابن عذاري ط : بيروت ج ١ ص ٣٨٨ - حيث الإشارة في حوليات ٤٠٨ هـ الى حروب عظيمة بين عسكر شرف الدولة (المعز بن باديس) وعسكر حماد .

(٨١) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٢٥٩ .

(٨٢) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٢٥٩ .

(٨٣) العبر ، ج ٦ ص ١٥٨ .

وبنيه قد استقر ، الى جانب الأمر الواقع من الناحية القانونية أيضا . بعد
اتل من سنتين من وفاة باديس أمام أسوار القلعة . وهكذا عندما يتوفى
حماد . بعد حوالي ٩ (تسع) سنوات ، في ٤١٧ هـ / ١٠٢٦ م فإن المعز
يستقبل النبا بما يستحقه من التأثير والأسى اللائق لما يربط بينهما من
صلة القرابة - بصرف النظر عن انها من الدرجة الخامسة - والمصاهرة ،
ويكتب بالتعزية الى ابنه القائد ، اذ المهم أنه : عظم على المعز موته ، كما
يقول ابن الأثير ، لصالح الأمر بينهما ، ولأن الأمور استقامت للمعز من
بعده ، وأدعن أولاد عمه حماد بالطاعة (٨٤) .

عودة النزاع واعتبار سنة ٤٣٣ هـ / ١٠٤٠ م

سنة انفصل بين الدولتين البليكنيتين :

وبطبيعة الحال لم يمنع اقرار السلم بين المنصورية وبين القلعة من
قيام النزاع بين الأسرتين القرينتين ، تماما كما يحدث بين الدول المتجاورة ،
بل والمتباعدة أيضا . وهكذا نجد في الحوليات سنة ٤٣٣ هـ / ٤٠ - ١٠٤١ م
أن المعز يخرج بجيوشه الى قلعة حماد ويضرب عليها حصارا طويلا لمدة
سنتين متتاليتين ، تضيق عليها أثناءها . مع تبرير تلك الأعمال العدائية ضد
الحماديين ، يرجعونهم الى النفاق ، وهو المصطلح الذي يعنى العصيان أو الخروج
عن الطاعة (٨٥) ، وهو ما لا تمدنا المصادر بشيء ما عن موضوعه ، رغم اهتمام
ابن الأثير بذلك وتخصيص عنوان مميز له (٨٦) ، الأمر الذي قد يعنى مجرد
توجهات شخصية أو مزاجية من جانب الطرفين أو أحدهما .

هذا ، ولو أنه يفهم من نص ابن خلدون أن نهاية صراع سنة ٤٣٣ هـ /
٤٠ - ١٠٤١ م كانت في غير صالح المعز ان لم تكن وخيمة بالنسبة له ، من
حيث أن عودة المعز الى إفريقية لم تتبعها محاولة أخرى للدخول في صراع

(٨٤) الكامل ، ج ٩ ص ٣٥٥ ، وقارن النويري ، ص ٣٤٠ - حيث النص على أن وفاة
حماد كانت في صفر ٤١٩ هـ / مارس ١٠٢٨ م ، وأن المعز كتب الى ولده القائد بالتعزية .
وقارن الإعلام لابن الخطيب ، ص ٧٥ وهـ ٢ - حيث النص على موت حماد بموضع تازمرت ،
الذي لعله تازمالت على بعد ٨٠ كم ، جنوب شرق بجاية .
(٨٥) النويري ، ص ٣٤١ ، ابن عذاري ش : بيروت ج ١ ص ٣٩٧ - حيث النص على أن
المعز اتفق ببخني حماد (التتولي) وهو يقصد ابنه القائد .
(٨٦) الكامل ، ج ٩ ص ٣٩٢ - ٣٩٣ - حيث النص بوضوح على خلاف أولاد حماد ،
وعودتهم الى ما كانوا عليه من المصيان والخلاف عليه .

مع الحمادين ، فكان سنة ٤٣٣هـ / ١٠٤٠م هي سنة الفصل بين الدولتين
البلكنيتين ، وليس سنة ٤٠٨هـ / ١٠١٧م ، حسبنا ينص على ذلك ابن خلدون
نفسه .

الاقتصاد والمال والحضارة على عهد المعز بن باديس :

لما كانت قوة الدولة تتمثل في قوة اقتصادها بمعنى غناها وكثرة
الأموال فيها ، من حيث ان المال هو مادة الحياة بالنسبة للدولة وقيمة
مجتمعتها ، اذ على قدر ما يجمعه الناس من المال يكون مستوى المعاش ،
وعلى حسب زيادة هذا المال ونقصانه تكون زيادة المستوى الحضارى
او تدهنه ، وبالتالي ضخامة الملك أو تفاهته . وهنا لا بأس من الاشارة الى
تقييم ابن خلدون لعهد المعز بن باديس ، حيث يقول : « واستمر ملك
المعز يافريقية والقيروان وكان أضخم ملك عرفه البربر بأفريقية » . وأترقه
وأبدخه . « وفي ذلك يعرض لما ينقله الرقيق » من أحوالهم فى الولائم
والهدايا والجنائز والأعطيات ، ما يشهد بذلك . « مثل : ما ذكر من « أن عطية
سندل عامل بأغاية مائة حمل من المال ، وان بعض توابيت الكبراء منهم
كان العود الهندى بمسامير الذهب » (٨٧) .

ومثل هذا الكرم والعطاء كان يجذب الشعراء الى بلاط المعز بن باديس
الذى زها بشاعرى القيروان الشهيرين ، ابن رشيق وابن شرف الى جانب
غيرهما ممن يزخر بنماذج من أشعارهم أنموذج ابن رشيق ، وما وصلنا من
أشعار ابن شرف الذى كان يكتب القصيدة فى غير مسودة كأنه يحفظها ثم
يقوم فينشدتها (الأنموذج ، ص ٣٤٠) ولا شك ان بلاط المعز بشعرائه
بعؤلاء هو الذى كان يعطى سمة عروبة الدولة ، التى بدأت بربرية حتى كان
يلكىن يسير بكاتبه وترجمانه (ما سبق ، ص ٣٠٤) ومن شعراء المعز الذين
تفنوا بعروبة دولة المعز ، ابن الحازن الذى يقول فيه :

وله ذؤابة حمير وسسناؤها وسسنام يعرب الرفيع العالى
ويحل من قحطان أعلى ذروة يعيا محاولها وليس بآل (٨٨)

(٨٧) البر ، ج ٦ ص ١٥٨ . وانظر فيما سبق هامش ص ٢٨١ وهـ ٥ .

(٨٨) أنموذج الزمان لابن رشيق ، تحقيق المطوى ، تونس ١٩٨٦ ، ص ٨١ - وعن

ابن رشيق وابن شرف ، انظر فيما بعد ص ٤٢٧ والهامش ٤٠ .

من مثل هذا الوصف لبعض المظاهر الحضارية في الدولة الزيرية وغيرها ، يخرج ابن خلدون بالعلاقة السببية بين ضخامة الحضارة وكثرة المال ، تماما كما هو الحال بين ضخامة الدولة وكثرة المال ، من حيث ان الدولة هي السوق التي تنفق فيه أسباب الحضارة . وربما كانت أهم الأمثلة لذلك في الدولة الغطمية هي الاحتفالات الشعبية التي كان يشارك فيها الجمهور بكل طبقاته . ومن أشهرها حفلات الختان التي أقامها المعز في كل البلاد من أقصى الصحروات الجنوبية الى صقلية شمالا ، وهي الاحتفالات التي أصبحت تقليدية في كثير من دول الاسلام والتي ورثتها دولة صنهاجة الزيرية . تركة ابوية . ومن الطريف هنا ان المعز ختن وهو أمير صغير في ذى الحجة من سنة ٤٠٧هـ / مائة ١٠١٦م ، « وختن معه من أبناء الضعفاء عدة كثيرة » وأعطوا الكساء والنفقة ، (النويري ، ص ٣٣٨) ، الأمر الذي كان يتطلب الكثير من المال (٨٩) .

الاحتفالات الشعبية والمواكب الأميرية :

وإذا كانت الاحتفالات تتطلب الأموال ، وكذلك الحال بالنسبة للحرب التي يعتبر المال عصبها ، كما يمكن أن تعتبر هي الأخرى مورد المال : فلا بأس من الإشارة هنا الى عودة زاوي بن زيري من جزيرة الأندلس سنة ٤٠٨هـ / ١٠١٧م بعد إقامة طويلة هناك ، حيث « وصل ومعه من الأموال والعدد والجواهر شيء كثير لا يعد » (٩٠) ، وأن تطلب الأمر من المعز الذي سلم عليه راجلا ان « نويش له القصور » . والحقيقة ان الهدايا أيا كانت تمثل بندا هاما من مصادر النفقة والدخل أيضا . وكانت الهدايا الداخلية تأتي في المناسبات المختلفة ، بينما كانت أهم مظان الهدايا الخارجية هي الخلافة بالقاهرة ، وملوك السودان فيما وراء الصحراء ، وملك الروم الذي كانت العلاقة به تتراوح ما بين السلم والصداقة ، والحرب والعداوة . وأهم الهدايا الواردة من السودان تتمثل في : الرقيق الأسود ، والحيوانات الوحشية الغريبة الأشكال والألوان (٩١) . أما ما يذكر من هدايا الروم الجيدة فهو الديباج الفاخر (٩٢) . وكانت استقبالات الوافدين على الأمير من

(٨٩) هنا لا بأس من الإشارة الى ما فعله المعز لدين الله الفاطمي بمناسبة هذا التقليد الذي كان له الفضل في نشره ، ما سبق ، ص ٢٤٢ .

(٩٠) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٢٥٩ .

(٩١) ابن عذاري ، ج ١ ص ٣٩٦ - حيث هدية سنة ٤٢٣هـ / ١٠٣٣م .

(٩٢) ابن عذاري ، ج ١ ص ٣٩٦ - حيث هدية سنة ٤٢٦هـ / ١٠٣٥م .

السفراء أو كبار رجال الدولة أو الزعماء تتطلب إقامة المواكب وتقديم الهدايا من الأموال والتحف والدواب ، سواء كانوا من الأصدقاء أو ممن يراد اكتسابهم أو حتى شراء ذممهم . والمثل لذلك ما حدث سنة ٤٠٨ هـ / ١٠١٧ م ، بعد أسر إبراهيم بن بلكين أخى حماد وشريكه فى الثورة على المعز ، من إطلاق إبراهيم ، بل والخلع عليه واعطائه الهدايا من الأموال والدواب (٩٣) . هذا ، ولو أن الدولة كانت عندما يضيق بها الحال تلجأ الى المصادرة فتتكب انوزير المسئول الأول عن الخزانة العامة ، أو كبار مساعديه فى ديوان الجباية والخراج ، كما حدث للوزير محمد بن الحسن الذى قتل بأمر المعز سنة ٤١٣ هـ / ١٠٢٢ م ، لأنه جبى الأموال مدة ٧ (سبع) سنين ولم يرفع منها شيئا ، كما ظهرت عليه ثروة طائلة فأخذ يبنى البيوت التى لا تليق الا بالملوك ، الأمر الذى شكك فى أمانته ، وإن خيف من سطوته عندما أصبح مركز قوة كمسا يقال الآن (ما سبق ، ص ٤٠١) . وكما نكب سنة ٤٣٣ هـ / ١٠٤١ م محمد بن محمد بن السكاك المتولى لأشغال السيدة أم المعز ، وبذلك استولى على الدولة بمعنى أنه أصبح مركز قوة (ما سبق ، ص ٤٠٤) ، وكذلك الحال بالنسبة للقائد سيف الملك ، عباد بن مروان ، والذى نكب واستخرجت أمواله سنة ٤٤١ هـ / ١٠٤٩ م (ما سبق ، ص ٤٠٥) .

دخل الدولة :

ومما يؤسف له أننا لا نعرف الا النزر اليسير عن دخل الدولة ، الذى يتمثل فى الضرائب المختلفة ، وضرب السكة ، ولا عن نفقاتها باستثناء اشارات عابرة فى بعض الحوليات . والمثل لذلك ما يورده ابن خلدون من أن « أعشار بعض أعمال الساحل بناحية صفاقس ، على عهد المعز ، كان يبلغ ٥٠ (خمسين) ألف قفيز (٩٤) . وإذا كانت كتب الجغرافيا يمكن أن تقدم معلومات مفيدة فى هذا الصدد ، مما يتعلق بالتروات الزراعية والمعدنية فى المملكة الزيرية مع اشارات الى ما كان يجبى منها من ضرائب الخراج ، فإن المعلومة التى كثيرا ما تنقل بالتواتر ، دونما تحقيق زمنى أو تمحيص قد

(٩٣) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٨ - ٢٥٩ .

(٩٤) المعز ، ج ٦ ص ١٥٩ - والمقصود بذلك ضريبة (خراج) الزيت الذى كان بمثابة المحصول النقدى لى المنطقة التى سميت بالساحل لسوادها بالنسبة للقدام من الصحراء ، فكانها ساحل البحر من كثرة شجر الزيتون .

توقع الباحث في الخطط ، عندما يأخذ رواية كاتب معاصر ، تكون في حقيقة الأمر منقولة من عصر سابق . وهكذا يمكن الاستفادة بشئ من الحرص من مسالك البكرى الى جانب نزهة الادريسي وعجائب الاستبصار ، وربما رحلة التجاني وجغرافية ابن سعيد .

الشروات الزراعية :

ففيما يتعلق بالشروات الزراعية توصف أشير بأنه ليس في تلك الأقطار أحسن منها ، حيث تحيط بها الجبال الشامخة ، وتتوفر المياه في العيون (٩٥) . ويوصف جبل ميلة بأنه أخصب جبال افريقية على الطريق المؤدى الى قلعة أبي طويل التي عرفت باسم قلعة حماد (٩٦) . ومدينة جيجل حيث جبل كتامة الكثير الخصب كان يحمل منها الفواكه والرب الى بجاية (٩٧) . وبجاية كان يدور بها البحر من ٣ (ثلاث) جهات : شرق وغرب وجنوب ، فكانت مرسى دوليا تأتيه المراكب بالخير والمتاجر من اليمن والهند والصين ، وهي مظلة على فحس خصب قد أحاطت به الجبال ، دورة حوالي ١٠ أميال ، ولها نهر كبير على نحو الميلى ، بها المياه الكثيرة التي تدور عليها النواير ، كما اشتهر بها جبل ميسون بمياهه السائجة وبساتينه وكثرة القرود فيه (٩٨) . وكذلك الحال بالنسبة لقلعة حماد ، الكثيرة المياه والتي كان قصرها الفخم يشرف على نهر كبير (٩٩) .

أما عن مليانة القريبة من أشير فكان لها مياه سائجة وأنهار وبساتين فيها جميع الفواكه ، ويشق نهر شلف فحوصها (١٠٠) ، واشتهرت منطقة قلعة دلول ، على بعد يومين من مستغانم ، وعلى البحر قرب مصب نهر شلف ، بوجود أقطانها (١٠١) . والحقيقة ان منطقة وادي شلف من المغرب الأوسط حيث مدينة تاهرت كانت غنية بمدنها التي اشتهرت بأنها أسواق ، مثل :

(٩٥) الاستبصار ، ص ١٧٠ .

(٩٦) البكرى ، ص ٨٢ ، الاستبصار ، ص ١٦٦ .

(٩٧) الاستبصار ، ص ١٢٨ .

(٩٨) الاستبصار ، ص ١٣٠ .

(٩٩) الاستبصار ، ص ١٦٨ .

(١٠٠) الاستبصار ، ص ١٧١ ، وقارن البكرى ، ص ٦٩ .

(١٠١) البكرى ، ص ٦٩ .

سوق حمزة وسوق ماكسن اللتين كانتا لصناعات (١٠٢) ، وسوق إبراهيم القريبة من تنس (١٠٣) . ولقد اشتهرت تاهرت بجودة جميع الثمار فيها ، وبأسواقها العامرة (١٠٤) ، بينما اشتهر فحصر زيدور ، من مدينة أرشجول ، بكثرة القمح (١٠٥) ، وكان ينكور أجود أنواع الخشب من العرعر والأرز (١٠٦) .

الثروات المعدنية :

واذ كان من المعروف أن بلاد الاسلام كانت قليلة الثروات المعدنية . فان بعض بلاد افريقية والمغرب الأوسط اشتهرت بمعادنها ، والمثل لذلك مرماجة ، ومعانة التي عرفت بمعانة المعدن (١٠٧) ، وجزيرة جربة الكثيرة الذهب (١٠٨) ، ومرسى سببية حيث معادن النحاس (١٠٩) .

المكاييل والموازين والتقود :

ومما يدل على غنى بلاد افريقية والمغرب الأوسط وبخاصة المنتجات الزراعية ، أن وحدات قياس الكيل والميزان عندهم كانت تفوق جرما مثيلاتها في البلاد الاخرى . ويظهر ذلك في بلد تنكور من ساحل تلمسان ، حيث كيل الصفحة عندهم ٢٥ مدا ، والرطل ٢٢ أوقية ، والقنطار ١٠٠ رطل - ربما أزيد من غيرهم . أما عملتهم الدارجة فكانت الدراهم التي يتبادلها الناس عددا بلا وزن (١١٠) . أما عن السكة ، فلا شك أنها كانت من موارد بيت المال النجاة ، الأمر الذي يتضح من عملية تبديل السكة الفاطمية سنة ٤٤١ هـ / ١٠٤٩ م ، ورفع أسماء خلفاء القسامة منها ، حيث سبكت الدنانير الفاطمية وكانت أموالا عظيمة ، كما ضربت دراهم جديدة بدون أسماء العبيديين ، الأمر الذي لم يؤثر على مستوى التعامل في أسواق القيروان ، كما يظهر من

- (١٠٢) البكرى ، ص ٦٥
- (١٠٣) البكرى ، ص ٦٢
- (١٠٤) البكرى ، ص ٦٨
- (١٠٥) الاستبصار ، ص ١٣٤
- (١٠٦) البكرى ، ص ٩٠
- (١٠٧) البكرى ، ص ١٤٥
- (١٠٨) البكرى ، ص ٨٥
- (١٠٩) البكرى ، ص ٨٢
- (١١٠) البكرى ، ص ٩١

نص ابن عذاري (١١١) .

ومثل هذا يقال عن تاهرت حيث كان المد عندهم ب $\frac{٥}{٢}$ أفزة قرطبية ، وقنطار الزيت بقنطار وثنتين - إلا المجلوب من القليل وغيره ، فقد كان قنطار عدل . أما برطل اللحم عندهم فهو ٥ (خمسة) أرتال (١١٢) ، الأمر الذي يعنى الخصب والرخاء ، أو ارتفاع مستوى المعيشة ، كما يقال في المصطلح الدارج الآن .

الكوارث الطبيعية :

والى جانب عوامل الازدهار الاقتصادي والحضارى هذه ، كانت هناك عوامل معوقة من : الكوارث الطبيعية والمجاعات والأوبئة ، مما كانت له آثاره السلبية في الظروف الاقتصادية والأحوال الاجتماعية . فالمتتبع لحوليات ابن عذاري يلاحظ بعض السنوات العجاف التى مرت بالبلاد على عهد المعز ابن باديس ، كذلك الغلاء الذى أصاب إفريقية سنة ٤٠٩ هـ / ١٠١٨ م ، والذى صاحبه حروب كثيرة ، بمعنى فتن محلية فى مختلف الأقاليم (١١٣) . ففى سنة ٤١١ هـ / ٢٠ - ١٠٢١ م جاءت سخابة شديدة الرعد فأمطرت بردا كقطع الحجارة ، لم ير أهبل إفريقية مثله الكبيره وكثرته ، ووقعت منه صاعقتان ، دون أضرار مادية أو خسائر بشرية (١١٤) . أما عن سنة ٤٢٢ هـ / ١٠٣١ م فقد تميزت بأنها كانت سنة خصب ورخاء وأمان ، وكذلك سنة ٤٣٠ هـ / ٣٨ - ١١٣٩ م (١١٥) . بينما كانت سنة ٤٢٥ هـ / ٣ - ١٠٣٤ م ، سنة جلد ومجاعة (١١٦) . أما عن سنة ٤٣٧ هـ / ٤٥ - ١٠٤٦ م ، فقد اشتعلت فيها الرياح العاصفة فتمرت كل ما مرت به من شجر (١١٧) .

(١١١) ما سبق ، ص ٣٩١ وما يأتى من ٤١٦ - وقارن ادريس (عادى روجيه) بلاد البربر الشرقية تحت حكم الزيريين بالفرنسية ، ج ١ ص ١٩٠ - حيث مكان القرب الجديد بصحيرة (المنصورية) بدل القرون والمهدية .

(١١٢) البكرى ، ص ٦٨ .

(١١٣) البيان ، ط : بيروت ج ١ ص ٣٨٨ .

(١١٤) ابن عذاري ، ط : بيروت ج ١ ص ٣٨٨ .

(١١٥) البيان ، ط : بيروت ج ١ ص ٣٩٦ .

(١١٦) البيان ، ط : بيروت ، ص ٣٩٦ .

(١١٧) البيان ، ط : بيروت ج ١ ص ٣٩٨ .

أشهر الأعمال العمرانية :

أما عن أشهر الأعمال العمرانية التي تمت على عهد المعز ، فيذكر بناء
مضلع العيد بالمنصورة سنة ٤٤١هـ / ٤٩ - ١٠٥٠ (١١٨) . وفي السنة
التالية حيث لعن الفاطميون على منابر أفريقية ، أحدثت بالمناسبة بعض
الاصلاحات النقدية من ضرب دينار سمي بالتجاري (١١٩) ، ربما لكي يحل
في الأسواق محل الدينار الفاطمي الذي ألغي . هذا ولو ان ابن شرف
(القيرواني) يعرفنا بتبديل السكة في شهر شعبان من تلك السنة (٤٤١هـ) .
ديسمبر ٤٩ - ١١٥١ ، حيث نقش على وجه الدينار : « ومن يتبع غير
الاسلام دينا فلن يقبل منه ، وهو في الآخرة من الخاسرين » . وفي الوجه
الثاني : « لا اله الا الله محمده رسول الله » . والمهم ان دار السكة تلافى
حدوث أزمة نقدية عند إلغاء العملة الفاطمية وسك الجديدة ، إذ ضربت أعدادا
كثيرة من الدينار الجديد بفضل سك ما كان موجودا في بيت المال من
الدينار الفاطمية القديمة . وبذلك انقطعت أسماء خلفاء الفاطميين من
النقود ، كما قطعت أسماؤهم أيضا من الرايات والبنود (١٢٠) .

الاحتفال بولاية العهد تميم :

وفي السنة التالية ، ٤٤٢هـ / ١٠٥٠م ، كانت الاحتفالات بمناسبة
تولية العيد للأمير تميم بن المعز ، وكانت مناسبة الدعاء للمعز وللأمير
تميم أبي الطاهر وفي عهده فرصة للدعاء بأن يحفظه الله من كفر معه بن
الظاهر ، صاحب مصر ، وهو المستنصر بالله (١٢١) . ولا شك أن تجديد
السكة ولعن المستنصر خليفة القاهرة من أعلى منبر القيروان كان يزيل
من الأزمة الفاطمية بأفريقية ، على مستوياتها السياسية والاقتصادية لمسا بين
المجاليين من تأثيرات ايجابية وسلبية ، وذلك في الوقت الذي كانت تتعرض
فيه البلاد للموجات الأولى من الهجرة الهلالية .

(١١٨) ابن عذاري ، ج ١ ط : بيروت ، ص ٤٠٢ .

(١١٩) ابن عذاري ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٤٠٢ .

(١٢٠) ابن عذاري ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٤٠٢ - حيث النص على أن أول سكة

عبيدية ضربت في أفريقية ، في نفس الوقت الذي رست أسماؤهم على الرايات والبنود ،
كان في سنة ٢٩٦هـ / ٩٠٨م ، يعتبر أنها استمرت مدة ١٤٥ عاما عندما قطعت في سنة
٤٤١هـ / ١٠٤٩م . وانظر الاعلام لابن الخليل ، ص ٧٢ . حيث النص على إزالة أسماء
الفاطميين من السكة سنة ٤٤١هـ / ٩٤٩م ، ونقص الآية « ومن يتبع غير الاسلام دينا فلن
يقبل منه » . وهو في الآخرة من الخاسرين » - آل عمران سورة ٣ آية ٨٥ .

(١٢١) ابن عذاري ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٤٠٤ .

العرب الهلالية في أفريقية والمغرب

الهجرة :

الشائع لدى المؤرخين أن الهجرة الهلالية الى بلاد المغرب ، بكل ما كان لها من تأثيرات عرقية وسياسية واقتصادية أو حضارية على الجملة ، إنما بدأت نتيجة للقطيعة الدينية السياسية بين الخلافة الفاطمية في القساهرة وبين نوابها الزيريين في القيروان ، وذلك ابتداء من سنة ٣٣٥هـ / ٩٤٦م . حيث كان الاتصال بخلافة بغداد العباسية لأول مرة - كبديل شرعي لخلافة القساهرة الفاطمية ، الأمر الذي بلغ مداه سنة ٤٤٢هـ / ١٠٥٠م عندما انطلقت قبائل بنى هلال مع قبائل بنى سليم من صحراء صعيد مصر الشرقية ، عبر النيل نحو المغرب (ما سبق ، ص ٣٩٣) . وهي الرحلة التي تعرف في القصة الشعبية باسم « التفرية » الهلالية .

وأصل مواطن قبائل عرب هلال وسليم هي بلاد الحجاز وبعض تخوم نجد (١) . فهي قبائل بدوية ، رعوية ، تنسب الى عرب الشمال العدنانية التي تعيش عيشة فقيرة مضطربة ، تضطربها في بعض الأحيان الى احترام الغارة على الجيران أو قطع السبيل حتى على قوافل الحجاج ، وعلى مسكة أثناء الموسم (٢) . وهو ما شاركت فيه القرامطة أكثر من مرة خلال النصف الأول من القرن الرابع الهجري / ١٠م ، وأشهرها تلك التي استولى فيها القرامطة على الحجر الأسود سنة ٣١٧هـ / ٩٢٩م (ما سبق ، ص ٢٠٨) - والمهم

(١) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٣ - حيث الإشارة الى محلاتهم من بعد الحجاز بنجد - حيث كان الهلالية في جبل غزدان قريبا من الطائف ، بينما كان بنو سليم مما يلي المدينة - الأمر الذي دعا لقصة الشعبية التي تناولت تفرية الهلالية أن تجعل بدايتها من الحجاز بدلا من الصعيد ، بل ومع أمير مسكة الشريف الذي أصبح سبورا لهم عندما تزوج شابتهم الجميلة . « المجازية » ، الكلمة ، واشتركا بذلك في قصة حب عظيم من ذلك النوع الذي يفضي الزوج ويبيت الجسد ، سبعا جسدهما شراؤهم - انظر فيما سبق ، ص ٤٩ وما بعدها .

(٢) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٣ - حيث توافقهم أثناء رحلة الشتاء والصيف بأطراف العراق والشام وأغارهم على الفواحي والفساد السائلة ، والقطع على الرغاق (التجار) مع الإشارة الى غارة بنو سليم على الحاج أيام الموسم بمسكة ، وأيام الزيادة بالمدينة ، والى تحيز بنو سليم مع الكثير من قبائل ربيعة ابن عامر الى القرامطة عند ظهورهم .

أن الفاطميين يعد ما استقروا في مصر ودخلوا في صراع مع القرامطة في بلاد الشام نجحوا في إبعاد القبائل الهلالية إلى صحراء مصر الشرقية على سمت بلاد الصعيد ، حيث فرضوا عليهم نوعا من الإقامة الجبرية (٣) ، في تلك المنطقة التي عاشت فيها من قبل عرب ربيعة الذين كانوا يعملون في مناجم (معادن) الذهب والزمرد (٤) ، حيث نطن أن أسلافهم العرب أتوا إلى تلك المنطقة عبورا للبحر الأحمر منذ ما قبل الإسلام (٥) .

التعريف بالهلالية ما بين الحقيقة والخيال :

ولقد اجتهد ابن خلدون في التعريف بزعماء الهلالية وقتئذ ، مقتنيا أثر ابن الأثير ، وصفهم حسب الشرف ، وتبعاً لأصالة العروق مع المقابلة بين قبائلهم على أيامه في القرن الثامن الهجري / ١٤ م . وتلك القبائل تشمل الهلالية وغيرهم من القبائل . وكانت أهم جماعات هلال (بن عامر) في محلاتهم بصعيد مصر ، وقتئذ هي : جشم والأثيج وزغبة ورياح وربيعة وعدى (٦) . أما عن أهم زعمائهم الذين دخلوا بهم أفريقية حسبما تغنى بهم شعراؤهم ، من : حسن بن سرحان ، أشرفهم ، وهو أخو الجازية ، بطلة قصة التخريب الهلالية الشعبية التي رفعت من ذكره من حيث أنه زوجها

(٣) ابن عذاري ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٤٢٥ . ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٢ - هذا وإن كان ابن خلدون ينسب ذلك إلى عبيد الله المهدي ، بدلا من الحسن لدين الله ، كما يكتفى بالقول بأنه نقل أشياعهم من العرب من بني هلال وبني سليم فانزلهم بالصعيد ، وفي العندوة الشرقية .

(٤) الاستبصار ، ص ٨٥ - ٨٦ .

(٥) أنظر للمؤلف تاريخ العرب قبل الإسلام ، بيروت ص ١٩٧٥ . ص ٢٦٠ وما بعدها . والخريطة رقم ١٣ ص ٢٦٩ - عن ابن خلدون . هذا ولا بأس أن يكون الهلالية أو بعضهم على الأقل ، قد دخلوا صحراء الصعيد الشرقية عن هذا الطريق ، حيث لا توضح النصوص السارية التي دخلوا بها مصر من بلاد الشام على أيدي الفاطميين ، الأمر الذي يفتح الباب واسعا أمام هذا الاحتمال .

(٦) العرب ، ج ٦ ص ١٤ - حيث « الأثير » بدلا من الأثيج ، وحيث النص بعد ذلك على أن شعوبهم الهلالية ، كما نقلهم ابن خلدون ، هم : زغبة - ورياح - والأثيج وقرة . التي يضيفها هنا ، مع الإشارة إلى أنه ربما أضيفت إليها عدى الذين لم يقف على أخبارهم من حيث أنه ليس لهم حي معروف على أيامه ويرى أنهم ربما دثروا . ومثل هذا يقوله عن ربيعة أيضا إذ يرى أنهم ربما كانوا الملقب على أيامه . وقارن ابن عذاري ، ط : بيروت ج ١ ص ٤٢٥ - حيث النص على بطون عامر بن صعصعة ، من : زغبة وعدى والأثيج ورياح وغيرهم .

للشريف هاشم صاحب مكة (٧) ، وأخوه بدر بن سرحان ، ثم فضل بن ناضض ، ثالثهم ، وهم من : دريد الأثيج . ثم يأتي ثلاثة آخر من بني عطية من كرفة ، وهم : ماضى بن مقرب ، وبنوثة بن قرة ، وسلامة بن رزق . وفي بني ثور يأتي : ديساب بن غسانم ، وحده ، وكذلك الأمر بالنسبة لخونس بن يحيى المرداسي الرياحي ، من بني صفر ، من بني مرداس (٨) .

والى جانب الهلالية هناك ذكر لأبطال ترجع أصولهم الى عرب اليمن القحطانية ، مثل : زيد بن زيدان الذي ينسب الى الضحاك ، ومليحان بن عباس الذي ينسب الى حمير ، ومثل : زيد القحاج بن فاضل الذي قيل انه مات بالحجاز في بداية التغريبة ، قبيل الدخول الى افريقية (٩) .

ويمكن القول ان ثلاثة من بين هؤلاء السادة المشايخ ، زعماء الهلالية ، لهم ذكر يفوق غيرهم ، بفضل خصائصهم التي صارت مغايرة لشعراء قبائلهم ، وهم : حسن بن سرحان أولهم ، ومؤنس بن يحيى سابغهم ثم زياد بن عامر ، وآخرهم ، والذي تقول فيه رواية ابن خلدون انه كان رائدهم في دخول افريقية ويسمونه لهذا السبب «أبا مخبير» (١٠) .

تهجيرهم من الصعيد ما بين الجرجاني واليازوري :

والمهم ان قبائل الهلالية هذه عاشت في صحراء الصعيد الشرقية ، تحت رقابة الدولة ، فهذا ما يفهم من النص الذي يقول انه كان «لا يسمح لها بالرحيل ولا باجازه النيل» (١١) . وهنا نشور مشكلة خاصة بشخصية

(٧) انظر المبر ، ج ٦ ص ١٨ .

(٨) المبر ، ج ٦ ص ١٦ - حيث موسى في النص بدلا من مؤنس ، وكذلك النص على انه من بني مرداس بن رياح لا مرداس بن سليم ، مع التحذير من الخلط في هذا .
(٩) هذا كما يرد ذكر لكثير من العروق غير الهلالية ، مثل : فزارة واشجع من بطون غطفان ، وجشم ابن معاوية بن بكر من موزان ، وسلول بن مرة بن صمصمة بن معاوية ، والمثقل من بطون اليمنية ، وعمرة بن أسد بن ربيعة بن نزار ، وبنو ثور بن معاوية بن عباد ٠٠ بن صمصمة ، وعدوان بن عمر بن قيس بن عيلان ، وطروود بن نهم بن فيس . ولكن المهم هنا هو ان جميع هؤلاء ، رغم اختلافاتهم العرقية ، كانوا يدرجون في طائفة بني الأثيج الذين كانت لهم الرئاسة ، فكان الهلالية أو الأثيج اتحاد سياسي من جماعات من القبائل المختلفة يحمل اسم اقواها وأهمها على المستوى السياسي والمسكري - المبر ، ج ٦ ص ١٦ .

(١٠) المبر ، ج ٦ ص ١٦ .

(١١) ابن عذاري ، ط : بيروت ج ١ ص ٤٢٥ .

الوزير الذي دبر عبورهم النيل وتوجيههم نحو المغرب . فرغم ما هو دارج من ان الذي فعل ذلك هو الوزير اليازوري (أبو محمد الحسن بن علي) . الفلسطيني أصلا ، والذي أراد أن يجدد شباب الوزارة الفاطمية . وبالتالي هيبتها ، بالنسبة لنواب الخلافة سواء في الشام أو في المغرب وأفريقية . فأنتهى الأمر الى عكس ما أراد ، اذ حنق عليه ثمال بن صالح ، صاحب حلب ، والمعز بن باديس صاحب أفريقية ، وانحرفوا عنه (١٢) . فان هناك روايات أخرى تنسب ذلك الى الوزير أبي القاسم الجرجاني ، استنادا الى ان القطيعة مع الفاطميين ، والدعوة الى العباسيين وقعت سنة ٤٣٥هـ / ١٠٤٣م ، على أيام وزارته ، وهو الأمر الصحيح ، الذي ينص عليه ابن خلدون (١٣) . والحقيقة انه اذا كان ابن خلدون قد نقض ذلك بعد ، على أساس أن الجرجاني كان قد توفي سنة ٤٣٦هـ / ١٠٤٤م وحل محله في الوزارة اليازوري الذي حلف المعز بن باديس بسببه : « لينقض طاعتهم ، وليجولن الدعوة الى بني عباس » ، كما « قطع أسمائهم من الطراز والرايات وباع القائم (العباسي) ودعا له سنة ٤٣٧هـ / ١٠٤٥م ، عندما وصله أبو الفضل البغدادي ، وحظي بالتقليد الذي قرى به جامع القيروان ، وبالحلج (١٤) ، بينما كان بدء الهجرة الهلالية سنة ٤٤٠هـ / ١٠٤٨م ، والتي تليها ٤٤١هـ / ١٠٤٩م (انظر فيما سبق ، ص ٣٨٨) ، فالصحيح ، اعتمادا على دراسة تفصيلات ابن خلدون ، أن الدعوة للعباسيين بدأت سنة ٤٣٥هـ / ١٠٤٣م ، وان الحلج والرايات ، شعاعات الامارة الافريقية العباسية وصلت عن طريق بين زطة سنة ٤٣٧هـ / ١٠٤٥م ، في الوقت الذي استمرت فيه المداورة بين الطرفين الى أن تمت القطيعة النهائية ، واتخاذ اللون الأسود شعاعا للعباسيين سنة ٤٤٣هـ / ١٠٥١م (١٥) . وبذلك يمكن التوفيق بين الروايتين اللتين تنسيان سبب «القطيعة الى كل من الجرجاني واليازوري ، من حيث الدعوة للعباسيين وقطع الخطبة للفاطميين سنة ٤٣٥هـ / ١٠٤٣م ، أيام وزارة الجرجاني ، قبل وفاته سنة ٤٣٦هـ / ١٠٤٤م ، وهنا لا بأس أن يكون التفكير في اطلاق العرب على

(١٢) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٣ .

(١٣) انظر فيما سبق ، ص ٣٨٩ .

(١٤) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٤ .

(١٥) ما سبق ، ص ٣٩٣ ، انظر ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٣ - حيث النص بعد قتل الشيعة ، والمناذرة بشعار الاسلام ، على اخفاء الظاهر عن المعز من ذلك وابنه المستنصر من بعده ، واعتماد المعز بالامة ، الأمر الذي قبل منه ، فاستمر على اقامة الدعوة والمهادنة ومكانة وزيرها الجرجاني - وهو ما نراه نوعا من المداورة وليس عودة للامانة .

صنهاجة من رأيه ، وإن لم يتم التنفيذ إلا فيما بعد - اثر فشل سياسة
المداورة بمعنى المداورة - على يدى اليازورى (١٦) . ويرجع ذلك الافتراض
أن قصة نار اليازورى ، لما لحق به من الاهانة ، تعتبر تبريرا شخصيا غير
مقنع بالنسبة لأحداث خطيرة ، قررت مصير كثير من الدول والشعوب فى
بلاد المغرب ومصر والشام لأزمان طويلة (١٧) .

اليازورى يشير على المستنصر باصطناع العرب والعهد لهم بولاية أفريقية :

والهمس هو أن الوزير اليازورى أشار ، فى سنة ٤٤٠هـ / ١٠٤٨م على
الخليفة المستنصر بالله باصطناع العرب عن طريق تقريب مشايخهم ، والعهد
لهم بولاية أفريقية بدلا من أمراء القروان الزيريين الخارجين عليهم ، وتم الأمر
بتقليد هم أمراها - بنطق شفقوى على ما يظن - ولم يكن فى الأمر مغامرة
إذ كانت العملية محسوبة بطريقة لا تقبل الخطأ . وذلك أنه إذا صحت الفكرة
التي تخيلها الوزير ، وظفر الأهالية بالمعز بن باديس وعصبته صنهاجة ،
« كانوا (العرب) أولياء للدعوة وعمالا ، وارتفع عدوانهم » الذى كان يعانى
منه أهل الصعيد ، وبالتالي ما كان يسبب للدولة من القلق ، « وإن كانت
الأخرى قلها ما بعدها » (١٨) . وفى السنة التالية ٤٤١هـ / ١٠٤٩م كان

(١٦) وفى ذلك تقول بعض الروايات أن المعز الذى كان يتفوق الشعر والأدب ، أراد
أن يوقع بين الجرجاني ، على أساس أنه صاحب الدعوة إلى الانتقام منه ، وبين الخليفة
« المستنصر » ، وذلك بالتفويض دون التصريح ، فأرسل إليه بيتا من الشعر يقول :

ولولاك ما كنت أدري أنهم خلقتوا

ولكن المكيدة لم تغب عن الجرجاني الذى قال :
« لا تعجبون من صبي يريرى مغربى يحب أن يخدع شيئا عربيا عراقيا (الخناس ،
ص ٨٤ ، وقارن التذكار لابن غلبون ، ص ٢٧) »
(١٧) أنظر التويرى ، ص ٣٤٢ - حيث النص على أن المستنصر كتب إلى المعز بن باديس
يرغبه ويهدده عندما خطب للقائم العباسى ، وأنه عندما استوزر اليازورى لقبه بـ « سبه
الوزراء وقاضى القضاة ، وداعى الدعاة » ، الأمر الذى لم يقبله المعز بن باديس فاستنم
من مخاطبته بما كان يخاطب به الوزراء ، قبله ، وقارن انعطاف الحنفا ، ج ٢ ص ١١٢ - حيث
صدره السجل الخلفى سنة ٤٤٢هـ / ١٠٥٠م بوزارة اليازورى مع لقب سيد الوزراء واجابة
ملوك الأطراف على مكاتباته إلا معز الدولة ابن باديس الذى قصر فى المكاتبه حتى أن الوزير
« استدعى أبا القاسم ابن الاخوة وكبل ابن باديس بمصر ، وعتب عنده »
(١٨) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٤ .

رسول اليازورى مكنى الدولة أبو على الحسن بن على ، أحمد أمراء الدولة (اتعاظ الخنفا ، ج ٢ ص ٢١٥) يدور بأمر المستنصر ، على أحياء الهلالية ليتأكد من تنفيذ الخطة ، حسبما رسمت ، فيبدأ باصلاح ذات البين بين زغبة ورياح ، ويجزل العطاء لامراتهم ويخصص لكل رجل من العامة معبرا ودينارا ، مع السماح لهم بعبور النيل من ضفته الشرقية الى الغربية ، مع الاذن بالمسير الى المغرب الذى أعطى لهم بدلا من المعسر بن باديس ، المتهم بالعصيان والخروج على أمير المؤمنين ، مع ملك كل ما يستطيعون فتحه من البلاد هناك مع الوعد بالمسد (١٩) .

نجاح الرحلة الى برقة ، وتقسيم البلاد بين سليم شرقا ، وهلال غربا :

وحققت الرحلة بالنسبة للهلالية نجاحا كبيرا ، اذ سرعان ما وصلوا الى برقة ، التى استوطنوها اعتبارا من سنة ٤٤٢ هـ / ١٠٥٠ م ، حيث وجدوا بلادا طيبة كثيرة الموى خالية من الأهل ، بسبب حجرة الزناتية منها أمام ضغط صنهاجة (٢٠) . والمهم أن ذلك النجاح الذى حققه الهلالية فى برقة - بمساعدة اخواتهم من بقايا عرب الفتوح الذين كانوا هناك - حسسهم ، فكتبوا الى اخوانهم شرقى النيل يرغبونهم فى البلاد . وكانت فرصة استغلالها السلطات الفاطمية هناك ، فبعد أن كانوا يدفعون لكل رجل يعبر النيل الى الغرب دينارا ، صاروا يأخذون منهم ضريبة مقدارها

(١٩) أنظر ابن الأثير ، ج ٩ ص ٥٦٦ ، أحداث سنة ٤٤٢ م / ١٠٥٠ م ، وقسارن ابن عذارى ، ط : بيروت ٦١ ص ٤١٧ - حيث النص على انه جاز منهم خلق عظيم . . . لعنه الله لا يحتاجون الى وصية ، والنورى ، ص ٢٤٢ - حيث النص على أن اليازورى دس الى زغبة ورياح ووصلهم بصيلات سنية ، وأصلح بين الفئتين بعد فتن وحروب ، وأنظر ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٤ - حيث النص على أن الوزير الفاطمى قال لهم : « قد أعطيتكم المغرب وملك المعز بن بلكين (باديس بن المنصور بن بلكين) الصنهاجى ، المعيد الأبقى . . فلا تفترون . هذا ، كما تتفق الروايات على أن اليازورى كتب الى المعز بن باديس بالقيروان : « اما بعد فقد أنفذنا اليكم شيولا فحولا ، وأرسلنا عليها رجلا كهولا ليقتل الله أمرا كان مفعولا » .

(٢٠) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٥٦٧ - حيث النص على أن زنانة كانوا أهل برقة ، وأن المعز بن باديس هو الذى آبادهم ، والمنصور بذلك هم الزيريون ملوك القيروان وليس المعز وحده ، منذ بداية أمرهم مع الإشارة الى أن العرب عاشوا فى أطراف البلاد . وقارن النورى ، ص ٣٤٣ - حيث نفس الرواية ، وابن خلدون ، ج ٦ ص ١٤ - حيث النص على أنهم نزلوا برقة وافتتحوا أمصارها واستباحوها ، المقرئى ، اتعاظ الخنفا ، ج ٢ ص ٢١٥ - حيث ملكوه برقة .

دينارين ، فاستعادوا ما كان أخذ منهم أضساعافا ، كما تقول رواية ابن خلدون (٢١) . ومع زيادة أعداد المهاجرين مع مرور الوقت ، كان من الطبيعي أن تزداد أعمال الافساد وتخريب . وفي ذلك تقول الرواية : انهم خربوا المدينة (أى برقة : المرج حاليا) وأجنادية وسرت ، حيث أقامت قبائل لهب من سليم وأحلافها من : رواحة وناصرة وعمرة (٢٢) . والظاهر أن فكرة الشر والفساد التى غلبت على الكتاب بالنسبة لأعمال الهلالية فى بلاد القيروان ، هى التى أملت فكرة انهم لم يدخلوا البلاد حسب خطة موضوعة بل نتيجة للفرقة التى جعلت من نصيب قبائل سليم : القسم الشرقى من البلاد ، و لهلال القسم الغربى منها (٢٣) . بينما الصحيح أن الهلالية كانوا الطرف الأقوى فى حلف القبائل العربية ، ولهذا كن لهم فضل التقدم نحو الغرب يتبعهم الآخرون ممن ساروا فى أثرهم من سليم وغيرهم ، وهم الذين كان القسم الشرقى من البلاد من نصيبهم . وهكذا وصفت الرواية قبائل هلال التى اندفعت غربا مكتسحة برقة وطرابلس قبل أفريقية التى وصلتها سنة ٤٤٣ هـ / ١٠٥١ م ، وهى : دياب وعوف وزغبة ، وكانها الجراد المنشتر (٢٤) .

مؤنس بن يحيى الرياحى أول الرواد :

وهنا تقول رواية ابن خلدون ان أول من وصل اليهم ، أى الى أفريقية ، هو مؤنس بن يحيى أمير رياح الذى تصفه رواية ابن عذارى بأنه كان سيدا قى قومه ، شجاعا عاقلا (٢٥) ، وأن المعز بن باديس حاول أن يكتسبه الى جانبه ، فلم يكتف باستمالته والاحسان اليه ، بل إنه حالفه بالمصاهرة ، فزوجه إحدى بناته ، بل وذهبت الظنون بعيدا بالمعز الى حد أنه فكر فى

(٢١) المعبر ، ج ٦ ص ١٤ . ص ١٥ (عن بقايا عرب الفتوح) .

(٢٢) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٤ .

(٢٣) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٤ . وقارن اتعاظ الخلفا ، ج ٢ ص ٢١٨ - حيث يجعل المقرئى تقسيم البلاد حسب خطة الخليفة المستنصر الذى جعل لمؤنس القيروان وباجة ، ولزغبة طرابلس وقابس ، وللمحسن بن مسرة ولاية قسنطينة -

(٢٤) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٤ .

(٢٥) ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٤١٧ - حيث الاسم الذى اخذنا به : مؤنس بن يحيى الرياحى ، وأن قدمه كان بعد أيام مضت من الإقامة بتاجية برقة ، وهو الأمر المقبول ، وقارن ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٤ - حيث الاسم موسى (بدلا من مؤنس) بن يحيى (الصنبرى) .

الاستفادة من الهلالية في تقوية مركزه في مواجهة منافسيه من أبناء عمومته ، بنى حماد أصحاب القلعة ، ففاوض مؤنس بن يحيى في استدعاء العرب الذين أتوا ، وكانهم الجراد المنتشر ، كما تقول رواية ابن خلدون ، « وأظهروا الفساد في الأرض ، ونادوا بشعار الخليفة المستنصر الفاطمي » (٣٦) -

عرب برقة الى جانب المعز ضد المستنصر :

والظاهرة أن العلاقة بين عرب برقة الذين كانوا قد استوطنوا البلاد من قبل والهلالية لم تكن قد استقرت بعد . فبينما تعاطف البعض منهم مع القادمين الجدد من بنى جلدتهم وراوا أن يشاركوهم في المغامرة ، رأى آخرون أن مصالحتهم تقتضي الوقوف الى جانب أمير القيروان ، حليفهم وحاميهم . وهكذا فبينما كان الهلالية يصلون الى تخوم أفريقية سنة ٤٤٣ هـ / ١٠٥١ م . كان زعيم عرب برقة وهو : الأمير جبارة بن مختار ، يعلن السمع والطاعة للمعز بن باديس ، وكذلك اخوانه وأهل برقة ، وأنهم أحرقوا المناير التي كان يدعى علينا للعبيدية ، كما أحرقوا راياتهم وتبرأوا منهم ولمنوهم على منابرهم ، ودعوا للقائم العباسي (٣٧) .

ولما كان شيخهم على أيام الحاكم بأمر الله الفاطمي ، هو مختار بن القاسم ، فإنه يكون والد جبارة بن مختار ، زعيم برقة الموالي للمعز بن باديس (٣٨) . أما أثناء الهجرة الهلالية فكان من شيوخ هلالية برقة : ماضى ابن مقرب (٣٩) الذي ذاع صيته في القصة الشعبية كالزوج الشساني الذي

(٣٦) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٤ - ١٥ ، خازن ابن عذاري ، ط : بيروت ج ١ ص ٤١٧ - حيث النص على أن مؤنسا عاد في ركب من الرياضية بنى عمه ، « لم يبعدوا نعمة ولا طالموا حاضرة .. » كلما انتهوا الى قرية تنادوا هذه القيروان ونهبوها من حينها » .

(٣٧) ابن عذاري ، ط : بيروت ج ١ ص ٤١٦ .

(٣٨) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٧ - حيث الإشارة الى مشاركة مختار بن القاسم في الوقوف ضد العسكر الفاطمي الذي أرسله الحاكم بقيادة يحيى بن الأندلس الى طرابلس ، الأمر الذي يفسر كيف انتقم منهم الحاكم سنة ٣٩٤ هـ / ١٠٠٣ عندما أعطاهم الأمان ثم قتلهم وغنمهم عندما وصلوا الى الاسكندرية ، مع الإشارة الى انقاذهم على عهد باديس بن المنصور حيث اعترضوا هديته الى مصر .

(٣٩) البر ، ج ٦ ص ١٨ .

أعقب الشريف على « الجازية » (٣٠) .

وإبن خلدون يرى أن عرب برقة هؤلاء ، من المواليين لأمير القيروان ، وهم في الحقيقة من طلائع العرب الذين دخلوا إلى البلاد منذ أيام الحاكم بأمر الله ، بل وهم الذين شاركوا في ثورة أبي ركونة ، في محاسولته غزو مصر ، وأنهم أيضا هلالية ، وإن انتسبوا إلى عبد مناف بن هلال ، حسبما ذكر شعراؤهم (الشعبيون) (٣١) . هذا ولو أنه عندما جد الجيد سيفك الرواد الأوائل من بقايا عرب الفتوح إلى جانب الهلالية ، بنى جلدتهم ، ضد خصومهم من المغاربة البربر (٣٢) .

المعز بين اللامبالاة بالعرب وادخالهم في خدمته :

والمهم أن المعز بن باديس استقبل أنباء افساد عرب الهلالية في بلاده بشيء من اللامبالاة ، إذ تقول الرواية أنه عندما بلغه عيشتهم في برقة سنة ٤٤٢ هـ / ١٠٥٠ م ، « استحقق أمرهم » (٣٣) . وهو عندما لم يستمع إلى نصيحة مؤنس بن يحيى الرياحي بعدم الاستعانة ببني عمه رياح من الهلالية لكي يحتلوا في خدمته محل اخوانه صنهاجة الذين كان كارها لهم محبا للاستبدال بهم ، فسر افساد الهلالية بأنه مناورة من جانب مؤنس قام بها ليدل على صحة قوله ونصحده ، وأنه بالتالي استحق سخطه (٣٤) .

وهكذا يتذبذب الصراع الشعبي الكبير ما بين مستواه العام والمستوى الشخصي الذي يريده له القصص الشعبي ، فتشتد نكابة مؤنس ، عندما

(٣٠) المعز ، ج ٦ ص ١٩ - حيث النص على أن من مزاعمهم أن الجازية لما صارت إلى أفريقية وفارقت الشريف بن هاشم خلفه عليها منهم : ماضي بن مقرب .

(٣١) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٧ - حيث يقول أحد شعرائهم :

يا رب جبر الخلق من نتائج اليبلا
ألا الليل انجار ما لا يغيرها

وخص بها قرة مناف وعينها
ديما لا ريباد البوادي تشيرها

وبذلك ذكر نسبهم في مناف حيث يعلق ابن خلدون على ذلك بقوله : وليس في هلال مناف ، هكذا منفردا ، إنما هو عبد مناف ، والله تعالى أعلم .

(٣٢) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٥ .

(٣٣) التبريزي ، ص ٣٤٣ .

(٣٤) ابن عذاري ، ط : بيروت ج ١ ص ٤١٧ - ٤١٨ - حيث النص على أن الأمر عظم على المعز ، فقال : إنما فعل مؤنس هذا ليصح قوله ، كما أنه اتخذ إجراءات عنيفة ضد مؤنس في القيروان ، من ثفاف أولاده وعياله ، والحتم على داره حتى يعلم ما يكون من أمره .

يبلغه خبر ما فعله المعز بأهله ، ويعظم بلاؤه (٣٥) . ورغم محاولة المعز (السلطان) تقويم الموقف عن طريق وساطة بعض العقباء الذين أخرجهم الى مؤنس والعرب ، بمكاتبات وشروط ووصايا ، ورغم ما قام به تميم ولى العهد (ولد السلطان) ، من الافراج عن عيالات العرب ، وأخذ العهود والمواثيق عليهم بالرجوع الى الطاعة ، فقد انتهى الأمر بالعسداء المكشوف . حيث انقلب العرب على المعز ، وانتشر فسادهم بكل جهة ومكان (٣٦) ، الى أن انتهى الأمر بمحاصرتهم للقيروان .

حصار القيروان بين الأسطورة والتاريخ :

وحول محاصرة القيروان تدور قصة شعبية هلالية طريفة تنسب الى الزعيم مؤنس بن يحيى الرياحي أنه عندما أظهر له أتباعه الرغبة فى الوصول الى القيروان ، قال لهم : ان الأمر لا يتحقق دفعة واحدة ، ودلهم على ذلك بطريقة عملية مقنعة ، « فأخذ بساطا فيسطه ، ثم قال لهم : من يدخل البساط من غير أن يمضى عليه ، فقالوا لا تقدر على ذلك ، فقال هكذا القيروان ، خذوا شيئا فشيئا حتى لا يبقى الا القسيروان فخذوها حينئذ . فقالوا : انك لشيخ العرب وأميرها وأنت المقدم علينا ولا نقطع أمرا دونك » (٣٧) . ونتيجة للأعمال العدوانية ، ما بين افساد العرب وانتقام المعز بن باديس هلكت الضواحي والقري (٣٨) ، وكان لابد من عسء من الممارك الحاسمة لتقرير لمن تكون السيادة فى النهاية - وهى النتيجة المقدرة . سلفا لصالح الأشداء من المحاربين العرب بطبيعة الحال .

مقدمات الصراع :

تقييم الموقف :

والحقيقة أنه رغم ما توهم به الروايات المتأخرة نسبيا لابن الأثير وابن عذارى والنويرى وابن خلدون - ما بين القرن الـ ٧ - ٩ هـ / ١٣ - ١٥ م -

-
- (٣٥) ابن عذارى ، ط : بيروت ج ١ ص ٤١٨ - حيث يقول مؤنس : قدمت له النصيحة . فحاق بي الأمر ، وحيث يصيب أشد اضرارا من القول بسبب علمه بمورات القيروان .
- (٣٦) ابن عذارى ، ط : بيروت ج ١ ص ٤١٨ .
- (٣٧) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٥٦٧ ، وقارن النويرى ، ص ٢٤٥ - حيث قصة البساط خاصة بفتح بلاد المغرب جميعا قبل فتح القيروان - فكانها ما يعرف الآن بسياسة الخطوة خطوة .
- (٣٨) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٥ .

ومن يأتي بعدهم ، من أن الأمر لم يتطلب من العرب الهلالية الا معركة واحدة لهزيمة المعز وانحسار على القوة الزيرية. في القسريوان ، فان طبيعة الحرب الهلالية ، مثلما كانت أيام العرب انقديمه ، لم تكن تعرف المعارك الحاسمة او الفاصلة ، وهو الأمر الذي تقضى به طبيعة الأشياء ، من حيث أصول حرب الكر والفر ، مما يسمى في أيامنا هذه بحرب الامكانيات البسيطة . واذا كانت أحداث الصراع بين الهلالية والمعز قد وضعت دفعة واحدة تحت عنوان انتصار العرب على المعز أو هزيمة العرب للمعز بن باديس ، كما عند ابن عذاري والنويري . وضمن أحداث سنة واحدة . هي سنة ٤٤٣ هـ / ١٠٥١ م ، فان رواية ابن الأثير التي تضعها تحت عنوان دخول العرب الى أفريقيا سنة ٤٤٢ هـ / ١٠٥٠ م ، تسلسل الأحداث في عدد من المعارك التي وقعت بين المعز والهلالية ، مثل : يوم العيون أو الأضحي أو حيدران . وان كان ينقصها التحديدات التي تمكن من ترتيبها زمنيا بالاستعانة بالتواريخ المتناثرة هنا وهناك ، سواء عند ابن الأثير أو ابن عذاري الذي يأخذ بنفس الرواية ، وكذلك عند ابن خلدون الذي يقدم في الموضوع معلومات مبهرة .

ما بين الفتوتين المنتصرتين :

مبالغات ابن رشيق وابن شرف في محنة القيروان :

رغم وصف المعاصرين ، وخاصة من شعراء القيروان ، هزيمة جنود المعز بن باديس الصنهاجيين أمام عرب الهلالية الموافدين من صحراء مصر الشرقية بد « الداهية العظمى ، والمصيبة الكبرى » (٣٩) ، فهناك من القرائن ما يدل على أن الأمر لم يكن كذلك ، وان هناك ثمة مبالغة من جانب المثقفين من أهل البلاد وخاصة الأدباء والشعراء منهم ، وبخاصة ابن رشيق وابن شرف ، في البكاء على أطلال القيروان (٤٠) . حقيقة ان الكتاب يسالغون في

(٣٩) ابن عذاري ، ط : بيروت ج ١ ص ٤٦٩ .

(٤٠) عن تقييم عملهما الأدبي والتاريخي انظر الشاذلي بو يحيى ، الحياة الأدبية في افريقية على عهد الزيريين ، بالفرنسية ، رسالة دكتوراة ، طبع تونس ١٩٧٣ ، ص ١٠٤ وما يتبعها ، عن ابن رشيق القيرواني الأزدى المسيل (٣٩٠ - ٤٥٦ م / ١٠٠٠ - ١٠٦٤ م) الذي سمعه ابن أبي الرجال الورير مؤدب المعز واستخدمه في الديوان ، وكانت وسيلته لكي يصبح شاعر البلاد ، حيث دخل في منافسة مع ابن شرف تويته ، كان يحلو للمعز أن يشملهما ، وعندما ترك المعز القيروان الى المهدية تبعه ابن رشيق الى هناك ، وبعد وفاة المعز =

عرف الحضارة الافريقية على عهد المعز بن باديس ، حيث كان موكب الأمير يثير الضجة والصخب في العاصمة بمسا يتقدمه من الحيوانات السودانية الغريبة ، والسباع المخيفة . ولكن الاعجاب بالموكب المثير كان ينتهى أحيانا بتفجير مشاعر الهلع ثم الحزن والاسف ، اذا ما قدر لواحد من تلك السباع مثلا ، أن يفلت من اسار صاحبه ، لكي يتطلق الناس أمامه مذهولين فرعا ، ليقع بعضهم على بعض ، وتموت الأعداد الكثيرة منهم ، كما حدث في موكب سنة ٤٤١ هـ / ١٠٤٩ م ، أى قريب الوقت الذى كان خطر العرب ينتهدد القروان (٤١) . وكذلك الأمر بالنسبة لحضارة القروان الزيرية التى تمثلت فى كثرة الأنواب التى يكفن فيها الواحد من أفراد الأسرة الحاكمة وغلاء ثمنها ، أو تأبوت العود الهندى الثمين بمسامير الذهب الذى يدفن فيه ، أو أحمال المال التى كانت تغطي لمن يستحق أو لا يستحق من قبل الأمير أو كبار رجال الدولة من الولاء (٤٢) ، الأمر الذى يتجاوز الترف الى البطر

(٤٥٣ هـ / ١٠٦١ م) حاجر الى صقلية ، وعاش فى كنف أمراءها الكليبيين . واذا كان يذكر له نبوغه فى الحمريات الوصفية والقطع النثرية الصغيرة ، فانه بمناسية كارتة القروان ملحق ، فى تصديقه الجزية ، وأن كانت برقة غنائية - على كل حال - وفيها يتعلق بأبن رشيق مؤرخا ، يخرج الباحث بأنه لا يرى ذلك وإن كتاب « ميزان الاعتدال » المنسوب اليه متوسطه عند ابن خلدون ، وهو فى الحقيقة ليس له ، بل لؤلف أندلسى يحمل نفس الاسم (ابن رشيق) ، وذلك استنادا الى رواية ابن الخطيب . وانظر نفس المرجع ، ص ١١٦ وما يتبعها عن ابن شرف (٣٩٠ - ٤٦٠ هـ / ١٠٠٠ - ١٠٦٧ م = أبو عبد الله محمد بن أبى سعيد) فهو أحد الملح رجال الأدب والشعراء وعلماء أفريقية فى القرن الـ ٥ هـ / ١١ - أخذ ضمن من أخذ عنهم عن أبى عمران الفاسى ، شيخ القروان الشهير صاحب الفضل فى اكتشاف فقيه المراتبين الشهير ، عبد الله بن ياسين . ومن المهم هنا أن كل أعمال المعز بن باديس تظهر فى شعر ابن شرف بصفته شاعر البلاط مثل ابن رشيق ، الى سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٦ م ، حيث وحل ابن شرف لفترة قصيرة الى المهديّة فى كنف الأمير تميم بن المعز ، قيل أن يسير الى صقلية لدى الأمير منكود . ثم الى الأندلس لدى العباديين أمراء اشبيلية - حيث مات - وموضوع خراب القروان مثير فى شعر ابن شرف ، وفى تاريخه أيضا ، حيث أكمل تاريخ الرقيق فى حولياته ، هذا ، كما أكمل ابنه جعفر تلك الحوليات ومن بعده تاريخ ابن عذارى ، ذلك العمل .

وانظر لامتودج لابن رشيق ، تحقيق المطوى ، تونس ١٩٨٦ ، ص ٣٤٠ - حيث ابن شرف فيه يقول ابن رشيق : « وكان بيننا قبل أن يجذبنا (سيدنا المعز) الى محل حره ، ويشركنا فى سابع نعمته مكاتبات ومجاوبات » ، ص ٤٣٩ - عن صاحب الكتاب ، حسن بن رشيق ، حيث أنه من موالى الأزد . ولد بالمهديّة (المسيلة) سنة ٣٩٠ هـ / ١٠٠٠ م ، وقدم الحضرة سنة ٤٠٦ هـ / ١٠١٥ م ، وامتدح سيدنا - وانظر فيما سبق ص ٤١٠ -

(٤١) ابن عذارى ، ط : بيروت ج ١ ص ٤٠٣ .

(٤٢) المعز ، ج ٦ ص ١٥٨ .

والسيفه ، والكرم الى الاسراف والتفريط ، وهو ما يعنى بلوغ الذروة في مسار الحضارة ، وبدء الانحدار فوق السفح الى الخضم ، بمعنى افتقار الحشونة على المستوى العسكري ، وعدم القدرة على مطاولة الخصوم ، خصوصا اذا كانوا من نبط الهلالية الذين « لم يعهدوا نعمة ولا طاعوا حاضرة » ٥٠ والذين كانوا كلما انتهوا الى قرية تنادوا : هذه القيروان ، ونهبوها من حينها ، مما سبقت الاشارة اليه (ص ٤٢٤ و ٢٦٦) * والحقيقة أن الدولة الزييرية كانت منذ عهد المنصور وباديس ، في جمبع العبيد السودان ليكونوا الحرس الأميري الخاص ، الذي أصبح وحده موضع الثقة ، وبالتالي نواة القوات النظامية (٤٣) *

المناوشات الأولية ، والحشد للمعركة :

بدأت المناوشات عندما سرح المعز الى الهلالية قوة من رجاله الصنهاجيين ، ولكن العرب نجحوا في الايقاع بهم ، فأخذته العزة بالكبر ، وأشاط به الغضب ، فأمر بالقبض على أخى مؤنس وخرج معسكرا بظاهر القيروان ، وهو يحشد الرجال ويستنفر القبائل الموالية ، من زناتة وغيرها ، كما بعث بالصريخ الى ابن عمه : القائد بن حماد ، صاحب القلعة * واستجاب القائد فأرسل الى المعز كتيبة من ألف فارس ، كما لبى نداءه الزعيم الزناتاني المنتصر بن خزرون المغراوي ، والسدي كان في بادئ الأمر متاوئا للمعز ، على رأس ألف فارس من قومه * هذا ، كما انضم الى معسكر المعز أعداد من الاتباع والأولياء والحشم ، ومن في ايالهم من بقايا عرب الفتح والزناتية ، وغيرهم من جماعات البربر ، حتى اجتمع له حوالى الثلاثين ألف رجل * أما عن المعسكر الهلالي فقد حوى جماعات من قبائل : رياح وزغبة وعدلى ، الذين أقبلوا من جهة قابس مروراً بجبل حيدران ، في نحو ٣ (ثلاثة) آلاف رجل ، تحت قيادة مؤنس بن يحيى الرياحي (٤٤) *

(٤٣) ما سبق ص ٣٠٨ - حيث كان نواب افريقية من الكتاب أو الوزراء سباقين الى اقتناء

العبيد *

(٤٤) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٥ - حيث موسى بدلا من مؤنس ، وابن خزرون بدلا من ابن خزرون . وفاس بدلا من قابس ، وقارن ابن الأثير ، ج ٩ ص ٥٦٧ - حيث عدد قوات المعسكر ٣٠ ألف فارس ومثلها رجالة * والنويرى ، ص ٣٤٦ - حيث المنصور بدلا من المنتصر *

القتال :

معركة يوم العيون :

وعندما رحل المعز الى ناسية قرية بني عدل ، حيث كان اللقضاء في منتصف النهار في منطقة أوعار وأودية اختارها المعز (٤٥) ، مال العرب منظر عساكر المعز وعبيده المدججين بالسلاح والمتدثرين بثقيل الثياب . ولكن مؤنس بن يحيى نجح في تهديده روعهم ، ورفع معنوياتهم فقرروا الثبات في مواجهة الحشود الزيرية ، كما أن مؤنسا عرّضهم بمواطن الضعف عند الحصوم الثقيلين بالعتاد واشتب من الكراغندات والمخافر ، اذ طلب منهم الطعن في العيون - تماما ، كما فعل عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، في حرب النوبة بجنوب مصر - الأمر الذي أدى الى اطلاق اسم « يوم العيون » على تلك المعركة . ولكنه ما كادت المعركة تبدأ حتى ظهرت علامات الفشل في المعسكر الصنهاجي ، حيث بدأ عرب القنقج بالتحيز جانبا ، قبل أن ينضموا الى جانب الهلالية ، للعصبيّة القديمة بينهم - وهنسا لم يكن من المستغرب أن يخون الزناتية بدورهم ، بل وانصهاجيون فيفرون من ميدان القتال (٤٦) ، تاركين المعز وسط المخلصين له من عبيده . وفي ذلك تقول الرواية أن صنهاجة كانت تحقد على المعز اعتماده على العبيد دون عصبيته الصنهاجية ، وأنهم لهذا السبب اتفقوا على الانسحاب أمام العدو حتى يشتبوا للمعز خطر الاعتماد على العبيد ، وأنهم كانوا على ثقة من تقويم الموقف بعد ذلك (٤٧) .

وعلى عكس ما حسب الصنهاجيون ثبت المعز في موضع القلب صعب عبيده السودان حتى قتل الكثير ، بينما لم يتمكن الصنهاجيون من العودة الى ميدان المعركة اذ منعهم العرب من ذلك ، فتمت الهزيمة على المعز الذي انسحب في بعض خاصسته نحو القيروان .

وكان النصر مؤزرا بالنسبة للعرب ، كما كانت الهزيمة قاسية بالنسبة لصنهاجة . فلقد انتهب العرب جميع ما كان بالمحلة من المال والمتاع

(٤٥) ابن عذاري ، ط : بيروت ج ١ ص ٤١٩ - والذي يؤخذ على الرواية هنا أنها تجمع معلومات حروب المطاولة في معركة واحدة ، وهي : معركة يوم الانشحي التي تاتي كئاني لقاء بين الطرفين .

(٤٦) العبر ، ج ٦ ص ١٥ .

(٤٧) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٥٦٨ .

والذخيرة والحيل وإنفسطاطيط والرايات (٤٨) . واستنادا إلى رواية ابن الأثير
التي أخذنا بها ، وهي التي تظهر عند النويري ، كما يؤيدها ابن خلدون ،
نرى كيف تحولت الرواية المنسوبة إلى ابن شرف ، عند ابن عذاري ، متجهة
نحو المبالغة في أعداد الجيوش المتحاربة ، وهو الأمر الذي تهفوا إليه
البفوس ، فالثلاثون ألفا أصبحت ثمانين ، والثلاثة آلاف صارت في الجانب
البيلاي ثلاثين ألفا . هذا ، كما تباع رواية ابن عذاري - المتأثرة أصلا
بإبن شرف - عندما تضع معلومات يوم العيون هذا ، في موضع يوم الأضحى
أو يوم حيدران ، وهما اللقاءان الثاني والثالث بين الطرفين المتحاربين ، كما
سنرى ، فتجعل من بين ما حازه العرب في مضارب المعز ، الذهب والفضة
إلى جانب أكثر من ١٠ (عشرة) آلاف خباء ، و ١٥٠ (خمسة عشر) ألف
جمل ، وعدد لا يحصى من البغال ، « فما خلص لأحد من الجند عقال فما
فوقه » . هذا ، كما تجعل الرواية تلك المعركة فاصلة من حيث كان انتصار
العرب نهائيا ، إذ : « جعل كل من سبق إلى قرية يسمى نفسه لهم ،
ويؤمنهم ويعطيهم قنصوته أو رقعة يكتبها لهم ، علامة ليعلم غديره من
سبقه » (٤٩) .

معركة عيد الأضحى :

وحسب ترتيب ابن الأثير الذي أخذنا به - كما عند النويري - فإن
معركة يوم الأضحى المحددة التاريخ بالأيام ، كانت بمثابة ثار لهزيمة يوم
العيون . فلقد أراد المعز بن باديس أن يأخذ العرب على حين غرة ، فدير

(٤٨) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٥٦٨ - حيث النص على أن بعض الشعراء قال في تلك المعركة :
وإن ابن باديس لأفضل منك ولكن لسرى ما لديه رجال
ثلاثون ألفا منهم غلبتهم ثلاثة آلاف إن ذا لحبال
وقاوت النويري ، ص ٣٤٦ - حيث الكلمة الأخيرة من الشطرة الثانية من البيت الثاني :
لنكال بدلا من لمحال ، وابن عذاري ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٤٢٠ - حيث بيت الشعر المنسوب
إلى : علي ابن زرق ، من قصيدة له ، والأول منها مختلف ، إذ هما كالآتي :
لقد زاد وهنا من أميم خيال وأيدى المطايا بالزميل عجال
ثمانون ألفا منكم هزمتهم ثلاثون ألفا إن ذا لنكال
وفان ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٥ - حيث يورد ٣ أبيات خاصة بالمعركة ، أولها هو البيت
الأول عند النويري : « لقد زاد وهنا ٢٠٠٠ » أما الآخران فهما الواردة عند ابن الأثير مع
اختلاف بعض الكلمات ، في البيت الثالث ، مثل : « قد هزمتهم » بدلا من غلبتهم في الشطرة
الأولى ، وذلك خلال بدلا من وذلك خلال في الشطرة الثانية .
(٤٩) البيان ط : بيروت ج ١ ص ٤٢٠ . وانظر فيما بعد ص ٤٣٥ .

أن تكون المفاجأة لهم يوم النحر ، أى يوم عيد الأضحى ، فى العاشر من ذى الحجة من السنة نفسها ٤٤٣هـ / ٣ ابريل ١٠٥٢م ك ، والقوم مشغولون بصلاة العيد ، والإعداد للنحر ، وموائد الضحية الغنية باللحم والثريد . هكذا جمع المعز فى صباح ذلك اليوم ٢٧ (سبعة وعشرين) ألف فارس ، وسار بهم جريئة أى حملة سريعة تصل الى هدفها قبل أن يصله خبرها . ونجحت الخطة من حيث التوقيت اذ هجم جيش المعز على العرب ، وهم فى صلاة العيد ، ولكن العرب ، وهم الفرسان بحكم النشأة ، أسرعوا الى ركوب خيولهم ، وحلوا على القوات الصنهاجية التى لم تحتل الصدمة فانهمزمت . وقتل منهم عالم كثير (٥٠) .

وهنا لا بأس من الأخذ برواية ابن عذارى عن معركة يوم الأضحى ، حيث يقول انه بعد عودة المنهزمين الى القيروان بات الناس هناك ليلتين وقد خيم عليهم كابوس من الخوف والرعب من مفاجأة خيل العرب ، التى كانت تسرح حول القيروان فى كل جهة ومكان ، والناس يرونهم عيانا بيانا . وبعد ثلاثة أيام عندما استرد المعز أنفاسه المقطوعة حاول أن يقوم بتظاهرة ترفع من معنويات الناس وترد اليهم بعض شجاعتهم المفقودة ، فقام فى اليوم السابع للعيد ، ١٦ ذى الحجة / ١٩ ابريل ١٠٥٢م بالخروج بجنوده ، كما خرج معه العامة من أهل القيروان ، ولكنه لم يجرؤ على أن يتعدى بهم موضع المصلى خارج المدينة . وهنا رأى أن يستخدم خطة ما يعرف فى الحروب باسم « الأرض المحترقة » ، نكاية فى العدو ، فأمر كافة الناس بانتهاج المزروعات المحيطة بالقيروان وصبرة (المنصورية) . ورغم سرور المسلمين ، كما تقول الرواية ، كناية عن أن العرب الهلالية شبيعة فاطمية خارجين على الاسلام - بما حسبه زقا لهم ، فانهم سرعان ما أصيبوا بخيبة الأمل ، اذ كان مصيرها الفساد وأكل البهائم (٥١) .

(٥٠) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٥٦٨ ، النويرى ، ص ٣٤٦ ، وقارن ابن عذارى ، بيروت : ص ٤١٩ - حيث تظهر معركة عيد الأضحى وكأنها معركة يوم العيرون ، فهو يصفها بالدهية العظمى والمصيبة الكبرى ، حيث كانت الهزيمة على المعز الذى صبر بين عبيده الذين قدوه ، بينما انهزم مناد وصنهاجة وغيرهم وبذلك كانت عودة المعز الى قصره بالمنصورية فى ثالث يوم العيد . اذ كانت المعركة فى اليوم الثانى من العيد ، ولا بأس ان يكون الثانى بالنسبة الى المعركة والثالث بالنسبة لها ، أى بالنسبة للهزيمة . هذا ، كما تنال رواية ابن عذارى المنسوبة الى ابن شرف فى أعداد السكر فى من الجانبين ، فهم ٨٠ ألفا فى معسكر المعز و ٣٠ ألفا فى جانب الهلالية .

(٥١) ابن عذارى ، ط : بيروت ج ١ ص ٤٢١ .

بناء سور القيروان وصيرة :

وعندما ظهر العرب في اليوم التالي ، ١٧ ذى الحجة / ٩ ابريل ، على
يهم ٧ أميل من القيروان كان على المعز أن يخرج لتفقد ضواحي المدينة .
واحد الاجراءات المناسبة لتحصينها . وفعلا صدرت الاوامر ببناء سور
القيروان وصيرة التي تمت في السنة الثالثة ٤٤٤هـ / ١٠٥٣م (٥٢) . وزيادة
في حصانة الاسوار أمر الناس بالاحتفال في البناء ، فأخذ كثير منهم في بناء
دورهم (٥٣) . وكان من الطبيعي بعد أن اطمأن المعز الى حصانة القيروان
وصيرة وخاصة أن العرب من الهلالية أو غيرهم كانوا لا يعرفون في حروبهم
الا الكر والفر ، وليسيت لهم خبرة بحرب الحصون واقتحام الموانع أن يحاول
استغلال هذه الميزة التي كانت له وتوجيه ضربة رادعة الى العرب ، ترددهم
بعيدا عن بلاد القيروان .

يوم حيدران والمركة الحاسمة :

وهكذا حدث النزال الثالث ، في منطقة جبل حيدران ، على ٣ أيام من
القيروان ، والذي يمكن أن يعتبر الوقعة الفاصلة في تاريخ حروب المطاولة هذه
... حسب اصطلاح ابن خلدون - التي وضعت نهاية حزية لمدينة القيروان
كعاصمة لبلاد افريقية التونسية ، منذ انشائها قبل أربعة قرون ، كما قررت
مصير المغرب الى حد كبير .

وحسبنا يستشف من الأحداث توضع موقعة جبل حيدران في السنة
التالية ليوم الأضحى أي سنة ٤٤٥هـ / ١٠٥٣م ، حيث جمع المعز بن باديس
أعدادا كبيرة من فرسان صنهاجة وزناتة ، وخرج علي رأسهم قاصدا منازل
العرب في قرية الهلالية ، جنوب جبل حيدران . ورغم أن العرب لم يزيدوا
على ٧ (سبعة) آلاف فارس ، فان قوات القيروان المنهكة جسمانيا ومعنويا ،
لم تكن لتستطيع الصمود أمام حملات العرب الساحقة ، فانهزمت صنهاجة ،
كما انهزمت زناتة ، رغم ثبات المعز في عبيده ، ذلك الثبات العظيم الذي
لم يسمع بمثله ، والذي انتهى على كل حال بهزيمته هو الآخر ، وعودته الى
قصوره بالمنصورة . ورغم ما تقوله الرواية من أن هزيمة صنهاجة انتهت

(٥٢) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٥٦٩ - حيث النص خطأ على سور « ذويلة » والقيروان بدلا

من صيرة والقيروان .

(٥٣) ابن عسار ، ط : بيروت ج ١ ص ٤٢١ .

بأن « ولي كل رجل منهم الى منزله » ، فان خسارة صنهاجة في رجالها كانت فادحة هذه المرة ، اذ انه عندما احصى من قتل منهم ، كانوا ٣٣٠٠ (ثلاثة آلاف وثلاثمائة) رجل - ولا بأس أن تقصد الرواية من ذلك العدد الكبير جميع من قتل في موقعة حيدران ، من صنهاجة وزناته والعبيد الأميرية ، وغيرهم (٥٤) ، الأمر الذي يعني ضربة قاضية للصنهاجيين ، وبالتالي لدولة آل بلكين الزيريين في القيروان .

حصار القيروان ، والاجراءات التحفظية :

بمجرد وصول نيا هزيمة جبل حيدران الى القيروان بدأ أهلها في الفرار منها الى تونس ، في نفس السنة ٤٤٥ هـ / ١٠٥٣ م (٥٥) ، كما تم تنفيذ ما كان المعز بن باديس قد اتخذه من اجراءات وقائية لما ينتظره من ضغوط العرب على القيروان والمنصورية ، بعد بناء الأسوار . من ذلك أنه أمر بانتقال العامة من أهل صبرة وسوقتها الى القيروان ، وبخلو الحوانيت كلها بصبرة ، كما أمر جميع الصنهاجيين الموجودين بالقيروان وغيرهم من العسكر بالانتقال الى صبرة ، والنزول في حوانيتها وأسواقها . فكانه فرق ما بين المدينتين فجبل القيروان ، كما كانت من قبل ، مدينة العامة ، وصبرة المنصورية وهي مدينة صبرة الملكية ، مدينة العسكر دون غيرهم (٥٦) - ربما ليأمن من غائلة العامة اذا ما اضطربوا عند قسوم العرب الى القيروان ، وهو الأمر المتوقع .

انتفاضة العامة بالقيروان :

وفعلا لم يلبث عرب زغبة ورياح ، المنتصرون في حيدران ، أن وصلوا الى القيروان وأحاطوا بها (٥٧) ، في الوقت الذي كانت قد سادت فيه العلاقات نوعا ما بين عامة أهل القيروان الذين تركوا أسواقهم وحوانيتهم ، في صبرة المنصورية ، بين أيدي عسكر صنهاجة ، وعبيد المعز الذين نزلوا بها ، فملعوا أيديهم الى خشب الحوانيت وسقائنها واقتلعوها ، فخربت العمارة العظيمة في ساعة واحدة (٥٨) . واذا كان المعز قد أصدر أوامره للعسكر

(٥٤) انظر ابن الأثير ، ج ٩ ص ٥٦٨ - ٥٦٩ ، النويري ، ص ٣٤٦ .

(٥٥) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٥ .

(٥٦) ابن عذاري ، ط : بيروت ج ١ ص ٤٢١ .

(٥٧) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٥ .

(٥٨) ابن عذاري ، ط : بيروت ج ١ ص ٤٢١ .

«بعدم الخروج على سوزد صبره» (٥٩) تلافيا لاحتكاك لا تعرف عقابه مع العرب ، فان العامة كانوا مستعدين لمواجهة الأخطار . فعندما وصل العرب الى مضى القيروان في السنة التالية لوقعة حيدران ٤٤٦هـ / ١٠٥٤م ، خرج اليهم أهل ضاحيتي وقادة وصبرة المنصورية ، في حرب غير متكافئة ، انتهت بقتل خلق كثير من أهل الضاحيتين ، الأمر الذي أدى الى تدخل المعز لرفع الحرب بين الفريقين (٦٠) .

ورغم انسحاب العرب من الضواحي التي كانوا قد اقتحموها ، فان المعز سمح لهم بدخول القيروان ، تحسبا لعودتهم مرة أخرى ، لكي يقوموا بما كانوا في حاجة اليه من بيع وشراء (٦١) . وكان من الطبيعي أن يكون لدخول العرب الى القيروان واحتكاكهم بعامة الذين استخفوا بهم ، نتائج السلبية ، اذ أدى التنازع بين واحد من أهل السوق مع رجل من العرب الى الحرب بين الفريقين ، وكانت الغلبة في الصراع للعرب بطبيعة الحال (٦٢) .

وبانكسار انتفاشات العامة من أهل القيروان أمام حملات فرسان العرب بعد هزيمة الجيوش النظامية من الحرس الأميري الأسود ، والمتطوعين من صنهاجة وزناتة ، انتهى الأمر بانفتاح القيروان أمام الليالاية وسيطرتهم تماما على تخومها ، حتى صار «كل من سبق منهم الى قرية يسمى نفسه لهم» ، ويؤمنهم ، ويعطيهم قنسوساته أو رقعة يكتبها لهم ، علامة ليعلم غيره من سبقة (٦٣) .

(٥٩) ابن عذاري ، ط : بيروت ج ١ ص ٤٢٢ .

(٦٠) النويري ، ص ٣٤٦ .

(٦١) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٥٦٩ ، النويري ، ص ٣٤٦ - ٣٤٧ .

(٦٢) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٥٦٩ ، النويري ، ص ٣٤٧ ، وقارن ابن عذاري ، ط : بيروت ج ١ ص ٤٢٣ - حيث الاشارة الى وقعة باب تونس بالقيروان بين العامة الذين خرجوا بالعتس والسلاح ، ولكنهم لم يستطيعوا الأسود أمام حملة فرسان العرب عليهم ، اذ تساقطوا على وجوههم وجثثهم ، كما سطحوهم من حد آفان الآبر الى هذا الباب (باب تونس) . وتحتل رواية ابن شرف صورة صارخة لأعمال العرب في باب تونس حيث لم يتركوا على حي ولا ميت خرقة توازية . وبعد انصراف العرب خرج الناس لرفع القتلى ، فكانت النوائح والندب بكل جهة وزقاق ، كما كانت جراح المصابين القبيحة تفتت الاكباد وتذيب القلوب والأجساد ، وكذلك مناظر البنيات الثلاثي سوزد وجوههم وحلقن رؤوسهم على آبالهم «واخوانهم» فكان يوما لم ير الناس مثله في سائر الأمصار فيما مضى من الانصار .

(٦٣) ابن عذاري ، ط : بيروت ج ١ ص ٤٢٠ ، وانظر فيما سبق ، ص ٤٣١ .

الإحاطة بالقيروان :

وهكذا انتهى الأمر بإحاطة زغبة ورياح بالقيروان ، ونزول مؤنس ابن يحيى المرداسي الرياحي ، قريبا من ساحة البلد بينما فر قرابة المعز ابن باديس من آل زيري . وبذلك اقتسمت العرب من زغبة ورياح بلاد افريقية منذ سنة ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ م ، حيث صارت قابس وما يليها من بلاد قسطنطينية لهما جميعا ، بينما انفردت زغبة بمنطقة طرابلس ، واخذ مؤنس ابن يحيى منطقة باجة وما يليها (٦٤) . ومع استمرار تقاطر العرب من صعيد مصر كان عليهم أن يعيدوا تقسيم البلاد مرة أخرى ، فكان لبني سليم الأقاليم من طرابلس فسادونها ، وكان لלהلالية من : المعقل وجشم وقره والأثبيج والحلط وسفيان ، من : مدينة تونس إلى المغرب . وبذلك « تصرف الملك من المعز » ، وتغلب عائذ بن أبي الغيث على مدينة تونس وسلبها ، وملك أبو مسعود من شيوخهم ، مدينة سوسة صلحا ، وعمل المعز على خلاص نفسه مصاهرة بيناته الثلاثة اللاتي زوجهن بابنيه : فارس بن أبي الغيث وأخيه عائذ ، والفضل بن أبي علي المرادي (٦٥) .

النقلة إلى المهديّة :

ومنذ ذلك الوقت (٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ م) تأكد المعز بن باديس من نهاية مملكته في القيروان التي طوقها العرب وأحكموا حصارها ، وبدأ يفكر في النقلة إلى المهديّة فكان في الأمر عودة إلى الوحشة مع أهل القيروان أيام المهدي أو أثناء الثورة الزناتية على عهد القائم . وهكذا أشار المعز على الرعية بالانتقال إلى المهديّة لعجزه عن حمايتهم من العرب ، وأقام هو بالقيروان والناس ينتقلون إلى المهديّة إلى سنة ٤٤٩ هـ / ١٠٥٧ م (٦٦) .

وفي نفس هذا الوقت كان الهلالية يسمفون سياسة الفرع الحمادي من الزيريين في القلعة بطابعهم . ففي سنة ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ م توفي القسائد بن حماد ، وتولى ابنه محسن الذي خشي منافسة عمومته فقتل الكثيرين منهم ، ولكن بلسكين بن محمد ، من بني عمومته ، نجح في التخلص منه بمعوقه العرب ، ودخل القلعة في ربيع الأول سنة ٤٤٧ هـ / مايه يونيه ١٠٥٥ م .

(٦٤) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٥ .

(٦٥) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٥ - ١٦ .

(٦٦) ابن الأثير ، ج ١ ص ٥٦٩ .

وأصبح الأمير الحمادى الرابع (٦٧) . وبذلك يكون الهلالية قد تقدموا إلى قسنطينة ، وأصبحت لهم اليد العليا فى كل البلاد ، وخاصة فى الأقاليم الداخلية ، حيث شرعوا فى هدم الحصون والقصور ، وقطع الشار وتخريب الأنهار (٦٨) .

وكخطوة تمهيدية للانتقال إلى المهديّة سار ولى العهد ، تميم بن المعز ابن باديس ، إلى ولايته بالمهديّة سنة ٤٤٨هـ / ١٠٥٦م (٦٩) ، وكان أبوه قد ولاه إياها سنة ٤٤٥هـ / ١٠٥٣م (٧٠) . وكانت تلك الولاية بالنسبة للمعز ، قد بدأت بما يتفق مع مقولة « أن المصائب لا تأتى فرادى » ، إذ لم تلبث أن قامت الفتنة بين عبيد تميم الذين انضم إليهم عامة أهل زويلة ومن كان بها من رجال الأسطول ، وبين عبيد المعز الذين كانوا هناك ، وكانت الدائرة على عبيد المعز الذين قتل الكثير منهم . وعندما حاول الباقون منهم الخروج من المهديّة إلى القيروان حيث سيدهم المعز ، أغرى تميم بهم العرب فى المنطقة ، فقتلوا منهم جمعا غفيرا ، الأمر الذى يثير نوعا من الشك حول سلامة العلاقة بين المعز وولى عهده ، الولى على المهديّة (٧١) وهو ما يظهر كصدى للروايات التى تنص بشئ من الإلحاح على تلقى تميم والده المعز بما يلىق به من الاحترام والتبجيل ، ومشيه بين يديه من مياش إلى القصر ، على طول مسافة نصف فرسخ (٧٢) ، وذلك عندما انتقل المعز إلى المهديّة فى شعبان سنة ٤٤٩هـ / أكتوبر ١٠٥٧م ، بعد أن أصلح أحوال أهل القيروان ، بمساعدة أصهاره العرب الذين تبعوه ، حراسة بالعبدة السودان ومعهم ابنه المتصور ، إلى منطقة الساحل من حيث ركب البحر إلى المهديّة (٧٣) .

(٦٧) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦٠١ ، النويرى ، ص ٢٤٣ - حيث النص على أنه قتل ٢٤ من عجمته ، وأنه استدعى ابن عمه بلكين بن محمد وأمر رجالا من العرب أن يقتلوه ، ولكنهم أخبروا بلكين بالكيفية إذ كانوا من أوليائه ، بل وقتلوا الأمير مصسن .

(٦٨) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٥٦٩ .

(٦٩) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٦ .

(٧٠) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٥٦٩ - ولو أن نص ابن الأثير يقول أنه أقام بها منذ ولها ، الأمر الذى يعنى أنه ربما كان فى زيارة لوالده بالقيروان أو أنه كان قد استدعى بسبب الرحمة بينهما .

(٧١) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦١٧ - حيث النص على أن هذه التوبة كانت سبب قتل تميم

من قتل من عبيدا أبيه لما ملك .

(٧٢) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٥٦٩ ، النويرى ، ص ٢٤٧ .

(٧٣) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٥٦٩ وقارن الحريزى ، انماط الخطا ، ص ٢١٧ - حيث =

نهب القيروان وسيادة البدو من بربر وعرب على المنطقة :

وكان لخروج المعز من القيروان ردود فعل سيئة هناك ، ففى الشهر التالى ، رمضان ٤٤٩هـ / أكتوبر ١٠٥٧م نهب العرب القيروان (٧٤) . هذا ولم يكتف العرب بافساد القيروان بل انهم تابعوا المعز نحو المهديّة ، فنزلوا حولها وضيّقوا عليها بمنع المرافق وافساد السابلة (٧٥) .

وباضطراب افریقیة الزيرية ، خرب عمرانها وفسدت سابلتها ، بعد أن آلت السيادة على أطرافها وضواحيها الى قبائل البربر البترية (البدوية من : زناتة وبنى يفرن ومغراوة وبنى مائد وبنى تلويمان (٧٦) . فبعد كسب صنهاجة دخل الهلالية فى صراع طويل مع الزناتية ، أهل البادية مثاهم وغلبوهم على أطراف البلاد . وهنا نجد أن الصراع مع الزناتية هو الذى يعشّل سدة تغريبة بنى هلال الشعبية ولحمتها ، وذلك عندما التحمى بصاحب تلمسان الزناتى ، من أعقاب محمد بن خزر ، ووزيره الشسيه « أبى سعدى خليفة اليفرنى » ، بطل الملحمة ، فهزموه وقتلوه بعد حروب طويلة ، كما يقول ابن خلدون (٧٧) .

ومن المهم هنا الاشارة الى أن بنى حماد أصحاب القلعة ، ساروا على نفس السياسة التى انتهجها أبناء عمومتهم أصحاب القيروان من قبل فحاولوا امتصاص قوى العرب الحربية بادخالهم فى خدمتهم . وهكذا كان يلكين بن محمد ، يخرج سنة ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م ، ومعه جماعات من الأتبيج وعندى لحرب زناتة ، التى انتهت بكسرهم وقتل أعداد كثيرة منهم (٧٨) .

النص على أن المعز ركب البحر الى المهديّة سنة ٤٤٩هـ ، وأن قال قبل ذلك (ص ٢١٥) أنه خرج الى المهديّة متخفيا فى زى امرأة عندما أشرف على التلف ، ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٦ .

(٧٤) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٥٦٩ ، النویری ، ص ٣٤٧ ، وقارن ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٦ - حيث النص على أنهم جاموا وخربوا المبانى ، وعاثوا فى محاسنها ، ولمسوا من الحسن والرواق ما لها ، واستصغروا ما كان لآل يلكين فى قصورها ، وشملوا بالبيت والنهب سائر حريمها ، وتفرق أهلها فى الأقطار فظلمت الرزية وانتشر الداء .

(٧٥) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٦ .

(٧٦) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٦ - حيث النص على أن ذلك كان داب العرب وزناتة حتى غلبوا صنهاجة وغيرهم من البربر وأساوهم عبيدا وخدما بياجة بخاصة .

(٧٧) البير ، ج ٦ ص ١٦ .

(٧٨) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٥٦٩ ، النویری ، ص ٣٤٧ .

تبشير عصر الطوائف :

وأدت غلبة العرب على الدولتين الزيريتين في القيروان والمهدية وفي القلعة وبجاية ، الى قيام نوع من عصر ملوك الطوائف كذلك الذي عرفته الأندلس بعد سقوط المرwanيين والعامريين بقرطبة . ففي سنة ٤٥١هـ / ١٠٥٩ م كانت سفاقس تحت حكم أفروم البرغواطي الذي تلقب بمنصور ، ولكنه قتل بمعرفة برغواطي آخر ، هو : حمو بن مليل الذي ملك سفاقس مكانه (٧٩) . وفي سنة ٤٥٣ هـ / ١٠٦١ م ، نشور فتنة في تقيوس من بلاد الجريد بين أهل البلدة وبين العرب الذين دخلوا المدينة متسوقة فقتل رجل منهم آخر من أهل البلدة اثر نقشاش سياسي في أحوال البلاد اتخذ فيه التقيوسي موقفا مؤيدا لسياسة المعز بن باديس ضد العرب ، فثار هؤلاء الآخرون بأهل البلدة الذين دفعوا ثمننا باهظا لتعصيبهم لأميرهم . اذ قتل العرب منهم ٢٥٠ (مائتين وخمسين) رجلا (٨٠) . وفي هذه السنة (٤٥٣ هـ / ١٠٦١ م) انهزمت هواراة أمام العرب في الحرب التي ثارت بين الطرفين وقتل فيها الكثير من الهواريين (٨١) .

وفاة المعز :

وفي نفس تلك السنة الأخيرة (٤٥٣ هـ / ١٠٦١ م) توفي المعز بن باديس مريضا بضعف الكبد ، بعد ملك دام ٤٧ (سبعة وأربعين) عاما ، وبذلك يختم العصر الذهبي للزيريين في القيروان لكي يبدأ عصر جديد ، ليس في افريقية وحدها ، بل في بلاد المغرب جميعا ، هو عصر ملوك الطوائف الذي ينتهي بقيام دولة المرابطين ، فكانه مقدمة طبيعة لها ، الأمر الذي يتطلب رسم خريطة كعمل تمهيدى لدراسة إعادة توحيد المغرب تحت رايات صنهاجة المرابطين من الملتصقين .

(٧٩) النويري ، ص ٢٤٧ .

(٨٠) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٥٦٩ .

(٨١) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٥٦٩ .

الفصل الخامس

خريطة أفريقية وبلاد المغرب
حوالى منتصف القرن الخامس الهجرى / ١١م

ملوك الطوائف فى أفريقية :

تعتبر معركة حيدران ، ونقطة المعز الى المهدي سنة ٤٤٩هـ/٩٥٧م ، نقطة تحول هامة فى تاريخ أفريقية التونسية ، من حيث تحول دولة القيروان الزيرية الى دولة بحرية توجه أنظارها نحو صقلية وجنوب ايطاليا ، تماما كما كان الحال بالنسبة لدولة بنى العمومة الحصاديين الذين تركوا بدورهم مركز حكمهم فى القلعة ، اثر هزيمة سببية سنة ٤٥٧هـ / ١١م ، الى مدينة بجاية البحرية التى أصبحت دار ملكهم ، الأمر الذى يعنى توجيههم ، هم الآخرين ، وجهة بحرية بعد أن استولى الصلاية على دواخل البلاد البرية ، فكان الممتلكات الفاطمية انتهت فى منتصف القرن الخامس الهجرى / ١١م الى ثلاث دويلات ، هى : الزيرية فى المهدي ، والحماوية فى بجاية ، والدولة الكلبية فى صقلية .

والمنهم فى هذه الدويلات أنها ممالك مركبة عرقيا من البربر والعرب فى أفريقية ، ومن البربر والصقليين المولدين فى جزيرة صقلية ، الأمر الذى كان له أثره - الى جانب الانقسام المذهبى الى سنة وشيعة - أثره فى تصدع الوحدة الوطنية فى تلك الدويلات ، ما بين العروق المختلفة ، وقيام نوع من النظام الاقطاعى فى الحكم ، حيث استغلت كثير من المدن أو الأسر الحاكمة ، فيما يمكن أن يشبه بنظام الطوائف الذى عرفته ، وقتئذ . مدن الأندلس وأسرها الحاكمة .

دولة المهدي الزيرية

وعلاقتها بالدولة الحماوية فى القلعة والدولة الكلبية فى بلرم :

بعد وفاة المعز بن باديس سنة ٤٥٣هـ / ١٠٦١م ، خلفه فى المهدي

أبنيه تميم الذي كان له من العمر ٢٧ سنة (١) ، والذي تصفه رواية النويري الصنهاجية أصلا ، بأنه : شهم ، شجاع ، كريم ، حليم (٢) ، وهي الصفات المطلوبة في الأمير ، إلى جانب أنه كان حسن الشعر ، بمعنى أن الأسرة الصنهاجية على عهده كانت قد تعربت تماما ، حتى أصبح الأمير شاعرا ، وبذلك لم يعد من المستغرب أن تنسب إلى أعرق الأرومات العربية ، ملوك حمير ، معدن العروبة في اليمن .

وإذا كان الكتاب قد اتفقوا على أن عهد المعز بن باديس هو العصر الذهبي للدولة الصنهاجية ، من حيث وصولها إلى الذروة على المستوى الحضاري ، في الثروة والأثاث والرياش ، وكثرة الجند النظامي من العبيد السودان من الحرس الأميري ، وعلى المستوى السياسي من حيث التطلع إلى الاستقلال ، وقطع الصلة بخلافة القاهرة الفاطمية ، فإن الكثيرين منهم يجعلون من تميم ابنه قرينا له ، رغم ما هو متعارف عليه من أن مملكة المهديّة ، في عصرها الثاني هذا ، تعتبر بداية لعصر الاضمحلال بالنسبة للأسرة الزيرية .

والحقيقة أن تميما ظهر منافسا لوالده المعز منذ بداية الأزمة الهلالية . ولا بأس أن يكون تعيينه حاكما للمهديّة ، اعتبارا من سنة ٤٤٥هـ / ١٠٥٣م ، نوعا من الاقصاء بعيدا عن المنصورية ، حيث مقام المعز ومركز الحكومة . والقربنة على ذلك ما حدث من صدام بين العبيد المعزية والعبيد التميمية ، ممن كانت لهم مهام وسلطات الشرطة في المهديّة ، الأمر

(١) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٥ - حيث مولده في ١٥ رجب سنة ٤٢٢هـ / ٩ يولييه ١٠٣١م ، وقارن ابن عذاري ، ط . بيروت ، ج ١ ص ٤٢٨ - حيث شهر رجب فقط ، وإن والده أبرزه ابن سنين ، وركب والساكر وراه ، وطاف القبروان والمنصورية ، وأنه ولي المهديّة سنة ٤٤٥هـ / ١٠٥٣م ، وعمره ٢٣ سنة .

(٢) أنظر النويري ، ص ٣٦١ ، وفي التفاصيل (ص ٦١ - ٣٦٢) ، حيث النص في أخباره في رعيته وشفقته عليهم ، أنه اشترى جارية بعتن كبير ، ولما عرف أن صاحبها ذهب عقله لذلك ، بمنّا إليه في الكسوة وآواني الفضة والطيب ، وأنه عندما ردها الرجل إليه انتهره وأمره بالعودة بكل ما حبله إلى داره . وفي ذلك تسترسل الرواية في القول أنه كان لتيسم في البلاد أصحاب أخبار يطالعونهم بأخبار الناس ، ولكنه هنا بدلا من الإشارة إلى الرغبة في حفظ الأمن وسلامة الدولة ، يركز فقط على أن الهدف من الاستخبارات هو تحقيق العدل بين الناس وكف الظلم ، وقارن ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٥ - حيث النص على أنه سلك طريقة حسن السيرة ، ومحبة أهل العلم .

الذى انتهى باخراج العبيد المعزية الى المتصورة والقيروان فى حانة سينة
(ما سبق ، ص ٤٣٧) ، فكان تميما كان قد أصبح أميراً منافساً فى
العاصمة الفاطمية العريقة .

الموقف من الهلالية :

والحقيقة انه كان لتيميم موقف متميز عن موقف والده المعز من العرب
الهلالية ، فبينما ظهر المعز غير مبال بهم محتقرا لشأنهم ، قبل الفشل فى
استخدام السياسة اذاعهم ، عن طريق محاولة ادخالهم فى الخدمة كطرف
مجايد بالنسبة للصنهاجية والزناينة ، طرفى الصراع وقتئذ فى أفريقية
والغرب ، مثلهم فى ذلك مثل الحرس الأسود من العبيد السودان ، ثم الهزيمة
المسكينة عند المواجهة ، ظهر تيميم بمظهر السياسى الداهية ، الذى يمكنه
التصرف فى مثل تلك الظروف الصعبة عن طريق المناورة والمداورة ، مستخدما
مبدأ « فرق تسد » ، الذى أصبح من مبادئ السياسة المعتمدة منذ أيام
الرومان .

فهو عندما عرف ان أقوى التحالفات بين القبائل الهلالية المتصارعة
فيما بينها من أجل الهيمنة ، هو حلف عدى ورياح ، عمل على أن يضمهما
جميعا عن طريق التفرقة وبث الخلاف بينهما . وساعد تميما على ذلك تمكنه
من العربية ، واحسانه لصناعة الشعر ، الأمر الذى جعله لا يظهر بمظهر
الدخيل فيما ينشعب بين الجماعتين من نزاع ، بل بمظهر صاحب المصلحة
الأصيل الذى يحرص على التقاليد العربية العريقة ، وإن كان طرفا ثالثا .
فهو يثير العداء فى نفوس الرياحيين ، وهى القبيذة الأقوى ، لتأخذ بثار قتيلاها
من بنى عدى ، ورفض التسوية السلمية المهيمنة التى اتفق عليها . وكانت
وسيلته التى لا تقاوم عند العرب ، هى الشعر .

وفعلنا فنجحت أبيات الشعر فى قيام الحرب بين الطرفين ، وانتهى
الأمر بهزيمة بنى عدى ، وخراجهم من أفريقية (٣) ، وإن كان ذلك فى وقت

(٣) التزويرى ، ص ٣٦١ - حيث النص على أبيات من الشعر ، منها :

مضى كانت دساؤكم نطش	أما منكم بشار مستغل
أغانم ثم سأل ان دشانتهم	فما كانت أوائلكم تذل
ونعمت عن طلاب البشار حتى	كان الـز فيكم مضجع

بعد اخوة القتول فقتلوا أميرا من بنى عدى فقامت الحرب بينهم ، حتى أخرجوا بنى عدى
من أفريقية ، وبلغ فيهم تيميم ما يريد - إذ كان يوقع بالشعر الحروب بين العرب ، فيبلغ
بلسانه ما لم يبلغ بلسانه .

متأخر نسبيا ، سنة ٤٩١هـ / ١٠٩٨م (٤) .

طوائف أفريقية ما بين العرب والبربر البادية :

ولم يكن هذا يعنى ان تميم بن المعز كان مسيطرا على الأحداث التي أخذت في أفريقية شكل التغيير الجذري نحو التفتت ، تماما ، كما حدث في الأندلس اثر سقوط الخلافة المروانية هناك ، الأمر الذي كانت له أصداؤه في المغرب ، تماما ، كما كان لرجيل الفاطميين الى مصر ردود فعله القوية في أفريقية ، الأمر الذي تأكد بقطع العلاقات ، وانطلاق الهجرة العربية نحو حدود مصر الغربية وأفريقية .

طرابلس ، هملكة زناتية :

والحقيقة ان الاتجاهات الانفصالية كانت قد وجدت أرضا صالحة ليزر يذورها في الأقاليم الشرقية ، قبل الهجرة الهلالية ، منذ أن استقر بنو خزرون في طرابلس على عهد باديس بن المنصور ، والد المعز ، وذلك بتحريض من الخلافة بالقاهرة ، التي رأت أن تستعيد سلطانها على الأقاليم المتاخمة لحدودها الغربية ، حيث أثبتت التجارب أنه من الخطورة إسكان ، ترك تلك المناطق عرضة لأهواء المغامرين من بربر وعرب ، سواء من بنى خزرون المغراوية في طرابلس وما يتبعها من نفزاوة حيث كونوا أسرة وراثية ، أو من بنى قرة العرب وغيرهم ممن تحالفوا مع أبي ركة في برقة ، وتهيأ لهم تهديد النظام الفاطمي في قلب مصر (ما سبق ، ص ٣٥٤) .

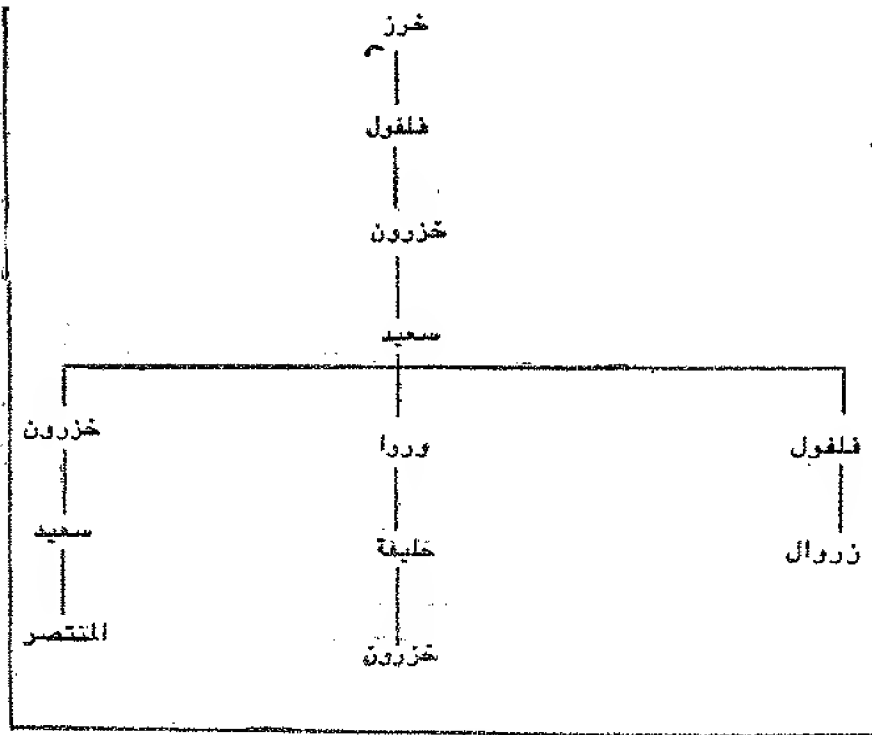
فلقول بن سعيد وأخوه وروا :

فعلى أيام باديس نجح فلقول بن سعيد الزناتي في التغلب على طرابلس ، فملكها سنة ٣٩١هـ / ١٠٠١م ، واستوطنها بمسبعية أهلها ، وبتسامح من الخلافة في القاهرة ، الى وفاته سنة ٤٠٠هـ / ١٠٠٩م (٥) . وآلت

(٤) ابن عذاري ، ط . بيروت ، ج ١ ص ٤٣٤ - حيث النص « وأخرجت عدى من أفريقية أمام رياح » .

(٥) هذا ، ولو أنه عندما طلب المساعدة واستيظا المعونة القوية من القاهرة ، اتصل بخليفة الأندلس أثناء القتلة ، وهو المهدي محمد بن عبد الحبار بقرطبة ، ولكنه مات قبل وصول جواب قرطبة . وانظر فيما سبق ، ص . والنائب الانصارى ، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب ، ط . القرجاني ، ص ١٠٨ .

بنو خزرون بطرابلس



شكل رقم ٢ - شجرة نسب بني خزرون بطرابلس
من ابن خلدون ج ٧ ص ٤٤

رئاسة زنانة بعد فلفول الى أخيه وروا بن سعيد ، الذي لم يستطع مواجهة باديس عندما زحف الى طرابلس واستردها ، ونزل في قصر فلفول .
وهنا رأى وروا ان السياسة تقضى باستخدام المدارة فسأل باديس الأمان ،
وتم الصلح بوساطة محمد بن حسن الذي سنّو له ولاية طرابلس قبل
الوزارة ، وعهد بولاية نفزاوة الى وروا ، كما عهد بقسطنطينية من بلاد الجريد
الى النعيم بن كنون (٦) .

ولما لم يطل الوفاق الا الى سنة ٤٠١ هـ / ١٠١٠ م . التالية ، عندما
أعلن وروا المعصيان ولحق بجبال دمر ، الأمر الذي ترتب عليه أن ضم النعيم
نفزاوة الى عمله ، وان انفصل خزون بن سعيد عن أخيه وروا ، وسار الى
الأمير باديس بالقيروان سنة ٤٠٢ هـ / ١٠١١ م ، فتقبله وولاه عمل أخيه
وروا ، كما ولي بنى محلية منهم على قفصة ، وبذلك صارت منطقتي الجنوب
جميعا ، في نفزاوة والجريد ، لزنانة . وهنا رجس وروا من جديد ، يريد
العودة الى طرابلس ، فقامت بينه وبين عاملها محمد بن حسن حروب شديدة
انهزم فيها وروا ، وقتل الكثير من قومه ، كما لاقى فيها والى طرابلس الكثير
من الممات ، الأمر الذي دعا باديس الى الطلب من خزون أخى وروا ومن
قريبهم النعيم وغيره من أمراء الجريد الزناتية ، المشاركة في حرب وروا ،
ولكن ذلك انتهى بانضمام الزناتية ، جماعة بعد أخرى الى وروا من : النعيم
الى خزون ، وذلك في سنة ٤٠٤ هـ / ١٠١٣ م ، حيث نصبوا الحرب على
طرابلس من جديد ، مما دعا باديس الى اتخاذ اجراءات جزائية قاسية ضد
الزناتية ، اذ قتل من كان لديه من رهنهم ، كما ضاعمت معهم طائفة أخرى
كانت قد وصلت مع مقاتل بن سعيد أخى وروا تطلب الدخول في الطاعة
ضد وروا . ولكنه بعد انتصار باديس على عمه حماد سنة ٤٠٥ هـ /
١٠١٤ م ، بعث وروا يطلب الدخول في الطاعة ، ولكن المنية عاجلته ،
كما عاجلت باديس في السنة التالية (٤٠٦ هـ / ١٠١٦ م) (٧) .

(٦) ابن خلدون ، ج ٧ ص ٤١ - ٤٢ ، حيث قسطنطينية المتطرفة على البحر من أرض
القبائل الصغرى ، بدلا من قسطنطينة القريبة من نفزاوة ، وقارن الناشد الانصارى ، المنهل
العذب في اخبار طرابلس الغرب ، ص ١٠٩ .

(٧) ابن خلدون ، ج ٧ ص ٤٢ ، وقارن ما سبق (ص ٣٥٧) ، حيث أخذنا بوفاة وروا
سنة ٤٠٦ هـ / ١٠١٥ م ، حسب رواية ابن عنارى ، وقارن المنهل العذب للناشد الانصارى ،
ص ١١٠ .

خليفة بن ورو :

ونتيجة لوفاة ورو انقسم الزناتية فباع بعضهم ابنه خليفة ، وباع غيرهم أخاه خزرون بن سعيد . والظاهر أنه كان لعامل طرابلس محمد بن حسن دوره في إثارة تلك الفتنة التي انتهت يتفوق خليفة على عمه خزرون ، فالت إليه بالزعامة . وهكذا ولّى المعز بن باديس أواخر سنة ٤٠٦ هـ / ١٠١٦ م ، والزناتية منتقذين عليه في « قيطونهم » (أى مضاربتهم) بقيادة خليفة بن ورو ، بينما كان أخوه حماد بن ورو يغير على أعمال طرابلس وقابس ، ويواصل النهب إلى سنة ٤١٣ هـ / ١٠٢٢ م ، حينما انتهز فرصة عصيان عبد الله بن حسن ، عامل طرابلس الذي أمكنه من المدينة ، انقلبا لمقتل أخيه الوزير محمد بن حسن (٨) . وقتل خليفة بن ورو الحسامية الصنهاجية التي كانت داخل طرابلس ، ونزل في قصر عبد الله بن محمد ، بعد أن أخرجه عنه واستصفى أمواله وحريمه . وبذلك اتصل ملك خليفة وقومه بنى خزرون الزناتية بطرابلس . وحصل خليفة بن ورو على شرعية ولايته بقبول الخليفة الظاهر بن الحاكم بالقاهرة ، ثم دخوله في الطاعة سنة ٤١٧ هـ / ١٠٢٦ م ، وضمان أمن الطريق ، وخفارة التجار .

وعندئذ رأى خليفة أن الحكمة تقتضي بتحسين علاقته بالمعز بن باديس أيضا ، فأرسل إليه أخاه حماد بهدية تفتيلها وكافاه عليها (٩) .

لكنه لما كان الأصل في العلاقات بين الصنهاجيين والزناتية أنها غير مستقرة ، كان من الطبيعي أن يقوم المعز ، سنة ٤٣٠ هـ / ١٠٣٨ م ، بالزحف لقتال زناتة بجهات طرابلس ، ولكن اللقاء انتهى بكارثة للمعز ، قتل فيها قريبه عبد الله بن حماد ، ووقعت السيدة أم العلو بنت باديس ، أخت المعز ، سبية بين أيديهم ، وكو أنهم منوا عليها بعد حين فاطلقوها إلى أخيها (ما سبق ، ص ٣٩٧) .

(٨) ما سبق ، ص ٤٠٢ ، وأنظر ابن خلدون ، ج ٧ ص ٤٢ ، وقارن المنهل العذب ،

ص ١١٠ - ١١١ .

(٩) ابن خلدون ، ج ٧ ص ٤٣ - حيث ينتهي ما نقله ابن خلدون من الرقيق ، فيتمه بيتا أخذ من ابن حماد وغيره . وقارن المنهل العذب ، ص ١١٢ ، وأنظر ابن غلبون ، التذكار فيمن ملك طرابلس ، وما كان بها من الاختيار ، ط . طرابلس ، ١٩٦٧ ، ص ٢٤ - حيث النص على أنه في أثناء إمارة الفاطمي : « استولى على طرابلس بنو خزرون الزناتيون ، ووقعت بينهم وبين الصنهاجيين حروب كثيرة » من راسها فلتراجع تاريخ الرقيق فإن فيه غرائب وعجائب . ولا ندرى أن كان كتاب الرقيق كان موجودا بين يدي ابن غلبون أم أنه يتكلم على اللسان غيره .

المنتصر بن خزرون :

ولما كان خزرون بن سعيد ، لما عليه ابن أخيه وروا على إمارة قومه ، قد سار الى مصر وعاش في كنف الخلافة حيث نشأ ينوه ، ومنهم المنتصر بن خزرون وأخوه سعيد ، فانه نتيجة لما وقع بمصر من الاضطرابات بين الترك والمغاربة لحق المنتصر وسعيد بنواحي طرابلس ، وانتهى الأمر بولاية سعيد لطرابلس المدينة الى ان هلك بها سنة ٤٣٩ هـ / ١٠٣٧ م (١٠) . وعندما قدم خزرون بن خليفة من القبطون (المضارب الزناتية) الى ولايتها ، مكث منها رئيس الشورى ، وبائع له ، وبها يومئذ من الفقهاء : أبو الحسن ابن المنتصر ، المشتهر بعلم الفرائض ، فقام بها الى سنة ٤٣٠ هـ / ١٠٣٨ م ، حينما قام عليه المنتصر بن خزرون ، أخو سعيد ، وملك طرابلس ، واتصفت بها امارته .

والهم أن المنتصر بن خزرون زحف مع عرب بنى عدى الى بلاد بنى حماد - في تاريخ غير محدد - ونزل بالمنسيلا وأشير ، ولكنه لما خرج لهم الناصر بن علناس ، فر المنتصر الى الصحراء . ومع الحاج المنتصر وعرب عدى على البلاد بالغارات والاقتصاد ، اضطر الناصر الى استخدام الحيلة لتخلص من المنتصر فاتفق معه على الصلح على أن يولية بلاد الزاب وريفة ، ولكنه أوعز الى رئيس بسكرة وقتله ، وهو عمرو بن سندی أن يخلصه منه ، فقتله غيلة في الستينيات ، أي بعد سنة ٤٦٠ هـ / ١٠٦٧ م (١١) .

(١٠) ابن خلدون ، ج ٧ ص ٤٣ - حيث الإشارة الى ان التجاني ينصر على ان سعيد ابن خزرون قتل على أيدي عرب زغبة الهلالية سنة ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م ، ويرى ابن خلدون ان هذا الجبر مشكك من حيث ان زغبة من العرب الهلالية انما جازوا الى افريقية من مصر بعد سنة ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م ، فلا يكون وجودهم بطرابلس سنة ٤٢٩ هـ الا ان كان تقدم بعض احيائهم الى افريقية من قبل ذلك ، مثل بنى قرة الذين قدموا مع يحيى بن علي بن حمدون الأندلسي ، الا ان ذلك لم يتقله أحد .

(١١) ابن خلدون ، ج ٧ ص ٤٣ - ٤٤ - حيث النص على أنه لا يحضره اسم من ولد طرابلس بعد المنتصر ، مع الإشارة الى اختلال أحوال منهاجة حيث كانوا في تلك الأعمال الى سنة ٥٤٠ هـ / ١١٤٥ م عندما وجه رؤس الفضل أسطولاً لحصار طرابلس ، في وقت شدة واختلال أحوال . وقانون المنهل الذهب ، ص ١٢٧ - ١٢٨ - حيث عدل المؤلف سنة ٤٣٠ هـ التي انتهى فيها حكم خزرون بن خليفة وولي فيها المنتصر الى سنة ٤٥٠ هـ حتى تتسجم مع الأخبار التالية الخاصة بزحف المنتصر على بلاد القلعة حيث الناصر بن علناس ، ونهاية المنتصر سنة ٤٦٠ هـ / ١٠٦٨ م ، ولا تدري ان كان يمثل هذه المناسبة استقبال المعز بن باديس .

الطوائف في مدن الساحل :

ومع مجيء العرب على عهد المعز بن باديس ، وما أثاروه من الفوضى السياسية والاقتصادية في البلاد ، كان من الطبيعي أن يستشري داء الانفصال ليشمل المدن الرئيسية في كل أفريقية (١٢) ، وخاصة مدن الساحل ، من : صفاقس وسوسة ، شمال وجنوب العاصمة المهدية ، إلى تونس في أقصى الشمال ، وقابس في أقصى الجنوب ، حيث قامت أسر مستقلة توارثت الحكم . ولم تسلم القيروان من مهانة الطائفية تلك ، إلى حد أنها كانت عرضة للبيع والشراء عن طريق وساطة العرب الهلالية ، كما كانت أشبه بأرض لا صاحب لها يمكن أن تستبيحها جيوش الحمادين ، مما تأتي الإشارة إليه (ص ٤٥٢ وص ٤٦٠ وه ٤٦ ، ص ٤٦٢) . وبذلك يكون تميم قد ورث من المعز والده ، مملكة ممزقة الأوصال يفضل المنتزعين فيها من الثوار ، الذين يصور ابن خلدون خريطتهم ، أيام المعز ، كالآتي :

- صفاقس : ملكها حمو بن مليل البرغواطي ، قائدها ، اعتبارا من سنة ٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م .

- سوسة : صارت آخرها إلى ولاية الناصر بن علناس بن حماد ، صاحب القلعة ، وولي عليها عبد الحق بن خراسان فاستبد بها ، واستقرت في ملكه وملك بنيه .

- قابس : تغلب عليها موسى بن يحيى ، وصار عاملها : المعز بن محمد الصنهاجي إلى ولايتها ، ومن بعده أخوه إبراهيم .

وهكذا يكون قد « الثالث ملك آل باديس ، وانقسم في الثوار » (١٣) .

والى طرابلس المنتصر بن خزرون ، وأهداه هدية المال الكبيرة التي كانت قد وصلت إليه في أكياسها ، بعد أن فرزها أمامه ، وعدها ، الأمر الذي اعتبر من علامات منتهى الجور . انظر ما سبق ، ص ، وقارن ابن خلدون ، التذكار ، ص ٢٢ سواء نقل اسم المنتصر في شكل المستنصر .

(١٢) انظر ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٥ - حيث النص على أن « أصحاب البلاد طمعوا بسبب العرب ، وزالت الهيبة » .

(١٣) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٥٩ - حيث النص الأشهر « الثالث ملك آل بدرس » ، بدلا من « الثالث ملك آل باديس » ، كما تذكر في أخبارهم بعد مهلك المعز سنة ٤٤٠ هـ (٤) - والله اعلم .

الصراع مع صاحب صفاقس :

ومن بين هؤلاء القواد الذين طمعوا بسبب العرب وزوال الهيبة ، كان حمو بن مليل البرغواطي ، صاحب صفاقس ، أشدهم طمعا وأكثرهم طموحا . فبمجرد ملك تميم ، استعان حمو بطائفة من العرب ، من الأتيج وعدى ، وسار بهم في السنة التالية ٤٥٥هـ / ١٠٦٣م نحو المهديّة ، بتصد حصارها ، أو بقصد املاء شروطه على تميم ، ان لم يكن بغرض انتزاع الملك منه . والمهم ان تميما خرج للقاء حمو بعسكر من عبيده السودان ، على ما نظن ، الى جانب طائفة من العرب الذين كانوا في خدمته ، من : زغبة ورياح ، فكان الهلاية أصبحوا قاسما مشتركا بين جميع المتنافسين .

وتم اللقاء في موضع « سلقطة » ، في منتصف الطريق ما بين المهديّة وصفاقس . ورغم ما تقوله رواية ابن الأثير من أن الحرب الشديدة التي دارت بين الطرفين في تلك السنة (٤٥٥هـ / ١٠٦٣م) انتهت بهزيمة ساحقة لحمو وأصحابه ، إذ « أخذتهم السيوف فقتل أكثر حماته وأصحابه ، بينما نجا هو بنفسه الى مدينته ، وعاد تميم الى المهديّة مظفرا (١٤) » ، فإن تميما لم يستطع أن يحسم مسألة خلاف حمو ، إذ استمرت الحرب بينهما سجالا ، بين كروفر ، على طريقة حروب البادية ، كما يفهم من التراث الأدبي الخاص بالموضوع ، مما اعتنى المتأخرون بجمعه (١٥) .

(١٤) انظر ابن الأثير ج ١ ص ١٥ - بمناسبة ولاية تميم ، ص ٢٩ - حيث تفصيلات حولية سنة ٤٥٥هـ / ١٠٦٣م ، وقارن نفس الرواية في النويري ، ص ٣٤٨ - حيث انحصرت على ان العرب الذين استعان بهم حمو ، من : الأتيج وعدى ، وهو ما تقتضيه رواية ابن الأثير ، وحيث الإشارة أيضا الى استيلاء حمو في طريقه الى المهديّة ، على المنزل المعروف ببئر قشتيل ، وقارن ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٥٩ ، ص ١٦٠ - حيث الإشارة الى غلبة العرب ، وأنه كان يخالف بينهم ويسلط بعضهم على بعض ، وإن العرب انقسمت على كل من حمو وتميم .

(١٥) انظر ابن خلدون ، التذكار ، ص ٣٤ وما بعدها - حيث الاشارة الى كاتب حمو بن مليل ، وهو المظفر بن علي الذي عرف بأنه « بليغ مشهور بالبلاغة » ، والذي قال في انتصارهم ممثلا بقول أبي الطيب المتنبي :

وإن كان أعجبكم عامسكم فعدوا الى مصر في القسابل
فإن المسام الخضب الذي قتلتم به نى يد القسائل

ومما تختلط السياسة والحرب بالأدب والشعر (ص ٣٥) . فتجميع يكتب الى حمو بانتر وقمة كانت له عليه : « كتاب ايناس الطاف » ، فراجعه في الجواب منظفر ، ممثلا بقول =

وهكذا تشير حواشي ابن عذاري في السنة التالية ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م إلى جولة من الحرب بين حمو وبين تميم ، لها نفس مواصفات الجولة الأولى دون ذكر مواضع القتال ، الأمر الذي يعني أنها تكرار لنفس جولة سنة ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م ، حيث « ولت طائفة حمو أديارها ، فأخذتها السصيوف وتولتها الختوف » ، ولكن دون ذكر أنها وضعت خطأ في السنة التالية (١٦) .

سسوسة :

وبعد هذا النصر ، قصد تميم مدينة سوسة ، في نفس السنة : ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م ، ونجح في استعادتها من أهلها المخالفين عليه ، دون إشارة إلى قتال ، الأمر الذي يفسر كيف أنه عفا عنهم ، وحقق دماغهم (١٧) .

القيروان وتونس :

أما عن القيروان فقد كان يقيم بها ، واليا منذ أيام المعز ، قائد بن ميمون الصنهاجي ، وكان له إلى جانبها مدينة تونس ، وذلك لمدة ٣ (ثلاث) سنوات ، أي إلى سنة ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م ، إلى أن غلبته عليها قبائل حوارة ، فخرج عنها إلى المهدية . ولكن تميما نجح في رده إليها حيث أقام بها إلى سنة ٤٥٨ هـ / ١٠٦٦ م (١٨) .

الحرب بين الناصر بن علناس و تميم بن المعز و أتباعهما من العرب

سنة ٤٥٧ هـ / ١٠٦٥ م :

ساعات العلاقات بين تميم وابن عمه الناصر ، بسبب تدخل هذا الأخير

عبد الله بن محمد المطار :

لا تظنن امسرا افضبه	سبب ثم انقضى ذلك السبب
مسالم الصدر من الخلد ونو	اكثرت الود ولم يبد النضب
كرماد النار يبقى حرها	كأمننا فيه ولو زال اللهب

(ص ٣٦)

(١٦) البيان ، ط . بيروت : ج ١ ص ٤٢٨ .

(١٧) ابن الأثير ، ج ١ ص ٢٩ ، النويري ، ص ٣٤٩ ، قارن ابن عذاري ، ط . بيروت ،

ج ١ ص ٤٢٨ - حيث النص على أنهم كانوا نافقوا على آية عفا عنهم ، وابن خلدون ، ج ٦ ص ١٦٠ - حيث افتتاح سوسة .

(١٨) ابن الأثير ، ج ١ ص ٥٠ ، النويري ، ص ٣٥٥ .

في شئون أفريقية عن طريق المتغلبين على مدنها من القواد ، وخاصة حمو في صفاقس ، وابن خراسان في تونس ثم العرب في القيروان الذين اعتبروا مدينة عقبه سلمة هينة يمكن أن تباع أو تشتري لمن يدفع اثنى . ولم يكن من الغريب إذن ، أن تقوم تلك الحرب العجيبة بين أطراف انزاع من الأقارب الصنهاجيين ، ومن الهلاليين المتقسمين على المعسكرين جميعا ، بين أبناء العم الأعداء .

وترجع الرواية المحلية التي ينقلها ابن الأثير ، ومن بعده النويري ، أسباب النزاع بين صاحب القلعة : الناصر بن علناس وبين تميم بن المعز صاحب المهديّة ، الى بدايات النزاع الأولى بين حماد بن بلكين وبين ابن أخيه باديس ، والذي ورثه أبناء كل من الطرفين (١٩) ، فكان كلا منهما كان يرى أحقيته في الملك والتمسك بالوحدة الصنهاجية التي لا يجب أن تنجز . وهذا ما يفسر عدم خضوع الحماديين في أشير والقلعة لسلطان صاحب المنصورية والمهديّة ، قبل مجيء الهلالية ، وهو ما يفسر أيضا تدخل الناصر ابن علناس في شئون المعز و تميم منذ ضياع القيروان ، وهو السبب المباشر الذي أدى الى الحرب بين الطرفين على عهد باديس ، مع الاستمالة بالعرب .

وفي تفصيلات هذه الجزئية يظهر أن الطرف البادىء بالتجنى هو الناصر بن علناس ، وهو الطرف الأقوى اقتصاديا أى ماديا ، وبالتسالى سياسيا وعسكريا . فنتيجة لانتقال المعز من القيروان الى المهديّة ، وتخريب العرب للبلاد ، انتقل كثير من أهلها الى بلاد بنى حماد المنيعّة بجبالها الوعرة ، فعمرت بلادهم ، وكثرت أموالهم ، الأمر الذي كان يثير الحقد والاسى لدى بنى باديس (٢٠) . والظاهر أن الناصر بن علناس عندما شعر ببقوته النسبية ، أخذ يفكر في إعادة الوحدة الى الدولة الزيرية ، وضم بلاد أفريقية والقيروان الى الوطن الصنهاجي وأشير (٢١) . وهكذا كانت الأخبار

(١٩) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ٤٤ ، النويري ، ص ٣٤٩ .

(٢٠) أنظر النويري ، ص ٣٤٩ - ٣٥٠ ، ابن الأثير ، ج ١٠ ص ٤٤ - ٤٥ - حيث النص على دخول حماد في طاعة المعز ، ولكن القائد بن حماد كان يضم الغدر وخلق طاعة المعز . ولم يكن يمنعه من ذلك الا العجز . فلما رأى ما نال المعز من العرب خلع الطاعة واستبد بالبلاد . وتبعه في ذلك ولده محسن ، ومن بعده ابن عمه بلكين ثم الناصر ، وكل منهم متحصن بالقلعة دار ملكهم .

(٢١) أنظر الاستبصار ، ص ١٢٨ - ١٢٩ - حيث النص على أن صاحب القلعة كان =

تقرى الى تميم « ان الناصر بن علتناس يقع فيه في مجلسه ويغمه ٠٠٠ وانه عزم على المسير اليه بالمهدية لخصاره ٠٠٠ وانه اتصل ببعض صنهاجة وزناتة وبني هلال ، ليعينوه على ذلك » (٢٢) .

وهنا رأى تميم أن يستخدم أسلوب الكيد والوقعة ، وذلك بأن يشير حلفاءه وأصحابه الرياحيين على الناصر ، فأرسل الى أمراء بني رياح فأخبرهم ، وقال لهم : « ان المهدية في البحر ، يحصوها في البر أبراج عليها ٤٠ (أربعون) رجلا ، وان الناصر يحشد اليهم » . فوافقوه شريطة أن يقدم لهم المعونة ، فأعطاهم المال والسلاح والرماح والسيوف والدروع والدرق ، فجمعوا قوتهم ، وتحالفوا على حرب الناصر . هذا ، كما أنهم أرسلوا الى حلفاء الناصر من العرب الهلالية يقبحون مساعدتهم له ، فأجابوهم الى طلبهم ، ووعدوهم بالانهزام عند أول حملة عليهم ، على أن يعودوا ضد أصحاب الناصر ، وذلك نظير ثلث ($\frac{1}{3}$) الغنيمة . وفيما يتعلق بمن كان في معسكر الناصر من الزناتية ، فان تميما راسل زعيمهم الذي ربما كان من ولد المعز بن زيري (الزناتى المفاوى) ، واتفق معه بنحو ذلك ، فوعده أن ينهزموا بدورهم (٢٣) .

معركة سببية :

وهكذا بدأ كل من الطرفين يحشد قواته انتظارا للمعركة الحاسمة ،

اشد شوكة من صاحب القروان وأكثر جيشا . هذا ، وان كان صاحب الاستبصار يرى أن صاحب القلعة شرح نصيرا لابن عمه ، صاحب المهدية ضد العرب .

(٢٢) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ٤٥ ، التويرى ، ص ٢٥٠ :

(٢٣) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ٤٥ ، قارن التويرى ، ص ٣٥٠ - حيث انفص على ان تميما

أعطى أمراء الرياحية ، لكل واحد منهم ألف دينار وألف درع وألف رمح ٠٠٠٠ ، كما أنهم أرسلوا شيخين منهم الى بني هلال يطلبون منهم الفسار بالناصر ، فوافقوا على ذلك لأنه كان قد أفتق مع زناتة لاجراءهم من إفريقية ٠٠٠ ، كما أرسل الى زناتة بنحو من ذلك . وهنا يرقنا ابن الأثير (ج ١٠ ص ٤٤ ، ٤٦) ثم ابن خلدون بشكل أوضح (ج ٦ ص ١٩) في أشكال تاريخى من تلك الاشتكالات التى يتبع عليها صاحب العبر كثيرا ، وذلك أنهما جلا الزعيم الزناتى ، هو : المعز بن زيري الزناتى (فى الكامل) والمعز بن زيري صاحب فاس المفاوى (فى العبر) ، وهو قطعا ليس المعز بن زيري بن عطية أمير فاس والمغرب ، وصاحب الظفر عبد الملك بن المنصور بن أبى عامر ، الذى توفي سنة ٤٢٢ هـ / ١٠٣١ م . أما صاحب فاس سنة ٤٥٧ هـ / ١٠٦٥ م فكان مناصر بن عماد الذى انتهى على أيدي المرابطى سنة ٤٦٠ هـ /

فاحتوى معسكر الناصر بن علناس ، الى جانب قواته النظامية من العبيد السودان - كما نرى - جماعات من «المغاربة» (البربر) ، وصنهاجة ، وزناتة ، الى جانب الحلفاء العرب الهلالية ، من : عدى والاتبج (٢٤) ، بينما احتوى معسكر تميم قبائل الهلالية ، من : رياح وزغبة وسليم (٢٥) .

والمعروف عن تاريخ الواقعة أنها تمت في سنة ٤٥٧هـ / ١٠٦٥م ، دون تحديد الشهر أو اليوم ، كما جرت العادة ، ولا بأس أن يكون الجهل بالتاريخ الدقيق للموقعة مترتباً على نتيجتها التي كانت لصالح العرب الهلالية الذين لم يكونوا يهتمون بالتدوين ، اكتفاء بتسجيل مفاخر النصر شسعرا (٢٦) . أما عن موقع المعركة فكان بالقرب من قرية سبيبة ، القرية من الأربس التي نزلتها حشود الناصر (٢٧) ، وهي على بعد مرحلة - أى مسيرة يوم - من القيروان . وسبيبة على الطريق المؤدى من القيروان الى قلعة أبى طويل ، وهي قلعة حصاد ، مما يلي الصحراء ، وهي من المدن التي خربتها العرب عند دخولهم أفريقية (٢٨) .

وفيما يتعاقب بالمعركة ذات النتائج الخطيرة بالنسبة لتاريخ الصراع العربى الصنهاجى ، فكانت سريعة وحاسمة ، حسبما أبرمه تميم بن المعز (٢٩) . فبمجرد حملة عرب رياح ومن معهم من زغبة وسليم ، حلفاء تميم ، على حلفاء الناصر ، من عرب الاتبج وعدى « انهزمت الطائفتان » غدرا ، هزيمة

(٢٤) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ٤٤ ، وقارن التويرى ، ص ٣٤٩ ، ابن عذارى ، ط . بيروت ، ص ٤٢٩ - حيث النص على « عدد كثير من صنهاجة وزناتة وعدى والاتبج » ابن خلدون ، ج ٦ ص ٦٩ - حيث النص على أن الناصر حشد لمظاهرتهم ، وجمع زناتة وكان فيهم المعز بن زيرى صاحب فاس من مغراوة .

(٢٥) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ٤٤ - حيث النص خطأ على أنه كان معهم المعز بن زيرى الزناتى على مدينة سبتة ، بينما الصحيح أن يكون الشخص تميم بن المعز بن باديس ، وأن تكون المدينة سبيبة ، وقارن التويرى ، ص ٤٩ (نفس الرواية) ، ابن عذارى ، ط . بيروت ، ج ١ ص ٤٢٩ - حيث رياح وزغبة وسليم فقط .

(٢٦) قارن مبارك الملى ، تاريخ الجزائر ، ج ٢ ص ٥٥٧ - حيث تفسير ما قام به العرب من تخريب مناطق طينة والمسيلى - بمبالغة كتاب العرب لأنهم كتبوا لدولة بربرية بينما العرب ليس لهم دولة ، ولم يهتموا بالاعتناء السياسية .

(٢٧) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٩ .

(٢٨) الاستبصار ، ص ١٦١ و١٦٠ .

(٢٩) ابن عذارى ، ط . بيروت ، ج ١ ص ٤٢٩ .

لا رجعة فيها ، وتبعتهم في الهزيمة عساكر الناصر (٢٠) من العبيد السودان وصنهاجة ، وكذلك كان الأمر بالنسبة للزناتية . والمهم أن المعركة التي لم تستغرق وقتا ما ، حسبما تصفها النصوص ، انجلت عن خسائر فادحة في المعسكر الناصري . إذ لم يسلم الناصر بن علناس الا في ١٠ (عشرة) أفراس فقط ، بينما قتل أخوه القاسم بن علناس ، الذي ضحى بنفسه في شبيب مملكة أخيه (٢١) . أما من بقي من قتلى صنهاجة وزناتة في أرض المعركة فكانوا ٢٤ (أربع وعشرين) ألف رجل . أما عن المغانم التي شملت كل ما كان في المعسكر من رجال وسلاح ودواب وغيرها فقد آلت جميعها الى العرب الذي اقتسموها فيما بينهم ، باستثناء الألوية والطبول وخيم الناصر التي بعثوا بها الى تميم ، فمز عليه أن يأخذها ، فردها وهو يقول : « يقيح بى أن آخذ سلب ابن عمى » ، الأمر الذي رضى به العرب (٢٢) .

نتائج هزيمة سيبية :

تطويق القلعة :

انهزم الناصر بن علناس ، ونجا الى قسنطينة وعرب رياح في اثره يطاردونه الى أن لحق بالقلعة وتحصن بأسوارها . فطوقوا القلعة وخرّبوا أطرافها ونسفوا زروعها ، وعاثوا فيما حوالىها من البلدان فأفسدوها ، كما خربوا منطقتي طبنسة والمسيلة ، فتركوا ما فيها من القرى والضياع قاعا صفيصفا ، أقفر من بلاد الجن ، كما يقول ابن خلدون ، بشئ من المبالغة ، وأوحش من جوف البعير (٢٣) .

(٢٠) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ٤٦ .

(٢١) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ٤٦ ، النويرى ، ص ٥١ ، وقارنه الاستبصار ، ص ١٢٩ . حيث النص على أن أخاه ، الذى كان أسن منه ، طلب أن يعطيه تاجه والراية لتمييز في الجيش وأن ينجو بنفسه حتى يبقى للناس ، وحيث المقصود بالتاج هو عمامة الشرب المذهبة التى تسم على قالب خاص فتأتى تاجا . وكانت العمامة الواحدة منها تساوى الب ٥٠٠ دينار وال ٦٠٠ دينار وأزيد .

(٢٢) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ٤٦ ، النويرى ، ص ٢٥١ . حيث النص على هزيمة الناصر وقتل الكثير من أصحابه ونهب أمواله ومضاربه ، وقتل أخيه القاسم بن علناس ، وابن عذارى ، ج ١ ص ٢٨٩ . حيث انهزم المعسكر وصير العبيد الى أن وصلت رماح العرب اليه . ومات من العبيد خلق عظيم فدهو بأنفسهم . أما عن المغانم فى معسكر السلطان فشملت الذهب والفضة والأمتعة والأسباب والأثاث والحف والكراع ما لا يعلم عبده الا الله . فالأخيرة ١٠ آلاف ، والجمال ١٥ ألفا ، ٠٠٠ ، فما خلص لأحد من الجند عقال فما قوته .

(٢٣) العير ، ج ٦ ص ١٩ .

وازاء ضغط الهلالية المستمر على بلاد الناصر بن علناس ، بعد أن ملكوا الضواحي ، وقعدوا للولاء بالمراسد ، وأخذوا منهم الاتاوات ، اضطروا الناس الى مخرج سكنى القلعة ، واختط بالساحل مدينة بجاية ، وأعدوها لنزله ، وجعلها قاعدة للملكه (٣٤) ، وهي التي عرفت أول الأمر باسم الناصرية ، ثم باسم المنصورية نسبة الى ابنه المنصور (٣٥) .

بناء مدينة بجاية :

هذا ، ولو أن الرواية المحلية تقدم سببا مختلفا لبناء بجاية ، وأن كان بمناسبة الوساطة في الصلح بين تميم بن المعز وبين الناصر بن علناس ، عندما وجد مستشاروهما أن المصلحة تقتضي بذلك خفسا على الدولتين الصنهاجيتين مما يتهدهما من خطر الهلالية الخارجي ، الأمر الذي لا يحتمل مزيدا من التهديد الداخلي من قبل الزيريين أنفسهم .

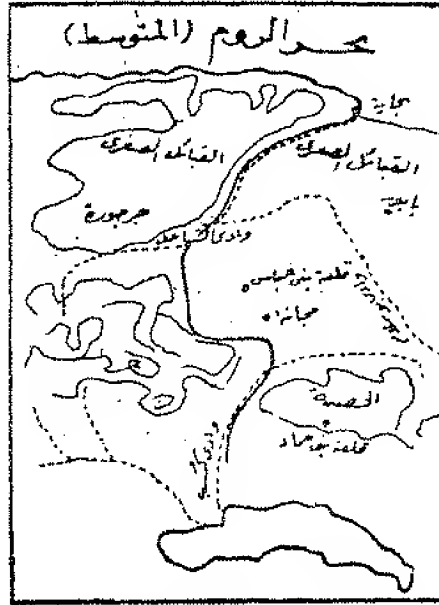
ظروف اختيار المكان :

فرغم ما تقوله الروايات من أن انتصار العرب الرياحية ومن كان معهم من بني عسى في وقعة سيبية سنة ٤٥٧ هـ / ١٠٦٥ م ، كان بتدبير تميم ابن المعز فإن نفس الرواة يقولون أن انتصار العرب أهم تميما ، وأنه أصابه لذلك حزن شديد . وعندما عرف الناصر بن علناس ذلك أرسل اليه وزيره أبا بكر بن أبي الفتوح ، الذي كان يجب الاتفاق بينهما ، بل ويهوى دولة تميم ، حتى أنه كان يعرض الناصر على الاتفاق في سبيل اخراج العرب من البلاد . وعندما قبل تميم فكرة الصلح أرسل بدوره وزيره محمد بن البليغ رسولا الى الناصر ، على أساس أنه رجل غريب لا يرجو مصلحة شخصية من تلك الوساطة . ولما كان ابن البليغ قد اتخذ طريق الساحل من المهدية ، ونزل في موضع بجاية من حيث كان عليه أن يسلك طريق الوادي نحو القبلية حيث القلعة ، فإنه أعجب بالموضع الذي كانت تقطنه جماعة « رعية من البربر » يعرفون ببجاية ، ورأى أن ذلك المكان يصلح

(٣٤) المير ، ج ٦ ص ٢٠ ، وانظر الاستبصار ، ص ١٢٩ - حيث النص على أنه لما نجح (الناصر) الى القلعة ، نزلت عليه جيوش العرب ، وضيّقوا عليه ببلاده ، فكان يصانهم حتى ضاق ذمرا بهم ، وكان لا يقدر على التصرف في بلاده ، فطلب موصما يبنى فيه مدينة ، ولا يلحقه فيها العرب ، فدل على موضع بجاية ، وكان مرسى ، فبناها .

(٣٥) الاستبصار ، ص ٤ ص ١٢٨ .

أن يكون مرسى ومدينة ، وأشار على الناصر بذلك ، على أن تكون دار مليكة التي تقربه من المهديّة ، بل وحذره من مخامرة وزيره أبي بكر بن الفتوح الذي كان على اتصال بتميم . وفى مقابل ذلك عرفة بعورات تميم وأغراه به ، وعرض عليه أن يدخل فى خدمته فى أقرب فرصة مواتية .



الطريق ما بين القلعة وبجاية

(شكل ٩)

وقيل أن يعود ابن البليغ الى المهديّة كان قد زار موضع بجاية مع الناصر ، وأراه موضع الميناء والبلد والدار السلطانية ، الأمر الذى أسر الناصر حتى أنه أمر من ساعته بالبناء (٣٦) .

(٣٦) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ٤٦ - ٤٧ - حيث الإشارة بعد ذلك الى انكشاف أمر ابن البليغ لدى تميم الذى أوقع به فقتله وغرق جثته ، وقارن النويرى ، ص ٣٥١ وما بعدها - حيث النص على أن ابن البليغ استغاث بالشريف الفهرى دون جدوى ، وقارن معجم البلدان لياقوت (بجاية) ، ص ٦٢ .

اهمية الموقع :

اما عن أهمية موقع مدينة بجاية فتتمثل في توسطها بين عدد من عواصم المغرب الأوسط ، فبينها وبين جزيرة بني مزغناي (الجزائر العاصمة) مسافة ٤ أيام ، وبينها وبين ميله ٣ أيام (٣٧) ، وهي على ٤ أيام من قلعه بني حماد (قلعة أبي طويل من قبل) بفضل طريق الوادي القبلي ، المؤدى اليها رغم ما فيه من عقاب وأوعار (الاستبصار ، ص ١٢٩) (انظر شكل رقم ٩ ، ص ٤٥٧) . وهكذا تكون المدينة قد جمعت بين مزايا الميناء البحري الذي تركب منه السفن وتساخر الى جميع الجهات (٢٨) ، كما تميزت بريا بارتباطها بالعواصم المحيطة بها . فالبحر يحيط بها من ثلاث جهات ، في الشرق والغرب والجنوب ، ومع ذلك قلها طريق ضيق الى جهة الغرب ، كان يسمى المضيق ، وذلك على ضفة النهر المعروف بالوادي الكبير ، الذي يقرب منها بنحو الميلين أو أقل ، وهو أسهل الطرق المؤدية اليها (٣٩) . وبفضل حصانة الموقع لم يكن للعرب اليها سبيل ، الأمر الذي شجع أهل أفريقية على الهجرة اليها ، وأدى الى ازدهار العمران وزيادته فيها . وهكذا كان لا يدخل اليها العرب الا من يبعث السلطان في طلبه ، فيدخلها أفراد وفرسان دون عسكر . « فبقي صاحب بجاية في ملك شامخ ، وعن باذخ ، يضاهي في ملكه صاحب مصر - أي الخليفة (٤٠) » .

التخطيط والبناء :

أما عن تخطيط المدينة فالقصور الأميرية تقع في أنف الجبل الداخل في البحر ، فهي في أحسن موضع حيث قصور ملوك صنهاجة ، ولهذا السبب عرف بالملوكة ، كما يظهر . ويصف صاحب الاستبصار تلك القصور الحمادية بأنه لم ير الراؤون أحسن منها بناء ، ولا أنزه موضعا ، ففيها طاقات مشرفة على البحر ، عليها شبائيك الحديد ، والأبواب المخرمة المحنية ، والمجالس المقرصة المبنية حيطانها بالرخام الأبيض من أعلاها الى أسفلها ، قد نقشت أحسن نقش ، وأنزلت بالسذهب واللازورد . وقد كتبت فيها

(٣٧) معجم البلدان لياقوت (بجاية) ، ج ٢ ص ٦٢ .

(٣٨) معجم البلدان ، ج ٢ ص ٦٢ .

(٣٩) الاستبصار ، ص ١٢٩ - ١٣٠ .

(٤٠) الاستبصار ، ص ١٣٠ .

الكتابات المحسنة ، وصورت فيها الصور المحسنة ، فجاءت من أحسن القصور وأتمها منتزها وجمالا (٤١) .

وهما يؤسف له أنه لم يصلنا شيء من قصور بجاية هذه ، كما هو الحال بالنسبة للقصور الزيرية كما كشفت عنه التنقيبات الأثرية في قلعة بني حماد حيث كان قصر البحر بيوانكه وصحونه وقاعاته أو قصر المنار الشاهق الارتفاع بقاعته المربعة ، ودرجته الدائري ، وقبابه العسائية وتضليلاته العمودية ، ومشكاواته الشاهقة . وبناء على ذلك يرجع الباحثون الى ما بقي من نماذج القصور الصقلية التي أنشئت في العهد النورمندى ، مثل : قصر العزيزة والقبّة في بلم ، في محاولاتهم المرهقة لاستكشاف السمات العامة للعمارة الفاطمية المغربية (٤٢) .

التطور :

أما عن منطقة بجاية فهي غنية بزراعتها وكثرة فواكهها . فهي مطلة على فحصى قد أحاطت به جمال تسقيها الأنهار والعيون ، وأكثره بساتين . أما عن نهرها الكبير ، فعليه الكثير من جناتهم ، وقد صنعت عليه نواعير تسقى من الأنهر ، وله منتزه عظيم (٤٣) . وهكذا ذاعت شهرة المدينة ، وأصبحت مرسى عظيما تحط فيه سفن الروم من الشام ومن غيرها ، وسفن المسلمين من الاسكندرية بطرف بلاد مصر ، وبلاد اليمن والهند والصين وغيرها (٤٤) . وبذلك كثرت أموال بجاية وانتعشت الأحوال الاقتصادية في بلاد القبائل ، ورسخ ملك سلاطين بني حماد ، واستفحلت الحضارة الصنهاجية في دورتها الحمادية الثانية .

تميم بن المعز بن باديس ،

والصراع مع أمراء المتغلبين في المدن الافريقية :

بعد هزيمة الناصر بن علناس أمام العزب في سببية سنة ٤٥٧هـ /

(٤١) الاستبصار ، ص ١٣٠ .

(٤٢) أنظر للمؤلف ، المسارة والفنون في دولة الاسلام ، الاسكندرية ، ١٩٨٦ .

ص ٢٨٥ .

(٤٣) الاستبصار ، ص ١٣٠ .

(٤٤) الاستبصار ، ص ١٣٠ .

١٠٦٥م ، اطمأن تميم بعض الشيء من جانب بنى عمه أصحاب القلعة ، وأصبح لديه من الوقت ، ومن الجهد ما يصرفه في إعادة الوحدة الى بلاد أفريقية ، ولو على حساب المتغلبين من حلفاء بجاية حيث استقر الناصر بن علناس .

في القيروان وتونس :

كان المعز بن باديس قد عهد بولاية كل من القيروان وتونس الى قائد بن ميمون الصنهاجى الذى أقام بالقيروان ، وأتاب عن نفسه في مدينة تونس : عبد الحق بن خراسان ، على ما يظهر . وعندما غلبته قبيلة موارة على القيروان رده تميم حيث بقى في ولايته الى سنة ٤٥٨هـ / ١٠٦٦م . (ما سبق ، ص ٤٥١) ، حيث أظهر الخلاف ، ورأى أن يجرب الاستقلال ، بتحريض نائبه ابن خراسان في تونس ، من حيث أنه التجأ الى طساعة الناصر بن علناس ، راعى ابن خراسان . وهنا سير تميم عسكريا كثيفا نحو القيروان فتركها قائد الصنهاجى ، وسار الى الناصر بن علناس . وهكذا دخل عسكري المهدي الى القيروان ، واكتفوا منها بهدم دور القائد ، قبل أن يوجهوا أنظارهم نحو تونس ، اذ الحقيقة ان القيروان كانت واقعة في دائرة نفوذ العرب الريحانية وحلفائهم من أعوان تميم .

وفي تونس ضربوا الحصار على ابن خراسان الذى نجح في الدفاع عن مدينته ومواجهة قوات المهدي لمدة ١٤ شهرا ، انتهت بالاتفاق على أن يغير ابن خراسان تبعيته ، فيدخل في طاعة تميم بدلا من الناصر بن علناس (٤٥) . وبعد أن أقام قائد بن ميمون الصنهاجى في كنف الناصر بن علناس بالقلعة لمدة سنتين ، رجع الى أفريقية وسيطا لحصو بن مليل ، صاحب صفاقس . لكى يحتاج له القيروان من : مهني بن على أمير زغبة . وكان ثمن تلك الوساطة أن عهد اليه حصو من جديد بولاية القيروان ، فعاد قائد اليها ، وبني سورها وحصنها ، تحت اسم تميم وبصره (٤٦) .

(٤٥) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ٥٠ ، النويرى ، ص ٣٥٥ - ٣٥٦ ، ابن عذارى ، ط ١ ص ٤٢٦ - عن حصار تونس فقط ، ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٦ .
(٤٦) انظر النويرى ، ص ٣٥٦ ، وقارن ابن الأثير ، ج ١٠ ص ٥٠ - حيث راسل قائد امراء العرب من بجاية واشترى منهم اماراة القيروان ، فلما أجابوه عاد اليها ، ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٦ - حيث تحديد شخصية الزعيم الزغبى الذى باع القيروان ، أما التواريخ فمتهمة .

وهكذا تكون العلاقة قد بقيت فاترة بين الناصر بن علناس وتميم.
ابن المن بن باديس ، منذ وقعة سببية ، ان لم تكن عدائية بشكل سافر .
فإنناصر وهو في قاعدة ملكه في القلعة وبجاية كان يهين بشكل أو بآخر
على المتغلبين على مدن أفريقية الرئيسية ، من القيروان الى تونس وصفاقس .
فكان الضغائن كانت كامنة مع الأحقاد في نفوس أبناء العم الأعداء ، من
الحماديين والباديسيين ، تماما كما يتقد الجمر تحت الرماد ، الأمر الذي
ترتب عليه أن الصلح بين تميم والناصر بن علناس الذي تأكد بالمصاهرة
لم يتم حقيقة الا في سنة ٤٧٠ هـ / ١٠٧٧ م (ما بعد ، ص ٤٦٣) .

غارة قارية للناصر بن علناس بأفريقية :

وهكذا كان الناصر بن علناس ، بعد سنتين ، يقوم بحملات عسكرية.
سافرة في بلاد تميم . فهو في سنة ٤٦٠ هـ / ١٠٦٨ م يقوم بمعاونة حلفائه
من عرب الأنبج بغارة كبرى يخترق فيها بلاد أفريقية ، بدأ بمدينة الأريس
الاستراتيجية الهامة ، على بعد يوم من القيروان ، ويضيق عليها الحصار حتى
يفتحها ، ويعطي أهلها الأمان ، وإن عاقب عاملها ابن مكرز بالقتل (٤٧) ،
وانتهاء بالوصول الى القيروان التي دخلها مع حلفائه العرب (٤٨) ، ولو أنه
لم يجرؤ على البقاء طويلا في المنطقة ، حيث عاد مسرعا من القيروان الى قلعته.
خوفا من جموع العرب الراحية وأحلافهم الزغبية (٤٩) . وذلك في الوقت
الذي كانت بلاد المغرب الأقصى وصحراواتها تنوج بحركة المرابطين من
الملثمين . ففي السنة التالية ، ٤٦١ هـ / ١٠٦٨ م ، كان أمير لتونة يستبد
بالمغرب ، ويدخل في طاعته قبائل المصامدة وبلاد درعة وسجلماسة ، بعد
أن تغلب على زناتة المستوطنين هناك (٥٠) ، في الوقت الذي كان العمل في
بناء العاصمة المرابطية الجديدة مراكش ، يقوم على قدم وساق بمعرفة الزعيم
اللمتوني أبي بكر بن عمر (٥١) . فكان حركة الانقاذ قد بدأت تتبلور في
المغرب الأقصى .

(٤٧) ابن عذاري ، ط . بيروت ، ج ١ ص ٤٢٩ .

(٤٨) ابن عذاري ، ط . بيروت ، ج ١ ص ٤٣٠ .

(٤٩) ابن عذاري ، ط . بيروت ، ص ٤٣٠ .

(٥٠) ابن عذاري ، ط . بيروت ، ص ٤٣٠ .

(٥١) ابن عذاري ، ط . بيروت ، ص ٤٣٠ .

شريط الأحداث الصغيرة في أفريقية والمغرب الأوسط

دنا بين الصنهاجيين والهلالية :

وهكذا يستمر سيناريو الاضطراب في أفريقية والمغرب الأوسط سائرا بنفس الايقاع البطيء ، ما بين غارات ثارية وغارات مضادة ، لا ندري ان كان هدفها محاولة إعادة الوحدة للبلاد تحت هذه الرايات أو تلك ، أم هدفها تكريس الفتنة والانفصال ، بقصد أو بغير قصد آ

ففي سنة ٤٦٥هـ / ١٠٧٢م كان أسطول الهندية ينطلق بأوامر من تميم بن المعز لافساد المراكب الشرقية التي وصلت الى ميناء صفاقس(٥٢) بقصد اضعاف حمصو بن مليل الذي نشط في البحث عن موارد جديدة في الشرق ، بعد أن ربط مصيره بصاحب بجاية في الغرب .

خروج زغبة من أفريقية على أيدي رياح :

وبينما كان الصراع فيما بين الصنهاجيين يضعف كلا الطرفين : الحسادي والباديسي ، كان العرب الهلالية ، بدورهم ، يتصارعون فيما بينهم في سبيل الهيمنة على البلاد . ففي جانب عرب تميم في أفريقية قام الصراع شرسا بين رياح وزغبة ، وانتهى في سنة ٤٦٧هـ / ١٠٧٤م بغلبة رياح وطرد زغبة من أفريقية(٥٣) ، الأمر الذي تطلب من الرياحيين مساومة الناصر بن علناس لشراء مدينة القيروان(٥٤) التي كانت وقتئذ في حيازة زغبة . والظاهر ان الفراغ الذي تركته زغبة في أفريقية تطلب نزوح قبائل عربية جديدة من برقة ، نزلت حول القيروان ، سنة ٤٦٨هـ / ١٠٧٥م ، الأمر الذي يعني ان زغبة انضطحت نحو الغرب عبر بلاد بني حماد حيث كانت على علاقة جيدة بها ، وهو ما كان يسمح من قبل للزعيم الزغبى : مهني بن علي ببيع القيروان لاتباع الناصر بن علناس (ما سبق ، ص ٤٥٢ ، ٤٦٠) .

(٥٢) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ٦٨ ، ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٦٠ ، قارن ابن عذاري ، ط . بيروت ، ج ١ ص ٤٣٠ - حيث التاريخ بين ٤٦٦هـ / ١٠٧٢م - ٤٦٧هـ / ١٠٧٤م .

(٥٣) ابن عذاري ، ط . بيروت ، ج ١ ص ٤٣٠ .

(٥٤) ابن عذاري ، ط . بيروت ، ج ١ ص ٤٣٠ .

الصلح بين تميم بن المعز والناصر بن علناس :

وكان من سوء حظ عرب بركة ان كانت سنة ٤٦٩ هـ / ١٠٧٦ م التي اعقبت مجيئهم الى افريقية ، سنة « مجاعة عظيمة ووباء عظيم ، مات فيه من الناس خلق كثير ، ولا بأس ان كانت لسنة الجذب تلك آثارها في اشتعال الفتنة التي كانت هامة بين الأميرين الزيريين ، المتنافسين في بجاية المهديّة ، والتي لا نعرف موضوعها أو أسبابها . ولكن المهم أن الرجلين استمعا الى صوت العقل ، وتأكدا من عقم الصراع فيما بينهما ، وانتهيا الى تحييد سلوك طريق المصالحة التي عقداها بينهما هذه المرة ، سنة ٤٧٠ هـ / ١٠٧٧ م ، وتأكد ذلك الصلح بالمصاهرة ، فقام تميم بعقد زواج الناصر من ابنته : السيدة بلارة ، وتجهيزها اليه برا من المهديّة الى بجاية (٥٥) .

استمرار الصراع مع المتغلبين على المدن الساحلية :

وفي نفس سنة ٤٧٠ هـ / ١٠٧٧ م ، عندما استقرت العلاقات بين المهديّة وبجاية ، كان تميم يستخدم ابنه واليا على مدينة طرابلس الغرب (٥٦) ، بمعنى العناية بتأمين الحدود الشرقية ، مثلما تأمنت الحدود الغربية . ولما كان الطريق الى طرابلس يمر بقابس ، كان من الطبيعي أن يعمل تميم على اعادتها الى الطاعة ، وهذا ما حاوله سنة ٤٧٤ هـ / ١٠٨١ م ، حيث كان بها ماضى بن محمد الصنهاجى الذى وليها بعد أخيه ابراهيم (٥٧) ، وإن لم يكن يعمل مباشر ، وذلك أنه اكتفى بأن يضيق بالعساكر على أهلها ، ويعيث بهم فى بسائتها الكثيفة ، التى كانت تعرف لذلك باسم القسابة ، فأفسدها (٥٨) .

وكان من الطبيعي أن يؤدى فشل تميم فى القيام بعملية عسكرية مباشرة ضد قابس الى طمع المتغلبين من عرب وزيرو ، من استشعروا ضعفه

(٥٥) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٠٧ - حيث النص على ان تيمسا أصبحها من الخي والجهاز ما لا يحده ، بينما رد المهر الذى دفعه الناصر ، ومبلغه ٣٠ ألف دينار . فلم يأخذ منها الا دينارا واحدا فقط ، وقارن ابن عذارى ، ط . بيروت ، ج ١ ص ٤٣٠ ، ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٦٠ .

(٥٦) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٠٧ ، ابن عذارى ، ط . بيروت ، ج ١ ص ٤٣١ .

(٥٧) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٦٠ .

(٥٨) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٢١ ، ابن عذارى ، ط . بيروت ، ج ١ ص ٤٣١ . ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٦٠ - حيث النص على انه حاصرها ثم أخرج منها .

الأمير تميم ، وطعموا في منازل دار ملكه بالمهدية نفسها ، فضلا عن القيروان ، فلعل وعسى أن تنجح التجربة . ففي سنة ٤٧٦ هـ / ١٠٨٣ م ، قام الزعيم العربي ملك بن علوي الصخري بحشد جموعه ، وسار إلى المهدية ليضرب عليها حصار ، ولكن ساء من الرجل بالامير تميم الذي نجح في دفعه بعيدا عن اسوار المهدية . وهنا قرر زعيم العرب الهلالية أن يجرب حظها مرة أخرى مع القيروان ، التي كانت اشبه بمدينة مفتوحة ، ونجح فعلا في دخولها . وهنا استعرض تميم كل فواه ، ووجد انه العساكر العظيمة التي ضربت عليه الحصار ، فلما رأى أنه لا طاقة له بمواجهة قوات تميم خرج عنها وتركها ، فاستولى عليها عسكر تميم ، وبذلك تكون القيروان قد عادت إلى ملكه مرة أخرى (٥٩) .

والظاهر أن نجاح تميم في تجربة قواته أمام العرب ، رفعت من معنويات قواده ، ومن حماس رجاله ، وذلك أنه في جولاته الحربية التالية التي تذكر له سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٩٦ م ، تمكن من القيام بحملة مزدوجة أو بحملتين عسكريتين دفعة واحدة ، ضد كل من مدينتي قابس وسفاقس ، الأمر الذي أثار انتباه الكتاب فنصصوا على الحدث وكأنه معجزة تاريخية تذكر للأمير الزيري ابن العز وحفيد باديس (٦٠) .

أساطيل جنوة وبيزا تهاجم المهدية وزويلة

سنة ٤٨٠ - ٤٨١ هـ / ١٠٨٨ - ١٠٨٩ م :

الأسباب :

ومن الأمور المثيرة للانتباه أيضا ، أنه وسط دوامات الاضطرابات الداخلية والصراعات الطائفية التي كانت تموج بها البلاد ، تفاجأ مدينة المهدية ، في السنة التالية ، بعد ما دبره لها العرب سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م ، بمفاجأة بحرية أشد هولا من كل ما سبق ، وذلك عندما داهمتها أساطيل كل من جنوة وبيزا سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م ، وهو الأمر الذي يمكن أن يثير

(٥٩) ابن الأثير ، ج ١ ص ١٢٢ ، النويري ، ص ٣٥٦ ، ابن عذاري ، ط . بيروت ، ج ١ ص ٤٣١ ، ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٦٠ .
(٦٠) ابن الأثير ، ج ١ ص ١٥٩ - حيث النص على أنه حصر المدينتين في وقت واحد ، يوفرق عليها العساكر ، ابن عذاري ، ط . بيروت ، ج ٢ ص ٤٢١ - حيث النص على أنه حاصر المدينتين في زمن واحد « مما لم يسمع بمثله » .

الجدل أيضا ، حول أسباب ذلك الغزو ودواعيه ، حقيقة يمكن القول أنه بانتقال المعز بن باديس من القيروان الى المهديّة غيرت الدولة الزيرية وجهتها نحو البحر فأصبحت دولة بحرية ، بعد أن فقدت الدواخل التي غلب عليها الاستلابية . وأنها بعملها هذا أثارت مخاوف القوى البحرية في المتوسط ، وقتئذ . وهذا ما يقول به ابن الأثير فعلا ، عندما يذكر ابتداء الحادثة بذكر سببها ، فيقول عن تميم انه « أكثر غزو بلادهم (الروم) في البحر فخر بها وشتت أهلها » ، وهي الرواية التي تحسن الظن بالأمير تميم وبدولته التي لم تفقد الدواخل فقط ، بل فقدت السواحل أيضا ، حيث قام المتغلبون في كل من تونس وسوسة وصفاقس وقابس . فكان دولة تميم في المهديّة كانت في الحقيقة معرضة للعدو البحري ، بغير عمق استراتيجي كما يقال الآن .

والظاهر ان مقالة ابن الأثير مجرد استنتاج عقلي تقضي به سلامة الحس واصل المنطق ، لولا أن الوقت كان بعيدا عن ذلك الذي قامت فيه الأساطيل الاغلبية بفتح صقلية ، وبحصار الروم أيضا في جنوب إيطاليا ، وكذلك الأمر بالنسبة لأساطيل المهديّة الفاطمية التي كانت تقوم بالغزو بعيدا حتى جنوة دون التوقف في صقلية . فمنذ انتقال الخلافة الفاطمية الى القاهرة أصبح كل ذلك من ذكريات الماضي ، حتى فقد البحارة في سواحل أفريقية حبيبهم لمهنتهم ، وتطلبت تعيبتهم للأسسطول أيام بلكين ، وضسّعهم في السجون ، الأمر الذي انتهى باضطرابهم وفرارهم من مراكزهم بعد أن نهبوا (ما سبق ، ص ٣٢٨) . وهكذا يقف ابن الأثير وحده بفكرة الغزو والجهاد البحري الذي كان يقوم به تميم بن المعز بن باديس ، لا يشاركه فيها أحد ، وإن كان ذلك لا يمنع من قيام نشاطات جهادية خاصة في البحر يقوم بها أفراد أو جماعات ممن اتخذوا « القرصنة » والبحر حرفة وطنية ، وهو الأمر المقبول وإن لم نملك له دليلا فيما بين أيدينا من الحوليات البحرية .

وهكذا ، وعلى عكس ابن الأثير يتوسع ابن عذارى في أسباب الغزو البحري الخارجي للمهديّة ، فيصنفها بعد « قدر الله تعالى » الى الأسباب الآتية :

- غيبة عسكر السلطان عن المهديّة - في مهمات داخلية أخرى .
- مفاجأة الروم - التي تعنى عدم وجود اعدادات بحرية للانداز المبكر ، كما يقال الآن ، فضلا عن الدفاعات البحرية الذاتية ، من طبيعية واصطناعية .

- خلو كافة الناس من الأسلحة والعدد .
- قصر الأسوار وتهدمها .
- تكذيب تميم يخبرهم - الأمر الذي يعنى ان الصراع البحرى مع العدو لم يكن ضمن موضوعات تفكيره .
- سوء تدبير عبد الله بن منكود ، متولى امر الدولة فى قسده مخالفة قائد الأسطول فى الخروج اليهم للقائهم فى الماء . ومنعهم من النزول الى البر - بمعنى عدم قساعة المسئولين السياسيين فى الدولة ، وكذلك الفنيين المسئولين عن الأسطول . فى كفاءة القوات البحرية ، وقتئذ ، فى مواجهة الأساطيل الممتدة .

ومثل هذا كان رأى شهود العيان ممن سجلوا الحدث شعرا وبشكل موجز ، كما فعل أبو الحسن الحيداد ، فى قصصيدته التى يقول فى بعض أبياتها :

غزا حمانا العدو فى عديد هزم السدنى كدرة أو اللقى
جاءوا على غرة الى نقر قد جهلوا فى الحروب ما عرفوا

هكذا لم يكن الهجوم البحرى الكبير على المهدية من قبل جنوة وبيزا مجرد رد فعل لأعمال عدوانية من قبل الأسباطيل الأفريقية ضد أراضي المدينتين البحريتين أو ضد مصالحهما التجارية أو الاقتصادية ، بل كانت مجرد استعراض للقوة وكسب للنفوذ السياسى والامتيازات التجارية والاقتصادية . وذلك فى اطار عملية الانطلاق التى عرفتها أوروبا الغربية اعتبارا من القرن الحادى عشر الميلادى / هـ ، فى مقابل عملية التوقف والانكماش التى عرفتها دولة الاسلام ، وخاصة فى جنوب إيطاليا وصقلية وأفريقية التونسية بعد رحيل الفاطميين .

الحملة :

والمهم أن القوات البحرية المهاجمة التى حوت ما بين ٣٠٠ و ٤٠٠ قطعة بحرية (٦١) ، شارك فيها البيشانيون (أهل بيزا) والجنويون ، وغيرهم فى

(٦١) ٤٠٠ قطعة عند ابن الأثير والنويرى ، و ٣٠٠ عند ابن عذارى وابن خلدون ، وابن الخطيب .

مكل ناجية. (التكاثر ، ج ١٠ ص ١٦٥) ، وأهل أمالفي في جنوب إيطاليا ، وفوات كبيرة من قبل البابوية (٦٢) ، وتطلب الأمر ٤ (أربع) سنوات لأعداد هائلة الأسطول حتى يصبح جاهزا للحملة . ولما كانت الروايات تختلف في تحديد تاريخ الحملة ، ما بين سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م وسنة ٤٨١ هـ / ١٠٨٨ م ، فلا بأس أن يكون التاريخان صحيحين ، من حيث بدء الهجوم سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م ، واستغراق العمليات الحربية والاحتلال ثم المفاوضات من أجل الصلح بقية السنة حتى دخول سنة ٤٨١ هـ / ١٠٨٨ م .

التجمع في جزيرة قوصرة :

أما عن خطوات الحملة فقد بدأ تجمع المراكب المهاجمة في جزيرة قوصرة ، وهي بنتلاريا Fantellaria الواقعة شمال تونس ، وكانت ٤٠٠ قطعة حسب رواية ابن الأثير ، الأكثر تفصيلا ، فأسرع أهل قوصرة بالكتابة إلى المهدي بالبريد الطائر ، بواسطة الحمام الزاجل (٦٣) . وهنا تشير أصبح الاتهام إلى تمسك بالتقصير في اتخاذ الإجراءات المناسبة لمواجهة خطر الغزو . فتقول رواية أنه رفض أن يصدق تحذير أهل قوصرة (٦٤) ، واعتبره

(٦٢) أرشميالد لويس ، القوى البحرية والتجارية في حوض المتوسط ، الترجمة العربية ، ص ٣٧١ ، وأنظر إسماعيل العربي ، دولة بني حماد ، ص ١٧٦ وما بعدها - حيث موضوع علاقة الناصر بن علناس بالبابا جريجوري السابع (١٠٧٣ - ١٠٨٥ م) ، حيث تم تبادل الرسائل بينهما ، ووصلتنا منها الرسالة الخاصة برد البابا على رسالة الناصر سنة ١٠٧٧ م / ٤٧٠ هـ ، والتي نشرها دوماس لا توي ، في معاهدات السلام والتجارة في العصر الوسيط ، والتي قام بدراستها ش . كورتوا Ch. Courtois وحاول أن يجعل لتلك العلاقة التي أقامها الناصر مع البابا جريجوري السابع ، الذي يلقب الأمير الحماضي بـ " ملك موريتانيا وولاية سطيف الأفريقية " ، أهدافا سياسية موجهة ضد قرابته الزيريين الذين كانوا يؤيدون المسلمين في صقلية ضد الغزاة النورمنديين حتى سنة ١٠٧٨ م ، وهو ما يرفضه المؤلف على أساس أن رسالة البابا لا تحوي أية إشارة إلى موضوعات سياسية . ورغم تقدم هذه العلاقة الخاصة بين الناصر وجريجوري بحلول أكثر من عشر سنوات على حملة المهدي الملم أن ما يرفضه المؤلف يمكن أن يكون مقبولا هنا من حيث أن البابوية كانت تتدخل ضد الزيريين تأييدا للنورمنديين ضد المسلمين في صقلية . وما يمكن أن يكون قرينة لذلك هو هجوم بيزا قبل ذلك على بدم عاصمة صقلية الإسلامية سنة ١٠٦٣ م - الأمر الذي أزعج مدن إتاليهم كالبيا التي كانت على صلات تجارية وثيقة مع العرب وخامسة ساليرنو (أرشيبالد لويس ، الترجمة ، ص ٣٧١) .

(٦٣) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٦٦ ، الزيرى ، ص ٣٥٦ - حيث انقص على أنهم أتوا

كلهم إلى جزيرة قوصرة وأخربوا ونهبوا وأحرقوا .

(٦٤) ابن عذاري ، ط - بيروت ، ج ١ ص ٤٣٢ .

بمثابة بلاغ كاذب ، الهدف منه ازعاج السلطات ، كما يقال في المصط الحديث . وما يؤسف له أننا لا نعرف أسباب هذا الموقف السلبي من قبل الأمير تميم ، ولا بأس أن يكون قد تصور أنها مجرد غارة مألوفة على تلة الجزيرة المنعزلة في البحر لا تستحق أن يعرض بسببها أسطولها للخطر والحقيقة ان الرواية تحاول تبرير موقف تميم هذا ، من حيث أنه أراد يسير مقدم الأسطول : عثمان بن سعيد المعروف بالمهر ، ليمتص العدو البحر من النزول الى البر ، لولا نصيحة الوزير : عبد الله بن منكود للأمير بالا يفع ذلك ، نكاية في عدوه قائد البحرية الذي كان يؤله ، من غير شك ، أن يقف موقف المتفرج (٦٥) .

وهكذا وقفت المهديّة موقف المدينة المفتوحة بالنسبة لأساطيل العدو البحري الكثيرة ، من حيث ان أسطول المهديّة ليس ندا لها ، ومن حيث غياب القوات البرية النظامية التي كانت في مهمات قتالية ضد ثوار الداخل أما عن موقف قوات الداخل من قبائل البربر والعرب فلا ذكر لها (٦٦) وهكذا نزل العدو الى البر في أعداد هائلة ، إذ بلغ عدد مقاتلته ٣٠ (ثلاثين ألفا) (٦٧) ، وهو رقم مقبول على أساس متوسط ١٠٠ (مائة) رجل لكل سفينة ، علما بأن السفن الكبيرة من نوع الشوانى كانت تحمل أكثر من هذا العدد . وطلع الغزاة الى البر دون مقاومة ، ونهبوا وأحرقوا ما صادفهم على طول الطريق الى أن دخلوا مدينة العامة زويلة التي نهبوها هي الأخرى وقتلوا الناس فيها وأحرقوهم بالنار ، حسبما تبالغ الرواية على ما نظن (٦٨) ورغم ما تقوله رواية ابن عذارى ، وهي أصل رواية ابن خلدون وابن الخطيب من أن المغيرين دخلوا كلا من المهديّة وزويلة (٦٩) ، فمن الواضح أن رواية

(٦٥) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٦٦ ، ابن عذارى ، ط ٠ بيروت ، ج ١ ص ٤٣٢ - حينئذ انتص على سوء تدبير عبد الله بن منكود فتولى أمور الدولة (الوزير) في قصده مغالطة قائد الأسطول في الخروج اليهم للقاءهم في الماء ومنعهم من النزول الى البر .
(٦٦) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٦٦ ، النويرى ، ص ٣٥٦ .

(٦٧) حسب رواية ابن عذارى ، ط بيروت ، ج ١ ص ٤٣١ ، وحسب رواية ابن خلدون ج ٦ ص ١٦٠ ، ابن الخطيب ، ص ٧٨ - وقارن ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٦٦ - الذي لا ينصر على عدد المقاتلة في الأساطيل الفرنجية ، وإن كان يقدم الرقم ٣٠ ألفا كقيمة المبلغ الذي س اتفاق الصلح على أن يدفعه لهم تميم ، وهو الأمر الذي يستحق الملاحظة . كما يأتي .

(٦٨) انظر ابن عذارى ، ط بيروت ، ج ١ ص ١٣١ - حيث كسوف الشمس كسوف كلبيا ، كناية عما قاسته المدينة في المحنة الصعبة .

(٦٩) ابن عذارى ، ط بيروت ، ج ١ ص ٤٣٢ ، العبر ، ج ٦ ص ١٦٠ ، ابن الخطيب ، ص ٧٨ .

ابن الأثير التي تعتبر مع رواية النويري من أصل محلي واحد ، والتي تقول بدخول العدو مدينة زويلة وحدها (٧٠) ، هي الأرجح من حيث ان المهدي كانت حسنة التحصين ، يسهل الدفاع عنها ، كما هو معروف ، حتى قال المعز بن باديس للعرب الرياحية - وهو يحرضهم على الناصر بن علثاس ، ويخوفهم منه - ان ٤٠ رجلا فقط يكفون للدفاع عنها (ماسيق ، ص ٤٥٣) ، وهذا ما يفسر كيف كان تميم مطمئنا في قصره بالمهدية أثناء غزو عساكر جنوة وبيزا لمدينة زويلة ، تماما ، كما كان الحال منذ حوالي ١٥٠ سنة ، عندما كان القائم مطمئنا الى ان ثائر زناتة ، أبا يزيد ، صاحب الحمار ، الذي كان يتخذ من باب المدينة الرئيسي هدفا لرشق رماحه ، لابد وأن ينكص على عقبية - الأمر الذي يطمئن الى الثقة في علم الحدثنان .

الصلح :

هكذا كان تميم متأكدا من انسحاب الأساطيل الايطالية ، ولكن بشيء من المسال - وقبلا انتهت مفاوضات الصلح بينه وبين المهاجمين على دفع ١٠٠ (مائة) ألف دينار (٧١) ، على أن يرد المهاجمون جميع ما أخذوه من السبي (٧٢) .

(٧٠) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٦٦ ، النويري ، ص ٣٥٦ - حيث النص على ملك مدينة زويلة بقرب المهدي -

(٧١) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٦٠ ، ابن الخطيب ، ص ٧٨ - حيث النص على أنه دفع فيها أواني الذهب والفضة . وقارن النويري ، ص ٣٥٧ ، الذي يجعلها ٨٠ ألفا ، بينما ينص ابن الأثير على مبلغ ٣٠ ألف دينار . وهو الرقم المقيسول للمبلغ المحتمل دفعه أي المنسود عليه ، على ما نرى ، والذي يمكن أن يكون قد تحول الى ٣٠ ألف مقاتل عند الآخرين ، بدلا من ١٠٠ ألف مقاتل التي يسكن أن تكون قد تحولت الى دنانير . هذا ، ولو أن ابن الأثير ، وهو يعتبر أن مبلغ الـ ٣٠ ألف دينار مبلغا كبيرا ، يعلق على ذلك قائلا : « وكان تميم يبذل المسال الكثير في الفرض الحقيق ٠٠٠ بذل للعرب لما استولوا على حصن قناطة ١٢ ألف دينار ، فتبيل هذا سرف في المسال ، فقال هو شرف في الحال ، الأمر الذي يسمح بأن يكون قد دفع المبلغ الأكبر ، وهو الـ ١٠٠ ألف دينار ، وهو ما جعلنا نأخذ به على كل حال .

(٧٢) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٦٦ - حيث النص على رد جميع ما حووه من السبي ، النويري ، ص ٣٥٦ - حيث النص على « شرط أن يؤدوا جميع ما أخذوه من السبي ففعلوا ذلك ورجعوا جميعا » ، ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٦٠ - فاستخلصها من أيديهم ورجعوا ، ابن الخطيب ، الاعلام ، ص ٧٨ - حيث النص على أنهم ألقوا بذلك (أي الـ ١٠٠ ألف دينار) وبأموال الناس وتسليمهم . والظاهر أن ابن الخطيب أراد أن يوازن قوله هذا فاشاد =

قدوم بشائر من ترك المشرق الى افريقية :

الى جانب ما كانت تعانيه بلاد افريقية الزيرية من مشاكل البربر والعرب الهلالية ، بدأت البلاد تعرف بدورها العنصر التركي الذي عرفته بغداد وسامرا منذ خلافة المعتصم ، والذي عرفته بعد ذلك معظم بلاد المشرق الاسلامي ، اعتبارا من ما وراء النهر وخراسان ، مروا بفارس والديلم والعراق حتى الشام ومصر حيث عانت الخلافة الفاطمية من مشاكل عساكرها المقسمين ما بين طوائف المغاربة ، وهم الحرس القديم ، والحرس السوداني الاسود من العبيد ، الى جانب الترك الذين أضحوا قطاعا هاما في الجيش ، حيث عرفوا أيضا بالغز ، وبضمنهم الأرمن وأشهرهم بدر الجمالي (٧٧) .

شاهمك في طرابلس :

وتنفجر قصة الترك في افريقية سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م ، عندما يغدر رئيسهم شاهمك بولي العهد يحيى بن تميم ويقبض عليه . أما عن تاريخ دخول شاهمك الى المغرب فلا يحدده الكتاب بدقة ، ولا بأس أن يكون قبل فترة وجيزة من سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م .

وتقول الرواية ان شاهمك كان من اولاد بعض أمراء الأتراك بالمشرق ، وأغلب الظن أنه كان في خدمة الخلافة ببغداد أميرا لمائة فارس ، وأنه عندما حدثت الوحشة بينه وبين بعض رؤسائه خرج بجماعة فرسانه المائة الى مصر (٧٨) ، عبر الشام ، كما فعل افئكتين التركي سابقا والذي كانت له محاولات وجولات مع الجند الفاطمي هناك ، قبل أن يستسلم للخليفة العزيز الذي أحسن اليه وضمه الى بطانته (٧٩) . وفي مصر أحسن الوزير الأفضل ابن بدر الجمالي الى شاهمك وأكرم وفادته ، ولكنه عندما أخرج من مصر هرب وأصحابه نحو المغرب ، حيث وصلوا الى مدينة طرابلس ، في وقت كان أهل

(٧٧) حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية ، ط ٤ ، ١٩٨١ ، ص ٣٠١ - حيث يتكون الجيش من عدة عناصر ، من : العساة والأتراك والاكراذ والغز والديلم والمساعدة والسودان ، وفي المسير فصال ، يسير البربر في المقدمة ويلهم المغاربة ثم الأتراك والفرس ويلحق عليهم المشرقين ويتجههم المجازيون والسودان ريطلق عليهم عبيد الشراء . وعن الصراع بين الترك والسودان ، انظر ص ١٨١ - بعد وفاة الخافض سنة ٥٤٤ هـ / ١١٤٥ م .

(٧٨) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ٢٤١ ، التويري ، ص ٣٥٧ .

(٧٩) انظر ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦٥٦ - ٦٦١ (عن الفئكتين) ، وقارن حسن ابراهيم حسن ، الدولة الفاطمية ، ص ١٥٧ - ١٦٣ .

البلد يتنازعون مع واليهم ، فكانت فرصة لكي يدخلوه الى البلد لكي يصيبح أميرها (٨٠) .

الترك في خدمة تميم والغدر بولي العهد يحيى :

وبطبيعة الحال لم يكن تميم ليرضى بان يترك عاصمه الاقاليم الشرقية لبلادده بسقط ثمرة ناضجه ، وهي التي كان يشرف بها والده مقلد بن تميم سنة ٤٧٠ هـ / ١٠٧٧ م (ما سبق ، ص ٤٦٢) ، بين يدي مقام غريب ولو كان من الترك - أفضل جند الاسلام في كل العصور - هكذا ارسل تميم العساكر لكي يضربوا الحصار حول طرابلس ويفتحوها ، ويعودوا بشاهمات وجماعة الاثراك المدمرين - وعجب الأمير الصسنهاجي الذي لم يعرف من العسكر النظامي الا عبيده السود ، بجماعة العسكر التركي الذين جبلوا على الفروسية والطاعة مع النظام والبراعة في استخدام السهام ، وعبر عن فرحته الكبرى بهم عندما قال : الآن ولد لي ١٠٠ (مائة) ولد انتفح بهم لا يخطئ لهم سهم (٨١) . ولكنه لما كان للعسكر الترك أسلوبيهم الخاص في الخدمة ، لم يكن من الغريب أن ينتهي الأمر بينهم وبين تميم بالوحشة ، بحيث أخذ كل جانب حذره من الآخر .

وإظهار أن ولي العهد يحيى بن تميم كان مفتونا بشخصية القائد التركي وفروسيته ، فسمح لنفسه بالخروج معه وبعض أصحابه في نزهة صيد موسم سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م ، وكانت فرصة انتهزها شاهملك ، فغدر بيحيى وقبض عليه وسار به في اتجاه صفاقس حيث حمو بن مليل البرغواطي الذي كان مخالفا لتميم ، هستبدا بمدينته ، بينما انسحب عسكر يحيى لكي يبلغوا الأمير الوالد (٨٢) . ورغم أن حمو أحسن استقبالاً ولي العهد فعظمه وقبل يده ومشى في ركابه ، إلا أنه لم يلبث أن خافه على نفسه ، وخاصة بعد أن قام تميم بتنحية يحيى عن ولاية العهد ، وإقامة ابن ثمان له ، هو المثنى ، مقامه . عندئذ كاتب صاحب صفاقس الأمير تميم يسأله عقد صفقة بينهما يتم فيها تبادل من كان لديه من الأثراك وأولادهم مقابل ابنه يحيى . ورغم تمنع تميم في أول الأمر إلا أنه تم إبرام التبادل ،

(٨٠) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ٢٤١ . النويري ، ص ٣٥٧ .

(٨١) ابن الأثير - ج ١٠ ص ٢٤١ ، النويري ، ص ٣٥٧ .

(٨٢) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ٢٤١ - ٢٤٢ ، النويري ، ٣٥٨ ، ابن عذاري ، مق . بيروت .

ورغم أن تسيما حبيب ابنه يحيى لفترة من الوقت فانه عاد وأرجعه الى ما كان عليه من ولاية العهد ورضى عنه (٨٣) .

حصار صفاقس :

وانتقما مما فعله الأتراك الغزاة من الغدر بيحيى كان على هذا الأخير أن يخرج ، بأمر والده ، على رأس قوة برية بحرية لحصار صفاقس . وتم حصر المدينة برا وبحرا ، وضيقوا على الأتراك بها لمدة طالت الى شهرين . ورغم ما تقوله رواية ابن الأثير من أن قوات المهدي استولت على المدينة ، فان خروج الترك من صفاقس الى قابس يعنى أنه تم نوع من الصلح بشروط منها خروج الأتراك عنها (٨٤) .

خروج المثنى بن تميم الى قابس وشغبه على والده وأخيه بالمهدية :

ولم تنته ردود فعل حادثة غدر الأتراك بولى العهد الزيرى ، وذلك أن مثنى بن تميم أظهر ضيقه بخلعه من ولاية العهد ، حسدا لأخيه يحيى ، حتى « نقل عنه ما غير قلب أبيه عليه » . وهنا رأى تميم أن من حسن السياسة اخراجه من المهديّة ، فخرج بحرا بأله وماله ، واتجه الى صفاقس ، حيث منعه عاملها من الدخول ، فاتجه الى قابس حيث كان المتغلب عليها : مكنى ابن كامل الدهماني ، الذى سبق له استقبال جماعة الترك الغز (٨٥) .

وفى قابس تراءى للمثنى أنه يمكنه العودة الى المهديّة ، ليس كولى للعهد فقط ، بل كأمير أيضا ، وذلك بمساعدة الدهماني ، وبتهريض من شاهمك ومن معه من الغز ، طالما كان المثنى قد تكفل بالنفقة على الحملة مما كان لديه من المال . وسار المغامرون الثلاثة وأصحابهم برا الى صفاقس ، ونزلوا عليها . ولكنهم عندما عرفوا بخبر العسكر الذى كان تميم قد جرده اليهم ، رأوا انتهاز الفرصة والاتجاه الى المهديّة ذاتها ، من طريق آخر . وفعلا ناصبوا المدينة البحرية القتال ، وهى الصعبة المنال بغير الأسطول ، وكان الذى يقود قتالهم هو ولى العهد يحيى بن تميم الذى « ظهرت منه شهامة وشجاعة وحزم وحسن تدبير ، فلم يبلغ أولئك منه

(٨٣) ابن الأثير . ج ١ ص ٢٤٢ ، النويرى ، ص ٣٥٨ ، ابن عذارى ، ط . بيروت ،

ج ١ ص ٤٣٣ .

(٨٤) ابن الأثير . ج ١ ص ٢٤٢ ، النويرى ، ص ٣٥٨ .

(٨٥) ابن الأثير ، ج ١ ص ٢٤٢ ، النويرى ، ص ٣٥٨ .

غرضاً » . وهكذا عادت جماعة المغامرين من حزب المهديّة خائبين ، وقد
تقدّم ما كان مع الثنائي من المسال وغيره من الأشياء الثمينة . الأمر الذي ترتّب
عليه أن « عظم أمر يحيى ، وصار هو المشار إليه » (٨٦) .

استرداد قابس : ٤٨٩ هـ / ١٠٩٧ م :

وإذا كان النص السابق لا يعرفنا بما كان من أمر الدهماني والثنائي
وشاهمك بعد عودتهم من حصار المهديّة ، فإننا نعلم أنهم لم يتمكنوا من العودة
إلى قابس التي كان قد سيطر أهلها على مقاليد الأمور فيها ، وأقاموا نوعاً
من حكم الشورى بمعرفة أهل الحل والعقد من الفقهاء ، كذلك الذي عرفته
سوسة وكذلك طرابلس من قبل (ما سبق ، ص ٤٥١) . فهذا ما يفهم من
الحولية الخاصة بملك تميم لقابس سنة ٤٨٩ هـ / ١٠٩٦ ، التالية .

فقد كان حكم قابس يرجع إلى شخص يعرف بـ : قاضي بن إبراهيم
ابن بلمونة ، قلنا مات في تلك السنة ، ولّى أهلها عليهم : عمر بن المعز بن
باديس ، أخا تميم ، الذي لا نعرف ظروف وجوده هناك ، وأغلب الظن أنه
كان من فئة الساجطين من أفراد الأسرة الزيرية ، وإن ذلك ما دعا إلى القول
بأنه كان « أساء السيرة ، عاصياً على تميم » (٨٧) . وهذا ما دعا إلى أن يسرع
تميم بإرسال العساكر إلى قابس لإخراج أخيه عمر بن المعز ، قبل أن يعطيه
فرصة اثبات حسن النية ، الأمر الذي أثار عجب البعض . وكان رد تميم
عندما سئل : لماذا لم يفعل ذلك مع قاضي بن إبراهيم ؟ قوله : « لأن زواله
كان سهلاً ، أما ابن المعز فلا » (٨٨) . فكان وصية المعز لدين الله لبليكين من
أن لا يولى أحداً من قرابته ، كانت ما زالت مبدأ صحيحاً في أصول السياسة
ونظم الحكم بالنسبة لكل من الأمير وولي العهد المدشن . ويظهر من النص

(٨٦) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ٢٤٣ ، النويري ، ص ٣٥٩ .

(٨٧) انظر ابن الأثير ، ج ١٠ ص ٢٥٧ ، وقارو النويري ، ص ٣٥٩ - حيث الاسم
ابن بلمونة بدلاً من بلمونة ، وحيث فلم يحسن السياسة ولا نهض بشرط الولاية . بدلاً من
أساء السيرة عاصياً على تميم ، ابن عذاري ، ط ١ ، بيروت ، ج ١ ص ٤٣٤ - حيث النص على :
فتح تميم مدينة قابس ، وأخرج منها عمر بن المعز أخاه ، وقد كان ولّاه أهلها ، ابن خلدون ،
ج ٦ ص ١٦٠ .

(٨٨) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ٢٥٧ ، وقارو النويري ، ص ٣٥٩ - حيث النص على أنه
قال عندما أخرج إليه العساكر : لما كان فيها عبداً من عبيدنا كان زواله سهلاً علينا ، وأما
الآن فإن المعز بالمهديّة وابن المعز بقابس ، هذا لا يمكن السكوت عليه .

أن خروج عمر بن المزمز أخى تميم من قابس كان من الأحداث التى يستحق الإشادة بها من قبل الشعراء ، من حيث أنها نسر الأمير وتحقق رضاه .
ففى فتح قابس هذا قال ابن خطيب سوسة قصيدة ، منها :
ضحك الزمان وكان يلقى عابسا لما فتحت بحد سيفك قابسا (٨٩)

ولا يقلل من ذلك ما تقسوله بعض الروايات من أن مكن بن كامل الدهمانى ، كان فى قابس سنة ٤٩٣ هـ / ١١٠٠ م ، عندما كانت قوات تميم تفتح صفاقس ، وتطرد منها حمو بن مليل لكى يلجأ الى الدهمانى ، مما يأتى ذكره .

استغنى الأخير من حكم تميم :

والحقيقة أن الزمان كان قد بدأ يضحك فعلا للأمير تميم ، ونحن الآن فى مطلع استنوات العشر الأخيرة من ملكه ، إذ كان قد استعاد من قبل . عددا من مدن الساحل العاصية ، من : طرابلس الى صفاقس وسوسة وكذلك تونس ، وإن كان ذلك بشكل عابر ، إذ سرعان ما كان يعود أصحاب تلك المدن من المتغلبين أو كان أهل المدن أنفسهم يحضون الى العودة اليهم . وإذا كان الحزن قد خيم على البلاد بسبب المجاعة التى خربتها والغلاء ، سنة ٤٩١ هـ / ١٠٩٨ م القرية ، فإن فتوحا جديدة تمت فيها فى بلاد الساحل . مثل فتح جزيرة جربة مقابيل قابس ، وجزيرة قرقنة ، مقابيل سوسة ، ومدينة تونس من جديد (٩٠) . هذا ، كما تخففت البلاد أيضا من ثقل بعض العرب الهسلاية ، حيث كان خروج قبائل عدلى من أفريقية أمام قبائل رياح (٩١) . وإذا كانت الخلافة الفاطمية فى القاهرة قد أصيبت باخفاق عالمى عندما تعرضت فى السنة التالية (٤٩٢ هـ / ١٠٩٩ م) لكارثة سقوط بيت المقدس بين أيدي الفرنج من الصليبيين (٩٢) ، تماما كما شاركت نائبها فى أفريقية فى كارثة سقوط صقلية قبل ذلك بسنوات ، كان تميم ، رغم ظروفه الصعبة يحاول النهوض مما تعرض له من كبوات .

(٨٩) انظر ابن الأثير ، ج ١٠ ص ٢٥٧ ، والنويرى ، ص ٣٥٩ .
(٩٠) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ٢٧٩ ، النويرى ، ص ٣٦٠ ، ابن عذارى ، ط . بيروت ، ج ١ ص ٤٣٤ .
(٩١) ابن عذارى ، ط . بيروت ، ج ١ ص ٤٣٤ .
(٩٢) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ٢٨٢ .

فتح صفاقس : ٤٩٣ هـ / ١١٠٠ م :

فزاء ما تعرض له تميم من خطر حمو بن مليل البرغواطى الذى كان قد أكد سلطانه فى صفاقس ، بل وارتفع بنظام حكمه عندما استعان بواحد من كبار وزراء المعز بن باديس السابقين ، الأمر الذى دعا تميما الى محاولة شراء ذلك الرجل ، دون جدوى ، قرر تميم تصفية النظام المخالف له فى صفاقس باستخدام كل من القوة والحيلة . فهو عندما يرسل قواته ، سنة ٤٩٣ هـ / ١١٠٠ م ، لحصار صفاقس يأمر قائده بهدم ما حول المدينة ، وحرق الأشجار وقطعها باستثناء ما يتعلق بالوزير العنيد . وكان الهدف من ذلك هو إثارة الشك فى حسن نوايا الوزير بالنسبة لحمو ، وهو ما حدث فعلا . فلقد اتهم حمو وزيره بالتآمر مع تميم ، وأنزل به العقوبة العظمى ، جزاء الخيانة ، الأمر الذى ترتب عليه انحلال نظام الدولة . وهكذا سقطت صفاقس بين أيدي عسكر تميم ، وخرج حمو منها ، وقصد مكين بن كامل الدهماني الذى كان قد عاد الى ملك قابس ، فأحسن اليه ، وأنزله فى كنفه الى أن مات عنده (٩٣) .

السنوات الأخيرة من عهد تميم بن المعز :

وتتوالى السنوات الأخيرة من حكم تميم بن المعز ، الطويل ، وهى تترى دون أحداث هامة ، سوى وفاة المنصور الحمادى صاحب بجاية والقلعة سنة ٤٩٨ هـ / ١١٠٥ م ، وإمارة ابنه باديس الذى لم يقدر له الحياة طويلا ، فولى بعده أخوه العزيز بالله ، فى نفس السنة (٩٤) ، وفى نفس السنة تعرضت المهدية لغارة من قبل « الرومانيين » تعيد ذكرى هجوم أسباطيل جنوه وبيزا وحلفائهم ، منذ ثمانى سنوات ، وإن كان بإمكانات أقل ، ففى هذه المرة قام بالهجوم عدد من الشوانى ، وهى المراكب الكبيرة التى تحمل المعدات الثقيلة من الحيل وغيرها ، وبصحبتها ٢٣ مركبا معاونة . وتلخصت خططهم الحربية فى محاولة سد باب دار الصناعة لمنع الأسطول من الخروج للقائهم ، ولكنهم فشلوا فى ذلك ، وتمكن الأسطول من الخروج لهم وهزيمتهم بعد قتل أعداد كبيرة من رجالهم (٩٥) .

(٩٣) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ٢٩٨ ، النويرى ، ص ٣٦٠ ، ابن عذارى ، ط - بيروت ، ج ١ ص ٤٣٤ ، ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٦٠ .
(٩٤) ابن عذارى ، ط - بيروت ، ج ١ ص ٤٣٤ ، النويرى ، ص ٣٦٠ .
(٩٥) ابن عذارى ، ط - بيروت ، ج ١ ص ٤٣٤ .

وأصبح تميم هذا النصر الخارجي في السنة التالية (٤٩٩ هـ / ١١٠٦ م) ، بمحاولة إخضاع جزيرة جربة التي عرفت بنزعتها الاستقلالية ، وأعمالها العدوانية في البحر ، فسير إليها حملة برية بحرية بقيادة أبي الحسن الفهري ، ولكنه إزاء استعدادات الجريبين للقاء ، رأى الفهري ألا جدوى في حربهم ، فعاد أدراجهم ، مكثفياً من الغنيمة بالأياب (١٦٦) .

وقبل وفاته ، في ختام القرن الخامس الهجري وبداية السادس ، سنة ٥٠١ هـ / ١١٠٧ م ، تعرض تميم لهزة عنيفة من جانب عرب رياح الهلالية ، وذلك أن أحد بطونهم ، وهم جماعة الأخضر ، غدروا بمدينة باجة ، وغلبوا عليها ، وملكوها بعد أن قتلوا كثيراً من الخلق فيها (٩٧) ، الأمر الذي يمكن أن يكون سبباً في التعجيل بوفاة الأمير تميم ، كما يمكن أن يفهم من رواية ابن خلدون (٩٨) . وذلك في الوقت الذي كان يوسف بن تاشفين المرابطي ينهي حكمه في المغرب والأندلس ، بينما كان محمد بن تومرت ، مهدي دولة الموحدين ومؤسسها ، يبدأ رحلته المشرقية من جبل هرة في بلدة السوس الأقصى ، لطلب العلم ، أول الطريق إلى تأليفه للمذهب التوحيد الذي يعيبد الوحدة لكل بلاد المغرب والأندلس ، الأمر الذي يعتبر من المنعطفات الحاسمة في تاريخ المنطقة بما فيها جزر المتوسط وبضمنها صقلية وجنوب إيطاليا .

(٩٦) ابن عذاري ، ط٠ بيروت ، ج ١ ص ٤٣٤ .

(٩٧) ابن عذاري ، ط٠ بيروت ، ج ١ ص ٤٣٥ ، ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٦٠ .

(٩٨) البير ، ج ٦ ص ١٦٠ - حيث يتبع الغلبة على باجة بقوله : وملك تميم اثر ذلك

سنة ٥٠١ هـ / ١١٠٨ م .

صقلية وجنوب إيطاليا في العصر الزييري

عهد أبي القاسم :

سار المعز لدين الله الى مصر وقد ترك في صقلية أبا القاسم علي بن الحسن بن أبي الحسين ، نيابة عن أخيه أحمد ، بعد فشل استبدال أسرة الكلبيين وتعيين مولاهم يعيش ، وذلك سنة ٣٥٩ هـ / ٩٧٠ م . وبعد وفاة أحمد بعد أشهر قليلة ، ثبت أبو القاسم في الولاية ، وبذلك تؤكد حكم الكلبيين وراثيا في الجزيرة ، تحت ولاية الخليفة في القاهرة .

جهاد الروم في مسينا وكلايريا ٣٦٥ هـ / ٩٧٦ م :

ولقد حقق أبو القاسم في الجزيرة ما كان يرجو أهلها من الهدوء والسكينة ، حتى تمكن معهم من مواجهة الأعداء الروم الذين كانوا يهددون كلايريا ومضيق مسينا الاستراتيجي . وهكذا تسجل حوليات الجهاد في صقلية أن الأمير أبا القاسم سار في سنة ٣٦٥ هـ / ٩٧٦ م ، في عساكر المسلمين ، ومعه جماعة من الصالحين والعلماء ، الى مدينة مسيني التي كان يهددها العدو ، حيث تازل الروم ، وذلك في شهر رمضان / مارس ، فانهمزوا هاربين في المراكب (١) . وكانت فرصة للأمير أبي القاسم لكي يعبر المضيق الى كلايريا ، ويتجه برجانه شمالا الى كسينته (Cosenza) ، في وادي كراتي (Crati) ويضرب عليها الحصار أياما الى أن طلب أهلها الأمان ، الذي تم نظير دفع مبلغ من المال . والظاهر أن أصحاب أبي القاسم من المجاهدين الصالحين والعلماء ، المتحمسين للجهاد من غير الجيش النظامي ، كان يمكنهم أن يقوموا بغارات لحسابهم الخاص في المنطقة . فهذا ما يمكن أن يكون تفسيرنا لما يقوله ابن الأثير من أن أبا القاسم عندما رحل عن كسينته ، سار الى قلعة جلوا ، ففعل كذلك بهما وبغيرها (٢) ، وهو ما يجد تفسيرنا عند جاي (J. Gay) الذي يشير الى أن أبوليا (Apulia) لم تسلم

(١) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦٦٦ ، وقارن جاي ، إيطاليا الجنوبية (بالفرنسية) ، ص ٣٣٥ . حيث الإشارة الى أن مجمة البيزنطيين الناجمة على مسينا ، ربما تمت بساولة مراكب بيزا في أول عهد باسيل الثاني .
(٢) الكامل ، ج ٨ ص ٦٦٧ .

هي الاخرى من هجمات العرب ، منذ الهجوم على طارنت سنة ٢٧ - ٩٢٩ ، كما ان زعيم احدى الجماعات الاسلامية المحاربة (من المرتزقة (Condottiere)) ، واسمه اسماعيل ، لقي حتفه قرب بيتاتو (Bifato) غير بعيد من بارى (٤) .

والحقيقة ان ابا القاسم كان قد أمر اخاء أن يذهب بالأسطول الى ناحية بربوله (أبوليا ؟) وبيت السرايا في جميع قلورية ، ففعل ذلك ، وغنم غنائم كثيرة ، وقتل وسبى ، قبل أن يرجع الاخوان سويا الى المدينة : الخالصة (بلرم) (٤) .

وفي السنة التالية ٣٦٦ هـ / ٧٦٠ - ٩٧٧ م ، كان أبو القاسم يأمر بمسيرة رمطة القرية من بلرم على الساحل الشمالي ، وكانت قد خربت من قبل . ثم انه بدأ في الاعداد للغزو من جديد ، فجمع الجيوش ، وعبر المضيق حيث توقف أمام مدينة أغاثة (San'Agata) الصغيرة ، الواقعة على ساحل المضيق بالقرب من ريو (Reggio) ، فطلب أهلها الأمان ، فأمعنهم نظير تسليم القلعة بكل ما فيها من سلاح وعتاد . ثم انه واصل الطريق الى مدينة طارنت (Otrante) فوجد ان أهلها قد فروا منها بعد أن أغلقوا أبوابها ، فصعد الرجال السور وفتحوا الأبواب ، ودخلها أبو القاسم الذي أمر بدمها ، فخربت وأحرقت . ومن هنا أرسل السرايا التي باغت مدينته « أذرن » وغيرها ، بينما سار هو الى مدينة « عردلية » وشن عليها الحرب حتى عقد أهلها الصلح معه نظير دفع مال الفداء لكي يعود بعد تمام الحملة الى المدينة : الخالصة (بلرم) (٥) .

(٣) جاي ، إيطاليا الجنوبية . . . (بالفرنسية) ، ص ٣٢٥ .

(٤) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦٦٧ ، وقارن جاي ، إيطاليا الجنوبية . . . (بالفرنسية) ، ص ٣٢٥ . حيث يضيف الى ذلك أنه خلال ذلك الوقت كانت هناك جماعات اسلامية أخرى تدغل حتى وادي البراندانو (Brandano) وتأتي لمهاجمة جرافينا (Gravina) وهي المكان الحسني في قلب منطقة مورجي (Murgie) جنوب غرب بارى . وان مدينتي طارنت واورية (Oria) كانتا هدفا للهجوم الذي أنزع أهل المدينة الأخيرة (أورية) فتركها لكي يحرقها العدو .

(٥) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦٦٧ ، وقارن جاي ، إيطاليا الجنوبية . . . (بالفرنسية) ، ص ٣٢٥ - ٣٢٦ . حيث يضيف أنه ما بين ٩٧٨ و ٩٨٦ م / ٤٦٨ - ٤٧١ هـ ، كانت كلابريا وأبوليسا (Apulia) هدفا مستمرا للغارات الاسلامية ، وان حكومة بيزنطة على عهده باسمال الثاني كانت عاجزة وقسلة ، بسبب ثورة بورداس سكليس (Bordas Skleres) في ١١٠٠ هـ / ١٦٩٧ الذي كان يدفع المدن الايتالية الى تفضيل الدفاع عن نفسها ،

استشهاد أبى القاسم أمام أوتو الثانى وولاية ابنه جابر :

وفى المحرم من سنة ٣٧٢ هـ / يونيه ٩٨١ م ، انتهى حكم أبى القاسم لصقلية. اذ راح شهيدا فى ميدان الجهاد بإيطاليا . ففى شهر ذى القعدة من السنة السابقة ٣٧١ هـ / ابريل - مايو ٩٨٢ م ، تعرضت كلابريا لغارة عنيفة قام بها احد ملوك الفرنج الذى يدعى برودويل عند ابن الأثير ، وهو فى الحقيقة الامبراطور أوتو الثانى ، الذى ضرب الحصار على قلعة اسلامية هناك وتمكن من أخذها ، بعد أن أنزل الهزيمة بسريتين اسلاميتين (٦) . وهنا خرج أبو القاسم عبر مضيق صينا بمساركه ليطرد الغازى الفرنجى من تلك القلعة ، ولكنه ما ان اقترب منها ، وعرف بقوة الفرنج وما قبلوه بالمسلمين . هناك ، حتى تمكله الخوف ، فجن عن اللقاء ، واستسمح كبار قواده فى الرحيل دون أن يعترضوا على ذلك . وعندما رأى رجال أسطول العدو الرومى رجوع المسلمين على أعقابهم أخطروا للملك الفرنجى بذلك ، وطلبوا منه انتهاز الغرة فى المسلمين . وهنا جرد أوتو عسكره من أثقالهم . وسار بهم جريدة فى اثر المسلمين فأدركوهم فى المحرم ٣٧٢ هـ / يونيه ٩٨٢ م . ونجح الفرنج فى اختراق قلب القوة الاسلامية التى اختل نظامها ، واتجهوا حيث الأعلام المحيطة بالأمير أبى القاسم ، وتمكنوا من الوصول إليه حيث ضربه أحدهم « على أم رأسه » ضربة قاضية .

وإذا كان الخوف والجبن قد أدى الى نهاية القائد الأمير فإن التصميم على العودة والظفر من جانب الذين كانوا قد فقدوا شجاعتهم من هول المفاجأة ، أنهت القتال الى صالح المسلمين. الذين صمدوا فى اللقاء حتى هزموا الفرنج « أقبح هزيمة » ، وقتلوا منهم نحو ٤ (أربعة) آلاف قتيل ، وأسروا عددا كبيرا من كبار قوادهم من البطارقة ، وغنموا كثيرا من أموالهم ، ولم يتوقفوا

وجدا - دون البيزنطيين - إذا لم الأمر ، بل وإن تدفح للمغامرين المسلمين ثمن شراء انسحابهم . وإن وصول الخطر الاسلامى الى الأراضى اللومباردية هو الذى دفع الامبراطور أوتو الثانى الى التفكير فى حملته على جنوب إيطاليا . وانظر ص ٣٢٨ - حيث الملة الى روما ، كيف يرى جاي انه كان هناك خلط بين الغرب وبين البيزنطيين الذين كانوا يجهلون القرائب .

(٦) انظر ابن الأثير ، ج ٩ ص ١٣ - حيث القارة خطأ ، على صقلية ، وكذلك القلعة «مالمطة» خطأ . وقارن أرشيبالد لويس ، القوى البحرية والنجاة ، الترجمة ، ص ٣٠٧ - حيث الإشارة الى ان تلك الغارة كانت لأوتو الذى كان يزعم الاستيلاء على كل الأراضى البيزنطية ، الأمر الذى أدى الى نوع من التناوب بين الروم والمسلمين ضدهم .

عن متابعتهم الا بعد أن أدركهم الليل (٧) .

ومكثا ثلثان على اوتو الثاني ان يفر الى خيامه في رسانه (Rossana)، حيث كانت زوجته الامبراطورة تيوفانو نى صحبته ، فعاد برئاله الى رومة (المبارديا) من حيث أتى (٨) .

وبعد مقتل ابي القاسم قام ابنه جابر ، الذى كان بصحبته ، مقامه ، ورحل بالمسلمين على عجل ، دون توقف حتى لاخذ المغانم من السلاح « نيعمر الخزان » . وبذلك أنهى ابو القاسم ولايته التى استمرت أكثر من ١٢ (اثني عشرة) سنة . مرضيا عنه من رعيته ، لما عرفوه فيه من العدل بهم ، والشفقة عليهم ، والاحسان اليهم . وفى بذله واحسانه قيل انه كان « عظيم الصدقة » . لم يخلف دينارا ولا درهما ولا عقارا ، فانه كان قد وقف جميع أملاكه على الفقراء وأبواب البر « (٩) .

معالم بلرم على عهد ابي القاسم :

وخلال ولاية ابي القاسم زار ابن حوقل ، الجغرافى والرحالة العراقى سنة ٣٦٢ هـ / ٩٧٣ م ، جزيرة صقلية ، وقدم عنها معلومات تجمع ما بين الأهمية والطرافة . من : الفقر فى بلد كان غنيا ، والتظاهر بالتدين مع تغير الضمائر وفساد المذاهب ، وكثرة الأربطة على السواحل مع الطمع فى أموال الناس ، وفساد الأخلاق ، الى التهرب من الخدمة الجهادية بالدخول فى سلك التعليم (١٠) .

فمن وجهة النظر الاقتصادية يصف ابن حوقل بلرم بأنها مدينة العامة ذات الأسواق الكبيرة المتخصصة فى أنواع المتاجر المختلفة (ص ١٤) ، والنص على أن ذلك كان فى الماضى . أما المشاهدة ، فقد استحال جميع

(٧) ابن الأثير ، ج ٩ ص ١٣ - ١٤ .

(٨) ابن الأثير ، ج ٩ ص ١٣ - ١٤ . حيث النص على أن مستشار الملك اليهودى اقتداء عندما توقف فرسه اعباء وقدم له ملبئنه . وأنظر ارشيبالد لويس ، ص ٣٠٧ . حيث كان هروب اوتو على ظهر مركب بيزنطى التقله عنوا وحمله من كلابريا الى بلده فى إيطاليا ، حيث توفي معزولا لفشل مشروعه التوسعى ، وذلك فى ٩٨٣ م / ٧٢ - ٣٧٣ هـ ، وقارن تاريخ كامبريدج فى المعمر الريبك ، ج ٢ فصل ٧ ، ص ١٦٩ - ١٧٠ .

(٩) ابن الأثير ، ج ٩ ص ١٤ .

(١٠) صورة الأرض ، ط . بيرت ، ١٦٧٩ ، ص ١٢٢ .

أمورها من الخصب إلى الجلب ، سبب بغضهم التجار الغرباء المجهزين ، مع قوام مصالحهم بالجلابين وفقرهم وفاقتههم إلى المسافرين ، لأنها جزيرة ... وجميع ما تقع إليه الضرورات ... من سائر الطلبات مجلوب إلى بلدهم ، باستثناء ما تنتجه جزيرتهم ، من : القمح والصوف والشعير والتمر ، وشيء من القند والكتان (ص ١٢٤) .

أما عن التدين ، فمع كثرة المساجد والربط العديدة على ساحل البحر ، فهي مشحونة بالرياء والتفاق والبطالين والفساق ... قد عملوا السجادات ، منتصبين لأخذ الصدقات وقذف المحصنات ... وأكثرهم يقدون (ص ١٥ - ١١٦) ، مع فساد المذاهب إلى حد أن « المشعذون » يسمحون بالزواج من المسيحيات ، على أن يكون الأولاد مسلمين ، والبنات مسيحيات (ص ١٢٣) .

وفي التعليم والجهاد يغلب على البلد المعلمون والمكاتب ، ومع ذلك فإن كثرتهم تضطرد مع قلة منفعتهم لفرارهم من الغزو ، ورغبتهم عن الجهاد ، حيث كان سبق الرسم باعفاء المعلمين قديما من الجهاد ، ففزع إلى التعليم البلهاء والجهلة (ص ١٢٠) .

وإذا كان ابن جبير يقدم لنا صورة بهية عن بلرم النورمتدية التي زارها بعند حوالي قرنين من ابن حوقل ، من حيث جمال المخبر والمنظر ، وبسائط البساتين ، والسكك الفسيحة والشوارع الواسعة ، والديارات المزوقة البنيان ، والكنائس المصاغة فيها بالذهب والفضة الصلبان ، فإن الأحياء الإسلامية كانت ما زالت تحتفظ ببعض الملامح القديمة مما سجله ابن حوقل . فأكثر المساجد عامرة تقام فيها الصلاة بأذان مسموع ، والأسواق معمورة بالمسلمين ، وهم التجار فيها . والمساجد كثيرة لا تحصى ، وأكثرها محاضر لمعلمي القرآن (١) .

أما عن نساء بلرم فزى النصرانيات فيها هو زى المسلمات ، فهن ملتحفات ، منتقبات ، قد لبسن ثياب الحرير المذهب ، والتحفن اللحف الرائعة ، وانتقبن بالنقب المسونة ، وانتعلن الأخفاف المذهبة ، وبرزن

لكنائسهن حوامل جميع زينة المسلمين ، من : التحل والتخضب والتعطر (١٢) .

وهكذا حافظ المسلمون الصقليون على سماتهم الحضرية المميزة التي جمعت ما بين متطلبات الدين والدنيا ، بعد قرنين من ابتلاك النورمنديين للجزيرة . فالنساء المسلمات كن قدوة النورمنديات في الملبس والزينة ، والتجار المسلمون كانوا مهيمين على أسواقهم ، والمساجد الكثيرة كانت مدارس تعليم القرآن .

جابر بن أبي القاسم أمرا :

وهكذا لم يكن من الغريب أن يصحب أبا القاسم ، في رحلات جهاده ، جماعات الصالحين والعلماء ، مما سبقت إليه الإشارة ، في آخر غزواته في كلابريا . أما عن جابر ابنه فان الخليفة الفاطمي العزيز بالله بالقاهرة أقره في الإمارة ، حسب اختيار أعيان العسكر ، ولكنه لما لم يكن يتمتع بثقل حسن سمعة والده ، الأمر الذي صار في غير صالحه بدلا من أن يكون سنداً له ، فإنه خلع بسرعة من قبل الصقليين ، وانتهى ضحية مؤامرة بلاط في القاهرة . بعد أن استدعاه ديوان الخلافة الى هناك (١٣) .

أمراء عابرون يحبون العافية :

وخلف جابر ابن أخيه : جعفر بن محمد بن أبي القاسم علي ، بأمر الخليفة العزيز سنة ٣٧٣هـ / ٩٨٣م . ويذكر جعفر أنه اعتنى بأحوال الأرض من حيث تقويمها والعمل على تحسينها ، وأنه حظى باحترام الخاصة لعلمه ، وحب العامة لكرمه ، ولكنه لم يقدر له البقاء في الولاية طويلا ، إذ توفي سنة ٣٧٥هـ / ٩٨٦م ، بعد ثلاث سنوات فقط . وأتى بعد جابر أخوه عبد الله بن محمد بن أبي القاسم علي ، الذي توفي سنة ٣٧٩هـ / ٩٨٩م ،

(١٢) رحلة ابن جبير ، ط . بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ٣٠٧ ، وانظر أيضا ص ٣٠٦ - عن كنيسة الانطاكي حيث هي أعجب مصانع الدنيا المزخرفة جدرانها الداخلية كلها ذهب ، وفيها ألواح الرخام الملون ... قد وصفت كلها بفضوص الذهب وكللت بالجار القصص الخضر ، ونظم أعلاها بالشمسيات المنميات من الزجاج التي تخطط الأبرار ، وتحدث في النفوس فتنة ... يستعيد رحلتنا الموحى - بالله منها .

(١٣) أحمد عزيز ، صقلية الإسلامية ، بالانجليزية ، ص ٣٦ - ٣٣ .

ولكنه مما يؤسف له أننا لا نعرف ماهية انجازاته ، بعد ولايته التي طالت الى ٤ (أربع) سنوات وأكثر (١٤) .

ثقة الدولة يوسف بن عبد الله :

حكم قواعده ، العدل والجهاد والجود :

وولي بعد عبد الله ابنه يوسف ، وكان والده قد عينه كخلف له ، واقر الخليفة العزيز بالقاهرة تلك الولاية ، وأنعم عليه بلقب «ثقة الدولة» (١٥) . وفي تقييم عهد يوسف بن عبد الله ، ينص ابن عذارى على « كون الناس في أيامه على أفضل ما يشتهون ، واستقامت الأمور ، وأداح بلاد الروم ، وظهر من كرمه وجوده ما هو معدوم من كثير من البلدان (١٦) » . وهكذا كان ليوسف نشاطه الجهادي حيث قام ببعض الغارات على الأراضي البيزنطية في جنوب إيطاليا . ففي سنة ٣٨٤هـ / ٩٩٤م نجح في الاستيلاء على بلدة ماتيرا (Matera) ، بعد مقاومة عنيدة (١٧) ، كما كان لتقاوته الخاصة أثرها في أدب تلك الفترة (١٨) . ومما يؤسف له إصابة يوسف بن عبد الله في سنة ٣٨٨هـ / ٩٩٨م بالفالج (الشلل) ، فألقت ولاية صقلية الى ابنه جعفر (١٩) .

(١٤) أنظر زامباور ، معجم الانسان ، والأسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي ، تعريب زكي حسن وحسن محمود ، القاهرة ، ١٩٥١ ، ص ١٠٧ ، عزيز أحمد ، صقلية الاسلامية ، بالانجليزية ، ص ٢٢ - حيث النص خطأ على ان وفاة عبد الله كانت في نفس سنة ولايته ٩٨٦م .

(١٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٥ ، عزيز أحمد ، صقلية الاسلامية ، ص ٣٢ ، زامباور ، معجم الأنساب ، الترجمة ، ص ١٠٧ .

(١٦) البيان ، ج ١ ص ٢٤٥ ، وأنظر المؤنس لابن أبي دينار ، ص ٧٨ (سنة ٣٧٦هـ) .

(١٧) كما نجح القائد العربي أبو سميذ (Busito) في التحالف مع الأمير الفومباردي سمارساجدوس (Smarsagdus) ، وأغراء بقتل أحد كبار الموظفين البيزنطيين في مدينة أوريه ، نظير مساعدته على دخول مدينة باري ، وهو ما لم يوفيه له .

(١٨) جاي ، إيطاليا الجنوبية ، بالفرنسية ، ص ٣٦٨ ، عزيز أحمد ، صقلية الاسلامية ، بالانجليزية ، ص ٣٢ .

(١٩) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٩٤ (أحداث سنة ٤٨٤) ، وقارن اتماظ الحفا ، ج ٢ ص ٩٩ - حيث النص في أحداث سنة ٤٠٣هـ / ١٠١٣م ، على أنه في أواخر رجب - فبراير فلعج أبو الفتح يوسف بن عبد الله ابن الحسين . أمير صقلية ، فتعطل جانبه الأيسر فقام الأمر ابنه أبو محمد جعفر بن يوسف ، وكان بيده سجل الحاكم بولايته بعد أبيه .

جعفر بن يوسف أميرا ،

وبداية التفكك في الأسرة الكلية :

ازدهر نظام الحكم في صقلية على عهد جعفر بن يوسف بن عبد الله ، من حيث ارتفاع شأن الأمير في بلرم والخالصة (قضية الحكم والإدارة) ، فكانه ملك متوج . فلقد أنعم الخليفة الحاكم بأمر الله على جعفر بلقبى « تاج الدولة » و « سيف الملة » (٢٠) ، كما أحاط جعفر نفسه برجال الدولة ، من الوزير والحاجب ، فكانه حاكم مستقل حتى أضحى عليه شعراء بلاطه في عداوتهم لقب الملك .

ولم يمنع الاهتمام بالبلاط ونظم الحكم ، من مواصلة الغزو في جنوب إيطاليا . ففي سنة ٣٩٣هـ / ١٠٠٣م ، أتى جيش كبير بقيادة القائد صافى لحصار مدينة باري ، بينما هاجمت المراكب العربية المدينة من جهة البحر ، واستمر ذلك الحصار من أوائل مايو حتى ٢٠ سبتمبر ، عندما جاء أسطول البندقية ، الذي أصبح بمثابة شرطى البحر الأدرياتي ، كما يقول جاي (٢١) . فلقد دخلت سفن البندقية ، التي أحسن الأهالي استقبالها بميناء المدينة ، كما انتشرت بعض قطعها في الضواحي . وخلال ثلاثة أيام دارت رحى حرب شديدة انتهت بانسحاب المسلمين ليلا . ولكن الأساطيل العربية ظلت نشطة في منطقة كلابريا . ففي سنة ٣٩٦هـ / ١٠٠٦م التقت المراكب العربية بمراكب الروم قرب ريو ، ولم ينقذ المراكب البيزنطية الا تدخل سفن بيزا الى جانبها . وفي سنة ٣٩٩هـ / ١٠٠٩م كانت القوات الاسلامية تصعد في كلابريا الى وادي كراتي (Crati) وتحتل كسننتة (Cosenza) مسرة أخرى (٢٢) .

وخلال تلك الفترة كانت صقلية ملجأ للتعساء من أهل أفريقية عندما يخيم القحط والغلاء على البلاد ، مثلما حدث في سنة ٣٩٥هـ / ٤ - ١٠٠٥م ، حيث وفد على الجزيرة كثير من أهل الحاضرة والبادية (٢٣) . هذا كما كانت صقلية على أواخر أيام جعفر ، محط أنظار التعساء من الشيعة في القيروان

(٢٠) اساط الحفا ، ج ٢ ص ٩٩ .

(٢١) جاي . إيطاليا الجنوبية ٠٠٠ ، بالفرنسية ، ص ٣٦٩ .

(٢٢) جاي . إيطاليا الجنوبية ٠٠٠ ، بالفرنسية ، ص ٣٦٩ .

(٢٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٥٧ .

والمهدية ، عندما تعرضوا لثورة العامة بهم اعتبارا من سنة ٤٠٩ هـ / ١٠١٨م (٢٤) .

ولكن مظاهر التقدم في البلاط الصقلي ، بل وعلم الأمير جعفر وثقافته التي لم تكن ترتفع الى مستوى ثقافة والده على كل حال ، لم تكن لتعجب ما كان يتصف به من الخمول والبخل والقسوة ، الأمر الذي كان له رد فعله في نفوس أفراد الأسرة حيث بدأ الشقاق يدب بينهم ، معلنا بوادر الاضمحلال .

ثورة علي بن يوسف واستبداد جعفر :

ففي سنة ٤٠٥ هـ / ١٠١٥م قام أحد اخوة جعفر بالثورة عليه ، بمساعدة جماعة من البربر والعبيد السودان ، وذلك في أول شعبان / ٢٥ فبراير ، ولكن رجال جعفر نجحوا في القضاء على الثورة فشتتوا البربر والعبيد ، وأخذوا عليا أسيرا في ٧ شعبان / ٣ مارس ، وهنا لم يرحمه أخوه الأمير فقتله ، الأمر الذي زاد في آلام يوسف والدهما ، الذي كان ما زال يعاني من الشلل (٢٥) .

وكان من نتائج ذلك أن فقد جعفر صوابه فانتهج سياسة تعسفية متطرفة ، وذلك أنه نفى كل بربري بالجزيرة الى أفريقية ، كما نقلت وأمره بقتل كل طائفة العبيد من العسكر الأميري ، واستبدل بهم جنودا من الصقليين المحليين . هذا ، كما انتهج جعفر سياسة عنيفة مع أهل بيته ، فقهر أخوته واستطال عليهم ، الأمر الذي أضعف مركزه ، وأطمع فيه أهل الجزيرة .

سياسة مالية متشددة تفجّر الثورة ضد جعفر :

وهكذا وبينما كان جعفر يعمل على احكام قبضته على دواوين الإدارة ، ويعتنى بصفة خاصة بترتيب الشؤون المالية ، مصدر التمويل الأول للخزانة العامة ، وذلك بتطبيق نظام قاس على عماله في جباية ضريبة العشر التي

(٢٤) ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٦٩ ، وما سبق ، ص

(٢٥) ابن الأثير ، ج ١ ص ١٩٣ - ١٩٤ ، عزيز أحمس ، صقلية الاسلامة ، بالانجليزية ، ص ٢٢ .

بسطرها على ما تغله الأرض من حب أو غيره ، ومطاردة المتخلفين عن الدفع ، دون رعاية لأعيان البلد من القواد والشيوخ أو أفراد الأسرة الحاكمة ، انفجرت الثورة بين أهل صقلية • وفوجيء جعفر بالجميع ، كبارا وصغارا ، وقد حاصروه في قصره ، في الحى الحسكوى من بلرم المعروف بالخالصة ، وضيقوا عليه حتى كادوا يأخذونه ، وذلك في المحرم من سنة ٤١٠ هـ / مايو ١٠١٩ م • وهنا كان على كبير الأسرة ، يوسف الوالد ، الذى كان مغلوبا الخروج في محفة الى الثوار ، فيشير أشسجانبهم بلطف حديثه ورققه بهم ، حتى « بكوا رحمة له من مرضه ، وطلبوا أن يستعمل ابنه أحمد المعروف بالأكحل » ، الأمر الذى وافقهم عليه (٢٦) •

ولما كان يوسف قد خاف على حياة ابنه جعفر من الثوار ، فإنه قرر تسييره الى مصر عن طريق البحر ، كما سار هو بعده الى هناك ، وكان معها من المال الكثير ما قدر بمبلغ ٦٧٠٠٠ (ستمائة وسبعين ألف) دينار (٢٧) •

أحمد الأكحل بن يوسف ثقة الدولة ،

واليا لصقلية في منعطف حاسم :

تعتبر ولاية أحمد الأكحل مرحلة فاصلة في تاريخ صقلية الاسلامية ، من حيث كانت بداية النهاية ، ليس بالنسبة لأسرة بنى أبى الحسين الكلبيين ، بل بالنسبة لبقاء الجزيرة اسلامية أم لا • ففي ذلك الوقت كانت السياسة البيزنطية تعمل على تقوية نفوذها في روما ، كما كان الباباسيليوس (ملك الروم) يقوى علاقته مع الامبراطور أوتو الثالث ، وذلك في الوقت الذى تصادف فيه نزول النورمانيين لأول مرة في منطقة أبوليا ، ١٠٠٩ - ١٠١٨ م / ٤٠٠ - ٤٠٩ هـ •

والحقيقة ان أحمد الأكحل بدأ ولايته بداية قوية ، رفعت من شأنه بين ولاية صقلية المجاهدين • وفى ذلك تقول رواية ابن الأثير أنه أخذ أمره

(٢٦) ابن الأثير ، ج ١ ص ١٦٤ -

(٢٧) ابن الأثير ، ج ١ ص ١٩٤ - حيث النسخ على أنه كان ليوسف وقتها ١٣ ألف سجرة سوى البنك وغيرهما ، وأنه مات في مصر فقيرا ، ليس له إلا دابة واحدة - أى تركوبه الشخصى •

بالحزم والاجتهاد ، وجمع المقاتلة ، وبث السرايا فى بلاد السكفر ، فكانوا يحرقون ويفنمون ويسبون ، ويخربون البلاد ، وانه اطاعه ايضا جميع قلاع صقلية التى للمسلمين (٢٨) . ومع نزول النورمان فى ابوليا (Apulia) تغيرت موازين القوى ، ووفق القائد بازيل بوجونيز (Basile Bojaonnes) الذى عهدت اليه الامبراطورية بتقويم الموقف فى صقلية . فى قيادة الصراع بنجاح ضد الامبراطورية الجرمانية ، وفى تحسين مدينة ريو ضد العرب ، ثم النزول فى مسينا ، وذلك فى الفترة من ١٠١٨ - ١٠٢٨ م / ٤٠٩ - ٤١٩ هـ (٢٩) .

محاولة للمساعدة من المهدية لا يقدر لها النجاح :

وأمام هذا التهديد البيزنطى فى كلايريا ومسينا ، عرض المعز بن باديس المساعدة على الأمير الأكحل (أحمد بن يوسف) الذى لم يكن أمامه الا القبول . وفعلًا جهز المعز فى سنة ٤١٦ هـ / ١٠٢٦ م . أسطولًا كبيرًا ، من ٤٠٠ قطعة ، حشد فيها العسكر النظامى والمتطوعة من المجاهدين ، وسببه على عجل فى قلب الشتاء (فى كانون الثانى : يناير / ذى الحجة) ، ولكنه عندما قرب من جزيرة قوصرة (بنتلاريا) فى شمال تونس ، تعرض لرييح شديدة ونوء عظيم ، لم يفلح فى مقاومته ، ففرقت أكثر المراكب ولم ينسج منها الا اليسير (٣٠) .

نجاحات مبشرة فى الصراع البحرى ضد الروم :

وعندما بدأ القائد بوجونيز يلقى المصاعب اعتبارًا من بداية الغزوة النورمنية الثانية لأبوليا ، فيما بين ١٠٢٨ - ١٠٤٠ م / ٤١٩ - ٤٣٢ هـ ، وانهزمت الاسلدادات البحرية البيزنطية تحت قيادة الحصى أوردستيز (Orestes) على أيدي القوات العربية قرب مدينة ريو . كان من النتائج

(٢٨) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٩٥ - هذا ، كما كانت علاقة الأكحل طيبة بالخلافة بالقاهرة ، حيث أرسل له الخليفة الظاهر سنة ٤١٥ هـ / ١٠٢٤ م سبيلًا معبأة أبى القاسم ابن رزق البغدادي ، وهدية فيها منبجات من القصر .

(٢٩) جاي ، إيطاليا الجنوبية ٠٠٠ بالفرنسية ، ص ٤١٤ وما بعدها .

(٣٠) انظر ابن الأثير ، ج ٩ ص ٣٤٢ (سنة ٤١٦ هـ) - حدث النص على ان السبب فى تجهيزه الأسطول ما عرّفه من خروج الروم الى صقلية فى جمع كبير ، فملكوا ما كان للمسلمين بجزيرة قلورية وشرعوا فى بناء المساكن وبنظرون وصول مراكبهم مع ابن الخضر الملك .

ذلك عوة الغارات العربية على عهد رومان أرجير (Romain Argyre) .
١٠٢٨ - ١٠٣٤ م / ٤١٩ - ٤٢٦ هـ) ، وذلك بمعرفة الأساطيل الزيرية
والكلبية المتعاونة فيما بينها ، فى الاغارة على الأراضى البيزنطية فى أبوليا
وشمال كلابريا وحتى الليريا (Ellyria) ، قرب الجزر الأيونية . بل ان
الهجمات العربية امتدت شرقا الى جزيرة كورفو (حوالى ١٠٣٢ م / ٤٢٣ هـ) ،
بل وحتى ساحل تراقيا .

والى ذلك الوقت كان البيزنطيون مستعدين للمفاوضة من أجل السلم .
ولكنه اعتبارا من سنة ١٠٣٣ م / ٤٢٥ هـ) كانت الغارات العربية قد توقفت
على كلابريا وأبوليا (٣١) ، الأمر الذى يفسره اضطراب الأمور فى صقلية ،
وضعف الأمير الأكحل عن مواصلة نشاطاته الجهادية ضد الروم فى إيطاليا
برا أو بحرا ، وذلك عندما ساءت العلاقة بينه وبين أهل صقلية ، الأمر الذى
أدى بالتالى الى سوء العلاقة بين المعز بن باديس والأكحل ، وقضى الخلف
الذى كان بينهما .

الأكحل وسياسة « فرق تسد » :

وهكذا حاول الأكحل أن يستخدم سياسة « فرق تسد » حتى يضمن
لنفسه استمرار السيطرة على الجزيرة ، حيث حاول أن يضم البلدين الصقليين
الى جانبه ضد الأفريقيين ، ولكنه لما واجه رفضهم بحجة ان الطائفتين أصهار
صاروا شسيئا واحدا ، ضم الأفريقيين الذين استجابوا لندائهم ووقفوا الى
جانبه ، فبدأ سياسة محاباتهم على حساب الصقليين . فكان يأخذ ضريبة
خراج الأرض من أهل صقلية ويعطى أراضى الأفريقيين منها ، الأمر الذى
أدى الى شكواهم الى المعز بن باديس (٣٢) . فكانهم كانوا ما يزالون يرون
ان أمير المهديّة هو الرئيس الشرعى لأمير صقلية ، قبل خليفة القاهرة البعيد
الدار .

وكانت فرصة طيبة انتهزتها بيزنطة - للتفاوض من موقف أقوى .
وبشروط أفضل . ففي سنة ١٠٣٤ م / ٤٢٥ هـ ، وصلت الى صقلية سفارة
من قبل الامبراطور ميشيل الرابع ، على رأسها الضابط المفاوض جورج

(٣١) جاي ، إيطاليا الجنوبية ، ص ٤٣٣ وما بعدها ، وقادن
عزير احمد ، صقلية الاسلامية ، بالانجليزية ، ص ٣٢ - ٣٣ وه ٧ عن جاي .
(٣٢) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٩٥ .

برويانا (G. Probata) فاوضت من أجل السلم الذى عقد فى أنسطس
١٠٣٥م / شوال ٤١٧هـ . وعاد المفاوض البيزنطى الى القسطنطينية
وبصحبه ابن الأكحل الذى حصل لوالده ، من الامبراطور ، على لقب القائد :
(ماجيستراتوس (Magistratos) ، فكان الأكحل هو الذى يتدخل
للإمبراطور ، كما يقول جاي(٣٣) .

تدخل المعز فى شئون صقلية :

والهم ان المعز استقبل فى سنة ٤٢٧هـ / ١٠٣٦م ، وفسد أهل
صقلية الذى أتاه شاكيا ، برئاسة من يدعى بـ « أبى حفص » (أحمد عزيز ،
ص ٣٣) ، وعرض عليه أمر الدخول فى طاعته تحت التهديد بتسليم البلاد
الى الروم ، مما يعنى انشقاقا خطيرا بين الأكحل والصقليين . واستجاب
المعز لنداء الصقليين فأرسل معهم عسكريا بقيادة ابنه عبد الله ، يقدر بحوالى
٦ (ستة) آلاف رجل ما بين فارس وراجل ، نجح فى دخول المدينة ،
يلزم ، وحصر الأكحل فى المدينة الأميرية : الخالصة . وانتهت الحرب بين
الطرفين بمقتل الأكحل ، وسط انقسام الصقليين على أنفسهم ، ازاء قيادتهم
الزيرية الجديدة ، ثم قيامهم ضد الغرباء من أهل أفريقية ، فزحفوا اليهم
وقاتلوه ، وقتلوا منهم حوالى ٨٠٠ (ثمانمائة) رجل ، واضطروهم الى
الرجوع الى مراكزهم ، والعودة الى بلادهم : أفريقية(٣٤) .

وكانت فرصة انتهزها البيزنطيون سنة ٣٧ - ١٠٣٨م / ٣٩ - ٤٣٠هـ
لكى يغزو مسينة بقوة كبيرة ، على رأسها القائد جورج منياكس (Georges
Maniakes) الذى كان قد ظهرت مواهبه فى حرب الشام فيما بين ١٠٣٠ -
١٠٣٤م / ٢١ - ٤٢٦هـ ، والذى لحقت به قوة من النصارى الصقليين
تقدر بـ ١٥ ألف رجل . ولكنه اذا كان منياكس قد حقق بصعوبة انتصارات
بطيئة فى منطقتى رمطة وأتنا ١٠٤١م / ٤٣٣هـ ، فقد كان استدعاء ميناكس
الى القسطنطينية مناسبة سهلت على العرب فى صقلية استعادة الأقاليم التى

(٣٣) جاي ، إيطاليا الجنوبية . . . ، بالفرنسية ، ص ٤٣٥ .

(٣٤) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٦٥ ، وأنظر جاي ، إيطاليا الجنوبية . . . ، بالفرنسية ،
ص ٤٣٦ - حيث النص على ان الأكحل عندما انهزم أمام عبد الله بن المعز لما الى قائد إيطاليا
قسطنطين أبوس (Constantin Opos) الذى شارك عمير المصيق برجاله القليلين لقتال
الجيش الأفريقى سنة ١٠٣٧م / ٤٢٩هـ .

الى الجزيرة تحت امرته ، كان من الطبيعى أن يدخل ابن الثمنة فرد صراع مع ابن الخواس ، صاحب قصريانة ، سرة الجزيرة ، وهو الطموح أيضا مثله ، وقرينه ، هذا ، ولو أن الرواية ترجع صراعهما الى أسباب عائلية خاصة بالمصاهرة التي كانت بينهما (٣٧) .

الصراع بين ابن الثمنة وابن الخواس ،

والتدخل النورمندى فى الجزيرة :

وانتهز ابن الثمنة فرصة الخصام العائلى ، وسار نحو قصريانة حيث حصر ابن الخواس ، ولكن الأخير كان أكثر من تدلصهره ، فخرج اليه ونجح فى هزيمته ، بل « وتبعه الى قرب مدينة قطانية ، وعاد بعد أن قتل من أصحابه فأكثر » (٣٨) . وهنا خرج ابن الثمنة عن صوابه ، وسولت له نفسه الانتصار بالكفار من الأفرنج النورمنديين الذين كانوا قد استقروا فى كلابريا ، والذين كانوا يرنون بأبصارهم ، مع البابوية ، نحو صقلية ومن فيها من المسلمين (٣٩) . وسار ابن الثمنة فعلا الى رجار ملك النورمنديين ، وعرض عليه وعلى من معه من كبار قادته تملكهم الجزيرة ، وعندما سألوه عن مدى ما يمكن أن يواجههم من المساومة ، عرفهم أن عسكر المسلمين مختلفون ، فضلا عن أن أكثرهم تابع له ، يسمع قوله .

وهكذا كان على النورمنديين المستقرين بكلابريا أن يسيروا مع ابن الثمنة فى شهر رجب سنة ٤٤٤هـ / أكتوبر - نوفمبر ١٠٥٢م . وهم مطمئنون الى بلاد المسلمين ، « فلم يلقوا من يدافعهم ، واستولوا على ما مروا به فى طريقهم » . ولكنهم عندما قصدوا قصريانة وحاصروها ، خرج اليهم

(٣٧) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٦٦ - حيث النص على أنه نتيجة لمشادة كلامية بين ابن الثمنة وزوجته ، أخت ابن الخواس ، أثناء مجلس شراب وسكر ، أمر ابن الثمنة بفسدهاء وتركها لتتوت لولا أن أنقدها ابنها ابراهيم بالأطباء . ورغم قبولها عذر زوجها بسبب السكر فاتها دبرت زيارة لأخيها ابن الخواس لكى تخبره بما ألم بها ، فحلف ألا يميدها الى زوجها ابن الثمنة .

(٣٨) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٩٦ .

(٣٩) انظر أرشيبالد لويس ، القوى البحرية والتجارية ، الترجمة ، ص ٢٧٣ - حيث خطر النورمان بجنوب إيطاليا منذ تزعمهم روبرت جيسكار ، وهو اخو روجر الذى وقع على عاتقه اقامة دولة نورماندية فى كلابريا ، قبل التطلع الى صقلية بتحريض من البابا سنة ١٠٥٩م / ٤٥١هـ .

ابن الحواس ، فلما هزمه النورمنديون عاد الى حصنه ، فرحلوا عنه ، وساروا
فى الجزيرة ، واستولوا على مواضع كثيرة ، من حيث هجرة جماعات من أهلها
الى أفريقية ، وخاصة من العلماء والصالحين - ممن يحرصون على دينهم أولا-
وقبل كل شيء (٤٠) . وهذا لم يمنع ما كان دارجا من قبل من هجرة البعض
يشكل مضاد ، من أفريقية الى صقلية . ففى هذا الوقت ، حيث كانت بلاد
القيروان تعاني من افساد العرب الهلالية كان الشاعر ابن رشيق ، الذى كان
فى خدمة المعز الى جانب ابن شرف ، يركب البحر الى صقلية ، لكى يقيم
فى مدينة مازر ، فى كنف أميرها ابن منكود الذى تدارس معه كتاب العمدة .
وكانت وفاته بمآزر فى أول ذى القعدة سنة ٤٥٦هـ / ١٥ أكتوبر
١٠١٤م (٤١) .

فتشل التدخل الزيرى فى صقلية وضياع الجزيرة :

وأمام ما داهم الجزيرة من خطر النورمندين سار جماعة من الصقليين
الى المعز بن باديس ، وعرفوه بالأحوال المضطربة عندهم بسبب الخلاف
ما بين البلديين والأفريقيين ، الأمر الذى استغله الفرنج النورمنديون فى
الاستيلاء على كثير من أرض الجزيرة ، وطلبوا منه التدخل . وأسرع المعز
واستجاب للنداء من جديد وأسرع وأعد أسطولا كبيرا شحنته بالرجال والعتاد
على عجل ، ودفعه دفعا الى الانقلاع الى صقلية ، الأمر الذى يعتبر مغامرة قد
لا تحمد مقبعتها بسبب دخول فصل الشتاء . وفعلما ما أن وصلت المراكب
الى جزيرة قوصرة (بنتلاريا) ، شمال تونس ، حتى هاج عايتها البحر ، فغرق
أكثرها ولم ينج منها الا اليسير - الأمر الذى يخشى معه أن تكون هى نفس
حملة ٤١٦ هـ / ١٠٢٦ م (ما سبق ، ص ٤٨٨ وهـ ٣٠) .

والهمم أنه اذا كانت رواية ابن الأثير تعلق على ذلك بقولها : « وكان
ذهاب هذا الأسطول مما أضعف المعز ، وقوى عليه العرب حتى أخذوا منه
البلاد » ، فما هو أحق من ذلك ما قررته الرواية بعدئذ من القول : فملك .

(٤٠) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٩٦ - ١٩٧ . هذا ، ولو ان المعروف فى الجانب الفرنجى
ان روجار لم يبدأ غزوته لصقلية الا فى سنة ١٠٦١م / ٤٥٣هـ - أى بعد حوالى عشر سنوات -
عندما عبر خليج مسينا واستولى على مدينة مسينا نفسها ، ووصله الى قصر يانعة . ولو انه
رجع بعد ذلك الى إيطاليا ، انظر أرشيبالد لويس ، القرى البحرية ، الترجمة ، ص ٣٧٤ .
وقارن ادريس (هـ . ر .) ، الزيريون بالفرنسية ، ص ١٧١ - حيث عرّف كثير من
الاحتمالات لتفسير ذلك الخلاف التاريخى .

(٤١) انظر انوفج الزمان فى شعراء القيروان لابن رشيق ، تحقيق الملقى ، تونس ،

حينئذ الفرنج أكثر البلاد على مهل وتؤدة ، لا يمنعهم أحد ، واشتغل صاحب أفريقية بما دعه من العرب ، ومات المعز سنة ٤٥٣ هـ / ١٠٦١ م (٤٢) .

وقد تميم بن المعز بارسال الأسطول والعساكر الى الجزيرة ، بقيادة ولديه : أيوب وعلى . وسار أيوب بالعسكر الى المدينة : بلرم ، بينما نزل على بالأسطول على جرجنت . ثم ان أيوب انتقل الى جرجنت حيث استضافه ابن الحواس في قصره ، وقدم اليه الهدايا الكثيرة . ولكن ابن الحواس لم يلبث أن نهشته الغيرة عندما نجح أيوب في اكتساب محبة أهل جرجنت ، وانتهى الأمر بأن ساءت العلاقة بينهما حتى سار ابن الحواس لقتال أيوب الذي وقف الى جانبه الجرجنتيون . وأسفرت الحرب عن مقتل ابن الحواس بسهم طائش ، وبذلك آلت رئاسة جرجنت الى أيوب باختيار العسكر (٤٣) .

ولم يدم الوفاق طويلا بين الأميرين الزيريين وبين الصقليين ، إذ قامت الفتنة بين أهل المدينة : بلرم ، وعبيد تميم ، وعندما زاد الشر بين الفريقين اجتمع أيوب مع أخيه على ، وقررا الرجوع في الأسطول الى أفريقية ، وذلك سنة ٤٦١ هـ / ١٠٦٩ م ، وبصحبتهما عسدد من أعيان صقلية ومن القواد (٤٤) .

ولا بأس أن يكون من أسباب الخلاف بين المجاهدين الصقليين والعسكر الزيرى ، عدم التوفيق الذي لقيته القوات الزيرية في مواجهتها للفرنسيج النورمنديين . ففي سنة ٤٦١ هـ / ١٠٦٩ م ، لقيت القوات الزيرية هزيمة على أيدي النورمنديين في موقعة ميسيلمرى (Misilmeri) ، على مسافة ٩ أميال من شرق العاصمة بلرم . وبعد العودة الى أفريقية يقف الزيريون مكتوفى الأيدي أمام استطالة النورمنديين على المسلمين الذين لم يبق بين أيديهم سوى مدينتى قصر يانة وجرجنت . فهم يهاجمون سواحل إيطاليا الجنوبية ، في كلابريا حيث تعرضوا لمدينة نيكوترا لتخفيف العبء عن المجاهدين الصقليين ، كما قاموا بمحاولة ثانية عند جرجنت سنة ٤٦٨ هـ / ١٠٧٥ م ، ولكن الملك روجر النورمندى دفعهم بعيدا عن سواحل الجزيرة (٤٥) . ومن الواضح ان مثل هذا التدخل من جانب الزيريين كان من الأسباب التى دفعت الجنسويين والبيسانيين الى مهاجمة زويلة والمهدية سنة ٤٨٠ هـ /

(٤٢) ابن الأثير ، ج ٢٠ ص ١٩٧ .

(٤٣) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٩٧ .

(٤٤) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٩٨ .

(٤٥) انظر تلى الدورى ، صقلية ، ص ١٢٣ - ١٢٤ .

١٠٨٨م (٤٦) .

والهم أن ترك الزيريين صقلية كان يعنى تركها غنيمة سهلة للنورمنديين الذين لم يبق أمامهم ما يحول وأخذهم الجزيرة كلها . وهكذا :
ثم يبق بين أيدي الصقليين غير قصر يانة وجرجنت اللتين حصروهما النورمنديون ، وضيقوا على المسلمين بهما حتى جاعوا ، فكان تسليم أهل جرجنت سنة ٤٨١هـ / ١٠٨٨م ، بينما صمد أهل قصر يانة طوال ٣ (ثلاث) سنوات صعبة حتى « أذعنوا الى التسليم سنة ٤٨٤هـ / ١٠٩١م .

وبذلك ملك رجار النورمندي جميع الجزيرة وأسكنها اروم وأخرج مع المسلمين ، ولم يترك لأحد من أهلها حماما ولا دكانا ولا طاحونا ، بمعنى إبعادهم عن التصرف فى المرافق العامة ، حذرا . ولقد سلك ولده وخليفته رجار الثانى سنة ٤٩٠هـ / ١٠٩٦م ، الذى أشاد به الإدريسي ، طريق ملوك المسلمين فى أصول السياسة ونظم الحكم ، كما أكرم المسلمين وقربهم ، واعتنى بالأسطول حتى فتح جزائر البحر وتطاول الى سواحل أفريقية .

وهكذا كان النصف الأول من القرن الخامس الهجرى منعطفا فى تاريخ المغرب ، من حيث أضعف خروج العرب الى أفريقية الدولة الزيرية داخلها ، فأعجزها عن السيطرة على كل أراضيها مما كان سببا فى ظهور المتغلبين ، وخاصة فى مدن الساحل ، الأمر الذى قيد حركة الأسطول الزيرى خارجيا . فى النصف الثانى من هذا القرن ، مما أعطى الأسطول البيزنطى وأساطيل الجمهوريات الإيطالية الناهضة ، فى جنوه وبيزا حرية الحركة ، ليس فى جنوب إيطاليا وصقلية وحدها ، بل وفى المهدية نفسها ، الأمر الذى ترك الصقليين الممزقين فيما بينهم يواجهون وحدهم ، الخطر النورمندى ، تماما ، كما ضعف ملوك الطوائف فى الأندلس عن مواجهة الممالك المسيحية الشمالية التى أخذت تثنى عليهم حرب الاسترداد دون هوادة ، الأمر الذى كان يندب لحل عاجل للمشكلة الأندلسية لصالحهم ، لولا عملية الانقراض التى تمت على أيدي جماعات البسود فى صحراء المغرب الجنوبية ، من بربر صنهاجة الملتصين ، الذين جددوا فى المغرب والأندلس ما انقطع على أيدي بنى جلدتهم : صنهاجة أفريقية فى بلاد القيروان وصقلية ، مما يتطلب رسم خريطة لبلاد المغرب فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى / ١١م ، تمكن من المقابلة مع ما رسمناه لأفريقية وصقلية .

بلاد المغرب في منتصف القرن الخامس الهجري/ ١١ م

الحماديون همزة الوصل ما بين إفريقية والمغرب :

رغم ما قام بين الزيريين من بني باديس في القيروان والمهدية وبين أبناء عمومته الحماديين في القلعة وبجاية من التنافس في استعراض القوة ، بغية الحفاظ على الاستقلال ، ولو عن طريق التدخل في الشؤون الداخلية للطرف الآخر ، كما فعل الناصر بن علناس في مساندته للقواد التوار في تونس وفي سوسة ، وفي حصار الأريس وقتل عاملها (١) ، وفي دخول القيروان (٢) ، وفيما كان يرد به المعز وتميم من إثارة العرب الهلالية على الناصر ، كما حدث في سببية (ما سبق ، ص ٤٥٤) ، وكما ظهر من الطرفين بمناسبة بناء بجاية (ما سبق ، ص ٤٥٦) ، فإن ذلك لم يكن يضير للود قضية بين الطرفين . فبمناسبة خلع المعز الطاعسة لبنى عبيد ، يقتدى به القائد ابن حمساد ويدعو للعباسيين حتى وفاته سنة ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ م (٣) . وبمناسبة ولاية تميم يصله كتاب الناصر بن علناس بالنعزية والتهنئة (النويري ، ص ٣٤٨) ، وعندما ينهزم الناصر أمام الهلالية يعز على تميم ذلك ، ويرفض أخذ سلبه (ما سبق ، ص ٤٥٥) ، بل ويكون ذلك حافزا على المصالحة ، رغم ما كان قد استقر في النفوس من الحقد والضعينة التي ظلت تقض المضاجع وتثير الشكوك .

والهم ان صاحب كل من دولتي المهدية والقلعة حمل تبعاته من هموم الحركة الزيرية ، من متاعب الهلالية ، والقطيعة مع الخلافة الفاطمية ، الى جانب الهموم المستجدة مع الانفصال . فقد كان على دولة المهدية أن توجه أنظارها الى الأقاليم الشرقية وما قام بها من تمرد الزناتية وعملهم على الاستقلال ،

(١) ابن عذاري ، ط . بيروت ، ص ٤٢٩ - حيث حاصر الناصر بن حساد سنة ٤٦٠ هـ / ١٠٠٨ م مدينة الأريس ، وكان معه الأتبع من العرب ، وبقي عليها حتى انتصها وأمن أهلها ، وقتل عاملها أبي مكرز .

(٢) ابن عذاري ، ط . بيروت ، ص ٤٣٠ - حيث وصل الناصر مع العرب الى القيروان ودخلها ، وعاد منها الى قلعة خوفا من جموع العرب .

(٣) الاعلام لابن الخطيب ، ص ٨٦ - ٨٧ .

كما تلاق عليها أن تواجه أعمال الشعب في أقاليمها الساحلية ، الأمر الذي شغل الأسطول إلى حد كبير عن التهايب للعدو البحري الذي تعاطف بظهور أساطيل المدن الإيطالية ، وخاصة جنوة وبيزة ، وشغل المهدي عن مناصرة أصحاب صقلية ، عندما كانت تواجه مسئولياتها التاريخية إزاء أصحاب المصلحة المباشرة من الصقليين ، أهل الجزيرة ، وهم يعانون محنة الاحتلال .

أما عما يورثه الحماديون من هوم المملكة الزيرية فيتعلق بشئون المغرب ، وبخاصة ، من أوسطه في تلمسان إلى أقصاه في فاس . وإذا لم تنهيا للحماديين ظروف التدخل في صقلية وما وراء البحار بشكل مباشر ، فإن الناصر بن علناس كانت له علاقات طيبة بالبابوية على عهد جريجوري السابع ، إذ تبادل معه الرسائل وإن كانت ظاهريا بشأن أمور دينية سلمية (ما سبق ، ص ٤٦٧) ، الأمر الذي كان يسمح للناصر بالقيام بالوساطة سنة ٤٢٣ هـ / ١٠٣١ م ، من أجل تخليص علي بن مجاهد من الأسر الذي وقع فيه عندما انهزم والده مجاهد ، صاحب دانية ، في سردينيا أمام البيزانين (٣ م) ، الأمر الذي يقع في نطاق البلاد الحمادية نحو المغرب أيضا والأندلس ، والذي يجعل من الناصر بن علناس أكبر شخصية بين بني حماد .

تاهرت وتلمسان ما بين أفريقية والمغرب :

لما كانت جغرافية بلاد المغرب بمعنى الشمال الأفريقي - دون مصر - تقضى بأن تنتهي بلاد أفريقية ، وهي بلاد القيروان في عز سلطانها على أيام الأغالبة ، وكما ورثها الفاطميون ومن بعدهم الصنهاجيون بنو زيري ، على تخوم مقاطعة قسنطينة وبلاد القبائل الصغرى ، من حيث تبدأ بلاد المغرب الأوسط بمعناها الجغرافي الاصطلاحي لتشمل بلاد أشير التي أصبحت بلاد بني حماد ثم إقليم الشلف وتاهرت ، وهو ما تقرره نصوصنا التاريخية الخاصة بالدولة الزيرية ، حيث كان خروج الأمير من القيروان إلى أشير هو خروج إلى الغرب ، ورجوعه من أشير إلى المنصورية والمهدي : عودة من الغرب (ما سبق ، ص ٣٣٦ ، ٣٤٨) ولكنه لما كانت حدود الدولة الحمادية المغربية تنتهي عند مدينة الجزائر ، جزائر بني مزغناي ، بينما كانت تاهرت

٣١ مكرر) أنظر عصام سالم سيسالم ، التاريخ الإسلامي لجزر البليار ، بيروت ١٩٨٤ .

ص ١٦٢ والهرافشي .

الى عهد قريب معتبرة اصطلاحيا من أفريقية^(٤) ، قبل أن تخلفها تلمسان^(٥) ، كان من الطبيعي أن يكون هناك شد وجذب بين الحسادين أصحاب القلعة وبجاية وبين الزناتية أصحاب تاهرت وتلمسان ، وهو الأمر الدارج بالنسبة لمدن الحدود ، مثلما كانت طرابلس مجال شد وجذب بين مصر وأفريقية ، وكما كانت تاهرت ، وبخاصة تلمسان ، موضع نزاع بين دول المغرب الأوسط ودول المغرب الأقصى - وكان المغرب الأقصى وقتئذ بين أيدي الزناتية .

غلبة زيري بن عطية (القرطاس) على فاس :

والحقيقة أن الصراع بين صنهاجة وبين زناتة ، من أجل السيطرة على تاهرت وفاس وسواحلها في أرشقول وتلمسان ، كان سجالا لفترة طويلة منذ أيام الفاطميين وحتى استقلال بلقين ، وحيث شارك فيه الأمويون في الأندلس ، وانتهى بغلبة الزناتية من بني خزرون ، حيث استقل زيري بن عطية المغراوي المعروف بالقرطاس ، واتخذ فاس دار ملك له منذ ٣٧٧ هـ / ٩٨٧ م . ودعا لهشام المؤيد خليفة قرطبة ، وخرج على المنصور بن أبي عامر (ما سبق ، ص ٣٦٣) ، كما نجح بنو خزرون في الاستقلال أيضا بطرابلس بمعرفة سعيد بن خزرون ثم أخيه وروا من بعده ، وذلك بمعاونة الخلافة الفاطمية بالقاهرة (ما سبق ، ص ٤٤٤) - فكان الزناتية المغراوية كانوا يخططون لتطويق الدولة الزيرية من مغربها الى مشرقها .

بنساء وجدة :

والهم ان زيري بن عطية استقل بملك المغرب ، وبني مدينة وجدة سنة ٣٨٤ هـ / ٩٩٤ م ، واتخذها عاصمة لمملكته ، كما غلب صنهاجة على تاهرت وتلمسان وما يتبعها ، وأقام فيها الدعوة لهشام المؤيد . وبعد وفاته سنة ٣٩١ هـ / ١٠٠١ م ، خلفه ابنه المعز بن زيري على أملاكه بمبايعة زناتة له في نفس السنة ، وتأكد ذلك بعد أن صالح عبد الملك المظفر بن المنصور بن

(٤) ابن حوقل ، ص ٩٣ - حيث تعتبر تاهرت من كورة أفريقية عند الجيغ ، وهو ما يتفق مع واقعها على عهد الفاطميين والزيريين ، بينما كانت في القديم مفردة الفصل والاسم والدواوين ، بينما هم عند الاستبصار (ص ١٧٨) من مدن المغرب الأوسط المشهورة وبها قبائل البربر من مطرفة وزناتة ويخاطلون من أفريقية بنزقة الهلالية ومن جهة القرب بلاد مسوفة .

(٥) وتلمسان قاعدة المغرب الأوسط عند كل من البكري (ص ٧٦) والاستبصار (ص ١٧٦) ، كما كانت دار ملكة زناتة ، بينما لا يحدد ابن حوقل كورتها (ص ٨٨) .

ابن عامر ، الذي عيّد اليه سنة ٣٩٣ هـ / ١٠٠٣ م ، بمدينة فاس ونسائر أعمال المغرب ، مدنه وبواديه ، بعد أن عزل واضحا مولاة عنها ، وصرفه إلى الأندلس .

بنو يعلى الزناتية في تلمسان

وملحمة أبي سعدى والهاللية :

وفيما يتعلق بتلمسان فقد آلت إلى يعلى بن محمد الذي نزلها ، وصارت ملكا ، خالصة له ولعقبه من بعده ، حيث استوثق ملك بني يعلى بتلمسان على عهد بني حماد الذين ضعفوا عن دفاعهم (٦) . وعندما دخل الهاللية بلاد القلعة ، استخلص الحماديون الأتبع منهم وزغبة ، واستظهروا بهم في حرب الزناتية بالمغرب الأوسط . وهكذا قامت بينهم وبين بني يعلى " أمراء تلمسان ، الذين جمعوا من كان اليهم من بني واسين وبني مرين " وبني عبد الواد ، وعهدوا بالقيادة ضد الهاللية إلى وزيرهم أبي سعدى خليفة اليفرنى ، ووقعت الحرب التي أظهر فيها الوزير أبو سعدى بطولات مرموقة ، وذلك على عهد الأمير يحيى (ابن يعلى) ، وفي ميسادين حروبهم التي اعتادوا عليها في أطراف بلاد الزاب والمغرب الأوسط . وهنا ينص ابن خلدون على أن وزير يحيى وقائد حروبه أبا سعدى بن خليفة الزناتى اليفرنى ، كان كثيرا ما يخرج بالعساكر من تلمسان في نفساله لحرب الأتبع وزغبة ، وأنه خلال بعض تلك الملاحم هلك هذا الوزير أبو سعدى ، وذلك سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م ، الأمر الذي ترتب عايه غلبة الهاللية على جميع الضواحي بالزاب وأفريقية ، وانسحاب بني واسين ومن اليهم إلى صحراء المغرب الأوسط (٧) .

غارة حمادية على فاس :

وبعد ميلك يحيى وولاية ابنه العباس بن يحيى ، ملك المرابطون أعمال المغرب الأقصى . وسرح يوسف بن تاشفين قائده مزدلى في عساكر متونة لحرب من بقي بتلمسان من مغراوة ، ومن لحق بهم من قل بني زيرى ، فظفر بيعلى بن العباس بن يحيى الذي خرج اليه فانهزم وقتل ، بينما عاد مزدلى

(٦) ابن خلدون ، ج ٧ ص ٤٥ .

(٧) المغرب ، ج ٦ ص ٤٥٠ - حيث الاسم الوزير أبو سعيد ، ص ٦١ - حيث الاسم

أبو سعدى .

الى المغرب (٨) . وقريب ذلك الوقت ، في سنة ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م ، تشير رواية ذات طابع قصصي ، لابن الخطيب ، الى أن بلقين بن محميد صاحب القلعة الحمادية ، قام بغارة جريئة على فاس جعلت يوسف بن تاشفين الذي كان يدوخ بلاد المغرب ، وقتله . يكرر راجعا الى الصحراء ، خوفا منه (٩) ، فكان زناتة المغرب الأوسط في تلمسان ، وكذلك في المغرب البعيد ، كانوا قد وقعوا - على كل حال - في منتصف القرن الخامس الهجري / ١١ م ، بين شقى رحى صنهاجة أفريقية الزيريين ، وبين صنهاجة صحرأوات المغرب الأقصى ، من الملتحين المرابطين .

امارة فاس الزناتية :

بنو موسى بن أبي العافية :

عندما قامت الخلافة الفاطمية في القرون سنية ٢٩٧ هـ / ٩٠٩ م ، كانت الامامة الادريسية في فاس توسياني من الضعف والتفتت ، سواء في فاس أو في ساحل تلمسان والعمود في سبتة وطنجة . وهكذا عجل وصول

(٨) العبر ، ج ٦ ص ٦١ .

(٩) انظر ابن الخطيب ، الاعلام ، ص ٨٧ - ٨٨ - حيث النص على انه في مسفر سنة ٤٥٤ هـ / فبراير ١٠٦٢ م ، تحرك بلقين بن محميد بن حماد - ثالث بني حماد ، بعد القائد بن حماد وابنه محسن - من القلعة لحرب زناتة ، وكان بلقنه ظهور يوسف بن تاشفين ببلاد المصامدة ، فتحرك حتى نزل فاس ففتحها وجلس ببلاد المغرب ودوخها ، وأنه عندما بلغ يوسف بن تاشفين خبره كسر راجعا الى الصحراء خوفا منه الى أن قبض له النصارى (ابن علفاس) ، أحد بني عمه ففرق بين روحه والجند بـ نقلا عن ابن بسم في الشهيرة ، حيث يصف بلقين هذا بأنه أحد جبابرة الإسلام رجل كان لا يملأ يده الا من لبدة أسد غاية من سلبت من جبابرة الأرض هذا ، كما انه كان يستطيع أن يقوم بالغارة على فاس ، وهو يقطع مجلس راحته وشرايه ، ليعود من الغزو مستاقفا مجلس أمسه ، فيشرب من نفس الكأس الذي تركه مختوما ولا بأس أن يكون المقصود بذلك غارة سنة ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م ، على فاس الأمر الذي يشكك في صحة المصدر الأدبي . ولا شك أن القرابة بين الحماديين من بني زيري وبين اللمتونيين من رجسك يوسف بن تاشفين ، من حيث العرق الصنهاجي الواحد ، قريبة على ما نذهب اليه من زيف النص . وقارن صبح الإغنى ، ج ٥ ص ١٨٧ - حيث زحف صاحب القلعة بلقين بن محمد بن حماد الى المغرب سنة ٤٥٤ هـ ، ودخوله على المرابطين في فاس ، التي تركها الفتوح ، واستقر من بعض أشرافهم (من المرابطين) على الطاعة ، ورجع الى عمله ، وقارن ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٧٢ ، ج ٧ ص ٣٦ - حيث النص على أن بلقين (بن حماد) زحف الى المغرب سنة ٤٥٤ هـ على عمادتهم في غزو ، وأنه دخل فاس واستعمل من أئامهم وأشرافهم رهنا .

الفاطميين الى فاس منذ سنة ٣٠٥ هـ/٩١٧ م ، بسرعة اضمحلال ملك الادارسة في تلك الاقاليم ، وساعد على أن يحل محلهم موسى بن أبي العافية زعيم قبيله مكناسة ، وأن يخلفه بنوه في سيادة المغرب وفاس تحت الرايات الأندلسية لعبد الرحمن الناصر ومن بعده هشام المؤيد والمنصور بن أبي عامر - ولكن موسى بن أبي العافية وبنوه لم يستطيعوا مطاولة بني خزر الزناتية الذين طاولوا صنهاجة في السيطرة على المغرب ، وقتلوا زيري بن مناد ، وخاصة عندما ظهر زيري بن عطية المفراوى ، الذي قربه المنصور العامرى ، وحاول أن يحتويه ، لولا طموح زيري الذي لا يحد .

هذا ، ولو أن بنى موسى بن أبي العافية ظلت لهم مكانتهم في المغرب على كل حال . ففي مطلع القرن الخامس الهجرى/١١ م ، كان اسماعيل بن البورى بن موسى بن أبي العافية يناصر حماد بن بلكين في حربه مع ابن أخيه باديس بن المنصور ، وهلك اسماعيل في تلك الحرب في معارك وادى شلف سنة ٤٠٥ هـ/١٠١٤ م (١٠) . بل وظل حفدة موسى بن أبي العافية حتى قيام المرابطين . ففي سنة ٤٠٥ هـ/١٠١٤ م كانت وفاة ابراهيم بن موسى بن أبي العافية ، وولاية ابنه عبد الله (أبو عبد الرحمن) الذي توفي سنة ٤٣٠ هـ/١٠٣٨ م ، وخلفه ابنه محمد الذي توفي سنة ٤٤٦ هـ/١٠٥٤ م ، وولى بعده ابنه القاسم . والقاسم بن محمد هو الذى زحف الى المرابطين عندما غلبوا على أعمال المغرب .

فلقد زحف القاسم بن محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن ابراهيم ابن موسى بن أبي العافية الى المرابطين بوادى صفرو ، بعد أن استدعى أهل فاس ، وطلب النجدة من زناتة ، بعد مهلك معتصر المفراوى سنة ٤٦٠ هـ/١٠٦٨ م ، ونجح في هزيمة المرابطين . ولكن القاسم بن محمد لم يستطع الوقوف أمام يوسف بن تاشفين الذى هزمه مع من ناصره من جمع مكناسة وزناتة سنة ٤٦٣ هـ/١٠٧١ م ، واقتحم فاس عشوة ، فكانت نهاية ملك مكناسة من المغرب ، متزامنة مع انقراض ملك مغراوة الزناتية (١١) .

(١٠) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٣٦ .

(١١) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٣٦ .

بنو خزرج المغراويون وغلبة صاحب سلا :

أبي الكمال تميم اليفرنى على فاس :

والهمم بالنسبة لبني خزرج الزناتية أن المظفر عبد الملك بن المنصور تمكن من تدجين المعز بن زيرى بن عطية عندما خلف والده ، وذلك اعتبارا من سنة ٣٩٣ هـ / ١٠٠٣ م (ما سبق ، ص ٥٠٢) ، حيث تكرست دولة زناتة فى فاس . فبعد المعز بن زيرى بن عطية الذى توفى سنة ٤١٧ هـ / ١٠٢٦ م ملك ابن عمه حماسة بن المعز بن عطية المغراوى . وقام عليه الأمير تميم بن زيرى بن يعلى بن محمد اليفرنى صاحب شالة وتادلا وما إليها ، وهو من بنى يدو بن يعلى ، وزحف اليه فى قبائل يفرن الى فاس . وخرج الأمير حماسة الى لقائه فى قبائل مغراوة ، وانتهى اللقاء فى جمادى الثانية ٤٢٤ هـ / مايو ١٠٣٣ م ، بهزيمة حماسة الذى فر الى وجدة ، من أحواز تلمسان ، تركا فاس لكى يدخلها تميم بن زيرى الذى تكنى بأبى الكمال (١٢) .

وعرف أبو الكمال بالثبوت فى دينه ، وإن كان الغالب عليه الجهل ، حسبما تقول رواية ابن أبى زرع فى القرطاس . فهسو يوقع بيهود فاس طوقعة عظيمة فيقتل منهم أكثر من ٦ (ستة) آلاف رجل ، ويأخذ أموالهم ، ويسبى نساءهم . هذا ، كما كان أبو الكمال مولعا بجهاد برغواطة ، فكان يغزوهم مرتين فى كل سنة ، فيقتل ويسبى ، وظل على ذلك الى أن توفى سنة ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م (١٣) .

والهم أن إقامة أبى الكمال فى فاس طالت الى أكثر من خمس سنوات حيث تمكن حماسة من الذهاب الى تنس لمحمد مغراوة ، وتمكن من طرد تميم من فاس الى مدينة شالة ، حيث بدأ فيها دولته الثانية اعتبارا من ذى الحجة

(١٢) العبر ، ج ٧ ص ٣٥ - حيث النص على أن حماسة ابن عم المعز بن زيرى وليس أخته ، كما يزعم بعض المؤرخين ، القرطاس ، ص ١٠٩ ، وقارن صبح الاعشى ، ج ٥ ص ١٨٧ .
(١٣) القرطاس ، ص ١١٠ - حيث الإشارة الى أن الرجل المجاهد بلغ طبقة الأولياء أصحاب الكرامات ، وذلك أنه عندما قتل ابنه سنة ٤٦٢ هـ / ١٠٧٠ م فى حرب لموتونجى ، به لدفنه فى قبر أبيه ، أبى الكمال تميم ، سموا من قبره تكبيرا عظيما وتشهد ، فبنشوا قبره فوجدوه لم يتغير منه شيء . وعندما رآه أحد قرابته فى المنام وسأله عن ذلك التكبير والتشييع قال : ملائكة وكلهم شأ . ويكون أجر ذلك لى ، وقال وبم ثلث ذلك ، قال بجهادى فى الكثرة برغواطة ، وقارن ابن خلدون ، ج ٧ ص ٣٥ - حيث النص على اكتساح تميم اليهود واستسلام نعمهم واستباحة حريمهم دون النص على العدد ٦ (ستة) آلاف .

سنة ٤٢٩ هـ / نوفمبر ١٠٣٨ م ، والتي انتهت بوفاته سنة ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ م .

والظاهر أن غزو اليفرنيين في سلا لمدينة فاس على عهد حماسة شجع القائد بن حماد على القيام في سنة ٤٣٠ هـ / ٣٠ - ١٠٣١ م ، بغارة على فاس انتهت بالصلح نتيجة لشراء القائد زعماء زناتة (١٤) .

وبعد تميم أبي الكمال ولى ابنه حماد الذي توفي سنة ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م ، وولى ابنه يوسف الذي توفي سنة ٤٥٨ هـ / ١٠٦٦ م ، فولى بعده عنه محمد بن الأمير أبي الكمال تميم الذي هلك في حروب متونة حين غلبوهم على المغرب أجمع (١٥) .

دوناس بن حماسة : مخضر فاس :

أما حماسة (ابن المعز بن عطية المفاوى) فلم يبق طسويلا في ملك فاس وأعمالها في المغرب ، إذ توفي سنة ٤٣١ هـ / ١٠٣٩ م (١٦) ، وبعبده آلت إمارة فاس الى ابنه دوناس ، المعروف بأبى العطف ، مع جميع ما كان بيد أبيه من المغرب .

وفي عهد دوناس بن حماسة ساد الأمن والدعة ، الأمر الذي أدى الى انتشار الرخاء . وهكذا عظمت فاس على أيامه ، وعمرت وكثرت أرباضها ، وصارت مقصد الناس والتجار من جميع البلاد . وكان لدوناس نشاطه في عمران فاس ، فهو الذي أدار الأسوار حول الأرباض ، كما بنى المساجد والحمامات والفنادق . وفي ذلك يقول ابن أبى زرع : « لم يشغل دوناس من يوم ولى الى أن توفي الا بالبناء والتشييد ، فهو صاحب الفضل في جعلها « حاضرة المغرب » . وبذلك يكون دوناس من أصحاب الفضل في تحويل دولة مفاوة الزناتية الى دولة حضارة ومدنية .

(١٤) ابن خلدون ، ج ٧ ص ٣٥ .

(١٥) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢١ .

(١٦) القرطاس ، ص ١١٠ - حيث الإشارة الى أن أبا الكمال تميم بقى في فاس ٧ سنوات

ومرة أخرى الى الاختلاف في ذلك ما بين ٥ سنوات و ٧ سنوات . وقارن العير ، ج ٧ ص ٣٥ ، الذي ينقله التلغيني في صبح الأعشى ، ج ٥ ص ١٨٧ - حيث النص على وفاة أبي الكمال في شالة سنة ٤٣٠ هـ / ١٠٣٨ م بدلا من سنة ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ م ، كما في العير ، ج ٧ ص ٢١ .

المغراويون الأواخر في فاس :

صراع الأخوة بين الفتوح وعجيسة :

وكانت وفاة دوناس بفاس في شهر شوال سنة ٤٥٢ هـ / نوفمبر ١٠٦٠ (١٧) .

وآلت الدولة الى ولدي دوناس ، وهما : الفتوح وعجيسة . والحقيقة أن المسألة لا تتعلق بتقسيم الدولة بين الأخوين ، إذ كان الابن الأكبر ، وهو الفتوح ، صاحب الأمر ، واتخذ عدوة الأندلس مقرا له ، وجعل أخاه الأصغر عجيسة واليا على عدوة القرويين ، الأمر الذي يفهم منه أن مدينة الأندلس كانت الأكبر وقتئذ ، بينما يصف ابن أبي زرع عجيسة بأنه الأصغر سنا ، ولكنه شهيم ، بمعنى طموح على ما نظن . فهذا ما يفسر كيف أنه لم يلبث أن قام بشن الحرب على أخيه الفتوح ، وهو الأمر المقبول بالنسبة لأصول السياسة حسبما أقرها المعز لدين الله في وصيته لبليقن ، وهي الحكمة المستفادة من واقع الأحداث الانسانية ، حسبما تقضى به نزعات النفس البشرية .

والمهم أن الأخوين كانا مستعدين للصراع المتوقع بينهما ، وأعدادا له عدته . فالفتوح ، الذي ينسب اليه باب الفتوح بسور فاس القبلي ، كان قد بنى قصبة (أى قلعة) منيعة بعدوة الأندلس بالموضع المعروف هناك ، بحجر الكذان الصلب . وفي المقابل بنى عجيسة أيضا قصبة مثلها بعدوة القرويين ، في الموضع المعروف بـ « رأس عقبة الصعتر » ، حيث البساب الذي ينسب اليه هناك ، فهو باب عجيسة المشهور بباب الجيسة .

وفي العداء بين الأخوين ، يقول ابن أبي زرع أنها كثرت حتى كان القتال بينهما يدور ليلا ونهارا (١٨) ، الأمر الذي أدى الى الخوف وغلاء الأسعار وانتشار المجاعة ، الى أن تخلص الفتوح من أخيه عجيسة غدرا ،

(١٧) القرطاس ، ص ١١١ ، وقارن صبح الأعشى ، ج ٥ ص ١٨٧ - حيث النص على وفاة دوناس سنة ٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م .

(١٨) القرطاس ، ص ١١١ ، وقارن صبح الأعشى ، ج ٥ ص ١٨٧ - حيث النص على أن الولاية كانت لفتوح ونافر عليه اخوه الأصغر عجيسة واستولى على عدوة القرويين . وأن باب عجيسة هو باب الجيسة حيث حدثت العين - وأن الفتوح طفر بعجيسة وقتله سنة ٤٥٣ هـ / ١٠٦٧ م .

سنة ٥٥٣ هـ / ١٠٦١ م ، وكان كل ذلك مما سهل على لمتونة الاستيلاء على اطراف البساسد ، الى أن ينزل على الفتوح عسكر لمتونة سنة ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م ، وينسحب الى التحلي عن فاس لابن عمه معنصر بن حماد بن معنصر ابن المعز بن زيري بن عطية سنة ٤٥٧ هـ / ١٠٦٥ م ، الذي فقد في حرب سنة ٤٦٠ هـ / ١٠٦٨ م ، فقام مقامه ابنه تميم (ابن معنصر) ، آخر الزناتية المغراويين في فاس (١٩) .

امارة سجلماسة الزناتية :

نجح خزرون بن فلفول الزناتي في القضاء على الاسرة المدراية الحاكمة في سجلماسة سنة ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م ، وحكمها باسم هشام المؤيد ، خليفة قرطبة . ولم تنجح حملة بلكين بن زيري في استعادتها الا بصفة عابرة ، حيث مات دون ذلك سنة ٣٧٣ هـ / ٩٨٣ م (ما سبق ، ص ٣٤٣ وما بعدها) ، فان ذلك كله يعنى تكريس استقرار الزناتية في تخوم الدولة الصنهاجية الغربية ، في نهاية القرن الرابع الهجري / ١٠ م ، ومطلع القرن الخامس الهجري / ١١ م ، تماما ، كما فعلوا في الاطراف الشرقية لدولة القيروان والمهدية باستقرارهم في طرابلس ونفزاوة .

وبعد وفاة خزرون خلفه ابنه وانودين بن خزرون في حكم سجلماسة واعمالها ، الى أن غلب زيري مناد عليها ، فعقد حميد بن يصل الكناسي عليها . ثم ان المظفر عبد الملك بن ابي عامر أعاد وانودين الى ولاية سجلماسة بعد وفاة بلكين بن زيري (٣٧٣ هـ / ٩٨٣) نظير ضريبة سنوية يؤديها اليه ، وذلك قبل أن يستقل بها سنة ٣٩٠ هـ / ١٠٠٠ م . وعندما عهد عبد الملك المظفر بولاية المغرب الى المعز بن زيري بن عطية المغراوي سنة ٣٩٣ هـ / ١٠٠٣ م ، استثنى عليه ولاية سجلماسة من حيث كانت بيد وانودين بن خزرون (٢٠) . واذا كان المعز بن زيري قد نجح في تحقيق

(١٩) القيرطاس ، ص ١١٣ . وقارن ابن خلدون ، ج ٧ ص ٣٦ - حيث النص على انشغال معنصر بن حماد بحروب لمتونة ، وأنه كانت له عليهن الوقعة المشهورة سنة ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م وأنه بعد خروجه من فاس الى غمارة عاد وملكها وقتل العامل الراهطي ومن معه من لمتونة ، ومثل بهم بالمرق والصلب . ثم أنه زحف الى محمد بن يوسف الكترواني صاحب مكناسة وقد كان دخل في دعوة المرابطين فهزمه وقتله ويث برأسه الى سكوت اليرغواطي صاحب سبتة وقارن صبيح الاعشى ، ج ٥ ص ١٨٧ .

(٢٠) انظر صبيح الاعشى ، ج ٥ ص ١٦٨ ، ابن خلدون ، ج ٧ ص ٣٨ - حيث تحديد سنة ٣٩٦ هـ / ١٠٠٥ م تاريخا لذلك العهد .

أمله في ضم سجلماسة إلى أملاكه في فاس وغيرها ، فإن ذلك كان قد حدث سنة ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م ، في فترة اضطراب الدولة العامية بالأندلس (٢١) .

ولكن وانودين حشد بنى يفرن ونهض سنة ٤٠٧ هـ / ١٠١٦ م إلى المعز بن زيري بن عطية ، « فهزموه » ، ورجع إلى فاس في قتل قومه ، وأقام على الاضطراب من أمره إلى أن هلك سنة ٤١٧ هـ / ١٠٢٦ م (٢٢) . وهكذا استفحل ملك وانودين ، من حيث أضاف إلى سجلماسة بعض أعمال المغرب ، مثل : صفروى من أحواز فاس ، وقصور ملوية التي ولي عليها من أهل بيته . وبعد وانودين ولي ابنه مسعود ، وظل في الحكم إلى أن خرج عبد الله بن ياسين ، شيخ المرابطين ، فكانت نهاية مسعود بن وانودين بأيدي المرابطين ، سنة ٤٤٥ هـ / ١٠٥٣ م ، وملكهم لسجلماسة التي دخلت في دولتهم من ذلك الحين (٢٣) .

سببته وطنجة : مجاز العدو الأندلسية ، منطقة نفوذ بنى حمود الأدارسة :

كانت منطقة غمارة أو جبال الريف من مناطق نفوذ الأدارسة منذ وقت مبكر ، كما زادت أهميتها بالنسبة لهم منذ انقراض دولتهم في فاس واستقرارهم هناك ، ومع انهيار خلافة قرطبة منذ أوائل القرن الخامس الهجرى / ١١ م ، حسن الأدارسة من بنى حمود مركزهم ، ليس في العدو الأفرقية فقط ، بل وفي الأندلس أيضا ، حيث دخلوا بقيادة الأخوين : القاسم وعلى بن حمود في حملة أنصار المستعين ، وعن هذا الطريق آلت ولاية « الجزيرة الخضراء » من العدو الأندلسية إلى القاسم ، بينما رد المستعين ، بصفته ولي عهد خلافة قرطبة بتعيين المؤيد هشام ، على ولاية طنجة ، التي كانت لهم من قبل ، كما كانت ولايتها أمنية عزيزة على زيري

(٢١) القرطاس ، ص ١١٧ ، أحداث سنة ٤٠٣ هـ ، وذلك بمناسبة عرض ملحق للأحداث الخاصة بالدولة الزيرية في فاس ، دون بيان الأسباب أو النتائج ، وهو ما توضحه رواية ابن خلدون (العبر ، ج ٧ ص ٣٩) - حيث الإشارة إلى أن المظفر ابن أبي عامر كان معه للمعز بن زيري بولاية المغرب ما عدا كورة سجلماسة التي كانت لوانودين بن حذرون ابن فلقول ، ولما الترقى أمر الجماعة بالأندلس ... استعادت المعز بن زيري بن عطية القلعة على سجلماسة .

(٢٢) العبر ، ج ٧ ص ٣٤ .

(٢٣) صبح الأعشى ، ج ٥ ص ١٦٨ ، وقارن ابن عذارى ، ج ٣ ص ٢٢٤ - حيث تسجيل

الحادث في سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م .

ابن عطية المغراوي ، عندما عاد نائرا من حضرة المنصور بن أبي عامر سنة ٢٨٣ هـ / ٩٩٣ م ، فنزل بطنجة ، وهو يقول : وقد « وضع يده على رأسه : الآن علمت أنك لي » (٢٤) .

خلافة علي بن حمود بقرطبة :

وعن طريق طنجة نجح علي بن حمود في الجواز الى قرطبة والخلافة سنة ٤٠٧ هـ / ١٠١٦ م ، وتلقب بالناصر لدين الله ، وعندما قتل في السنة التالية (٤٠٨ هـ / ١٠١٧ م) حل أخوه القاسم محله ، وتلقب بالمأمون ، وإن غلبه يحيى بن أخيه علي الذي تلقب بالمعتلى بالله ، على ملك قرطبة بعد ذلك سنة ٤١٢ هـ / ١٠٢١ م . وإذا كانت دولة بني حمود قد انقطعت بقرطبة بمقتل يحيى بن علي عندما كبا به فرسه ، فإن أخاه ادريس بن علي تم له الأمر بمالقة ، وتلقب بالمتأيد بالله ، سنة ٤٣١ هـ / ١٠٣٩ م . وكانت له سبتة وطنجة (٢٥) .

الحموديون بمالقة والمرية وفيلية :

وبعد ادريس انقسم بنو حمود الى فرعين ، أحدهما بقي بالأندلس في مالقة واحوازها ، وقام به ابنه محمد (ابن ادريس) الذي خطب له بالخلافة وتلقب بالمستعلي . وبقي محمد بن ادريس في مالقة الى سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م ، حينما انتقل الى المرية لما تغلب عليه أمير غرناطة الصنهاجي : باديس بن حبوس . وهنا كان علي محمد (ابن ادريس) أن يلبي نداء أهل فيلية الذين استدعوه ، فسار اليهم ، وتولى أمر المدينة بمعاونة بني ورتندى ، وبمسند سلطانه على نواحيها (٢٦) .

(٢٤) القرطاس ، ص ١٠٤ (عن طنجة وزيري ، وأنظر فيما سبق ، ص ، وصبح الأعشى ، ج ٥ ص ٢٤٧ (عن بن حمود والأدارة) .
(٢٥) عن ملك بني حباد بالأندلس ، أنظر ابن عذاري ، ج ٣ ص ١١٩ وما بعدها . حيث تفصيلات الولاية مرة أو أكثر مع تحديد تواريخها ، وهي ١٢١ و ١٤٣ و ١٤٤ و ١٨٨ عن ولاية يحيى بن علي الذي آلت اليه شريش ومالقة والمرية وسبتة ثم ولاية ادريس بن علي وقارن صبح الأعشى ، ج ٥ ص ٢٤٧ .

(٢٦) ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٩٩ ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٤٢٩ ، وعن باديس بن حبوس بن مالك الصنهاجي أمير غرناطة ، أنظر صبح الأعشى ، ج ٥ ص ٢٥٧ - حيث انضم الى ولايته بعد أبيه حبوس سنة ٤٢٩ هـ / ٢٧ - ١٠٣٨ م ، وتلقب بالناصر . وأنه صاحب الفضل في تمصير غرناطة ، فهو الذي اختط قصصيتها ، وشيد قصورها وحسن أسوارها ، وأنه مات في سنة ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م ، وقد ظهر أمر المرابطين ، وإن حاند =

الحسن بن علي المستنصر بسببة :

أما الفرع الحمودي الآخر ، فقد قام بأمره البربر الذين بايعوا صاحب سببة حسن بن علي الذي تلقب بالمستنصر ، سنة ٤٣٦ هـ / ١٠٣٩ م ، ومات مسموما سنة ٤٣٨ هـ / ١٠٤٦ م (٢٦ م) . والمهم أن ابن حزم الذي ينقله ابن عذاري ، ينص على أنه كان في سنة ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م ٤ (أربعة) خلفاء ، وهو ما يصفه بالفضيحة التي لم ير مثيلا ، أولهم خليفة قرطبة « المدعي هشام » ، وإلى جانبه ٣ (ثلاثة) خلفاء من أدارسة بنى حمود ، وهم : محمد بن إدريس بمالقة ، ومحمد بن القاسم بالجزيرة الخضراء ، وإدريس ابن يحيى بسببة (٢٧) . والمهم أن خلافة الجزيرة الخضراء الحمودية انتهت على عهد القاسم بن محمد بن القاسم الذي توفي سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م ، في قلب عصر الطوائف بالأندلس (٢٨) ، قبيل تدخل المرابطين في الأندلس .

تغلب الحاجب سكوت بسببة :

وقريب هذا الوقت كان قد استقل بكل من سببة وطنجة أحد موالى بنى حمود ، وهو الحاجب سكوت البرغواطي ، الذي خضعت له قبائل غمارة . وبعد استيلاء المرابطين على فاس ، ونهاية دولة مغراوة بها ، كان

عبد الله بن بلكنين هو الذي قبض عليه يوسف بن تاشفين ونجده عن الإمارة عندما نزل بفرناطة سنة ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م ، وعن بنى « ورندي » (بدون تون) سكان مليلة . انظر البكري ، ص ٨٨ - حيث النص على أن بنى البيروني بن موسى بن أبي العسافية جددوها (مليلة) . وأن عبد الرحمن الناصر عندما انتتجها سنة ٣٦٤ هـ / ٩٢٦ م بنى سورها معقلا لموسى بن أبي العافية - وفي ذلك قال أحمد بن محمد بن موسى الرازي :

ذلت لها تاهرت والامارة / ولم يطق ببناءها المعالقة

(٢٦ مكرر) انظر صبح الأعشى ، ج ٥ ص ٢٤٧ ، وقارن ابن عذاري ، ج ٢ - حيث النص على أنه في سنة ٤٣٨ هـ / ١٠٤٦ م كان إدريس بن علي أخو حسن بن علي وعنافس ابنه يحيى في الإمارة . يجوز الى مالقة حيث توفي مسموما ، وأنه في سنة ٤٣٤ هـ / ١٠٤٢ م خرج إدريس بن علي من سجنة زويج ، وسمى بالعالى ، وأنه في سنة ٤٣٨ هـ / ١٠٤٦ م خلفه ابن عمه محمد بن إدريس (ص ٢١٦) ، الذي مات مسموما سنة ٤٤٤ هـ / ١٠٥٢ م ، بينما كان بالجزيرة الخضراء : محمد بن القاسم بن حمود (ص ٢١٨) .

(٢٧) ابن عذاري ، ج ٣ ص ٢٤٤ .

(٢٨) صبح الأعشى ، ج ٥ ص ٢٤٨ ، وقارن ابن عذاري ، ج ٣ ص ٢١٨ - حيث تعتبر الرواية أن خروج القاسم بن محمد بن القاسم من الجزيرة الخضراء على يدى ابن عباد هو نهاية ذرية بنى القاسم في الأندلس ، بعد إقامة دامت ٥٨ سنة ، وذلك أنه يضمها بعد تغلب باديس (بن سيرس) صاحب غرناطة على مالقة ، وإخراج المستعلى (محمد بن إدريس) منها سنة ٤٦٥ هـ / ١٠٧٢ م .

- على يوحنا بن تاشفين أن يسير إلى بلاد غمارة للقاء سكوت والقضاء عليه في بعض المواقع . وجيشه لما العز بن سكوت الذي اشتهر بلقب ضياء الدولة إلى سبتة ، وبقي معتمدا بها إلى أن دخلها عليه المرابطون (٢٠) .

أغمار في سفوح جبال المصامدة (درن) ، وأمرؤها المقرانيون :

كانت مدينة أغمار في منتصف القرن الخامس الهجري / ١١ م كبرى مدن جبال درن الاطلسية . والذين يفهم من وصف ابن حوقل في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري / ١٠ م ، أن إقليم أغمار « رستاق عظيم فيه مدينة كثيرة الخير » ، وأن أغمار وقتئذ كانت وثيقة الصلة بعواصم المغرب الكبرى ، ومراكز العمرانية المهمة . فهي مرتبطة على وجه الخصوص بكل من فاس وسجلماسة ، بصحلات تجارية وطرق مواصلات عامرة بالسافرين من التجار ، كما تتصل أغمار أيضا من ناحية المحيط بمنطقة السوس الأقصى ، التي توصفت بأن « ليس بالمغرب كله بلد أجمع ولا ناحية أوفر وأغزر وأكثر غنًا منها » .

أهمية أغمار على طرق التجارة :

وظلت المصلات وثيقة بين أغمار وسجلماسة - باب تجارة السودان - في القرن الخامس الهجري / ١١ م حيث كان طريق الشمال يأخذ اتجاهه من سجلماسة نحو أغمار ، التي يصفها البكري وقتئذ بأنها مدينتان : أغمار ايلان وأغمار بوزيكة (٣٠) . تحسب إلى بطنين من بطن المصامدة سكانها ، وأغلب الظن أن وادي (نهر) بوزيكة أو بعض روافده ، كان يفصل بين المدينتين ، مثلما يفصل وادي فاس بين العدوتين . هذا ، كما كانت أغمار وثيقة الصلة أيضا بمدينة فاس ، حيث يمر الطريق بينهما بعدد من المراكز

(٢٩) انظر صبح الألفى ، ج ٥ ص ١٦٠ ، ٢٤٨ ، وقاود ابن عداري ، ج ٢ ص ٢٥٠ - حيث يطلب سمرجات البزغواطي (أوالد سكوت) الذي كان مولى ليحيى بن علي بن حمود غلي زميله في نيابة سبتة ، وهو مولى يحيى أيضا المسمى ذك الله ، وقتله والاستيلاء بحكم المدينة واتخاذ لقب المنصور . «أنا أبله المرء للمروءة بسكوت (سكوت) فقد اتخذ لقب الحاجب ، فكانه رئيس الوزراء فعل» .

(٣٠) البكري ، ص ١٥٣ - ١٥٤ - حيث المسمك في أغمار نوع من القسوى ، إذ يختار الرجل للحكم سنة واحدة ثم يترك الولاية لكي ينتخب أهل المدينة آخر منهم ، عن تراض وإتفاق . «سبينا ذكر منصف البزواني (ت آخر القرن الرابع الهجري / ١٠ م) .

التجارية المزدهرة ، مثل : بلد زواغة الذي يجتمع فيه تجار فاس والبصرة وسجلماسة ومفيلة ، وأوزقور التي كان يسكنها ريشية الأندلس ، ووزيعة الأهلة بكثرة المياه بها والشمار. تم اغيغى التي بناها الإندلسيون (٣١) ومثل هذا يقال عن الطريق المؤدى من أغمت الى السوس ، والذي يمر حسيما يصغه مؤمن بن يومر الهواري. كما عند البكري. بمدينة نفيس. مدينة مصمودة الأهلة العمران ، وتاموروت من حيث يكون انحدار الى جبل درن (جبل المصامدة الأطلسي) . ويمر الطريق بمواضع عامرة لبربر مصمودة من الشيعية ، قبل الوصول الى عاصمة السوس : ايجل . وبقيتها ، وعلى بعد ٦ (ست) مراحل ، من حيث يكون النزول من الجبل ، مدينة تامدلت ، التي توصف بأنها سهلية عليها سور طوب (٣٢) .

ورغم أهمية أغمسات كبله غنى ، ومركز تجارى هام له اتصالاته بالمراكز التجارية الكبرى في بلاد المغرب ، وخاصة فاس في الشمال ، وسجلماسة في صحاروات الجنوب ، فإن من المستغرب أن أحداثها وأعمال ملوكها لم تسترع الانتباه . وهكذا يشكو ابن خلدون ، رغم موسوعيته.

(٣١) البكري ، ص ١٥٤ - ١٥٥ ، وقارن كتاب الاستبصار ، ص ٢٠٧ - حيث النص على ان المسافة بين مدينتي أغمسات (وريكة وهيلانة) هي ٨ (ثمانية) أميال . والذي يفهم من هذا النص الذي يرجع الى أواخر القرن السادس هـ / ١٢ م ، بعد أكثر من مائة سنة من نص البكري ، هو أن مدينة وريكة هي المركز التجاري المزدهر ، إذ يسكنها الأعيان . وينزل بها التجار على القديم ، لأنها كانت دار التجهز للصحراء (بالفضائع في طرق القوافل الكبيرة) . وأقرب المراكز لأغمسات هو مرسى جوزهرتانة من بلد رجراجة ، آخر مراسى سواحل المغرب على البحر المحيط . أما المسافة بين أغمسات ومدينة نفيس فهي مرحلة .

(٣٢) البكري ، ص ١٦٠ - ١٦٣ ، وقارن الاستبصار ، ص ٢١٨ - ٢١٢ - حيث النص على أن بلاد السوس الأقصى ، على عهد المؤلف في أواخر القرن السادس الهجري/ ١٢ م ، مدن كثيرة وبلاد واسعة ، عامرة كثيرة الحيرات . وعلى نهر السوس تقع تارودانت ، التي توصف بأنها قرية كبيرة جدا ، وهي مركز زراعة قصب السكر ، وإنتاج السكر الفاخر وتصديره الى بلاد المغرب والأندلس وأفريقية . وعلى مصب هذا الوادي رباط مقصود يأوى اليه الصالحون ، له موسم عظيم . أما عاصمة السوس مدينة ايجل فهي وائرة الحيرات ، كثيرة الثمر ، وهي مركز إنتاج السكر مثل تارودانت ، بالإضافة الى كونها مركز تمدن يسبك بها النحاس الذي يتجهز به الى بلاد السودان . كما يصنع بها زيت الجرجان ، وهو شجر شبيه بشجرة الكثرى ، وطعمه طيب شبيه بطعم القمح المقلل . وهذا الزيت يستخدم في الأغراض الطبية الخاصة بعلاج الكلى ودرار البول . أما مدينة تامدلت ، فهي على نحو ٦ (ست) مراحل من ايجل . وأصل نهر تامدلت هو نهر درعة . ومن بلاد السوس مدينة نول لمطة حيث تسكنها قبيلة لمطة ، وهي آخر بلاد السوس .

المهذبة ، من عدم وقوفه على أسمائهم ، وإن كان يعرف أنهم آخر دولة بنى زيرى بفاس ، وينى يعلى بسلا وتادلا ، من المغراويين الزناتيين ، المجاورين للمصامدة فى جبال درن والسوس ، ولبرغواطة فى تامسنا .

لقوط بن يوسف ، آخر أمراء أغمات المغراويين :

وآخر أمراء أغمات منهم ، هو لقوط بن يوسف بن على الذى غلبه المرابطون على أغمات سنة ٤٤٩ هـ / ١٠٥٧ م ، فهرب الى تادلا حيث قتل هناك فيمن قتلوا من بنى يفرن . والظاهر أن الذى جعل الذكر للقوط هذا دون سابقه من أمراء أغمات ، أن أبا بكر بن عمر أمير المرابطين خلفه على زوجته زينب بنت اسحق التى آلت بعد ذلك الى يوسف بن تاشفين عندما نزل له عنها ابن عمه أبو بكر عندما ارتحل الى الصحراء سنة ٤٥٣ هـ / ١٠٦١ م . فلقد كان لزينب الرئاسة فى أمر يوسف وسلطانه ، وهى صاحبة الفضل فيما أشجارت به على يوسف من استعراض قوته أمام أبى بكر ، عندما رجع من الصحراء « حتى تجافى عن منازعته ، وخلص ليوسف بن تاشفين ملكه » ، فهذا كل ما عرفه ابن خلدون الذى استقصى أخبار القبائل ، ما كبر منها وما صغر ، بدقة تنير الدهشة ، عن لقوط بن يوسف وقومه ، ليس الا (٣٣) .

الصحراء الواعدة فى المغرب الأقصى على تخوم السودان :

المرابطون وارهصات الوحدة :

تلك كانت أحوال المغرب الأقصى حوالى منتصف القرن الخامس هـ / ١١ م ، حيث كان الزناتية المغراوية فيما بين تاهرت وتلمسان وفاس ، والأدارسة الحسنيون وبرغواطة فى سبتة والعدوة وبلاد الريف (غمارة) ، وبنو يفرن فى سلا وتادلا وأغمات ، وأخيرا كان بنو خزرون فى سجلماسة ودرعة ، والذى لا حظناه هو أن المرابطين من الصنهاجيين الملتحين كانوا يتدخلون حينئذ فى أمور كل تلك البلاد بقيادة زعيمهم يوسف بن تاشفين ، الأمر الذى يعنى بداية نضاج الارهصات الأولى فى توحيد المغرب من أقصاه ، على شواطئ الأطلنطى الى أدناه ، وإلقضاء على دويلات الطوائف المغربية حتى أفريقية .

(٣٣) انظر محمد عبد الهادى شعيرة ، المرابطون : تاريخهم السياسى ، التسامية ،

إمكانات الصحراء :

أما كيف تأملت الصحراء ، وهي الفقيرة ، بجكم الضرورة ، في مواردنا البشرية والاقتصادية ، للقيام بعملية التوحيد المضنية حقا ، والمكلفة أيضا ، فهذا ما نحاول أن نجد له تفسيراً ، ولنا فيما قدمه استاذنا شعيرة في دراسته للمرابطين ، ما يمكن أن يكون هادياً لنا ، مما سبقت الإشارة إليه . في عرض المصادر (ص ٤٤) ، من أن أحوال الصحراء الأفريقية في ذلك القرن الـ ٥ هـ / ١١ م ، لم تكن على حالها من الفقر ، كما هي عليه في أيامنا هذه . فقد كانت أشبه ما تكون « بشركات الطيران أو السكك الحديدية » ذات الإمكانيات الضخمة ، من حيث نقل المسافرين من التجار ورايabat الأعمال بما يحملون من الأمتعة والمتاجر وأسباب الحضارة ما بين الشمال والجنوب والشرق والغرب ، وخاصة خيرات السودان من الذهب والتبر والجلود والعاج والعبيد من أصناف السودان ، مما كان مطلوباً للحاج في أسواق الشمال والشرق ، الأمر الذي يتطلب رسم خريطة سياسية اقتصادية لتلك الصحاري الواعدة ، تساعد على تصور العملية « المعجزة » التي قامت بهما قبائل المثلثين ممن كانوا منقطعين في تلك المنطقة من العالم في نهاية الصحراء ، على مشارف السودان ، كأنها خارج المكان والزمان . كما كان يتصور الكثير من الناس .

صنهاجة الصحراء ومواطنهم :

فمن حيث الكثافة البشرية يفهم من ابن حوقل أن سكان الصحراء ، سواء من قبائل المثلثين الصنهاجية الحضرية أصلاً ، أو الزناتية البدوية ، كانت وفيرة الأعداد . فالبربر في النصف الثاني من القرن الـ ١٠ م ، كما رأهم : لا يلحق عيدهم بسبب توغلبهم في البراري وتباعدهم في الصحاري . وإن أشهر المتوغلين في البراري هم صنهاجة منطقة أودغست . وهو يورد في ذلك رواية ملك جميع صنهاجة وقتئذ : « تينروتان بن أسغيشر ، بأنه كان يرد عليه في كل سنة ، خلال ملكه الذي طال إلى ٢٠ سنة ، من لم يكن رآه أو سمع عنه من قبل » (٣٤) . أما عن القبائل المنقطعة بالصحراء ممن لم يروا حاضرة ، ولا عرفوا غدير البادية ، فمنهم : شريطة وسطة وبنو مسوفة ، وكان لهم ملك كبير صنهاجة وسائر أهل تلك

الديار لأنهم يمتلكون تلك الطريق (٣٥) . ومن القبائل التي يعدد منها ٨٩ ما بين قبيلة ويطن وفخسذ ، يذكر إلى جانب بني مسوفة : بني لوتونا (لمتونة) ولطة . و لمتونة عند البكري (ص ١٦٤) ، طواعن رحالة فيم الصحراء ، ومرآلهم فيها مسيرة شهرين في شهرين ، ما بين بلاد السودان وبلاد الاسلام ، وهم إلى بلاد السودان أقرب - على نحو ١٠ مراحل (انظر شكل ١٠ ، ص ٥١٤) . هذا غير صنهاجة المشكوك في صراحة نسبهم بسبب اختلاطهم بالسودان - حيث يقال انهم سودان بيض - فهم يسكنون جنوب الصحراء في بلاد تادمكة (٣٦) . وابن حوقل يختم تعداده الكثير لقبائل الصحراء ، بقوله : « ولو قلت اني لم اصل إلى علم كثير من قبائلهم لقات حقاً » ، كناية عن الكثرة التي لا يحيط بها الاستقصاء (٣٧) .

وخلف لمتونة ، يجوار البحر المحيط انتشرت قبائل جدالة (٣٨) . أما عن مسوفة فمساكنهم في الدواخل فيما بعد لمتونة ، وكانوا ينتشرون جنوباً على مشارف السودان في ايالاتين ، على أيام ابن بطوطة في القرن الثامن هـ / ١٤ م (٣٩) .

ثروات الصحراء المعدنية :

أما عن ثروات الصحراء فتتمثل في معادنها ، ونتاجها الحيواني الوفير . فما كان من المعادن ، يأتي الملح على رأس القائمة ، حيث كان يوجد في منطقتين ، هما : أوليل ، على ساحل البحر المحيط ، على سمت أودغست (٤٠) ، وفي موضع تانتال ، حيث كانت مناجم في الصحراء ، على بعد يومين من المجابة الكبرى ، الأمر الذي يعتبر من غرائب تلك

(٣٥) صورة الأرض ، ص ٩٨ .

(٣٦) صورة الأرض ، ص ١٠١ - حيث النص على أنهم منسوبون لأمهاتهم من ولد

حام .

(٣٧) ابن حوقل ، ص ١٠٣ .

(٣٨) البكري ، ص ١٦٤ ، ١٦٧ ، وقارن الاستبصار ، ص ٢١٣ - حيث النص على

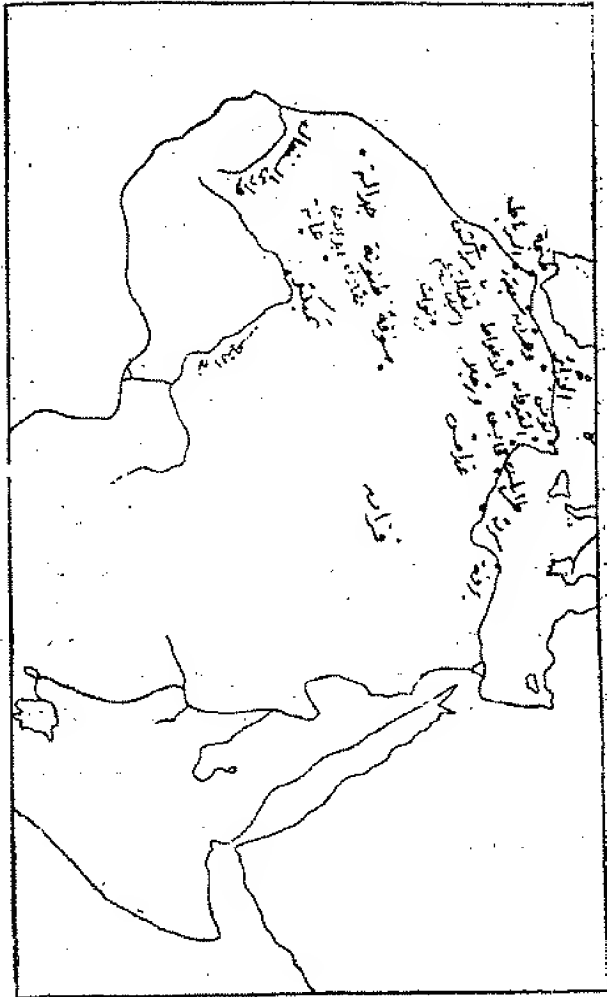
أن لمتونة رحالة لا يستقر بهم موضع .

(٣٩) ابن بطوطة ، ج ٢ ص ٧٧٣ ، ص ٧٧٤ - حيث الدليل الذي يكتريه أهل القافلة

رجل مسوفي ، وحيث العمل في مناجم الملح يقوم به عبدة مسوفة .

(٤٠) ابن حوقل ، ص ٦١ ، الاستبصار ، ص ٢١٤ - حيث يوجد بجبال جدالة في

أوليل .



(شكل ١٠) صحراء اللين

الصحراء (٤١) ، حيث كان يستخرج على أيام ابن بطوطة في قرية تغلازي جنوبا على بعد ٢٢ يوما من ايواتن ، في شكل صفائح مصقوفة بعضها فوق بعض كأنها قد نحتت نحتا (٤٢) .

والى جانب الملح الذي كان يتجهز به التجار الى بلاد السودان ، يذكر العنبر السدي كان يوجد في لقاياا بقرب البحر (٤٣) ، وفي جزيرة أيونيا بخاصة (٤٤) . هذا ، الى جانب النحاس الذي كان يصنع في أيجلي عاصمة السوس ، ويتجهز به الى بلاد السودان (٤٥) . أما عن جبل الحديد ، من حيث كان الدخول الى بلاد لثونة في الطريق اللولى الذي يبدأ من وادي درعة الى وادي ترجا في أول المقازة الصحراوية الى الطريق القديم المفتوح في الجبال الحجرية الصلدة ، فلا تعرف ان كان مستغلا لانتاج الحديد أم لا (٤٦) .

الثروة الزراعية :

والى جانب بعض الثروات الزراعية الصحراوية أو على حدود الصحراء ، مثل قصب السنكر في وادي السوس ، وزيت الهرجان الذي يسخن الكلى ويدبر البول (الاستبصار ، ص ٢١١ ، ٢١٢) ، والكثمة الكثيرة في الصحراء (ابن بطوطة ، ج ٢ ص ٧٧٣) ، فإن الثروة الزراعية للصحراء تمثلت في التمر ، وهو انتاج اقليم النخل عند ابن خلدون ، ويمثل حزاما ممتدا بكل عرض الصحراء ، من تارودانت ، وسجلماسة ، وورجلة ، وبلاد الجريد (انظر ج ١ ص ٧٥) . فقسطيلية عند ابن حوقل هي « مغوة » أفريقية بتمورها (صورة الأرض ، ص ٩٢) . ولو أن تاهرت كانت قد تفسرت فضرب أهلها الفقر بتواتر الفتن ، ودوام القحط ، وكثرة القتل والموت (صورة الأرض ، ص ٩٣) ، وإيجلي ، عاصمة السوس ، كانت كثرة التمر حتى ان ثمن الحمل منه كان أقل من كراه الدابة (الاستبصار ، ص ٢١٢) . ومثل هذا يقال عن سجلماسة التي شبهت في كثرة تمرها بالطيب بالبصرة ،

(٤١) البكري ، ص ١٧٠ ، الاستبصار ، ص ٢١٤ .

(٤٢) ابن بطوطة ، ج ٢ ص ٧٧٣ .

(٤٣) ابن حوقل ، ص ٩٥ .

(٤٤) البكري ، ص ١٧٠ ، كما كان يجلب أيضا من أودغست لقرها من المعيسطير .

(٤٥) الاستبصار ، ص ٢١٦ .

(٤٦) الاستبصار ، ص ٢١٢ .

(٤٧) الاستبصار ، ص ٢١٣ .

والتي كان يوجد فيها أنواع ، مثل : الايران ، التي لا نظير له (ابن بطوطة ، ج ٢ ص ٧٧٣) ، وكذلك الأمر بالنسبة لدرعة القرية ، حيث كان عبيد مسوفة العاملون في منجم الملح بتغازي « يتعيشون على ما يجلب اليهم من تر درعة وسجلماسة - الى جانب لحوم الجمال » (٤٧) .

الثروات الحيوانية :

أما الثروة الحقيقية للصحراء فتتمثلت في الحيوانات الداجنة من الماشية ، من : الغنم والبقر والجمال ، الى جانب الحيوانات الوحشية ، كحيوان اللط الملعود من البقر ، رغم قرونه المتشعبة كحيوان « الرنة » ، والذي يصنع من جلده القوى الدرق اللطى الشهير ، وذلك جنوب بلاد السوس حيث مواطن قبائل لمطة ، وقاعدتها « نول لمطة » (٤٨) - ولا ندرى ان كانت لمطة قد انتسبت الى حيوان اللط حسبما تقضى نظرية الطوطمية . ولقد اشتهرت السلاحف البحرية المفرطة الحجم على طول ساحل المحيط حيث مساكن جدالة ، وكان يعيش على لحمها كثير من أهل المنطقة ، مثل : سكان جزيرة أيونا الشهيرة بعنبرها (٤٩) . وكذلك الأمر بالنسبة لحيوان الفنك المطلوب لفرائه ، فقصده كان كثيرا بالصحراء ، وكانت له شهرة الفيزون : (Vison) ي أيامنا هذه ، حيث كانت تحمل جلوده الى جميع البلاد (٥٠) .

والحقيقة أن الثروة الحيوانية في واحات الصحراء وعلى أطرافها السودانية تمثلت في الغنم والبقر التي كانت تمد الناس باللحوم والألبان التي كونت جزءا أساسيا من طعامهم . ففي أودغست كانت البقر والغنم أرخص شيء حتى كان العشرة أكباش بدينار واحد (الاستيصار ، ص ٢١٥) . أما الأبل والجمال فكانت ثروة اقتصادية ذات طابع سياسى من حيث كونها آلة عظمى من آلات الحرب وقتئذ ، ولهذا عرف الجمالة ، حسب تصنيف البدو حديثا ، باسم « الرعاة الكبار » أو « الجمالين الكبار » ، من حيث كان أصحاب المهارى منهم ، قرسانا غزاة (٥١) .

(٤٧) ابن بطوطة ، ج ٢ ، ص ٧٧٣ .

(٤٨) ابن حوقل ، ص ٩١ ، البكري ، ص ١٧٥ ، الاستيصار ، ص ٢١٣ ، وقارن

ابن بطوطة ، ج ٢ ص ٧٧٥ (عن البقر الوحشى) .

(٤٩) البكري ، ص ١٧٠ ، الاستيصار ، ص ٢١٤ .

(٥٠) البكري ، ص ١٧٠ ، الاستيصار ، ص ٢١٤ .

(٥١) انظر فيما سبق من الكتاب ج ١ ص ٨٩ .

صناع الوحدة :

رعاة الإبل : الجمالون الكبار :

ففى ثروة بلاد المغرب من الإبل والغنم وماشية البقر ، يقول ابن حوقل :
« وعندهم من الجمال الكثيرة فى براريهم وسكان صحارهم ، التى لا تدانىها
فى انكثرة ابل الغرب » (٥٢) . وهكذا يمكن القول ان تقدير ثروة الرجل
ومقدار عزه ، بما كان يملكه من قطعان الإبل والجمال ، حيث النص على أن
« المسال فيهم من المشاشية كثير غزير » (صورة الأرض ، ص ٩٧) . وفى
أهمية قطعان الإبل والجمال الاقتصادية السياسية كان لاخت تنبروتان ،
ملك صنهاجة المعاصر لابن حوقل ، والتى عرفت ببسارها ، ١٥ ألف
جمل (٥٣) . وهكذا ، كان الملك الصنهاجى يستطيع أن يصد غارة
استهدفتهم ، عن طريق أمر رعاة أخته الغنية بإثارة الإبل من الناحية التى
قصد منها العدو ، وانزالها نافرة من أعلى الشرف ، وهى مصوبة على الجيش
الغازى « فأتت على جميع من كان منهم مع ابلهم وسلاحهم ، دوسا لهم ،
ووطئا عليهم ، حتى استفاض جميع من بأودغست ومن يعد عنها من
أعدائهم ، أنه لم يعرف لواحد منهم حلية بوجه من الوجه » (٥٤) . وأغلب
الظن أن تنبروتان هذا ، هو الذى يعنيه صاحب الاستبصار عندما ينص
على أن صاحب أودغست فيما بين ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م و ٣٦٠ هـ / ٩٧١ م ، كان
صنهاجيا يدين له أزيد من عشرين ملكا من ملوك السودان ، وان امتداد
عمله كان مسيرة شهرين فى شهرين ، فى عمارة متصلة ، وانه كان يعتد
فى أكثر من ١٠٠.٠٠٠ (مائة ألف) نجيب ، لقلة الخيل فى تلك البلاد (٥٥).
وهكذا كانت قوام الآلة الحربية المرابطية هى الجمال ، حيث كان اجتياحهم
لمدينة سجلماسة على رئيسها مسعود بن واتودين المغراوى بـ ٣٠ ألف
جمل (٥٦) ، وذلك سنة ٤٤٥ هـ / ١٠٥٣ م (ما سبق ، ص ٥٠٦) .

(٥٢) صورة الأرض ، ص ٩٥ .

(٥٣) ابن حوقل ، ص ٩٨ - حيث كان لها ١٠٠ راع مع كل واحد منهم ١٥٠ جملا .

(٥٤) ابن حوقل ، ص ٩٩ - ٩٨ .

(٥٥) الاستبصار ، ص ٢١٦ ، وقارن ابن حوقل ، ص ٩٧ - حيث القول ان تنبروتان
كان يلى أمر صنهاجة مدة عشرين سنة . ولا ندرى ان كان ثمة علاقة بين العشرين سنة هنا
والعشرين ملكا فى الاستبصار .
(٥٦) البكرى ، ص ١٦٧ .

البساطة والقوة سمة التقاء والرفعة :

ومن المهم أيضا أن جماعات الملتصين من لمتونة ومسوفة في صحراواتهم .
أنهم كانوا لا يعرفون البر ولا التسعير ولا الدقيق ، وإن اقواتهم كانت
الابيان ، وفي بعض الأوقات اللحم ، الذي كان يطحن قديدا ، ويصب عليه
بعض السمن أو اللبن ، ومع ذلك فقد كان فيهم من الجلد والقوة ، ما ليس
لغيرهم . وفيهم من البسالة والجرأة والفروسية على الابل ، واللقفة في الجرى
والشدة ، والمعرفة بأوضاع البر وأشكاله ، والهداية فيه ، ما كان يثير
دهشة الرحالة في بلادهم والوافدين . فقد كان للرجل منهم من القسوة
ما يسمح بالركض مع فعل الجممل وهو نافر ، والقبض على كراع له يضرب به
الأرض ، وينحره كما ينحر عنزا أو جديا (٥٧) ، فكان الصحراء الجنوبية
كانت قد جمعت ، حينئذ ، بين البساطة والقوة ، سمة التقاء والرفعة .

وبذلك تكتمل خريطة المغرب حوالى منتصف القرن الخامس هـ / ١١ م ،
بأحوال صحراوات المغرب الأقصى السياسية والاقتصادية . والخلاصة انه
بينما كانت تنحل قوى فرسان صنهاجة الشيعة من بنى زيرى فى أفريقية
والمغرب الأوسط ، وكذلك قوة الزناتية المغراويين فى المغرب الأقصى .
ويتفرق ملكهم بين أمراء الطيسوائف من عرب وبربر ، كان بنو جلدتهم
الصنهاجيون السنة من الجمالة الملتصين ، من لمتونة ومسوفة وغيرهم فى
صحراوات المغرب الأقصى ، يأخذون على عاتقهم عملية الانقاذ — مما ظهرت
بشائره فى سبلماسة وفاس وتلمسان وسبتة وأغمات — وذلك بالقضاء على
الفتنة والطائفية ، وإعادة الوحدة الى البلاد تحت رايات دولتهم المرابطية —
وهو ما نرجو معالجته فى الجزء الرابع من الكتاب ، بمشيئة الله .

فهرس المصادر والمراجع المذكورة في الهوامش

- ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، طبعة لندن
المصورة ، بيروت ، ١٣٩٩/١٩٧٩ .
- ابن أبي ايشار ، المؤنس في تاريخ أفريقية
وتونس ، تحقيق محمد شمام ، تونس .
- ابن أبي ذؤف ، الأئيس الملتسرب يروض
القرطاس في أخبار المغرب وتاريخ مدينة
فاس ، ط - الرباط ، ١٩٧٣ .
- ابن بطوطة ، الرحلة ، تحقيق ، عبد المنصور
الكثاني ، بيروت ، ١٣٩٥/١٩٧٥ .
- ابن جبير ، الرحلة ، بيروت ، ١٣٩٩/١٩٧٩ .
- ابن حمادة (أبو عبد الله محمد انصهأجي) ،
أخبار ملوك بني عبيد ، تحقيق : جلول
أحمد البدوي ، الجزائر ، ١٩٨٤ .
- ابن حوقل ، صورة الأرض ، ط - بيروت
١٩٧٩ .
- ابن حيسان ، المقتبس ، ج ٥ ، نشر : ب .
شالينا - ف : كورينطي - م : صبح ،
المعهد الأسباني العربي للثقافة ، مدريد .
- ابن الخطيب ، الاعلام ، تحقيق مختار البمبادي
وابراهيم الكثاني ، الرباط .
- ابن خلدون ، المعبر ، ط - بولاق المسورة في
بيروت ، ٧ أجزاء - المقدمة ، تحقيق
على عبد الواحد .
- ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، تحقيق احسان
عباس ، بيروت .
- ابن وشيق ، انظر حسن .
- ابن عبادي ، البيان المغرب ، نشرة احسان
عباس ، بيروت في ع ٥ ح (نشرة كولاني
ويونغسال) .
- ابن غلبون ، التذكار ، تصحيح الطاهر
الزاوي ، طرابلس ، ١٩٦٧ .
- أحمد الثالث الأنصاري ، المنهل العسلب في
تاريخ طرابلس الغرب ، طرابلس .
- أحسان الهى ظهير ، الاسماعيلية : تاريخ
وعقائد ، الرياض ١٤٠٦/١٩٨٦ .
- آدام هنز ، الحضارة العربية في القرن الرابع
الهجرى ، ط - بيروت .
- أحمد (عزيز) ، صقلية الاسلامية ،
بالانجليزية ، أدبيه ، ١٩٧٥ .
- Ahmad, Aziz, History of Islamic
sicily.
- أحمد مختار البمبادي ، في تاريخ المغرب
والاندلس ، الاسكندرية .
- أندريس (هادي - روجيه) ، بلاد المغرب
(اليربر) الشرقية على عهد الزيريين ،
بالفرنسية ، باريس ، ١٩٦٢ .
- أندريس عماد الدين القرشي (الداعي) ، عبرن
الأخبار وقنون الآثار ، ج ٥ ، تحقيق :
فرحات الدشراوي ، تونس ، ١٩٧٩ .
- أرشيبالد لويس ، القوى البحرية والتجارية في
حوض المتوسط ، الترجمة العربية ،
القاهرة .

حسن بن رشيق القرواني ، جمع وتحقيق :
محمد المطري وبشير البكري ، تونس
١٩٨٦/١٤-٦

الدرجين ، كتاب طبقات الصائغ بالمغرب ،
تحقيق وطبع ، ابراهيم طلال ، المدينة
١٩٧٤/١٣٩٤ (٢ ج)

سعد زغلول عبد الحميد ، تاريخ المغرب
العربي ، ج ١ ، ج ٢ ، الاسكندرية ،
١٩٧٩

سعد زغلول عبد الحميد ، فترة حاسمة من
تاريخ المزم ، مرقف ليبيا فيما بين قيام
الفاطمين في افريقيا ونقلتهم الى مصر ،
مجلة كلية الآداب ، الجامعة الليبية ،
المجلد ١ ، ١٩٥٨

سعد زغلول عبد الحميد ، ابن خلدون مؤرخا ،
بحث في مجلة عالم الفكر الكويتية ،
المجلد ١٤ ، عدد ٢ ، ١٩٨٣

سعد زغلول عبد الحميد ، السيرة والفنون في
دولة الاسلام ، الاسكندرية ، ١٩٨٦

سعد زغلول عبد الحميد ، عزم العسبر
التدنية ، مجلة عالم الفكر الكويتية ،
المجلد ٨ ، العدد ١ ، ١٩٧٧

سليمان مصطفى زبيبي ، المسدية وصيرة
المنصورية ، المجلة الآسيوية (بالفرنسية)
المجلد ٢٤٤ ، ١٩٥٦

سهيل زكار ، اخبار القرامطة في الاحساء
والشمام واليمن والعراق ، دمشق ،
١٩٨٢/١٤-٢

السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المغرب
العربي الكبير

سيرة الأستاذ جعفر ، تحقيق محمسه كامل
حسني ، ومحمد عبد الهادي شميرة ،
القاهرة ، ١٩٥٤ ، والترجمة الفرنسية
لكانار (Canard)

الكستدر ليون ، المسدية ، بالفرنسية ،
١٩٦٨

أماري ، المكتبة العربية الصنلية ، ليزج ،
١٨٥٧ - Amari, Biblioteca Arabo-sicula.

البكري ، أبو عبيد عبد الله ، المسالك
والمالك ، نسخة بغداد المنورة عن
نشر دسلان (Deslanc) الجزائر
١٨٥٧

البيضاوي ، الفرق بين الفرق ، القاهرة

التجاني ، الرحلة ط ١٠٠ ، تونس ، ١٩٢٧
جمال الدين النسيال ، الوثائق الفاطمية ،
القاهرة ، ١٩٥٨

جوتييه ، ماضي شمال افريقية ، القرون
الفليلة ، باريس ١٩٤٢
Gautier, Le passé de l'Afrique du
Nord.

جورج هارسيه ، بلاد البربر والشرق الاسلامي
في العصر الوسيط ، باريس ، ١٩٤٦
G. Marçais, La Berberie et l'Orient
musulman au moyen-âge, Paris,
1946.

جول جاي ، ايطاليا الجنوبية والامبراطورية
البيزنطية ، باريس ، ١٩٠٤
Jules GAY, L'Italie Meridionale
et l'Empire Byzantin, Paris, 1904.

جولياني ، تاريخ شمال افريقية ، الترجمة
العربية بمعرفة محمد مزالي البشير بن
سلامة ، تونس ١٩٧٨/١٣٩٨

حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية ،
القاهرة ١٩٨١

الحبيب الفلي ، التأويل : أسسه ومعانيه في
المذهب الاسماعيلي (القاضي التمان) ،
تونس

حسن ابراهيم حسن ، المزم لدين الله

- صالح باجية ، الاباضية بالجريد في المصنوع
الاسلامية الاولى ، تونس ، ١٣٩٦ /
١٩٧٦ .
- صبح الاعشى ، انظر القلشندي .
الطاهر احمد الزاوي ، تاريخ الفتح العربي في
ليبيا ، القاهرة .
- عائلة علي المهد ، قيام الدولة الفاطمية ببلاط
المغرب ، القاهرة ، ١٩٨٠ .
- عبد الحليم عويس ، دولة بني حماد - القاهرة .
عبد المنعم ماجد ، المسجلات المستنصرية -
القاهرة .
- عصام سالم سيسايم ، التاريخ الاسلامي لجزر
البيمار ، جزر الاندلس الشنتية ، بيروت ،
١٩٨٤ .
- القرطاس ، انظر ابن ابي زرع .
- القلشندي ، صبح الاعشى ، النسخة المصورة
عن الطبعة الاميرية .
- قيتورنو ، أبو يزيد ، صاحب الحصار ، في
القرن العاشر ، بالفرنسية ، كرايس
تونسية ، ج ١ ، ١٩٥٣ .
- R. Le Tourneau, La révolte d'Abu
Yazid aux siécle, dans C.T.I, 1953
- قيتورنو ، حركة الموحدين في المغرب في
القرنين ١٢ ، ١٣ ، ترجمة أمين الطيبي
ليبيا - تونس ، ١٩٨٢ .
- ماسكراي (اميل) ، كتب اصول الزاب ،
بالفرنسية ، الجزائر ، ١٨٧٩ .
Masqueray (Emile), Livres des
Beni Mzab.
- ماسيه (هنري) ، الاسلام ، ترجمة بيج
شعبان ، منشورات عريقات ، بيروت .
- المالكي ، رياض النفوس ، تحقيق بشير
اليكوش ومحمد الطوي ، بيروت ، ١٩٨١ .
- الساودي ، الاسكام السلطانية ، بيروت ،
١٩٧٨ / ١٣٩٨ .
- ميالك محمد الخيل ، تاريخ الجزائر في القديم
والحديث ، تقديم وتصحيح محمد الخيل ،
الجزائر ، ١٩٧٦ / ١٣٩٦ .
- محمد عبد الهادي شعيرة ، المرابطون ، تاريخهم
السياسي ، القاهرة ، ١٩٦٩ .
- مجهول ، كتاب الاستبصار في عجائب الامصار ،
تحقيق سمسد زغلول عبد الحيد ،
الاسكندرية ، ١٩٥٨ .
- مجهول ، العيون والحسائق ، تحقيق نبيلة
عبد المنعم ، ط ١ ، النجف .
- محمد طالبي ، الامارة الاغلبية ، بالفرنسية ،
باريس ، ١٩٦٦ .
- محمد كامل حسين ، في ادب مصر الفاطمية .
محمد الرزوقي ، المهدية وشامرها تبين ،
تونس ، ١٩٨٠ .
- محمود اسماعيل ، المالكية والشيعة بانفريقية ،
المجلة التاريخية المصرية ، المجلد ٢٣ ،
١٩٧٦ .
- المسعودي ، مروج الذهب ، بيروت ، ١٤٠٣ /
١٩٨٢ .
- المقرئزي ، انماط الحنفا ، ج ١ ، تحقيق
جمال الدين الشيباني ، ج ٢ تحقيق محمد
حلمى محمد احمد ، القاهرة ، ١٣٩٠ -
١٩٧١ .
- المقرئزي ، اغانى الالة ، القاهرة .
- المقرئزي ، الحنط ، ط ١ ، بولاق ، طبعه
مصورة ، بيروت .
- موتيلينسكي ، كتب المذهب الاباضي ،

الفن ، إبراهيم شيوخ ، محمد اليعلاوي ،
تونس ، ١٩٧٨ .

النعمان ، دعائم الاسلام ، تحقيق أسف فيظي ،
القاهرة .

النعمان ، تأويل الدعائم (تربية المؤمنين) ،
نشر محمد حسن الأعظمي ، القاهرة ،
١٩٦٩ .

النويري ، نهضات الأرب ، تحقيق مصطفى
أبو سيف ، الرباط .

ياقوت ، معجم البلدان ، مطبعة السعادة ،
مصر ، ١٩٠٦ .

بالفرنسية ، الجزائر ، ١٨٨٥ .
Motylinski, les Livres de la sect
abadite.

موسى كفيال ، دور كتابة في تاريخ الخلافة
الفاطمية ، منذ تأسيسها الى منتصف
القرن العاشر هـ / م ، الجزائر ،
١٩٧٩ .

النعمان بن محمد (القاضي) ، كتاب افتتاح
الدعوة ، تحقيق فرحات الدشراوي ،
تونس ، ١٩٧٥ .

النعمان بن محمد (القاضي النعمان) ، كتاب
المجالس والمسايرات ، تحقيق المصطفى

اسماء الأشخاص والقبائل والجماعات

الأترال : ٤٤٨ ، ٤٧١ ، ٧٧ ، ٤٧٢ ، ٤٧٣

الائنة عشرية : ١٢٦

الانيج : ٤١٨ ، ٤٢٦ ، ٤٣٨ ، ٤٥٠ ، ٤٥٦ ، ٤٥٩ ، ٤٦١ ، ٤٥٤ ، ٢٤

ابن الأنسوس : ٣٠ ، ٤٦ ، ٤٩ ، ١٠٠

١٢٦ ، ١٢٩ ، ١٥٣ ، ١٥٧ ، ١٦٦

١٧٤ ، ١٨٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣

٢٥٩ ، ٢٦٣ ، ٢٧١ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥

٢٧٦ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨

٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥

٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠

٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥

٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٠

٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥

٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٠

٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥

٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠

٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥

٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠

٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥

٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠

٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥

٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠

٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥

٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠

٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥

٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠

٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥

٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠

٣٩١ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥

٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠

٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥

٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٠

٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤١٥

٤١٦ ، ٤١٧ ، ٤١٨ ، ٤١٩ ، ٤٢٠

٤٢١ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥

٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠

٤٣١ ، ٤٣٢ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥

٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠

(٢)

الائمة المساجد : ٢٤٥

الائمة العامة (السنة) : ١٤ ، ٤٠ ، ١٣٢

الائمة الفاطميون : ٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٨٢

الاباضية : ١٤ ، ١٧ (الراسلية) ، ٣٠

٣١ ، ٣٢ ، ٣٩ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ١٠٨

١١٢ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٨٧

٢٨٣ ، ٣٦٩

ابو ابراهيم (الادارسة) : ٦٠ (من كلمة)

٣٣٣

ابراهيم بن احمد (الاغلبين) : ١٣٧

١٧٢ ، ١٣٦ ، ١٧٦ ، ١٤١ ، ١٨٠

١٤٥ ، ١٩٣

ابراهيم (بن بلقين) : ٣٢٤ ، ٣٦٨ ، ٤٠٧

٤٠٨ ، ٤١٢

ابراهيم بن ابي سلاس : ١٧٦ ، ٤٣

ابراهيم شيوخ : ٤٩

ابراهيم طاي : ٣٠

ابراهيم بن غازي : ١٣٠

ابراهيم بن غالب المزاني : ٦١ ، ٨٢ ، ٩١

ابراهيم (ابو ابيس) بن محمد الشيباني

الشمسادي المعروف بالرياض : ٦١

١٣٨

ابراهيم بن محمد الصنهاجي : ٤٤٩ ، ٤٦٣

ابراهيم بن موسى بن ابي العافية : ٥٠١

ابراهيم بن يونس : (ابن الحساب) : ١٣٩

- أحمد بن أبي الحسين بن رباح : ١٤٥ ، ١٤٦ .
 أحمد بن أبي خنيزر : ٦٩ .
 أحمد بن الرحالي : ٢١٧ ، ٢١٦ .
 أحمد بن زياد (الفارسي) : ١٣٩ .
 أحمد بن زيادة الله بن قريش : ١٤٨ ، ١٤٧ ، ١٥٤ ، ١٥٩ ، ١٥٠ ، ١٤٩ ، ١٥٨ .
 أحمد بن سببرين الخنفي : ١٢٨ ، ١٣٠ ، ٢٤٩ هـ ٨٤ .
 أبو أحمد الشافعي : ٩٠ هـ ٧٢ .
 أحمد بن صالح (الفقيه) : ٧٧ ، ٧٩ .
 أحمد بن القاسم بن إدريس : ٩٠ هـ ٧٣ .
 أحمد بن المهدي (عبيد الله) : ٢٦ ، ١٠٨ هـ ١١٦ ، ١٦٣ هـ ٥ .
 أحمد بن ميمون (الهواري) : ٩١ ، ٢١٧ .
 أحمد (محمد) بن نصر (الباغاني) : ٧٣ ، ٧٤ .
 أحمد بن نصر بن زياد (المالكي) : ١٢٨ .
 أحمد الهواري : ١٨٣ هـ ٦٣ .
 أحمد بن يحيى بن طيبة (الخنفي) : ١٣٣ .
 أحمد بن يحيى (القاسي) : ١٧٧ هـ ٤٨ .
 أحمد بن يعلى : ٢١٥ .
 أحمد بن (الأكم) بن يوسف بن عبد الله : ٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩٠ ، ٤٩١ .
 أحمد بن الطليل (الشاعر) : ٨٥ هـ ٦١ .
 الأختيد (أبو الحسن علي) : ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٩ هـ ٨٤ .
 ابن الأخوة (أبو القاسم) وكيل ابن إدريس بصر : ٤٢١ هـ ١٧ .
 الأدرسة (بنو إدريس) : ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٨٢ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ هـ ٧٢ ، ١٠٢ ، ١٠٤ هـ ١٠٢ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٤ هـ ١٢٣ ، ١١٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٩ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٤٦ ، ٢٥٦ ، ٢٨٥ ، ٣٤٤ ، ٣٥٩ ، ٣٩١ هـ ٥٠٠ ، ٥٠١ ، ٥٠٦ ، ٥١١ .
 إدريس (الراعي) : ٢٦ ، ٢٩ ، ٣٢ ، ٦٠ هـ ٧٨ ، ٨٢ ، ١٢٤ هـ ٢٠٤ .
 إدريس بن إبراهيم : ٣٥ ، ١٦٨ .
 إدريس بن سعيد (بنكور) : ٨٤ هـ ٦٠ .
 إدريس بن صالح : ٨٤ هـ ٦٠ .
 إدريس (أبو الفيش) بن عمر : ٢١٢ هـ ٥٣ .
 إدريس بن علي بن حمود : ٥٠٧ .
 إدريس بن يحيى : ٥٠٨ .
 الإدريسي : ٤١٣ ، ٤٩٥ .
 آدم : ٢٨٤ .
 أرجر (رومان) : ٤٨٩ .
 الأرمين : ٢٧٢ ، ٤٧١ هـ ٧٧ .
 ابن أروى : ٤٨ .
 الاستيصار : ٤١٣ ، ٥١٧ .
 اسحق بن خليفة : ١٠٥ ، ١٧٦ هـ ٤٣ .
 اسحق بن أبي النبال : ١١٩ ، ١٤٦ هـ ١٨٨ ، ٦٥ هـ ١٣ .
 اسحق بن سليمان الإسرائيلي : ٢١٩ هـ ٦٤ .
 اسماعيل (من المرتقة) : ٤٧٩ .

١٠٢ ، ١٠٤ هـ ١٠٢ ، ١١٠ ، ١١٥ ر
١٤١ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ٢٠٨ ،
٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٦ ، ٢٢٤ ،
٢٢٥ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٣٤ ،
٢٣٦ ، ٢٣٩ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٢٥٥ ،
٢٥٦ ، ٢٦٩ ، ٢٨٥ ، ٢٨٩ ، ٢٩١ ،
٢٩٨ ، ٣٠٢ ، ٣٠٨ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ،
٣٤٠ ، ٣٤٢ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٥٩ ،
٣٦٥ ، ٣٦٧ ، ٣٨٦ ، ٣٩١ ، ٤٦٨ .

أم المعز (بن باديس) : ٤١٢ .

الانصار : ١٨٢ .

أبو الانصار بن عبد الله بن أبي عفي :
٢٠٩ ، ٢٢٦ .

أنجود ابن الأختيد : ٢٤٩ .

أوتو الثاني : ٤٨٠ ، ٤٨١ .

أوتو الثالث : ٤٨٧ .

أورستيز : ٤٨٨ .

أوستاتيوس (القائد البيزنطي) : ٤٥٠ هـ
١٩٧ ، ١٥٤ .

أوسه (قبيلة) : ٧٠ .

الأولياء : ١٧ ، ٧٢ ، ٨٢ ، ١٢٢ .

أوكيل : ٥١٣ .

أيوب بن تميم بن المعز : ٤٩٤ .

أيوب بن خيران الزويل (قائد أبي يزيد) :
١٧٧ هـ ٤٦ .

أيوب بن أبي يزيد : ٥٣ ، ٨٤ هـ ٦٦ .

أيوب بن يطولت : ٣٥٢ ، ٤٠٧ .

(ب)

اليسابوية : ٤٦٧ ، ٤٦٨ هـ ٦٢ ، ٤٩٢ ،
٤٩٧ .

إسماعيل بن أسباط : ٣٠٤ .

إسماعيل بن الزوري بن موسى بن أبو العافية :
٥٠٦ .

إسماعيل بن الطبري : ٦٥ .

إسماعيل (أبو أيوب) بن عبد الملك :
١٦٧ .

الإسماعيلية (والذهب) : ٣٧ ، ٣٩ ، ٧٠ ،
٨٤ ، ٩٣ ، ١٢٦ ، ١٣٠ .

إسجج : ٤١٩ هـ ٩ .

الاصوليون : ١٦ .

الاقصالية : ٢٦ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٤٨ ، ٦١ ،
٦٣ ، ٦٨ هـ ٢٩ ، ٧٤ ، ١٠٠ ، ١١٧ .

١٢١ هـ ١٢٣ ، ١٢٣ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ،
١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ .

١٤٢ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ، ٢٧١ ، ٢٨٥ ،
٢٨٧ ، ٢٩٢ ، ٢٩٦ ، ٣٠١ ، ٣٢٨ .

٤٩٧ .

أفتكين (التركي) : ٤٧١ .

الأفرنجية : ٢٥٦ .

الفرج البرغواني : ٤٢٩ .

الفرقيون (الفارقة) : ٢٦٠ ، ٢٦٦ ، ٢٧١ ،
٣٣٨ .

الفلج بن ناشب : ٢٥٢ ، ٢٧٩ .

الفلج بن هارون الملوس (القاضي) : ٦١ ،
٧٢ .

الأكراد : ٤٧١ هـ ٧٧ .

أماري : ١٥٤ ، ٢٧٣ .

الامام المعصوم : ١٣٥ ، ١٣٦ .

الأمويون : ٣٤ ، ٣٥ هـ ٤٠ ، ٣٦ ، ٣٧ ،
٥٤ ، ٦٢ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٣ ، ٩٦ .

- بغدا (المغني) : ١٤١ .
- البغدادي أنظر أبو جعفر وإبراهيم (أبو أنيس)
- وأبو الفضل .
- أبو بكر : ١٢٦ هـ ١٤٢ ، ١٧٨ ، ٣٨٢ هـ ٦ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤ .
- بكر (أبو عبد الرحمن) بن حماد بن سببر (القسافر) .
- (الزناني) : ١٣٧ ، ١٤٠ ، ٢١٤ هـ ٥٤ ، ٥٦ .
- أبو بكر بن عمر (اللعنوني) : ٤٦١ هـ ٥١١ .
- أبو بكر بن عمر : ٤٢ ، ٤٨ .
- أبو بكر بن أبي الفتح : ٤٥٦ ، ٤٥٧ .
- أبو بكر بن القيسودي (الفيلسوف) : ٦٢ .
- البكري : ١٣ هـ ١٠ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٩ ، ١٠٤ ، ٢٠٢ ، ٢١١ ، ٣٨٨ ، ٤١٣ ، ٥٠٩ ، ٥١٠ ، ٥١٣ .
- بلارة (بنت تميم) : ٤٦٣ .
- بلكين (يوسف بن زيري) : ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٧٥ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٥ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٥ ، ٣٧٧ ، ٣٩٤ ، ٤٠٢ ، ٤٣٤ ، ٤٦٥ ، ٤٧٤ ، ٤٩٩ ، ٥٠٤ ، ٥٠٥ .
- بلكين بن محمد : ٤٣٦ ، ٤٣٨ ، ٤٥٣ هـ ٢٠٠ ، ٥٠٠ .
- بنونة بن قرة : ٤٩٩ .
- أبو البهار خلوف (كاتب ابن باديس) : ٢٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٩٢ ، ٤٠٤ .
- أبو البهار الصنهاجي : ٣٤٦ هـ ٦٤ ، ٣٥٢ هـ ٣٥٤ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ هـ ١٠٤ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ .
- بوداس سكليريس : ٤٧٩ هـ ٥ .
- البسوي بن موسى بن أبي الصافية : ١٦٧ هـ ٢١٢ ، ٤٨ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٧ .
- البولصيون : ٢٧٢ .
- البوني (أبو الحسن) : ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ .
- بنو بويه : ١٣٦ هـ ١٧١ .
- بيزنطة (الروم) : ٢٦٢ ، ٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٢٧٢ ، ٢٧٥ ، ٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ .
- البيسانيون : ٢٩٤ .
- (ت)
- تاتشال : ٥١٣ .
- تاج الدولة ، سيف الله ، أنظر جعفر بن يوسف بن عبد الله (بمقلية) .
- بان تبادلت أنظر عبد الله بن خزر .
- التجاني : ٤١٣ ، ٤٤٨ هـ ١٠ .
- تكين (وال مصر) : ٧٧ .
- تلسكاته (وتلسكاثيون) : ٣٩٤ ، ٣٩٨ ، ٤٠٧ .
- بنو تلويمان : ٤٣٨ .

جسائی (ج) : ١٥٤ ، ١٥٩ ، ٢٧٢ ، ٤٧٨ ،
٤٧٩ م ١ وم ٢ وم ٤ وم ٥ ، ٤٨٤

م ١٨ ، ٤٨٥ م ٢١ وم ٢٢ -

جیسارہ : ٤٢٤ -

جیر بن نماسب الکلی : ٦٧ -

جیلہ بن محمود الصرغی : ١٤٢ -

ابن جیر : ٤٨٢ ، ٤٨٢ م ١١ وم ١٢ -

جسدالہ : ٤٣ ، ٤٤ م ٤٦ ، ٤٥ ، ٤٦ ،
٥١٢ ، ٥١٣ -

جراجہ : ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ -

جراذہ : ٨٤ م ٦٠ ، ١١٢ ، ١١٣ م ١٢١ -

١١٤ ، ١١٥ ، ٢١٤ م ٥٦ ، ٢٨٦ ،
٢٩٨ -

الجربیون : ٤٧٧ -

الجرجانی (ابو القاسم) : ٥٠ ، ٣٩١ ،
٤٢٠ م ٢٦ -

الجرجنتیون : ٤٩٤ -

جریجوری (الیابا) : ٤٦٨ م ٦٢ ، ٤٩٧ -

ابن الجزارہ : ١٠٨ م ١١١ -

جزولہ : ٤٣ -

جستنیان : ١٩٤ -

جشم : ٤١٨ ، ٤١٩ م ٩ ، ٤٣٦ -

جعفر البرمکی : ٤٠٣ -

ابو جعفر الخزری : ٦٢ -

جعفر الصادق : ١٤ ، ١٧ م ٢٥ -

جعفر بن تمرث : ٣٠٣ -

جعفر بن حبیب : ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٦ ،
٣٥٢ -

تموصلت بن بکار : ٣١٨ ، ٣٥٥ -

تمیم بن زبیری بن یعلی بن محمد الیفرنی :
٥٠٢ ، ٥٠٣ -

تعمیم بن الحسن : ٤١ ، ٤٩ ، ٢٩٨ ، ٤١٦ ،
٤٢٦ ، ٤٣٧ ، ٤٤٢ م ٢ ، ٤٤٣ ،

٤٤٤ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٤٥١ م ١٤ ،
م ١٥ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٤٥٤ م ٢٣

م ٢٥ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ ،
م ٣٦ ، ٤٥٩ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٦٢ ،

٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ ،
٤٦٩ م ٦٧ م ٧١ ، ٤٧٠ ، ٤٧١ ،

م ٧٢ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤ م ٨٧ ،
٤٧٥ ، ٤٧٦ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨ م ٩٨ ،

٤٩٤ ، ٤٩٦ -

تمیم بن معنصر : ٥٠٥ -

تبروتان بن اسفیشہ : ٥١٢ ، ٥١٧ -

تورین (قلام ایوب بن یطوفت) : ٤٠٧ -

توزو : ٥٨ ، ١٧١ ، ١٧٣ -

ابن تومرت (محمد) : ٢٨٨ -

کیودورا : ١٩٤ -

(ث)

تعال بن صالح : ٤٢٠ -

تویان بن ابی سلاس : ١٨٤ م ٦٦ -

بنو ثود : ٤١٩ م ٩ -

(ج)

جابر بن الحسن بن ابی الحسن : ٤٨٠ ،
٤٨١ ، ٤٨٢ -

الجلازیة : ١٠ م ٤ ، ٥٩ ، ٤١٧ م ١ ،
٤١٨ ، ٤٢٤ -

جبان بلاطوس : ٢٦٨ -

٢٣٦ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ،
٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٤٠ ،

جيلة (قبيلة) : ٨٣ .

(ج) .

حاتر بن جمال الزياتي : ٧٨ .

اهل الحضرة : ٢٨٢ .

الحسائين : انظر أبو الحسن .

الحافظ : ٤٧١ م ٧٧ .

الحاكم بأمر الله : ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ،

٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ،

٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٥٥ ، ٣٨٠ ،

٣٨٧ ، ٤٢٤ م ٢٨ ، ٤٢٥ .

حامد بن حمدان الهمداني : ١٠٣ ، ١٠٤ ،

١٠٥ .

حاميم (أبو محمد) : إن من الله : ٢١٠ ،

٢١١ ، ٢٩٨ .

حياسة بن هاشم (ذيري) : ٣٦٦ .

حياسة بن يوسف (الملوس) : ٧٤ ، ٧٦ ،

٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ١١٨ .

حيوس بن ذيري : ٣٠٨ .

حيوس بن القاسم بن حمامة : ٤٠٧ ، ٤٠٨ .

حشو حيوس بن هاشم : ٣٦١ ، ٣٦٧ ،

١١١ م .

الحجازيون : ٤٧١ م ٧٧ .

الحجرام : انظر حسن بن محمد بن القاسم .

ابن الحداد : انظر سعيد .

ابن حزم : ٥٠٨ .

الحسن (السبيط) : ١٢٥ .

حسن إبراهيم حسن : ٤٧١ م ٧٧ ، ٤٧٣ ،

٧٩ م .

جعفر بن حمصانيون (الأندلسي) : ٥٣ ،
٣١٦ .

أبو جعفر بن خرون : ١١٩ ، ١٤٣ ، ١٤٤ .

جعفر بن عبيد (أبو حمص) : ١٠٦ ، ١٠٧ ،
١٥٧ ، ١٥٦ .

جعفر بن علي (الحلاجي) : ٦١ ، ١٥٧ ،
١٦٤ ، ٢٠٠ م ١٧ ، ٢٠٥ .

جعفر بن علي بن حمصانيون (الأندلسي) :
١٦٨ ، ٢٨٧ ، ١٩١ ، ٢٣١ ، ٢٥٤ ،

٢٥٥ ، ٢٥٩ ، ٢٧٥ ، ٢٨٨ ، ٣٠٠ ،
٣٤٤ .

جعفر بن محمد (المصديقي) :
١٦٦ ، ١٩٩ .

أبو جعفر محمد بن أحمد بن هارون البغدادي :
٦٢ ، ٧٥ ، ١٢٣ ، ١٢٤ م ١٦٥ .

١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٦٥ م ١٣ .

جعفر بن محمد بن أبي القاسم علي : ٤٨٣ .

جعفر بن منصور أليف (ابن حوتيب) :
٢٨ ، ٢١ ، ١٨٢ م ٥٩ ، ١٨٨ م ١٧ .

١٩٠ ، ١٩١ .

جعفر بن يوسف بن عبد الله : ٤٨٤ ، ٤٨٥ ،
٤٨٦ ، ٤٨٧ .

جلالة بن ذيري : ٣٦٠ ، ٣٦٥ .

جمال الدين الشيباني : ٧ م ١ .

الجنويون : ٤٩٤ .

جوزر : ٢٥ ، ٢٦٠ ، ٢٩١ ، ٢٨٨ م ٥٥ ،
١٩٦ م ٥٥ ، ١٩٧ م ٧ ، ٢٠٠ م ١٧ .

٢٠٥ م ٢٤ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٤ .

جوشن بن حميد البغدادي : ٤٠٥ .

جوهر الصقل : ٢٦١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ،
٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ .

• 78 • 757 • 1507 • 1858

حسن بن قيسم النواتي : ١٦٧ ، ٢١٢ -

الحسن بن عاكف بن: ١١٣ هـ ٦٢

حسن بن محمد بن القاسم بن ادريس (الحجام) ت.
۹۰ . ۹۱ م ۷۳ ، ۱۰۳ ، ۱۰۴ .

حسن بن هفروج (الفقيه) : ١٣٤ م ١٦٦ م .

أبو الحسن بن المنتصر : ٤٤٨

حسن بن منصور (مقدم بنجر هرات) : ۱۸۴-
 ۱۸۶ هـ

حسن بن حمزة (النداعي) انتقاله إلى الفهم *

الحسين (عليه السلام) : ١٢٥ ، ٢٨٤ .

حسین بن خلف، الموصوف : ۲۸۹ -

الحسين بن زكويه (صاحب القشامة) -
٥٨ هـ ٣٠

بنو أبي الحسن الكلبيين : ٢٦٨ ، ٢٧٧ ، ٢٨١

حسین بن عساکر : ۲۷۴ ، ۲۷۳ -

حسین (ع) ابو جعفر (ع) بن مہذب : ۲۲۲ •

ابو حفص : ۵۹۰ .

١٠٠٠

* (A : Z_q mod 1)

ابو حليفة (من جماعة المشايخ) : ٦٨

• 779 • 774 • 775 • 773 • 776

2 470 , 575 , 707 , 700 , 759

٢٣٧ ، ١٦٨ م ١١٢ ، ٢٨٩ ، ٤٠٥

2. 407, 440, 474, 508, 544

1994

حسن بن أحمد بن عبد الوهيد النسفي
(الوزير) : ٣٤٦ هـ ٦٤

أبو الحسن القليلاني ٢٨١ و ٢٧٦

الحسن ابن احمد بن ابو خنيزر : ٦٢ .
١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٦ ، ١٤٧ م ١٨٩ ،
١٤٨ م ١٩١ ، ١٤٩ م ١٩٣ ، ١٥٠ ،
٢٦٠ .

ابو الحسن بن ابی الفرج حله و ۳۸۳ و ۳۸۴ .
۳۹۲ .

حسن بن سرحیان : ۵۰ ، ۵۱ ، ۵۱۸ .
۵۱۹ .

الحسن المصطفى : ١٩٨٨

أبو الحسن طيب بن اسماعيل (الخاضع) :
٦١

أخس بن أبي العيش (الأنصاري) : ٣٦ ، ٣٧ ، ١١٠ هـ ٩٩ ، ١٠١ ، ١١٢ ، ١١٣ هـ ١٠٢ ، ١٠٤ هـ ١٢٣

الحسن بن علي (أبو علي مسكين البوسنة) :
٤٢٢

حسن بن علي (بن أبي الحسين الكلبي) :
 ١٧٧ هـ ٤٥ م ٤٦ ، ٢٢٩ ، ٢٥٦ ،
 ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ،
 ٢٧٢ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٨ ،
 - ٢٨٢

الحسن بن علي المستنصر : ٥٠٨ هـ

الحسن بن عيسى (بن ادريس) : ٢٨٤ هـ ، ٢٢٦ هـ .

الحسن بن فرج بن حوشب أنظر جعفر بن منصور اليه .

أبو الحسن القمي : ٧٧ -

حسن بن القاسم (جنون) : ٢١٣ م ٥٣ ،
٢١٤ م ٥٤ ، ٢١٥ م ٥٥ ، ٢٥٧ م ٥٦

- الذئابة (رؤيساء) : ١٢٩ ، ١٢٢ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٠ .
 دعبيل (الشاعر) : ١٢٧ ، ١٢٧ .
 أبو دحاني الكتامي : ٢٠٨ .
 أبو الدلاء (القائد) : ٧٩ .
 دلول (والي نكور) : ٨٦ .
 دوناس بن حمامة بن المزي بن عطية المزاوي : ٥٠٣ ، ٥٠٤ .
 ديباب (بن غانم) : ٥٠ ، ٤١٩ ، ٤٢٣ .
 ابن الدرية : ١٥٩ .
 الديصانية (أهل الباطن) : ١٢٠ ، ١٥٦ .
 الديلم : ٧٧ ، ٧٧ .
 ابن أبي دينار : ٢٥١ ، ٤٠١ .
 دواس (أبو حميد) بن صولات اللهيبي : ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ .
 (د)
 أبو ذم الغفاري : ١٢٧ ، ١٤٨ .
 ذو الفقار (سيف الرسول وعل) : ٢٦ ، ٢٩ .
 ١٢٦ ، ١٧١ ، ١٨٦ ، ٦٨ .
 (د)
 الراشون : ١٤٣ .
 الرافضة : ٢٨٢ ، ٢٨٢ ، ٢٨٥ .
 ربيعة الأندلس : ٥١٠ .
 ربيعة (عرب) : ٤١٨ ، ٦٠ .
 رجار : ٤٩٢ ، ٤٩٤ ، ٤٩٥ ، ٤٥٠ ، ٨١ .
 رجار الثاني : ٤٩٥ .
 ابن أبي الرجال انظر أبو الحسن .
 الرستميون : ١٧١ ، ٢٨٥ .
- ٢٨٩ ، ٢٩١ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٤٠٨ .
 ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٨ .
 ٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ .
 ٤٢٦ ، ٤٢٦ ، ٤٢٣ ، ٤٢٨ ، ٤٤٩ .
 ٤٥٥ ، ٤٦٨ ، ٤٧٧ ، ٤٩٩ ، ٥١٠ .
 ٥١١ ، ٥١٥ .
 الخلط : ٤٣٦ .
 خلف الحميري : ٣٤٩ .
 خلف بن خير : ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ .
 ٣٤١ .
 خلف بن معمر بن منصور : ١٢٢ .
 ابن خلسكان : ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٩٥ ، ٢٩٧ .
 خليفة بن ميساك : ٣٣٧ .
 خليفة بن وردا : ٣٥٦ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ .
 خليل بن اسحق : ٢٧ ، ٢٨ ، ٤٠ ، ٧٤ .
 ٨١ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٣٩ ، ١٧٦ .
 ٤٣ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ٤٨ ، ٢٠٧ .
 ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ١١٩ .
 ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ .
 ابن أبي خنيزر انظر الحسن وانظر حمير .
 خير المنصور : ٧٩ .
 الخوارج : ٢٧ ، ٣٠ ، ٣٤ .
 خير محمد بن خرد : ٢١٢ ، ٤٨ ، ٢٢٦ .
 ٢١٧ ، ٦١ ، ٢٢٥ ، ١٧٧ ، ٢٢٨ .
 (د)
 داود (النبي) : ٢٤ .
 بنو ديبوس : ٨٢ .
 بنو ديناغل (قبائل) : ٨٤ ، ٦٠ .
 دريد (بني الأفيج) : ٤١٩ .

زندانى (وائل طبرمين) : ٢٥٧ .
بنو زنداك (القراويون) .

زواجة : ٨٤ هـ ٦٠ ، ١١٣ ، ٥١٠ .
زواوة : ٢٩٠ ، ٤٠٨ .
زياد بن خلفون (التطيب) : ١٣٩ .
زياد بن عمار : ٥٠ ، ٤١٩ .

زيثب بنت اسحق : ٥١١ .

(س)

الساحل : ٩٤ ، ١٧٩ .

سالم بن راشد : ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٧ .
سالم بن راشد : ١٥٩ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ .
سالم بن راشد : ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٦ .

ابن السبابة : ٢٥٨ .

السبيعة : ٢٤٣ .

الست (ست الكل سلطنة اخت الحاكم) :
٣٢٢ ، ٣٨٠ .

سجنون : ١٢٢ ، ٣٧٩ .

السرذغوس (strategos) : ١٥٩ ، ٢٦٦ .

سعادة الله بن هارون : ٨٤ هـ ٦٠ .

أبو سعدي خليفة الزناتى (البقرى) :
١٣ هـ ١٠ (سعدة) ، ٥٠٠ ، ٤٣٨ .
٤٩٩ .

ابن سعدون : ٣٩ هـ ٤٢ ، ١٧٥ ، ١٧٨ .

ابن سعيد : ٤١٣ .

سعيد بن ادريس : ٨٤ هـ ٦٠ .

سعيد بن الحداد (الققيه) : ١٢٣ ، ١٣٤ .
١٤٢ .

سعيد بن خزرون الزناتى : ٣٣٥ ، ٣٤٧ .
٣٤٨ ، ٣٦٢ ، ٣٩٥ ، ٤٤٨ هـ ١٠ .
٤٩٨ .

زيادة الله (الأغلبى الآخر) : ١٨ ، ١١٧ .
١٢١ ، ١٣٢ ، ١٤٦ .

زيادة الله بن عبد الله بن القسيم : ٢٨٠ .
٢٨١ ، ٣٠١ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ .
٣٠٧ ، ٣٢٩ ، ٣٤١ ، ٣٧٠ ، ٤٠٢ .

زيان (أبو الفتح) الصقلى : ٢٧٧ .

زيد بن زيد : ٤١٩ .

زيدان (القتي) : ١٦٦ ، ٣١٨ ، ٣١٩ .

زيد العجاج بن فاضل : ٥٠ ، ٤١٩ هـ ٩ .

زيرى (ابن مئاد) : ١٨٨ هـ ٧٧ ، ١٨٩ .
٢٣١ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ .
٢٧٥ ، ٢٨٠ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ .
٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٨ .
٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠٣ ، ٣١٢ ، ٣٣٠ .
٣٣٨ ، ٣٤٠ ، ٣٥٤ ، ٣٥٩ ، ٣٦١ .
٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ هـ ١١١ ، ٣٩٤ .
٤٠٥ ، ٥٠١ ، ٥٠٥ .

الزيريون : ٢١١ ، ٢٣٦ ، ٢٣٩ ، ٢٥٣ .
٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩ ، ٢٩٧ .
٣١٠ ، ٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ .
٣٣٧ ، ٣٣٦ ، ٣٣١ ، ٣٣٠ ، ٣٣٧ .
٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤٥ ، ٣٥٥ .
٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٦٠ ، ٣٦٨ ، ٣٧٩ .
٣٨٤ ، ٤١٧ ، ٤٢١ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ .
٤٥٢ ، ٤٥٦ ، ٤٦٣ ، ٤٦٥ ، ٤٦٨ هـ .
٦٢ ، ٤٧١ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤ ، ٤٧٨ .
٤٨٩ ، ٤٩٠ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٤٩٥ .

- أبو سميد موسى بن أحمد (الشريف) :
١١٨ ، ١٣٩ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ٢٥٧
- بنو سعيد (ابن صالح بنكور) : ٨٦
- سعيد بن صالح الحميري : ٨٥ ، ٦٠ ، ٨٥ ، ٨٦
- سعيد بن يوسف : ٢٩٩
- سفياث : ٤٣٦
- سكن (الثالث البرنس نيكور) : ٨٤ ، ٦٠
- سكوت البرغواطى (الحاجب) : ٥٠٨ ، ٥٠٩
- سكيليتزسى : ١٥٤ ، ٢١١
- ابن السلار : ٣٨٥
- سلامة بن رزق : ٥٠ ، ٤١٩
- سلامة بن عيسى : ٣٧٦
- سلمان الفارسي : ١٢٧ ، ١٤٨
- ابن سلمة : ١٥٩
- سلوق (بن مسرة) : ٤١٩ ، ٩
- بنسو سليم : ٤١٧ ، ٤٢٢ ، ٤٣٦ ، ٤٥٤ ، ٢٥
- سليمان (سولومون) : ١٩٤
- سليمان بن خيران الزويل : ١٧٦ ، ٤٢
- سليمان بن كافي الجبل : ٧٧ ، ٨١
- سليمان المستعين : ٣٦٧
- سمقة : ٥١٢
- ستان بن ثابت بن قرة : ١١ ، ٧
- السنة : ٢٣ ، ٢٧ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ١٣١ ، ١٣٣ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٧٥ ، ١٧٤ ، ١٧٠ ، ١٤٥
- ٢٠٨ ، ٢٢٨ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٩ ، ٢٧٩ ، ٢٨٢ ، ٦ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٣٨٨ ، ٣٩٤ ، ٥١٨
- ستمار : ٦٠ ، ٧٩
- آل سهل : ٢٨٩
- سهيل بن نفيس (صاحب النقات) : ١٧٧ ، ٤٨
- المسعوديان : ٤٤ ، ١٣٥ ، ١٧٠ ، ١٨٧ ، ١٩٤ ، ٢٤٢ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣٣٦ ، ٣٤٢
- سيار بن عبد الوهاب : ١١٠
- ابن سيد بن الحنفى : انظر احمد
- (ش)
- الشافعية : ١٢٢ ، ١٦٠ ، ١٣٣
- الشاعر الله : انظر محمد بن الفتح
- شاهملك : ٤٧١ ، ٤٧٢ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤
- ابن شداد (الامير الصنهاجي) : ٥٠ ، ٤٩
- بنو شداد (من يقرن) : ١٩٠
- شرطة : ٥١٢
- ابن شرف : ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٦ ، ٤٦ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٤١٠ ، ٤١٦ ، ٤٢٧ ، ٤٠ ، ٤٣١ ، ٤٩٣
- الشرفاء : ٢٤٢
- الشرىف الباهرى : انظر على بن عيسى الله المولى
- الشرىف العلوى (رئيس الدعاة) : ١٢٦
- الشرىف الفهرى : ٤٥٨ ، ٣٦
- الشرىف هاشم : ٥١ ، ٤١٧ ، ١ ، ١١٨ ، ٤٢٥

ابن شعبان (القائل) : ٢٤٦ .

الشماعى : ٢٠ هـ ٣٧ .

شميع الصقلي : ٢٧٣ .

شواشي بن نبال : ٣٢١ .

شيخ الاشايخ : انظر مارون بن يونس .

الشبيعة : ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٤٠ ، ١٤٤ .

١٧٢ ، ١٧٨ ، ٢٠٨ ، ٢١٤ ، ٢١٧ .

٢٢٠ ، ٢٣١ ، ٢٤٧ ، ٢٥٠ ، ٢٨٨ .

٣٧٩ ، ٣٨٢ هـ ٦ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ .

٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ .

٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٢ ، ٣٩٤ ، ٤٢٢ .

٥١٠ ، ٥١٨ .

الشبيعة الزبدية : ١٤ هـ ١٧ .

(ص)

صابر الفتى : ١٢٠ ، ١٥٨ .

صاحب الخمار : انظر أبو يزيد .

صالحى (القائل الصقالى) : ٤٨٥ .

بنو صالح (بنكور) : ٨٤ هـ ٦٠ ، ٨٦ .

١١٠ هـ ١١٥ ، ١١٤ ، ١٦٧ ، ٢٠٩ .

٢٨٥ .

صالح بن شعيب بن صالح الجهمى : ٨٤ هـ .

٨٧ ، ٨٩ .

صالح بن طريف : ٢٤٠ .

صالح بن عيسى بن أبي الأفسار : ٣٤٤ .

الصدينى (القاضي) : ١٤٢ .

بنو صقر : ٤١٩ .

الصفريه : ١٠٨ هـ ١١٢ ، ١٦٩ ، ١٩٢ .

٢١٨ ، ٢٢٨ ، ٢٤٠ .

الصقالبة (الماليك) : ٢٨٦ ، ٣٦١ .

صلاح الدين (الأيوبي) : ٣٩٢ .

صلاح بن خبوس : ٢١٦ .

الصليبيون : ٤٧٥ .

صندل (الفتى) : ١٦٧ .

صنهاجة : ٤٤ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٥٤ ، ٨٤ .

٦٠ ، ١٠٧ ، ١٨١ ، ١٨٧ ، ٢١٧ .

٢٢٢ ، ٢٢٥ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٨٥ .

٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ .

٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٣٠٤ .

٣٠٨ ، ٣١٧ ، ٣٢٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ .

٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٥ ، ٣٤٧ ، ٣٥١ .

٣٥١ ، ٣٥٣ ، ٣٥٧ ، ٣٥٩ ، ٣٦١ .

٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٤ .

٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤١٤ .

٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ هـ ٣٠ ، ٤٢٥ .

٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣٢ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ .

٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٧ .

٤٤٨ هـ ٩ ، ٤٥٠ هـ ١١ ، ٤٥٢ .

٤٥٣ ، ٤٥٤ هـ ٢٤ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦ .

٤٥٨ ، ٤٥٩ ، ٤٦٢ ، ٤٧٢ ، ٤٩٥ .

٤٩٧ ، ٤٩٨ ، ٥٠٠ ، ٥٠١ ، ٥٠٥ .

٥١١ ، ٥١٢ ، ٥١٧ ، ٥١٨ .

الصفوية : ٥٤ .

صولات بن جندة : ٧١ .

(ش)

الشيف (موسى) : انظر أبو سعيد .

(ط)

أبو طار : ٢٥٨ .

ابن طائون : ١٦٥ ، ٢٧٧ .

بنو الطبرى : ٢٦٤ ، ٢٦٥ .

طرب (بن ملوك) : ٢٣٩ .

طريف (بن ملوك) : ٢٣٩ .

(ف)

الفاخر (الفاظي) : ٤٤٧ ، ٣٨٧ ، ٣٢٥ ، ٤٤٧

(ع)

عائذ بن أبي الغيث : ٤٣٦

عائذ بن عائذ أبي الغيث : ٤٣٦

العامة : ١٣٧ ، ٢٤٣ ، ٣٢٨ ، ٣٩٩ ، ٤٧١
- ٧٧ -

عامر (أخو الحسن بن أبي الغيث) : ١١٣

ابن عامر القراري : ١٤٠

ابن عامر (القائد) : ٣٤٦

أبو العاقبة : انظر محمد بن أبي أيوب

عباد بن صادق : ٢٩١ - ٩

عباد بن مروان (سيف الروثة وسيف الملك) :
٤١٢ ، ٤٠٥

أبو العباس أحمد المخطوم : ١٨ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ١٢٥ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ، ٢٤٥ -

العباس بن عبد المطلب : ٣٩٠

عباس بن منذر : ١٨٣ - ٦٣

العباسيون (والدولة) : ٨ - ٢ ، ٣٥ ، ٦٣ ، ٧٥ ، ٩٣ ، ١٤١ ، ١٤٨ ، ١٥١ ، ١٧٠ ، ٢٢٥ ، ٢٤٩ ، ٢٥٣ ، ٣٨٥ ، ٣٨٧ ، ٣٨٩ ، ٣٠٢ ، ٣٩٣ ، ٤٣٠ ، ٤٩٦ -

العباس بن يحيى بن يعلى : ٤٩٩

عبد الجبار الخراساني : ٢٨١

عبد الرحمن (أبو التماسم) بن أنيس بن
أبي علي بن الهادي : ٣٢٢

عبد الرحمن الداخل : ٨٠ -

عبد الرحمن بن رستم : ٣٣ -

عبد الرحمن بن أبي عيسا (النيسابوري) :
شنجويه : ٣٦٧ -

عبد الرحمن فهمي : ٧ - ١

عبد الرحمن الناصر (الأموي) : ٢٣ ، ٢٤ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٥٣ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ١١٠ ، ١١١ - ١١٦ ، ١١٢ ، ١١٨ ، ١١٤ ، ١٢١ ، ١١٥ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٩ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٩٢ ، ٢٠٦ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٢٩ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٣٩ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٧٥ ، ٢٨٠ ، ٢٩٨ ، ٣٤٠ ، ٣٩١ ، ٤٠١ -

العبد الصالح : انظر صالح بن سعيد صالح

عبد العزيز بن أبي كدية : ٢٢٣ - ٩٤

أبو عبد الله (النسائي) التميمي : ١٨ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٩ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٢١ ، ١٢٥ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٤ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٦ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٧٥ ، ٢٤٥ -

عبد الله بن إبراهيم بن موسى بن أبي العافية
(أبو عبد الرحمن) : ٥٠١ -

عبد الله بن أصبغ (الشاعر) : ١٨٦ - ٦٨

عبد الله بن يسكار : ١٨٦ ، ١٩٢ ، ٢١٦ ، ٢٢٧ -

عبد الله بن حسن : ٤٤٧ -

- عبد الله بن يونس : ٣١٢ ، ٣٣٦ ، ٣٤٧ ، ٣٥٩ .
- عبد الله بن بكين (حماد بن حوس بن مالك بن صاحب غرناطة) : ١٦٧ هـ ، ١١١ .
- عبد الله بن حماد : ٣٩٧ ، ٤٠٨ ، ٤٤٧ .
- عبد الله بن خزر : ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١٠٨ هـ ، ١١٢ ، ٢١٦ .
- عبد الله بن زياد (الكاتب) : ١٧٧ هـ ، ٤٨ .
- عبد الله بن سعد بن أبي سرح : ٤٣٠ .
- عبد الله بن سكرتيد : ٢٩١ هـ ، ٩ .
- عبد الله بن سلمان : ١٣٩ ، ١٤٠ .
- عبد الله بن صالح : ٨٤ هـ ، ٦٠ .
- عبد الله بن أبي عامر : ٣٦٤ .
- أبو عبد الله بن عبد الصمد : ٤٠٠ .
- عبد الله بن محمد العطار : ٤٤٧ ، ٤٥١ هـ ، ١٥ .
- عبد الله بن محمد بن أبي القاسم : ٤٨٣ .
- عبد الله بن محمد الكاتب : ٣٠٤ ، ٣٠٣ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٤٤ ، ٣٤٧ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٣٨٥ .
- عبد الله (بن أفلح لدين الله) : ٢٤٢ .
- عبد الله بن أفلح بن باديس : ٤٩٠ .
- عبد الله بن منكوت (منكوت) : ٤٦٦ ، ٤٦٨ هـ ، ٦٥ ، ٤٩١ ، ٤٩٣ .
- عبد الله بن ياسين : ١٠ هـ ، ٤ ، ٤٢ ، ٤٣ هـ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٥٤ ، ٥٠٦ .
- عبد الله بن يحيى بن إدريس : ١١١ ، ١١٢ هـ ، ١١٨ .
- عبد الله بن يونس : ٢٨١ .
- عبد الله بن نبال : ٣٢١ .
- عبد المجيد بن المستنصر : ٤٠ هـ ، ٤٢ .
- عبد الملك بن مروان : ١٤١ ، ٢٤٧ هـ ، ٨٠ .
- عبد الملك المظفر بن أبي عامر : ٣٦٤ هـ ، ١٠٧ ، ٣٦٧ ، ٤٩٨ .
- عبد مناف بن هلال : ٤٣٥ هـ ، ٣٠ .
- عبد المتعم ماجد : ٧ هـ ، ١ .
- بنو عبد الواد : ٤٩ ، ٤٩٩ .
- عبدوس المؤذن : ١٣٤ هـ ، ١٦٧ .
- عبدون بن حياصة : ٦٢ .
- عبد الله (الهندي) : ٩ هـ ، ٢ ، ١٠ هـ ، ٤ ، ١١ هـ ، ٦ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٤٠ هـ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ هـ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ هـ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٩ ، ٩١ ، ٩٢ هـ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ هـ ، ٩٦ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ هـ ، ١٢٦ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ هـ ، ١٣٤ ، ١٣٥ هـ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ هـ ، ١٤٠ ، ١٤١ هـ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ هـ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٩٢ ، ١٩٦ هـ ، ٥ .

- عقيل (بن المضر لدين الله) : ٢٤٢ .
 الملا، بن مغيث : ٨٠ م .
 أم العلو (بنت باديس) : ٣٨٠ ، ٣٩٧ ، ٤٤٧ .
 علي (ابن أبي طالب) : ٢٦ ، ٢٩ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ م ، ١٣٤ ، ١٤٨ ، ١٤٠ ، ١٤٣ ، ١٧٢ ، ١٨٩ م ، ٧٨ ، ٢٩١ .
 العلويون (العلوية) : ٨ م ، ٢ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٥٤ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٢٤٦ ، ٢٨٥ .
 علي بن أحمد بن أبي خثيرة : ١٤٦ .
 علي بن أحمد بن فرهب : ١٤٨ .
 علي (أبو الحسن) ابن الاخشيذ : ٢٤٩ .
 علي بن تميم بن المضر : ٤٩٤ .
 علي بن أبي الحسين : ٢٦٠ ، ٢٦٥ .
 علي بن حمود : ٥٠٦ ، ٥٠٧ .
 علي بن حمدون (الأندلسي) : ٥٣ ، ١٠٦ ، ١٦٨ ، ١٨٤ م ، ٦٦ .
 علي بن الحواسي : ٤٩٦ ، ٤٩٢ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ .
 أبو علي بن خلدون (انقره) : ٣٨٢ م ، ٦ .
 علي بن رزق : ٤١ ، ٤٩ .
 علي بن سلمان (الداعي) : ٨١ ، ١٠٤ .
 علي بن سليمان بن كافي : ١٠٥ م ، ١٠٣ .
 علي بن الطبري : ٢٦٥ .
 علي بن عبد الله العلوي (الداعي) : ٢١٧ .
 علي بن عبد الواحد : ٤٨ .
 علي بن عمر الهلوي : ١٤٧ .
 علي بن هبة الله التلخمي (العميلة الشاعر) :
 ٢٥٣ م ، ٧٦ .
 علي بن أبي الفوارس : ١٤٦ .
 علي بن لقمان : ١٠٣ .
 علي بن مجاهد : ٤٩٧ .
 علي بن محمد بن أبي العرب : ٣٢١ .
 علي بن مصالة : ١١٣ .
 علي بن يوسف : ٤٨٦ .
 أبو عمار الأعمى : النظر أبو عبيدة .
 ابن عمار (ابن أبي الحسين الكلبي) : انظر الحسين .
 عمار بن علي بن أبي الحسين الكلبي : ٢٦٩ .
 عمار بن ياسر : ١٢٧ م ، ١٤٩ .
 عمر : ١٢٦ م ، ١٤٢ ، ١٧٨ ، ٣٠٢ ، ٣٨٢ م ، ٩ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤ .
 عمر بن عبد العزيز : ٢٤٦ .
 عمر بن المضر بن تميم : ٤٧٤ م ، ٨٧ ، ٤٧٥ .
 (أبو دهمر) عمران بن أحمد بن عبد الله بن أبي معمر القناني : ١٢٢ ، ١٢٣ .
 ابن عمران : ٢٥٧ .
 عمران بن حكان : ١٤٠ .
 عمران بن أبي خالد بن أبي سالم : ١٢٣ م ، ١٣٩ .
 عمرة (بن أسد) : ٤١٩ م .
 عمرو (أبو الحكم) ابن عبد الله بن أبي عامر (عسقلانية) : ٢٤٦ م ، ٦٤ .
 عمرو بن سنان : ٤٤٨ .
 عوف : ٤٢٣ .

أبو القاسم بن عبد الواحد البغدادي : ٢٨٩
 هـ ٢٨ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ هـ ٢٣ ، ٤٢٠ .

أبو القاسم بن الحسين بن علي (المصنف) : ٢٨٩
 هـ ٢٨ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ هـ ٢٣ ، ٤٢٠ .

أبو القاسم بن حسين : ٣٢٢ هـ ٩٤ .

أبو القاسم بن علي المرادي : ٤٣٦ .

أبو القاسم بن حمود : ٥٠٦ ، ٥٠٧ هـ .

أبو القاسم بن ناهض : ٥٠ ، ٤١٩ .

أبو القاسم بن عباس : ٤٤٥ ، ٤٥٦ هـ ٣٢ .

أبو القاسم بن علي بن الحسن بن أبي الحسين : ١٨٩ هـ ٧٧ ، ١٩٠ ، ١٩١ هـ ٨٣ ، ١٩٢ .

أبو القاسم بن علي بن الحسن بن أبي الحسين : ٤٧٨ ، ٤٧٩ ، ٤٨٠ ، ٤٨١ ، ٤٨٣ هـ .

أبو القاسم بن علي بن الحسن بن أبي الحسين : ١٨٩ هـ ٧٧ ، ١٩٠ ، ١٩١ هـ ٨٣ ، ١٩٢ .

أبو القاسم بن محمد بن طلوس : ٢١٢ .

أبو القاسم بن محمد بن طلوس : ٢١٢ .

أبو القاسم بن محمد بن عبد الرحمن : ٥٠١ .

أبو القاسم بن محمد بن عبد الرحمن : ٥٠١ .

أبو القاسم بن محمد بن أبي العرب : ٣٢٠ .

أبو القاسم بن محمد بن أبي العرب : ٣٢٠ .

٤٣٩ ، ٤٠٤ .

٤٣٩ ، ٤٠٤ .

أبو القاسم بن محمد بن القاسم : ٥٠٨ .

أبو القاسم بن محمد بن القاسم : ٥٠٨ .

أبو القاسم بن القاسم بن القاسم : ٦٢ ، ٦٥ ، ٦٨ .

أبو القاسم بن القاسم بن القاسم : ٦٢ ، ٦٥ ، ٦٨ .

١٢١ ، ١٢٨ ، ١٢٩ .

١٢١ ، ١٢٨ ، ١٢٩ .

أبو القاسم بن محمد كنون : ٢١٣ .

أبو القاسم بن محمد كنون : ٢١٣ .

أبو القاسم (القاسم بن المهدي) : ٢٠ ، ٢٢ .

أبو القاسم (القاسم بن المهدي) : ٢٠ ، ٢٢ .

٢٢ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٢ .

٢٢ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٢ .

٤٠ هـ ٤٢ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٧١ ، ٧٣ .

٤٠ هـ ٤٢ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٧١ ، ٧٣ .

٧٤ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٩٢ .

٧٤ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٩٢ .

٩٦ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٥ .

٩٦ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٥ .

١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٥ .

١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٥ .

١١٩ ، ١٢١ ، ١٢٩ ، ١٣٣ ، ١٥٣ ، ١٥٩ .

١١٩ ، ١٢١ ، ١٢٩ ، ١٣٣ ، ١٥٣ ، ١٥٩ .

١٦١ ، ١٦٢ هـ ٣ ، ١٦٣ ، ١٦٤ .

١٦١ ، ١٦٢ هـ ٣ ، ١٦٣ ، ١٦٤ .

٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠ .

٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠ .

١٧٦ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ .

١٧٦ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ .

١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٩٢ ، ١٩٦ ، ١٩٧ .

١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٩٢ ، ١٩٦ ، ١٩٧ .

٢٠٠ هـ ١٧ ، ٢٠٤ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ .

٢٠٠ هـ ١٧ ، ٢٠٤ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ .

٢١٢ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٥ هـ ١٧ .

٢١٢ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٥ هـ ١٧ .

٢٤٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ .

٢٤٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ .

٢٦٢ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٦٥ .

٢٦٢ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٦٥ .

٢٩٦ ، ٣٣٤ ، ٣٤٠ ، ٣٤٦ ، ٤٦٩ .

٢٩٦ ، ٣٣٤ ، ٣٤٠ ، ٣٤٦ ، ٤٦٩ .

أبو القاسم بن يزيد : ٢٨٧ .

أبو القاسم بن إبراهيم : ٣٦ .

أبو القاسم بن إبراهيم بن بلونة : ٤٧٤ .

أبو القاسم بن إبراهيم بن بلونة : ٤٧٤ .

١٠٠ ، ٩٣ ، ٨٢ ، ٨٠ ، ٧٥ ، ٧٣
 ١٠١ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٨
 ١٢١ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٥١ ، ١٥٢
 ١٥٣ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨١
 ١٨٢ ، ١٨٤ ، ١٩٢ ، ١٩٤ ، ٢٠٦
 ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٢٣ ، ٢٢٢ ، ٢٥٠
 ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٧ ، ٢٦٥
 ٢٧٦ ، ٢٨١ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١
 ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣١١
 ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٨
 ٣٢٩ ، ٣٣٦ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤
 ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤٤ ، ٣٦١ ، ٣٧٣
 ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٨٦ ، ٣٩٤
 ٣٩٦ ، ٣٩٩ ، ٤٠٧
 كرامت بن منصور : ٣٧٨ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧
 أبو كسبة : ٢١١
 الكلامي (الحنفي) : ١٣٢
 كلاله (من يفرح) : ١٩٠
 الكلبيسون : ٤٧٨ ، ٤٨٥ ، ٤٨٧ ، ٤٨٩ ، ٤٩٦
 ابن كلثة (مقدم جربة) : ٣٩٩
 كمان بن معرني : ٢٩٩
 أبو الكمال : أنظر تميم بن زيري بن يمل بن
 محمد البغدادي
 بنو كملان : ١٠٦ ، ١٧٩ ، ١٨٢ ، ١٨٣
 ٦١ ، ١٨٨ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ١٩١ ، ٢٠٢ ، ٢٣١
 ابن الكوخي : ٢٦٣
 (ل)
 لاه (أسقف صقلية) : ١٥٧
 لقوط بن يوسف بن علي (الخزازي) : ٥١١
 لماية : ٧٢٠ ، ١٠٥ ، ١٠٨ ، ١١٢

اللمطانية : ٤٠٩
 قدام (الخادم الصقلي) : ٢٠٣
 ابن القديم : أنظر أبو القاسم : زيادة الله
 القرطبة : ٩ ، ٣ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٤٠ ، ٤٢
 ٥٨ ، ٣ ، ١٣٧ ، ١٣١ ، ٢٠٨ ، ٢٤٩ ، ٤١٧ ، ٤١٨
 بنو قرة : ٥٤٤ ، ٥٤٨ ، ١٠٠
 ابن القرين : أنظر محمد بن اسحق القرشي
 بنو قرة : ٣١٩ ، ٣٢٢ ، ٣٥٦ ، ٤٢٥
 ٣١ ، ٤٣٢
 ابن قزح : ٤٠ ، ١٣٠
 قسطنطين (السام) : ٢٤١ ، ٦٨ ، ٦٩
 قمبر (قبيلة) : ١٠٨
 القلقشندي : ٧
 أبو قمع : ١١٥
 ابن القمودي : أنظر أبو بكر
 القيسية : ٢٨٧
 قيصر (الصقلي) : ٢٢٣ ، ١٣٢
 (ك)
 كادو بن معاذ الماوطني : ٧٠٠ ، ٧٨٠ ، ٧٤٠
 كافور (أبو السك) : الاخشيدي : ٢٤٩ ، ٣٥٠
 كباب بن زيري : ٢٩٣ ، ٣٠٨ ، ٣٥٨
 كباب بن المغز بن باديس : ٤٠٢
 كيون : ١٧٥
 الكتامة (الكتاميون) : ١٩٠ ، ٢٣٠ ، ٢٤٠
 ٢٨ ، ٤١ ، ٥٨ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٨ ، ٧٩
 ٧٢

- محمد (الرسول) : ١٢٥ ، ٢٤٨ .
- محمد (الأخشيذ) : ١٦٦ .
- بشو محمد (الأدارسة) : ١١٠ ، ١١١ .
- م ١١٧ ، ١٦٦ ، ٢٠٩ ، ٢١٢ .
- ٢١٥ ، ٢٢٧ ، ٢٣٤ ، ٢٤٦ ، ٢٤٤ .
- محمد بن أحمد الطرزي : ٢٠٤ .
- محمد بن إدريس بن علي : ٥٠٧ ، ٥٠٨ .
- محمد بن إدريس (أبو أنفيس) بن عمر :
- ٢٦ ، ٢١٢ ، م ٥٣ .
- محمد بن أحمد (النعماني) : ١٤١ .
- م ١٨٠ .
- محمد بن أحمد بن فرحب : ١٤٩ ، ١٥٠ .
- محمد بن اسحق القرشي (ابن القزوين) :
- ٧٣ ، ٧٤ .
- محمد بن أبي أيوب (أبو العساة) :
- ٧٥ .
- محمد بن البديل : ١٢٨ ، م ١٤٩ .
- محمد بن إلياس : ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ .
- م ٣٦ .
- محمد تارشني : ٤٤ .
- محمد بن أبي ترصان التامساني : ٦٨ .
- م ٢٩ .
- محمد بن تومرت : ٨ ، م ٢ ، م ٣ .
- ١٦ م ٢٣ ، ٤٧٧ .
- محمد بن الشنة : ٤٩١ ، ٤٩٢ .
- محمد بن جنى : ٢٦٥ .
- محمد جواد : ١٥ ، م ٢٢ .
- محمد بن الحسن (وزير الخلف بن باديس) :
- ٢١٤ ، ٢٨١ ، ٣٨٤ ، ٣٦٢ ، ٤٠٢ .
- ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤١٢ ، ٤٤٥ ، ٤٤٧ .
- محمد بن حسن (قائد باديس) : ٢٥٢ .
- محمد بن حفص الفهم : ١٣٤ ، م ١٦٨ .
- محمد بن خرد (بن صيالات) : ٣٥ ، ٣٦ .
- ٣٨ ، ٥٠ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٩ ، ٩١ .
- ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ .
- ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١ ، م ١١٤ ، ١٦٣ .
- م ٥ ، ١٦٦ ، ١٧٢ ، ١٨٦ ، ١٨٧ .
- ١٩٠ ، م ٧٩ ، ١٩٢ ، ٢١٣ ، ٢١٦ .
- ٢١٧ ، م ٦١ ، ٢٢٥ ، م ١٧ ، ٢٢٦ .
- ٢٢٦ ، ٤٢٨ .
- محمد بن أخير بن محمد الفيراني : ٢٢٧ .
- م ٢٣ ، ٢٢٢ ، ٢٢٦ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤ .
- ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، م ١٠٥ ، ٢٠٠ .
- محمد بن خيرون : ١٣٥ ، م ٦٧٠ .
- محمد بن رماحس : ١٨٦ .
- محمد بن سحنون : ١٣٩ ، ٢٧٩ .
- محمد (أبو عبد الله) السدي : ١٤٤ .
- محمد بن السرقوس : ١٤٥ .
- محمد بن أبي سعيد الليل (صاحب السوق) :
- ٦٩ .
- محمد بن سلام بن سياد (البرقي) :
- ١٤١ .
- محمد الشيبانوي (الزاهد) : ١٣٤ .
- م ١٦٦ .
- محمد بن أبي عامر (المنصور والعامريون) :
- ٢٣٩ ، ٢٥٥ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٦ .
- م ٦٤ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ .
- ٣٦٥ ، ٣٦٧ ، ٤٠٤ ، ٤٣٩ ، ٤٩٨ .
- ٥٠١ ، ٥٠٧ .
- محمد بن العباس الهندي : ١٣٤ ، م ١٦٩ .
- محمد (الهندي) بن عبد الجبار : ٢٥٦ .
- ٤٤٥ ، م ٥ .

- محمد بن عبد الرحمن (الإمام الأندلسي) :
 ٨٤ هـ ، ٦٠ ، ٣٨٦ ، ٥٠١ .
 • محمد (أبو الفضل) بن عبد السلام :
 ١٤٦ .
 • محمد بن عبد العزيز : ٣٨٧ .
 • محمد بن عبد القادر بن خلف : ٣٣٥ .
 • محمد بن عبد القاهر بن خلف : ٣٧٦ .
 • محمد بن عبدون : ٢٦٥ .
 • محمد بن عبد الله (صاحب المقالم) :
 ٣٣٩ .
 • محمد بن عبد الله بن إبراهيم (آخر بني موسى بن أبي العافية) : ٢١٢ .
 • محمد بن عبد الله بن عيسى : ٢١٥ هـ ، ٥٤٤ .
 • محمد بن عبد الله بن مسعدة القرطبي :
 ١٣٨ هـ ، ١٧٥ .
 • محمد بن عبد الله بن هاشم (القاسي) :
 ٣١٦ .
 • محمد عبد الهادي شسيرة : ٤٤ هـ ، ٤٦ ، ٥١٢ .
 • محمد بن أبي العرب (الكاتب) : ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٦ ، ٣٢٨ .
 • محمد بن أبي العافية : ٣٢٩ ، ٣٤٩ ، ٣٥١ ، ٣٥٣ هـ ، ٣٧٩ ، ٣٧٦ ، ٤٠٢ .
 • محمد بن عمر (الكروزي) (القاسي) :
 ١١٩ هـ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٩ ، ١٣٣ .
 • محمد بن الفتح (ابن واسول) (التاشي) :
 ١٣٤ هـ ، ١٦٨ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٣ .
 • محمد بن عمران الكنفلي : ١١٩ .
 • محمد بن الفتح (ابن واسول) (التاشي) :
 ١٧٠ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٨ ، ٢٣٣ .
 • محمد بن موسى بن أبي العافية : ٦١ ، ٢٣٥ ، ٢٣٨ .
 • محمد بن القاسم : ٥٠٨ .
 • محمد كامل حسين : ٢٦ هـ ، ٣٦ .
 • محمد بن الأمير أبي الكمال تهيم : ٥٠٣ .
 • محمد بن محمد بن سحنون : ١٤٥ .
 • محمد بن محمود بن السسكاك : ٤٠٤ ، ٤١٢ .
 • أبو محمد العتر : ٣٤٢ .
 • محمد بن عيمون (من عبيد القلافة) :
 ٢٢٢ ، ٢٢٤ .
 • محمد (أحمد) بن نصر (البياغاني) :
 ٧٣ ، ٧٤ .
 • محمد بن هاني الأندلسي : ١٢٨ هـ ، ١٤٩ ، ١٣٦ ، ٢٥٢ ، ٢٨٤ .
 • محمد بن واسول : ٢٣٦ ، ٢٣٧ هـ ، ٦٠ ، ٢٣٨ .
 • محمد بن يصل (الكناس) : ٢٢٦ .
 • محمد اليعلاوي : ٢٥ هـ ، ٣٥ .
 • محمد بن يوسف الوداق : ٢٥٥ .
 • مختار بن القاسم : ٤٢٤ هـ ، ٢٨ .
 • مخلد بن كيداد : أنظر أبو يزيد .
 • أبو مخيير : أنظر زياد بن عامر (٤١٩) .
 • بنو مدرار : ٩١ ، ٢١٧ ، ٢٢٨ ، ٢٨٥ ، ٢٤٢ .
 • مدين بن موسى بن أبي العافية : ١١٤ هـ ، ١٢٣ ، ١١٥ ، ١٦٦ هـ ، ٢٧ ، ٢١٢ ، ٤٨ ، ٢١٦ ، ٢٣٣ .
 • أبو مدين بن فروخ النهيبي : ٨٠ ، ١١٨ .
 • أبو مدين كناوة النهيبي : ٧٤ .
 • مدين بن موسى بن أبي العافية : ٥٣ .

مؤلف الصقلي : ٢٢٢ .

الظفر بن عبد الملك بن أبي عاصم : ٢٥٤
 م ٢٣ ، ٥٠٢ ، ٥٠٥ .

الظفر بن علي (كاتب دمو بن مليل) :
 م ٤٥١ .

مناوية : ٨٨ .

محمّد بن خزر (أخو محمد) : ١٨٨
 م ٧٧ ، ١٨٦ ، ١٩٠ ، ١٦٢ ، ٢١٧ .
 م ٢٣١ .

المعسر بن محمد بن سباروا (قلدراري) :
 م ٩١ ، ١٦٩ ، ٢١٧ .

المعزلة : ١٣٥ ، ١٤٢ .

المعصم : ٤٧١ .

المعصم بن صالح : ٨٤ م ٦٠ .

المعسر بن باديس : ١٠ م ١٣ ، ١٠ .

م ٤١ ، ٥٠ ، ٤٩ ، ٦٩ ، ١٤٢ ، ٢٨٧ .

م ٢٩٥ ، ٣٠١ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٨ .

م ٣٣٩ ، ٣٦٥ ، ٣٦٧ م ١١١ ، ٣٧٨ .

م ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ م ٦ .

م ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ .

م ٣٨٩ ، ٣٨٨ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣ .

م ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨ .

م ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ .

م ٤٠٤ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩ .

م ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٥ ، ٤١٦ .

م ٤٢٠ ، ٤٢١ م ١٦ ، ٤٢٢ .

م ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ م ٣٤ ، ٤٢٦ .

م ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣١ .

م ٤٣٢ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ .

م ٤٣٩ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٧ .

م ٤٤٩ ، ٤٥٠ م ١١ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ .

م ٤٥٣ ، ٤٦٠ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦ .

م ٤٧٦ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩٠ ، ٤٩٣ .

م ٤٩٤ ، ٤٩٦ .

أم المعسر (ابن باديس) : ٤٠٢ .

المعسر كدين الله (الفاطمي) : ٢٠٠ ، ٢١ .

م ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٣٤ ، ٩٢ .

م ٧٥ ، ١٠١ ، ١٢٧ م ١٤٩ .

م ١٣٢ ، ١٣٦ ، ١٤٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ .

م ١٦٣ ، ١٦٨ ، ١٨٨ م ٧٦ ، ١٤١ .

م ١٩٦ م ٥ ، ١٩٧ م ٦ ، ١٩٩ .

م ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨ .

م ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ .

م ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ .

م ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ .

م ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٦ .

م ٢٣٧ م ٥٨ م ٥٩ م ٦٠ ، ٢٣٨ .

م ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ .

م ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ م ٧٩ م ٨٠ .

م ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ .

م ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٦٨ .

م ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٥ .

م ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ .

م ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ .

م ٢٩٢ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٤ ، ٣٠٦ .

م ٣٠٧ ، ٣٢٠ ، ٣٢٥ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ .

م ٣٣٥ ، ٣٣٨ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٥٨ .

م ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧٢ ، ٣٧٥ ، ٣٨٦ .

م ٤٧٤ ، ٤٧٨ ، ٥٠٤ .

المعز بن ذيري بن عطية : ٢٦٣ ، ٤٥٣ .

م ٤٥٤ م ٢٣ م ٢٤ ، ٤٩٨ ، ٥٠٣ .

م ٥٠٥ ، ٥٠٦ .

المعز بن محمد الصنهاجي : ٤٤٩ .

المعقل : ٤١٦ م ٩ ، ٤٣٦ .

المعصم بن محمّد (اللوس) : ١٠٥ .

م ١٠٣ .

أبو معلوم فجلون : ١٠١ .

معلي بن محمد اللوس : ١٢١ .

معنصر بن حماد بن معنصر ابن المعز بن ذيري

مؤنس بن يحيى المردى الرباحي : ٥٠ ، ٥١
 هـ ٥٠ ، ٤١٩ ، ٤٢٣ ، ٤٢٥ هـ ٣٤
 ٤٢٦ ، ٤٣٠ ، ٤٣٦

المؤيد بن عبد البديع بن صالح (صاحب)
 تكوير : ١١٤

المسائل : ٢٢

الموحسون : ٧ هـ ١ ، ٨ هـ ٢ ، ١٢
 ٣٣ ، ٣٨ ، ٤٢ ، ٢١٠ ، ٢٨٨
 ٢٨٩ ، ٤٧٧

مورجى : ٤٧٩ هـ ٤

موزالون : ١٥٤

موسى بن أبى العافية (الكتاسي) : ٣٧ ،
 ٣٨ ، ٥٣ ، ٨٧ ، ٨٨ هـ ٦٧ ، ٨٩ ،
 ٩٠ هـ ٧٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١١٠
 هـ ١١٥ ، ١١١ هـ ١١٦ ، ١١٢ ،
 ١١٣ هـ ١٢١ ، ١١٤ هـ ١٢٢ ، ١١٥ ،
 ١٣٧ هـ ١٧٢ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ،
 ١٦٩ ، ٢٠٩ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٨ ،
 ٢٢٣ ، ٢٦٨ ، ٥٠١

بنو موسى بن أبى العافية : ٥٠٦

موسى بن عبد الرحمن الودائى : ٧٦

موسى (أبو الأسود) بن عبد الرحمن
 ابن جندل « موسى القطان » : ١٣٩

موسى بن نصير : ١٣٩ ، ١٤١

موسى بن يحيى : ٥٠ ، ٤٤٩

الموصل (اسحق) : ١٤١

بنو مولا (من مكناسة) : ١٩٠

المولودون : ٢٨٦

المؤيد هشام : ٣٤٢

ميسرة المدفرى : ٢٤٠

٣٢٨ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩

٣٥١ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣

٣٦٤ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥

٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٨٥ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣

٤٠٥ ، ٤٠٨ ، ٤٢٩

منصور بن سنان : ٣٨

منصور بن عامر (غامسل القيروان) :

١٧٧ هـ ٤٨

المنصور بن أبى عامر : أنظر محمد بن أبى
 عامر

أبو منصور عيسى بن أبى الأنصار : ٢٠٩ ،
 ٢١٠ ، ٢٢٦ ، ٢٣٩

المنصور بن المعز بن باديس : ٤٣٧

المنصور بن الناصر بن غنداس : ٤٧٠ ،
 ٤٧٦

مقتد بن موسى بن أبى الصفاقية : ٢١٢
 هـ ٤٨

من الله بن الحسن بن أبى خنزير : ٨١

منهال بن موسى بن أبى العافية : ١٠٣

أبن أبى المنهال (القاضي) : أنظر اسحق

منياكس (جورج) : ٤٩٠

منيب بن سلمان المسكناسي (اداعى) :
 ١٣٦

المنير بن محمد بن خزر : ١١٠ هـ ١١٤

المهاجرون : ١٨٢

المهدى : أنظر عبيد الله

مهنى بن على : ٤٦٠ ، ٤٦٢

المؤذنون : ٢٤٥

مؤمن بن يومر الهواوى : ٥١٠

مؤنس (الحسام) : ٨٠

١٦٢ هـ : ١ ، ١٦٣ ، ١٧٤ ، ١٩٣ ،
١٩٦ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠٦ ،
هـ : ٢٧ ، ٢٢٠٠ هـ : ٣ ، ٢٢٤ ، ٢٣٢ ،
٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤١ ، ٢٤٤ ، ٢٤٨ .

نعيم بن كنون : ٤٤٥ .

نفوسة : ٨١ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ٢٨٣ .

نقفور فوكساس : ٢٤٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٥ هـ : ١٥٩ .

نقياس (البطريق) : ٢٧٢ ، ٢٧٣ .

النكار (التوادج) : ١٠٩ ، ١٧١ هـ : ١٧٢ ، ١٧٤ .

نمت (من يفرن) : ١٩٠ .

أبو النمر أحمد بن صالح : ٧٦ .

النوية : ٣٢٩ .

نوح : ٢٨٤ .

التورمانديون : ٤٦٨ هـ : ٦٢ ، ٤٧١ هـ : ٧٥ ،
٤٨٢ ، ٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٤٩٢ ، ٤٩٣ ،
٤٩٤ ، ٤٩٥ .

التوفل : ٨٧ ، ٩٠ هـ : ٧٢ .

التومان : ٢٢٨ .

النويري : ٣٠ ، ٤٦ ، ٢٩٣ ، ٢٩٧ ،
٣٠٠ ، ٣٠٤ ، ٣١٢ ، ٣٢٢ ، ٣٧٣ ،
٣٧٥ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٤٢٦ ، ٤٣١ ،
٤٥٢ ، ٤٦٩ .

(هـ)

أبو هارون الهوادي : ٧٢ .

هارون بن يونس الأرياني (شيخ المشايخ) :
٦٥ ، ٦٦ ، ١٣٤ .

هائسم بن جعفر : ٣٢٤ .

ميمسور (الفتي) : ٥٣ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ،
١٦٩ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٩ ، ١٩٢ ،
٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٦ ، ٢١٧ هـ : ٦١ .

ميشيل الرابع (الأميراطور) : ٤٨٩ .

ميمون بن الكرية : ٣٦٣ .

ميمون بن موسى : ٢٥٨ .

(ن)

أبن ناجي : ١٣٣ .

الناصر (عبد الرحمن) : ٥٠١ .

الناصر بن علفاس : ١٣ هـ : ٤٤٨ ،
٤٤٩ ، ٤٥٠ هـ : ١١ ، ٤٥٦ ، ٤٥٢ ،
٤٥٣ هـ : ٢٠ ، ٤٥٤ هـ : ٢٣ هـ : ٢٤ ،
٤٥٥ ، ٤٥٦ هـ : ٣٢ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ هـ :
٣٤ ، ٤٥٩ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٦٢ ،
٤٦٣ ، ٤٦٤ هـ : ٥٥ ، ٤٦٨ هـ : ٦٢ ،
٤٦٩ ، ٤٧٠ ، ٤٩٦ ، ٤٩٧ .

سافع بن الأزرق : ٣٣ .

النبي : ٥٨ .

نزار بن حماد المزاتي : ٧٨ .

نزار : أنظر المزير (الفاطمي) ابن المعز .

نزار بن المعز بن باديس : ٣٩٧ ، ٤٠٢ .

النصارى (المسيحيون) : ١٤٧ ، ١٥٢ ،
١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٦٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٦ .

نصير (الخازن) : ٢٧٨ .

أبو نثار الأسود : ٢٥٨ .

النفهان (بن محمد القاضي) : ١١ هـ :
١٣ ، ١٤ ، ١٧ هـ : ١٨ ، ١٩ ،
٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ،
٣٩ ، ٥٩ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٨٨ ،
١٠٢ ، ١٢٠ ، ١٢٤ ، ١٣١ ، ١٤٠ .

- واضح (الفتى) : ٣٦٤ هـ ١٠٧ .
 واصل بن عطاء : ١٤ هـ ١٧ .
 وانودين بن خزون : ٥٠٥ ، ٥٠٦ .
 الولثكايون (التلكايون) : ٣٤٩ ، ٣٥١ .
 وجاج بن زلوى : ٤٥ .
 بنو وجفال : ٢١٠ .
 بنو ورتندى : ٥٠٨ .
 ورزيفة : ١٦٧ .
 وروا بن خزون : ٤٩٨ .
 وروا بن سعيد : ٣١٩ ، ٣٢١ ، ٣٥٥ .
 ٣٥٦ ، ٤٤٥ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ هـ ٧ .
 الوليد بن عبد الملك : ٨٤ هـ ٦٠ .
 ابو الوهب بن عمر بن زارة الثوري : ٦٨ هـ ٢٩ .
 الرهيبية : ٣٤ .

(ي)

- اليازورى (ابو محمد الحسن بن علي) :
 ١٠ هـ ٤ ، ١٣ هـ ١٠ ، ٥٠ ، ٣٨٩ .
 ٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ هـ ١٦ ، ٤٢٢ .
 هـ ١٩ .
 ياقوت (الحموي) : ٩٩ .
 يانس المصقلبي : ٣١٨ ، ٣٥٥ .
 يحيى بن ابراهيم : ٤٤ هـ ٤٦ .
 يحيى بن ادريس (الادريسي) : ٨٧ ، ٨٨ هـ ٦٧ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٠ هـ ١١٢ .
 ١١٨ .
 يحيى بن تميم : ٤٧٩ ، ٤٧٢ ، ٤٧٣ .
 يحيى بن زكريا : ٥٨ هـ ٣ .

- بن هذيل : ١٢٥ هـ ١٤٢ ، ١٢٢ ، ١٣٤ هـ ١٦٦ ، ١٤٢ .
 بنو عرش : ٣٠٥ .
 هرقة : ٩ هـ ٢ .
 هشام المؤيد (خيفة قرطبة) : ٤٩٨ .
 ٥٠١ ، ٥٠٥ .
 ام هشام المؤيد : ٤٠٥ .
 هشام (المدي) : ٥٠٨ .
 الهلالية (بنو هلال) : ١٢ ، ١٣ هـ ١٠ ، ٤١ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ .
 ٥٢ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٧٩ ، ٣٨٨ .
 ٣٦٢ ، ٤٠٥ ، ٤١٧ هـ ٦ ، ٤١٨ .
 ٤١٩ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ٤٢٤ .
 ٤٢٥ ، ٤٢٧ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣٢ .
 ٤٣٣ (قرية) ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ .
 ٤٣٨ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٤ .
 ٤٤٨ هـ ١٠ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٤٥٢ .
 ٤٥٣ ، ٤٥٤ هـ ٢٣ ، ٤٥٦ ، ٤٦٢ .
 ٤٦٤ ، ٤٦٥ ، ٤٧١ ، ٤٧٥ ، ٤٧٧ .
 ٤٦٣ ، ٤٩٦ ، ٤٩٩ .

الهشيد : ٤٥٩ .

- هوارث : ٦٦ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ١٠٦ ، ١٠٧ .
 ١٠٨ هـ ١١٢ ، ١٨٢ ، ١٨٣ هـ ٦١ .
 ١٨٤ ، ١٨٨ هـ ٧٦ ، ٢٣١ ، ٢٩٩ .
 ٣٤٤ ، ٤٣٩ ، ٤٥١ ، ٤٦٠ .

(و)

- ابن واسول : ٢٢ هـ ٢٤ ، ٢٣ ، ٤٨ .
 واسول بن ميمون (القنصج) : ٩١ .
 ١٦٩ ، ٢٠٩ ، ٢١٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣٨ .
 بنو واسين : ١٧٥ ، ١٩٠ .
 بنو واسين : ٤٩٩ .

- يحيى بن علي (بن الأسدي) : ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٩ ، ٢٨٨ هـ ١٠ ، ٥٠٧ .
- يحيى بن عمر بن تلاجين : ٤٦ ، ٤٥ .
- يحيى بن المهدي (الكرمي) : ١١٦ .
- يحيى بن يعلى بن محمد : ٤٩٩ .
- يسدو بن يعلى بن محمد : ٢٢٢ .
- يثو يسدو بن يعلى : ٥٠٢ .
- أبو يزيد الزناتي (مخلد - صاحب الحمام) : ١٠ هـ ٥ ، ١٩ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٩ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٩٠ ، ٩٢ هـ ٧٥ ، ٩٩ ، ١٠٩ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ هـ ٤٩ ، ١٧٩ هـ ٥٠ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ هـ ٦٧ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ هـ ٧٧ ، ٧٨ ، ١٨٩ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٥ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ هـ ١٧ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ هـ ١٨ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٦ ، ٢٤٥ ، ٢٦٤ ، ٢٩٢ ، ٢٩٥ ، ٢٩٩ ، ٣٤٠ ، ٣٨٦ ، ٣٩٤ ، ٣٩٩ هـ ٤٦٩ .
- يزيد بن أبي يزيد : ١٧٣ .
- يصل بن حيوس : ١١٠ ، ١١٣ .
- بنو يصلان : ٨٤ هـ ٦٠ .
- بن يصلوس : ٢٧٠ .
- عطوفت بن بلكين : ٣٠٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٩ ، ٣٥٢ ، ٣٥٩ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ .
- ٣٦٨ ، ٣٧٢ ، ٣٧٧ .
- يعرب بن قعطان : ٢٩٣ .
- يعقوب بن اسحق (التميمي) : ٢٧ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ١٢٤ هـ ١٤٠ .
- يعقوب بن كلس : ٢٣٧ ، ٢١٢ .
- يعلان (جيلة ياديس) : ٣٤٩ هـ ٧١ .
- يعلى بن العباس بن يحيى : ٤٩٩ .
- يعلى بن فرج : ٢٢٢ .
- يعلى بن محمد (بن خزر) : ٢٣ ، ٢١٦ ، ٢١٧ هـ ٦١ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٦ ، ٢٣٩ ، ٤٩٩ .
- يثو يعلى : ٤٩٩ ، ٥١١ .
- يعيش (هولي الكلبين بصقلية) : ٢٧٦ ، ٤٧٤ .
- يثو يفرن : ١٩٠ ، ١٩١ ، ٢١٧ ، ٢٢٢ ، ٢٩٢ ، ٤٣٨ ، ٥٠٣ ، ٥٠٦ ، ٥١١ .
- اليمنية : ٢٨٧ .
- ينال التركي : ٣٢١ .
- اليهود : ٣٣٤ .
- يوسف بلكين بن زبيدي : انظر بلكين .
- يوسف بن تاشفين : ٤٨ ، ٢٨٨ ، ٣٦١ ، ١٦٧ هـ ١١١ ، ٤٧٧ ، ٤٩٩ ، ٥٠٠ ، ٥٠١ هـ ٥٠٩ ، ٥١١ .
- يوسف بن حمساد بن تميم بن زيسري : ٥٠٣ .
- يوسف بن عبد الله الكاتب : ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣٣١ ، ٣٣٧ ، ٣٥٩ ، ٣٧٣ .
- يوسف بن تيب الله بن محمد بن أبي القاسم : ٤٨٤ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧ .

- | | |
|---------------------------------------|------------------------------------|
| يوسف بن القاسم (عم المصنوع) : ٢٨٤ . | ٣١٦ ، ٣٢١ ، ٣٣٦ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، |
| يوسف بن محارب الأزدي : ٢١٢ . | ٣٧٦ . |
| يوسف بن محمد بن أبي العرب : ٣٢١ . | اليونان : انظر الروم . |
| يوسف بن أبي محمد : ٣١٤ ، ٣١٥ . | يونس (ابن أبي يزيد) : ١٨٨ م ٧٧ . |

الاماكن والمواضع

- (١)
- أذربيجان : ١٥٧ •
- أديوكيا : ٤٧٨ ، ٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩ •
- أنتسبا : ٤٩٠ •
- أجاجن (قبيل حجر التمر) : ٢١٤ م ٥٤ •
- أجاجة : ٦٧ ، ٨٢ •
- أجدانية : ٧٦ ، ٧٩ ، ٢٢٧ ، ٢٨١ ، ٢٨٣ •
- أجدة : ٣٠٧ ، ٣٠١ •
- أدرنت : ١٥٧ ، ٤٧٩ •
- أدنة : ١٨٨ م ١٧ •
- أذرح : ٨٨ •
- أوبا (مدينة) : ٨٣ •
- الآدريسى : ١٠٦ ، ١٧٥ ، ١٧٦ م ٤٢ •
- ١٨٤ ، ٢٠٧ ، ٤٦١ ، ٤٩٦ •
- أوتشنى : ٤٥ ، ٤٦ •
- أوتسقول : ٣٥ ، ١١١ م ١١٧ ، ١١٤ •
- ١٦٧ ، ١٦٩ ، ٢٠٩ ، ٢١٣ ، ٢١٤ •
- ٢١٥ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢١٤ ، ٤٩٨ •
- أسكلافيتك : ٢٦١ •
- أسكنموية : ٧٨ ، ٨١ ، ٨٤ م ٦٠ ، ٩٢ •
- ١٠٢ ، ١١٨ ، ١٢٧ ، ١٦٦ ، ٢٢٩ •
- ٢٤٠ ، ٢٥٣ ، ٢٨٤ ، ٣٢٢ ، ٣٨٥ •
- ٤٥٩ ، ٤٦٠ م ٤٢ •
- آسيا : ٤٧٩ م ٥ •
- آشيبيلية : ٢٥٥ •
- أشخ : ٢٣١ ، ٢٥٤ ، ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ •
- ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٨ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ •
- ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٤ ، ٣٢٣ ، ٣٣٠ •
- ٣٣٤ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ •
- ٣٤١ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ •
- ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ •
- ٣٦٠ ، ٣٦٢ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٨ •
- ٣٦٩ ، ٣٧٢ ، ٣٧٧ ، ٤٠٦ ، ٤١٣ •
- ٤٥٢ ، ٤٩٧ •
- أصيلة : ٩٠ ، ٢١٤ ، ٢٤٤ •
- الأصحنى (معركة) : ٤٢٧ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ •
- ٥٠ •
- أفغانة : ٤٧٩ •
- أفغانى : ١٢٠ ، ١٥٦ م ٢١٤ •
- أفغانات : ٥٠٩ ، ٥١٠ ، ٥١١ ، ٥١٨ •
- أفغانات إيلان : ٥٠٩ •
- أفغانات وريكة : ٥٠٩ •
- أفغنى : ٥١٠ •
- أفريقية : ٦٤ ، ٦٨ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٨١ •
- ٨٢ ، ١٠٢ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٢٨ •
- ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٥٥ ، ١٥٩ •
- ١٦٣ ، ١٨١ ، ١٨٥ ، ٢٠٦ ، ٢٢٤ •
- ٢٢٦ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ •
- ٢٤٣ ، ٢٤٨ ، ٢٥١ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ •
- ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ •
- ٢٦٨ ، ٢٧٣ ، ٢٧٥ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ •
- ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ •
- ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٢ ، ٢٩٥ •

- باب ابي الربيع (بالقروان) : ٣١٦ .
 باب سالم (بالقروان) : ١٥٠ .
 باب عجيسة (جيسة) : ٥٠٤ .
 باب الفتح (بالمهدية) : ١٨١ .
 باب القصر (بالنصورية) : ٣١٧ .
 باب قلشانة (بالقروان) : ٣١٧ .
 باب كياب : ٣٥٨ .
 باجة : ١٨٣ ، ١٧٧ ، ١٧٦ ، ١٧٤ ، ١٢٩ ، ٦٣ ، ٤٧٨ ، ٤٧٧ ، ١٨٤ .
 باري : ٣٦٦ ، ٤٧٩ ، ٤ ، ٤٨٥ .
 باغساية : ١٩٠ ، ١٨٤ ، ١٧٥ ، ١٠٦ ، ١٩١ ، ٣٢٧ ، ٣٠٦ ، ٢٩٩ ، ٢٥٤ ، ٢٢٨ ، ٣٥٢ ، ٤٠٧ .
 البراندانو : ٤٧٩ ، ٤ .
 بجانة (من الاندلس) : ١١١ ، ٨٦ ، ١١٧ ، ١٨٦ .
 بجاية : ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٢٦ ، ٢٣٦ ، ٢٧٨ ، ٤١٣ ، ٤٣٩ .
 البحر المحيط : ٢٩١ ، ٢٤٦ ، ٢٣٥ ، ٢٢٤ .
 برحمانه : ١٩٠ .
 برفجانة (حصن) : ٨٣ .
 برقة : ٥٠ ، ٥٨ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٢ ، ٩٢ ، ١١٨ ، ١٢٢ ، ١٥٩ ، ١٦٢ ، ١٦٦ ، ١٧٠ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٤٢ ، ٢٥٢ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨١ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٩٨ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥ .
 برقة النسم : ٣٨٣ ، ١٠ .
 بسكرة : ١٨٧ ، ٤٤٨ .
 بشري (الفتى) : ١٧٦ ، ٦٧٧ .
 البصرة (بالقرب) : ٦٠ ، ٧٢ ، ٢١٤ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٥١٠ .
 البصرة (العراق) : ٥١٥ .
 بغداد (واليفداديون) : ٥٧ ، ٥٨ ، ٣ ، ٧٦ ، ٨٠ ، ٩٣ ، ٩٧ ، ١٢٤ ، ١٤٠ ، ١٣٣ ، ١٤١ ، ١٨٠ ، ١٢٨ ، ١٤٩ ، ١٧٠ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ٢١٨ ، ٢٢٨ ، ٢٨٥ ، ٢٨٩ ، ٤١٧ ، ٤٧١ .
 بلاط حميد : ٢١٤ ، ٥٤ .
 بلوم : ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٧ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧٢ ، ٢٧٦ ، ٢٤١ ، ٤٥٩ ، ٤٦٨ ، ٦٢ ، ٤٧٩ ، ٤٨١ ، ٤٨٢ ، ٤٨٥ ، ٤٨٧ ، ٤٩٠ ، ٤٩١ ، ٤٩٤ .
 بيتانو : ٤٧٩ .
 بلزمة : ٤٠٨ ، ٣٥٢ .
 البلزمي (الجابي) : ١٥٨ .
 البلولك (قلقة) : ٣٥٧ .
 البليسة : ٣٠ .
 بندون : ١٢٢ .
 بنقشت : ٢٦٩ .
 بود جرج : ٢٢٦ .
 بونة (غلبة حالية) : ١٨٦ ، ٢٩٠ .
 البيت الحرام : ١٣٦ .
 بيرقشيل : ٤٥١ ، ٦٤ .
 بيزا : ٤٦٤ ، ٤٦٦ ، ٤٦٨ ، ٦٢ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠ ، ٤٧٦ ، ٤٧٩ ، ٤٨٥ ، ٤٨٥ .

الترابيين :

ترجا (وادي) : ٥١٥ .

ترموله : ١٢٠ ، ١٥٩ .

ترميلي : ٢٦٩ .

تسوك : ٨٧ ، ١١٥ ، ١٦٦ .

تطسوان : ٢١٠ ، ٢١٦ ، ٢٢٧ ،

٢٣٤ .

تقازي : ٥١٤ ، ٥١٥ ، ٥١٦ .

تقيوسي : ٣١ ، ١٠٩ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ٤٣٩ .

التل الغربية : ٢٩٥ .

تلمسان : ٤٦ ، ٥٠ ، ٨٢ ، ١١٤ ، ١٦٩ ،

٢٣٢ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ،

٣٦٣ هـ ١٠٤ ، ٣٦٤ ، ٤١٤ ، ٤٣٨ ،

٤٩٧ ، ٤٩٨ ، ٤٩٩ ، ٥٠٠ ، ٥٠٢ ،

٥١١ ، ٥١٨ .

تلمسان الجديدة : ٣٤١ .

تنس : ٦٤ ، ٦٥ هـ ١١٠ ، ١١٤ ، ١٨٦ ،

١٩٣ ، ٣٦٣ هـ ١٠٤ ، ٤١٤ ، ٥٠٣ .

تونس : ٩٤ ، ١٢٩ ، ١٤١ ، ١٧٤ ، ١٧٦ ،

١٧٧ ، ١٨٣ هـ ٦٣ ، ١٨٤ ، ٣٩٨ ،

٣٩٩ ، ٤٣٤ ، ٤٣٦ ، ٤٤٩ ، ٤٥١ ،

٤٥٢ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦ ،

٤٦٧ ، ٤٧٥ ، ٤٨٨ ، ٤٩٣ ، ٤٩٦ .

تيجسي (تيجساس) : ١٠٦ ، ١٨٤ ، ٢١٥ ،

٢٣٤ ، ٣٢٤ ، ٣٥٢ .

تيلرئيل : ٤٦ .

تيوفانو (الاميراطورة) : ٤٨١ .

(ج)

جالولا : ٢١٩ .

٤٩٧ ، ٤٩٥ .

البيضاء (المهدية) : ٩٢ .

(ت)

تادلا : ١٦٨ ، ١٧٠ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٥٠٢ ،

٥١١ .

تادمكة : ٥١٣ .

تاوودانت : ٥١٥ .

تازروت : ١٢١ .

تازة : ٨٧ ، ١٠٣ .

تالشميت : ١٠٨ هـ ١١٢ .

تادمكت : ٥١٠ .

تامرورت : ٥١٠ .

تامسنا : ١٦٨ ، ١٧٠ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ،

٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٤ ،

٣٤٥ ، ٥١١ .

تاصرت : ٢٩ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٦ ،

٩١ ، ٩٢ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ،

١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ،

١١٠ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١٣١ ،

١٧٩ ، ١٨٦ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٩ ،

٢٠٩ ، ٢١١ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ،

٢٢٥ هـ ١٧ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ،

٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٣٢ ، ٢٣٥ ، ٢٣٩ ، ٢٥٤ ،

٢٦٩ ، ٢٨٥ ، ٢٩٩ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ،

٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٤١ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ،

٣٤٩ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٦ ، ٣٦٢ ،

٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٤١٣ ، ٤٩٧ ،

٤٩٨ ، ٥١١ ، ٥١٥ .

تيسه : ١٧٥ .

تراقيا :

١٥٠ ، ١٥٢ ، ٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ،
٢٦١ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٩٥ ، ٢٩٥

جرجانتو : ١٥٤ ، ١٥٩

الجريد (بلاد - وقسطيلية) : ٢٠ ، ٢٠٩ ،
١٨٧ ، ١٧٠ ، ١٠٩ ، ١٠٥ ، ٦ ،
١٩٠ ، ٣٤٠ ، ٣٨٨ ، ٣٩٦ ، ٤٣٩ ،
٤٤٥ ، ٥١٥

الجزائر (جزائر بني مرغنة) : ٢٩١ ، ٢٩٠ ،
٢٩٢ ، ٢٩٥ ، ٤٥٨ ، ٤٩٧

الجزيرة (جزيرة ياشو) : ١٨٤

الجزيرة المحفورة : ٥٠٦ ، ٥٠٨

الحقنة (موضع قرب القروان) : ٢٩٧

جلايانا : ١٥٠

جلوا : ٤٧٨

جليقية : ٣٦٠ ، ٣٦١

جمعة (جزيرة) : ٩٤

جنوة : ٤٠ ، ١٥٩ ، ١٦٢ ، ٢٥٦ ، ٤٦٤ ،
٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠ ، ٤٧٦ ،
٤٩٥ ، ٤٩٧

جيجل : ٤١٣

الجيزة : ٢٥٣

(ح)

الحجاز : ٤١٧ ، ٤١٩

الحجر الأسود : ٢٠٨ ، ٢٤٩ (كالور)

حجر النسر : ١٠٤ ، ١١٠ ، ١١٥ ، ١١٤ ،
٢٣ ، ١١٥ ، ٢١٣ ، ٥٤ ، ٢١٤ ،
٢٤٦

الحرم الكلي : ١٠٠ ، ٩٥

حصن ماواس : ١٩٠ ، ١٩١

جامع عقبة (القروان) : ٣٥٣ ، ٣٨٩ ،
٣٩٠

جامع القسطنطين : ٤٠٠

جامع القروين : ٢٣٣

جايته : ١٥٤

جبال دون : ٥٠٩ ، ٥١٠ ، ٥١١

جبال عقار : ١٨٨ ، ٧٧

جبل اوراس : ٣٢ ، ٧٩ ، ٨٢ ، ١٠١ ،
١٦٨ ، ١٧٣ ، ١٧٥ ، ١٨١ ، ١٨٢ ،
١٨٣ ، ٦١ ، ١٨٧ ، ١٩٠ ، ٢٣١ ،
٢٣٢ ، ٢٦٩ ، ٢٩٩ ، ٣٠٥ ، ٣٢٨ ،
٣٤٠ ، ٣٦٥

جبل برزال : ١٨٧

جبل تيطري : ٢٩٤

جبل الحديد : ٥١٥

جبل أبي الحسين : ٨٩

جبل الحشاش : ٣٥٣

جبل شتوق : ١٦٧

جبل كنانة : ٤١٣

جبل غزوان (قرب الطائف) : ٤١٧ ، ٤١٨

جبل مجاسة : ٢١١

جبل المقطم : ٣٨٠

جبل ميسون : ٤١٣

جبل ونشريس : ١٣٠ ، ٣٦٣

جرافينا : ٤٧٩ ، ٤

جربة : ٣٩٤ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤١٤ ، ٤٧٥ ،
٤٧٧

جرجنت : ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٤٩

(د)

- الرباط (رباط الفتح) : ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ،
٢٢٦ ، ٢١٠
رباط سوسة : ٩٤ ، ١١٧
رباط المنستير : ٩٤
رسالة : ٤٨٩
رشيد (مدينة) : ٢٥٣
الرسالة (شرق بغداد) : ٢٨٥

- وقادة : ١٨ ، ٥٨ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٧ ،
٦٨ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٧٨ ،
٨٠ ، ٨١ ، ٨٦ ، ٩٣ ، ٩٨ ، ١٠٠ ،
١٠١ ، ١١٧ ، ١٢١ ، ١٢٨ ، ١٣٢ ،
١٣٣ ، ١٣٩ ، ١٤٣ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ،
١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٩٦ ، ٢٠٢ ، ٢٨٤ ،
٣٠٧ ، ٣١٠ ، ٣١٦ ، ٣٣٠ ، ٣٥٤ ،
٣٦٦ ، ٣٧٢ ، ٤٠٦ ، ٤٣٥

- رمتسه (حصن) : ٣٦٨
رمطة : ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٩ ، ٤٩٠
الرملة : ١٢١
ريقة : ٤٤٨
الريف (بلاد) : ٨٢ ، ٩٠ ، ٧٢
ريو : ١٥٥ ، ١٥٩ ، ٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ،
٢٧٤ ، ٤٧٩ ، ٤٨٥ ، ٤٨٨

- الزواب (بلاد) : ٣٣ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٧٠ ،
٨٢ ، ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٠ ،
١٦٨ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٨١ ، ١٨٤ ،
١٨٦ ، ١٩٢ ، ١٩٨ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ،
٢٥٣ ، ٢٦٩ ، ٣٠٥ ، ٣٢٨ ، ٣٣٥ ،
٣٤٠ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ،
٣٦٥ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨

- حصن القصورة : ١١٢
الحفنة : ٢٩١
حطين : ٣٩٢
حلب : ٢٣٦ ، ٤٢٠
الحنية (القليم) : ٧٩
حيدران (معركة) : ٤٢٧ ، ٤٢٩ ، ٤٣١ ،
٤٣٢ ، ٤٤١

(ح)

- الحالصة : ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥

(ز)

- دار (الدعوة) الاسماعيلية (بالقيروان) :
٣٩٠
دار القائد جوهر : ٣٦٤ ، ٣٣١
وجلة : ٣٨٥
حرب الممل : ٣٨٣ ، ٣٨٦
الدرجيني : ٣٠ ، ٣١ ، ٣٨ ، ٣٢
درعة (وادي) : ٤٦ ، ٢٣٥ ، ٤٦١ ، ٥١١ ،
٥١٥ ، ٥١٦
دكمة : ٤٠٨
دعر : ٤٤٥
دمتش : ١٤٧

- دير سانت كاترين : ٧ ، ١
دمشق : ٥٨ ، ٣ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٢٨٧

(ذ)

- ذات الحمام : ١٠٢ ، ١٠٩

- ٤٤٨ . ٤٩٩ .
 زويلة (مدينة) : ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ٢٥١ ، ٤٣٧ ، ٤٦٤ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٩٤ .
 (س)
 سالفينو : ١٥٤ ، ١٥٨ ، ٢٦٩ ، ٤٦٨ م
 ٦٢ -
 سامرا : ٩٣ ، ٤٧١ -
 سبيكة : ١١٠ م ١١٥ ، ١١١ م ١١٦ ، ١١٢ م ١١٨ ، ١٦٦ ، ١٧٠ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٥٦ ، ٢٧٧ ، ٢٨٥ ، ٢٤٠ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٤٥٤ م ٢٥ ، ٥٠٠ ، ٥٠٦ ، ٥٠٧ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩ ، ٥١١ ، ٥١٨ -
 سبيكة بنى معروف : ١٠٦ -
 سبيكة : ١٧٥ ، ١٦٤ ، ٤١٤ ، ٤٤١ ، ٤٥٤ م ٢٥ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٥٩ ، ٤٦١ ، ٤٩٦ -
 سبيطة : ١٩٠ -
 سجدلماسة : ١٠ م ٤ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٧ ، ٤٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٧٧ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٩١ ، ٩٢ ، ١٠١ ، ١١٧ ، ١١٨ م ١٢٩ ، ١١٦ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣٣ ، ١٣٨ ، ١٤٣ ، ١٤٦ ، ١٦٢ ، ١٦٩ ، ١٧١ ، ٢٠٩ ، ٢١١ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٥ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٥١ ، ٢٥٦ ، ٢٧٧ ، ٢٦١ ، ٤٠٥ ، ٥٠٦ ، ٥٠٩ ، ٥١٠ ، ٥١١ ، ٥١٥ -
 ٥١٦ ، ٥١٧ ، ٥١٨ .
 سون : ٧٦ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٣٠١ ، ٣٠٧ .
 سردانيسا : ٢٢٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ ، ٣٢٧ -
 سرقوسة : ٢٧٦ ، ٤٦١ -
 سلف : ١٠٦ ، ١٩٤ ، ٢١٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٤٦٨ م ٦٢ -
 بنو سعيد (موضع قرب مرابطة) : ٢٥٢ ، سفاقس : ٤٣٩ ، سلا : ٤٦ ، ٢٢٦ ، ٥٠٣ ، ٥١١ -
 سلقطة : ٤٥٠ -
 سلمية : ١٢٣ -
 السخائل : ٤٦ -
 السودان : ٥٠٩ ، ٥١١ ، ٥١٢ ، ٥١٣ ، ٥١٥ ، ٥١٧ -
 السوس (الأقصى) : ٩ م ٣ ، ١١٤ ، ٢٢٣ ، ٢٨٩ ، ٤٧٧ ، ٥٠٩ ، ٥١٠ ، ٥١١ ، ٥١٥ ، ٥١٦ -
 سوسة : ٩٣ ، ٩٤ ، ١٣٠ ، ١٤٢ ، ١٥٠ ، ١٧٧ ، ١٨٠ ، ١٨٢ م ٦٣ ، ١٨٥ ، ٢٣٠ ، ٢٧٨ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٤٣٦ ، ٤٤٩ ، ٤٥١ م ١٧ ، ٤٦٥ ، ٤٧٠ ، ٤٧٤ ، ٤٧٥ ، ٤٩١ ، ٤٩٦ -
 سوق ابراهيم : ٤١٤ -
 سوق حجرة (البويرة) : ١٠٧ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٤٠٨ ، ٤١٣ -
 سوق ماركسن : ٤١٤ -
 سبيكة : ١٧١ -

- القنسية : ٢٦٠ .
- قصر الافريسقى : ١٠٦ ، ٣٢٤ ، ٣٥٤ .
- ٣٦٦ .
- قصر البحر (برقلدة) : ٢٤٣ .
- القصر البحرى : ٦٧ .
- قصر الحجر : ٣١٢ .
- قصر حمونس : ١٩٠ .
- قصر الذهب : ٢٣٧ .
- قصر سائم : ٢٥٧ .
- قصر طيف : ١٩٤ .
- قصر الطوب : ١٣٠ ، ١٤٢ .
- القصر القديم (فى بنرم) : ٢٥٩ .
- قصر كمامة : ٣٤٣ .
- قصر الماء : ٣٢١ .
- قصر يانة : ٤٩١ ، ٤٩٢ ، ٤٩٤ ، ٤٩٥ .
- قفصة : ١٩٠ ، ٣١٤ ، ٣٢١ ، ٤٠٥ .
- قصور ملوية : ٥٠٦ .
- قطنانية : ٤٩١ ، ٤٩٢ .
- قفصة : ٤٤٥ .
- قلانة : ١١١ ، ١١٦ .
- القلشاني (الجايى) :
- القلعة (حماد - أبو طويل) : ٢٨٣ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ ، ٣٢٦ ، ٣٣٦ .
- ٣٣٩ ، ٣٦٥ ، ٣٦٩ ، ٣٧٨ ، ٤٠٧ .
- ٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٩ .
- ٤٣٦ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٤٥٠ ، ٤٦١ .
- ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٥٨ ، ٤٥٩ .
- ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٧٠ ، ٤٧٦ ، ٤٧٩ .
- ٤٨١ ، ٤٨٦ ، ٤٩٦ ، ٤٩٨ ، ٤٩٩ .
- قلعة ابلاطنوا (بلاطينة) : ٢٦١ .
- ٢٢٢ ، ٢٢٤ ، ٢٣٧ ، ٢٤٥ ، ٢٥٥ .
- ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٧١ .
- ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٤ .
- ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩٢ .
- ٢٩٣ ، ٢٩٩ ، ٤٠١ ، ٤١١ ، ٤١٧ .
- ٤٤٢ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ٤٤٥ ، ٤٦٥ .
- ٤٧٥ ، ٤٩٨ .
- القاسمية (بالقرون) : ٦٨ .
- القبائل الشرقية (منطقة) : ٢٦٥ ، ٤٠٩ .
- القبائل الصغرى : ٧٠ ، ٢٥١ ، ٢٩٠ .
- القبائل الكبرى : ٢٩٠ .
- قبلة القيروان : ٢٤٥ ، ٧٨ .
- قرطاجنة : ٩٤ .
- قرطبة : ٨٧ ، ١١٠ ، ١١٢ ، ١١٤ .
- ١١٥ ، ١٤١ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ .
- ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧٩ ، ١٨٦ ، ١٩٢ .
- ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ .
- ٥٣ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢٢٦ .
- ٢٢٧ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٣٩ ، ٢٥٥ .
- ٢٨٥ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٥٦ .
- ٢٦٠ ، ٢٦٢ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧ ، ٤٢٩ .
- ٤٤٢ ، ٥٠٦ ، ٥٠٧ ، ٥٠٨ .
- قرقة : ٤٧٥ .
- قسانة : ٢٦٦ .
- القسنطينية : ٢٦٠ ، ٢٦٢ ، ٢٦٧ .
- ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ .
- ٢٨٩ ، ٢٨٨ ، ٢٩٣ ، ٤٩٠ .
- قسنطينية (والجريد) : ٨٢ ، ١٦٨ .
- ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٧٥ ، ١٨٧ .
- ١٩٠ ، ٢٥٦ ، ٢٨٨ ، ٢٩٦ ، ٤٣٦ .
- ٤٤٥ ، ٥١٥ .
- قسنطينية : ١٧ ، ١٨٤ ، ٢٨١ ، ٣٢٤ .
- ٤٣٧ ، ٤٥٥ ، ٤٩٧ .

مالقة : ٨٤ ، ٨٦ ، ٢٥٥ ، ٣٩٩ ، ٥٠٧ ، ٥٠٨

ماوونت (بنو) : ٧٠

متيجة : ٣١٦ ، ٣٣٦ ، ٣٧٦

المجاجة الكبرى : ٥١٥

مجانة : ١٧٥ ، ٤١٤

مجردة (وادي) : ١٧٧

المعارس : ١١٩

المحمدية انظر المسيلة : ١٦٨

مدرسة الطرطوشي : ٣٨٥

المدينة : ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٣٦٣

مراكش : ٤٨ ، ٤٦١

المرسى (بيلوم) : ١٥٢

مرسى الخزد : ٢٢٠

مرسى الدار : ٨٤ ، ٦٠

مرسى البجاج : ٤٠٨

المرصدي (صاحب الخراج) : ٣٣٥ ، ٣٧٦

مرمجة : ٣٣ ، ١٧٥ ، ٣٥٢ ، ٤١٤

المسرية : ١١١ ، ١١٧ ، ١٨٦ ، ٢٢٩

٥٠٧ ، ٢٣٩ ، ٢٣٢

مستغانم : ٤١٣

مسيد اليس (قرب جرجنت) : ٢٥٨

المسيلة : ١٠٦ ، ١٦٨ ، ١٧٣ ، ١٨٧

١٨٨ ، ٧٧ ، ١٨٩ ، ١٩١ ، ١٩٢

١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٨ ، ٢٣١ ، ٢٥٤

٢٧٥ ، ٢٨٠ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢

٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٣٤٠ (المحمدية)

٣٥٢ ، ٣٦٦ ، ٤٠٨ ، ٤٥٤ ، ٢٦

٤٥٥

مركسة : ٤١٩

مرك : ٨٤ ، ٦٠

مركيت (افرطش) : ٢٢٨ ، ٢٤٠ ، ٢٤١

٢٤٢ ، ٢٧٨

مركاية (قبائل) : ٨٤ ، ٦٠

مركنته : ٤٧٨ ، ٤٨٥

المركبة : ٢٠٨ ، ٤٠٠

مركابيا : انظر قنورية

مركانيا : ٤٦٨ ، ٦٢

مركسيكا : ٢٢٨

مركفو : ٤٨٩

مركو : ١٧١

مركية : ١٠٦ ، ١٨٨ ، ٧٧ ، ٢٩٨

(ل)

لظره (حصن) : ٣٦٨

لكاي (مدينة) : ٩٠ ، ١٦٦

لظرة (مرسى) : ١٤٩

لومياديا : ١٥٤ ، ١٥٧ ، ٢٥٧

الليريا : ٤٨٩

ليون : ٣٦١

(م)

ماتيرا : ٤٨٤

مستور : ١٤٦ ، ٢٦٠ ، ٢٦٥ ، ٤٩١

٤٩٣

مناطة : ٤٨١ ، ٦

هرلك : ٨٤ م ٦٠ .	(د)
الهند : ٤١٣ .	نابولي : ١٥٤ ، ١٥٨ ، ٢٦٦ .
(ه)	ناسلت (موضع قرب نكور) : ٨٤ م ٦٠ .
وادي اغلان : ٣٥٣ .	نجيد : ٤١٧ .
وادي الشيطان : ١٤٧ .	نفسرة : ٨٤ م ٦٠ .
وادي فاس : ٥٠٩ .	نقراوة : ٧٩ ، ٨٢ ، ٣٠٣ ، ٣٢١ ، ٣٥٥ .
وادي القصارين (بالغيروان) : ٣١٣ .	٣٥٦ ، ٣٩٥ ، ٣٩٨ ، ٤٤٥ م ٦ .
٣٧٤ .	٥٥٥ .
وادي الطاحن : ١٠٣ .	نقطة : ٣٠ ، ٣٨٨ ، ٤٠٤ .
وادي وريكة : ٥٠٩ .	نفيس (مدينة) : ٥١٠ .
وار جلان (وينو) : ٥٨ ، ١٧٣ ، ٣٠٩ .	نكور : ٨٤ م ٦٠ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ .
٣٢٩ .	٨٩ ، ٩١ ، ١١٠ م ١١٥ ، ١١٤ .
وجبة : ٤٩٨ ، ٥٠٣ .	١٦٧ ، ٢٠٩ ، ٢١٥ ، ٤١٤ .
وعل : ١٦٨ .	نكور (نهس) : ٨٤ م ٦٠ ، ٨٦ .
وقعة الجباز : ٢٧٢ ، ٢٧٤ .	النوال : ١٧٣ .
ورجلة : ٥١٥ .	النوبة : ٤٣٠ .
ورزيفة : ٥١٠ .	نول لعة : ٥٦٦ .
وهران : ١١٠ م ١١٤ ، ٢١٧ ، ٢٢٧ .	نيكو ثيرا : ٤٩٤ .
٢٩١ ، ٣٦٣ م ١٠٤ .	النيسل : ٣٥٠ ، ٢٥٣ ، ٤١٩ ، ٤٢٢ .
(ي)	(ه)
اليمن : ٤١٣ ، ٤٤٣ ، ٤٥٩ .	الهبط (بلاد) : ٣٤٣ ، ٣٤٥ .
	هرقلية : ١٧٦ م ٤٦ .

رقم الايداع ٤٧٧٤ / ١٩٩٠

I.S.B. 1-977-03-0012-S

مطبعة اطلس

١١ ، ١٣ شارع سوق التوفيقية

تليفون : ٧٤٧٧٩٧ - القاهرة

To: www.al-mostafa.com